المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
كلية اللغة العربية
قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين

دراسة بلاغية تحليلية

رسالة مقدمة لقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي
لنيل درجة العالمية العالية (الدكتوراه)

* * *

إعداد الطالب

يوسف بن عبد الله بن محمد العليوي

* * *

إشراف

أ . د . محمد بن علي بن محمد الصامل

الأستاذ بقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي

* * *

العام الجامعي

١٤٢٨ - ١٤٢٩هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد،

فإن رعاية المتكلم في كلامه لمقتضى الحال دليل على بلاغته وحسن خطابه، وقديمًا وحديثًا جعل العلماء رعاية مقتضى الحال من المقاييس المهمة التي يقاس بها الكلام ليتبين مدى بلاغته، على قدر ما فيه من الرعاية أو عدمها، فجوهر البلاغة إنما هو في مطابقة الكلام لمقتضى الحال.

وقد بلغ القرآن الكريم الغاية في التأثير في النفوس؛ لكونه قد بلغ الغاية في رعاية مقتضى الحال.

وهكذا كان نبي الله r في كلامه، فقد كان مراعيًا للحال عمومًا، ولأحوال المخاطَبين خصوصًا، كيف لا، وهو أفصح العرب، وأبلغهم !، وهو يتعامل مع أناس مختلفي الأحوال، من حيث الدين، ومن حيث الجنس والعمر، ومن حيث البيئة، ومن حيث السلوك، ومن حيث الوجاهة والمنزلة، وغير ذلك من الأحوال التي -لا شك- سيكون لها أثر في تعبيره واختيار أساليبه، فهو الداعية الذي يحرص على هداية الخلق والتأثير فيهم.

لما لهذه القضية (رعاية حال المخاطب) من أهمية في بلاغة الرسول r ودعوته، فقد وفقني الله U لاختيارها موضوعًا لرسالة العالمية العالية (الدكتوراه)، بعنوان:

رعاية حال المخاطب في أحاديث الصحيحين: دراسة بلاغية تحليلية

ومما شجعني لاختيار الموضوع مع أهميته الأسباب الآتية:

١- منزلة البلاغة النبوية، وعلو شأنها، حيث كان النبي r أبلغ العرب، وأفصح من نطق بالضاد، وقد أبان عن ذلك العلماء باللغة وأفانينها، فهذا يونس بن حبيب (١٨٢هـ) قال: ((ما جاءنا عن أحد من روائع الكلام ما جاءنا عن رسول الله r))[١]،

---

(١) البيان والتبيين: ٢/١٨.

وقال الجاحظ (٢٥٥هـ): ((لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوى من كلامه r))[1]، وقال القاضي عياض (٥٤٤ هـ): ((وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان r في ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل، سلاسة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب؛ يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويباريها في منزع بلاغتها))[2].

٢- قلة الدراسات في البلاغة النبوية، مقارنة بالدراسات البلاغية القرآنية، والشعرية، فثمة حاجة إلى مزيد من الدراسات التي تكشف بعمق عن بلاغة النبي r التي تعد أرفع منزلة، وأعلى شأنًا من كل كلام بشري.

٣- ثمة دراسات بلاغية ونقدية عن الموضوع، في بلاغة القرآن الكريم، وفي مجال الشعر، إلا أن التطرق إليه في البلاغة النبوية إنما هو إشارات وإلماحات إليه عند من يتناول سمات البيان النبوي، و لم أجد دراسة علمية اختصت به.

٤- هذا الموضوع وأمثاله مما يوثق الصلة بين البلاغة وغيرها في مجالات الحياة، ولعل أكثر من يفيد من هذا الموضوع -عدا البلاغيين- الدعاة إلى الله U، فإن الداعية يبذل الجهد للتأثير في المخاطب، لغرس العقيدة والمعارف والقيم الممدوحة، ولتغيير العقيدة والأفكار والممارسات المذمومة، وهذا يتطلب منه معرفة حال المدعو، ليتعامل معه بالقدر الذي يناسبه وتقتضيه حاله.

وإذا كانت معرفة الحال تشمل جوانب المخاطب النفسية والاجتماعية واللغوية وغيرها؛ فإن هذه المعرفة بهذه الجوانب كلها ستظهر آثارها وتأثيراتها في نهاية الأمر في الخطاب اللغوي الذي تتفاوت إبانته على قدر رعايته لحال المخاطب.

وإذا كان النبي r قدوة للدعاة إلى الله في سلوكه ومنهاج دعوته، فإن من هذا المنهاج أن يراعى في الكلام مقتضى الحال، وهذا من بلاغته r .

---

(١) المصدر السابق: ٢/١٧.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى r : ٣٨٥.

٥- ما وجدته من الثناء على الموضوع، وبيان أهميته، حينما عرضت فكرته على جملة من الأساتذة الكرام من أعضاء القسم، ومن غيرهم ممن درسوا البلاغة النبوية، وكذلك بعض المتخصصين في الدعوة النبوية.

٦- وكان مجال البحث محدوداً بأحاديث الصحيحين لكونهما أصح الكتب الحديثية، ولما تحويه من المواقف الكثيرة التي تزيد على (٣٠٠) حديث متفق عليه، فضلاً عما انفرد به البخاري، أو انفرد به مسلم، وهذه الأحاديث يتبين فيها بجلاء رعاية البلاغة النبوية لحال المخاطب.

ويسعى البحث إلى تحقيق جملة من الأهداف، أهمها:

١- الكشف عن (رعاية مقتضى الحال) في خطاب النبي ﷺ، وأهمية ذلك في بلاغته.

٢- التعمق في دراسة البلاغة النبوية، وإبرازها، وإغناء الدراسات البلاغية فيها.

٣- إغناء البحث البلاغي عامة، حيث يتعلق الموضوع بقضية بلاغية مهمة -بل هي حقيقة البلاغة وجوهرها- في خطاب أبلغ البشر وأفصحهم.

٤- إفادة البلاغيين والدعاة والمربين وعامة المتحدثين والمحاضرين من منهاج النبي ﷺ في خطابه ودعوته.

ولم أجد دراسة علمية اختصت بدراسة هذا الموضوع من الناحية البلاغية، ولكن وقفت على بعض الدراسات التي تناولت البلاغة النبوية تشير إليه إشارات، وتلمح إليه إلماحات تؤكد أهمية الموضوع والتعمق في بحثه، وهذه الدراسات على ثلاثة أقسام:

أ- دراسات في البلاغة القرآنية.

ب- دراسات في الدعوة.

ت- دراسات في البلاغة النبوية.

أما الدراسات المتعلقة بالبلاغة القرآنية، فمما يتعلق منها بالموضوع رسالة العالمية (ماجستير) بعنوان: (مقتضى الحال في الأسلوب القرآني) للطلحاوي محمد عمر، تحدث في التمهيد عن أصالة مقتضى الحال في النقد العربي، وأشار إلى أن السنة النبوية زاخرة بأمثلة

شاهدة على تيقظ في مراعاة الأحوال، وضرب ثلاثة أمثلة، على مراعاة الأحوال، منها مثال واحد على مراعاة حال المخاطب[(١)].

وأما الدراسات الدعوية، فمما يتعلق منها بالموضوع كتاب (من صفات الداعية: مراعاة أحوال المخاطبين) للدكتور فضل إلهي، قسمه إلى أربعة مباحث، تناول في المبحث الثاني عناية النبي الكريم r بأحوال المخاطبين والاهتمام بمراعاتها في الدعوة إلى الله، ولم يعتن فيه بما يتعلق بالأساليب البلاغية، وإن كان ذكر فيه: تنويع النبي الكريم r في وصاياه الكريمة، وتنويع النبي الكريم r في الإجابة رغم اتحاد السؤال، ومراعاة النبي الكريم r أحوال الناس عند الإفتاء، وذكر فيه: إجابته r السائل بأكثر مما سأل، وذكر مثالين مما يسمى عند البلاغيين: الأسلوب الحكيم، وهذه جوانب لها تعلق بالموضوع من جهة بلاغية، وإن لم يتناولها الكتاب تناولاً بلاغياً صرفاً، والكتاب سيفاد منه عند الحديث عن عناية النبي r بمعرفة أحوال المخاطبين في المبحث الثاني من مباحث التمهيد.

وأما الدراسات المتعلقة بالبلاغة النبوية، فمما وقفت عليه منها:

١- (بلاغة الرسول) للدكتور علي محمد حسن العماري، وهو كتيب صغير الحجم، عظيم النفع، ومما تناوله فيه: سمات البلاغة النبوية، ومما ذكره من السمات: رعاية مقتضى الحال، فقال بعد أن تحدث عن السمة الأولى وهي معرفة النبي r بلغات العرب: ((وبسبيل من ذلك ما نتبينه في المواقف المختلفة من حرص الرسول حرصًا شديدًا على أن يخاطب كل إنسان على مقدار عقله، وعلى أن تكون ألفاظه ملائمة كل الملاءمة لمعانيه، وأن تكون معانيه متناسبة كل التناسب مع الغرض الذي سيقت له))[(٢)]، ثم ضرب أمثلة على ذلك مما يتعلق بحال المخاطب وغيره.

٢- (البيان النبوي) للدكتور محمد رجب البيومي، ولم يتحدث عن رعاية مقتضى الحال بحديث خاص، ولكنه أشار إليها إشارات في عدة مواضع، من ذلك حين تناول رسائل النبي r قال: ((إذا نظرنا لما بقي بين أيدينا من رسائله r ومعاهداته نجد أنه يتفق كل الاتفاق مع ما شاع من تعريف البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع

(١) مقتضى الحال في الأسلوب القرآني: ١٩-٢٠.

(٢) بلاغة الرسول: ٣٨.

فصاحته... إن الحرص الشديد لدى أبلغ البلغاء على مراعاة مقتضى الحال جعل رسائله نوعاً من الإبلاغ الرسمي، يسد الحاجة في دقة وإحكام، وهو بعد لا يغفل عقلية المرسل إليـــه، ولا اتجاهه الديني، ولا واقعه السياسي، وذلك ما لابد منه للكاتب الحصيف، الذي يتعمد إصابة الهدف في يقظة وإتقان))(١)، ثم ذكر ثلاث رسائل إلى ثلاثة مختلفي الأحوال، إلا أنه لم يربط بين اختلاف الأحوال وبناء الرسائل بناء بلاغيًا. كما اعتمد على هذه القضية حينما رد على الدكتور حسين نصار إنكاره فنية الكتابة في عهد النبي r ، فقال: ((وموضع النقد في كلام الدكتور أنه أغفل مقتضى الحال المتعارف عليه في كتابة الرسائل السياســـية والمعاهـــدات القانونية قديمًا وحديثًا حتى يومنا هذا، فإذا كانت كتب الرسول سريعة مملاة بلغة سهلة، لا يوشيها شيء من عمل أو جمال غير فصاحة الحديث عند العرب، فذلك مما يجب أن يحسب لها لا عليها في مثل موقفها الدقيق، ولا يمكن أن تخرج عن الكتابـــة الفنيـــة؛ لأن الفـــن في صميمه التزام بما تقتضيه الظروف والملابسات))(٢)، وأشار إليها حينما تحدث عن الأصـــل الرابع من أصول الدعوة وهو: الخبرة الصحيحة بالنفوس(٣).

٣- (من بلاغة الحديث الشريف) للدكتور عبد الفتاح لاشين، ويقوم على دراسة تسعة وعشرين حديثاً دراسة تحليلية، هدف منها إبراز بيان الرسول r ، وإيضاح جوامـــع كلمه، وقدم بين هذه الأحاديث مقدمات موجزة، تناول في صفحتين منها ما يتعلق بالبحث بعنوان: حكمته r في مواجهة المخاطبين، قال في أولها: ((كان الرسول u حريصًا على أن يخاطب كل قوم بل كل فرد على قدر حاله، وأن تكون ألفاظه ملائمة لمعانيه وأغراضه، حتى يبلغ كلامه مكانه من قلوب السامعين، وأن يصل التأثير شغاف القلوب، فيُقْبل ما يُراد قبوله، ويُتْرك ما يراد تركه))(٤)، وقد أفاد فيما ذكره من كتاب الدكتور علـــي العمـــاري، وفي تحليله للنصوص التي يتبين فيها حال المخاطب يشير أحياناً إلى رعاية النبي في أسلوبه r لحال المخاطب، وإن كان كثير مما اختاره من النصوص الخطاب فيها عام، لا يتبين فيها حال المخاطب، وقد تتبين فيها أحوال أخرى.

---

(١) البيان النبوي: ١١٢-١١٣.

(٢) المصدر السابق: ١٢٠.

(٣) المصدر السابق: ١٩٦-١٩٧.

(٤) من بلاغة الحديث الشريف: ٢٠.

هذه بعض من الدراسات التي أشارت إلى (رعاية حال المخاطب) في البلاغة النبوية، وهي تشير وتلمح، ولا تركز وتتعمق وتفصل في هذه القضية، ومثلها دراسات أخرى اطلعت عليها، من مثل: (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لمصطفى صادق الرافعي، و(الحديث النبوي من الوجهة البلاغية) للدكتور عز الدين علي السيد، و(الخصائص الفنية في الأدب النبوي) للدكتور محمد بن سعد الدبل، و(البيان النبوي: مدخل ونصوص) للدكتور عدنان زرزور، و(أضواء على البلاغة النبوية) للدكتور إبراهيم طه الجعلي، و(الروائع والبدائع في الحديث النبوي) لمحمد نعمان الدين الندوي، وغيرها من الدراسات المهمة التي كان لها أثر في إبراز البلاغة النبوية، إلا أنها تتناولها في جميع أحاديثها، وإذا تناولت مقاماتها وأحوالها فمن حيث العموم، دون تخصيص لحال المخاطب بالذكر إلا على سبيل الإشارة كما سبق.

إن الإشارات والإلماحات التي حوتها تلك الدراسات لتؤكد أهمية دراسة هذه القضية دراسة مفصلة مستقلة، تتناول النصوص التي تتبين فيها أحوال المخاطبين ولها أثرها في بلاغة النبي r ، لإبراز هذه السمة المهمة في البلاغة النبوية.

وقد قسمت البحث إلى هذه المقدمة، وتمهيد وستة فصول وخاتمة.

أما التمهيد فتناول مبحثين: المبحث الأول: (رعاية حال المخاطب) في البلاغة والنقد، والمبحث الثاني: عناية النبي r بمعرفة أحوال المخاطبين: مظاهرها، ودوافعها، وآثارها.

وأما الفصل الأول فتناول (العوامل المؤثرة في رعاية حال المخاطب) في ستة مباحث: المبحث الأول: الديانة، والمبحث الثاني: البيئة، والمبحث الثالث: المنزلة، والمبحث الرابع: الجنس والعمر، والمبحث الخامس: الصفات السلوكية، والمبحث السادس: عدد المخاطبين.

وأما الفصل الثاني فتناول (اختيار الوسائل التعبيرية الملائمة لحال المخاطب) في ثمانية مباحث: المبحث الأول: الدعاء، والمبحث الثاني: الخطابة، والمبحث الثالث: الحوار، والمبحث الرابع: الوصية، والمبحث الخامس: الرسالة، والمبحث السادس: القصة، والمبحث السابع: إنشاد الشعر، والمبحث الثامن: التعبير بغير الكلام.

وأما الفصل الثالث فتناول (رعاية حال المخاطب في اختيار المفردات) في ثلاثة مباحث: المبحث الأول: اختيار المفردات من حيث مادتها، والمبحث الثاني: اختيار المفردات من حيث صيغتها، والمبحث الثالث: اختيار المفردات من لهجة المخاطب.

وأما الفصل الرابع فتناول (رعاية حال المخاطب في بناء التراكيب) في سبعة مباحث: المبحث الأول: الجملة الخبرية، والمبحث الثاني: الجملة الإنشائية، والمبحث الثالث: التقديم والتأخير، والمبحث الرابع: الحذف والذكر، والمبحث الخامس: القصر، والمبحث السادس: الفصل والوصل، والمبحث السابع: الإيجاز والإطناب.

وأما الفصل الخامس فتناول (مخالفة مقتضى الظاهر رعايةً لحال المخاطب) في سبعة مباحث: المبحث الأول: المخالفة في أضرب الخبر، والمبحث الثاني: المخالفة بين الخبر والإنشاء، والمبحث الثالث: المخالفة بين الإضمار والإظهار، والمبحث الرابع: الالتفات، والمبحث الخامس: الأسلوب الحكيم، والمبحث السادس: التغليب، والمبحث السابع: المخالفة في صيغ الأفعال.

وأما الفصل السادس فتناول (اختيار الصور البيانية والفنون البديعية الملائمة لحال المخاطب) في مبحثين: المبحث الأول: ملاءمة الصور البيانية لحال المخاطب، والمبحث الثاني: ملاءمة الفنون البديعية لحال المخاطب.

ثم خاتمة البحث، والفهارس.

وقد سلكت في بحثي لهذا الموضوع المنهاج الآتي:

١- ينهج البحث في دراسة الموضوع منهجاً تحليلياً، غير إحصائي، يقوم على تتبع المواقف التي يتبين فيها تأثير ما عليه المخاطب من أحوال في خطاب النبي r ، ثم النظر في هذه النصوص وما تحويه من مؤثرات في رعاية حال المخاطب، ووسائل خطاب استوجبتها تلك الحال، وأساليب بلاغية تتلاءم معها، وبيان ذلك من خلال فصول البحث ومباحثه ومسائله.

٢- يتناول البحث (رعاية حال المخاطَب) في خطاب النبي r في أحاديث الصحيحين دون الآثار المذكورة فيهما عن الصحابة والتابعين وغيرهم.

٣- يتناول البحث (رعاية حال المخاطَب) في الأحاديث النبوية من خلال صحيحي البخاري ومسلم، ولا يستشهد الباحث ابتداءً بأحاديث وروايات ليست في الصحيحين، وإنما يستشهد بها تأييدًا لما في الصحيحين، أو زيادة بيان لحال المخاطَب، أو زيادة بيان لمراعاة حاله، أو لغير ذلك مما لا يخفى على القارئ في موضعه.

٤- في بداية كل فصل أو مبحث أعرف بموضوعه تعريفًا موجزًا، ثم أنظر إلى ما جاء فيه من أحاديث نبوية روعي فيها مقتضى حال المخاطَب.

٥- حينما أورد الشواهد على الأساليب البلاغية فأميز موضع الشاهد منه بتعريض خطه.

٦- بعد إيراد الآية من القرآن الكريم أذكر بين معقوفتين اسم السورة ورقم الآية.

٧- بعد إيراد الحديث الشريف أذكر في الحاشية تخريجه، فإن كان في الصحيحين أو في أحدهما اكتفيت بذلك، وإلا ذكرت بإيجاز من خرّجه في كتب السنة المشهورة، ومبينًا بإيجاز من صححه أو ضعّفه من أئمة المحدثين.

٨- بعد إيراد الشعر أذكر في الحاشية نسبته إلى قائله إن لم يكن مذكورًا في المتن، وموضعه في ديوانه، أو في مصادر الشعر.

٩- بعد إيراد العَلَم المنقول عنه قول أو المعزو إليه رأي أذكر بين قوسين سنة وفاته، وإذا اختلف في سنة وفاته أذكر ما هو أظهر الأقوال، أو أقول: (كان حيًا سنة...) أو (توفي بعد سنة...) ونحو ذلك.

١٠- ترتيب المعدودات من المباحث والمسائل العلمية البلاغية بحسب ذكرها في المؤلفات البلاغية، ولما كانت المؤلفات مختلفة المناهج في الترتيب، رأيت أن ألتزم ترتيب القزويني في تلخيصه، لكونه المشهور عند المتأخرين. أما المعدودات من غير المسائل العلمية فأذكرها بحسب ما يتفق لي في موضعه.

١١- ترتيب الأقوال والمراجع بحسب وفيات مؤلفيها، إلا إذا كان لتقديم المتأخر فائدة فيقدم.

١٢- أذكر في الحاشية عنوان المصدر أو المرجع دون ذكر مؤلفه، إلا إذا كان العنوان لأكثر من مؤلِف فأعينه.

١٣- اكتفيت بثبت المصادر والمراجع عن ذكر أي معلومة عن المرجع تتعلق بالنشر ومكانه وزمانه، بعدًا عن التكرار والإطالة، إلا إذا اقتضى المقام ذكر شيء من ذلك.

١٤- اكتفيت في تخريج الحديث من الصحيحين برقم الحديث كما في الطبعة التي رجعت إليها، وأضع الرقم بين قوسين، هكذا: أخرجه البخاري (٣٣٣)، ومسلم: (٧٧٧).

١٥- من مراجع البحث (شروح التلخيص) وهو مجموع يحوي هذه الكتب الخمسة: (الإيضاح) للقزويني، و(عروس الأفراح) للسبكي، و(مختصر المعاني) للتفتازاني، و(مواهب الفتاح) لابن يعقوب المغربي، و(حاشية على مختصر التفتازاني) للدسوقي. فإذا ذكرت في المراجع (شروح التلخيص) فالمقصود جميعها، وإذا أردت بعضها حددته.

وإن من نعمة الله U علي أن يسر لي أمر هذا البحث وأعانني فيه، وفتح لي فيه فهمًا أرجو أن يكون مسددًا صوابًا، وإلا فالبحث في وحيه وكلام رسوله r مما تتردد فيه النفس، وتضعف عن الإحجام فيه، خاصة مع قلة العناية بالبلاغة النبوية عند كثير من شراح الأحاديث، فله الحمد والشكر سبحانه على ما هداني وأنعم به علي، فما كان في هذا البحث من خير وحق فهو من توفيقه وتسديده، وما كان من خطأ وزلل وتقصير فمني ومن الشيطان، والله U ورسوله r منه بريئان، وأسأل الله العفو والغفران.

وإن من نعمة الله علي أن كان المشرف على هذا البحث شيخي المفضال الأستاذ الدكتور محمد بن علي الصامل، الذي لم يدخر جهدًا ولم يبخل بنصح ولا علم ولا وقت في سبيل توجيه البحث والباحث، ولئن قلت: إن الباحث أفاد منه، فذلك نقص في حقه، فإن البحث والباحث من ثمرات علمه وتعليمه، وإني لأسأل الله U أن يرفع درجته ويعلي منزلته ويسبغ عليه من واسع فضله.

كما أشكر المناقشين الفاضلين اللذين بذلا الجهد لإرشاد الباحث وتسديد البحث، فجزاهما الله خيرًا على ما صنعا من معروف وبذلا من خير.

والشكر موصول لكل من أعانني على إنجاز هذا البحث، سائلاً الله U أن يجزيهم خير الجزاء.

ولله الحمد والشكر أولاً وآخرًا، والصلاة والسلام على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

يوسف بن عبد الله العليوي

ص.ب: ٩٣١٦٧ الرياض ١١٦٧٣

Yosef333@gmail.com

الرياض ١/٥/١٤٢٩هـ

التمهيد

- المبحث الأول: (رعاية حال المخاطب) في البلاغة والنقد.
- المبحث الثاني: عناية النبي r بمعرفة أحوال المخاطبين: مظاهرها، ودوافعها، وآثارها.

المبحث الأول: (رعاية حال المخاطب) في البلاغة والنقد.

- أهمية مراعاة مقتضى الحال في إنشاء الخطاب البليغ.

عملية التخاطب في أي مستوى من مستويات الكلام قائمة على عناصر أربعة:

١- المتكلم، وهو منشئ الخطاب.

٢- المخاطَب، وهو المقصود بالخطاب، والمستقبل له.

وهذان العنصران يتأثران بعدة مؤثرات متمازجة متفاعلة كالبيئة الاجتماعية، ومستوى التدين، والتعليم، والتفكير، والتربية، والجنس، والعمر، والمترلة، وغيرها، وهذه العوامل المؤثرة على اختلافها واختلاف مدى تأثيرها هي التي تشكل في النهاية حالي المتكلم والمخاطَب المعتبرين أثناء عملية التخاطب.

٣- السياق، ويطلق عليه المقام أو الحال، وهو مجموعة الظروف والملابسات والعلاقات التي تحيط بالمتكلم والمخاطَب أثناء التخاطب، وهما جزءان منها.

٤- الخطاب، وهو النص، أو التعبير الذي أنشأه المتكلم(١).

وإنشاء الخطاب البليغ يتأثر بأحوال المتكلم والمخاطَب وما يحيط بهما من سياق، وليس التأثر يكون بحال المتكلم وحده وإن كان هو الذي ينشئ الخطاب، ولا حال المخاطَب وإن كان هو المقصود بالكلام، ولا السياق الذي جرت فيه عملية التخاطب، ولكن المتكلم البليغ يراعي هذه الأحوال جميعًا.

والخطاب البليغ يكشف عن شخصية المتكلم، كما أنه يكشف عن شخصية المخاطَب، ويتبين من خلاله السياق الذي مرت به عملية التخاطب، وكل ذلك مرهون بقدرة المتكلم على رعاية مقتضى الحال. وعلى قدر هذه الرعاية تقاس بلاغة الخطاب والملكة البلاغية لدى المتكلم قوة أو ضعفًا؛ لأن مدار البلاغة وجوهرها هو في رعاية الكلام الفصيح لمقتضى الحال، كما جاء في تعريف البلاغة(٢)، قال ابن رشيق (٤٥٦هـ) في سياق ما يحتاج

---

(١) ينظر: استراتيجيات الخطاب: vi-v، ومقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث: ٢١-٢٢.

(٢) ينظر في تعريف البلاغة: مفتاح العلوم: ١٦٨ و٤١٥ و٤٣٢، وشروح التلخيص: ١/١٢٢، ومعجم المصطلحات البلاغية: ١/٤٠٢، ومعجم البلاغة العربية: ٧٨.

إليه الشاعر: ((ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنًا من كان؛ ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا، وقد قيل: لكل مقام مقال))[١]، وعقد عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) فصلاً في أن مزايا النظم بحسب الموضع وبحسب المعنى المراد والغرض المقصود[٢]، وقال السكاكي (٦٢٦هـ): ((ارتفاع شأن الكلام في باب الحسن والقبول وانحطاطه في ذلك بحسب مصادفة الكلام لما يليق به، وهو الذي نسميه: مقتضى الحال))[٣].

وعَرّف (الحال) بعض البلاغيين بأنه: الأمر الذي يدعو إلى التكلم على وجه مخصوص، بحيث يكون للكلام خصوصية زائدة على أصل المراد، وهذه الخصوصية هي (مقتضى الحال)[٤]، ويعجبني تعريف البابرتي (٧٨٦هـ): ((هي: الأمور الداعية إلى التكلم على الوجه المخصوص))[٥]، ومحل الإعجاب في إيراد (الأمر) مجموعًا (الأمور) لينبه إلى أن الحال ليست أمرًا واحدًا، بل هي أمور متعددة، فهي مجموعة الظروف والملابسات والعلاقات التي تحيط بالكلام وتؤثر فيه.

و(الحال) في تراثنا الأول[٦] ليس هو حال المخاطب وحده، كما ادّعاه بعض المعاصرين[٧]، بل هو أحوال للمخاطَب والمتكلم، وغيرهما، وإن كان حال المخاطب حظي باهتمام خاص.

---

(١) العمدة: ١/١٩٩.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ٨٧.

(٣) مفتاح العلوم: ١٦٨، وينظر: شروح التلخيص: ١/١٢٤.

(٤) ينظر: مختصر السعد: ١/٣٧، وشرح عقود الجمان، للسيوطي: ٦، ومواهب الفتاح: ١/٣٧، وشرح عقود الجمان، للمرشدي: ١/٢٠.

(٥) شرح التلخيص: ١٤٦.

(٦) ينبغي التنبيه هنا إلى أن تراثنا الأول ليس كتابًا واحدًا أو كتبًا معدودة أو شخصًا أو أشخاصًا معدودين نحاكم به أو بها أو بهم بلاغتنا وتراثنا العلمي؛ وإنما هو كل المقولات والمؤلفات المصنفة بلاغيًا ونقديًا وأدبيًا، تمتد عبر تاريخ طويل منذ العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، قبل أن تنتقل النظريات النقدية المأخوذة من غيرنا، ويراد استبدال بلاغتنا ونقدنا بها، بحجة القصور والضعف في تراثنا، الذي لم يدركه حقًا المبهورون بغيره. وليس الحديث عن إفادة البلاغة العربية من غيرها، فهذا أمر لا جدال فيه إذا كان ثمة شيء جديد على تراثنا مما يستحق الإفادة.

(٧) ينظر مثلاً: البلاغة والأسلوبية: ٢٤٢، والبلاغة والاتصال: ٢٧.

وليس المقام هنا لمناقشة هذا الادعاء، ولكني أشير إلى ثلاثة أقوال تدل على رعاية التراث البلاغي والنقدي للأحوال الأخرى غير حال المخاطَب، ليقف المنصف العدل على سعة نظرة تراثنا، وبراءته من ضيق الأفق.

أما الأول فقد نقل الجاحظ (٢٥٥هـ) عن بشر بن المعتمر (٢١٠هـ) أنه قال في صحيفته: ((ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلامًا، ولكل حالة من ذلك مقامًا، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات))(١).

وأما الثاني فقول ابن وهب (٣٣٥هـ): ((ومن الصواب أن يعرف أوقات الكلام وأوقات السكوت، وأقدار الألفاظ، وأقدار المعاني، ومراتب القول، ومراتب المستمعين له، وحقوق المجالس، وحقوق المخاطبات فيها، فيعطي كل شيء من ذلك حقه، ويضمه إلى شكله، ويأتيه في وقته، وبحسب ما يوجبه الرأي له))(٢). وأما الثالث فقول السكاكي (٦٢٦هـ): ((لا يخفى عليك أن مقامات الكلام متفاوتة؛ فمقام التشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين مقام الذم، ومقام الترغيب يباين مقام الترهيب، ومقام الجد في جميع ذلك يباين مقام الهزل.

وكذا مقام الكلام ابتداء يغاير مقام الكلام بناء على الاستخبار أو الإنكار، ومقام البناء على السؤال يغاير مقام البناء على الإنكار، جميع ذلك معلوم لكل لبيب.

وكذا مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر.

ثم إذا شرعت في الكلام فلكل كلمة مع صاحبتها مقام، ولكل حد ينتهي إليه الكلام مقام))(٣).

ما الذي تركه هؤلاء من الأحوال ؟!

(١) البيان والتبيين: ١/١٣٨.

(٢) البرهان في وجوه البيان: ٢٥٥-٢٥٦، وينظر: ١٩٤.

(٣) مفتاح العلوم: ١٦٨.

إن هؤلاء الأعلام نظروا إلى الحال نظرة شاملة لم تقتصر على حال دون حال، مما يبين أن تراثنا كان أوسع في نظرته إلى الحال مما يظنه بعض المتأخرين.

- رعاية حال المخاطَب.

وإذا تحدثنا عن رعاية حال المخاطَب فهو حديث عن رعاية العنصر المقصود والأهم -وليس الوحيد- في إنشاء الخطاب البليغ، لأنه لا يتصور أبدًا خطاب من دون مخاطَب، وكلام من دون سامع ((وعملية التلقي هي التي تشعل وقود الإبداع))(١).

وفي البلاغة والنقد العربيين اهتمام ملحوظ وعناية خاصة برعاية حال المخاطب، على مستويي التنظير والتطبيق.

ولعل من أوائل ما يقابلنا في البلاغة حديث البلاغيين عن أحوال المخاطبين عندما تناولوا تعريف البلاغة السابق، كما قال السكاكي (٦٢٦هـ): ((مقام الكلام مع الذكي يغاير مقام الكلام مع الغبي، ولكل من ذلك مقتضى غير مقتضى الآخر))(٢).

وتناولوا رعاية حال المخاطب في حديثهم عن أغراض الخبر(٣)، وفي حديثهم عن أضرب الخبر إذا كان الغرض إفادة المخاطَب، كما قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): ((إذا كان الخبر بأمر ليس للمخاطب ظن في خلافه البتة، ولا يكون قد عقد في نفسه أن الذي تزعم أنه كائن غير كائن، وأن الذي تزعم أنه لم يكن كائن فأنت لا تحتاج هناك إلى (إنَّ)، وإنما تحتاج إليها إذا كان له ظن في الخلاف، وعقد قلب على نفي ما تثبت، أو إثبات ما تنفي))(٤)، ويشيرون إليه في حديثهم عن مقامات الذكر والحذف، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والإطلاق والتقييد، والإظهار والإضمار، والقصر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب، وغيرها من أحوال النظم مما يتعلق بعلم المعاني(٥)، كما أشاروا إليه في

(١) البلاغة والأسلوبية: ٢٤٥.

(٢) مفتاح العلوم: ١٦٨، وينظر: شروح التلخيص: ١/١٢٨.

(٣) ينظر مثلاً: شروح التلخيص: ١/١٩٤.

(٤) دلائل الإعجاز: ٣٢٥، وينظر: مفتاح العلوم: ١٧٠، وشروح التلخيص: ١/٢٠١-٢٢٣.

(٥) ينظر مثلاً: شروح التلخيص: ١/٢٧٧ و٢٨٣ و٣٠٢ و٣٠٦ و٣١٥ و٣٢٠ و٣٨٢ و٣٩١ و٤٥١ و٤٥٨ و٤٧٢ و٤٧٩، و٢/١٣٦ و١٤٥ و١٧٨ و٢١٤ و٢٩٣ و٣٠٠ و٣١٤ و٣٢٦ و٣٤٠، و٣/٣١ و٤٩ و٥٤ و٦٧ و١٩٤ و٢١٠ و٢٣١.

حديثهم عن فائدة استعمال الصور البيانية، وفي أغراض التشبيه والمجاز والكناية[1]، كما أشاروا إليه في حديثهم عن الغرض من بعض المحسنات البديعية، وفي حديثهم عن حسن الابتداء والتخلص والختام[2].

ويستشهد البلاغيون والنقاد في هذا المقام بما روي عن ابن الأنباري (٣٢٨هـ) أن الكندي المتفلسف (٢٥٢هـ) ركب إلى أبي العباس[3]، وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوًا. فقال أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك. فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد. فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ؛ فقولهم: عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم، جواب عن إنكار منكر قيامه، فقد تكررت الألفاظ لتكرر المعاني[4].

وحينما يضعون معالم للأدباء يسيرون على هديها لا يغفلون عن هذا المعلم المهم، فيوجهون إليه الأدباء، ويحذرونهم من التفريط فيه، ومن ذلك ما ذكره الجاحظ (٢٥٥هـ) عن بشر بن المعتمر (٢١٠هـ) أنه مر بإبراهيم بن جبلة السَّكوني الخطيب، وهو يعلم فتيانًا الخطابة، فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنّما وقف ليستفيد أو ليكون رجلاً من النَّظّارة، فقال بشر: اضربوا عما قال صَفْحًا واطوُوا عنه كَشْحًا، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه، وكان فيها: ((كن في ثلاث منازل؛ فإن أُولى الثلاث: أن يكون لفظك رشيقًا عذْبًا، وفخمًا

---

(١) ينظر: المصادر السابقة: ٣/٢٧٤ و٣٩٥ و٣٩٨ و٤٠٢، و٤/١٤٣ و٢٦٤ و٢٦٨ و٢٧١.

(٢) ينظر: المصادر السابقة: ٤/٣٢٩ و٣٨٩ و٤٠٣ و٤١٩ و٤٦٨ و٥٣١ و٥٣٥ و٥٤٣.

(٣) (أبو العباس) كنية لعالمين متعاصرين، هما: المبرد (٢٨٥هـ)، وثعلب (٢٩١هـ). واختلف في تعيين صاحب الكنية في هذه القصة، فهو (المبرد) عند الخطيب الرازي في (نهاية الإيجاز): ٣٥٧، والزملكاني في (التبيان): ٧٠، وفي (البرهان): ١٥٩، والآقسرائي في (إيضاح الإيضاح): ٣٠٥، والبابرتي في (شرح التلخيص): ١٧٤، وكثير من المعاصرين. وهو (ثعلب) عند مصطفى عبد الرازق [ينظر: قصة الفيلسوف الكندي وأبي العباس: ٩٢]، ومحمود شاكر في تعليقه على (دلائل الإعجاز): ٣١٥، والدكتور هارون ميغا في مقالته (قصة الفيلسوف الكندي وأبي العباس: ٨٥ و٩٧-٩٩)، وليس ثمة دليل صريح على كونه (ثعلب) وإنما هي قرائن مرجحة، أقواها: كون الراوي هو ابن الأنباري (٣٢٨هـ) وهو نحوي كوفي من تلاميذ (ثعلب) ويتعصب له على (المبرد) البصري، ولم يرد أنه أخذ عن (المبرد) كما فعل غيره من تلاميذ (ثعلب).

(٤) ينظر في هذه الحادثة: دلائل الإعجاز: ٣١٥.

سهلاً، ويكون معناك ظاهرًا مكشوفًا، وقريبًا معروفًا، إما عند الخاصة إن كنت للخاصة قصدت، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يتَّضع بأن يكون من معاني العامة، وإنما مَدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقامٍ من المقال))[1]، وقال ابن قتيبة (٢٧٦هـ) في أدب الكاتب: ((ونستحبُّ له أيضًا أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وأن لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس خسيس الكلام))[2]، وفي الرسالة العذراء تقرير وتأكيد لرعاية أحوال المخاطَبين استغرق قرابة سبع صفحات، قسم فيها مؤلفها طبقات الكلام بحسب طبقات الأنام، وبين ما يناسب كل طبقة من الكلام[3]، ومما قاله: ((خاطب كلاً على قدر أبهته وجلالته، وعلوه وارتفاعه، وتفطنه وانتباهه))[4]، وقال ابن وهب (٣٣٥هـ): ((ومما ينبغي للشاعر أن يلزمه فيما يقوله من الشعر ألا يخرج في وصف أحد ممن يرغب إليه، أو يرهب منه، أو يهجوه، أو يمدحه، أو يغازله، عن المعنى الذي يليق به ويشاكله))[5]، وقال ابن رشيق (٤٥٦هـ) في سياق ما يحتاج إليه الشاعر: ((ولكن غايته معرفة أغراض المخاطب كائنًا من كان؛ ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه، فذلك هو سر صناعة الشعر ومغزاه الذي به تفاوت الناس وبه تفاضلوا، وقد قيل: لكل مقام مقال))[6]، وقال ابن السيد (٥٢١هـ): ((ويحتاج الكاتب إلى معرفة مراتب المكاتبين عند من يكتب عنه، وما يليق بهم من الأدعية والعنوانات، على حسب ما تقتضيه مرتبة مخدومه بين مراتبهم، فينزل كل واحد منهم مرتبته اللائقة به. ومراتب المكاتبين ثلاث: مرتبة من فوقك، ومرتبة من هو مثلك، ومرتبة من هو دونك... ولكل طبقة من هذه الطبقات مرتبة في المخاطبة، ومنزلة متى زيد عليها أو قُصر به عنها وقع

---

(١) البيان والتبيين: ١/١٣٦.

(٢) أدب الكاتب: ١٨.

(٣) الرسالة العذراء: ١٠-١٧.

(٤) المرجع السابق: ١٠.

(٥) البرهان في وجوه البيان: ١٨١، وينظر: ١٩٤.

(٦) العمدة: ١/١٩٩.

في الأمور الخلل وعاد ذلك بالضرر...))[١]، وقال المظفر العلوي (٦٥٦هـ): ((وينبغي للشاعر أن يتجنب الألفاظ التي تشتبه على سامعيها وقارئيها))[٢]، وحازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) بعد أن ذكر الفضائل التي يُمدح بها قال: ((يجب أن يقصد في مدح صنف صنف من الناس إلى الوصف الذي يليق به، وأن يعتمد في مدح واحد واحد ممن يراد تقريظه ما يصلح له من تلك الفضائل وما تفرع منها، وأن لا يجعل الشيء منها حلية لمن لا يستحقه، ولا هو من بابه))[٣].

هذه بعض الأقوال التي تبين اهتمام التراث البلاغي والنقدي برعاية حال المخاطَب، ونلحظ فيها تناول حال المخاطب من عدة جوانب، نشير إليها في الأحوال الآتية.

- أحوال المخاطب.

في تراثنا البلاغي والنقدي شواهد كثيرة تتناول رعاية حال المخاطَب من جوانب متعددة نفسية واجتماعية وثقافية ولغوية وغيرها، وإن كانت بعض هذه تتداخل، وربما روعيت كلها، لكن ينظر إلى الجانب الأبرز فيها، ومن هذه الجوانب:

أ- الحالة النفسية للمخاطب، لأن النفس لها إقبال وإدبار، وتحب وتكره، وقد تأنس بالكلام في حال ولا تأنس له في حال أخرى، وقد تأنس لغرض من الكلام في حال دون غرض آخر، والنفس الإنسانية تتقلب بصاحبها، وقل أن تستقر على حال. ومراعاة ذلك من المتكلم أمر بالغ الخطورة، وإلا وقع فيما لا يريد.

ومما ورد في أهمية الاستعداد النفسي لدى المخاطب لتلقي الخطاب ما رواه البخاري ومسلم أن عبد الله بن مسعود t كان يُذَكِّر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذَكَّرتنا كل يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكم، وإني أَتَخَوَّلكم بالموعظة كما كان النبي r يَتَخَوَّلنا بها مخافة السَّآمة علينا[٤]، ويُروى في كتب الأدب واللغة عنه t : ((حَدِّث الناس ما حَدَجوك بأبصارهم، وأَذَنوا لك بأسماعهم،

(١) الاقتضاب: ١/١٤٠-١٤١.

(٢) نضرة الإغريض: ٣٩٨.

(٣) منهاج البلغاء: ١٧٠، وانظر: ٣٥١.

(٤) أخرجه البخاري (٧٠) ومسلم (٢٨٢١).

وإذا رأيت منهم فَتْرة فأمسك))[1]، وقالت عائشة رضي الله عنها لابن أبي السائب قاص أهل المدينة: ((قُصَّ على الناس في كل جمعة مرة، فإن أبيت فثنتين، فإن أبيت فثلاثًا؛ فلا تمل الناس هذا الكتاب، ولا ألفينَّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقطع عليهم حديثهم، ولكن اتركهم، فإذا جَرَّءوك عليه، وأمروك به، فحدثهم))[2]، وعن عكرمة عن ابن عباس t قال: ((حَدِّث الناس كل جمعة مرة، فإن أبيت فمرتين، فإن أكثرت فثلاث مِرار، ولا تُمِلّ الناس هذا القرآن، ولا أُلْفِيَنَّك تأتي القوم وهم في حديث من حديثهم فتقص عليهم، فتقطع عليهم حديثهم، فتُمِلّهم، ولكن أنصت، فإذا أمروك فحدثهم، وهم يشتهونه))[3]، ونقل الجاحظ (٢٥٥هـ) عن بعض الحكماء: ((من لم ينشط لحديثك فارفع عنه مؤونة الاستماع منك))[4]، وفي المستطرف: ((وينبغي للإنسان أن لا يقبل بحديثه على من لا يقبل عليه، فقد قيل: إن نشاط المتكلم بقدر إقبال السامع))[5].

وأشار الجاحظ (٢٥٥هـ) إلى بعض النفوس التي تميل إلى نوع من الحديث وقدر منه فقال: ((إلا أني لا أشك على حال أن النفوس إذا كانت إلى الطرائف أحن، وبالنوادر أشغف، وإلى قصار الأحاديث أميل، وبها أصب، أنها خليقة لاستثقال الكثير وإن استحقت تلك المعاني الكثيرة، وإن كان ذلك الطويل أنفع، وذلك الكثير أرد))[6]، وقال ابن وهب (٣٣٥هـ): ((إذا رأى من القوم إقبالاً عليه وإنصاتًا لقوله، فأحب أن يزيدهم زادهم على مقدار احتمالهم ونشاطهم، وإذا تبين منهم إعراضًا عنه وتثاقلاً عن استماع قوله خفف عنهم))[7].

---

(١) ينظر: البيان والتبيين: ١/١٠٤، وغريب الحديث لأبي عبيد: ٤/١٠٠، وقال في قوله: ما حدجوك: (يعني: ما أحدّوا النظر إليك)، وزهر الآداب: ١/١٩٥، والفائق في غريب الحديث والأثر: ١/٢٦٤، والنهاية في غريب الأثر: ١/٣٥٢.

(٢) أخرجه أحمد: ٦/٢١٧.

(٣) أخرجه البخاري: (٦٣٣٧).

(٤) البيان والتبيين: ١/١٠٣.

(٥) المستطرف في كل فن مستظرف: ١/١١٨.

(٦) الحيوان: ٦/٨.

(٧) البرهان في وجوه البيان: ١٩٤-١٩٥.

وفي حديثه عن أغراض الشعر ذكر حازم القرطاجني (ت ٦٨٤هـ) أن التهاني ((يجب أن تُعتمد فيها المعاني السارة والأوصاف المستطابة، وأن يُستكثر فيها من التيمن للمهنأ، وأن يؤتى في ذلك بما يقع وفقه، ويُتحذر من الإلمام بما يمكن أن يقع منه في نفس المهنئ شيء، ويُجتنب ذكر ما في سمعه تنغص له))(١).

وقال ابن رشيق (٤٥٦هـ): ((الفَطِن الحاذق يختار للأوقات ما يشاكلها، وينظر في أحوال المخاطبين؛ فيقصد محابهم، ويميل إلى شهواتهم وإن خالفت شهوته، ويتفقد ما يكرهون سماعه فيجتنب ذكره))(٢).

وذَكَر أن بعض الملوك قال لأحد الشعراء وقد أورد بيتًا ذكر فيه: لو خُلِّد أحد بكرم لكنت مخلدًا بكرمك، وقال كلامًا نحو هذا. فقال الملك: إن الموت حق، وإن لنا منه نصيبًا، غير أن الملوك تكره ذكر ما ينكد عيشها، وينغص لذتها، فلا تأتنا بشيء مما نكره ذكره(٣).

وعني البلاغيون والنقاد بإحسان الابتداء والختام لما له من علاقة بنفسية المخاطَب والمستمع؛ قال ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ): ((وإنما خصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقًا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استماعه))(٤)، كما أن المخاطب إذا كان مثلاً في حالة من السرور والبهجة فإن نفسه تستغرق في هذه الحالة، ولا تنتظر إلا ما يوافقها، فإذا كان أول ما يقرع السمع مما يخالف الحالة أو يوهم المخالفة فإن النفس يصيبها تغير وتكدر، ومن النفوس من قد تتشاءم وتتطير، ويكثر هذا عند الملوك وأشباههم، فإن نفوسهم تضعف عند وارده، وإذا لم يراع المتكلم هذا الخلق فيهم فلا يلومن إلا نفسه، قال ابن طباطبا (٣٢٢هـ): ((وينبغي للشاعر أن يحترز في أشعاره ومفتتح أقواله مما يُتطير به، أو يستجفى من الكلام والمخاطبات، كذكر البكاء، ووصف إقفار الديار وتشتت الأُلاّف، ونعي الشباب، وذم الزمان، لا سيما في القصائد التي تُضمَّن المدائح أو التهاني، ويَستعمل هذه المعاني في المراثي ووصف الخطوب الحادثة، فإن

(١) المصدر السابق: ٣٥٢.

(٢) العمدة: ١/٢٢٣.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المثل السائر: ٣/١٢٠، وينظر: كتاب الصناعتين: ٤٣١، والعمدة: ١/٢١٨، وتحرير التحبير: ١٦٨ و٦١٦، وشروح التلخيص: ٤/٥٣١ و٥٤٣، ونضرة الإغريض: ٤٠٧.

الكلام إذا كان مؤسَّسًا على هذا المثال تَطيَّر منه سامعه، وإن كان يعلم أن الشاعر إنما يخاطب نفسه دون الممدوح))[١].

ومما أوردوه في هذا الحال ما روي عن الأخطل لما دخل على عبد الملك فأنشده قصيدة أولها:

خَفَّ القَطينُ فراحوا منكَ أوْ بَكَروا[٢]

فقال عبد الملك: بل منك يا ابن اللخناء[٣]، أخرجوه. فأخرج، فلما كان من الغد دخل عليه وأنشد:

خَفَّ القَطينُ فراحوا اليومَ أو بَكَروا

ومرّ في القصيدة إلى آخرها[٤].

وروي أن الفضل بن يحيى البرمكي بنى دارًا استفرغ فيها مجهوده، وانتقل إليها، فصنع أبو نواس في ذلك الحين أو قريبًا منه قصيدة يمدحه بها، يقول في أولها[٥]:

أَرَبْعَ البِلى إن الخشوع لَبَاد ... عليكَ وإني لم أَخُنْكَ وِدَادي

فتطير البرمكي، فلما ختمها أو كاد بقوله:

سلامٌ على الدُّنيا إذا ما فَقَدْتُمُ ... بني بَرْمَكٍ مِنْ رائحين وغادي

استحكم تطيره، واشمأز حتى كلَح وظهرت الوجمة عليه، ثم قال: نعيت إلينا أنفسنا يا أبا نواس[٦].

ب- مترلة المخاطب الاجتماعية والسياسية والوظيفية، وهذا جانب جاء في القرآن الكريم رعايته، فقد حث الله U أصحاب رسوله r على أن يخاطبوه بغير ما يخاطبون به غيره من

---

(١) عيار الشعر: ٢٠٤، وينظر: المثل السائر: ٣/١٢٣.

(٢) صدر بيت، وعجزه: وأَزْعَجَتهم نوًى في صَرْفها غِيَرُ. وهو في ديوان الأخطل: ٨٨. والقطين: المقيم، ويقال للخدم والحشم والأتباع وأهل الدار، وينظر: لسان العرب: ١٣/٣٤٣.

(٣) اللَّخَن: النَّتَن، ويقال: امرأة لَخْناء: إذا لم تُختَن. ينظر: لسان العرب: ١٣/٣٨٣.

(٤) ينظر: المثل السائر: ٣/١٢١، ونضرة الإغريض: ٤٠٧.

(٥) القصيدة في ديوان أبي نواس: ١٣٣-١٣٤.

(٦) ينظر: عيار الشعر: ٢٠٥، وقال ابن رشيق (٤٥٦هـ) في العمدة: ١/٢٢٤: (وزعم قوم أن أبا نواس قصد التشاؤم لهم لشيء كان في نفسه من جعفر. ولا أظن ذلك صحيحًا؛ لأن القصيدة من جيد شعره الذي لا أشك أنه يحتفل له، اللهم إلا أن يصنع ذلك حيلة منه، وسترًا على ما قصد إليه بذلك).

الناس، لعظم مترلته التي أنزله الله إياها بالرسالة والنبوة، فقال سبحانه: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ الآية [النور: ٦٣]، وفرق بين أن يقولوا: يا محمد، وأن يقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، مراعاة لمترلته r . ولعل من ذلك ما قاله الله U لموسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآَيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي $ اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى $ فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ [طه: ٤٢-٤٤]، فبيَّن الله U لهما حاله، وكيف يخاطبانه بما يناسب هذه الحال.

وقد أكثر العلماء والنقاد في التنبيه إلى هذا الجانب ورعايته في تخير الألفاظ والمعاني والألقاب والأوقات وغيرها، قال ابن وهب (٣٣٥هـ): ((لا يمدح الكاتب بالشجاعة، ولا الفقيه بالكتابة، ولا الأمير بغير حسن السياسة))(١)، وقال ابن رشيق (٤٥٦هـ) في سياق ما يحتاج إليه الشاعر من رعاية أحوال المخاطبين: ((وشعره للأمير والقائد غير شعره للوزير والكاتب، ومخاطبته للقضاة والفقهاء بخلاف ما تقدم من هذه الأنواع))(٢)، وقال ابن سنان (٤٦٦هـ): ((وليس يحسن أن يخاطب الملوك فيقال لبعضهم: وحق يافوخك أو قمحدوتك أو أخادعك أو قذالك أو قفاك، قياسًا على أن يقال له: وحق رأسك؛ لأن الاستعمال يختلف في الألفاظ، وإن كان المعنى فيها مختلف))(٣).

وقد عابوا على بعض الأدباء والمتكلمين إخلالهم بما يجب من رعاية هذا الجانب، ومن ذلك ما قاله في الرسالة العذراء: ((وقد رأيتهم عابوا الأحوص حين خاطب الملوك بمخاطبة العوام في قوله:

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ... مَذِق الحديث يقول ما لا يفعل(٤)

(١) البرهان في وجوه البيان: ١٨١.

(٢) العمدة: ١/١٩٩.

(٣) سر الفصاحة: ١٥٦. واليافوخ: ملتقى عظم مقدم الرأس وعظم مؤخره [اللسان: ٣/٥]، والقَمَحْدُوَة: ما أشرف أشرف على القفا من عظم الرأس [اللسان: ٣/٣٦٨]، والأَخْدعان: عرقان خفيان في موضع الحجامة من جانبي العنق [اللسان: ٨/٦٦]، والقَذَال: جماع مؤخر الرأس من الإنسان [اللسان: ١١/٥٥٣]، والقَفا: مؤخر العنق [اللسان: ١٥/١٩٢].

(٤) البيت في ديوان الأحوص: ١٦١.

فهذا معنى صحيح في المدح؛ ولكنهم أجَلُّوا أقدار الملوك أن يمدحوا بما يمدح به العــوام؛ لأن صدق الحديث وإنجاز الوعد وإن كان مدحًا فهو واجب على كلٍّ، والملــوك لا يمــدحون بالفروض الواجبة، وإنما يحسن مدحهم بالنوافل))[1].

ومن ذلك قول أبي نواس:

سأشكو إلى الفضلِ بنِ يحيى بنِ خالــدٍ هَواها لعــلّ الفضــلَ يجمــعُ بيْنَنــا[2]

فقال له الفضل: ويلك، ما زدت على أن جعلتني قَوَّادًا، أما وجدتَ غيري يجمعُ بينكمــا؟ فقال: يا مولايَ إنّما هو جمع تفضُّل، لا جمع توصُّل.

ت- مستوى المخاطَب اللغوي والثقافي والفكري، وفي هذه الجوانــب عــدة إشــارات للمتقدمين، منها ما أورده الجاحظ (٢٥٥هــ) من صحيفة بشر بن المعتمر (٢١٠هــــ): ((فإن كان الخطيب متكلمًا تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إن عبر عن شيء من صــناعة الكلام واصفًا أو مجيبًا أو سائلاً كان أولى الألفاظ به ألفاظ المــتكلمين؛ إذ كــانوا لتلــك العبارات أفهم، وإلى تلك الألفاظ أميل، وإليها أحن، وبها أشغف))[3]، ويلحظ التداخل في كلام بشر بين هذا المستوى والمستوى النفسي، وهذا أمر طبعي كما ســبق، وقــد أكــد الجاحظ (٢٥٥هــ) على رعاية هذا الجانب المهم فقال: ((وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمتُ خائضًا في صناعة الكلام مع خواص أهل الكلام، فإن ذلك أفهم لهم عني، وأخف لمؤنتهم علي. ولكل صناعةٍ ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحــان ســواها، فلــم تلــزق بصناعتهم إلا بعد أن كانت مشاكَلاً بينها وبين تلك الصناعة.

وقبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة، أو في مخاطبة العوام والتجار، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته، أو في حديثه إذا تحــدث، أو خــبره إذا أخــبر. وكذلك فإنه من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو في صناعة الكلام داخل، ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل))[4]، ويقرر ابن سنان (٤٦٦هــ) ما قرره الجــاحظ (٢٥٥هــ) فيرى أن من وضع الألفاظ موضعها ((أن لا يستعمل في الشعر المنظوم والكلام

(١) الرسالة العذراء: ١٥.

(٢) البيت في ديوان أبي نواس: ٤١٤.

(٣) البيان والتبيين: ١/١٣٩.

(٤) الحيوان: ٣/٣٦٨.

المنثور من الرسائل والخطب ألفاظ المتكلمين والنحويين والمهندسين ومعانيهم، والألفاظ التي تختص بها أهل المهن والعلوم؛ لأن الإنسان إذا خاض في علم وتكلم في صناعة وجب عليه أن يستعمل ألفاظ أهل ذلك العلم وكلام أصحاب تلك الصناعة))[1]، وقال ابن وهب (٣٣٥هـ): ((وينبغي لمن كان قوله الشعر تكسبًا لا تأدبًا أن يحمل إلى كل سوق ما يَنْفُق فيها، ويخاطب كل مقصود بالشعر على مقدار فهمه؛ فإنه ربما قيل الشعر الجيد فيمن لا يفهمه فلا يحسن موقعه منه، وربما قيل الشعر الداعر لهذه الطبقة فكثرت فائدة قائله لفهمهم إياه))[2]، وقال: ((وإنما مثل من كلم إنسانًا بما لا يفهمه وبما يحتاج إلى تفسير له كمثل من كلم عربيًا بالفارسية؛ لأن الكلام إنما وضع ليعرف به السامع مراد القائل، فإذا كلمه بما لا يعرفه فسواء عليه أكان ذلك بالعربية أم بغيرها))[3]، وقال أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ): ((وإذا كان موضوع الكلام على الإفهام فالواجب أن تُقسّم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السُّوقي بكلام السُّوقة، والبدوي بكلام البَدْو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام، وتعدم منفعة الخطاب))[4]، وقد قيل: ((نشاط المحدِّث على قدر فهم المستمع))[5]، وفي المستطرف: ((ويتعين عليه أن يحدث المستمع على قدر عقله، ولا يبتدع كلامًا لا يليق بالمجلس، فقد قيل: لكل مقام مقال، وخير القول ما وافق الحال))[6].

ويروى في رعاية هذا المستوى من المخاطَب حديث لا يصح، يقول: ((إنا أمرنا معاشر الأنبياء بأن نكلم الناس على مقادير عقولهم))[7]، لكن صح عن بعض الصحابة y

(١) سر الفصاحة: ١٥٩.

(٢) البرهان في وجوه البيان: ١٨٩.

(٣) المرجع السابق: ١٠٤.

(٤) كتاب الصناعتين: ٢٩.

(٥) زهر الآداب: ١/١٩٥.

(٦) المستطرف في كل فن مستظرف: ١/١١٨ في باب في حسن المعاشرة والمودة.

(٧) عزاه السخاوي في المقاصد الحسنة: ١٦٤ للديلمي، وقال: ((سنده ضعيف)) وقال: ((وقد عزاه شيخنا -يعني ابن ابن حجر- لمسند الحسن بن سفيان من حديث ابن عباس بلفظ: «أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم» قال: وسنده ضعيف جدًا))، وضعفه السيوطي في الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة: ٣٠، والعجلوني في كشف الخفاء: ١/٢٢٥.

في هذا المعنى أقوال، من ذلك قول علي t : ((حدثوا الناس بما يعرفون، أ تحبون أن يُكذب الله ورسوله؟))(١)، وقول ابن مسعود t : ((ما أنت بمحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة))(٢)، وورد عن الإمام الشافعي (٢٠٤هـ) أنه قال: ((لو أن محمد بن الحسن كان يكلمنا على قدر عقله ما فهمنا عنه، ولكنه كان يكلمنا على قدر عقولنا فنفهمه))(٣)، وعن النضر بن شميل (٢٠٤هـ) قال: سئل الخليل (١٧٠هـ)عن مسألة فأبطأ فأبطأ بالجواب فيها، قال: فقلت: ما في هذه المسألة كل هذا النظر، قال: فرغت من المسألة وجوابها، ولكني أريد أن أجيبك جوابًا يكون أسرع إلى فهمك(٤).

ومما أوردوه من شواهد على رعاية هذا الجانب ما روي بين الرسول r وطهية بن زهير النَّهدي(٥)، حيث قال طهية في كلام طويل أغرب فيه: لنا نَعَم هَمَل أغفال، ما تَبِض ببِلال، ووَقير قليل الرِّسْل، كثير الرَّسَل، أصابتها سنة حمراء مُؤْزلة، ليس لها عَلَل ولا نَهَل. ويروى أن الرسول r قال له في كلام طويل: «اللَّهُمَّ بارك له في مَحْضها ونَحْضها ومَذْقها، واحبس راعيها في الدَّثْر بيانع الثمر، وافجُر له الثَّمَد، وبارك له في المال والولد»(٦)، وروي أن الرسول r سئل: أ يُدَالِك الرجل امرأته؟ فقال: «نعم، إذا كان مُفرَحًا»(٧)، قال ابن وهب (٣٣٥هـ) بعد سياق الحديثين: ((فهذا كلام من السائل والمسؤول والقائل والمجيب

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢٧).

(٢) مسلم: (المقدمة: ٥).

(٣) الآداب الشرعية: ٢/١٥١.

(٤) المرجع السابق.

(٥) يقال له: طِهية، وطُهَيَّة، وطِهْفة، وطَخفة، وقيل غير ذلك. ويقال له: ابن زهير، وابن أبي زهير. ينظر: معرفة الصحابة: ٣/١٥٧٠-١٥٧١، والاستيعاب في معرفة الأصحاب: ٢/٧٧٤، وأسد الغابة في معرفة الصحابة: ٣/٩٦ و١٠٠، والإصابة في معرفة الصحابة: ٣/٤٤٣، ونسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض: ١/٣٨٩.

(٦) أخرجه أبو نعيم في معرفة الصحابة: ٣/١٥٧٠ عن عمران بن حصين t ، وقال: ((رواه ليث عن حبة العرني عن عن حذيفة مثله))، وأخرجه ابن الجوزي في العلل المتناهية في الأحاديث الواهية:١/١٨٤، برقم (٢٨٤) بسنده عن علي t ، وقال: ((هذا لا يصح، وفيه مجهولون وضعفاء))، وقال ابن حجر في الإصابة: ٣/٤٤٤ عن حديث علي t : ((رواه ابن الجوزي في العلل من وجه ضعيف جدًا)). وينظر في شرح غريب الحديث مجتمعًا: أسد الغابة في معرفة الصحابة: ٣/٩٧، ونسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض: ١/٣٨٩.

(٧) لم أجد له ذكرًا في كتب السنة.

حسن مأثور؛ لأنه مفهوم بين من يخاطب به. وإنما يستنكر من ذلك الموضوع غير موضعه والمخاطب به غير أهله...، وقد قال رسول الله r : «إياكم والتشادق»[(١)]، وقال: «أَبْغَضكم إِلَيَّ الثَّرْثارُونَ الْمُتَفَيْهِقُون»[(٢)]، وقال: «مَنْ بَدَا جَفَا»[(٣)]))[(٤)].

ومن ذلك ما روي أنه قيل لبشار بن برد: كم بين قولك:

أمن طللٍ بالجَزْعِ لَنْ يَتكلّما ... وأَقْفَرَ إلا أَنْ ترى مُتَذمما

في نظائر هذه القصيدة من شعرك، وبين قولك:

لَبَابَةُ رَبَّةُ البَيتِ ... تَبيعُ الخَلَّ بالزَّيتِ

لَها سَبْعُ دَجَاجَاتٍ ... ودِيكٌ حَسَنُ الصَّوتِ

---

(١) لم أجد له ذكرًا في كتب السنة.

(٢) أخرجه أحمد: ١٩٣/٤، عن أبي ثعلبة الخشني t ، وأخرجه الترمذي: كتاب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق، برقم (٢٠١٨) عن جابر بن عبد الله t ، وقال: ((في الباب عن أبي هريرة، وهذا حديث حسن))، وتمام الحديث في رواية الترمذي: «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ، وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، وَالْمُتَفَيْهِقُونَ» قالوا: يا رسول الله، قد علمنا الثرثارون والمتشدقون فما المتفيهقون؟ قال: «الْمُتَكَبِّرُون»، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ١٩٧/٢، برقم (١٦٤٢)، وينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤٣٤/٢، برقم: (٧٩١).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ أحمد: ٢٩٧/٤ عن البراء t ، وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): ٢٥٤/٥: ((رواه أبو يعلى ورجاله ثقات))، وكذلك أخرجه بهذا اللفظ أحمد عن أبي هريرة t : ٣٧١/٢ و٤٤٠، وزاد: «وَمَنْ اتَّبَعَ الصَّيْدَ غَفَلَ، وَمَنْ أَتَى أَبْوَابَ السُّلْطَانِ افْتُتِنَ، وَمَا ازْدَادَ عَبْدٌ مِنْ السُّلْطَانِ قُرْبًا إِلاَّ ازْدَادَ مِنْ اللهِ بُعْدًا» وقال الهيثمي في (مجمع الزوائد): ٢٤٦/٥: ((رواه أحمد والبزار، وأحد إسنادي أحمد رجاله رجال الصحيح، خلا الحسن بن الحكم النخعي، وهو ثقة))، وجود إسناده البنا الساعاتي في (بلوغ الأماني): ١٩١/١٩، وأخرج الحديث عن أبي هريرة t أبو داود: كتاب الصيد، باب في اتباع الصيد، برقم (٢٨٦٠)، وعن ابن عباس t أحمد: ١٥٧/١، وأبو داود: كتاب الصيد، باب في اتباع الصيد، برقم (٢٨٥٩)، والنسائي: كتاب الصيد والذبائح، باب اتباع الصيد، برقم (٤٣٠٩)، والترمذي: كتاب الفتن، باب ٦٩، برقم (٢٢٥٦)، وقال: ((هذا حديث حسن صحيح))، وصححه العجلوني في كشف الخفاء: ٣٠٩/٢، برقم (٢٤١٧) وينظر: ٣٣٢/٢، برقم (٢٤٩٩)، والألباني في صحيح سنن أبي داود: ٥٢٢/٢، برقم (٢٤٨٦)، وينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: حديث رقم (١٢٧٢).

(٤) البرهان في وجوه البيان: ٢٠٧-٢٠٨.

فقال: إنما القدرة على الشعر أن يوضع الجد والهزل في موضعه، ولبابة هذه جارة لي تنفعني بما تبعث لي من بيض دجاجها، وهذا الشعر أحسن موضعًا عندها من: قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزل(١).

وعاب أبو هلال العسكري (٣٩٥هـ) على بعض أهل العربية الذين يعنون بالغريب ويتقعرون في الكلام دون اعتبار لمستوى من يخاطبونه، قال: ((وربما غلب سوء الرأي، وقلة العقل على بعض علماء العربية، فيخاطبون السُّوقي والمملوك والأعجمي بألفاظ أهل نجد، ومعاني أهل السراة))(٢)، وعد ابن الجوزي (٥٩٧هـ) هذا النوع من الخطاب من الحمق والغفلة فذكره في كتابه (أخبار الحمقى والمغفلين)(٣).

ث- جنس المخاطب، وهذا جانب مؤثر في لغة الخطاب وبنائه، فإن الله U غاير بين الذكر والأنثى في خصائص متعددة خَلْقية ونفسية وسلوكية وغيرها، وقد قال الله U: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦]. فلا يصح أن تخاطب المرأة بكل ما يخاطب به الرجل، ولا أن يخاطب الرجل بكل ما تخاطب به الأنثى، فلكل منهما ما يختص به، وإن كانا يشتركان في كثير من الأمور.

ولقد عيب المُتَلمِّس في قوله:

وقد أَتَنَاسَى الهَمَّ عِنْدَ احتضارِهِ ... بِناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكْدَمِ

والصيعرية سمةٌ للنوق، فجعلها للفحل، ولما سمعه طرفة بن العبد وهو صبيٌّ قال: استنوق الجمل!(٤).

وقد ألمح النقاد إلى هذا الجانب، من ذلك ما قاله ابن وهب (٣٣٥هـ): ((ولا يخاطب النساء بغير مخاطبتهن...، ويغازل النساء بما يحسن من وصفهن ومداعبتهن والشكوى إليهن))(٥)، وقال ابن السيد (٥٢١هـ): ((وللنساء مراتب في مخاطبتهن، ينبغي للكاتب أن

(١) ينظر: جمع الجواهر في الملح والنوادر: ١٣-١٤.

(٢) كتاب الصناعتين: ٢٧.

(٣) ينظر: أخبار الحمقى والمغفلين: ١١٨-١٢١.

(٤) ينظر: الشعر والشعراء لابن قتيبة: ١/١٨٣. وفي عيار الشعر: ١٥٩ أنه المسيب بن علس.

(٥) البرهان في وجوه البيان: ١٨١.

يعرفها... وبالجملة فينبغي للكاتب إليهن أن يتجنب كل لفظة يقع فيها اشتراك، ويمكن أن تُتأول على مايقبح، فإن ذلك يُعد من حذقه ونبله))(١).

ومن الشواهد في ذلك ما عابوه على أحد الشعراء حينما قال مخاطبًا زبيدة بنت جعفر زوج هارون الرشيد:

أَ زبيدةَ ابنةُ جعفرٍ ... طوبى لزائرِكِ المُثاب

تُعطينَ من رِجْلَيْكِ ما ... تُعطي الأكفُّ من الرِّغاب

فبادر العبيد ليقعوا به، فقالت زبيدة: كفوا عنه، فإنه لم يرد إلا خيرًا، ومن أراد خيرًا فأخطأ خير ممن أراد شرًا فأصاب، سمع الناس يقولون: قفاك أحسن من وجه غيرك، وشمالك أندى من يمين سواك، فقدر أن هذا مثل ذاك. أعطوه ما أمل وعرفوه ما جهل(٢).

ج- ثمة أحوال أخرى تتعلق بالمخاطَب، كهيئته الخَلْقية، أو اسمه وكنيته، أو غيرها، أشار النقاد إلى رعايتها في سياق حديثهم عن أهمية رعاية مقتضى حال المخاطب، ومن شواهدها ما يروى أن ذا الرمة مدح عبد الملك بن مروان، فقال في مفتتح قصيدته يخاطب نفسه:

ما بالُ عَينِكَ مِنها الماءُ يَنسَكِبُ(٣)

ويقال: إن عبد الملك كانت عينه دائمة الدمع، فقال له: وما سؤالك عن هذا؟ فكرهه، وأمر بإخراجه(٤).

وقال المظفر العلوي (٦٥٦هـ): ((وينبغي للشاعر أن يتجنّب الألفاظ التي تشتبه على سامعيها وقارئيها))(٥)، وذكر من أمثلة ذلك ما جرى لأرطأة بن سُهيّة المُريّ عند عبدالملك بن مروان حيث قال في شعره:

رأيتُ المرءَ تأكلُهُ الليالي ... كأكْلِ الأرضِ ساقطةَ الحديدِ

وما تَبْغي المنِيَّةُ حين تأتي ... على نفْسِ ابنِ آدمَ من مَزيدِ

وأَعلمُ أنها ستَكُرُّ حتى ... تُوفِّي نَذْرَها بأبي الوليدِ

---

(١) الاقتضاب: ١/١٤١-١٤٢.

(٢) ينظر: ربيع الأبرار: ٤/٢٥٥، ونضرة الإغريض: ٤٢١.

(٣) صدر بيت، وعجزه: كأنه مِن كُلَى مَفْرِيّةٍ سَرَبُ. وهو في ديوان ذي الرمة بشرح الباهلي: ١/٩.

(٤) ينظر: العمدة: ١/٢٢٢، والمثل السائر: ٣/١٢١.

(٥) نضرة الإغريض: ٣٩٨.

وكان عبد الملك يكنى أبا الوليد، وهي كنية أرطأة، فارتاع عبد الملك، واشتد ذلك عليه، وتغير لون وجهه، ظنًا بأنه يعنيه، فقال له أرطأة: إني لم أعنك، وإنما عنيت نفسي، وشهد عنده جماعة أن كنيته أبو الوليد فأمسك عنه، ولولا ذلك لأوقع به وأهلكه(١).

وذكر ابن طباطبا (٣٢٢هـ) أن على الشاعر أن يجتنب التشبيب بامرأة يوافق اسمها اسم بعض نساء الممدوح(٢)، وليس الأمر في التشبيب دون غيره، بل في كل ما يمكن أن يوقع في الوهم وسوء الظن، ومن ذلك ما رواه المظفر العلوي (٦٥٦هـ) عن المصوِّر العَنَزي قال: دخلت على زياد فقال: أنشدنا، فقلت: مِن شعر مَن؟ قال: من شعر الأعشى، قال: فأُرْتِج عليّ ولم يحضرني إلا قوله:

رحَلَتْ سُميّةُ غُدْوَةً أجْمالَها   غَضْبى عليكَ فما تقولُ بَدا لَها(٣)

فقطّب زياد وغضب، وعرفتُ ما وقعتُ فيه، فخرجتُ منهزمًا، فلما أجاز الناس لم أستجر أن أرجع إليه؛ لأن أم زياد كان اسمها سمية(٤).

هذا شيء مما تناوله تراثنا البلاغي والنقدي لرعاية حال المخاطَب في حالاته المتنوعة، يتبين من خلاله أن تراثنا لم تضق به النظرة لتقصر الرعاية على طبقته الاجتماعية دون غيرها، كما أنه لم يقصر تناوله على وسيلة تعبيرية دون أخرى، فتناول الخطبة والرسالة والشعر وغيرها.

وبعد، فإن رعاية مقتضى أحوال المخاطبين بل مقتضى الحال عامة هي منهاج القرآن العظيم، ومنهاج الرسول الكريم، وهي من الحكمة إن لم تكن هي في قول الله U لرسوله r: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل: ١٢٥]، قال في (ظلال القرآن): ((الدعوة بالحكمة، والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم، والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها، والتنويع في هذه الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع

---

(١) المرجع السابق: ٣٩٩، وينظر: كتاب الصناعتين: ١٤٧، وعيار الشعر: ٢٠٧ مع اختلاف في الأبيات.

(٢) عيار الشعر: ٢٠٦.

(٣) البيت في ديوان الأعشى: ١٥٠.

(٤) ينظر: نضرة الإغريض: ٤٠٠.

والغيرة فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه))[1]، وقد قال الله U: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الأَلْبَابِ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

(١) في ظلال القرآن: ٤/٢٢٠٢.

المبحث الثاني: عناية النبي r بمعرفة أحوال المخاطبين[1].

لقد كان للنبي r عناية ظاهرة بمعرفة أحوال المخاطبين، وكان الدافع إلى هذه العناية تحقيق الحكمة التي أمر الله U رسوله r أن يسلكها في دعوته للخلق، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥]، والحكمة هي: ((الإصابة في الأقوال والأفعال، ووضع كل شيء في موضعه))[2].

ومن الحكمة تنزيل الناس منازلهم اللائقة بهم، ومخاطبتهم بما يناسبهم، فإن ذلك أدعى إلى قبول الدين، والرغبة في اتباعه، ولا يكون ذلك إلا بمعرفة أحوالهم، وقد روي عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «أمرنا رسول الله r أن نُنْزل الناس منازلهم»، وفي رواية أنها مر بها سائل فأعطته كسرة، ومر بها رجل عليه ثياب وهيئة فأقعدته، فأكل، فقيل لها في ذلك، فقالت: قال رسول الله r : «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ»[3].

---

(١) ينظر في هذا المبحث: بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار: ٣٣-٣٥، ومراعاة أحوال المخاطبين في ضوء الكتاب والسنة وسير الصالحين: ٣٣-١١٧، والحكمة في الدعوة إلى الله: ٣٣٥-٣٣٧، ومقومات الداعية الناجح: ١٠٤-١٠٦، وأساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة: ٦١٤-٦١٩.

(٢) الحكمة في الدعوة إلى الله: ٢٧.

(٣) ذكر مسلم الرواية الأولى معلقة في مقدمة صحيحه: ٦/١، وأخرج الرواية الثانية أبوداود في كتاب الأدب، باب في تنزيل الناس منازلهم، برقم (٤٨٤٢) عن ميمون بن أبي شبيب عن عائشة رضي الله عنها، وقال: (ميمون لم يدرك عائشة). قال النووي في مقدمة شرح صحيح مسلم: ١٩/١: ((أما قول مسلم في خطبة كتابه: وقد ذُكر عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «أمرنا رسول الله r أن نتزل الناس منازلهم» فهذا بالنظر إلى أن لفظه ليس جازمًا لا يقتضي حكمه بصحته، وبالنظر إلى أنه احتج به وأورده إيراد الأصول لا إيراد الشواهد يقتضي حكمه بصحته، ومع ذلك فقد حكم الحاكم أبو عبد الله الحافظ في كتابه (كتاب معرفة علوم الحديث) بصحته. وأخرجه أبو داود في سننه بإسناده منفردًا به، وذكر أن الراوي له عن عائشة ميمون بن أبي شبيب ولم يدركها. قال الشيخ -يعني ابن الصلاح-: وفيما قاله أبو داود نظر، فإنه كوفي متقدم قد أدرك المغيرة بن شعبة، ومات المغيرة قبل عائشة، وعند مسلم التعاصر مع إمكان التلاقي كاف في ثبوت الإدراك، فلو ورد عن ميمون أنه قال: لم ألق عائشة، استقام لأبي داود الجزم بعدم إدراكه، وهيهات ذلك. هذا آخر كلام الشيخ، قلت: وحديث عائشة هذا قد رواه البزار في مسنده، وقال: هذا الحديث لا يعلم عن النبي r إلا من هذا الوجه، وقد روي من غير هذا الوجه موقوفًا)). وصححه الحاكم في معرفة علوم الحديث في النوع السادس عشر: ٧٤، وحسنه السخاوي في المقاصد الحسنة: ١٦٤، برقم (١٧٩)، وينظر:

وقال ابن أبي جمرة (٦٩٥هـ) عند حديث وفد عبد القيس الآتي عند قوله r : «مَن القَوْم؟»: ((فيه دليل على أن السنة سؤال المقصود للقاصد عن نفسه، حتى يعرفه)) ثم قال: ((في هذا من الفقه أن يُنزل كل إنسان منزلته؛ لأن سؤاله u إنما كان لأجل هذا المعنى؛ لأنه u قد نص على ذلك في غير هذا الحديث، حيث قال: «أَنْزِلُوا النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ» فما نص عليه في هذا الحديث فعله فيما نحن بسبيله، فإذا لم يعرف الإنسان القادم عليه لم يتأت له أن ينزله منزلته))(١).

- **مظاهرها:**

وتظهر هذه العناية النبوية في عدة مظاهر، منها:

١- أن يتعرف النبي r على من يقصده وافدًا أو مستفتيًا أو من يلتقي به.

ومن الأمثلة ما ورد في حديث وفد عبد القيس عن ابن عباس t أن وفد عبد القيس لما أتوا النبي r قال: «مَن الْقَوْمُ؟» أو «مَن الْوَفْدُ؟» قالوا: ربيعة. قال: «مَرْحَبًا بِالْقَوْمِ -أو بِالْوَفْدِ- غَيْرَ خَزَايَا وَلا نَدَامَى»(٢).

وقد يسأل النبي r عن المستفتي كما في حديث زينب امرأة عبد الله بن مسعود t وعنها، قالت: كنت في المسجد، فرأيت النبي r ، فقال: «تَصَدَّقْنَ، وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ» وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام في حجرها، فقالت لعبد الله: سل رسول الله r : أيجزي عني أن أنفق عليك وعلى أيتام في حجري من الصدقة؟ فقال: سلي أنت رسول الله r ، فانطلقت إلى النبي r ، فوجدت امرأة من الأنصار على الباب، حاجتها مثل حاجتي، فمر علينا بلال، فقلنا: سل النبي r أيجزي عني أن أنفق على زوجي وأيتام لي في حجري؟ وقلنا: لا تخبر بنا، فدخل، فسأله، فقال: «مَنْ هُمَا؟» قال: زينب، قال: «أَيُّ الزَّيَانِبِ؟» قال: امرأة عبد الله، قال: «نَعَمْ، لَهَا أَجْرَانِ: أَجْرُ الْقَرَابَةِ، وَأَجْرُ الصَّدَقَةِ»(٣).

كشف الخفاء: ٢٢٥/١، برقم (٥٩٠)، وضعفه الألباني في: ضعيف سنن أبي داود: ٤٧٧، برقم (١٠٣٢)، وينظر: دليل الفالحين: ٢١٧/٢، وسلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٣٦٨/٤ برقم (١٨٩٤).

(١) بهجة النفوس: ٩٣/١-٩٤، وينظر: فتح الباري: ١٣١/١.

(٢) أخرجه البخاري (٥٣) ومسلم (١٧).

(٣) أخرجه البخاري: (١٤٦٦).

ولما لقي r ركبًا بالرَّوْحَاء، سألهم فقال: «مَن الْقَوْمُ؟» قالوا: المسلمون[(١)]، ولقي نفرًا من الخزرج عند العقبة، فقال لهم: «مِمَنْ أَنْتُم ؟» قالوا : نفر من الخزرج. قال: «أَمِنْ مَوَالِي يَهُوْدَ ؟» قالوا: نعم. قال: «أَفَلا تَجْلِسُونَ أُكَلِّمكُم ؟» قالوا: بلى. فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن، ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم قد آمنوا وصدقوا[(٢)].

٢- ومن ذلك أنه r إذا أرسل أحد أصحابه إلى قوم أخبره بصفتهم، إن لم يكن منهم؛ ليدعوهم أو يتولى أمرهم على بصيرة، كما روى ابن عباس t قال: قال رسول الله r لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[(٣)]. قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ» هي كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان))[(٤)].

٣- ومن ذلك أنه r إذا فقد أحد أصحابه سأل عن حاله، كما في حديث أنس بن مالك t قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية [الحجرات: ٢] جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي r ، فسأل النبي r سعد بن معاذ فقال: «يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ اشْتَكَى؟» قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول

(١) أخرجه مسلم: (١٣٣٦) عن ابن عباس t .

(٢) ذكره ابن هشام في السيرة عن ابن إسحاق: ٢/٢٩٢، والبيهقي في دلائل النبوة: ٢/٤٣٣، وحسنه الألباني في تعليقه على فقه السيرة للغزالي: ١٥٤، وينظر: طبقات ابن سعد: ١/٢١٩.

(٣) أخرجه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

(٤) فتح الباري: ٣/٣٥٨.

رسول الله r ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله r ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي r ، فقال رسول الله r : «بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»[١]، وعن معاوية بن قرة المزني عن أبيه t قال: كان نبي الله r إذا جلس يجلس إليه نفر من أصحابه، وفيهم رجل له ابن صغير يأتيه من خلف ظهره، فيقعده بين يديه، فهلك، فامتنع الرجل أن يحضر الحلقة لذكر ابنه، فحزن عليه، ففقده النبي r فقال: «مَالِي لا أَرَى فُلانًا؟» قالوا: يا رسول الله، بُنَيُّه الذي رأيته هلك، فلقيه النبي r فسأله عن بنيه، فأخبره أنه هلك، فعزاه عليه، ثم قال: «يَا فُلانُ، أَيُّمَا كَانَ أَحَبُّ إِلَيْكَ؛ أَنْ تَمَتَّعَ بِهِ عُمْرَكَ، أَوْ لا تَأْتِي غَدًا إِلَى بَابٍ مِنْ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ إِلاَّ وَجَدْتَهُ قَدْ سَبَقَكَ إِلَيْهِ يَفْتَحُهُ لَكَ؟» قال: يا نبي الله، بل يسبقني إلى باب الجنة فيفتحها لي لهو أحب إليّ، قال: «فَذَاكَ لَكَ»[٢].

- **آثارها:**

ولقد كان لهذه العناية آثار بالغة في نجاح الدعوة إلى الله والجهاد في سبيله، والتأثير في نفوس الخلق، ويمكن أن نتلمس شيئًا من هذه الآثار فيما يلي:

١- تحقق الحكمة في الدعوة إلى الله U.

وكيف لا تتحقق في النبي r وهو الذي ملأ الله U قلبه حكمة وإيمانًا، كما ورد في حديث المعراج الذي رواه أبو ذر t أن رسول الله r قال: «فُرِجَ عَنْ سَقْفِ بَيْتِي وَأَنَا بِمَكَّةَ، فَنَزَلَ جِبْرِيلُ r فَفَرَجَ صَدْرِي، ثُمَّ غَسَلَهُ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ جَاءَ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مُمْتَلِئٍ حِكْمَةً وَإِيمَانًا، فَأَفْرَغَهُ فِي صَدْرِي، ثُمَّ أَطْبَقَهُ»[٣].

وهذا أثر عام يدخل فيه ما بعده.

٢- الدعوة إلى الله على بصيرة.

وقد قال الله U لنبيه r : ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ

(١) أخرجه البخاري: (٣٦١٣) ، ومسلم: (١١٩) واللفظ له.

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الجنائز، باب في التعزية، برقم (٢٠٨٨)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ٢/٤٤٩، برقم (١٩٧٤).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٤٩) ، ومسلم: (١٦٣).

اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

٣- تنزيل الناس منازلهم.

وهذا من الخلق العظيم الذي اتصف به النبي r ، وأكده الله U في قوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، وقد سبق ما روي عن النبي r في هذا المعنى، ومن ذلك أيضًا قوله في حديث أبي موسى الأشعري t قال: قال رسول الله r : «إِنَّ مِنْ إِجْلالِ اللهِ إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ، وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الْغَالِي فِيهِ وَالْجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامَ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ»(١).

وفي رسائله إلى الملوك والرؤساء نلحظ هذا الأثر جليًا في وصفه للمرسَل إليهم، كما في رسالته إلى هرقل: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»(٢)، وفي رسالته إلى المقوقس قال: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْمُقَوقِسِ عَظِيمِ القِبْطِ»، وفي رسالته إلى النجاشي قال: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ»(٣).

٤- القدرة على التعامل مع الأعداء بما يناسب أحوالهم.

وهذا واضح في سيرة النبي r وجهاده، ومن الشواهد على ذلك ما ورد في قصة الحديبية أن عروة بن مسعود قال لقومه بعد أن أتى النبي r : إنه قد عرض عليكم خطة رشد فاقبلوها، فقال رجل من بني كنانة: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما أشرف على النبي r وأصحابه قال رسول الله r : «هَذَا فُلانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ» فبعثت له، واستقبله الناس يُلبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحان الله! ما ينبغي لهؤلاء أن يُصدوا عن البيت، فلما رجع إلى أصحابه قال: رأيت البدن قد قُلِّدت وأُشعِرت، فما أرى أن يصدوا عن البيت، فقام رجل منهم يقال له مكرز بن حفص، فقال: دعوني آتيه، فقالوا: ائته، فلما

---

(١) أخرجه أبوداود في كتاب: الأدب، باب: في تنزيل الناس منازلهم، برقم (٤٨٤٣)، وحسنه العراقي في المغني في تخريج الإحياء: ٣٠٥/٢، وابن حجر في التلخيص الحبير: ١١٨/٢، والألباني في: صحيح سنن أبي داود: ٩١٨/٣، برقم (٤٠٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٧) ، ومسلم: (١٧٧٣).

(٣) ينظر في هذه الرسائل وغيرها: طبقات ابن سعد: ٢٥٨/١-٢٩١، وزاد المعاد: ٦٨٨/٣-٦٩٧، ونصب الراية: ٤١٨/٤-٤٢٥.

أشرف عليهم قال النبي r : «هَذَا مِكْرَزٌ وَهُوَ رَجُلٌ فَاجِرٌ» فجعل يكلم النبي r ، فبينما هو يكلمه إذ جاءِ سهيل بن عمرو فقال النبي r : «لَقَدْ سَهُلَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ»(١).

٥- اختيار الأوقات المناسبة للموعظة.

وفي هذا مراعاة لحال النفس البشرية، التي يرد عليها السآمة والملل، فكان r يتخول أصحابه بالموعظة، كما ورد عن عبد الله بن مسعود t أنه كان يذكر الناس في كل خميس، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم. قال: أما إنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أُمِلَّكم، وإني أتخولكم بالموعظة كما كان النبي r يتخولنا بها مخافة السآمة علينا(٢).

٦- توصية كل شخص بما يناسب حاله.

إذ ليس من الحكمة أن توصي بحسن الخلق من يتحلى به، أو بطلب العلم من هو حريص عليه، ولكن انظر فيما يفتقده فأوصه به، ليتم به حاله، وتتكامل شخصيته، وهذا ما يظهر من وصايا النبي r لأصحابه الذين يستوصونه، فيوصيهم بما يناسب حالهم، وما هم إليه أحوج، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة t أن رجلاً قال للنبي r : أوصني. قال: «لا تَغْضَبْ» فردد مرارًا، قال: «لا تَغْضَبْ»(٣)، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) في شرح هذا الحديث عن بعض أهل العلم قوله: ((لعل السائل كان غضوبًا، وكان النبي r يأمر كل أحد بما هو أولى به، فلهذا اقتصر في وصيته له على ترك الغضب))(٤).

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي قال: قلت: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدًا بعدك. قال: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ فَاسْتَقِمْ»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٧٣٤).
(٢) أخرجه البخاري (٧٠) ومسلم (٢٨٢١).
(٣) أخرجه البخاري (٦١١٦).
(٤) فتح الباري: ١٠/٥٢٠.
(٥) أخرجه مسلم: (٦٢).

وعن أبي هريرة t أن رجلاً قال: يا رسول الله، إني أريد أن أسافر فأوصني. قال: «عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللهِ وَالتَّكْبِيرِ عَلَى كُلِّ شَرَفٍ» فلما أن ولَّى الرجل، قال: «اللَّهُمَّ اطْوِ لَهُ الأَرْضَ، وَهَوِّنْ عَلَيْهِ السَّفَرَ»(1).

وعن عبد الله بن بُسر t أن أعرابيًا قال لرسول الله r: إن شرائع الإسلام قد كثرت عَلَيَّ، فأنبئني منها بشيء أَتَشَبَّث به. قال: «لا يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللهِ U»(2).

ومن ذلك توصية عبد الله بن عمرو t بما يناسب حاله من الصيام والقيام وقراءة القرآن، كما في حديث عبد الله بن عمرو t قال: دخل عليَّ رسول الله r فقال: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَقُومُ اللَّيْلَ وَتَصُومُ النَّهَارَ؟» قلت: بلى. قال: «فَلا تَفْعَلْ، قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ؛ فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّكَ عَسَى أَنْ يَطُولَ بِكَ عُمُرٌ. وَإِنَّ مِنْ حَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَذَلِكَ الدَّهْرُ كُلُّهُ» قال: فشدَّدْت، فشُدِّد عليَّ، فقلت: فإني أطيق غير ذلك. قال: «فَصُمْ مِنْ كُلِّ جُمُعَةٍ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ» قال: فشدَّدْت، فشُدَّد عليَّ، قلت: أطيق غير ذلك. قال: «فَصُمْ صَوْمَ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ» قلت: وما صوم نبي الله داود؟ قال: «نِصْفُ الدَّهْرِ». وفي رواية قال النبي r: «فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ عَيْنُكَ، وَنَفِهَتْ نَفْسُكَ» وفي رواية قال: «فَإِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ» قال عبد الله بن عمرو t: لأن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله r أحب إلي من أهلي ومالي. وفي رواية قال: فليتني قبلت رخصة رسول الله r وذاك أني كبرت وضعفت(3).

---

(1) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ٤٦، برقم (٣٤٤٥)، وقال: (هذا حديث حسن)، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/٤٤٥-٤٤٦، ووافقه الذهبي في تلخيصه: ١/٤٤٦، وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣/١٥٦، برقم (٢٧٤٠)، وينظر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤/٣٠٨، برقم (١٧٣٠).

(2) أخرجه الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، برقم (٣٣٧٥)، وابن ماجه: كتاب الأدب، باب فضل الذكر، برقم (٣٧٩٣)، وقال الترمذي: ((هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه))، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣/١٣٩، برقم (٢٦٨٧).

(3) أخرجه البخاري (١١٥٣و١٩٧٦ و٥٠٥٢ و٦١٣٤) ومسلم (١١٥٩).

٧- إجابة كل سائل بما يناسب حاله.

كما في حديث الأعرابي الذي سأل رسول الله r عن الهجرة، فقال: «وَيْحَكَ إِنَّ شَأْنَهَا شَدِيدٌ، فَهَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ تُؤَدِي صَدَقَتَهَا؟» قال: نعم، قال: «فَاعْمَلْ مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَتِرَكَ مِنْ عَمَلِكَ شَيْئًا»[1]، هذا مع الترغيب في الهجرة إلى المدينة وسكناها، قال النووي: ((قال العلماء: والمراد بالهجرة التي سأل عنها هذا الأعرابي ملازمة المدينة مع النبي r ، وترك أهله ووطنه، فخاف عليه النبي r أن لا يقوى لها، ولا يقوم بحقوقها، وأن ينكص على عقبيه، فقال له: إن شأن الهجرة التي سألت عنها لشديد، ولكن اعمل بالخير في وطنك، وحيثما كنت، فهو ينفعك، ولا ينقصك الله منه شيئًا، والله أعلم))[2].

وربما زاد النبي r في الجواب فأفاد السائل غير ما سأل عنه مما يحتاج إليه، كما في حديث أبي هريرة t أن رجلاً سأل النبي r قال: يا رسول الله، إنا نركب البحر، ونحمل معنا القليل من الماء، فإن توضأنا به عطشنا، أ فنتوضأ بماء البحر؟ فقال رسول الله r : «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»[3]، وفي رواية أن السائل ناس صيادون في البحر[4]، قال العظيم أبادي: ((المفتي إذا سئل عن شيء وعلم أن للسائل حاجة إلى ذكر ما يتصل بمسألته استحب تعليمه إياه؛ لأن الزيادة في الجواب بقوله: «الْحِلُّ مَيْتَتُهُ» لتتميم الفائدة وهي زيادة تنفع

---

(١) أخرجه البخاري: (١٤٥٢) ، ومسلم: (١٨٦٥) عن أبي سعيد الخدري t .

(٢) شرح صحيح مسلم: ٩/١٣.

(٣) أخرجه أحمد: ٢٣٧/٢ و٣٦١/٢، وأبو داود: كتاب الطهارة، باب الوضوء بماء البحر، برقم (٨٣)، والترمذي: أبواب الطهارة، باب ما جاء في ماء البحر أنه طهور، برقم (٦٩)، والنسائي: كتاب الطهارة، باب ماء البحر، برقم (٥٩)، وابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر، برقم (٣٨٦)، وصححه جمع من المحدثين، منهم البخاري، والترمذي، وابن خزيمة، وابن حبان، وابن المنذر، والخطابي، والطحاوي، وابن مندة، والحاكم، وابن حزم، والبيهقي، وعبد الحق الإشبيلي، وابن عبد البر، والنووي، وغيرهم، نقل ذلك عن جمع منهم ابن حجر في تهذيب التهذيب في ترجمة المغيرة بن أبي بردة: ٢٥٦/١٠، والتلخيص الحبير: ٩/١-١٠، وشعيب الأرناؤوط وصاحبه في تحقيق المسند بإشراف التركي: ١٧١/١٢.

(٤) أخرجه أحمد: ٣٩٢/٢، وينظر: ابن ماجه: كتاب الطهارة وسننها، باب الوضوء بماء البحر، برقم (٣٨٧).

لأهل الصيد، وكأن السائل منهم[1]، وهذا من محاسن الفتوى))[2]، ويتعلق هذا بالفن البلاغي (الأسلوب الحكيم)[3].

وقد يسأل السؤال الواحد أكثر من شخص فتختلف أجوبة النبي r على حسب اختلاف أحوال السائلين، ومن ذلك ما يروى عن عبد الله بن عمرو t قال: كنا عند النبي r ، فجاء شاب، فقال: يا رسول الله، أُقَبِّل وأنا صائم؟، قال: «لا» فجاء شيخ فقال: أُقَبِّل وأنا صائم؟، قال: «نعم» قال: فنظر بعضنا إلى بعض، فقال رسول الله r : «قَدْ عَلِمْتُ لِمَ نَظَرَ بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ ؟ إِنَّ الشَّيْخَ يَمْلِكُ نَفْسَهُ»[4]، وما يروى عن أبي هريرة t أن رجلاً سأل النبي r عن المباشرة للصائم فرَخَّص له، وأتاه آخر فسأله، فنهاه، فإذا الذي رَخَّص له شيخ، والذي نهاه شاب[5].

ومن ذلك ما ورد في اختلاف الأجوبة عن أسئلة الصحابة عن أفضل الأعمال، ففي حديث أبي هريرة t أن رسول الله r سئل: أي العمل أفضل؟ فقال: «إِيمَانٌ بِاللهِ وَرَسُولِهِ» قيل: ثم ماذا؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ» قيل: ثم ماذا؟ قال: «حَجٌّ مَبْرُورٌ»[6]، وفي حديث ابن مسعود t قال: سألت النبي r : أي العمل أحب إلى الله؟ قال: «الصَّلاةُ عَلَى وَقْتِهَا» قال: ثم أي؟ قال: «ثُمَّ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ» قال: ثم أي؟ قال: «الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ

---

(١) بل هو منهم كما ورد في الروايات الأخرى.

(٢) عون المعبود: ١/١٠٧.

(٣) هو: تلقي المخاطب بغير ما يترقب، أو السائل بغير ما يتطلب، وسيأتي حديث عنه في المبحث الخامس من الفصل الخامس.

(٤) أخرجه أحمد (٢/١٨٥ و٢٢١)، وذكره الهيثمي في مجمع الزوائد: ٣/١٦٩، وقال: ((رواه أحمد والطبراني في الكبير، وفيه ابن لهيعة، وحديثه حسن، وفيه كلام))، وضعفه ابن حزم في المحلى: ٦/٢٠٨، وشعيب الأرناؤوط وأصحابه في تحقيق المسند بإشراف التركي: ١١/٣٥١، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند: ١١/٢٥، وذكره الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة ٤/١٣٨ برقم (١٦٠٦)، وقال بعد أن أورد إسناد أحمد: ((هذا إسناد لا بأس به في الشواهد، رجاله ثقات غير ابن لهيعة؛ فإنه سيء الحفظ، لكن لحديثه شواهد، كنت ذكرتها قديمًا في (التعليقات الجياد) يتقوى الحديث بها)) وذكر بعض الشواهد.

(٥) أخرجه أبو داود: كتاب الصوم، باب كراهيته للشاب، برقم (٢٣٨٧)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٢/٤٥٣ برقم (٢٠٩٠).

(٦) أخرجه البخاري: (٢٦) ، ومسلم: (٨٣).

الله»[1]، وفي حديث أبي أمامة t أنه سأل رسول الله r: أي العمل أفضل؟ قال: «عَلَيْكَ بِالصَّوْمِ فَإِنَّهُ لا عِدْلَ لَهُ»[2]، وفي حديث عبد الله بن عمرو t أن رجلاً سأل النبي r: أي الإسلام خير؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتَقْرَأُ السَّلامَ عَلَى مَنْ عَرَفْتَ وَعَلَى مَنْ لَمْ تَعْرِفْ»[3]، وفي حديث أبي موسى t قال: قالوا: يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: «مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[4]، وفي حديث قتادة، عن رجل من خثعم قال: أتيت النبي r وهو في نفر من أصحابه، قال: قلت: أنت الذي تزعم أنك رسول الله؟ قال: «نَعَمْ» قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «إِيْمَانٌ بِاللهِ» قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال: «ثُمَّ صِلَةُ الرَّحِمِ» قال: قلت: يا رسول الله، أي الأعمال أبغض إلى الله؟ قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ» قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال: «ثُمَّ قَطِيْعَةُ الرَّحِمِ» قال: قلت: يا رسول الله، ثم مه؟ قال: «ثُمَّ الأَمْرُ بِالْمُنْكَرِ وَالنَّهْيُ عَنِ الْمَعْرُوفِ»[5].

وذكر أهل العلم من وجوه الجمع بين هذه الأحاديث أن اختلاف الأجوبة جرى على حسب اختلاف الأحوال واحتياج المخاطبين، وذكر ما لم يعلمه السائل والسامعون، وترك ما علموه[6].

٨- درء المفاسد، والترجيح بين المصالح.

فقد يترك النبي r ما هو أولى، مراعاة لأحوال المخاطبين، جلبًا للمصالح المعتبرة ودرءًا للمفاسد المتوقعة.

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٢٧)، ومسلم: (٨٥).

(٢) أخرجه النسائي: كتاب الصيام، باب ذكر الاختلاف على محمد بن أبي يعقوب في حديث أبي أمامة في فضل الصائم، برقم (٢٢٢٢)، وصححه الألباني في صحيح سنن النسائي: ٤٧٦/٢، برقم (٢٠٩٩).

(٣) أخرجه البخاري: (١٢)، ومسلم (٣٩).

(٤) أخرجه البخاري (١١) ومسلم (٤٢).

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده: ٢٢٩/١٢، برقم (٦٨٣٩)، و ابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني: ٣٤١/٥، برقم (٢٩٠١)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد ١٥٤/٨: ((رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح، غير نافع بن خالد الطاحي، وهو ثقة)).

(٦) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٠/٢ و٧٧، وفتح الباري: ٥٦/١ و٧٩.

من ذلك تركه تأخير صلاة العشاء، كما في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أعتم النبي r ذات ليلة حتى ذهب عامة الليل، وحتى نام أهل المسجد، ثم خرج فصلى، فقال: «إِنَّهُ لَوَقْتُهَا لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي»(١).

ومن ذلك تركه قتل المنافقين، كما في حديث جابر t في قصة كَسْع المهاجري للأنصاري بعد غزوة المريسيع، وأن عبد الله بن أُبَيّ ابن سلول قال: أقد تداعوا علينا؟، لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فقال عمر t : ألا نقتل يا رسول الله هذا الخبيث؟ فقال النبي r : «لا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّهُ كَانَ يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»(٢)، وقال مثل ذلك مع الرجل الذي أتاه وهو بالجعرانة منصرفه من حنين، وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله r يقبض منها يعطي الناس، فقال: يا محمد، اعدل. قال: «وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ؟! لَقَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ» فقال عمر بن الخطاب t : دعني يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق. فقال: «مَعَاذَ اللهِ أَنْ يَتَحَدَّثَ النَّاسُ أَنِّي أَقْتُلُ أَصْحَابِي...» الحديث(٣).

ومن ذلك إمضاؤه لأم عطية رضي الله عنها شرطها أن لا تبايع حتى تقضي ما عليها من النياحة لجارة لها، كما في حديثها قالت: بايعنا رسول الله r فقرأ علينا: ﴿أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا﴾ [الممتحنة: ١٢]، ونهانا عن النياحة، فقبضت امرأة يدها فقالت: أَسْعَدَتني فلانة، أريد أن أجزيها. فما قال لها النبي r شيئًا، فانطلقت، ورجعت، فبايعها. وفي رواية: فقلت: يا رسول الله، إلا آل فلان؛ فإنهم كانوا أسعدوني في الجاهلية، فلا بد لي من أن أسعدهم. فقال رسول الله r : «إِلا آلَ فُلانٍ»(٤).

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٦٦) ، ومسلم: (٦٣٨) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري: (٣٥١٨) ، ومسلم: (٢٥٨٤).

(٣) أخرجه البخاري: (٣١٣٨ و٣٦١٠) ، ومسلم: (١٠٦٣) وهذا لفظه.

(٤) أخرجه البخاري: (٤٨٩٢) ، ومسلم: (٩٣٧). قال ابن حجر في فتح الباري: ٦٣٨/٨ : ((الإسعاد: قيام المرأة مع الأخرى في النياحة تراسلها، وهو خاص بهذا المعنى، ولا يستعمل إلا في البكاء والمساعدة عليه)).

ولما أرادت ثقيف أن تسلم اشترطت على النبي r أن لا صدقة عليها ولا جهــاد، وذكر جابر t أن النبي r قال: «سَيَتَصَدَّقُونَ وَيُجَاهِدُونَ إِذَا أَسْلَمُوا»[1].

ومن ذلك تركه الأعرابي يبول في المسجد، وأمر أصحابه أن يدعوه حتى يفرغ، كما في حديث أنس بن مالك t قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله r، إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله r: مه مه. قال: قال: رسول الله r: «لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله r دعاه فقال له: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ عَزَّ وَجَــلَّ، وَالصَّــلاةِ، وَقِــرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أو كما قال رسول الله r، قال: فأمر رجلاً من القوم فجاء بدلو من مــاء فشَــنَّه عليه[2]. قال ابن حجر (٨٥٢هـــ): ((لم ينكر النبي r على الصحابة ولم يقل لهم: لم نهيتم الأعرابي؟ بل أمرهم بالكف عنه للمصلحة الراجحة، وهو دفع أعظم المفسـدتين باحتمــال أيسرهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بترك أيسرهما))[3]، وقال في موضع آخر: ((إنما تركــوه يبول في المسجد لأنه كان شرع في المفسدة، فلو منع لزادت، إذ حصل تلويث جــزء مــن المسجد، فلو منع لدار بين أمرين: إما أن يقطعه فيتضرر، وإما أن لا يقطعه فلا يــأمن مــن تنجيس بدنه أو ثوبه أو مواضع أخرى من المسجد))[4].

ومن ذلك تركه بناء الكعبة على قواعد إبراهيم u مراعاة لحداثة إسلام أهل مكة، كما روت عائشة رضي الله عنها أن النبي r قال لها: «يَا عَائِشَةُ لَوْلا أَنَّ قَوْمَــكِ حَــدِيثُ عَهْدٍ بِجَاهِلِيَّةٍ لأَمَرْتُ بِالْبَيْتِ، فَهُدِمَ، فَأَدْخَلْتُ فِيهِ مَا أُخْرِجَ مِنْهُ، وَأَلْزَقْتُهُ بِالأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهُ بَابَيْنِ؛ بَابًا شَرْقِيًّا، وَبَابًا غَرْبِيًّا، فَبَلَغْتُ بِهِ أَسَاسَ إِبْرَاهِيمَ»، وفي رواية قالت: سألت الــنبي r عن الجَدْر أمن البيت هو؟ قال: «نَعَمْ» قلت: فما لهم لم يدخلوه في البيت؟ قــال: «إِنَّ قَوْمَكِ قَصَّرَتْ بِهِمْ النَّفَقَةُ» قلت: فما شأن بابه مرتفعًا. قال: «فَعَلَ ذَلِكَ قَوْمُكِ لِيُدْخِلُوا مَنْ

---

(١) أخرجه أحمد: ٣٤١/٣، وأبو داود: كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب ما جــاء في خــبر الطــائف، بــرقم (٣٠٢٥)، عن جابر t، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٥٠٩/٤، برقم (١٨٨٨).

(٢) أخرجه البخاري: (٢١٩)، ومسلم: (٢٨٥) واللفظ له.

(٣) فتح الباري: ٣٢٤/١-٣٢٥.

(٤) المرجع السابق: ٣٢٣/١.

شَاءُوا، وَيَمْنَعُوا مَنْ شَاءُوا، وَلَوْلا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثٌ عَهْدُهُمْ بِالْجَاهِلِيَّةِ، فَأَخَافُ أَنْ تُنْكِرَ قُلُوبُهُمْ، أَنْ أُدْخِلَ الْجَدْرَ فِي الْبَيْتِ وَأَنْ أُلْصِقَ بَابَهُ بِالأَرْضِ»(١)، وترجم البخاري على هذا الحديث في كتاب العلم: ((باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه))، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((في الحديث معنى ما ترجم له؛ لأن قريشًا كانت تعظم أمر الكعبة جدًا، فخشي r أن يظنوا لأجل قرب عهدهم بالإسلام أنه غير بناءها لينفرد بالفخر عليهم في ذلك. ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع في المفسدة، ومنه ترك إنكار المنكر خشية الوقوع في أنكر منه، وأن الإمام يسوس رعيته بما فيه إصلاحهم، ولو كان مفضولاً ما لم يكن محرمًا))(٢).

٩- التفريق بين الأشخاص في إعطاء المال.

ويكون التفريق بناء على قوة الإيمان أو ضعفه، ومن ذلك ما رواه سعد بن أبي وقاص t أن رسول الله r أعطى رهطًا وسعد جالس، قال: فترك رسول الله r رجلاً هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أَوْ مُسْلِمًا»، فسكتُّ قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي فقلت: ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أَوْ مُسْلِمًا» ، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله r ، ثم قال: «يَا سَعْدُ، إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»(٣).

ومن ذلك أنه أعطى الناس من غنائم حنين وترك الأنصار، فوجدوا في أنفسهم على رسول الله r ، فقال لهم: «إِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ. أَفَلا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالأَمْوَالِ، وَتَرْجِعُونَ إِلَى رِحَالِكُمْ بِرَسُولِ اللهِ، فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» فقالوا: بلى يا رسول الله، قد رضينا(٤).

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢٦ و١٥٨٤ و١٥٨٦) ، ومسلم: (١٣٣٣).

(٢) فتح الباري: ١/٢٢٥.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٧) ، ومسلم: (١٥٠).

(٤) أخرجه البخاري: (٣١٤٧ و٤٣٣١) ، ومسلم: (١٠٥٩).

ومن ذلك حديث عمرو بن تغلب t أن رسول الله r أتي بمال أو سبي، فقسمه، فأعطى رجالاً وترك رجالاً، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَوَاللهِ، إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ، وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِن الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِن الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِن الْغِنَى وَالْخَيْرِ، فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ»(١).

١٠- التفريق بين الأشخاص في قبول الصدقة.

من ذلك أنه أمر بعض أصحابه أن يمسكوا بعض صدقاتهم، كما ورد في حديث كعب بن مالك t في قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا قال: يا رسول الله، إن من توبتي أن أنخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله، فقال الرسول r : «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِك، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ»(٢).

ولما جاء فقير يتصدق رد عليه صدقته كما روى أبو سعيد الخدري t قال: جاء رجل يوم الجمعة -والنبي r يخطب- بهيئة بذة، فقال له رسول الله r : «أَصَلَّيْتَ؟» قال: لا. قال: «صَلِّ رَكْعَتَيْنِ» وحث الناس على الصدقة، فألقوا ثيابًا، فأعطاه منها ثوبين. فلما كانت الجمعة الثانية جاء ورسول الله r يخطب، فحث الناس على الصدقة، قال: فألقى أحد ثوبيه، فقال رسول الله r : «جَاءَ هَذَا يَوْمَ الْجُمُعَةِ بِهَيْئَةٍ بَذَّةٍ، فَأَمَرْتُ النَّاسَ بِالصَّدَقَةِ، فَأَلْقَوْا ثِيَابًا، فَأَمَرْتُ لَهُ مِنْهَا بِثَوْبَيْنِ، ثُمَّ جَاءَ الآنَ، فَأَمَرْتُ النَّاسَ بِالصَّدَقَةِ، فَأَلْقَى أَحَدَهُمَا» فانتهره، وقال: «خُذْ ثَوْبَكَ»(٣).

وأما أبو بكر t فقد كان النبي r يقبل منه أن يتصدق بكل ماله، كما روى عمر t قال: أمرنا رسول الله r يومًا أن نتصدق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق

---

(١) أخرجه البخاري: (٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٢٧٥٨ و٤٤١٨) ، ومسلم: (٢٧٦٩).

(٣) أخرجه النسائي: كتاب الجمعة، باب حث الإمام على الصدقة يوم الجمعة في خطبته، برقم (١٤٠٨)، وكتاب الزكاة، باب إذا تصدق وهو محتاج إليه هل يرد عليه؟، برقم (٢٥٣٦) ، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب الرجل يخرج من ماله، برقم (١٦٧٥)، وحسنه الألباني في صحيح سنن النسائي: ١/٣٠٥، برقم (١٣٣٥).

أبا بكر، إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله r: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟» قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر t بكل ما عنده، فقال له رسول الله r: «مَا أَبْقَيْتَ لأَهْلِكَ؟» قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلى شيء أبدًا[(١)].

قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في الفتح: ((التصدق بجميع المال يختلف باختلاف الأحوال، فمن كان قويًا على ذلك يعلم من نفسه الصبر لم يمنع، وعليه يتنزل فعل أبي بكر الصديق، وإيثار الأنصار على أنفسهم المهاجرين ولو كان بهم خصاصة، ومن لم يكن كذلك فلا، وعليه يتنزل: «لا صَدَقَةَ إِلاَّ عَنْ ظَهْرِ غِنًى»، وفي لفظ: «أَفْضَلُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى»[(٢)]))[(٣)].

١١- اختيار قائد الجيش الذي له صلة بالمحاربين.

ومن ذلك أن النبي r لما علم أن جمعًا من قضاعة تجمعوا يريدون المدينة عقد لعمرو ابن العاص t لواءً، وبعثه في ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار، وأمره أن يستنفر من يمر به من العرب من بَلِيّ وغيرهم، وكانت أم العاص بن وائل من بَلِيّ.

قال المؤرخ ابن هشام (٢١٣هـ): ((بعثه يستنفر العرب إلى الشام، وذلك أن أم العاص بن وائل كانت امرأة من بَلِيّ، فبعثه رسول الله r إليهم يستألفهم لذلك))[(٤)].

١٢- الثناء على الصفات الحسنة، والتنبيه إليها، حثًا للناس على الاقتداء بأصحابها.

عن أبي موسى t قال: قال النبي r: «إِنَّ الأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أَرْمَلُوا فِي الْغَزْوِ، أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ، جَمَعُوا مَا كَانَ عِنْدَهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ، فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»[(١)].

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الزكاة، باب في الرخصة في ذلك، برقم (١٦٧٨)، والترمذي: كتاب المناقب، باب في مناقب أبي بكر وعمر رضي الله عنهما كليهما، برقم (٣٦٧٥)، وقال: ((هذا حديث حسن صحيح))، وصححه الحاكم في المستدرك: ١/٤١٤، ووافقه الذهبي في تلخيصه: ١/٤١٤، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/٣١٥، برقم (١٤٧٥).

(٢) أخرجه البخاري: (١٤٢٦) عن أبي هريرة t.

(٣) فتح الباري: ١١/٥٧٤.

(٤) سيرة ابن هشام: ٤/١٠٤٠، وينظر: طبقات ابن سعد: ٢/١٣١.

وقال الرسول r لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ لَخَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمُ وَالأَنَاةُ»[٢].

١٣- التنبيه على مواطن الخلل والقصور لدى أصحابه y، ليجتنبوها.

ومن ذلك حديث ابن عمر t قال: رأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مطوية كطي البئر، وإذا لها قرنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، فلَقِيَنا ملك آخر فقال لي: لم ترع، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله r، فقال: «نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِن اللَّيْلِ» فكان بعد لا ينام من الليل إلا قليلاً[٣].

وعن عبد الله بن عمرو t قال: قال لي رسول الله r: «يَا عَبْدَ اللهِ، لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ؛ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»[٤].

١٤- اختيار الوسائل التعبيرية والأساليب البلاغية الملائمة لحال المدعوين.

وهذا الذي يعالجه البحث، وإليه نتجه مستعينين بالله المعين.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٤٨٦)، ومسلم: (٢٥٠٠).

(٢) أخرجه مسلم: (١٧ و١٨) عن ابن عباس وأبي سعيد y.

(٣) أخرجه البخاري: (١١٢٢)، ومسلم: (٢٤٧٩).

(٤) أخرجه البخاري: (١١٥٢)، ومسلم: (١١٥٩).

الفصل الأول

العوامل المؤثرة

في رعاية حال المخاطب

- المبحث الأول: الديانة.
- المبحث الثاني: البيئة.
- المبحث الثالث: المنزلة.
- المبحث الرابع: الجنس والعمر.
- المبحث الخامس: الصفات السلوكية.
- المبحث السادس: عدد المخاطبين.

مدخل:

قال الله U: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢]، وقال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وقال: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨]، وقال: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى $ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾ [العلق: ٦-٧].

وفي الحديث القدسي: «إِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُم الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا»(١).

وعن أبي هريرة t قال: قال رسول الله r: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلا يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أو يُنَصِّرَانِهِ أو يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ» ثم يقول أبو هريرة: واقرءوا إن شئتم: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ الآيَةَ [الروم: ٣٠](٢).

هذه بعض النصوص التي تدل على أن المرء يولد على فطرة إنسانية في عقيدته وسلوكه، لكن هذه الفطرة يطرأ عليها تغيرات سلبية أو إيجابية.

هذه التغيرات تحصل بعدة عوامل تؤثر في تكوين شخصية الإنسان، وتباينه عن غيره، وقد أشارت النصوص إلى بعض منها، كما أشارت إلى مدى قابلية النفس للاستجابة لها.

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٨٦٥).

(٢) أخرجه البخاري: (١٣٥٩) ، ومسلم: (٢٦٥٨).

وقد ذكر الباحثون في علم النفس عدة عوامل تؤثر في تكوين الشخصية والفـــروق الفردية، منها: الوراثة والخلقة، والبيئة، وأساليب التنشئة، والجنس، والعمر الزمني، والتدين، ومترلة الشخص وطبقته الاجتماعية، وغيرهن من العوامل(١).

ويلحظ في خطاب النبي r لغيره مراعاته للعوامل المؤثرة في شخصـــية المخاطـــب، وبرز لي منها ديانته ومستوى تدينه، وبيئته التي عاش فيها واكتســـب طباعهـــا، ومترلتـــه الاجتماعية أو الوظيفية التي تضفي عليه طابعًا معينًا، وجنسه ذكرًا أو أنثى، وعمره كهلاً أو شابًا أو طفلاً، وصفاته السلوكية التي يتصف بها، وهل المخاطب فرد أو جماعة؟.

وسأذكر كل واحد من هذه في مبحث مستشهدًا له ببعض الأمثلة التي تبين رعايـــة النبي r له.

(١) ينظر: الشخصية: ١٣٧-٢١٣، والفروق الفردية والقياس النفسي:٣٦-٤١، وعلم نفس المراحل العمريـــة: ٦٩-١٤٣، وما تحت الأقنعة: ١٧-٢٣ و٣٢٥-٣٣١.

المبحث الأول: الديانة.

يتأثر الخطاب بصفة المخاطب الدينية، سواء من ناحية اتجاه المخاطب نحو التـدين أو عدمه، لأن الاتجاه نحو التدين له تأثير في شخصية المرء؛ في تهذيب سلوكه وحسن تعامله ورقة قلبه، بخلاف الأقل تدينًا فإنه يكون أقل شأنًا في ذلك، أو بعكسه. أو من ناحية نوع الديانة التي يدين بها، فإن الديانات متعددة، ولكل أهل دين شرائع ورسوم وأحوال وخصائص وأقوال تغاير ما عند غيرهم من أهل الديانات الأخرى.

إن الصفة الدينية للمخاطب من العوامل المؤثرة في الخطاب النبوي، وهذا أمر ملحوظ في خطابه r لأصحابه أو لأهل الديانات الأخرى.

وإذا نظرنا إلى مستوى درجة التدين لدى المخاطب فإننا نلحظ أن النبي r يفرق في تعامله بين شخص قد رسخ الإيمان في قلبه، وأقبل عليه بروحه، وآخر لما يسلم، أو أنه حديث عهد بإسلام.

وانظر كيف يلين النبي r القول للأعراب كما سيأتي قريبًا الأمثلة عليه، ثم هو قد يشتد في القول على بعض أصحابه الأقربين، ومن أمثلة ذلك حديث أسامة t قال: بعثنا رسول الله r إلى الحُرَقَة فصبحنا القوم، فهزمناهم، ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناه قال: لا إله إلا الله، فكف الأنصاري، فطعنته برمحي حتى قتلته، فلما قدمنا بلغ النبي r فقال: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ؟» قلت: كان متعوذًا. وفي رواية قال النبي r: «أَفَلا شَقَقْتَ عَنْ قَلْبِهِ حَتَّى تَعْلَمَ أَقَالَهَا أَمْ لا؟» قال أسامة: فما زال يكررها حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم(1). قال ابن التين (٦١١هـ): ((في هذا اللوم تعليم وإبلاغ في الموعظة حتى لا يقدم أحد على قتل من تلفظ بالتوحيد))(2)، وقال القرطبي (٦٥٦هـ): ((وتكرار ذلك القول إنكار شديد، وزجر وكيد، وإعراض عن قبول عذر أسامة))(3)، وتمني أسامة t أنه لم يسلم إلا ذلك اليوم دليل على قوة إسلامه، وإلا

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٢٦٩ و٦٨٧٢) ، ومسلم: (٩٦).

(٢) عن فتح الباري: ١٢/١٩٥.

(٣) المفهم لما أشكل من كتاب مسلم: ١/٢٩٦.

كان يمكن أن يتمنى أنه لم يسلم قط بعد هذا اللوم الشديد، الذي جاء بخطاب مباشر له، لا كما يفعله النبي r أحيانًا حينما يقع أحد أصحابه في الخطأ فيقوم خطيبًا قائلاً: مـــا بـــال أقوام، ونحو ذلك من صور الإبهام.

ومن ذلك ما رواه جابر t أن معاذًا t كان يصلي مع النبي r، ثم يـــأتي قومـــه فيصلي بهم الصلاة، فصلى ليلة مع النبي r العشاء، ثم أتى قومه فأمهم، فافتتح بسورة البقرة فانحرف رجل فسلم، ثم صلى وحده صلاة خفيفة، فبلغ ذلك معاذًا فقال: إنه منافق، فبلـــغ ذلك الرجل فأتى النبي r فقال: يا رسول الله، إنا قوم نعمل بأيدينا، ونسقي بنواضـــحنا، وإن معاذًا صلى بنا البارحة، فقرأ البقرة، فتجوزت، فزعم أني منافق، فأقبل رســـول الله r على معاذ فقال: «يَا مُعَاذُ أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟ -أَوْ: «أَفَاتِنٌ؟» - ثَلاثَ مِرَارٍ، فَلَوْلا صَلَّيْتَ بِسَـــبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ، وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا، وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى»[(١)]. ولعل توجيه الخطاب إلى معـــاذ t ، مع تقديم النداء في مقام الإنكار، واختيار صيغة المبالغة (فَتَّان) في الرواية المشهورة، وتكـــرار القول ثلاث مرات، لعله ليوقع في نفس معاذ t عظم ما ارتكبه، مع أمن جانب معاذ t أن يرتد أو يتردد، وهو من خاصة أصحاب الرسول r .

ويلحظ في القصتين السابقتين أن النبي r يعاتب وينكر بأسلوب الاستفهام، ولعـــل ذلك للتخفيف من حدة الإنكار، كما ذكر ابن حجر (٨٥٢هـــ)[(٢)].

وقد سبق في التمهيد الإشارة إلى تفريق النبي r بين أصحابه في الإعطـــاء وقبـــول الهدية، مما يدل على أن النبي r يراعي مستوى التدين لدى المخاطبين.

أما على مستوى نوع الديانة فإن النبي r خاطب يهودَ ونصارى ومشركين، وكان في خطابه ما يلائم أحوالهم في دياناتهم.

ولننظر ما ورد من ذلك في الصحيحين، وذكرت أولاً ما يتعلق بـــاليهود لتقـــدمهم فالنصارى ثم المشركين.

---

(١) أخرجه البخاري: (٧٠٥ و٦١٠٦) ، ومسلم: (٤٦٥).

(٢) فتح الباري: ٢/١٩٧.

- **خطاب اليهود.**

وسأذكر أولاً ما يتعلق بتعاملهم مع الله U، ثم ما يتعلق بتعاملهم مع الخلق، ومن الأمثلة على ذلك:

أ- رعاية ما عليه اليهود من الجرأة على الله U.

ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك t أن النبي r لما دخل خيبر غازيًا وكان أهلها يهودَ قال لما رآهم: «اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ. خَرِبَتْ خَيْبَرُ...»[1]، وجملة التكبير المكررة بهذه الصيغة الموجزة التي تقدم فيها لفظ الجلالة (الله)، وجاء فيها لفظ التكبير على صيغة أفعل التفضيل (أكبر) مطلقة غير مقيدة بمفضَّل عليه مخصوص، لتشعر بكمال التنزيه لله U، وتأكيده.

ولئن كان التكبير ذكرًا يؤثر فيما يهول أو يسر فإنه يتأكد في مقابلة اليهود الذين تجرؤوا على الله U، فنسبوا إليه من النقائص والقبائح ما لا يليق بإله -لو كان ثمة إله غير الله U- فكيف بالله U؟!، كقولهم: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقولهم: يد الله مغلولة، وقولهم: إن الله استراح يوم السبت، وغيرها تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا.

وقد أشار ابن حجر (٨٥٢هـ) إلى هذا التلاؤم بين التكبير وحال اليهود، فقال: ((وأما التكبير فلأنه ذكر مأثور عند كل أمر مهول، وعند كل حادث سرور؛ شكرًا لله تعالى، وتبرئة مما نسب إليه أعداؤه، ولاسيما اليهود قبحهم الله تعالى))[2].

ب- رعاية ما عليه اليهود من الكذب والمكر والخداع.

يدرك النبي r ما عليه اليهود من الكذب والخداع، الذي صار فيهم كالجبلة والديانة، ويظهر إدراكه لذلك في خطابه لهم، ومن ذلك:

١- ما ورد في حديث ابن عمر t أن رسول الله r أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله r حتى جاء يهود، فقال: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟» قالوا: نسود وجوههما، ونحملهما، ونخالف بين وجوههما، ويطاف بهما. قال: «فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فجاءوا بها، فقرءوها، حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي

---

(١) أخرجه البخاري: (٦١٠) ، ومسلم: (١٣٦٥).

(٢) فتح الباري: ٢/٤٣٨.

يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله r: مره فليرفع يده، فرفعها فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجما[(١)].

وتقييد الإتيان بالتوراة بشرط صدقهم فيه رعاية لحال اليهود الذين اتخذوا الكـذب دينًا.

٢- وفي موقف آخر يخاطب النبي r واحدًا من علماء يهود، فيأتي الخطـاب مراعيًا للصفات اليهودية، ولكن بأسلوب يتناسب مع حال المخاطب، ففي حديث البراء بن عازب t قال: مُرَّ على النبي r بيهودي مُحمَّمًا مجلودًا فـدعاهم r، فقـال: «هَكَـذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» قال: لا، ولـولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم... الحديث[(٢)].

ويلحظ هنا الاختلاف بين خطاب العامة والعالم، فالعالم سأله النبي r كما سـأل العامة؛ لكنه قدم بين يدي سؤاله له استنشادًا بالله U تذكيرًا له ووعظًا، أما العامـة فلـم يستنشدهم؛ لأن العالم يردعه علمه عما يسوء إذا ذُكر ووُعظ، خصوصًا أن علماء اليهـود يدركون صدق النبي r، فإذا اجتمع هذا وذاك في مثل هذا الموقف فإنه يغلب أن هذا العالم سيرتدع عن الكذب، وقد حصل، فأجاب بالصدق.

وفي هذا المقام وَصَف النبي r الله U بأنه «الَّذِي أَنْزَلَ التَّـوْرَاةَ عَلَـى مُوسَـى»، والتقييد بهذا الوصف واضح فيه رعاية الحال؛ فإن موسى u أرسل إلى اليهود، والتـوراة كتابهم الذي أنزله الله عليه، وعلماؤهم هم الذين يدرسونها.

ومجيء القيد بصيغة الموصول وصلته المصدرة بالفعل الماضي يشعر بتأكيـد الأمـر وتحققه.

٣- وفي موقف ثالث يلحظ بوضوح رعاية النبي r لصفات الكـذب والمكـر والخداع المتأصلة في اليهود، فنجده يتدرج في سؤالهم والحوار معهم حتى يصل إلى الحقيقـة

---

(١) أخرجه البخاري: (٧٥٤٣)، ومسلم: (١٦٩٩).

(٢) أخرجه مسلم: (١٧٠٠).

التي يريدها، فعن أبي هريرة t قال: لما فتحت خيبر أهديت للنبي r شاة فيها سم، فقال النبي r: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ» فجمعوا له، فقال: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم، قال لهم النبي r: «مَنْ أَبُوكُمْ؟» قالوا: فلان، فقال: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلانٌ» قالوا: صدقت، قال: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي r: «اخْسَئُوا فِيهَا وَاللهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا» ثم قال: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم، يا أبا القاسم، قال: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟» قالوا: نعم، قال: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًا لم يضرك(1).

والنبي r يؤكد لهم في الاستفهام الافتتاحي أن الذي يسألهم هو نفسه: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟» والتأكيد جاء بصور متنوعة، منها: مجيء (إنّ)، وتكرار فاعل الاستفهام مرة بضمير ظاهر اسمًا لـ(إنّ)، وأخرى فاعلاً لـ(سائل)، وثالثة مفعولاً به لـ(صادق)، ومن المؤكدات مجيء الجملة اسمية.

ولعل المقصود من هذا التأكيد تذكيرهم بنبوته، والتعريض بتحذيرهم من الكذب عليه وخداعه، فإنهم مهما كذبوا فإن الله U يوحي إليه، وهم يعرفون ذلك لكنهم يجحدون حسدًا واستكبارًا.

ولما تقرر هذا لديهم تركه في الاستفهامين اللاحقين، خصوصًا بعد ما بين لهم كذبهم في جوابهم عن سؤاله الأول، وأقروا بذلك.

ويلحظ أن النبي r لم يأمرهم بالصدق ويحثهم عليه بصورة مباشرة، كأن يقول: إني سائلكم فاصدقوني، لأن كذبهم ليس من النوع الذي قد يحدث للمرء في حالة ضعف بشري مؤقت، فلا يحتاج إلى كبير عناء لتذكيره، وإنما هو صفة متأصلة في نفوسهم، يعرفها النبي r فيهم كما يعرفونها هم، ولذا جاء السؤال عن مدى صدقهم. وإجابة السؤال بهذه الصيغة

(1) أخرجه البخاري: (٣١٦٩).

تحدد الخطوة التالية بوضوح، إن كان النبي r سيقدم على السؤال، أو يحجم عنه فيختصر الوقت والجهد مع قوم لن يصدقوه.

والتساؤل عن مدى صدقهم، وتكراره، يدل على أن النبي r يشك فيه ويتردد، ولذا جاءت الصيغة جملة اسمية تطلب القول الصدق الثابت الذي لا كذب فيه ولا خداع، وصدرت الجملة بالضمير (أنتم)، الذي يعينهم دون سواهم.

والتكرار الملحوظ في التساؤل هنا نجده في مواقف أخرى للنبي r مع اليهود، كما في حديث أبي هريرة t قال: بينا نحن في المسجد خرج رسول الله r ، فقال: «انْطَلِقُوا إِلَى يَهُودَ» فخرجنا معه حتى جئنا بيت المِدْراس، فقام النبي r فناداهم، فقال: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله r : «ذَلِكَ أُرِيدُ، أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله r : «ذَلِكَ أُرِيدُ» ثم قالها الثالثة، فقال: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الأَرْضُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا الأَرْضُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ»(١).

ذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) عن بعض العلماء أن اليهود لما لم يذعنوا لطاعته بالغ في تبليغهم وكرره(٢)، ولعل النبي r كان يدرك ذلك منهم، لكنه أراد أن يؤكد لهم ويقرر ما يريد ويعذر نفسه، خصوصًا مع قولهم: قد بلغت، الذي لا يدل صراحة على استجابة للدعوة، أو رد لها، وهذا منهم -كما قال ابن حجر (٨٥٢هـ)- ((مكر ومداجاة، ليدافعوه بما يوهمه ظاهرها، ولذلك قال r : «ذَلِكَ أُرِيدُ» أي: التبليغ))(٣).

ومن التكرار مع اليهود حديث أنس بن مالك t أن عبد الله بن سلام t جاء إلى النبي r فقال: أشهد أنك رسول الله، وأنك جئت بحق، وقد علمت يهود أني سيدهم وابن سيدهم، وأعلمهم وابن أعلمهم، فادعهم فاسألهم عني قبل أن يعلموا أني قد أسلمت، فإنهم إن يعلموا أني قد أسلمت قالوا فيّ ما ليس فيّ، فأرسل نبي الله r ، فأقبلوا فدخلوا عليه، فقال

---

(١) أخرجه البخاري: (٣١٦٧ و٧٣٤٨) ، ومسلم: (١٧٦٥).

(٢) فتح الباري: ٣١٥/١٣.

(٣) المرجع السابق: ٢٧١/٦.

لهم رسول الله r : «يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَيْلَكُمْ، اتَّقُوا اللهَ، فَوَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ، فَأَسْلِمُوا» قاله ثلاث مرار، وهم يقولون بعد كل مرة: ما نعلمه، قال: «فَأَيُّ رَجُلٍ فِيكُمْ عَبْدُ اللهِ بْنُ سَلامٍ؟» قالوا: ذاك سيدنا وابن سيدنا، وأعلمنا وابن أعلمنا، قال: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟» قالوا: حاشى لله، ما كان ليسلم، قال: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟» قالوا: حاشى لله، ما كان ليسلم، قال: «أَفَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ؟» قالوا: حاشى لله، ما كان ليسلم، قال: «يَا ابْنَ سَلامٍ، اخْرُجْ عَلَيْهِمْ» فخرج فقال: يا معشر اليهود، اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله، وأنه جاء بحق، فقالوا: كذبت، فأخرجهم رسول الله r [١].

والتكرار حصل في هذا الحديث مرتين، في وعظهم أول قدومهم، وفي سؤالهم عن إسلام عبد الله بن سلام t .

٤- ومن مكر اليهود وخبثهم ما حدثت به أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن يهود أتوا النبي r فقالوا: السَّام عليكم[٢]. قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: عليكم السام، ولعنكم الله، وغضب الله عليكم. فقال الرسول r : «مَهْلاً يا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ، فإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الرِّفْقَ فِي الأَمْرِ كُلِّه، وإِيَّاكِ والعُنْفَ والفُحْشَ» قالت: أو لم تسمع ما قالوا ؟ قال: «أَوَلَمْ تَسْمَعِي ما قُلْتُ ؟ قَدْ قُلْتُ: وَعَلَيْكُم، رَدَدْتُ عَلَيْهِم، فيُسْتَجَابُ لي فِيْهِم، ولا يُسْتَجَابُ لهم فِيَّ»[٣]، وفي موقف آخر عن أنس بن مالك t قال: مر يهودي برسول الله r فقال: السَّام عليك، فقال رسول الله r : «وَعَلَيْكَ» فقال رسول الله r : «أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ؟ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ» قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: «لا، إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٣٢٩ و٣٩١١).

(٢) السام: الموت، وقيل: الموت العاجل. ينظر: فتح الباري: ١١/٤٢.

(٣) أخرجه البخاري: (٦٠٣٠ و٦٢٥٦) ، ومسلم: (٢١٦٥).

(٤) أخرجه البخاري: (٦٩٢٦) بهذا السياق، ومسلم: (٢١٦٣).

إن اليهود لا يدعون كيدهم ومكرهم حتى في الألفاظ، يتلاعبون بها، ليغيروا من دلالاتها الحسنة، إلى دلالات تتلاءم مع نفسياتهم الشريرة المعادية لأهل الإسلام. إنهم يريدون السلام، لكنهم لا يريدون بذله للآخرين؛ يريدون أن يدعو النبي r لهم بالسلام حينما يجيب سلامهم المحرف، لكنهم يشق عليهم أن ينطقوا بلفظة (السلام) فيحرفونها إلى لفظة مقاربة -السَّام- لا يكاد يتبينها السامع، إذ لا فرق يذكر في نطق اللفظتين، لكن بينهما في المعنى بونًا شاسعًا وفرقًا عظيمًا.

ما كان من النبي r أمام هذا المكر والخداع، وهو الذي لم يكن فاحشًا ولا متفحشًا، إلا أن يمكر بهم من حيث لا يشعرون، فيرد عليهم دعاءهم، وكأنه انخدع بسلامهم، فيقول: «وَعَلَيْكُمْ» بإثبات الواو في أكثر الروايات، وفي رواية: «عَلَيْكُمْ» بحذف الواو، قال النووي (٦٧٦هـ) بعد أن حكى الخلاف في إثباتها وحذفها: ((والصواب أن إثبات الواو وحذفها جائزان كما صحت به الروايات، وأن الواو أجود كما هو في أكثر الروايات))[(١)].

إن رد النبي r : «وَعَلَيْكُمْ» هكذا من دون مبتدأ ظاهر، وتقديره: وعليكم السام، يوهم اليهود أن النبي r رد عليهم سلامهم، وقد يجعلهم في حيرة؛ أ سمع النبي r ما قالوه فرد السام عليهم، أم أنه لم يسمع فكان الرد للسلام؟ وهذا الإضمار يحقق أكثر من غرض، فهو من جهة يحفظ للنبي r خلقه المعهود عنه، ومن جهة أخرى يتألف اليهود لعلهم يرجعون[(٢)].

وهذا التوجيه الذي يقتضيه المقام يرجح أن الرواية «وَعَلَيْكُمْ» بإثبات الواو على ما جرت عليه عادة الرد على السلام؛ لتعطي مزيدًا من الإيهام. ولا إشكال في مجيء الواو، فقد تكون للاستئناف، أي: وعليكم ما تستحقونه من الذم، أو نحو ذلك، وقد تكون للعطف، وهو الأظهر، وإن كانت تقتضي التشريك، فإن الموت حاصل لنا ولهم[(٣)]، والله أعلم.

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١٤/١٤٥.

(٢) ينظر: فتح الباري: ١١/٤٣، وعمدة القاري: ٢٢/١١٤.

(٣) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٤/١٤٥، وفتح الباري: ١١/٤٥، وعمدة القاري: ٢٢/١١٤.

- **خطاب النصارى.**

لم يظهر لي في الصحيحين من خطاب النصارى إلا كتاب النبي r إلى هرقل وفيه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأرِيسِيِّينَ وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»(١).

ورعاية ديانة المخاطب في هذا الكتاب ظاهرة في عدة أمور، منها:

١- صيغة السلام المقيدة بـ(على من اتبع الهدى) لأن المخاطب كافر، والكافر لا يبتدأ بالسلام، لأنه دعاء له بالسلامة والنجاة من الآفات الظاهرة والباطنة، لحديث أبي هريرة t أن النبي r قال: «لا تَبْدَءُوا اليَهُودَ وَلا النَّصَارَى بِالسَّلامِ»(٢)، ولـذا لم يكن السلام موجهًا إلى هرقل، وإنما لمن اتبع الهدى، وبهذا التقييد تكون الرسالة حافظت على براعة الاستهلال المؤنس للمرسل إليه والمحفز له على اتباع الهدى والمحذر من التولي عنه، كما قال الدكتور محمد أبو موسى في الحديث عن الابتداء بهذه الصيغة في رسالة النبي r إلى كسرى: ((رسول الله r لا يدعو بالخلاص والنجاة من الشر والعيوب إلا لمن آمن بالله الذي يدعوه له، أو كان على شيء من الحق في معتقده، ولهذا لم يوجه السلام هنا إلى كسرى، وإنما جعله سلامًا لمن اتبع الهدى. وبهذا تكون الرسالة قد بدأت بداية مؤنسة، ثم احتاطت في التعبير؛ فلم تطلب من الله السلامة لمن كفروا به. وفي هذا إغراء للمخاطب باتباع الهدى ليكون من بين أهل السلام والبراءة والخلاص من الشرور والآفات. وهي ملوحة من وجه آخر إلى أنه لا أمان ولا سلام ولا نجاة لمن حاد عن الهدى أو عاداه))(٣).

٢- النداء بـ(يا أهل الكتاب) والنصارى منهم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٧ و٢٩٤١ و٤٥٥٣) ، ومسلم: (١٧٧٣).

(٢) أخرجه مسلم: (٢١٦٧).

(٣) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٤٨٦-٤٨٧.

٣- الاقتباس من القرآن، في قوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا﴾ وقد يكون ذلك لما قاله الله عنهم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ $ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨٢-٨٣].

٤- التأكيد على عبودية الله وحده وعدم الإشراك به بقوله: «ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله» لأن النصارى كانوا كما قال الله عنهم: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

- **خطاب الوثنيين.**

لما بُعث النبي r في مكة لم يكن قومه على دين سماوي، غير أهم كانوا مشركين، يعبدون الأوثان، ويشركون مع الله U غيره.

وكان من أهم المهمات في خطاب النبي r لقومه دعوتهم إلى عبادة الله U وحده لا شريك له.

ولقد لقي النبي r من الملأ من قومه في بداية دعوته عنادًا واستكبارًا، بل آذوه وطردوه، ثم حاربوه. والنبي r صابر يدعوهم ويدعو غيرهم ويجاهدهم، وهو في خطابه لهم يراعي أحوالهم، فتتغير أساليب الخطاب بحسب المخاطبين وأحوالهم.

ولئن كان الحديث هنا عن أثر الديانة في خطاب النبي r ، فإنه من الصعب أحيانًا عدم اعتبار العوامل الأخرى المؤثرة في المخاطب خاصة عامل البيئة، وإن كنت أظن أن الغالب فيما أعرضه من تأثير إنما هو للديانة. وقد ورد في الصحيحين من ذلك ما يلي:

أ- دعوة عمه أبي طالب وهو على فراش الموت.

لقد كان النبي r حريصًا على إسلام عمه أبي طالب، فهو من عشيرته الأقربين الذين أمره الله U بدعوتهم وإنذارهم أولاً، وهو الذي آزره وحماه عن كثير من أذى قريش، ولم يدع النبي r دعوة عمه حتى مات مشركًا، كما روى سعيد بن المسيب عن أبيه t

قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله r فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بـــن أبي أمية بن المغيرة، فقال رسول الله r : «أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» فقال أبو جهل وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب، أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلـــم يزل رسول الله r يعرضها عليه، ويعيدانه بتلك المقالة، حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله. فقال رســـول الله r : «أَمَـــا وَاللهِ لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فأنزل الله U: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْـــتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِـــيمِ﴾ [التوبـــة: ١١٣]، وأنزل الله تعالى في أبي طالب فقال لرسول الله r : ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَـــنْ أَحْبَبْـــتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦][(١)].

ويلحظ في خطاب النبي r لعمه ما فيه مراعاة لحاله، ومن ذلك:

١- نداؤه بـــ(أي). والنداء في مثل هذا المقام فيه تلطف ومؤانســـة، ومحاولـــة لتقريب المخاطب إلى ما يريده المتكلم، وإذا كان بالحرف الموضوع لنداء القريب كان أكثر تلطفًا وإيناسًا وتقريبًا وترقيقًا للقلب. والنداء بـــ(أي) هو الوارد في سائر الروايات، والمقام يرجحه، وورد في بعضها النداء بـــ(يا)، فإن كان هو المحفوظ فإن النداء به لا يخرجه عمـــا قيل في عموم النداء في هذا المقام، والله أعلم.

٢- نداؤه بصفة العمومة، وهذا فيه تأكيد للتلطف والإيناس والتقريب والترقيق، وإشعار له بالاعتراف بحقه عليه، والاهتمام به والحرص عليه، وتمهيد لدعوته وأمره.

٣- اختيار المفردات: (قل) و(كلمة) مع تنكيرها؛ للتهوين عليه وهـــو في حـــال الموت، فيكفيه القول لهذه الكلمة اليسيرة ولو لم يتمكن من العمل بها لوفاته.

٤- حتى لا يظن أبو طالب أنها لا تنفعه أو لا يكفيه قولها قـــال لـــه الـــنبي r : «أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» وفي رواية: «أَشْهَدُ لَكَ...» وفي توجيه الروايتين قال ابن حجـــر (٨٥٢هـــ): ((كأنه عليه الصلاة والسلام فهم من امتناع أبي طالب من الشهادة في تلـــك الحالة أنه ظن أن ذلك لا ينفعه لوقوعه عند الموت، أو لكونه لم يتمكن من سائر الأعمـــال

(١) أخرجه البخاري: (١٣٦٠ و٣٨٨٤ و٤٦٧٥ و٤٧٧٢) ، ومسلم: (٢٤).

كالصلاة وغيرها، فلذلك ذكر له (المحاججة). وأما لفظ (الشهادة) فيحتمل أن يكون ظن أن ذلك لا ينفعه إذ لم يحضره حينئذ أحد من المؤمنين مع النبي r ، فطيب قلبه بأن يشهد له بها فينفعه))[١].

٥- أقسم النبي r قسمًا مؤكدًا لعمه أن يستغفر له ((لتوكيد العزم على الاستغفار، وتطييبًا لنفس أبي طالب)) كما قال النووي (٦٧٦هـ)[٢].

ب- خطاب كافر يعيب على قومه الشرك.

عن عمرو بن عبسة السلمي قال: كنت وأنا في الجاهلية أظن أن الناس على ضلالة، وأنهم ليسوا على شيء، وهم يعبدون الأوثان، فسمعت برجل بمكة يخبر أخبارًا، فقعدت على راحلتي فقدمت عليه، فإذا رسول الله r مستخفيًا، جُرَآء عليه قومه، فتلطفت حتى دخلت عليه بمكة، فقلت له: ما أنت؟ قال: «أَنَا نَبِيٌّ» فقلت: وما نبي؟ قال: «أَرْسَلَنِي اللهُ» فقلت: وبأي شيء أرسلك؟ قال: «أَرْسَلَنِي بِصِلَةِ الأَرْحَامِ وَكَسْرِ الأَوْثَانِ، وَأَنْ يُوَحَّدَ اللهُ لا يُشْرَكُ بِهِ شَيْءٌ» قلت له: فمن معك على هذا؟ قال: «حُرٌّ وَعَبْدٌ» قال: ومعه يومئذ أبو بكر وبلال ممن آمن به، فقلت: إني متبعك. قال: «إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا، أَلا تَرَى حَالِي وَحَالَ النَّاسِ، وَلَكِنْ ارْجِعْ إِلَى أَهْلِكَ، فَإِذَا سَمِعْتَ بِي قَدْ ظَهَرْتُ فَأْتِنِي»...الحديث[٣].

ورعاية ما عليه المخاطب من حال الديانة ظاهرة فيما يلي:

١- أن النبي r قدم صلة الأرحام على كسر الأوثان والتوحيد ونبذ الشرك، ولعل ذلك لأن عمرًا كان يعيب على قومه عبادة الأوثان.

---

(١) فتح الباري: ١٩٥/٧، وينظر: عمدة القاري: ١٨٢/٨.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٢١٥/١.

(٣) أخرجه مسلم: (٨٣٢)، وقال النووي في شرح صحيح مسلم: ١١٥/٦-١١٦ عند قول عمرو: إني متبعك، وقول النبي r : «إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ يَوْمَكَ هَذَا...»: ((معناه: قلت له: إني متبعك على إظهار الإسلام هنا، وإقامتي معك، فقال: لا تستطيع ذلك لضعف شوكة المسلمين، ونخاف عليك من أذى كفار قريش، ولكن قد حصل أجرك فابق على إسلامك، وارجع إلى قومك، واستمر على الإسلام في موضعك حتى تعلمني ظهرت فأتني)).

٢- تخصيص (كسر الأوثان) بالذكر، مع أن توحيد الله U وترك الشرك يستوجب نبذ الأصنام، للعلة السابقة.

٣- فصل النبي r بين جملتي «أن يوحد الله» و«لا يشرك به شيء» تنبيهًا إلى أن من لوازم التوحيد ترك الإشراك، وأهل الجاهلية يقولون عن أوثانهم: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

ت- خطاب كافر يفتخر بأصنامه بعد هزيمة المسلمين في أحد.

لما هُزم المسلمون في أُحُد أشرف عليهم أبو سفيان بن حرب فقال: أفي القوم محمد؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي r أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات، فنهاهم النبي r أن يجيبوه، ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثم قال: إن هؤلاء قتلوا، فلو كانوا أحياء لأجابوا. فلم يملك عمر t نفسه، فقال: كذبت يا عدو الله، أبقى الله عليك ما يخزيك. ثم أخذ يرتجز: اعل هبل اعل هبل. فقال النبي: «أَلا تُجِيبُوا لَهُ» قالوا: ما نقول. قال: «قولوا: قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ» فقال أبو سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم. فقال النبي r: «أَلا تُجِيبُوا لَهُ» قالوا: ما نقول. قال: «قولوا: اللهُ مَوْلانَا وَلا مَوْلَى لَكُمْ»[(١)].

وتبدو رعاية ما عليه حال المخاطب فيما يلي:

١- تقديم لفظ الجلالة (الله) في مقابل تأخير الصنمين (هبل) و(العزى) في قول أبي سفيان.

٢- التعبير بالجملة الاسمية «الله أعلى وأجل» للدلالة على ثبوت العلو لله U منذ الأزل، في مقابل تعبير أبي سفيان بالجملة الفعلية المبدوءة بفعل الأمر: اعل هبل، التي تشعر بأن العلو يراد حصوله للصنم المعبود بعد أن لم يكن حاصلاً.

٣- اختيار صيغة التفضيل (أعلى) و(أجل) دون أن تقيد بشيء ظاهر تعظيمًا لله U، وتنزيهًا عن أن يشاركه أحد في علوه المطلق.

٤- زيادة صفة الجلالة على العلو، لأن العلو بمفرده لا يكفي في التنزيه، خاصة مع دعوى العلو لغيره.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٣٩ و٤٠٤٣).

٥- المظنون في مقابل قول أبي سفيان: لنا العزى ولا عزى لكم، أن يقال: لنا الله ولا إله لكم؛ لكن النبي r عدل عن ذلك، واختار صفة الولاية لله U؛ لأن للمشركين آلهة يعبدونها من دون الله U، ثم إن المعبود إذا لم يكن يتولى عابده وينصره ويؤدي إليه حقه كما يؤدي العابد إليه حقه فأي دافع يدفع العبد إلى العبادة؟! وأي أمن سيجده العابد في ظل معبوده؟! فإذا كان لهم العزى التي لا تغني عنهم من الله شيئًا، وهم يعلمون ذلك، فإن للمسلمين الله الذي يتولاهم وينصرهم فضلاً منه وإحسانًا.

٦- تنكير (مولى) في سياق النفي ليفيد العموم(١)، فلا الله مولاهم، ولا أصنامهم التي يعبدونها من دون الله تغني عنهم شيئًا، ولو ادعوا أن لهم العزى وغيرها، فهي لهم يعبدونها، وليس لهم منها ولاية.

ومع أن الخطاب في ظاهره موجه إلى أبي سفيان، إلا أنه في باطنه موجه إلى الصحابة y، الذين يتلقون خطابًا ربما يؤثر في نفوسهم، فيشعرهم بالهزيمة النفسية فوق ما هم فيه مما ظاهره هزيمة حسية، وقد يزعزع عقيدتهم وثقتهم بربهم، وهذا أمر خطير. ولذا رد النبي r على قول أبي سفيان بعد أن كان ينهى الصحابة y أن يردوا عليه، ليحافظ على ثبات القلب وقوته وثقته بنصر الله U.

ولعل ذلك هو الذي جعل النبي r يخاطب أبا سفيان بتلك الأساليب على لسان الصحابة y، ليتقرر في نفوسهم تلك المعاني العظيمة التي تحملها تلك العبارات الموجزة، فتثبت قلوبهم على ما يقولون. ومن الوسائل المهمة في الثبات على الحق أن تدعو إليه.

ث- خطاب كافر يطلب النبوة من النبي r.

لما قدم مسيلمة الكذاب في بشر كثير من قومه على عهد رسول الله r جعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته. فأقبل إليه رسول الله r ومعه ثابت بن قيس خطيب رسول الله r، وفي يد رسول الله r قطعة جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ، وَإِنِّي لأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ. وَهَذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي» ثم انصرف عنه(٢).

---

(١) ينظر في إفادة النكرة للعموم: عروس الأفراح: ١/٣٥٤.

(٢) أخرجه البخاري: (٣٦٢١ و٤٣٧٣ و٤٣٧٩ و٧٤٦١)، ومسلم: (٢٢٧٣).

إن مسيلمة يشترط على النبي r حتى يتبعه أن يشاركه النبوة، ويستخلفه عليها من بعده، وكأن أمر النبوة بيد البشر تعطى وتمنع وتورث وتستخلف، إلا أن النبي r وقف أمام هذا العرض الساذج المعاند موقفًا حازمًا خاطب فيه مسيلمة بما يليق به، ومما يلحظ من رعاية الحال ما يلي:

١- الإيجاز في الخطاب؛ لأن المخاطب بعرضه المعاند لا يستحق أن يطيل النبي r معه الكلام، ولذا اكتفى النبي r بكلمات يسيرات تهز الجبال الرواسي، تفيض بالتحقير والتهديد، وأسند أمر الإطالة إن رغب المخاطب إلى خطيبه ثابت بن قيس، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((كان النبي r قد أعطي جوامع الكلم، فاكتفى بما قاله لمسيلمة، وأعلمه أنه إن كان يريد الإسهاب في الخطاب فهذا الخطيب يقوم عني في ذلك. ويؤخذ منه استعانة الإمام بأهل البلاغة في جواب أهل العناد ونحو ذلك))[(١)].

٢- بدأ النبي r بأسلوب الشرط بـ(لو) التي تفيد الامتناع ليقطع طمع مسيلمة في النبوة من أول خطابه له، ثم رتب الشرط على أمر حقير (قطعة جريد) تعريضًا بحقارة السائل، والنبي r يشير إلى هذه القطعة ويعرفها (هذه القطعة) حتى لا يتوهم غيرها مما يظن تعظيمه واختصاصه بالنبي r، وإنما هي هذه التي يمكن أن يجد مثلها في أي مكان. وإذا كانت قطعة جريد بيده وهو الكريم المعطاء r لا يستحقها مسيلمة فكيف بما هو أعلى منها شأنًا؟ بل كيف بالنبوة ؟

ج- خطاب كافر صاحب غنم.

عن عبد الرحمن بن أبي بكر t قال: كنا مع النبي r ثلاثين ومائة، فقال النبي r: «هَلْ مَعَ أَحَدٍ مِنْكُمْ طَعَامٌ؟» فإذا مع رجل صاع من طعام أو نحوه، فعُجن، ثم جاء رجل مشرك مُشْعان طويل بغنم يسوقها، فقال النبي r: «أَبَيْعٌ أَمْ عَطِيَّةٌ؟» -أو قال: «هِبَةٌ»- قال: لا؛ بل بيع. قال: فاشترى منه شاة[(٢)].

إن مما يلحظ في هذا الحديث أن النبي r سأل من جاء بالغنم عن وسيلة الحصول على غنمه، بخلاف صاحب الصاع من الطعام، فإنه لم يُسأل. والفرق ظاهر بين الاثنين فإن

(١) فتح الباري: ٨/٩٠.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٢١٦ و٥٣٨٢) ، ومسلم: (٢٠٥٦).

صاحب الصاع مسلم استجاب لطلب النبي r ، وأما الآخر فمشرك لا يستجيب لطلب النبي r ، فكان العرض عليه بالاستفهام.

ثم إن النبي r قدم البيع على العطية، ولعل ذلك لكون المخاطب لا تطيب نفسه بإهداء المسلمين لكونه مشركًا، وربما كان من الأعراب الجفاة الأجلاف إذا كان معنى (المشعان) في وصف الراوي للمشرك: المنتفش الشعر الثائر الرأس[1].

وقد يقول قائل: إذا كان المخاطب كذلك فلم لم يقتصر النبي r على عرض البيع دون العطية؟

فيقال: لعل النبي r بهذا العرض لم يستبعد العطية؛ لأن حال المسلمين وما هم عليه من الحاجة تستدعي رقة القلب وكرم النفس، لكنها في المشرك الأعرابي محتملة غير متيقنة، والله أعلم.

---

(١) ينظر: لسان العرب: ١٣/٢٣٩- مادة (ش ع ن)، وفتح الباري: ٥/٢٣٢.

المبحث الثاني: البيئة.

للبيئة تأثير كبير في تكوين شخصية المرء، ويظهر من خطاب النبي r رعايته لهــذا العامل المؤثر، وسأذكر أمثلة على ذلك مبتدئًا بما يتعلق بالوسائل التعبيرية، وتناولت الــدعاء وبدأت به لفضله فالشعر، ثم ذكرت ما يتعلق بالمفردات والألفاظ والأساليب عمومًا ورتبتها حسب ترتيب البلاغيين، ثم ذكرت ما تختص به بعض البيئات وبدأت بالأنصــار لفضــلهم فالأعراب.

أ- اختيار وسيلة (الدعاء) على كفار مكة في الحرم.

للبلد الحرام مكانة خاصة في نفوس أهل الجاهلية، ويرون أن الدعوة فيــه لا تــرد، ولذلك فإنه يعظم عندهم أن يدعى عليهم فيه، ولما بلغ كفار قريش من السوء والقــبح في إيذاء النبي r والاستخفاف به وهو يعبد ربه عند البيت الحرام رفع يديه يدعو عليهم، فشق ذلك على كفار مكة، كما روى عبد الله بن مسعود t أن النبي r كان يصــلي عنــد البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي r وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئًا، لو كان لي منعة، قــال: فجعلــوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله r ساجد لا يرفع رأسه، حــتى جاءتــه فاطمة، فطرحت عن ظهره، فرفع رسول الله r رأسه، ثم قال: «اللَّهُمَّ عَلَيْــكَ بِقُــرَيْشٍ» ثلاث مرات، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون أن الــدعوة في ذلــك البلــد مستجابة، ثم سمى: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْــنِ رَبِيعَــةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» وعد السابع فلــم يحفــظ، قــال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله r صرعى في القليب قليب بدر(١).

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٤٠)، ومسلم: (١٧٩٤).

ب- هجاء قريش بالشعر.

من المعلوم أن للشعر مكانة عظيمة عند العرب، حتى إن بيتًا من الشعر كــاف لأن يرتفع به أقوام، أو يذل به آخرون، ولقد كان الهجاء به شديد الوقع على النفس، لما يحدثــه من إذلال لها ووضع لشأنها، ولقد دارت حروب وأحداث بسببه.

ومنذ أن بعث الله U رسوله r والمشركون يعادونه ويسبونه ومــن معــه مــن المسلمين، فما كان منه r إلا أن اختار أشد الكلام عليهم وقعًا وأنفذه ذكرًا وســيرًا بــين العرب، فدعا شعراء المسلمين وخاصة الأنصار إلى هجائهم، كما روت عائشة رضــي الله عنها أن رسول الله r قال: «اهْجُوا قُرَيْشًا؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْها مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ» فأرســل إلى ابن رواحة فقال: «اهْجُهُمْ»، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأَفْرِيَنَّهم بلساني فري الأديم، فقال رسول الله r : «لا تَعْجَلْ؛ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِها، وإِنَّ لِي فِيْهِم نَسَبًا، حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي»، فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأَسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلّ الشعرة من العجين، قالت عائشة: فسمعت رسول الله r يقول لحسان: «إِنَّ رُوْحَ الْقُدُسِ لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحَتَ عَنِ اللهِ ورَسُولِه»، وقالــت: سمعت رسول الله r يقول: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ، فَشَفَى وَاشْتَفَى»[1].

ولعل أمر الأنصار بهذه المهمة لأنه لا يربطهم بقريش نسب فيضعفوا في هجــائهم، كما أنهم هم الذين آووا الرسول r واستماتوا في نصرته، فنصروه بأيديهم فحق لهم نصره بألسنتهم، كما ذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) عن ابن وهب في جامعه وعبد الرزاق في مصنفه رواية مرسلة عن محمد بن سيرين قال: هجا رهط من المشركين النبي r وأصحابه، فقــال المهاجرون: يا رسول الله، ألا تأمر عليًا فيهجو هؤلاء القوم؟ فقال: «إِنَّ القَومَ الذِين نَصَروا بَأَيديهِم أَحَق أَنْ يَنْصُروا بِأَلْسِنتِهم» فقالت الأنصار: أرادنا والله. فأرسلوا إلى حسان، فأقبل فقال: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما أحب أن لي بمقولي ما بين صــنعاء وبصــرى،

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٩٠).

فقال: «أنت لها» فقال: لا علم لي بقريش، فقال لأبي بكر: «أخبره عنهم ونقب له في مثالبهم»[1].

ت- اختيار الألفاظ والتعبيرات من البيئة.

ويظهر هذا جليًا في الصور البيانية التي لا تخرج عن عناصر البيئة التي يعيش فيها المخاطبون، يقول الدكتور محمد عثمان يوسف: ((التصوير النبوي إنما يستمد صوره من واقع البيئة التي يعايشها المخاطب، والعربي يعايش البيئات الثلاث: الصحراوية، والبحرية، والحضرية، فانتزعت صور التشبيهات النبوية من واقع تلك البيئات لتكون أكثر واقعية وتأثيرًا على نفسه وعقله وقلبه))[2]. ومن الأمثلة على ذلك:

١- تصوير حدود العبد في الحلال والحرام وما بينهما من المشتبهات بصورة الراعي مع الحمى، في قوله ﷺ: «إِنَّ الْحَلالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِن النَّاسِ، فَمَن اتَّقَى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ»[3].

٢- تصوير القائم على حدود الله أمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، والواقع فيها بصورة قوم في سفينة في البحر، جرى لهم كما قال النبي ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا، وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِن الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا. فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[4].

٣- تصوير ما جاء به من الهدى والعلم ومدى انتفاع الناس به في قوله ﷺ: «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِن الْهُدَى وَالْعِلْمِ، كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَت

---

(١) فتح الباري: ٥٧٤/١٠.

(٢) معجم التشبيهات النبوية في صحيح البخاري: ٧٧.

(٣) أخرجه البخاري: (٥٢)، ومسلم: (١٥٩٩) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري: (٢٤٩٣).

الْمَاءَ، فَأَنْبَتَت الكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت الْمَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»(١).

٤- التصوير بجبل أحد في أكثر من صورة لبيان عظم الشيء، من ذلك ما رواه أبو هريرة t أن رسول الله r قال: «مَن اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا، وَكَانَ مَعَهُ حَتَّى يُصَلَّى عَلَيْهَا، وَيَفْرُغَ مِنْ دَفْنِهَا، فَإِنَّه يَرْجِعُ مِن الأَجْرِ بِقِيرَاطَيْنِ، كُلُّ قِيرَاطٍ مِثْلُ أُحُدٍ، وَمَنْ صَلَّى عَلَيْهَا ثُمَّ رَجَعَ قَبْلَ أَنْ تُدْفَنَ فَإِنَّهُ يَرْجِعُ بِقِيرَاطٍ» وفي رواية سئل: وما القيراطان؟ قال: «مِثْلُ الْجَبَلَيْنِ الْعَظِيمَيْنِ» وفي رواية: «أَصْغَرُهما مِثْلُ أُحُد»(٢)، ومن التشبيه بأحد ما رواه أبو هريرة t قال: قال رسول الله r : «ضِرْسُ الْكَافِرِ -أو: نَابُ الْكَافِرِ- مِثْلُ أُحُدٍ وَغِلَظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلاثٍ»(٣).

٥- التشبيه بالإبل، كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة r قال: جاء رجل من بني فزارة إلى النبي r فقال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود. فقال النبي r : «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم. قال: «فَمَا أَلْوَانُهَا؟» قال: حمر. قال: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟» قال: إن فيها لوُرقًا. قال: «فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟» قال: عسى أن يكون نزعه عرق. قال: «وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ»(٤).

ولو تتبعنا عناصر البيئة التي تكثر في أحاديث النبي r وتصويراته لطال بنا المقام(٥).

---

(١) أخرجه البخاري: (٧٩) ، ومسلم: (٢٢٨٢).

(٢) أخرجه البخاري: (٤٧ و١٣٢٥) ، ومسلم: (٩٤٥).

(٣) أخرجه مسلم: (٢٨٥١).

(٤) أخرجه البخاري: (٥٣٠٥) ، ومسلم: (١٥٠٠) واللفظ له.

(٥) ينظر للاستزادة: معجم التشبيهات النبوية في صحيح البخاري: ٥٧-٦٥، والتصوير الفني في الحديث النبوي: ٥٧٦-٥٧٩، والصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف: ٢٨٨.

ث- الأمر بتقديم الأيمن في الشرب، وتأكيد حقه.

كانت عادة الرؤساء في الجاهلية جارية على تقديم الأيمن في الشرب، وفي أحد مجالس الرسول r كان على يمينه أعرابي، وعن يساره أبو بكر، فرغب عمر t أن يعطي الرسول r أبا بكر لفضله ولو كان على يساره، ولكنه أبى وأعطاه من على يمينه كما هي العادة، كما في الحديث الذي رواه أنس بن مالك t قال: أتانا رسول الله r في دارنا، فاستسقى، فحلبنا له شاة، ثم شُبْته من ماء بئري هذه، فأعطيت رسول الله r، فشرب رسول الله r وأبو بكر عن يساره وعمر وجاهه وأعرابي عن يمينه، فلما فرغ رسول الله r من شربه قال عمر: هذا أبو بكر يا رسول الله؛ يريه إياه، فأعطى رسول الله r الأعرابي وترك أبا بكر وعمر، وقال رسول الله r: «الأيْمَنُونَ، الأيْمَنُونَ، الأيْمَنُونَ» وفي رواية زاد: «أَلا فَيَمِّنُوا»، وفي رواية: «الأيْمَنَ فَالأيْمَنَ»[(١)]. قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قال الخطابي وغيره: كانت العادة جارية لملوك الجاهلية ورؤسائهم بتقديم الأيمن في الشرب، حتى قال عمرو بن كلثوم في قصيدة له: وَكانَ الكأسُ مَجْرَاهَا اليَمِينَا[(٢)].

فخشي عمر لذلك أن يقدم الأعرابي على أبي بكر في الشرب، فنبه عليه، لأنه احتمل عنده أن النبي r يؤثر تقديم أبي بكر على تلك العادة فتصير السنة تقديم الأفضل في الشرب على الأيمن، فبين النبي r بفعله وقوله أن تلك العادة لم تغيرها السنة، وأنها مستمرة، وأن الأيمن يقدم على الأفضل في ذلك، ولا يلزم من ذلك حط رتبة الأفضل، وكان ذلك لفضل اليمين على اليسار))[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٣٥٢ و٢٥٧١)، ومسلم: (٢٠٢٩). وشبته: من الشَّوب، وهو الخلط، كما في لسان العرب: ٥١٠/١، مادة (ش و ب).

(٢) عجز بيت وصدره: صَدَدْتِ الكَأْسَ عَنّا أمَّ عَمْرٍو. وبعده:

وما شرُّ الثلاثة أمَّ عمرٍو   بصاحبِك الذي لا تَصْبَحينا

وينسبان إلى عمرو بن كلثوم، وهما في معلقته، كما في جمهرة أشعار العرب: ١٨٤، وشرح المعلقات السبع: ١٢٧. وينسبان إلى عمرو بن عدي، كما في الأغاني: ٣٠٤/١٥، والعمدة: ٢٨٣/٢، ولباب الآداب: ٢٠/٢. ويرى ابن رشيق أن عمرو بن كلثوم استلحقهما، وينظر: خزانة الأدب للبغدادي: ٢٧٤/٨. وذكر أبو الفرج الأصبهاني أنهما ينسبان إلى عمرو بن معد يكرب.

(٣) فتح الباري: ٧٦/١٠.

وتكرار (الأيمنون) لتأكيد العادة وتقرير السنة، خاصة مع الأمر (ألا فيمنوا) قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((لما بين أن الأيمن يقدم، ثم أكده بإعادته، أكمل ذلك بصريح الأمر به))[١]، وذكر أيضًا أن بعض أهل العلم استنبط من تكرار الأيمن أن السنة إعطاء من على اليمين ثم الذي يليه وهلم جرا[٢].

ج- تخصيص النهي عما يكثر في البيئة التي يخاطب النبي r أهلها.

ومن ذلك:

١- ما ورد في حديث عبادة بن الصامت t قال: بايعت رسول الله r في رهط فقال: «أُبَايِعُكُمْ عَلَى أَنْ لا تُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَلا تَسْرِقُوا، وَلا تَزْنُوا، وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ، وَلا تَأْتُوا بِبُهْتَانٍ تَفْتَرُونَهُ بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلِكُمْ، وَلا تَعْصُونِي فِي مَعْرُوفٍ، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأُخِذَ بِهِ فِي الدُّنْيَا فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَطَهُورٌ، وَمَنْ سَتَرَهُ اللهُ فَذَلِكَ إِلَى اللهِ؛ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ، وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ»[٣].

فقد خص هذه المنهيات بالذكر لخطر شأنها ولكونها شائعة فيهم.

ولحظ بعض العلماء في هذا الحديث تخصيص القتل بالأولاد، وذكر ابن رجب وغيره أن التخصيص بالأولاد لكونه معتادًا بين أهل الجاهلية، وهو وأد البنات وقتل البنين خشية الإملاق[٤].

٢- لما قدم وفد عبد القيس على رسول الله r قالوا له: يا رسول الله، إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر الحرم، حدثنا بجمل من الأمر، إن عملنا به دخلنا الجنة، وندعو به من وراءنا، فقال لهم: «آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، الإِيمَانِ بِاللهِ، هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِن الْمَغَانِمِ الْخُمُسَ. وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: مَا انْتُبِذَ فِي

(١) المرجع السابق: ٢٠١/٥.

(٢) المرجع السابق: ٧٦/١٠.

(٣) أخرجه البخاري: (١٨ و٦٨٠١) ، ومسلم (١٧٠٩).

(٤) ينظر: فتح الباري لابن رجب: ٣٥/١، وعمدة القاري: ١٥٩/١، وفتح الباري لابن حجر: ٦٤/١.

الدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ» وفي رواية: «وَلا تَشْرَبُوا فِي الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ»(١). وفي تفسير هذه الأوعية قال أبو بكرة t : أما الدباء فإنا معشر ثقيف كنا نأخذ الدباء فنخرط فيها عناقيد العنب، ثم ندفنها، ثم نتركها حتى تهدر، ثم تموت. وأما النقير فإن أهل اليمامة كانوا ينقرون أصل النخلة، فيشدخون فيه الرطب والبسر، ثم يدعونه حتى يهدر، ثم يموت. وأما الحنتم فجرار كان يحمل إلينا فيها الخمر. وأما المزفت فهذه الأوعية التي فيها هذا الزفت(٢).

ويلحظ أن النبي r اقتصر في النهي على الانتباذ في الأوعية مع أن في المناهي ما هو أشد في التحريم منه، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((اقتصر عليها لكثرة تعاطيهم لها))(٣).

ح- نداء المشركين من على الجبل بما ينادون به عادة.

وقد حصل ذلك لما نزل قول الله U: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] قال ابن عباس t : خرج رسول الله r حتى صعد الصفا فهتف: «يَا صَبَاحَاهْ» فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فاجتمعوا إليه، فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»(٤).

وصعود الجبل والنداء بمثل (ياصباحاه) عادة اعتادوها في الأمر الجلل، فصنع النبي r مثل ما اعتادوه في بيئتهم، إشعارًا بخطر ما يريده ويدعوهم إليه.

خ- رعاية طبيعة اللين والرقة عند الأنصار.

الأنصار هم أهل المدينة الذين هاجر إليهم رسول الله r ، فآمنوا به وناصروه وأيدوه، ويمتازون y بنفوس لينة وقلوب رقيقة، ومن المواقف التي تنبئ عن هذه السمة فيهم

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٣ و٤٣٦٨ و٦١٧٦)، ومسلم: (١٧).

(٢) أخرجه أبو داود الطيالسي: ١٢٠، (٨٨٢) ، وحسن إسناده ابن حجر في فتح الباري: ١/١٣٥.

(٣) فتح الباري: ١/١٣٤.

(٤) أخرجه البخاري: (٤٧٧٠ و٤٨٠١) ، ومسلم (٢٠٨).

ما رواه أنس بن مالك t قال: مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهم يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي r منا. فدخل على النبي r ، فأخبره بذلك. قال: فخرج النبي r وقد عصب على رأسه حاشية برد. قال: فصعد المنبر و لم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»(١).

وقد أدرك النبي r فيهم هذه السمة، فكان يخاطبهم خطابًا لينًا رقيقًا، يناسب حالهم، ويراعي حقهم، ويعترف بتأييدهم له ونصرتهم دينه، خاصة في المواقف التي يجد الأنصار في أنفسهم على رسول الله r ، ومن ذلك:

١- ما ورد في الصحيحين وغيرهما أن الأنصار وجدوا على رسول الله r لما قسم غنائم غزوة حنين في المهاجرين والطلقاء، و لم يعطهم شيئًا، مع أنهم آووه ونصروه، ولبوا نداءه حين أدبر الناس عنه من أهل مكة وغيرهم في هذه الغزوة، وقالوا: إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطى الغنيمة غيرنا، وقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشًا، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم. فبلغه ذلك، فجمعهم في قبة، فخطبهم، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، مَا كَانَ حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟!» فسكتوا، فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله r : «فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ» ثم قال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلالاً فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ. فقال: «أَلا تُجِيبُونِي؟» قالوا: الله ورسوله أَمَنّ. فقال: «أَمَا إِنَّكُمْ لَوْ شِئْتُمْ أَنْ تَقُولُوا كَذَا وَكَذَا وَكَانَ مِن الأَمْرِ كَذَا وَكَذَا» [وفي رواية لأحمد: قالوا وبماذا نجيبك يا رسول الله، ولله ولرسوله المن والفضل؟ قال: «أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، وَمَخْذُولاً فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وَعَائِلاً

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٩٩) مسلم: (٢٥١٠).

فَأَغْنَيْنَاكَ. أَوَجَدْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ -يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ- فِي لُعَاعَةٍ مِن الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قَوْمًا لِيُسْلِمُوا وَوَكَلْتُكُمْ إِلَى إِسْلامِكُمْ»] «يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ r تَحُوزُونَهُ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» فقالوا: بلى، يا رسول الله، قد رضينا. فقال: «[فَوَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ] لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِن الأنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأنْصَارِ وَشِعْبَهَا. الأنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ. إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً شَدِيدَةً فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْا اللهَ وَرَسُولَهُ r ، فَإِنِّي عَلَى الْحَوْضِ. [اللَّهُمَّ ارْحَمْ الأنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأنْصَارِ]» وعند أحمد: فبكى القوم، حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا. ثم انصرف رسول الله r وتفرقنا(١).

إنه خطاب يفيض رقة في العتاب والاعتذار والتأنيس، وحال المخاطبين يقتضي خطابًا عاطفيًا يرقق القلوب، ويسل السخائم، والأنصار ممن يستجيبون لنداء العواطف، ويتأثرون بلهيب المشاعر، وقد اختار النبي r الخطبة لأنها أجدى الوسائل في مثل هذه الحال، خاصة أن الأمر لم يكن مقتصرًا على واحد أو عدد محدود منهم، بل هو أمر عام فيهم، حتى كثر القول وتعددت الأقوال.

وقد استخدم النبي r في خطبته من الأساليب ما أعطى هذا النوع من الخطاب عمقًا وقوة في التأثير، من ذلك مثلاً: تكرار ندائهم بوصف (الأنصار) وهو مع ما فيه من معنى التنبيه لهم، إلا أن فيه إيناسًا لهم وتلطفًا بهم حينما يكون النداء بوصفهم الذي يحبونه، والذي يشعرهم مرة بعد مرة بدوام اعتراف النبي r بنصرهم وفضلهم على الدعوة الإسلامية. وللسر نفسه يعدل النبي r كثيرًا إلى إظهار اسمهم في مقام الإضمار. وحينما يعتب النبي r عليهم يعدل إلى الاستفهام الذي يخفف من حدة العتاب. ويأتي r بالتشبيه البليغ -الأنصار شعار- الذي يشعرهم بقربهم منه r وقربه منهم. ويستخدم r السجع الذي يحدث في النفس تأثيرًا يعمق فيها المعنى، ويشدها إلى المراد. ثم يأتي حسن الختام بالدعاء المصاحب للسجع وتكرار الوصف (الأنصار) وإن هذا الدعاء بما يحمله من معاني الرحمة، وبما يتضمنه

---

(١) أخرجه البخاري: (٣١٤٧ و٣٧٧٨ و٣٩٨٥ و٣٩٩٢ و٤٣٣١) ، ومسلم: (١٧٥٣ - ١٧٥٦ و١٧٥٨)، وأحمد في مسنده: ٧٦/٣، وما بين المعقوفتين من زيادات المسند.

من هذه المؤثرات البلاغية لكفيل بأن يطيب نفوس الأنصار، ويزيل ما بقي فيها من غضب، ولذا كان هو آخر ما ختم به النبي r الخطبة، فكان له الأثر العظيم في تأثر الأنصار واستجابتهم ورضاهم، حتى بكى القوم، وأخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا. وغيرها من الأساليب التي راعى فيها النبي r بعناية طبيعة الأنصار وحالهم.

وقريب من هذا الموقف موقف سبقه بقليل في فتح مكة[1]، وإن كان النبي r لم يطل فيه كإطالته هنا، ولعل النبي r أطال هنا لأن ما سبق من خطاب معهم لم يكن كافيًا لسل ما في نفوسهم، والله أعلم.

٢- ما رواه أنس بن مالك t أن امرأة من الأنصار أتت النبي r معها أولاد لها، فقال النبي r: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّكُمْ لأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ» قالها ثلاث مرار[2]، وعنه أن النبي r أبصر نساء وصبيانًا من الأنصار مقبلين من عرس فقام مُمْتَنًّا أو قال: مُمْثِلاً، فقال: «اللَّهُمَّ، أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ» قالها ثلاث مرار[3].

ورعاية الحال يظهر في تعبير النبي r عن مشاعره تجاه الأنصار مطلقًا معنى (الحب) بصيغة التفضيل، مضافًا إلى عام، ومؤكدًا في الرواية الأولى بالقسم وإن واللام مع تكرار القول وتوجيهه إليهم بصيغة الخطاب، والتعبير عن نفسه بضمير المتكلم، وفي الرواية الثاني قدم لفظ (اللَّهُمَّ) للاستشهاد بالله على صدقه، وخلا التأكيد من القسم وإن واللام، وقيد الحب بمن، لكن أغنى عن هذه المؤكدات قيامه إليهم مسرعًا ومشتدًا في ذلك فرحًا بهم، وإقبال المرء إلى من يحب هاشًا باشًا يوحي بمشاعر الحب الكامنة في النفس ما لا يوحيه كثير من الكلام.

د- رعاية طبيعة الغلظة والجفاء والجهل عند الأعراب.

الأعراب هم البدو الذين يسكنون البادية، ويغلب عليهم الجفاء والغلظة والجرأة والجهل، ولعل طبيعة الحياة التي يحيونها في البوادي لها أثر في سلوكهم، فهم يعيشون في

(١) أخرجه مسلم: (١٧٨٠).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٧٨٦) ، ومسلم: (٢٥٠٩).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٧٨٥ و٥١٨٠) ، مسلم: (٢٥٠٨) وقوله: ممتنًا، أو ممثلاً، كلاهما هنا بمعنى قام قيامًا قويًا، والله أعلم، وينظر: فتح الباري: ٩/٢٤٨.

شظف وسوء حال، ولما كان يغلب عليهم القيام في معاشهم على الإبل، وهي من أصبر الحيوانات وأجلدها وأصعبها، اكتسبوا من طباعها، وكانت تدعوهم إلى التوحش في القفر، ((والقفر مكان الشظف والسغب، فصار لهم إلفًا وعادة، ورَبِيَت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقًا وجبلة، فلا يترع إليهم أحد من الأمم أن يساهمهم في حالهم، ولا يأنس بهم أحد من الأجيال، بل لو وجد واحد منهم السبيل إلى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه))[١].

والنبي r يدرك هذا الطبيعة الأعرابية كما روى أبو هريرة t أن رسول الله r قال: «الْفَخْرُ وَالْخُيَلاءُ فِي أَهْلِ الْخَيْلِ وَالإِبِلِ وَالْفَدَّادِينَ أَهْلِ الْوَبَرِ، وَالسَّكِينَةُ فِي أَهْلِ الْغَنَمِ»[٢]، وعن ابن مسعود t قال: أشار رسول الله r بيده نحو اليمن، فقال: «الإِيمَانُ يَمَانٍ، هَا هُنَا، أَلا إِنَّ الْقَسْوَةَ وَغِلَظَ الْقُلُوبِ فِي الْفَدَّادِينَ عِنْدَ أُصُولِ أَذْنَابِ الإِبِلِ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ، فِي رَبِيعَةَ وَمُضَرَ»[٣].

وإذا كان العرب –كما قال ابن عاشور (١٣٩٣هـ)- ((أمة عرفت بالأنفة، وإباء الضيم، وسلامة الفطرة، وسرعة الفهم، وهم المتلقون الأولون للدين، فلم تكن تليق بهم الشدة والغلظة، ولكنهم محتاجون إلى استترال طائرهم في تبليغ الشريعة لهم، ليتجنبوا بذلك المكابرة التي هي الحائل الوحيد بينهم وبين الإذعان إلى الحق))[٤] فما بالك بالأعراب منهم، ولذا كان النبي r يتألفهم ويلين القول والمعاملة معهم في غالب أحواله معهم، ويخاطبهم بما يناسب طبيعتهم، ومن شواهد ذلك[٥]:

١ - إلانة النبي r الكلام لهم.

قالت عائشة رضي الله عنها: استأذن رجل على رسول الله r ، فقال: «ائْذَنُوا لَهُ بِئْسَ أَخُو الْعَشِيرَةِ» أو «ابْنُ الْعَشِيرَةِ» فلما دخل ألان له الكلام. قلت: يا رسول الله، قلت

---

(١) مقدمة ابن خلدون: ١٣٨/١.

(٢) أخرجه البخاري: (٣٣٠١)، ومسلم: (٥٢).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٣٠٢)، ومسلم: (٥١).

(٤) تفسير التحرير والتنوير: ١٤٥/٤.

(٥) لمزيد من الفائدة في معاملة النبي r للأعراب ينظر: دعوة النبي r للأعراب، تأليف: حمود بن جابر الحارثي.

الذي قلت، ثم ألنت له الكلام. قال: «أَيْ عَائِشَةُ، إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ تَرَكَهُ النَّاسُ -أَوْ: وَدَعَهُ النَّاسُ- اتِّقَاءَ فُحْشِهِ»(١).

وهذا الرجل هو عيينة بن حصن، سيد فزارة من غطفان، وكان معروفًا بالحمق والغلظة والجفاء، فكان النبي r يلين له الكلام؛ يتألفه ويتقي فحشه، كما روى محمد بن إبراهيم التيمي قال: قيل: يا رسول الله أعطيت عيينة بن حصن والأقرع بن حابس مائة مائة، وتركت جعيل بن سراقة الضمري، فقال: «وَالَّذِي نَفْسِيْ بِيَدِهِ، لَجُعَيْلُ بنُ سُرَاقَةَ خَيْرٌ مِن طِلاعِ الأَرْضِ كُلِّها مِثْل عُيَيْنَةَ وَالأَقْرَعِ، وَلَكِنِّي تَأَلَّفْتُهُمَا لِيُسْلِمَا، وَأَكِلُ جُعَيْلاً إلى إِسْلامِه»(٢).

ومن صور إلانة الكلام معهم العدول من الطلب أمرًا أو نهيًا إلى الخبر تعليمًا للجاهل وتعريضًا بالخطأ، ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك t قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله r إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله r: مه مه. قال رسول الله r: «لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله r دعاه فقال له: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ U، وَالصَّلاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أو كما قال رسول الله r، قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء، فشنه عليه(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (٦١٣١)، ومسلم: (٢٥٩١).

(٢) أخرجه ابن إسحاق في (المغازي) كما في دلائل النبوة للبيهقي: ١٨٣/٥، والإصابة في تمييز الصحابة: ٥٩٦/١، وعنه أبو نعيم في معرفة الصحابة: ٦٢٥/٢، وقال ابن حجر في الإصابة: ((هذا مرسل حسن لكن له شاهد موصول، روى الروياني في مسنده وابن عبد الحكم في فتوح مصر من طريق بكر بن سوادة، عن أبي سالم الجيشاني، عن أبي ذر أن رسول الله r قال له: «كَيْفَ تَرَى جُعَيْلاً؟» قلت: مسكينًا كشكله من الناس. قال: «وكَيْفَ تَرَى فُلانًا» قلت: سيدًا من السادات. قال: «لَجُعَيْلٌ خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلُ هَذَا» قال: قلت: يا رسول الله، ففلان هكذا وتصنع به ما تصنع؟! قال: «إِنَّهُ رَأْسُ قَوْمِهِ فَأَتَأَلَّفُهُم» وإسناده صحيح، وأخرجه ابن حبان من وجه آخر عن أبي ذر، لكن لم يسم جعيلاً، وأخرجه البخاري من حديث سهل بن سعد فأبهم جعيلاً وأبا ذر)) وينظر: فتح الباري: ٨٠/١.

(٣) أخرجه البخاري: (٢١٩)، ومسلم: (٢٨٥) واللفظ له.

ومن العدول عن الأمر والنهي إلى الخبر مع الأعراب حديث معاوية بن الحكم السلمي قال: بينا أنا أصلي مع رسول الله r إذ عطس رجل من القوم، فقلت: يرحمك الله، فرماني القوم بأبصارهم، فقلت: وا ثكل أمياه، ما شأنكم تنظرون إلي، فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم، فلما رأيتهم يصمتونني، لكني سكت[1]، فلما صلى رسول الله r فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» أو كما قال رسول الله r[2].

ولعل في استعمال النبي r للتأكيد والقصر مزيد تنبيه وتعريض للمخاطب بشدة ما وقع فيه من الخطأ.

٢- أمرهم بما يكثر حاجتهم إليه، ونهيهم عما يكثر عندهم من المنكرات.

ومن ذلك مثلاً ما رواه أبو أيوب t أن أعرابيًا عرض لرسول الله r وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله، أو يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، قال: فكف النبي r، ثم نظر في أصحابه، ثم قال: «لَقَدْ وُفِّقَ» أو «لَقَدْ هُدِيَ» قال: «كَيْفَ قُلْتَ؟» قال: فأعاد، فقال النبي r: «تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ. دَعِ النَّاقَةَ»[3]، وفي رواية لأبي هريرة t أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله r فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة. قال: «تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ» قال: والذي نفسي بيده، لا أزيد على هذا شيئًا أبدًا، ولا أنقص منه، فلما

---

(١) كذا الرواية، ولعل فيها حذفًا تدل عليه الرواية التي أخرجها الدارمي في سننه: كتاب الصلاة، باب النهي عن الكلام في الصلاة، برقم (١٥٠٢) وفيها قال معاوية بن الحكم t: فلما رأيتهم يسكتونني قلت: ما لكم تسكتونني؟ لكني سكت...

(٢) أخرجه مسلم: (٥٣٧).

(٣) أخرجه البخاري: (١٣٩٦ و٥٩٨٣)، ومسلم: (١٣) واللفظ له.

ولّى قال النبي r : «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى رَجُلٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى هَذَا»(١). وقد يكون الأعرابي في رواية أبي هريرة t هو الذي في رواية أبي ذر t ، فإن كان كذلك كما قيل(٢) فإن النبي r لم يذكر له الحج لأن القصة حصلت في الحج، كما في رواية لحديث أبي هريرة t (٣)، ويحتمل أنه ذكره له فاختصر كما ذكر ابن حجر (٨٥٢هـ)(٤). والنبي r بين له ما افترضه الله U من الأعمال التي لا يقوم الإسلام إلا بها، وترك ما سواها لما يعلمه من طبيعة الأعراب التي يثقل عليها العمل فتمله، خاصة إذا كانوا حديثي عهد بإسلام، قال القرطبي (٦٥٦هـ): ((إنما سكت النبي r لهؤلاء السائلين عن ذكر التطوعات، و لم يذكرها لهم... لأن هؤلاء -والله أعلم- كانوا حديثي عهد بإسلام فاكتفى منهم بفعل ما وجب عليهم في تلك الحال، لئلا يثقل ذلك عليهم فيملوا، أو لـئلا يعتقدوا أن تلك السنن والتطوعات واجبة، فتركهم إلى أن تنشرح صدورهم للفهم عنه والحرص على تحصيل ثواب تلك المندوبات فتسهل عليهم))(٥).

ولعل في تخصيص (صلة الرحم) بالذكر هنا دون غيرها من خصال الخير لما يغلب على الأعراب من الجفاء الذي قد يحصل معه عدم الصلة، أو لأن هذا الأعرابي يفتقد هذه الخصلة فأوصاه بها، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((خص هذه الخصلة من بين خلال الخير نظرًا إلى حال السائل، كأنه كان لا يصل رحمه فأمره به، لأنه المهم بالنسبة إليه. ويؤخذ منه

(١) أخرجه البخاري: (١٣٩٧) ، ومسلم: (١٤) واللفظ له.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٣/٢٦٤.

(٣) قال ابن حجر في فتح الباري: ٣/٢٦٤: ((رواه البغوي وابن السكن والطبراني في الكبير وأبو مسلم الكجي في السنن من طريق محمد بن جحادة وغيره عن المغيرة بن عبد الله اليشكري أن أباه حدثه قال: انطلقت إلى الكوفة فدخلت المسجد، فإذا رجل من قيس يقال له ابن المنتفق وهو يقول: وصف لي رسول الله r ، فطلبته، فلقيته بعرفات، فزاحمت عليه، فقيل لي: إليك عنه، فقال: «دَعُوا الرَّجُلَ، أَرَبٌ مَا لَه» قال: فزاحمت عليه حتى خلصت إليه، فأخذت بخطام راحلته، فما غيَّر عَلَي، قال: شيئين أسألك عنهما: ما ينجيني من النار؟ وما يدخلني الجنة؟ قال: فنظر إلى السماء، ثم أقبل علي بوجهه الكريم، فقال: «لَئِنْ كُنْت أَوْجَزْت الْمَسْأَلَة، لَقَدْ أَعْظَمْت وَطَوَّلْت، فَاعْقِلْ عَلَيَّ، اُعْبُدْ الله لا تُشْرِك بِهِ شَيْئًا، وَأَقِمْ الصَّلاة الْمَكْتُوبَة، وَأَدِّ الزَّكَاة الْمَفْرُوضَة، وَصُمْ رَمَضَان»... وقد يؤخذ من هذه الرواية أن السائل في حديث أبي هريرة هو السائل في حديث أبي أيوب؛ لأن سياقه شبيه بالقصة التي ذكرها أبو هريرة)).

(٤) ينظر: المرجع السابق: ٣/٢٦٥.

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ١/١٦٦.

تخصيص بعض الأعمال بالحض عليها بحسب حال المخاطب وافتقاره للتنبيه عليها أكثر مما سواها، إما لمشقتها عليه وإما لتسهيله في أمرها))[١].

ولعل في العدول عن صيغة الأمر إلى المضارع في (تعبد- تقيم- تؤتي- تصل) مراعاة للطبيعة الأعرابية التي تستثقل التكاليف، كما تشير إلى استمرار هذه الأعمال، والله أعلم.

ومما يحتمل أن النبي r ذكره مناسبًا للطبيعة العربية والأعرابية ما رواه عبد الله بن عمرو t قال: جاء أعرابي إلى النبي r فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ» قال: ثم ماذا؟ قال: «ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» قال: ثم ماذا؟ قال: «الْيَمِينُ الْغَمُوسُ»[٢]، وفي رواية زيادة: «وَقَتْلُ النَّفْسِ»[٣]. فلعل ذكر (عقوق الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس) لما يقع مثله كثيرًا عند الأعراب، والله أعلم.

٣- نهي أعرابي عن ملازمة المدينة.

نهى النبي r أعرابيًا عن ملازمة المدينة، ولعل ذلك لما يعلمه النبي r من الطبيعة الأعرابية التي لا تصبر على ملازمة الحاضرة، فهي من عادتها التنقل بالإبل من مكان إلى مكان، وقد روى ذلك أبو سعيد t قال: جاء أعرابي إلى النبي r ، فسأله عن الهجرة، فقال: «وَيْحَكَ، إِنَّ الْهِجْرَةَ شَأْنُهَا شَدِيدٌ، فَهَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم. قال: «فَتُعْطِي صَدَقَتَهَا؟» قال: نعم. قال: «فَهَلْ تَمْنَحُ مِنْهَا؟» قال: نعم. قال: «فَتَحْلُبُهَا يَوْمَ وُرُودِهَا؟» قال: نعم. قال: «فَاعْمَلْ مِنْ وَرَاءِ الْبِحَارِ فَإِنَّ اللهَ لَنْ يَتِرَكَ مِنْ عَمَلِكَ شَيْئًا»[٤].

ويلحظ في خطاب النبي r ما قيل سابقًا من العدول عن النهي إلى الخبر رعاية للطبيعة الأعرابية.

كما يلحظ في أسلوب النبي r لصرف الأعرابي عن الهجرة إلى المدينة:

---

(١) فتح الباري: ٣/٢٦٥، وينظر: شرح صحيح مسلم: ١/١٧٤.

(٢) أخرجه البخاري: (٦٩٢٠).

(٣) أخرجها البخاري: (٦٦٧٥).

(٤) أخرجه البخاري: (١٤٥٢ و٣٩٢٣) ، ومسلم: (١٨٦٥). و(البِحَار) جمع بَحْرة، وهي القرى والمدن. ومعنى (يترك) أي: ينقصك. ينظر في شرح الحديث: شرح صحيح مسلم: ١٣/٩، ، وفتح الباري: ١٠/٥٥٥.

ابتداؤه بقوله: «ويحك» وهي كلمة ترحم وتوجع، تقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها.

وتأكيده الخبر بإن، وباللام في رواية مسلم: «إِنَّ شَأْنَ الْهِجْرَةِ لَشَدِيدٌ».

وإظهار (الهجرة) وحقها الإضمار، وفي الرواية الأولى صيغ الخبر ليتكرر ذكر الهجرة مرتين ظاهرة ومضمرة.

ثم اختيار لفظ (شديد) بما يوحيه من عدم التحمل وضعف الصبر.

وبعد ذلك يبين النبي r له أن العمل الصالح يمكنه حيث كان، وأن الله لا يضيع أجره ولا ينقصه شيئًا.

قال النووي (٦٧٦هـ): ((قال العلماء: والمراد بالهجرة التي سأل عنها هذا الأعرابي ملازمة المدينة مع النبي r وترك أهله ووطنه، فخاف عليه النبي r ألا يقوى لها، ولا يقوم بحقوقها، وأن ينكص على عقبيه، فقال له: إن شأن الهجرة التي سألت عنها لشديد، ولكن اعمل بالخير في وطنك، وحيث ما كنت فهو ينفعك، ولا ينقصك الله منه شيئًا))[(١)]، وقال السندي (١١٣٨هـ) في حاشيته على سنن النسائي: ((لعله r خاف عليه لما كان عليه الأعراب من الضعف، حتى أن أحدهم ليقول إن حصل له مرض في المدينة: أقلني بيعتك، ونحو ذلك))[(٢)].

٤- استعمال الأسلوب الحكيم والمعاريض مع الأعراب الذين يسألون عن الساعة.

زمن الساعة مما أخفاه الله عن خلقه فلم يطلع عليه أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وقد قال الله U: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: ٤٧]، وقال: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ﴾ [الأحزاب: ٦٣]، وقال: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٩/١٣.

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي: ١٤٣/٧.

وقد كان الأعراب كثيرًا ما يسألون النبي r عن الساعة: متى الساعة؟ ويظنــون أن عنده علمًا بها، لمقام نبوته، والوحي إليه من ربه U، إلا أن النبي r لا يجيبهم بعدم العلم، ويستعمل معهم المعاريض، خشية عليهم من الارتياب والارتداد، كما يصرفهم عن التفكير بهذا الأمر المعرفي إلى التفكير بالأمر العملي الذي هو أولى وأهم، على طريقـة الأسـلوب الحكيم، كما روى أنسٌ t أن رجلاً من الأعراب أتى النبي r، فقال: يا رسول الله، متى الساعة قائمة؟ قال: «وَيْلَكَ، وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» قال: ما أعددت لها كبير صيام ولا صـلاة ولا صدقة، إلا أني أحب الله ورسوله. قال: «إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» فقلنا: ونحن كذلك، قال نعم، ففرحنا يومئذ فرحًا شديدًا، فمر غلام للمغيرة، وكان من أقراني، فقال: «إِنْ أُخِّرَ هَذَا فَلَنْ يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»[(١)]، و(الساعة) جاءت في هذا الحديث بصيغة الإطلاق، والمقصود بها ساعة المخاطب، كما في الحديث الآخر الذي يحكي الحالة الغالبة للأعراب مع رسول الله r في السؤال عن الساعة، عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان الأعـراب إذا قدموا على رسول الله r سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسـان منـهم فقال: «إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»[(٢)]، قال ابـن كـثير (٧٧٤ هـ) في الحديث الأول: ((فيه أنه u كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته... وهذا الإطلاق في هذه الروايات محمول على التقييد بـ(ساعتكم) في حديث عائشة رضي الله عنها))[(٣)]، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) عن الداؤودي (٤٠٢هـ) قوله: ((المحفوظ أنه r قال ذلك للذين خاطبهم بقوله: تأتيكم ساعتكم، يعني بذلك موتهم، لأنهم كانوا أعرابًا فخشي أن يقول لهـم: لا أدري متى السـاعة، فيرتـابوا، فكلمهـم بالمعاريض))[(٤)]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وكأنه أشار إلى حديث عائشة الذي أخرجه مسلم: كان الأعراب إذا قدموا على النبي r سألوه عن الساعة: متى السـاعة؟ فينظـر إلى

(١) أخرجه البخاري: (٣٦٨٨ و٦١٦٧ و٧١٥٣)، ومسلم: (٢٦٣٩ و٢٩٥٣).
(٢) أخرجه البخاري: (٦٥١١)، ومسلم: (٢٩٥٢) واللفظ له.
(٣) تفسير القرآن العظيم: ٣/٥٢١، عند تفسير آية الأعراف: ١٨٧.
(٤) فتح الباري: ١٠/٥٥٦.

أحدث إنسان منهم سنًا فيقول: «إِنْ يَعِشْ هَذَا حَتَّى يُدْرِكَهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ» قال عياض وتبعه القرطبي: هذه رواية واضحة تفسر كل ما ورد من الألفـــاظ المشـــكلة في غيرها))[1].

(١) المرجع السابق.

المبحث الثالث: المنزلة.

منزلة المخاطب سواء أكانت سياسية أم وظيفية أم اجتماعية أم غيرها لها أثر في رعاية المتكلم له في خطابه، وسبق في التمهيد بيان أهمية مراعاة هذا الجانب، وقد قال الله U للصحابة t : ﴿لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا﴾ الآية [النور: ٦٣].

وهذا المنهاج القرآني والعرف العربي نهجه النبي r في خطابه، وقد سبق في التمهيد أيضًا الحديث عن مراعاة النبي r لهذا الجانب، تحقيقًا للحكمة التي أمر أن يدعو بها، فتكون أدعى إلى قبول الدين، والرغبة في اتباعه.

وورد في الصحيحين شواهد على ذلك، سأذكر منها أولاً ما يتعلق بالكفار من الملوك ومن دونهم، ثم المسلمين، وإنما بدأت بالكفار لأن رعاية حالهم أظهر، وإذا كان النبي r سيراعي منزلتهم فالمسلمون من باب أولى.

أ- اختيار (الرسالة) لمخاطبة الملوك والرؤساء.

لما أراد النبي r أن يدعو الملوك والرؤساء داخل الجزيرة العربية وخارجها كان أهم وسيلة تتلاءم معهم باعتبارهم ملوكًا وساسة هي إرسال الرسائل -الكتب- ، فأرسل السفراء الذين يحملون رسائله، مختومة بخاتمه الذي اتخذه بعد أن قيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا إذا كان مختومًا، وسيأتي مزيد بيان لاختيار الرسالة في الفصل الثاني بإذن الله.

وقد خاطب النبي r في هذه الرسائل الملوك والرؤساء بما يليق بمنزلتهم، ويلائم حالهم، ومن ذلك:

١- وصفهم بمنزلتهم.

ففي رسالته إلى قيصر قال: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ»[1]. قال النووي (٦٧٦هـ): ((لم يقل: إلى هرقل فقط، بل أتى بنوع من الملاطفة فقال: عظيم الروم، أي الذي يعظمونه ويقدمونه، وقد أمر الله تعالى بإلانة القول لمن يدعى إلى الإسلام فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ [النحل:

---

(١) أخرجه البخاري: (٧ و٢٩٤١ و٤٥٥٣) ، ومسلم: (١٧٧٣).

١٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤]، وغير ذلك))[١]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((لم يخله من إكرام لمصلحة التألف))[٢].

وفي بعض الرسائل المروية عنه إلى غير قيصر مما لم يرد في الصحيحين نلحظ هذه السمة جلية ففي الرسالة الموجهة إلى كسرى: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إِلَى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ» وفي الرسالة إلى النجاشي: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ» وفي الرسالة إلى المقوقس: «مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْمُقَوقِسِ عَظِيمِ القِبْطِ»[٣].

وقد لحظ بعض شراح الحديث أن النبي ﷺ لم يصف هرقل بالملك، وعللوا ذلك بأنه ((لا ملك له ولا لغيره إلا بحكم دين الإسلام))[٤]. ويشكل على هذا التوجيه الرسالة الموجهة إلى النجاشي، حيث وصفه بالملك، وفي صحتها نظر[٥].

٢- اختيار الألفاظ التي تشعر الملوك بالاطمئنان على ملكهم إذا أسلموا.

ويظهر ذلك في رسالة النبي ﷺ إلى قيصر، حيث نلحظ معنى (السلام) يتكرر في نص الرسالة ست مرات، بدءاً من مطلعها إلى ختامها، وأعرض النص لنتبين هذه السمة: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ. سَلامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾».

لنتأمل هذه الألفاظ: سلام – الإسلام – أسلم – تسلم – أسلم – مسلمون.

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١٢/١٠٨.

(٢) فتح الباري: ١/٣٨.

(٣) ينظر في هذه الرسائل وغيرها: طبقات ابن سعد: ١/٢٥٨-٢٩١، وتاريخ الأمم والملوك: ٢/٦٤٤-٦٥٥، وزاد المعاد: ٣/٦٨٨-٦٩٧، ونصب الراية: ٤/٤١٨-٤٢٥، وينظر في تحقيق صحة هذه الرسائل: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/٤٥٦-٤٥٩.

(٤) قاله النووي في شرح صحيح مسلم: ١٢/١٠٨، وينظر: فتح الباري: ١/٣٨.

(٥) ينظر: السيرة النبوية الصحيحة: ٢/٤٥٨.

إن وجود هذا الكم من كلمات مادة واحدة في نص قصير لتبرز المعنى، وتجعله ظاهرًا على النص، وتضفي على المخاطب شعورًا بمعناها من أول الخطاب إلى آخره. إن هذه الكلمات تصرح وتلمح وتوحي إلى هرقل بأن المقصود هو الإسلام، وأما ملكه فباق إن أسلم. والشعور بالطمأنينة على الملك يدفع إلى طاعة النبي ﷺ واتباع دينه، ولقد كاد هرقل أن يسلم، لكنه خاف على نفسه وضن بملكه، ولم يكن الخوف من النبي ﷺ، ولكن من قومه، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((لكن لو تفطن هرقل لقوله ﷺ في الكتاب الذي أرسل إليه: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ» وحمل الجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة لسلم لو أسلم من كل ما يخافه، ولكن التوفيق بيد الله تعالى))(١).

وهذه السمة نلحظها أيضًا في الرسائل الأخرى المروية إلى الملوك والرؤساء، ففي رسالته إلى كسرى: «سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى ... أَسْلِمْ تَسْلَمْ»(٢)، وفي رسالته إلى النجاشي: «سِلْمٌ أَنْتَ... وَالسَّلامُ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى»(٣)، ورسالته إلى المقوقس كرسالته إلى هرقل(٤)، وفي رسالته إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين: «سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى الإِسْلامِ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِمْ يَجْعَلْ اللهُ لَك مَا تَحْتَ يَدَيْك»(٥)، وفي رسالته إلى جَيفَر وعَبْد ابني الجُلَنْدَى ملكي عُمَان: «سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكُمَا بِدَاعِيَةِ الإِسْلامِ أَسْلِمَا تَسْلَمَا... وَإِنَّكُمَا إِنْ أَقْرَرْتُمَا بِالإِسْلامِ وَلَّيْتُكُمَا»(٦)، وفي رسالته إلى الحارث بن أبي شِمْر الغَسَّاني ملك تُخُوم الشام: «سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى، وَآمَنَ بِهِ، وَصَدَّقَ، وَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، يَبْقَى لَك

---

(١) فتح الباري: ٣٧/١.
(٢) ينظر: تاريخ الأمم والملوك: ٦٥٤/٢، وزاد المعاد: ٦٨٨/٣، ونصب الراية: ٤٢٠/٤.
(٣) ينظر: تاريخ الأمم والملوك: ٦٥٢/٢، وزاد المعاد: ٦٨٩/٣، ونصب الراية: ٤٢١/٤.
(٤) ينظر: زاد المعاد: ٦٩١/٣، ونصب الراية: ٤٢١/٤.
(٥) ينظر: زاد المعاد: ٦٩٢/٣، ونصب الراية: ٤٢٠/٤.
(٦) ينظر: زاد المعاد: ٦٩٣/٣، ونصب الراية: ٤٢٣/٤.

مُلْكُك»[١]، وفي رسالته إلى هَوذَة الحنفي صاحب اليمامة: «سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُـــدَى... فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَجْعَلْ لَك مَا تَحْتَ يَدَيْك»[٢].

ب- ملاطفة الأشراف.

عن أبي هريرة t قال: بعث رسول الله r خيلاً قبل نجد، فجاءت برجل من بـــني حنيفة، يقال له: ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة، فربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه رسول الله r ، فقال: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فقال: عندي يا محمد خير، إن تقتل تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكر، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شـــئت. فتركـــه رسول الله r حتى كان بعد الغد، فقال: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» قال: ما قلـــت لـــك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فتركه رسول الله r حتى كان من الغد، فقال: «مَاذَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» فقال: عندي مـــا قلت لك: إن تنعم تنعم على شاكر، وإن تقتل تقتل ذا دم، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت. فقال رسول الله r : «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ» فانطلق إلى نخل قريب مـــن المســـجد، فاغتسل، ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، يا محمد، والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلي من وجهك فقد أصبح وجهـــك أحـــب الوجوه كلها إلي. والله ما كان من دين أبغض إلي من دينك فأصبح دينك أحب الدين كله إلي. والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك فأصبح بلدك أحب الـــبلاد كلـــها إلي. وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فماذا ترى؟ فبشره رسول الله r ، وأمره أن يعتمر. فلما قدم مكة قال له قائل: أصبوت. فقال: لا ولكني أسلمت مع رسول الله r ، ولا والله لا يأتيكم من اليمامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله r [٣].

---

(١) ينظر: تاريخ الأمم والملوك: ٢/٦٥٢، وزاد المعاد: ٣/٦٩٧، ونصب الراية: ٤/٤٢٤.

(٢) ينظر: زاد المعاد: ٣/٦٩٦، ونصب الراية: ٤/٤٢٥.

(٣) أخرجه البخاري: (٤٦٢ و٤٣٧٢) ، ومسلم: (١٧٦٤).

ولعل خطاب ثمامة بأسلوب الاستفهام، ونداءه باسمه مع تأخير النداء، فيه تلطف بهذا السيد ومراعاة لمنزلته، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قوله r : «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» وكرر ذلك ثلاثة أيام، هذا من تأليف القلوب وملاطفة لمن يرجى إسلامه من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير))(١).

ت- التوصية بما يناسب منزلة المخاطب.

ومن ذلك:

١- توصية معاذ بن جبل t حين أرسله r إلى اليمن واليًا وقاضيًا وداعيًا إلى دين الله U، كما روى ابن عباس t قال: قال رسول الله r لمعاذ بن جبل t حين بعثه إلى اليمن: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»(٢).

وفي هذه الوصية ما راعى به النبي r حال المخاطب، ومن ذلك:

أ- بيان النبي r لمعاذ t حال من يأتيهم، ليدعوهم ويتولى أمرهم على بصيرة، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ» هي كالتوطئة للوصية، لتستجمع همته عليها، لكون أهل الكتاب أهل علم في الجملة، فلا تكون العناية في مخاطبتهم كمخاطبة الجهال من عبدة الأوثان))(٣).

ب- في تأكيد خبر إتيانه إليهم طمأنة له بتأكد حصول وصوله إليهم. ويزيد الأمر طمأنينة استعمال (إذا) في قوله: «فَإِذَا جِئْتَهُمْ» قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قيل: عبر بلفظ

(١) شرح صحيح مسلم: ١٢/٨٩.
(٢) أخرجه البخاري: (١٤٩٦) ، ومسلم: (١٩).
(٣) فتح الباري: ٣/٣٥٨.

(إذا) تفاؤلاً بحصول الوصول إليهم))[١]، وهذا بناء على أن الأصل في (إذا) أن تدخل على المجزوم بوقوعه، أو الراجح[٢].

ت- ختم r الوصية بأمر معاذ t أن يتقي دعوة المظلوم وأنها ليس بينها وبين الله حجاب. وهذه خاتمة موجزة بليغة جاءت عقب التحذير من أخذ كرائم أموالهم، لما في ذلك من الظلم، والمخاطب لا يجهل سوء الظلم، لكن لما كان في مقام قد لا يسلم الوالي فيه من ظلم حذره النبي r منه، ولذا لم يأت التحذير من الظلم بالنهي عنه بصورة مباشرة، ولكن بالأمر باتقاء عاقبته، لأن تصور عاقبة الفعل زاجر للارتداع عنه، والله أعلم. قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ» أي: تجنب الظلم لئلا يدعو عليك المظلوم. وفيه تنبيه على المنع من جميع أنواع الظلم، والنكتة في ذكره عقب المنع من أخذ الكرائم الإشارة إلى أن أخذها ظلم. وقال بعضهم: عطف (واتق) على عامل (إياك) المحذوف وجوبًا، فالتقدير: اتق نفسك أن تتعرض للكرائم. وأشار بالعطف إلى أن أخذ الكرائم ظلم، ولكنه عمم إشارة إلى التحرز عن الظلم مطلقًا))[٣].

ولعل في قوله r : «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» تعريضًا له بعدم حجب المظلوم عن بابه، والله أعلم.

ث- استخدم النبي r في هذا المقام (الوصية) لأن مقام المخاطب يستدعيها، فهو وال ويتولى مهمات القضاء والدعوة، وفي بلاد بعيدة، فيحتاج إلى وصايا تكون له منهاجًا في ولايته ودعوته، بعيدًا عن الاجتهادات الفردية التي قد تكون سببًا في النفرة عن الدين، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) من فوائد الحديث ((توصية الإمام عامله فيما يحتاج إليه من الأحكام وغيرها))[٤].

---

(١) ينظر: المرجع السابق.

(٢) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ١٢٦/٤، وشروح التلخيص: ٣٩/٢، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم: ١٧٣/١.

(٣) فتح الباري: ٣٥٨/٣.

(٤) المرجع السابق.

٢- توصية معاذ وأبي موسى رضي الله عنهما حين أرسلهما النبي r إلى اليمن واليَيْن.

عن أبي بردة أن رسول الله r بعث أبا موسى ومعاذ بن جبل إلى اليمن، كل واحد منهما على مخلاف، واليمن مخلافان، ثم قال: «ادْعُوَا النَّاسَ، وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا» قال أبو موسى t : يا نبي الله، إن أرضنا بها شراب من الشعير المِزْر، وشراب من العسل البِتْع، فقال: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ» وفي رواية: فقلت يا رسول الله، أفتنا في شرابين كنا نصنعهما باليمن؛ البِتْع وهو من العسل ينبذ حتى يشتد، والمِزْر وهو من الذرة والشعير ينبذ حتى يشتد، قال: وكان رسول الله r قد أعطي جوامع الكلم بخواتمه: فقال: «أَنْهَى عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ أَسْكَرَ عَنْ الصَّلاةِ»(١).

ويظهر أثر حال المخاطب فيما يلي:

أ- ملاءمة (الوصية) للولاة، وقد سبقت الإشارة إليها في الحديث السابق، وقال النووي (٦٧٦هـ) في فوائد الحديث: ((وفيه: وصية الإمام الولاة وإن كانوا أهل فضل وصلاح كمعاذ وأبي موسى، فإن الذكرى تنفع المؤمنين))(٢).

ب- أمرهما r بالتبشير والتيسير ونهاهما عن التنفير والتعسير، لحاجة الولاة والدعاة إلى الوصية بذلك، ولحاجة الرعية والمدعوين إلى المأمور بهما وانتفاء ضدهما.

ولحظ بعض الشراح المقابلة بين الأمر بالشيء والنهي عن ضده؛ لأن المطلوب هو حصول المأمور وانتفاء ضده في كل الأحوال ومن جميع الوجوه، قال النووي (٦٧٦هـ): ((إنما جمع في هذه الألفاظ بين الشيء وضده؛ لأنه قد يفعلهما في وقتين، فلو اقتصر على (يسروا) لصدق ذلك على من يسر مرة أو مرات، وعسر في معظم الحالات، فإذا قال: (ولا تعسروا) انتفى التعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب، وكذا يقال في (بشرا ولا تنفرا) و(تطاوعا ولا تختلفا)، لأنهما قد يتطاوعان في وقت ويختلفان في وقت، وقد يتطاوعان في شيء ويختلفان في شيء))(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٣٨ و٤٣٤٢ و٤٣٤٥) ، ومسلم: (١٧٣٣).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٤١/١٢.

(٣) المرجع السابق.

والذي يظهر أن قوله: «بَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا» ليس من باب الأمر بالشيء والنهي عن ضده؛ لأن الذي يقابل التبشير الإنذار، و لم ينه عن الإنذار لأن الوالي والداعية قد يحتاجان إليه، كما هو وارد في الخطاب القرآني والخطاب النبوي، والنفس البشرية يتنازعها جانبا الرجاء والخوف، فهي تحتاج إلى الإنذار والتخويف، كما تحتاج إلى التبشير، وإن كانت حاجتها إلى التبشير أولى وأكثر، ولذا نص عليه، و لم ينص على الإنذار، وإن كان النهي عن التنفير فيه إشارة لاستعمال الإنذار لو احتيج إليه، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((يظهر لي أن النكتة في الإتيان بلفظ البشارة وهو الأصل، وبلفظ التنفير وهو اللازم... إلا أن الإنذار لا ينفى مطلقًا بخلاف التنفير، فاكتفى بما يلزم عنه الإنذار وهو التنفير، فكأنه قيل: إن أنذرتم فليكن بغير تنفير، كقوله تعالى: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤])) [١]، وشرح النووي (٦٧٦هـ) يدل على هذا القول، فقد قال: ((وفي هذا الحديث الأمر بالتبشير بفضل الله وعظيم ثوابه وجزيل عطائه وسعة رحمته، والنهي عن التنفير بذكر التخويف وأنواع الوعيد محضة من غير ضمها إلى التبشير)) [٢].

ت- أمرهما r بالتطاوع وعدم الاختلاف؛ لحاجتهما إلى ذلك، فإن كل واحد منهما وال على مخلاف من مخلافي اليمن متجاورين، حيث كان عمل معاذ t النجود وما تعالى من بلاد اليمن، وعمل أبي موسى t التهائم وما انخفض منها. وتجاور العملين يستدعي قضايا مشتركة بينهما يحتاجان فيها إلى الاتفاق وترك الاختلاف، وإلا أدى ذلك إلى انتفاء المقصود من إرسالهما، وحصل باختلافهما الاختلاف بين أتباعهما، وأفضى إلى العداوة والبغضاء، ثم المحاربة [٣].

ث- لما سأل أبو موسى t النبي عن حكم شرابي أهل اليمن أفتاه بقاعدة عامة: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ» وحاجة أبي موسى إلى القواعد العامة أكثر، لكونه في بلاد بعيدة عن النبي r ، فربما استجدت بين وقت وآخر أشربة عند رعيته غير ما سأل عنه، فيشق عليه أن

(١) فتح الباري: ٦١/٨.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٤١/١٢.

(٣) ينظر: المرجع السابق، وفتح الباري: ١٦٢/١٣-١٦٣.

يسأل عن كل شراب بعينه، فأفتاه النبي r بحكم عام يتزله أبو موسى على كل ما ينطبق عليه مما هو حاصل أو سيحصل، والله أعلم.

٣- توصية قادة الجيوش والسرايا.

ومن ذلك ما رواه بريدة t قال: كان رسول الله r إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ. قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ. اغْزُوا، وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تَمْثُلوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا. وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِن الْمُشْرِكِينَ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلاثِ خِصَالٍ -أَوْ: خِلالٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ؛ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَلا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنْ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لا»[(١)].

ذكر النووي (٦٧٦هـ) في فوائد الحديث: ((استحباب وصية الإمام أمراءه وجيوشه بتقوى الله تعالى، والرفق بأتباعهم، وتعريفهم ما يحتاجون في غزوهم، وما يجب عليهم، وما يحل لهم، وما يحرم عليهم، وما يكره وما يستحب))[(٢)]. وينظر في توصية قادة الجيش حديث علي t في غزوة خيبر[(٣)].

---

(١) أخرجه مسلم: (١٧٣١).

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٢/٣٧، وفتح الباري: ١٣/١٦٢-١٦٣.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٩٤٢) ، ومسلم: (٢٤٠٦).

ث- النداء بالكنية المحببة لذوي المكانة من المسلمين.

عن سهل بن سعد الساعدي أن رسول الله r ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، فحانت الصلاة، فجاء المؤذن إلى أبي بكر فقال: أتصلي للناس فأقيم؟ قال: نعم، فصلى أبو بكر فجاء رسول الله r والناس في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف، فصفق الناس، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر الناس التصفيق التفت، فرأى رسول الله r ، فأشار إليه رسول الله r أن امكث مكانك، فرفع أبو بكر t يديه، فحمد الله على ما أمره به رسول الله r من ذلك، ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف، وتقدم رسول الله r ، فصلى فلما انصرف قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَثْبُتَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟» فقال أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله r [(١)].

قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((فيه إكرام الكبير بمخاطبته بالكنية))[(٢)]، والكبر هنا للقدر والمترلة. ولعل في عتابه بأسلوب الاستفهام تلطفًا معه، كما سبقت الإشارة إلى أن النبي r يعاتب أصحابه كثيرًا بأسلوب الاستفهام، تخفيفًا لحدة العتاب، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٨٤) ، ومسلم: (٤٢١).

(٢) فتح الباري: ٢/١٧٠.

المبحث الرابع: الجنس والعمر.

لم يكن خطاب النبي r للرجال دون غيرهم، بــل خاطــب النســاء، وخصــهن بالحديث، وخاطب الشباب والأطفال، وخص بعضهم بالحديث، ويلحظ في خطابه r لهم ما يدل على رعايته لطبيعتهم المتعلقة بجنسهم من جهة أو بعمرهم من جهة أخــرى، وورد في الصحيحين من ذلك ما يؤكد هذه الرعاية، وسأذكر أولاً ما يتعلق بــالجنس مستشــهدًا بخطابه r للأنثى، ثم العمر مستشهدًا بمرحلتي الطفولة والشباب، وبدأت بالطفولة لتقدمها.

- **خطابه r للأنثى.**

تشترك شخصية الأنثى مع شخصية الذكر في كثير مما تتسم به شخصية الإنسان، إلا أن ثمة سمات كثيرة أيضًا تباين بها الأنثى شخصية الذكر، بناء على الاخــتلاف الكــبير في التكوين الجسدي والتركيب الوظيفي لأنسجة الجسم وخلاياه، وقد أشار القرآن إلى هــذا الاختلاف في قول الله U: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنْثَى﴾ [آل عمران: ٣٦].

وتؤكد الأبحاث العلمية التأثير الكبير للهرمونات في الاخــتلاف بــين الجنســين في التكوين والسلوك والسمات. وليس المقام هنا للتفصيل في طبيعة هذه الهرمونات الذكرية أو الأنثوية، وما تنتجه من فروق بين الجنسين، ولكن حسبي أن أشير إشارات موجزة إلى أبرز ما تتميز به الأنثى من سمات ينبغي مراعاتها في خطابها.

ولعل الميل إلى العاطفة أبرز سمات الأنثى إن لم تكن هي السمة الأساس المؤثرة على جل السمات الأخرى، وهي سمة طبعية أحوج ما تكون إليها الأنثى في زواجها وأمومتــها، وغالبًا ما تنطلق الأنثى في اتجاهاتها وسلوكياتها ورغباتها وردود أفعالها من منطلــق عــاطفي وجداني.

ومن سماتها الميل إلى الرأفة والرحمة، والاستسلام والخضــوع، والانقيــاد والتبعيــة، والتضحية والعطاء، والرقة والنعومة، وحب الزينة، وهي أكثر تأثرًا بالإيحاء، وأسرع استجابة للدوافع، وأرهف إحساسًا، وأشد حساسية، وأشد حياء، وهي أقل شجاعة، وأضعف تمسكًا بإرادتها وأسرع تغييرًا لمرادها، وأبعد عن القدرة على الإبانة للحجة في المخاصمة.

وينبغي أن لا ننس تلك الأحوال التي تمر بالأنثى كالدورة الشهرية والحمل والنفاس التي يصحبها عادة تغيرات واضطرابات نفسية وعقلية وجسدية، تصاب الأنثى أثناءها بهبوط نفسي وعقلي إلى مستويات دون المستوى الطبعي، فتنتابها مشاعر الضيق والانقباض والعصبية وسرعة التهيج وتقلب المزاج، وتكون أشد تحسسًا من ذي قبل، وهي بذلك تكون أشبه بالمريضة.

إن تلك السمات وغيرها مما توصل إليه الباحثون في التفريق بين الذكر والأنثى هي الأصل، لكن ربما حصلت مؤثرات اجتماعية وغيرها أثرت في تكوين الشخصية، وغيرت في سماتها الأصلية(١).

من الطبعي مع هذه الاختلافات الخَلْقية بين الذكر والأنثى أن يخص الإسلام كل واحد منهما بأحكام تراعي طبيعته التي خلقه الله U عليها ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، وقد قال الله U: ﴿وَلا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [النساء: ٣٢].

ومن الملحوظ أيضًا رعاية النبي r -وهو رسول الخالق العليم- للطبيعة الأنثوية في تعامله ومخاطبته مع أزواجه وبناته ونساء المؤمنين، ولذلك عدة أمثلة، منها:

أ- اختيار الألفاظ الملائمة لحالهن.

ومن ذلك ما ورد في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا لا نرى إلا الحج، فلما كنا بسَرِف حضت، فدخل علي رسول الله r وأنا أبكي، فقال: «مَا يُبْكِيْكِ؟» فقلت: والله لوددت أني لم أكن خرجت العام. قال: «مَا لَكِ أَنَفِسْتِ؟» وفي رواية: «مَا لَكِ؟ لَعَلَّكِ نَفِسْتِ» قلت: نعم. قال: «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ، فَاقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي»(٢)، وفي حديث أم سلمة قالت:

(١) ينظر في سمات الأنثى والفروق بينها والذكر الكتب التالية: وليس الذكر كالأنثى: ٩-٨١، والمرأة المسلمة: الفصل الثاني بعنوان (وليس الذكر كالأنثى) ٤٩-٩٤، وما تحت الأقنعة: ٣٤٧.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٩٤) ، ومسلم: (١٢١١). وسَرِف: بفتح السين، وكسر الراء، موضع قرب مكة، بين وادي فاطمة والتنعيم، وينظر: معجم البلدان: ٣/٢١٢.

بينما أنا مع رسول الله r مضطجعة في الخميلة، إذ حضت، فانسللت، فأخذت ثياب حيضتي، فقال: «مَا لَكِ أَنَفِسْتِ؟» قلت: نعم، فدعاني فاضطجعت معه في الخميلة(١).

في قوله r : «نَفِسْتِ» عدول عن التعبير بـ(الحيض) إلى التعبير بـ(النفاس) مع أن التعبير المعدول عنه هو الأشهر عند المخاطبة في التعبير عن حالها، وهو تعبير القرآن أيضًا، وعبر به أيضًا النبي r في أحاديث أخر، منها قوله في جواب سؤال النساء في خطبة العيد: وما نقصان ديننا وعقلنا؟: قال: «أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟» وقوله r في خروج النساء للعيدين: «يَخْرُجُ الْعَوَاتِقُ وَذَوَاتُ الْخُدُورِ -أَوْ: الْعَوَاتِقُ ذَوَاتُ الْخُدُورِ- وَالْحُيَّضُ، وَلْيَشْهَدْنَ الْخَيْرَ وَدَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَعْتَزِلُ الْحُيَّضُ الْمُصَلَّى»(٢)، ولما سألته فاطمة بنت أبي حُبَيْش قالت: يا رسول الله، إني امرأة أُسْتَحاض فلا أطهر، أَفَأَدَع الصلاة؟ فقال الرسول r : «لا، إِنَّمَا ذَلِكِ عِرْقٌ وَلَيْسَ بِحَيْضٍ، فَإِذَا أَقْبَلَتْ حَيْضَتُكِ فَدَعِي الصَّلاةَ، وَإِذَا أَدْبَرَتْ فَاغْسِلِي عَنْكِ الدَّمَ ثُمَّ صَلِّي...»(٣)، وغيرها من النصوص التي عبر فيها النبي r بـ(الحيض)، وليس(النفاس).

لكنْ فَرْق بين خطاب موجه إلى امرأة حصل لها الحيض، وأخرى لم يحصل لها ويبين لها أحكام الحيض مجردة عن أي حالة نفسية تقع فيها، أما التي حصل لها الحيض فهي كما ذكر سابقًا تعيش حالة من التغيرات والاضطرابات النفسية والعقلية والجسدية تؤدي إلى هبوط نفسي وعقلي دون المستوى الطبعي، تكون المرأة فيه أشبه بالمريضة، فتحتاج إلى رعاية وعطف وحنان، وهذا الذي حصل من النبي r ، حيث خاطب زوجتيه بخطاب رقيق، فيستفهم بهمزة الاستفهام قائلاً: «أَ نَفِسْتِ؟» أو تأتي العبارة بصورة الترجي توقعًا لحصول الأمر: «لَعَلَّكِ نَفِسْتِ» واختار لفظة تؤدي المعنى لكن من مادة أخرى تناسب الحال، إذ المادة (ن ف س) تتكون من حروف أسهل مخرجًا ونطقًا من حروف مادة (ح ي ض) فالنون من طرف اللسان، والفاء من باطن الشفة السفلي وأطراف الثنايا العليا، والسين من

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٩٨) ، ومسلم: (٢٩٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٢٤) ، ومسلم: (٨٩٠).

(٣) أخرجه البخاري: (٢٢٨) ، ومسلم: (٣٣٣).

بين طرف اللسان وفويق الثنايا السفلى، كما أن النون والسين من الحروف المهموسة، والنون فيه غنة، والسين فيه صفير[1]، فخروج اللفظة سيكون هادئًا رقيقًا، يشعر باللين واللطف، وربما كان لهذه اللفظة إيحاء بمعان أخرى تشاركها في المادة كالتنفس والتنفيس وغيرهما، وهي معاني إيجابية، لا توحي بها لفظة (الحيض) التي صارت لها دلالة مشهورة تأنف منها الأنثى كثيرًا.

ويتبع النبي r استفهامه لعائشة رضي الله عنها بخبر مؤكد يريد به تسليتها وتخفيف مصابها، فيقول: «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ، فَاقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ غَيْرَ أَنْ لا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي» ويختار النبي r في هذا الخبر ألفاظًا تناسب الحال، مع أن في اللغة ألفاظًا أخرى قد تؤدي معانيها، فقوله: «كَتَبَ» بمعنى حق وثبت وفرض وأوجب وألزم، والتعبير بالكتابة عن هذه المعاني كناية، ولا يمنع القول بالكناية إرادة حقيقة الكتابة في اللوح المحفوظ، وفي الكناية بالكتابة دلالات، منها:

الأولى: ثبوت الأمر واستقراره ودوامه، قال ابن عطية (٥٤١هـ): ((الكَتْب مستعمل في الأمور المخلدات الدائمة كثيرًا))[2]، وقال أبو حيان (٧٤٥هـ): ((ما كتب جدير بثبوته وبقائه))[3].

الثانية: التعبير بالكتابة أخف وأسهل على النفوس من التعبير بالإلزام أو الوجوب أو الفرض، خصوصًا أن المكتوب فيه مشقة عليها.

ومن الألفاظ التي اختارها النبي r قوله: «بَنَاتِ آدَمَ» أما (بنات) فلعله لأجل إضافتها إلى (آدم) أو لكون عائشة رضي الله عنها لا زالت شابة صغيرة، ولعل إضافة (بنات) بصيغة الجمع إلى (آدم) ليشمل جميع الخلق من النساء بلا استثناء نساء قوم أو دين، وهذا فيه تسلية لها؛ لأن النفس البشرية تتعزى وتتسلى حينما ترى من يشاركها مصابها وهمومها، فلا تكون وحيدة المصاب حينئذ، على حد قول الخنساء:

---

(١) ينظر: الإتقان في علوم القرآن: ١/٢٨٤-٢٨٥، والمختصر في أصوات اللغة: ١١٠ و١٢٥ و١٣٢.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٢/٥٩.

(٣) البحر المحيط: ٢/١٧.

وَلَوْلا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي عَلَى إِخْوانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي[(١)]

قال النووي (٦٧٦هـ): ((قوله r في الحيض: «هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ» هذا تسلية لها وتخفيف لها، ومعناه أنك لست مختصة به بل كل بنات آدم يكون منهن))[(٢)].

ومع أن الغرض من خطاب النبي r لزوجيه رضي الله عنهما هو تسليتهما والتخفيف عنهما مما وقعا فيه، إلا أنه يلحظ أن النبي r اختلف أسلوبه بين خطاب عائشة وخطاب أم سلمة رضي الله عنهما، فنجد أنه r لم يخبر أم سلمة رضي الله عنها بهذا الخبر «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ».

ولعل ذلك لأن أم سلمة لم يظهر منها جزع وبكاء كما حصل لعائشة، ولعل لفارق العمر بين الاثنتين أثرًا في ذلك، لكن النبي r يتبع قوله الرقيق لأم سلمة بفعل رقيق، فيدعوها لتضطجع معه في الخميلة، ويكفي هذا تسلية ولطفًا، والله أعلم.

ومن اختيار الألفاظ ما روته عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال: «لَكُنَّ أَحْسَنُ الْجِهَادِ وَأَجْمَلُهُ الْحَجُّ حَجٌّ مَبْرُورٌ» وفي رواية: «لَكُنَّ أَفْضَلُ الْجِهَادِ حَجٌّ مَبْرُورٌ» قالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله r[(٣)]. فهل كان اختيار لفظي الحسن والجمال مراعاةً لطبيعة الأنثى التي تنجذب إليهما وتسعى في طلبهما، فيكونا حافزين لأداء العمل؟ لعله لهذا، والله أعلم.

ومن ذلك تغيير أسماء النساء إلى أسماء حسنة، كما غير اسم عاصية بنت عمر t إلى اسم جميلة، وهو اسم حسن محبب إلى الأنثى لفظًا ومعنى، وقال لها: «أَنْتِ جَمِيلَةُ»[(٤)]، وسيأتي مزيد حديث عن هذا في الفصل الثالث المتعلق بالمفردات.

---

(١) ديوان الخنساء: ٨٤.

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٤٦/٨.

(٣) أخرجه البخاري: (١٥٢٠ و١٨٦١)، قال ابن حجر في فتح الباري: ٣٨٢/٣: ((اختلف في ضبط (لكن) فالأكثر بضم الكاف، خطاب للنسوة، قال القابسي: وهو الذي تميل إليه نفسي. وفي رواية الحموي: (لكِن) بكسر الكاف وزيادة ألف قبلها، بلفظ الاستدراك. والأول أكثر فائدة؛ لأنه يشتمل على إثبات فضل الحج، وعلى جواب سؤالها عن الجهاد)).

(٤) أخرجه مسلم: (٢١٣٩).

ومن ذلك أن أم سليم رضي الله عنها لما طلبت من النبي r أن يدعو لابنها أنس t قال النبي r: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ»(١)، ولعل اختيار الدعاء بالكثرة لا بمجرد الرزق، وأن تكون الكثرة في المال والولد تطييبًا لقلب الأم التي يسرها أن ترى في ابنها الغنى والولد، ولذا قدمت حاجة ابنها على نفسها، والله أعلم.

ب- مخاطبتهن إخبارًا أو أمرًا أو نهيًا بالمعاني التي تخصهن، أو يغلب حاجتهن إليها.

والإخبار أو الطلب قد يكون ابتداء من النبي r في المجالس أو الخطب التي يخصهن بها، وقد يكون نابعًا من موقف معين حصل له معهن، وقد يكون جوابًا عن سؤال منهن.

١- من أبرز المعاني الذي يلحظ تركيز النبي r عليه حينما يخاطب النساء: التصدق، ففي خطبة عيد قال r: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»(٢)، وفي حديث ابن عباس t أن النبي r خرج في عيد فطر فصلى، ثم خطب، ثم أتى النساء ومعه بلال t فوعظهن وذكرهن وأمرهن بالصدقة، وكان قبل أن يأمرهن تلا عليهن قول الله U: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لا يُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلا يَسْرِقْنَ وَلا يَزْنِينَ وَلا يَقْتُلْنَ أَوْلادَهُنَّ وَلا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة: ١٢] فلما فرغ من قراءتها قال لهن: «أَنْتُنَّ عَلَى ذَلِكَ؟» قالت امرأة: نعم، فقال: «فَتَصَدَّقْنَ» فبسط بلال ثوبه، فجعلن يلقين الفتخ والخواتم فيه(٣). قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في التناسب بين الأمر بالتصدق والآية: ((ومناسبته للآية من قوله: ﴿وَلا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ فإن ذلك من جملة المعروف الذي أمرن به))(٤). ورغبهن النبي r في الإهداء والتصدق، ونهاهن عن احتقارهما ولو كان المُهْدَى أو المُتَصَدَّق به قليلاً كما في الحديث: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ،

---

(١) أخرجه البخاري: (١٩٨٢ و٦٣٣٤) ، ومسلم: (٦٦٠ و٢٤٨٠).
(٢) أخرجه البخاري: (٣٠٤) ، ومسلم: (٨٠).
(٣) أخرجه البخاري: (٩٨ و٨٦٣ و٩٦٤ و٤٨٩٥) ، ومسلم: (٨٨٤).
(٤) فتح الباري: ٢/٤٦٨.

لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ»[1]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وخص النهي بالنساء لأنهن موارد المودة والبغضاء، ولأنهن أسرع انفعالاً في كل منهما))[2]. ولما أصاب الرسول r والصحابة خَمَص شديد وهم يحفرون الخندق أراد جابر t أن يطعم الرسول r فذبح عناقًا عنده وطحن شعيرًا، فلما أراد أن يدعو الرسول r خشيت امرأته أن يأتي أهل الخندق فلا يكفيهم، وكانوا ألفًا، فقالت له: لا تفضحني برسول الله r وبمن معه، فدعا جابر الرسول r ونفرًا معه، فدعا الرسول r أهل الخندق جميعًا، فلما جاءوا قالت امرأة جابر له: بِكَ وبكَ، فقال: قد فعلت الذي قلتِ لي، فبصق النبي r في عجينتهم وبُرْمَتهم وبارك، فأكلوا جميعًا، وبقي طعامهم كأن لم يؤكل منه شيء، فقال النبي r لامرأة جابر: «كُلِي هَذَا وَأَهْدِي، فَإِنَّ النَّاسَ أَصَابَتْهُمْ مَجَاعَةٌ»[3]. وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أنها جاءت النبي r فقالت: يا نبي الله، ما لي مال إلا ما أدخل علي الزبير، فأتصدق؟، قال: «تَصَدَّقِي، وَلا تُوعِي فَيُوعَى عَلَيْكِ» وفي رواية قال: «أَنْفِقِي، وَلا تُحْصِي فَيُحْصِيَ اللهُ عَلَيْكِ، وَلا تُوعِي فَيُوعِيَ اللهُ عَلَيْكِ»[4].

ويُعَرِّض النبي r أحيانًا لبعض النساء بالتصدق كما في حديث جابر t قال: طُلقت خالتي، فأرادت أن تَجُد نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي r فقال: «بَلَى، فَجُدِّي نَخْلَكِ؛ فَإِنَّكِ عَسَى أَنْ تَصَدَّقِي، أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفًا»[5]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((وفيه استحباب الصدقة من التمر عند جداده والهدية، واستحباب التعريض لصاحب التمر بفعل ذلك))[6].

ويحث النبي r المرأة على الصدقة ولو من مال زوجها فعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله r : «إِذَا أَنْفَقَت الْمَرْأَةُ مِنْ طَعَامِ بَيْتِهَا غَيْرَ مُفْسِدَةٍ كَانَ لَهَا أَجْرُهَا بِمَا

(١) أخرجه البخاري: (٢٥٦٦) ، ومسلم: (١٠٣٠).
(٢) فتح الباري: ١٠/٤٤٥.
(٣) أخرجه البخاري: (٤١٠٢) ، ومسلم: (٢٠٣٩).
(٤) أخرجه البخاري: (٢٥٩٠ و٢٥٩١) ، ومسلم: (١٠٢٩).
(٥) أخرجه مسلم: (١٤٨٣).
(٦) شرح صحيح مسلم: ١٠/١٠٨.

أَنْفَقَتْ، وَلِزَوْجِهَا أَجْرُهُ بِمَا كَسَبَ، وَلِلْخَازِنِ مِثْلُ ذَلِكَ، لا يَنْقُصُ بَعْضُهُمْ أَجْرَ بَعْضٍ شَيْئًا»(١).

ويحثها على التصدق على زوجها وأولادها إن كانوا أهلاً للتصدق، ويرغبها في ذلك مبينًا لها كثرة الأجر عليه، كما في حديث زينب امرأة عبد الله بن مسعود t ، وقد سبق ذكره في التمهيد(٢).

ولعل الإكثار من حثهن على التصدق مع أهن لا يملكن كما يملك الرجال؛ لكثرة ما يقع منهن من الخطايا كما في الحديث الآنف الذكر: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ...»(٣)، والصدقة من أعظم ما يكفر الله U به الذنوب كما في قول الله U: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٧١]، وفي الحديث: «الصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»(٤). وربما كثر حثهن عليه مع ما سبق ((لغلبة البخل عليهن، وقلة معرفتهن بثواب الصدقة وما يترتب عليها من الحسن والفضل في الدنيا قبل يوم الآخرة))(٥)، وقد يكون لانشغال المرأة ببيتها وزوجها وأولادها، بحيث لا تفرغ للأعمال الصالحة من صلاة وصيام وغيرهما مما يتطلب وقتًا أو جهدًا بدنيًا، فتكون الصدقة مع عظم أجرها أسهل على المرأة من تلك الأعمال، ولعل الأسباب كلها متحققة في النساء عمومًا، فتكون جميعها مقصودة في الخطاب، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٤٢٥) ومسلم: (١٠٢٤).

(٢) ينظر ص (٣٣) من هذا البحث.

(٣) ينظر: فتح الباري: ١/١٩٣ و٢/٤٦٨، وعمدة القاري: ٢/١٢٢-١٢٣.

(٤) أخرجه أحمد: ٣/٣٢١ و٣٩٩، و٥/٢٣١، والترمذي: أبواب الصلاة، باب ما ذكر في فضل الصلاة، برقم (٦١٤)، وكتاب الإيمان، باب ما جاء في حرمة الصلاة، برقم (٢٦١٦)، وابن ماجه: كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، برقم (٣٩٧٣)، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ١/١٨٩، برقم (٥٠١).

(٥) عمدة القاري: ٣/٢٧٢.

٢- ومن المعاني: الأمر بالتقوى والصبر والاحتساب، وما أحوجهن إلى التذكير بهذه المعاني لرقة قلوبهن وغلبة العاطفة عليهن، فيسبق إليهن الجزع والتسخط، ويقعن في المحذور، ومما ورد في ذلك ما رواه أنس t أن النبي r مَرَّ بامرأة تبكي ولدها عند قبره فقال لها: «اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي»[(١)]، وفي أمرها بالتقوى وتقديمه على الأمر بالصبر قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((قوله: «اتَّقِي اللهَ» توطئة لقوله: «وَاصْبِرِي» كأنه قيل: لا تجزعي وخافي غضب الله، واصبري حتى تثابي))[(٢)] ، وقال القرطبي (٦٥٦هـ): ((هذا البكاء كان معه ما ينكر من رفع صوت أو غيره، كالجزع، وأما نفس البكاء فعلى ما تقدم من الإباحة))[(٣)]، قال العيني (٨٥٥هـ) معقبًا: ((فلهذا أمرها بالتقوى وهو الخوف من الله تعالى))[(٤)]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((يؤيده أن في مرسل يحيى بن أبي كثير المذكور[(٥)]: فسمع منها ما يكره فوقف عليها))[(٦)].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي r قال لفاطمة رضي الله عنها: «وَلا أَرَى الأَجَلَ إِلا قَد اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ»[(٧)]، ولعل أمرها بالتقوى والصبر لما خشي عليها من الجزع بموت أبيها r ، وهي الأنثى الشابة. ولما توفي ابن لابنته زينب رضي الله عنها أرسلت إليه: إن ابنًا لي قبض فأتنا، فأرسل يقرئ السلام ويقول: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»[(٨)].

ويلحظ أن النبي r لم يأمرها بالتقوى كما أمر من قبل؛ لأنه لم يظهر منها ما يدل على جزعها وتسخطها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢٨٣) ، ومسلم: (٩٢٦).
(٢) الكاشف عن حقائق السنن: ٣/٣٩٦.
(٣) المفهم لما أشكل من صحيح مسلم: ٢/٥٧٩.
(٤) عمدة القاري: ٨/٦٨.
(٥) رواه عبد الرزاق في مصنفه: ٣/٥٥١، عن معمر عن يحيى بن كثير قال: بلغني أن النبي r مر بامرأة قد أصيبت بولدها، فسمع منها ما يكره، فوقف عليها يعظها...
(٦) فتح الباري: ٣/١٤٩.
(٧) أخرجه البخاري: (٣٦٢٣ و٦٢٥٨) ، ومسلم: (٢٤٥٠).
(٨) أخرجه البخاري: (١٢٨٤) ، ومسلم: (٩٢٣).

وربما أخبر النبي r المرأة بما يسليها ويخفف حزنها، ومن ذلك إخباره ابنته فاطمة رضي الله عنها بعد حزنها على قرب وفاته بأنها سيدة أهل الجنة أو سيدة نساء المؤمنين، وكما أخبر ابنته زينب بقوله السابق: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ وَلَهُ مَا أَعْطَى وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى» ، وفي حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه أبكي، وينهوني عنه، والنبي r لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي r : «تَبْكِينَ أَوْ لا تَبْكِينَ، مَا زَالَت الْمَلائِكَةُ تُظِلُّهُ بِأَجْنِحَتِهَا حَتَّى رَفَعْتُمُوهُ»(١). قال النووي (٦٧٦هـ): ((معناه: سواء بكت عليه أم لا، فما زالت الملائكة تظله، أي فقد حصل له من الكرامة هذا وغيره فلا ينبغي البكاء على مثل هذا، وفي هذا تسلية لها))(٢).

والملحوظ أن النبي r قال هذا القول لما بكت المرأة، مع أن جابرًا t قد بكى قبلها بحضرته r ، ولعل في هذا مراعاة لطبيعة المرأة العاطفية، فربما تنزع بها عاطفتها إلى ما هو أشد من مجرد البكاء، فأراد النبي r أن يعزيها ويسلي عنها وعن أهل الميت عمومًا، والله أعلم.

ومثل هذا موقف الرُّبَيِّع بنت النَّضْر أم حارثة بن سراقة y ، وكان حارثة قد قتل في غزوة بدر، فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. وفي رواية قالت: يا رسول الله، قد عرفت مترلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع. فقال النبي r مناديًا لها بصفة الأمومة: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى» وفي رواية: «وَيْحَكِ، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»(٣). فلما رأى النبي r ما بها من عظم المصاب بولدها لعظم مترلته عندها، لم يكتف بجواب سؤالها عن مآله في الآخرة أن يخبرها بأنه في الجنة، بل أكد لها ذلك وعَظَّم، فقال: «وَيْحَكِ، أَوَهُبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»

(١) أخرجه البخاري: (١٢٤٤) ، ومسلم: (٢٤٧١).

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٦/٢٥-٢٦، وينظر: عمدة القاري: ٨/١٧-١٨.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٨٠٩ و٦٥٥٠).

وفي الرواية الأخرى: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الْأَعْلَى». والتأكيد والتعظيم ظاهر في استعمال (إِنَّ) في الخبرين، وإضمار اسمها مبهمًا في الخبر الأول، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((والضمير في قوله: «إِنَّهَا جِنَانٌ» يفسره ما بعده، وهو كقولهم: هي العرب تقول ما شاءت، والقصد بذلك التفخيم والتعظيم))[١]، وقد ذكر البلاغيون أن من أغراض الإيضاح بعد الإبهام التفخيم والتعظيم[٢]. والضمير الذي تحدث عنه ابن حجر هو ضمير القصة أو الشأن، الذي يأتي في موضع المظهر؛ ليتمكن ما يعقبه في نفس المخاطب فضل تمكن، قال المرشدي: ((لأن السامع إذا لم يفهم من الضمير معنى انتظر ما يعقبه ليفهم منه معنى، وذلك لما جبل الله النفوس عليه من التشوق إلى معرفة ما أبهم عليها، فتتهيأ له وتتشوف إليه، فيتمكن بعد وروده عليها كذلك فضل تمكن، لأن الحصول بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب، ولهذا اشترط أن يكون مضمون الجملة التي بعده شيئًا عظيمًا يعتنى به))[٣]، ولذا جاء بعد الضمير جمع الجنة جمع تكسير (جنان) لا جمع مؤنث سالم (جنات) لأن جمع التكسير على وزن (فِعَال) من جموع الكثرة[٤]، بخلاف جمع المؤنث السالم فإنه لمطلق الجمع[٥]، ويرى بعض العلماء أنه يشعر بالقلة[٦]، وسيأتي بيان للمسألة في الحديث عن المفردات في الفصل الثالث بإذن الله. وجاء الجمع نكرة للتعظيم والتكثير أيضًا[٧]، وقد ذكر البلاغيون أن من أغراض التنكير التعظيم والتهويل والتكثير[٨]، ثم وصفت وصفت الجنان بالكثرة تأكيدًا للتعظيم والتكثير، والوصف من أغراضه التأكيد[٩].

---

(١) فتح الباري: ٦:٢٧.

(٢) ينظر: الإيضاح: ٣٠١/١.

(٣) شرح عقود الجمان، للمرشدي: ١٠٤/١، وينظر: شروح التلخيص: ٤٥٠/١.

(٤) ينظر: الكتاب: ٥٦٧/٣، وأوضح المسالك: ٣١٥/٤.

(٥) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٣٧٠/٤.

(٦) ينظر: الكتاب: ٤٩٠/٣ و٥٧٨.

(٧) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٢٧٩/٧.

(٨) ينظر: شروح التلخيص: ٣٤٩/١ و٩١/٢، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٧١/١، و١٨٠.

(٩) ينظر: شروح التلخيص: ٣٦٥/١.

وفي الخبر الثاني أضمر اسم (إنَّ) للغائب في الرواية الأولى للتعظيم كما يقتضيه المقام، وفي الرواية الثانية أظهر الاسم، فإن كان هو المحفوظ عن النبي r فلعل في إظهاره بوصف البنوة مضافًا إلى كاف المخاطبة مزيد مسرة وإيناس للأم، والله أعلم. ومن التأكيد مجيء لام الابتداء في قوله: «وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»، ومن التعظيم: وصف الفردوس بصيغة التفضيل (الأعلى) والله أعلم.

٣- ومن المعاني التي خاطب النبي r بهن النساء: النهي عن التطيب للصلاة في المسجد، كما روت زينب امرأة ابن مسعود رضي الله عنهما قالت: قال لنا رسول الله r: «إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلا تَمَسَّ طِيبًا» وفي رواية: «إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْعِشَاء فَلا تَطَيَّبْ تِلْكَ اللَّيْلَة»[١]، وعن أبي هريرة t قال: قال رسول الله r: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ أَصَابَتْ أَصَابَتْ بَخُورًا فَلا تَشْهَدْ مَعَنَا الْعِشَاءَ الآخِرَةَ»[٢]، ومع أن النهي عن خروج المرأة متطيبة عام في كل الأوقات، إلا أن النبي r خص العشاء الآخرة بمزيد من النهي، ولعل ذلك لأن العطر يستثير الشهوة، ويستميل إلى المرأة، والليل وقت الظلمة وخلو الطريق، فكان الخوف عليهن في الليل أكثر، وقيل: لأن عادتهن استعمال البخور في الليل لأزواجهن، والله أعلم[٣].

أعلم[٣].

ت- نداؤهن بالصفة أو الصيغة التي تناسب طبيعتهن.

ومن ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري t أن النبي r لما خطب الرجال في يوم عيد مَرَّ على النساء فخصهن بالحديث فقال: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»[٤]، وفي موقف آخر لم يحدد الراوي معالمه يخاطب النبي r النساء فيناديهن قائلاً: «يَا

(١) أخرجه مسلم: (٤٤٣).

(٢) أخرجه مسلم: (٤٤٤).

(٣) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٣/٣٠، وفيض القدير: ٣/١٧٣، وحاشية السندي على سنن النسائي: ٨/١٥٤-١٥٥، ومرقاة المفاتيح: ٣/١٣٥.

(٤) أخرجه البخاري: (٣٠٤ و١٤٦٢) ، ومسلم: (٨٠).

«يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ»[1]، ولما طلب النساء منه أن يجعل لهن يومًا يخصهن بالحديث، فوعدهن يومًا لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: «مَا مِنْكُنَّ مِن امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلاثَةً لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلا كَانُوا لَهَا حِجَابًا مِن النَّارِ» فقالت امرأة منهن: يا رسول الله، واثنين؟ فأعادها مرتين، ثم قال: «وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ»[2]. ونداء المخاطب أو وصفه بـ (معشر النساء- نساء المسلمات- امرأة) لأن النبي r يخص النساء بالحديث ويواجههن بالخطاب، وجاء النداء في الحديثين الأولين بالإضافة تخصيصًا، والتخصيص من أغراض الإضافة عند البلاغيين[3]، فالمعشر في الحديث الأول مخصوص بالنساء، والنساء في الحديث الثاني مخصوص بالمسلمات. ولا ينافي كون الإضافة هنا للتخصيص إفادتها للعموم أيضًا[4]، فالنداء يختص بالنساء دون الرجال، لكونهن المخاطبات، كما يعم النداء جميع النساء المسلمات، من حضرن ومن لم يحضرن، والله أعلم.

والحديث الأخير خاطب النبي r بمثله المسلمين عامة، والرجال خاصة، ففي البخاري عن أنس t قال: قال النبي r: «مَا مِن النَّاسِ مِنْ مُسْلِمٍ يُتَوَفَّى لَهُ ثَلاثٌ لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلا أَدْخَلَهُ اللهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ»[5]، وفي المسند عن جابر t قال: سمعت رسول الله r يقول: «مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلاثَةٌ مِن الْوَلَدِ فَاحْتَسَبَهُمْ دَخَلَ الْجَنَّةَ» قال: قلنا: يا رسول الله، واثنان؟ قال: «وَاثْنَانِ»[6]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) عند قوله r: «أيما امرأة»: ((إنما خص المرأة بالذكر لأن الخطاب حينئذ كان للنساء، وليس له مفهوم لما في بقية الطرق))[7].

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٥٦٦) ، ومسلم: (١٠٣٠).
(٢) أخرجه البخاري: (١٠١ و١٠٢ و٧٣١٠) ، ومسلم: (٢٦٣٤).
(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٩٢/٢.
(٤) ينظر: عروس الأفراح: ٣٤٧/١، وشرح عقود الجمان، للسيوطي: ١٩، وشرح عقود الجمان، للمرشدي: ٧٥/١.
(٥) أخرجه البخاري: (١٢٤٨).
(٦) أخرجه أحمد في مسنده: ٢٠٦/٣.
(٧) فتح الباري: ١٢١/٣.

وفي موقف من مواقف الغيرة التي تحصل لأزواجه رضي الله عنهن كما تحصل للنساء عامة يخاطب النبي r زوجه عائشة رضي الله عنها نداء الترخيم الذي يفيض منه رقة ورحمة فيقول لها: «مَا لَكِ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً؟!» ولندع عائشة رضي الله عنها تحدثنا عن هـذا الموقف الذي دعى إلى هذا الترخيم، قالت: لما كانت ليلتي التي كان النبي r فيها عندي انقلب، فوضع رداءه، وخلع نعليه فوضعهما عند رجليه، وبسط طرف إزاره على فراشه فاضطجع، فلم يلبث إلا ريثما ظن أن قد رقدت، فأخذ رداءه رويدًا، وانتعل رويدًا، وفتح الباب فخرج، ثم أجافه رويدًا، فجعلت درعي في رأسي واختمرت، وتقنعت إزاري، ثم انطلقت على إثره، حتى جاء البقيع فقام فأطال القيام، ثم رفع يديه ثلاث مرات، ثم انحرف فانحرفت، فأسرع فأسرعت، فهرول فهرولت، فأحضر فأحضرت، فسبقته فدخلت، فليس إلا أن اضطجعت فدخل، فقال: «مَا لَكِ يَا عَائِشُ، حَشْيَا رَابِيَةً؟!» قلت: لا شيء. قال: «لَتُخْبِرِينِي أَوْ لَيُخْبِرَنِّي اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» قلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، فأخبرته. قال: «فَأَنْتِ السَّوَادُ الَّذِي رَأَيْتُ أَمَامِي» قلت: نعم. فلهدني في صدري لهدة أوجعتني، ثم قال: «أَظَنَنْتِ أَنْ يَحِيفَ اللهُ عَلَيْكِ وَرَسُولُهُ؟» قلت: مهما يكتم الناس يعلمه الله، نعم. قال: «فَإِنَّ جِبْرِيلَ أَتَانِي حِينَ رَأَيْتِ، فَنَادَانِي فَأَخْفَاهُ مِنْكِ، فَأَجَبْتُهُ فَأَخْفَيْتُهُ مِنْكِ، وَلَمْ يَكُنْ يَدْخُلُ عَلَيْكِ وَقَدْ وَضَعْتِ ثِيَابَكِ، وَظَنَنْتُ أَنْ قَدْ رَقَدْتِ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَكِ، وَخَشِيتُ أَنْ تَسْتَوْحِشِي، فَقَالَ: إِنَّ رَبَّكَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَأْتِيَ أَهْلَ الْبَقِيعِ فَتَسْتَغْفِرَ لَهُمْ»...(١). وحينما سأل النبي r عائشة عن حالها أكان يعلم أنها هي التي كانت أمامه، وأنها خرجت غيرة؟ فكان سؤاله بعد ذلك عن السواد لتقرير حالها وتبرير موقفه منها بلهدها وعتابها، أم أنه لم يكن يعلم فخشي أنها استوحشت؟ يحتمل هذا وذاك وإن كان سياق الموقف يرجح الأول، وعلى أي الحالين

(١) أخرجه مسلم: (٩٧٤). قال النووي في شرح صحيح مسلم ٧/٤٣-٤٤: ((«حَشْيَا» بفتح الحاء المهملة وإسكان الشين المعجمة مقصور، معناه: وقد وقع عليك الحشا، وهو الربو والتهيج الذي يعرض للمسرع في مشيه والمحتد في كلامه من ارتفاع النفس وتواتره... وقوله: «رَابِيَة» أي: مرتفعة البطن... قولها: (فلهَدَني) هو بفتح الهاء والدال المهملة، وروي: فلهَزَني -بالزاي- وهما متقاربان. قال أهل اللغة: لَهَده ولَهَّده، بتخفيف الهاء وتشديدها، أي: دفعه، ويقال: لَهَزه، إذا ضربه بجمع كفه في صدره)).

فالترخيم جاء في مقامه، سواء جاء علمًا بغيرتها فيدنيها من نفسه، أو ظنًا لاستيحاشها فيؤنس وحشتها بلطف ندائه، والله أعلم.

وفي موقف مع أصغر بناته r وأحبهن إليه الزهراء فاطمة رضي الله عنها حين تقبل عليه وعنده أزواجه، فيستقبلها بمشاعر الأبوة الحانية التي تنتظرها كل فتاة شابة من أبيها قائلاً لها: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» ثم يجلسها بجواره، فيسارها بخبر أبكاها، ولما رآها بكت أخبرها بما سرها فضحكت، ولم يكن بين الخبر الثاني السار والخبر الأول المحزن زمن يذكر، ولكنها طبيعة الأنثى العاطفية التي عرف النبي r كيف يتعامل معها، فترقى بها من المحزن إلى المفرح في موقف واحد، ولندع عائشة رضي الله عنها تحدثنا عن الموقف، قالت: أقبلت فاطمة تمشي كأن مشيتها مشي النبي r، فقال النبي r: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي» ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثم أسر إليها حديثًا فبكت، فقلت لها: لم تبكين؟، ثم أسر إليها حديثًا فضحكت، فقلت: ما رأيت كاليوم فرحًا أقرب من حزن؟ فسألتها عما قال، فقالت: ما كنت لأفشي سر رسول الله r، حتى قبض النبي r، فسألتها، فقالت: أسر إلي: «إِنَّ جِبْرِيلَ كَانَ يُعَارِضُنِي الْقُرْآنَ كُلَّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَإِنَّهُ عَارَضَنِي الْعَامَ مَرَّتَيْنِ، وَلا أُرَاهُ إِلا حَضَرَ أَجَلِي، وَإِنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِ بَيْتِي لَحَاقًا بِي» وفي رواية: «وَلا أَرَى الأَجَلَ إِلا قَد اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ» فبكيت، فقال: «أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ» أَوْ: «نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ» فضحكت لذلك[1]. وفي موقف آخر لما جاءته رضي الله عنها مبلغة رسالة احتجاج من أزواجه إليه قال لها: «يَا بُنَيَّةُ، أَلا تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟» وفي رواية مسلم: «أَيْ بُنَيَّةُ، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟» قالت: بلى، فرجعت إليهن فأخبرتهن، فقلن: ارجعي إليه، فأبت أن ترجع[2].

ومن مواقف الأمومة حديث أم حارثة بن سراقة y الذي سبق ذكره آنفًا، والملحوظ أن النبي r لم ينادها باسمها، وإنما ناداها بالكنية: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ» ليقع النداء بوصف الأمومة، إذ هي قد أقبلت وعواطف الأمومة تتردد بين جنبيها وتهز كيانها وتحرك

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٦٢٣ و٦٢٥٨) ، ومسلم: (٢٤٥٠).

(٢) أخرجه البخاري: (٢٥٨١) ، ومسلم: (٢٤٤٢).

مشاعرها، وهي جاءت تسأل عن ابنها حارثة، فيضيف أمومتها إليه، مظهرًا غير مضـــمر، ولعل في ذلك تلذيذًا للأم بذكر اسم ولدها، وقد ذكر البلاغيون أن من أغراض ذكر العلم التلذذ بنطقه[١]، ولعل في ذلك أيضًا تعجيلاً بالبشرى والمسرة لها، ولذا قدم النداء في هـــذا المقام، والله أعلم.

ث- ترك التصريح فيما يستحيا منه.

«الحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِن الإِيمَانِ» كما قال الرسول ﷺ[٢]، ولئن كان خلقًـــا مرغوبًـــا في الإنسان عمومًا، فهو في الأنثى أشد، وهو من أظهر ما جبلت عليه.

ولقد كان النبي ﷺ أشد حياء من العذراء في خدرها، كما روى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه[٣]، وإذا كان بهذا الخلق مع عامة أصحابه فكيف مع النساء اللاتي من طبعهن الحيـــاء، ومما ورد في ذلك:

١- عن عائشة أن امرأة سألت النبي ﷺ عن غسلها من المحيض، فأمرها كيـــف تغتسل، قال: «خُذِي فِرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا» قالت: كيف أتطهر؟ قال: «تَطَهَّـــرِي بِهَا» قالت: كيف؟ قال: «سُبْحَانَ اللهِ تَطَهَّرِي» فاجتبذتها إلي فقلت: تتبعي بها أثر الـــدم. وفي رواية قالت عائشة: ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم استحيا فأعرض بوجهه، أو قـــال: «تَوَضَّئِيْ بِهَا» فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبي ﷺ[٤]. فالنبي ﷺ هنا مع المرأة أوجـــز وعَرَّض مراعاة للحياء مع المرأة، والحياء من دواعي العدول عـــن التصـــريح إلى الكنايـــة والتعريض[٥]، قال النووي (٦٧٦هـــ) في فوائد الحديث: ((فيه استحباب استعمال الكنايات فيما يتعلق بالعورات))[٦]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـــ): ((فيه الاكتفاء بالتعريض والإشارة

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٣٠١/١، وعلم المعاني، لفيود: ١١٧/١.
(٢) أخرجه البخاري: (٩) ، ومسلم: (٣٥).
(٣) أخرجه البخاري: (٣٥٦٢) ، ومسلم: (٢٣٢٠).
(٤) أخرجه البخاري: (٣١٤ و٣١٥) ، ومسلم: (٣٣٢).
(٥) ينظر: المصباح: ١٤٧، والتعريض في القرآن الكريم: ١٧٠.
(٦) شرح صحيح مسلم: ١٤/٤.

في الأمور المستهجنة، وتكرير الجواب لإفهام السائل، وإنما كرره مع كونها لم تفهمه أولاً لأن الجواب به يؤخذ من إعراضه بوجهه عند قوله: توضئي، أي في المحل الذي يستحيا من مواجهة المرأة بالتصريح به، فاكتفى بلسان الحال عن لسان المقال، وفهمت عائشة رضي الله عنها ذلك عنه فتولت تعليمها))[١]، وسيأتي مزيد حديث عن الكناية والتعريض في الفصل السادس بإذن الله.

٢- ومن ذلك قوله للمرأة التي أتت فوهبت نفسها له: «مَا لِي فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ» وفي رواية أنه r سكت و لم يقض فيها شيئًا، فقام أحد أصحابه فقال: إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها، فقال: «فَهَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟» الحديث[٢]، وقوله: «مَا لِي فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ» ربما قاله بعد أن عرضت عليه المرأة نفسها، وربما بعد أن سأله الرجل، وعلى أي فإن النبي r عدل عن قول: ما لي فيكِ، أو: ما لي فيها، أو في المرأة، بحيث يكون مقصودًا به نفي الحاجة في المرأة التي عنده، إلى لفظ (النساء) معرفًا بـ(ال)، ليعم كل امرأة[٣]، ولعل العدول إلى العموم -مع سكوته- لئلا يخجل المرأة، قال النووي (٦٧٦هـ): ((وفيه أنه يستحب لمن طلبت منه حاجه لا يمكنه قضاؤها أن يسكت سكوتًا يفهم السائل منه ذلك، ولا يخجله بالمنع، إلا إذا لم يحصل الفهم إلا بصريح المنع فيصرح))[٤]. وأكد هذا المعنى تنكير (حاجة) في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم[٥]، وزيادة (مِنْ) تؤكد هذا العموم[٦]، ومن التأكيد تقديم المسند (لي)، وهو يفيد تخصيصه بالمسند إليه[٧]، ولعل النبي r أراد أيضًا التعريض لمن أراد أن يخطبها، والله أعلم.

٣- عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله r فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟

---

(١) فتح الباري: ٤١٦/١، وينظر: عمدة القاري: ٢٨٧/٣.
(٢) أخرجه البخاري: (٢٣١١ و٥٠٢٩ و٥٠٣٠) ، ومسلم: (١٤٢٥).
(٣) ينظر في إفادة (ال) للعموم: شروح التلخيص: ٣٢٨/١.
(٤) شرح صحيح مسلم: ٢١٢/٩.
(٥) ينظر: عروس الأفراح: ٣٥٤/١.
(٦) ينظر: زيادة الحروف وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم: ٦١١.
(٧) ينظر: شروح التلخيص: ١٠٩/٢.

قال النبي r : «نعم، إِذَا رَأَت الْمَاءَ» فغطت أم سلمة وجهها، وقالت: يا رسول الله، أوتحتلم المرأة؟ قال: «نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا»[1]. واستفهام أم سلمة رضي الله عنها إنكار لوجود الماء من أصله، كما ذكر ابن حجر (٨٥٢هـ)[2]. ولقد كان غالب أجوبته r لمن يستشكل أمرًا ويسأل عن تصديقه أن يذكر الأمر بعد التصديق، ففي هذه الحالة لو جرت على الغالب كان أن يقول r لأم سليم: نعم، تغتسل إذا هي احتلمت، ويقول لأم سلمة: نعم، تحتلم، وترى الماء. لكن لعله عدل عن ذلك مع عدوله عن التعبير بـ(المني) إلى (الماء) مراعاة لخلق الحياء مع المرأة، والله أعلم.

- **خطابه r للأطفال.**

تبتدئ مرحلة الطفولة منذ أن يخرج الله U الجنين من بطن أمه، كما قال الله U: ﴿وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ﴾ [الحج: ٥] وتنتهي ببلوغ الحلم، كما قال الله U: ﴿وَإِذَا بَلَغَ الأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا﴾ [النور: ٥٩].

وهذه المدة الزمنية التي تقارب اثني عشر إلى أربعة عشر عامًا يندرج تحتها مراحل يرتقي فيها الطفل من كونه وليدًا إلى أن يكون فطيمًا بعد عامين من ولادته، ثم يكون صبيًا إلى أن يبلغ، وبعضهم يقسم الصبا إلى طفولة مبكرة أو أولى من ٣-٦ سنوات، ووسطى من ٦-٩، ومتأخرة من ٩-١٢، وبعضهم يقسمها إلى قسمين: من ٣-٦، ومن ٦-١٢، وقد لا يرى بعضهم تقسيمها فينظر إليها مرحلة واحدة، مع بيان ما قد يطرأ من تحولات وتغيرات في جوانب النمو المختلفة، ويعلل بأن ((التقسيم إلى طفولة مبكرة وطفولة متأخرة قد يدفعنا لأن نتكلف -أحيانًا- إيجاد فروق بين تلك المراحل الفرعية، وقد نبالغ في تلك الفروق حتى تكون واضحة))[3].

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣٠) ، ومسلم: (٣١٣).

(٢) فتح الباري: ١/٢٢٩.

(٣) علم نفس المراحل العمرية: ٢٣٢.

ولست في هذا المقام معنيًا بالبحث في الاختلاف بين الباحثين في علـم الـنفس في تقسيم مرحلة الطفولة، ويكاد يكون أشبه بالاختلاف اللفظي، وتكاد التقسيمات أن تكون تقريبية أكثر منها حَدِّية، إذ هم يتفقون بصورة عامة على خصائص النمو والـتغيرات الـتي تطرأ على الطفل والحاجات المهمة له في كل سنة من سنوات عمره بغض النظـر عـن أي تقسيم.

ولعلي أذكر بإيجاز شيئًا من خصائص هذه المرحلة وحاجاتها لنتبين بعـد أثرهـا في الخطاب النبوي للطفل.

فمن أهم خصائص هذه المرحلة: الضعف، كما قال الله U: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُـوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ [الروم: ٥٤].

والضعف الحاصل للطفل ليس ضعف بدن فحسب، بل هو ضعف مطلق في البـدن والنفس والعقل والعلم والسلوك، كما هو ظاهر الآية التي جاءت بالضعف نكرة من غـير تقييد، وتدل عليه القراءتان في ﴿ضُعْفٍ﴾ بضم الضاد وفتحها[(١)]، على القول بأن الضـم في البدن، والفتح في العقل والرأي، ونسبه ابن عطية (٥٤١هـ) وأبو حيان (٧٤٥هـ) إلى كثير من اللغويين[(٢)]. وقد جاء في الضعف العلمي قول الله U: ﴿وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

والضعف ملازم لهذه المرحلة، وإن كان يخف شيئًا فشيئًا حتى يبلـغ الطفـل قـوة الشباب، ولذا جاء التعبير في الآية بـ(ثم) الدالة على التراخي، قال البقاعي: ((لما كانـت تقوية المعنى الضعيف مثل إحياء الجسد الميت قال: ﴿ثُمَّ جَعَلَ﴾ عن سبب وتصيير بـالتطوير في أطوار الخلق بما يقيمه من الأسباب))[(٣)]، وقال الشنقيطي: ((العرب تقول: خلق من كذا.

(١) ينظر: الحجة في القراءات السبع: ٢٨٤، ومعجم القراءات القرآنية: ٤/٤٣.

(٢) ينظر: المحرر الوجيز: ١٢/٢٧١، والبحر المحيط: ٧/٢٣٤، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥/٦٤٢، وفي ظلال القرآن: ٥/٢٧٧٦.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٥/٦٤٢.

يعنون بذلك المبالغة في الاتصاف، كقولهم: خلق فلان من كرم، وخلقت فلانة من الجمال. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ﴾ على الأظهر))[١].

ولهذا الضعف لم يكلف الأطفال بالتكاليف الشرعية إلا حين يبلغون، لأنهم في هذه المرحلة لا يطيقونها ولا يتحملون مشاقها، وقد قال الرسول ﷺ: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ؛ عَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَبْلُغَ، وَعَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الْمَعْتُوهِ حَتَّى يَبْرَأَ»[٢]، وهذا من حكمة الله ﷻ ورحمته بالعباد.

ويذكر علماء النفس أن مرحلة الضعف الأولى التي يعيش فيها الطفل لها حاجات ومطالب يتحقق من خلالها نمو الطفل نحو القوة نموًا سليمًا.

ومن أهمها: ((تحقيق الأمن النفسي. وإن من أهم ما يحقق للطفل الأمن النفسي إحاطته بالمحبة والعطف والحنان، وحسن معاملته، والاهتمام به، وتقديره، مما يبث فيه الثقة في النفس، ويساعد على أن يكون لديه مفهوم إيجابي للذات))[٣]. ومنها: تعلم القيم والمعايير الدينية والخلقية. والتربية على أداء العبادات، والسلوك الحسن، ويتصل بذلك: القدوة الحسنة. ومنها: اللعب، وغيرها[٤].

وفيما ورد في الصحيحين من مواقف للنبي ﷺ مع الأطفال يظهر بوضوح أن المرحلة العمرية التي يعيشها الأطفال ذكورًا أو إناثًا مع بعض خصائصها وحاجاتها كان لها أثر في الخطاب النبوي، ومن تلك المواقف ما يأتي:

---

(١) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: ٤/٥٧٣.

(٢) أخرجه أحمد: ١/١١٦، وأبو داود: كتاب الحدود، باب في المجنون يسرق أو يصيب حدًا، برقم (٤٣٩٨-٤٤٠٣) ، والنسائي: كتاب الطلاق، باب من لا يقع طلاقه من الأزواج، برقم (٣٤٣٢) ، والترمذي: كتاب الحدود، باب فيمن لا يجب عليه الحد، برقم (١٤٢٣)، وابن ماجه: كتاب الطلاق، باب طلاق المعتوه والصغير والنائم، برقم (٢٠٤١) ، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند: ٢/١٨٨ برقم (٩٤٠)، والألباني في صحيح سنن أبي داود: برقم (٣٦٩٨-٣٧٠٣).

(٣) الحديث النبوي وعلم النفس: ٢٤٢ بتصرف، وينظر: علم نفس النمو: ٢٩٥.

(٤) ينظر: علم نفس النمو: ٢٩٥-٢٩٨، والحديث النبوي وعلم النفس: ٢٤٢-٢٤٦.

أ- عن أنس t قال: كان النبي r أحسن الناس خلقًا، وكان لي أخ يقال له: أبو عمير، فكان إذا جاء رسول الله r فرآه قال: «أَبَا عُمَيْر، مَا فَعَلَ النُّغَيْر؟» نُغَر كان يلعب به، وفي رواية: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ»[(١)]. وفي رواية في غير الصحيحين يتضح فيها سياق الخطاب أن النبي r كان يدخل على أم سليم ولها ابن من أبي طلحة يكنى أبا عمير، وكان يمازحه، فدخل عليه فرآه حزينًا، فقال: «مَالِي أَرَى أَبَا عُمَيْرٍ حَزِينًا؟» فقالوا: مات نغره الذي كان يلعب به، فجعل يقول: «أَبَا عُمَيْر، مَا فَعَلَ النُّغَيْر؟»[(٢)].

وفي هذا الموقف ما راعى فيه النبي r حال المخاطب وعمره وحاجته، ومن ذلك ما يأتي:

١- إن موت النغر قد لا يعني شيئًا للكبار، لكنه بالنسبة لهذا الصغير شيء محزن، لأنه يرى في هذا الطير لعبة يتملكها ويتسلى بها ويشبع بها حاجته إلى اللعب، خاصة أن هذه اللعبة من النوع الذي يبادل الطفل اللعب، حيث يتحرك الطير من هنا إلى هناك، مرة يمسك به، ومرة يفلت منه، وقد يتبادلان الأصوات والأحاديث التي لا يفهمها الكبار، لكنها تعني شيئًا كبيرًا في حياة الأطفال.. إن الطفل في مثل هذه الحالة يحق له أن يرى لعبته جزءًا من حياته، فيحزن لفقدها. وحينما يحزن فإننا ينبغي أن نعامله ونخاطبه من منطلق نظرته هو، لا من نظرتنا نحن، فنخضع لمشاعره ونحترم أحاسيسه ونشاركه عواطفه، ومن هنا كان خطاب النبي r لهذا الفطيم الذي قد لا يدرك من كلام النبي r إلا أنه يحس بحزنه، ويشاركه ألمه، ويضفي عليه عطفه وحنانه. وبهذا نفسر نداء النبي r للطفل: «أَبَا عُمَيْرٍ» إما بحذف حرف النداء، وإما -في الرواية الأخرى- بذكره وهو (يا)، وقد يكون الحذف الأقرب إلى المقام

---

(١) أخرجه البخاري: (٦١٢٩ و٦٢٠٣) ، ومسلم: (٢١٥٠).

(٢) أخرجها أحمد: ١٨٨/٣، وأبو داود: كتاب الأدب، باب ما جاء في الرجل يتكنى وليس له ولد، برقم (٤٩٦٩)، وصححها الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٩٣٨/٣، برقم: (٤١٥٦). والنُّغَر: طائر صغير، يشبه العصفور، له منقار أحمر، وقيل: هو العصفور، أو فرخ العصفور، وقيل: البلبل، وقيل غير ذلك، وجمعه نِغْران، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٨٥/٥، ولسان العرب: ٢٢٣/٥، وفتح الباري: ٥٨٣/١٠، وقال ابن حجر فيه: ((ورد في بعض طرقه أنه الصَّعْو بمهملتين بوزن الْعَفْو، كما في رواية ربعي: فقالت أم سليم: ماتت صعوته التي كان يلعب بها، فقال: «أَيْ أَبَا عُمَيْرٍ مَاتَ النُّغَيْرُ» فدل على أنهما شيء واحد)).

ملاطفة للمخاطَب، وإشعارًا له بسرعة الاستجابة لمشاعره، والقرب منه، وزوال الحواجز النفسية بينهما، وهذان -الملاطفة والتقريب- من الأغراض التي يحذف لها حرف النداء[1].

كما نفسر في هذا السياق الاستفهام الذي لا يراد منه حقيقة طلب الجواب، لأن النبي r يعرف موت النغر، لكن أراد به إشعار المخاطب بالعلم بحاله، والمشاركة الوجدانية فيما أصابه، تعزية له وتسلية، والاستفهام قد يفيد معاني بلاغية غير طلب الفهم، وهذه المعاني تفهم من السياق وقرائن الحال[2]، وسيأتي بيان ذلك بإذن الله في مبحث الجملة الإنشائية من الفصل الرابع، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) عن ابن القاص الشافعي أن من فوائد الحديث ((جواز مواجهة الصغير بالخطاب، خلافًا لمن قال: الحكيم لا يواجِه بالخطاب إلا من يعقل ويفهم. قال: والصواب الجواز حيث لا يكون هناك طلب جواب، ومن ثم لم يخاطبه في السؤال عن حاله، بل سأل غيره))[3] قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وما أجاب به ابن القاص من مخاطبة من لا يميز، التحقيق فيه جواز مواجهته بالخطاب [إذا فهم] الخطاب، وكان في ذلك فائدة، ولو بالتأنيس له))[4]، والله أعلم.

٢- تصغير الأسماء (عمير) و(نغير) وهذا يتلاءم مع خطاب طفل صغير، وقد تناول بعض شراح الحديث التصغير دون ربطه بحال المخاطب، فمن ذلك قول ابن حجر (٨٥٢هـ) ذاكرًا من فوائد الحديث: ((دعاء الشخص بتصغير اسمه عند عدم الإيذاء))[5].

٣- ويأتي التصغير أيضًا ليحقق السجع، الذي يحدث تأثيرًا في النفس، إذ هو يخاطب الوجدان والمشاعر، أكثر مما يخاطب العقول، ولذا هو أحسن ما يكون في المقامات العاطفية، وهذا المقام واحد منها، خاصة أن المخاطب طفل، والأطفال يعجبهم الجرس الصوتي في الكلام، ويطربون له، ويستجيبون له استجابة نفسية يعبرون عنها بابتسامة وضحكة، ولذا فإننا نجد الأمهات من قديم الزمان يرددن الأراجيز والأناشيد حين يلعبن

---

(١) ينظر: الكشاف: ٢/٤٤٤، وخصائص التعبير القرآني: ٢/٧، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٤٦.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٢٩٠، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٢٦.

(٣) فتح الباري: ١٠/٥٨٣. وما بين المعكوفتين هو هكذا في النسخة المطبوعة، ولعل الصواب: إذا لم يفهم.

(٤) المرجع السابق: ١٠/٥٨٥.

(٥) فتح الباري: ١٠/٥٨٦، وينظر: شرح صحيح مسلم: ١٤/١٢٩.

أطفالهن[1]، وقد أشار بعض الشراح إلى السجع في الحديث دون أن يقرنوه بالمقـــام، ومـــن ذلك ما قاله النووي (٦٧٦هـــ) في فوائد الحديث: ((جواز السجع بالكلام الحســـن بـــلا كلفة))[2]، وسيأتي بإذن الله مزيد حديث عن السجع في الفصل السادس.

٤- ومما يلائم الصغير في هذا الخطاب: الإيجاز في التركيب مع وضوح الألفاظ، فخطاب النبي r مكون من جملتين؛ ندائية «أَبَا عُمَيْرٍ» واستفهامية «مَا فَعَـــلَ النُّغَيْـــرُ؟»، وكلتاهما موجزتان واضحتان، لم يتعد النبي r فيهما الألفاظ التي يفهمها الطفل، لأن الطفل في مثل هذا السن لا يستوعب كل ما يقال له، وثروته اللفظية محدودة[3]، وهذا مقام مـــن المقامات التي يحسن فيها الإيجاز، ويقبح فيها الإطناب، إذ لكل واحد منهما مقام هـــو فيـــه أبلغ، كما ذكر البلاغيون[4]، وسيأتي مزيد حديث عنهما في الفصل الرابع بإذن الله U.

هذا بعض مما يظهر فيه أثر حال الطفل في خطاب النبي r، وإلا ففـــي الحـــديث مظاهر أخرى، أشار شراح الحديث إلى بعض منها[5].

ب- عن ابن عباس t أن النبي r دخل الخلاء، فوَضعْتُ له وَضوءًا، فقال: «مَنْ وَضَعَ هَذَا» فأخبر، فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[6] وفي رواية قال ابن عبـــاس: ضـــمني رسول الله r وقال: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ»[7].

ذكر ابن حجر (٨٥٢هـــ) أن ابن عباس t كان إذ ذاك غلامًا مميزًا[8]، وقد ولـــد t قبل الهجرة بثلاث سنوات، وهاجر عام الفتح، وتزوج النبي r خالته ميمونة رضي الله عنها سنة سبع.

---

(١) ينظر في تأثير السجع على المخاطب: علم البديع: ١٨٠/٢.

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٢٩/١٤، وينظر: فتح الباري: ٥٨٥/١٠، ومن أساليب الرسول r في التربية: ٩٨.

(٣) ينظر: من أساليب الرسول r في التربية: ٩٨.

(٤) ينظر: كتاب الصناعتين: ١٩٠، وشروح التلخيص: ١٧٠/٣، وعلم المعاني، لفيود: ٢٣٣/٢.

(٥) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٢٩/١٤، وشرح صحيح البخاري لابن بطال: ٣٥٢/٩، وفتح الباري: ٥٨٥/١٠، ٥٨٥/١٠، ومن أساليب الرسول r في التربية: ٩٨.

(٦) أخرجه البخاري: (١٤٣) ، ومسلم: (٢٤٧٧).

(٧) أخرجه البخاري: (٧٥ و٣٧٥٦).

(٨) فتح الباري: ١٧٠/١.

وفي هذا الحديث من مراعاة حال الطفل: اختيار الدعاء مكافأة له، ولعل اختيار الدعاء لما فيه من تعبير عاطفي تجاه المخاطب، والطفل بحاجة إلى التعامل العاطفي معه كما أشير إليه سابقًا، ويؤكد هذا أن النبي r ضمه إلى صدره، فضلاً عن أن دعاء النبي r مطلب الجميع، وخير من أي مكافأة دنيوية، وإذا وافق أن يكون الدعاء بما يسعى إليه المخاطب كان ذلك أحب إليه، فقد كان ابن عباس t منذ صغره حريصًا على التعلم، والأخذ عن النبي r ، حتى إنه يبيت عند خالته أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها لينظر إلى صلاته r ، ولعل هذه الليلة التي وافق فيها دعاء النبي r بالتفقيه هي التي حرص فيها على رؤية صلاته r [(١)]، فكان المدعو به موافقًا للحال الظاهرة، والله أعلم.

ت- عن سهل بن سعد t أن النبي r أتي بشراب، وعن يمينه غلام أصغر القوم، وعن يساره الأشياخ، فقال: «يَا غُلامُ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الأَشْيَاخَ؟» وفي رواية: «إِنْ أَذِنْتَ لِي أَعْطَيْتُ هَؤُلاءِ» فقال الغلام t : ما كنت لأوثر بفضلي منك أحدًا يا رسول الله، فأعطاه إياه[(٢)]. وقيل: الغلام هو الفضل بن عباس، وقيل أخوه عبد الله، وصوبه ابن حجر (٨٥٢هـ)[(٣)]، وقد وردت قصة عند الترمذي عن ابن عباس t قال: دخلت مع رسول الله r أنا وخالد بن الوليد على ميمونة، فجاءتنا بإناء فيه لبن، فشرب رسول الله r ، وأنا على يمينه، وخالد على شماله، فقال لي: «الشَّرْبَةُ لَكَ، فَإِنْ شِئْتَ آثَرْتَ بِهَا خَالِدًا» فقلت: ما كنت أوثر على سُؤْرك أحدًا[(٤)]. فإن كانت هذه القصة هي ما في الصحيحين فإن الغلام هو هو ابن عباس، وخالد من الأشياخ، وليس في رواية الترمذي ما يمنع أن يكون مع خالد غيره في بيت ميمونة، كما ذكر ابن حجر (٨٥٢هـ)[(٥)].

ومما يظهر من رعاية حال المخاطب: نداء النبي r له بوصف الغلام، وكان كذلك، وتلطفه في استئذانه، والاستئذان بمجرده فيه تلطف، فكيف إذا كان بأسلوب الاستفهام

---

(١) ينظر: المرجع السابق.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٣٥١ و٢٦٠٢) ، ومسلم: (٢٠٣٠).

(٣) ينظر: فتح الباري: ٣٠/٥.

(٤) أخرجها الترمذي: كتاب الدعوات، باب ما يقول إذا أكل طعامًا، برقم (٣٤٥٥)، والسؤر: بقية الشيء. ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٢٧/٢، ولسان العرب: ٣٣٩/٤.

(٥) فتح الباري: ٣١/٥.

وكان بالهمزة، إذا كانت الرواية بالاستفهام هي المحفوظة. والداعي إلى الاستئذان أن الأحق بالشراب هو الأيمن، وهو أمر متعارف عليه، وأكدته السنة، كما سبق ذكره، لكن لما كان الأشياخ الكبار عن يسار النبي r استأذن الصغير لهم. واستئذان الطفل فيه تقدير له، ومراعاة لحقه، والطفل في مثل هذا العمر الذي يدخل فيه عالم المراهقة ويقارب فيه البلوغ ومرحلة الشباب أحوج ما يكون إلى التقدير والقبول واستشعار المكانة والاستقلالية، ولذا فهو في هذه المرحلة الأخيرة من طفولته يحاول التخلص منها، ويزداد احتكاكه بالكبار مع قلة الاعتماد عليهم، وتنمو فرديته واستقلاليته، ويزداد لديه الشعور بالمسؤولية(١)، ولعل حضور ابن عباس وغيره من فتيان الصحابة وشباهم y مجالس النبي r وتقريبهم إليه رعاية لهذه الطبيعة العمرية، والله أعلم.

وقد يقول قائل: إذا كان النبي r راعى هذه الطبيعة العمرية في المخاطب، فلماذا لم يعطه الشراب دون أن يستأذنه؟ ولِمَ لَمْ يفعل كما فعل مع أبي بكر والأعرابي رضي الله عنهما في القصة المذكورة سابقًا؟(٢).

وذكر بعض الشراح جوابًا عن هذا، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قيل: إنما استأذن الغلام دون الأعرابي إدلالاً على الغلام، وهو ابن عباس، وثقة بطيب نفسه بأصل الاستئذان، لاسيما والأشياخ أقاربه... وفعل ذلك أيضًا تألفًا لقلوب الأشياخ، وإعلامًا بودهم، وإيثار كرامتهم إذا لم تمنع منها سنة، وتضمن ذلك أيضا بيان هذه السنة وهي أن الأيمن أحق، ولا يدفع إلى غيره إلا بإذنه، وأنه لا بأس باستئذانه، وأنه لا يلزمه الإذن، وينبغي له أيضًا أن لا يأذن إن كان فيه تفويت فضيلة أخروية ومصلحة دينية كهذه الصورة...

وأما الأعرابي فلم يستأذنه مخافة من إيحاشه في استئذانه في صرفه إلى أصحابه y، وربما سبق إلى قلب ذلك الأعرابي شيء يهلك به؛ لقرب عهده بالجاهلية وأنفتها، وعدم تمكنه في معرفته خلق رسول الله r، وقد تظاهرت النصوص على تألفه r قلب من يخاف عليه))(٣)، وإذا كانت قصة ابن عباس مع خالد بن الوليد y هي ما جاء في الصحيحين

---

(١) ينظر: علم نفس النمو: ٢٧٦-٢٧٨، وعلم نفس المراحل العمرية: ٢٧٦، ومنهج التربية الإسلامية: ٢/٢٠٣-٢٠٦.

(٢) ينظر ص (٧١) من هذا البحث.

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٣/٢٠١-٢٠٢.

فوجه ابن حجر (٨٥٢هـ) الاستئذان بأن ((خالد مع رياسته في الجاهلية وشرفه في قومه قد تأخر إسلامه، فلذلك استأذن له، بخلاف أبي بكر؛ فإن رسوخ قدمه في الإسلام وسبقه يقتضي طمأنينته بجميع ما يقع من النبي r، ولا يتأثر لشيء من ذلك، ولهذا لم يستأذن الأعرابي له))(١).

وهذا التوجيه للاستئذان يدل على أن النبي r أراد أن يوازن بين حال الأشياخ، وحال الغلام، فالخطاب ليس للغلام وحده، بل قد يكون الخطاب للأشياخ من باب خطاب المرء وإرادة غيره تعريضًا، وهذا من المقامات التي يحسن فيها التعريض، ليحفظ النبي r للغلام حقه، ويطيب نفوس الأشياخ الذين قد يجدون في أنفسهم شيئًا حين يقدم النبي r عليهم غلامًا، وسيأتي مزيد حديث عن التعريض بإذن الله في الفصل السادس.

وهذا التوجيه يدل أيضًا على أن النبي r يدرك أن ابن عباس t لا يؤثر بفضله أحدًا، كما أنه لم يرد جازمًا أن يأذن ابن عباس أن يعطي الشراب الأشياخ، وإلا جاء الخطاب بغير صيغة الاستفهام أو الشرط، كأن يقول آمرًا مثلاً: ائذن لي. بل إن رواية الشرط -إن كانت هي المحفوظة- جاءت بصيغة تؤكد هذا، فاستعمال (إن) الشرطية يكون عادة فيما يمتنع أو يتوهم وقوعه، بخلاف (إذا)(٢)، ولعل قول النووي (٦٧٦هـ) السابق فيه إشارة إلى هذا حين قال: ((وتضمن ذلك أيضا بيان هذه السنة وهي أن الأيمن أحق، ولا يدفع إلى غيره إلا بإذنه، وأنه لا بأس باستئذانه، وأنه لا يلزمه الإذن، وينبغي له أيضًا أن لا يأذن إن كان فيه تفويت فضيلة أخروية ومصلحة دينية كهذه الصورة)) والله أعلم.

هذه بعض المواقف التي يظهر فيها رعاية النبي r لحال الأطفال، ولعلي أسرد بعضًا مما لم أذكره دون تحليل ليقف القارئ على ما يظهر فيها من رعاية لحال المخاطب الصغير، وسيأتي بإذن الله تناول لها في مباحث المفردات والتراكيب(٣).

ومن ذلك ما رواه أبو هريرة t قال: كنت مع رسول الله r في سوق من أسواق المدينة، فانصرف، فانصرفت فقال: «أَيْنَ لُكَعُ؟» ثلاثًا «ادْعُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ» فقام الحسن

(١) فتح الباري: ١٠/٨٦-٨٧.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٣٩، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم: ١/١٧٣.

(٣) ينظر ص (٢٥٥ و٣٤٥ و٣٨٥ و٤٢٢ و٤٢٣ و٥٠٤ و٥٣١ و٥٣٨) من هذا البحث.

ابن علي يمشي، وفي عنقه السِّخَاب، فقال النبي r بيده هكذا، فقال الحسن بيده هكـــذا، فالتزمه، فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ»[(١)]، وحديث عمر بن ســـلمة t قال: كنت غلامًا في حَجْر رسول الله r ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله r : «يَا غُلامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» فما زالت تلك طِعمتي بعد[(٢)]. وحديث أبي هريرة t أن الحسن بن علي t أخذ تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيـــه، فقال له النبي r : «كِخْ كِخْ» فأخرجها من فيه، ثم قال: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّـــدٍ r لا يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ»[(٣)]، وحديث أم خالد بنت خالد بن سعيد y أن النبي r أتي بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فقال: «مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ؟» فسكت القوم، فقال: «ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ» فأتي بها وهي جويرية تحمل، فأخذ الخميصة بيده، فألبسها، وقال: «أَبْلِي وَأَخْلِقِـــي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي» وفي رواية: «وَأَخْلِفِي»، وكان فيها علـــم أخضـــر أو أصفر، فجعل ينظر إليه، ويشير بيده إليها، ويقول: «يَا أُمَّ خَالِدٍ، هَذَا سَنَاهْ»[(٤)]، وغيرها من الأحاديث.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢١٢٢ و٥٨٨٤) ، مسلم: (٢٤٢١). والسِّخاب: القلادة، وينظر: لسان العرب: ٤٦١/١.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٣٧٦) ، ومسلم: (٢٠٢٢).

(٣) أخرجه البخاري: (١٤٨٥ و١٤٩١ و٣٠٧٢) ، ومسلم: (١٠٦٩).

(٤) أخرجه البخاري: (٣٠٧١ و٣٨٧٤ و٥٨٢٣ و٥٨٤٥ و٥٩٩٣).

- **خطابه r للشباب.**

تمتد مرحلة الشباب من البلوغ إلى سن الأربعين تقريبًا، وهي بذلك تكون أطول مراحل العمر في الغالب، إلا أن هذه المرحلة تجزأ أيضًا إلى مراحل عند الباحثين في علم النفس والتربية، فهناك المراهقة التي تمتد من البلوغ إلى العشرين تقريبًا، ثم الأشد إلى الأربعين، ومرحلة الأشد قد تختلف فيها العشر الأولى ببعض الخصائص عن الثانية، وبعضهم يجعل مرحلة الأشد هي مرحلة الشباب(١)، وابتداء مرحلة الشباب بالبلوغ ورد في السنة عن علي بن أبي طالب t قال: قال رسول الله r: «رُفِعَ الْقَلَمُ عَنْ ثَلاثَةٍ؛ عَنْ النَّائِمِ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، وَعَنْ الصَّبِيِّ حَتَّى يَشِبَّ، وَعَنْ الْمَعْتُوهِ حَتَّى يَعْقِلَ»(٢).

ومن المواقف التي يظهر فيها رعاية النبي r مقتضى حال الشباب في هذه المرحلة ما يلي:

أ- الأمر بالتوازن في الحياة والنهي عن الانقطاع للعبادة.

من طبيعة الشاب في أولى مراحل الشباب الحماسة والاندفاع بكل طاقته في العمل الذي يريد القيام به، وربما انقطع بكليته له، ومع أن الحماسة مطلوبة إلا أن النفس البشرية لها طاقة محدودة، فإن تجاوزها كلت وملت، كما أن لها عدة جوانب مطلوب من المرء أن يوازن بينها فيعطي كل جانب حقه، فإن انصرف إلى جانب ضمرت بعض الجوانب، وحصل التفريط في بعضها، ثم تعود في النهاية على الجانب الأهم عنده بالملل ثم الترك، خاصة في مرحلة الشباب التي تشهد تغيرًا وتقلبًا لدى الشاب الذي لم يصل إلى مرحلة النضج بعد. ولقد وجد من بعض شباب الصحابة y من أراد أن ينقطع للعبادة وينصرف عن غيرها من حاجات النفس البشرية، فأرشدهم النبي r إلى التوازن، ونهاهم عن الانقطاع، ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك t قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي r يسألون عن عبادة النبي r، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي

---

(١) ينظر في مراحل الشباب وخصائصها: علم نفس النمو: ٣٧٠-٤٥٥، وعلم نفس المراحل العمرية: ٢٨٩-٤١٢، ومنهج التربية الإسلامية: ٢/٢٤٥-٣٢٧.

(٢) أخرجه أحمد: ١/١١٨، والترمذي: كتاب الحدود، باب فيمن لا يجب عليه الحد، برقم (١٤٢٣)، وصححه أحمد شاكر في تحقيق المسند: ١/١٩٧ برقم (٩٥٦) ، والألباني في صحيح سنن الترمذي: ٢/٦٤ برقم (١١٥٠).

r ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله r إليهم فقال: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُم كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» وفي رواية: فحمد الله وأثنى عليه وقال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ...»(١)، وفي حديث عبد الله بن عمرو أن رسول الله r أخبر أنه يقول: والله لأصومن النهار، ولأقومن الليل ما عشت، فقال: «يَا عَبْدَ اللهِ، أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ: وَاللهِ لأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ» فقال: بلى، يا رسول الله، قد قلته، و لم أرد بذلك إلا الخير. قال: «إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَلا تَفْعَلْ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَت الْعَيْنُ، وَنَفِهَت النَّفْسُ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّكَ لا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ» قال عبد الله: فشددت فشدد علي... وكان عبد الله يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي r(٢)، وفي رواية عند أحمد: «فَإِنَّ لِكُلِّ عَابِدٍ شِرَّةً، وَلِكُلِّ شِرَّةٍ فَتْرَةً، فَإِمَّا إِلَى سُنَّةٍ، وَإِمَّا إِلَى بِدْعَةٍ، فَمَنْ

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٠٦٣) ، ومسلم: (١٤٠١). قال ابن حجر في فتح الباري: ١٠٤/٩: ((وقع في مرسل سعيد بن المسيب عند عبد الرزاق أن الثلاثة المذكورين هم: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعثمان بن مظعون. وعند ابن مردويه من طريق الحسن العدني: كان علي في أناس ممن أرادوا أن يحرموا الشهوات، فنزلت الآية في المائدة. ووقع في أسباب الواحدي بغير إسناد أن رسول الله r ذكر الناس وخوفهم، فاجتمع عشرة من الصحابة، وهم أبو بكر، وعمر، وعلي، وابن مسعود، وأبو ذر، وسالم مولى أبي حذيفة، والمقداد، وسلمان، وعبد الله ابن عمرو بن العاص، ومعقل بن مقرن، في بيت عثمان بن مظعون، فاتفقوا على أن يصوموا النهار، ويقوموا الليل، ولا يناموا على الفرش، ولا يأكلوا اللحم، ولا يقربوا النساء، ويجبوا مذاكيرهم. فإن كان هذا محفوظًا احتمل أن يكون الرهط الثلاثة هم الذين باشروا السؤال فنسب ذلك إليهم بخصوصهم تارة، ونسب تارة للجميع لاشتراكهم في طلبه، ويؤيد أنهم كانوا أكثر من ثلاثة في الجملة ما روى مسلم من طريق سعيد بن هشام أنه قدم المدينة، فأراد أن يبيع عقاره فيجعله في سبيل الله، ويجاهد الروم حتى يموت، فلقي ناسًا بالمدينة فنهوه عن ذلك، وأخبروه أن رهطًا ستة أرادوا ذلك في حياة رسول الله r فنهاهم، فلما حدثوه ذلك راجع امرأته وكان قد طلقها، يعني بسبب ذلك، لكن في عد عبد الله ابن عمرو معهم نظر، لأن عثمان بن مظعون مات قبل أن يهاجر عبد الله فيما أحسب)).

(٢) أخرجه البخاري: (١٩٧٥ و٣٤١٨ و٣٤١٩ و١٩٧٦) ، ومسلم: (١١٥٩).

كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى سُنَّةٍ فَقَدْ اهْتَدَى، وَمَنْ كَانَتْ فَتْرَتُهُ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ فَقَدْ هَلَكَ»[١]. وفي هذا السياق أيضًا قال له النبي r: «يَا عَبْدَ اللهِ، لا تَكُنْ مِثْلَ فُلانٍ؛ كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ فَتَرَكَ قِيَامَ اللَّيْلِ»[٢]، ولعل النبي r أراد أن يضع أمام هذا الشاب المتحمس للعبادة مثلاً للكلل والملل الذين يصيبان من انقطع للعبادة دون مراعاة لحاجات النفس الأخرى، فتضعف النفس عن العبادة كلها[٣]، والله أعلم.

ب- أمر الشباب بالزواج، أو ما يخفف حدة الشهوة، والنهي عن إتيان دواعيها.

تعد الرغبة الجنسية من أبرز التحولات التي تطرأ في مرحلة الشباب، حيث تبلغ الهرمونات الجنسية ذروتها مع البلوغ، وتشتد بعد ذلك بثلاث سنوات إلى أربع تقريبًا حاجة الشاب إلى إشباع هذه الرغبة بالطريقة السوية الشرعية وهي الزواج، وإذا لم يتمكن من إشباعها في هذه المرحلة فستصبح مصدر قلق وصراع نفسي، ما لم يكبح جماحها بالوسائل المفيدة، وإلا انحرف بها إلى مستنقع الرذيلة[٤].

ولقد أدرك النبي r هذه الحاجة الفطرية في الشباب فكان يحثهم على الزواج ويأمرهم به، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود t قال: كنا مع النبي r شبابًا لا نجد شيئًا، فقال لنا رسول الله r: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَن اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[٥]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((خص الشباب بالخطاب لأن الغالب وجود قوة الداعي فيهم إلى النكاح بخلاف الشيوخ))[٦].

---

(١) أخرجها أحمد: ١٥٨/٢.

(٢) أخرجه البخاري: (١١٥٢) ، ومسلم: (١١٥٩).

(٣) ينظر: المنهاج النبوي في دعوة الشباب: ٩١.

(٤) ينظر: علم نفس المراحل العمرية: ٣٧٠-٣٧٢.

(٥) أخرجه البخاري: (١٩٠٥ و٥٠٦٦) ، ومسلم: (١٤٠٠). والباءة: النكاح والتزوج، والمقصود القدرة على مؤنة النكاح، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٦٠/١، وشرح صحيح مسلم: ١٧٣/٩.

(٦) فتح الباري: ١٠٨/٩، وينظر: شرح صحيح مسلم: ١٧٣/٩.

والنداء بوصف الشباب مع كون الخطاب لهم فيه إغراء بما بعده، والإغـــراء أحـــد المعاني التي تأتي عليها صيغة النداء[١].

والأمر هنا بالزواج لمن استطاع مؤنته مقدم على الأمر بالصيام لمـــن لم يســـتطعها، تنبيهًا إلى أن الأصل في الشاب أن يشبع رغبته، لا أن يحسم مادتها، وأن الزواج هو الـــذي يشبع هذه الرغبة، فإذا بلغ الزواج فعليه أن يعجل به ويبادر إليه، ولذا جاء الأمـــر بـــه في جواب الشرط مقرونًا بالفاء، وجاءت صيغتا الغض والإحصان في تعليل الأمر علـــى أفعـــل التفضيل.

ويلحظ الاختلاف في صيغة الأمر بين الزواج والصوم، حيث عدل النبي r في الأمر بلزوم الصوم عن صيغة المضارع المقرون بلام الأمر -فليلزم الصوم- كما في الأمر بـــالزواج «فَلْيَتَزَوَّجْ» إلى صيغة اسم فعل الأمر -عَلَيه- الذي بمعنى الملازمة، فقال: «فَعَلَيْهِ بِالصَّـــوْمِ» ليفيد ملازمة الصوم والإغراء به، إذ الصوم فيه مشقة على النفس فيغرى به وبالإكثار منـــه، ومجيء (الباء) الدالة على الإلصاق تأكيد لأهمية ملازمة الصوم لمن أراد أن يكســـر حـــدة الشهوة، ولو قال: فليصم، لم يدل على ملازمة الصوم، ولم يكن إغراء بها مع وجود المقتضي للإغراء، وسيأتي مزيد بيان للأمر في المبحث الثاني من الفصل الرابع بإذن الله U.

وفي الحديث تعريض بخطورة إطلاق الشباب لأبصارهم؛ لأن فيه إثـــارة للشـــهوة، ونزوعًا إلى الفاحشة، ولذا قدم غض البصر على إحصان الفرج، من باب تقديم السبب على المسبب كما ذكره بعض البلاغيين من أسباب التقديم[٢]، لكون الغض من أهـــم أســـباب الإحصان ووسائله، كما في قول الله تعالى: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُـــوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ $ وَقُـــلْ لِلْمُؤْمِنَـــاتِ يَغْضُضْـــنَ مِـــنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ...﴾ [النور: ٣٠-٣١]، قال أبو حيان (٧٤٥هـ): ((قـــدم غض البصر على حفظ الفرج لأن النظر بريد الزنا ورائد الفجور، والبلوى فيه أشد وأكثر، لا يكاد يقدر على الاحتراز منه، وهو الباب الأكبر إلى القلب، وأعمر طرق الحواس إليـــه، ويكثر السقوط من جهته، وقال بعض الأدباء:

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٣٣٤.

(٢) ينظر: التبيان في البيان، للطيبي: ١/٢٠٥.

وما الحب إلا نظرة إثر نظرة .. تزيد نموًا إن تزده لجاجا))[١].

ولهذا كان النبي r يأمر أصحابه y وخاصة الشباب بغض البصر ويربيهم عليه، ومن ذلك ما رواه جرير بن عبد الله البَجَلي t قال: سألت رسول الله r عن نظر الفُجَاءَة -وروي: الفَجْأة- فأمرني أن أصرف بصري[٢]، وفي صحيح مسلم أن الرسول r لما دفع يوم النحر من مزدلفة إلى منى كان رديفه الفضل بن عباس t ، وكان حسن الشعر أبيض وسيمًا، فمرت به ظعن يجرين، فطفق الفضل ينظر إليهن، فوضع رسول الله r يده على وجه الفضل، فحول الفضل وجهه إلى الشق الآخر ينظر، فحول رسول الله r يده من الشق الآخر على وجه الفضل يصرف وجهه[٣]، وفي رواية عند أحمد والترمذي عن علي t قال: وأردف الفضل، ثم أتى الجمرة فرماها، ثم أتى المنحر، فقال: «هَذَا الْمَنْحَرُ، وَمِنًى كُلُّهَا مَنْحَرٌ» واستفتته جارية شابة من خثعم فقالت: إن أبي شيخ كبير قد أدركته فريضة الله في الحج، أفيجزئ أن أحج عنه؟ قال: «حُجِّي عَنْ أَبِيكِ» قال: ولوى عنق الفضل، فقال العباس t : يا رسول الله، لم لويت عنق ابن عمك؟ قال: «رَأَيْتُ شَابًّا وَشَابَّةً فَلَمْ آمَن الشَّيْطَانَ عَلَيْهِمَا»[٤]، وفي الصحيحين عن أبي هريرة t عن النبي r قال: «كُتِبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ نَصِيبُهُ مِن الزِّنَا، مُدْرِكٌ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ؛ فَالْعَيْنَانِ زِنَاهُمَا النَّظَرُ، وَالأُذُنَانِ زِنَاهُمَا الاسْتِمَاعُ، وَاللِّسَانُ زِنَاهُ الْكَلامُ، وَالْيَدُ زِنَاهَا الْبَطْشُ، وَالرِّجْلُ زِنَاهَا الْخُطَا، وَالْقَلْبُ يَهْوَى وَيَتَمَنَّى، وَيُصَدِّقُ ذَلِكَ الْفَرْجُ وَيُكَذِّبُهُ»[٥]، قال ابن القيم: ((بدأ بزنا العين؛ لأنه أصل زنى اليد والرجل والقلب والفرج))[٦]. ومن تربيته r لأصحابه الشباب على غض البصر ما رواه

---

(١) البحر المحيط: ٦/٥٤٧، وينظر: تفسير القرآن العظيم: ٦/٤٢، وروح المعاني: ١٨/١٣٩، والتحرير والتنوير: ١٨/٢٠٤. وينظر في سر التقديم وفي خطورة إطلاق البصر: روضة المحبين: ١٠٩-١٢١.

(٢) أخرجه مسلم: (٢١٥٩).

(٣) أخرجه مسلم: (١٢١٨).

(٤) أخرجها أحمد: ١/٧٥ و١٥٦، والترمذي: كتاب الحج، باب ما جاء أن عرفة كلها موقف، برقم (٨٨٥)، وقال: حديث حسن صحيح، وحسنها الألباني في صحيح سنن الترمذي: ١/٢٦٣ برقم (٧٠٢).

(٥) أخرجه البخاري: (٦٢٤٣) ، ومسلم: (٢٦٥٧) وهذا لفظه.

(٦) روضة المحبين: ١١٠.

بريدة t أن رسول الله r قال لعلي t : «يَا عَلِيُّ، لا تُتْبِعْ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّمَا لَكَ الأُولَى، وَلَيْسَتْ لَكَ الآخِرَةُ»(١).

ومن رعاية النبي r لحاجة الشباب إلى الزواج ما رواه عبد المطلب بن ربيعة بن الحارث أنه هو والفضل بن عباس y رغبا من النبي r أن يؤمرهما على الصدقات ليصيبا ما يستطيعون به مؤنة النكاح، قال: لما صلى رسول الله r الظهر سبقناه إلى الحجرة، فقمنا عندها حتى جاء، فأخذ بآذاننا، ثم قال: «أَخْرِجَا مَا تُصَرِّرَانِ» ثم دخل، ودخلنا عليه، وهو يومئذ عند زينب بنت جحش، فتواكلنا الكلام، ثم تكلم أحدنا فقال: يا رسول الله، أنت أبر الناس، وأوصل الناس، وقد بلغنا النكاح، فجئنا لتؤمرنا على بعض هذه الصدقات، فنؤدي إليك كما يؤدي الناس، ونصيب كما يصيبون. فسكت طويلاً حتى أردنا أن نكلمه، وجعلت زينب تلمع علينا من وراء الحجاب أن لا تكلماه، ثم قال: «إِنَّ الصَّدَقَةَ لا تَنْبَغِي لِآلِ مُحَمَّدٍ، إِنَّمَا هِيَ أَوْسَاخُ النَّاسِ، ادْعُوَا لِي مَحْمِيَةَ -وَكَانَ عَلَى الْخُمُسِ- وَنَوْفَلَ بْنَ الْحَارِثِ ابْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فجاءاه، فقال لمحمية: «أَنْكِحْ هَذَا الْغُلامَ ابْنَتَكَ» لِلْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ، فَأَنْكَحَهُ، وقال لنوفل بن الحارث: «أَنْكِحْ هَذَا الْغُلامَ ابْنَتَكَ» لِي، فَأَنْكَحَنِي، وقال لمحمية: «أَصْدِقْ عَنْهُمَا مِن الْخُمُسِ كَذَا وَكَذَا»(٢).

ت- أمر النبي r شبابًا بالرجوع إلى أهليهم مراعاة لحالهم ولطبيعتهم النفسية.

عن مالك بن الحويرث t قال: أتينا رسول الله r ونحن شَبَبَة متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله r رحيمًا رقيقًا، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا عن من تركنا من أهلنا، فأخبرناه، فقال: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ، وَعَلِّمُوهُمْ،

---

(١) أخرجه أحمد: ٣٥١/٥ و٣٥٣، وأبو داود: كتاب النكاح، باب ما يؤمر به من غض البصر، برقم (٢١٤٩)، والترمذي: كتاب الأدب، باب ماجاء في نظر المفاجأة، برقم (٢٧٧٧)، وصرح ابن القيم بثبوته في روضة المحبين: ١١٠، وحسنه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ٤٠٣/٢ برقم (١٨٨١).

(٢) أخرجه مسلم: (١٠٧٢). ولمزيد من الحديث عن رعاية النبي r لحاجات الشباب ينظر: المنهاج النبوي في دعوة الشباب: ٩٢-١٣٣.

وَمُرُوهُمْ، فَإِذَا حَضَرَتْ الصَّلاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، ثُمَّ لِيَؤُمَّكُمْ أَكْبَرُكُمْ»(١). لما رأى النبي r اشتياق هؤلاء الشباب إلى أهليهم لم يدعهم يلازمونه في المدينة، مع أن في ملازمتهم لـــه من الصحبة والخير والتزود من العلم ما ينفعهم. والشاب في بداية شبابه من طبعـــه ســـرعة التغير والتقلب، لضعف الخبرة والتجربة والنضج العقلي، فلعل إلزامهم بالبقاء مع اشـــتياقهم إلى أهليهم يكون سببًا في فتورهم ونكوصهم، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري: (٦٢٨) ، ومسلم: (٦٧٤) ، وشببة: جمع شاب، ينظر: مشارق الأنـــوار: ٢/٢٤٣، ولســـان العرب: ١/٤٨٠.

المبحث الخامس: الصفات السلوكية.

من مظاهر الفروق الفردية بين الناس اختلاف صفاقم وسلوكياقم، مع أن بعضهم يعيشون في بيئة واحدة عامة أو خاصة، ويشتركون في كثير من صفاقا. ولا غرابة أن ترى شخصًا حليمًا مترويًا لكنك ترى أخاه الشقيق غضوبًا متعجلاً، وكلاهما تربيا في بيئة أسرية واحدة ذات نمط معيشي واحد. بل إن الشخص الواحد قد يكون متصفًا بصفة ملازمة له يعرف بها إلا أنه في حالة من الحالات يكون على نقيضها كالسرور والحزن، والحلم والغضب، والقوة والضعف، والصحة والمرض.

وفي خطاب النبي r ما يراعي مقتضى هذه الصفات والحالات التي تؤثر في الصفات، وسأذكر شواهد على ذلك، منها:

أ- الاستعجال.

ومما ورد في هذه الصفة ما رواه أبو هريرة أن رجلاً دخل المسجد فصلى، ورسول الله r في ناحية المسجد، فجاء فسلم عليه، فرد رسول الله r السلام، وقال له: «ارْجِعْ، فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فرجع فصلى كما صلى، ثم جاء فسلم، فرد عليه السلام، وقال: «ارْجِعْ، فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فقال: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غيره، فعلمني. فقال: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغْ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِلِ الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ، وَاقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ رَأْسَكَ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ وَتَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، ثُمَّ افْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّهَا»[(١)].

وظاهر أن المخاطب في هذا الحديث استعجل الصلاة، ولم يحسن أداءها، وأنه فعل ذلك عن جهل، لا عن قصد بعلم، فاجتمعت فيه صفتا الاستعجال والجهل. والظاهر أن الجهل عند المخاطب ليس بالإتيان بأفعال الصلاة وترتيبها، وإنما بالطمأنينة فيها، وجاء ذلك مصرحًا به في حديث رفاعة بن رافع t عند الترمذي أن رسول الله r بينما هو جالس في

(١) أخرجه البخاري: (٧٥٧ و٧٩٣ و٦٦٦٧) ، ومسلم: (٣٩٧).

المسجد يومًا إذ جاءه رجل كالبدوي، فصلى، فأخف صلاته، ثم انصرف فسلم على النبي r ، فقال النبي r : «وَعَلَيْكَ، فَارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» قال رفاعة: ففعل ذلك مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يأتي النبي r فيسلم على النبي r فيقول النبي r : «وَعَلَيْكَ، فَارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فخاف الناس وكبر عليهم أن يكون من أخف صلاته لم يصل... فعلمه النبي r إلى أن قال: «فَإِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ فَقَدْ تَمَّتْ صَلاتُكَ، وَإِن انْتَقَصْتَ مِنْهُ شَيْئًا انْتَقَصْتَ مِنْ صَلاتِكَ» قال رفاعة: وكان هذا أهون عليهم من الأول؛ أنه من انتقص من ذلك شيئًا انتقص من صلاته، ولم تذهب كلها[1]، وفي مصنف ابن أبي شيبة قال رفاعة: فصلى صلاة خفيفة؛ لا يتم ركوعًا ولا سجودًا[2]، فالمقام في الأصل مقام تعليم للطمأنينة ومحلها، لا غير، والله أعلم.

وقد جاء تعامل النبي r مع الرجل وخطابه له مراعيًا حاله، ومما يبين ذلك ما يلي:

١- إيضاح المسألة بلطف، مع الإيجاز، مراعاة لجهله من جهة، ولمقام الخطاب من جهة أخرى، فاقتصر النبي r على ما يحتاج إليه المخاطب دون غيره، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((إذا كان الكلام منصبًا إلى غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجهه إليه، كأن ما سواه مرفوض مطرح))[3]، وقال النووي (٦٧٦هـ) في فوائد الحديث: ((وفيه الرفق بالمتعلم والجاهل وملاطفته، وإيضاح المسألة، وتلخيص المقاصد، والاقتصار في حقه على المهم دون المكملات التي لا يحتمل حاله حفظها والقيام بها))[4].

وقد يقول قائل: إذا كان المخاطب افتقد الطمأنينة في أفعال الصلاة عن جهل، وكان مقتضى حاله أن يوجز معه فيما يحتاج إليه، فلِمَ أطنب النبي r فذكر إسباغ الوضوء واستقبال القبلة، وليسا من الصلاة؟.

(١) أخرجه الترمذي: أبواب الصلاة، باب ما جاء في وصف الصلاة، برقم (٣٠٢) وحسنه، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ١/٩٥، برقم (٢٤٧).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة: ١/٢٥٧.

(٣) الكشاف: ٤/٨.

(٤) شرح صحيح مسلم: ٤/١٠٨، وينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٢/٢٨٢.

والجواب أن هذا من الأسلوب الحكيم، وقد أشار إليه النووي (٦٧٦هـ)، حيث قال في فوائد الحديث: ((فيه أن المفتي إذا سئل عن شيء، وكان هناك شيء آخر يحتاج إليه السائل ولم يسأله عنه، يستحب له أن يذكره له، ويكون هذا من النصيحة لا من الكلام فيما لا يعني، وموضع الدلالة أنه قال: علمني يا رسول الله، أي علمني الصلاة، فعلمه الصلاة، واستقبال القبلة والوضوء، وليسا من الصلاة، لكنهما شرطان لها))(١). ولعل النبي r لما رأى استعجاله في الصلاة، ظن أنه يستعجل في غيرها مما هو شرط لها، فلا يأتي به على ما ينبغي، ولذا جاء الأمر بـ(إسباغ الوضوء) لا مجرد الوضوء، كما سيأتي بيانه بإذن الله.

٢- اختيار المفردات التي تتلاءم مع حال المخاطب، وتؤدي الغرض بدقة، ومن ذلك لفظة (أَسْبِغ) مشتقة من مادة (س ب غ) التي تدل على الكمال والتمام والتوسعة، وإسباغ الوضوء: المبالغة فيه وإتمامه(٢)، فالأمر للمخاطب ليس بمجرد الوضوء، فإنه فعل لا يجهله المخاطب، ولكن النبي r لما رأى فيه صفة الاستعجال وعدم الطمأنينة في الصلاة خشي أن يكون في وُضوئه كما هو في صلاته، فأمره أن يبالغ في وضوئه فيعطي كل عضو حقه، حتى يتم وضوءه ولا يقصر فيه، والله أعلم.

ومن المفردات: حرف العطف (ثم) الذي يدل على التراخي، وقد تكرر في النص مع كل فعل ينتقل إليه المصلي من فعل يحتاج إلى طمأنينة، ليشعره بأهميتها في أداء العبادة: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغْ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِل الْقِبْلَةَ».

إن (ثم) هنا يشعر المخاطب إذا توضأ أن يأخذ الوضوء حقه قبل أن ينتقل إلى الصلاة، وحينما يأتي بعد الأمر بالإسباغ فإنه يؤكد التأني والطمأنينة في الوضوء. وإذا صلى أخذ كل فعل حقه من الطمأنينة قبل أن ينتقل المصلي إلى الفعل الآخر، ولعلنا نقرأ النص مرة أخرى لِنَرَ كيف يؤدي هذا الحرف (ثم) وظيفة مهمة في التأكيد على طمأنينة المخاطب في صلاته: «فَكَبِّرْ، وَاقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِن الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٤/١٠٨.

(٢) ينظر: لسان العرب: ٨/٤٣٢.

رَأْسَكَ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ وَتَطْمَئِنَّ جَالِسًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا».

ومن المفردات: الحرف (حتى) الذي يدل على الغاية، ولعل اختياره دون (إلى) لأن الغالب فيه أن يدخل ما بعده فيما قبله، بخلاف (إلى) فإنه ليس بغالب، كما ذكره السيوطي[1]، وذكر الزمخشري (٥٣٨هـ) فرقًا بين الحرفين عند قول الله U: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [الحجرات: ٥] قال: ((فإن قلت : هل من فرق بين (حتى تخرج) و(إلى أن تخرج)؟ قلت: إن (حتى) مختصة بالغاية المضروبة، تقول: أكلت السمكة حتى رأسها، ولو قلت: حتى نصفها، أو صدرها، لم يجز، و(إلى) عامّة في كل غاية، فقد أفادت (حتى) بوضعها أنّ خروج رسول الله r إليهم غاية قد ضربت لصبرهم، فما كان لهم أن يقطعوا أمرًا دون الانتهاء إليه))[2].

وإذا كان الفرق كما ذكر فإن (حتى) في الحديث قد أصابت موضعها، لتبين للمخاطب أن الغاية المقصودة التي لا يقصر دونها في كل فعل من أفعال الصلاة هي الطمأنينة والاعتدال والاستواء، التي جاءت أفعالها بعد (حتى) لتكون داخلة في حكم الفعل المذكور قبلها، والله أعلم[3].

ومن المفردات (تطمئن) التي تكررت في النص لتؤكد للمخاطب أهمية ما قصر فيه، مما أخل بصلاته، ونزع عنها حقيقتها في قول النبي r : «ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» وتعتضد هذه اللفظة في أداء المراد بلفظتي (تعتدل) و(تستوي).

إن النبي r لو كان يريد أن يعلم الرجل ترتيب الأفعال لربما اكتفى بقوله: اركع فقم فاسجد فارفع فاسجد فقم، لكنه r أراد أن يعلمه الطمأنينة في أداء صلاته، ولم يكن تعليمه إياها ابتداء، وإنما عن خطأ ناشئ من جهل، واستعجال قد يكون طبعًا في المخاطب، ولذا لم يكتف النبي r بدلالة (ثم) وحدها وإلا قال: اركع ثم قم ثم اسجد ثم ارفع ثم اسجد... ولا بدلالة (حتى) وحدها وإلا قال: اركع حتى تقوم، فقم حتى تسجد، فاسجد

(١) الإتقان في علوم القرآن: ١٩٣/٢.

(٢) الكشاف: ٣٤٩/٤.

(٣) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٢٨٢/٢.

حتى ترفع، فارفع حتى تسجد... ولا بدلالتهما معًا وإلا قال: اركع حتى تقوم، ثم قم حتى تسجد، ثم اسجد حتى ترفع، ثم ارفع حتى تسجد... بل نص على ما قصر فيه المخاطب، وكرره، ليتقرر لديه ويتأكد، ولم يكتف أيضًا بذلك وإلا قال: اركع حتى تطمئن، ثم قم حتى تعتدل، ثم اسجد حتى تطمئن، ثم ارفع حتى تستوي وتطمئن...، بل أتى بالحال التي تتعلق بالطمأنينة في كل فعل، ليزيد الأمر تأكيدًا وتقريرًا، والله أعلم.

ومن مواقف الاستعجال في الوضوء ما رواه عبد الله بن عمرو t قال: رجعنا مع رسول الله r من مكة إلى المدينة، حتى إذا كنا بماء بالطريق تعجل قوم عند العصر، فتوضؤوا وهم عجال، فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء، فقال رسول الله r: «وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِن النَّارِ، أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ»[1]، فحال المخاطب هنا الاستعجال في الوضوء استعجالاً يخل بتمامه وكماله، ولذا كان المقام هنا مقام أمر بإتمام الوضوء، لا أمر بالوضوء نفسه، فأتى الأمر بالإسباغ كما في الحديث السابق[2]، ويلحظ أن الأمر بالإسباغ جاء عامًا، والويل خاص بالأعقاب، قال العيني: ((فإن قلت: لم ذكر الإسباغ عامًا، والوعيد خاصًا. قلت: لأنهم ما قصروا إلا في وظيفة الرجلين، فلذلك ذكر لفظ الأعقاب، فيكون الوعيد في مقابلة ذلك التقصير الخاص))[3]، وهذا جواب لتخصيص الويل بالأعقاب، وقد قال بعد: ((قيل: لم خص الأعقاب بالعذاب؟ أجيب: لأنها العضو التي لم تغسل))[4]، أما عموم الأمر بالإسباغ لأعضاء الوضوء فلأنهم صاروا مظنة التقصير في غير الرجلين لما قصروا فيهما، والله أعلم.

ومن مواقف الاستعجال في الصلاة ما رواه أبو قتادة t قال: بينما نحن نصلي مع النبي r إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قالوا: استعجلنا إلى الصلاة.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٠ و٩٦) ، ومسلم: (٢٤١) وهذا لفظه.

(٢) ينظر: عمدة القاري: ٢/٩-١٠.

(٣) المرجع السابق: ٢/١٠.

(٤) المرجع السابق.

قال: «فَلا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمْ الصَّلاةَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»[(١)]، ومن تأمل في النص ظهر له مراعاة النبي r لصفة المخاطب.

ب- الحرص على المال.

ومما ورد في ذلك ما رواه حكيم بن حزام t قال: سألت رسول الله r فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ، والْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِن الْيَدِ السُّفْلَى» قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا. فكان أبو بكر t يدعو حكيمًا إلى العطاء فيأبى أن يقبله منه، ثم إن عمر t دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل منه شيئًا، فقال عمر: إني أشهدكم يا معشر المسلمين على حكيم، أني أعرض عليه حقه من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه، فلم يرزأ حكيم أحدًا من الناس بعد رسول الله r حتى توفي[(٢)].

ويظهر من المخاطب في الحديث الرغبة في المال والحرص عليه، حيث سأل الرسول r ثلاث مرات، وفي كل مرة يعطيه، وهي صفة بشرية، لكن قد يبالغ فيها البعض حتى تملك عليه نفسه، وتنسيه ربه.

وقد جاء خطاب النبي r مراعيًا لصفة المخاطب في بناء الحديث بمفرداته وتراكيبه وصوره، وأشير هنا إلى ثلاثة أمور:

١- التشبيه في قول النبي r: «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ» حيث صور المال الذي يرغب فيه ويحرص عليه وهو فان غير باق بالنبات الأخضر الحلو، أو البقلة الخضراء الحلوة، قال الخطابي (٣٨٨هـ): ((العرب تسمى الشيء المشرق خَضِرًا، تشبيهًا له بالنبات الأخضر))[(٣)]، وقال أبو عبيد (٢٢٤ هـ): ((قوله: «خَضِرَة» يعني غضة حسنة، وكل

(١) أخرجه البخاري: (٦٣٥)، ومسلم: (٦٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: (١٤٧٢ و٢٧٥٠)، ومسلم: (١٠٣٥).

(٣) غريب الحديث، للخطابي: ٧١١/١.

شيء غض طري فهو خَضِر، وأصله من خضرة الشجر))[١]، واختيار وصفي الخضرة والحلاوة في المشبه به لأن الرغبة فيه والتلذذ به يكمل بهما، فالخضرة مشتهاة تسر العين وتبهج النفس ولا يمل منها، وتنبئ في البقلة مثلاً بأنها غضة ناعمة طرية تشتهى، والحلاوة مشتهاة أيضًا ويميل إليها الطبع. وإذا كان كل واحد بانفراده مرغوب مشتهى فكيف إذا اجتمعا، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قوله r : «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ» شبهه في الرغبة فيه، والميل إليه، وحرص النفوس عليه، بالفاكهة الخضراء الحلوة المستلذة، فإن الأخضر مرغوب فيه على انفراده، والحلو كذلك على انفراده، فاجتماعهما أشد))[٢] قال: ((وفيه إشارة إلى عدم بقائه؛ لأن الخضروات لا تبقى ولا تراد للبقاء، والله أعلم))[٣].

وفي التشبيه الآخر يصور النبي r الحريص على المال من غير أن يبارك له فيه فينتفع به بالذي يأكل ولا يشبع، واستعمال الأفعال المضارعة في المشبه به دلالة على استمرار الفعلين وتتابعهما.

ولعل الإخبار بأن المعيار في الانتفاع والبركة ليس بالكثرة أمر قد يقف عنده المخاطب ويستشكله، فجاءت هذه الصورة المحسوسة التي قد يراها المخاطب في حياته لتوضح له ذلك الأمر المعنوي الذي قد لا يدركه ولا يعقله، كما أن الصورة توحي له بتفاهة الدنيا وبشاعة الحرص عليها، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) من فوائد الحديث: ((ضرب المثل لما لا يعقله السامع من الأمثلة، لأن الغالب من الناس لا يعرف البركة إلا في الشيء الكثير، فبين بالمثال المذكور أن البركة هي خلق من خلق الله تعالى، وضرب لهم المثل بما يعهدون، فالآكل إنما يأكل ليشبع، فإذا أكل ولم يشبع كان عناء في حقه بغير فائدة، وكذلك المال ليست الفائدة في عينه، وإنما هي لما يتحصل به من المنافع، فإذا كثر عند المرء بغير تحصيل منفعة كان وجوده كالعدم))[٤].

---

(١) غريب الحديث، لأبي عبيد: ٢/٢٨١.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٧/١٢٦، وينظر: عمدة القاري: ٩/٥٢، وفتح الباري: ٣/٣٣٦، وفيض القدير: ٢/٥٤٦.

(٣) شرح صحيح مسلم: ٧/١٢٦، وينظر: عمدة القاري: ٩/٥٢، وفيض القدير: ٢/٥٤٦.

(٤) فتح الباري: ٣/٣٣٧، وينظر: عمدة القاري: ٩/٥٣.

٢- التقابل والتضاد الذي جاء عن طريقي المقابلة والطباق، وهي ظاهرة في النص: بين من يأخذ بسخاوة نفس ومن يأخذ بإشراف نفس، وبين البركة لمن أخذ بسخاوة وعدمها لمن أخذ بإشراف، وبين اليد العليا واليد السفلى «إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ، والْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِن الْيَدِ السُّفْلَى».

إن التقابل يزيد المعنى وضوحًا وبيانًا، ويعمق في النفس حسن الشيء أو قبحه، ويقدر حق قدره بذكر ضده، وقد قيل: وبضدها تتميز الأشياء، كما أنه لا يجعل للنفس مجالاً للوسوسة في إمكان مشاركة المقابل للمقابل والضد للضد ولو في بعض الأمر، فإن مجرد الإخبار عن حصول البركة لمن أخذ بسخاوة نفس لا ينفي البركة عمن يأخذ بإشراف نفس إلا فهمًا مظنونًا، وقد يكون للمستشرف توهم حصولها، لكن حين يأتي التنصيص على نفي البركة عن المستشرف في مقابل حصولها للسخي فلا مجال حينئذ لتوهمها، هذا فضلاً عما في نفي البركة للمستشرف من استبشاع لاستشراف المال الذي يجعل المرء يتطلع إليه عن حرص وطمع وتهالك حتى يكون له أسيرًا ذليلاً، في مقابل إثباتها للسخي الذي يحفظ عزة نفسه وماء وجهه فلا يطمح ولا يطمع، وقد قال عُروة بن أُذَينة القرشي:

لَقَدْ عَلِمْتُ ومَا الإِشْرَافُ مِنْ خُلُقِي ... أَنَّ الذي هُوَ رِزْقي سَوْفَ يَأْتِينِي(١)

وأما التقابل في قوله ﷺ: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِن الْيَدِ السُّفْلَى» فقد جاء في خاتمة النص ليثير في نفس المخاطب -وهو العربي- عزة النفس، وليقضي على ما قد يبقى فيها من الحرص والطمع. ومَن الذي لا يريد العلو، ويرغب السفل؟ أي عربي هذا الذي يطمع في الذلة ويتعفف عن العزة ؟! ولقد حصل للنبي ﷺ ما أراد من الموعظة والإرشاد. وسيأتي مزيد حديث بإذن الله عن التقابل في الفصل الأخير.

٣- لم يعظ النبي ﷺ السائل المخاطب من أول مرة سأله، بل أخر الخطاب حتى أعطاه وكرر له العطية بتكرر السؤال، وهذا محل حسن للخطاب البليغ من النبي البليغ ﷺ، ذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) من فوائد الحديث: ((أنه ينبغي للإمام أن لا يبين للطالب ما في

---

(١) البيت في الحماسة البصرية: ٢/٩٥٨، ومجالس ثعلب: ٢/٤٣٣، والتذكرة الحمدونية: ٣/١٢٢، وفي لسان العرب: ٩/١٧٢ (طمعي) بدلاً من (خلقي).

مسألته من المفسدة إلا بعد قضاء حاجته، لتقع موعظته له الموقع، لئلا يتخيل أن ذلك سبب لمنعه من حاجته))[١].

وكان هذا هو هدي النبي r في مثل هذا المقام أنه يرشد بعد أن يعطي أو بعد أن يعد بالعطاء، ومن ذلك أن ناسًا من الأنصار سألوا رسول الله r فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ، فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ، وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[٢]، وعن عمرو بن عوف الأنصاري t أن رسول الله r بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافت صلاة الصبح مع النبي r ، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله r حين رآهم، وقال: «أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ» قالوا: أجل، يا رسول الله. قال: «فَأَبْشِرُوا، وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ، لا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِي أَخشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[٣]، وعن قبيصة بن مخارق الهلالي t قال: تحملت حَمالة، فأتيت رسول الله r أسأله فيها، فقال: «أَقِمْ حَتَّى تَأْتِيَنَا الصَّدَقَةُ، فَنَأْمُرَ لَكَ بِهَا» ثم قال: «يَا قَبِيصَةُ، إِنَّ الْمَسْأَلَةَ لا تَحِلُّ إِلا لأَحَدِ ثَلاثَةٍ: رَجُلٍ تَحَمَّلَ حَمَالَةً فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَهَا ثُمَّ يُمْسِكُ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ جَائِحَةٌ اجْتَاحَتْ مَالَهُ فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ، وَرَجُلٌ أَصَابَتْهُ فَاقَةٌ حَتَّى يَقُومَ ثَلاثَةٌ مِنْ ذَوِي الْحِجَا مِنْ قَوْمِهِ: لَقَدْ أَصَابَتْ فُلانًا فَاقَةٌ، فَحَلَّتْ لَهُ الْمَسْأَلَةُ حَتَّى يُصِيبَ قِوَامًا مِنْ عَيْشٍ أَوْ قَالَ سِدَادًا مِنْ عَيْشٍ. فَمَا سِوَاهُنَّ مِن الْمَسْأَلَةِ يَا قَبِيصَةُ سُحْتًا، يَأْكُلُهَا صَاحِبُهَا سُحْتًا»[٤].

---

(١) فتح الباري: ٣/٣٣٧، وينظر: عمدة القاري: ٩/٥٣.

(٢) أخرجه البخاري: (١٤٦٩ و٦٤٧٠) ، ومسلم: (١٠٥٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٣١٥٨ و٤٠١٥ و٦٤٢٥) ، ومسلم: (٢٩٦١).

(٤) أخرجه مسلم: (١٠٤٤).

ويقابل موقف النبي r مع حكيم t موقفه r مع أمير المؤمنين عمر t حين كان يتعفف ولا يستشرف، قال عمر t : كان رسول الله r يعطيني العطاء، فأقول: أعطه أفقر إليه مني، حتى أعطاني مرة مالاً فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال النبي r : «خُذْهُ، فَتَمَوَّلْهُ، وَتَصَدَّقْ بِهِ، فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلا سَائِلٍ فَخُذْهُ، وَمَالا فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»[1].

ونلحظ الأوامر ظاهرة في خطاب النبي r لعمر t : «خُذْهُ، فَتَمَوَّلْهُ، وَتَصَدَّقْ بِهِ ...فَخُذْهُ» والأمر هنا للندب والإرشاد بإجماع العلماء[2]، ولعل مجيء الأمر بالأخذ والتمول مع كونه للندب ترغيبًا للأخذ، وإزالة لظن المخاطب كراهته مع وجود من هو أفقر منه، خاصة أن العطية ليست لأجل الفقر، ولكنها من الحقوق[3]، ويؤكد هذا المعنى مجيء الفاء الدالة على المباشرة في قوله: «فَتَمَوَّلْهُ ... فَخُذْهُ». وأمره بالتصدق فيه إشارة إلى أن مباشرته الصدقة بنفسه أعظم لأجره، ومجيء الأمر بالتصدق بعد التمول لما في النفوس من الشح، قال ابن بطال (٤٤٩هـ): ((وأما قول النبى r لعمر في العطاء: «خُذْهُ، فَتَمَوَّلْهُ، وَتَصَدَّقْ بِهِ» فإنما أراد r الأفضل والأعلى من الأجر؛ لأن عمر وإن كان مأجورًا بإيثاره بعطائه على نفسه من هو أفقر إليه منه، فإن أخذه للعطاء ومباشرته الصدقة بنفسه أعظم لأجره، وهذا يدل أن الصدقة بعد التمول أعظم أجرًا؛ لأن خلق الشح حينئذ مستول على النفوس))[4].

ويلحظ أن النبي r في موقف عمر t وجه الخطاب إليه مباشرة فأمره بالأخذ من غير إشراف وسؤال، ونهاه عنه إن كان كذلك، أما في موقف حكيم t فلا نجد هذه الصورة المباشرة من الخطاب، بل أخبره النبي r بخبر فيه تعريض بالنهي عن أخذ الاستشراف، ولعل ذلك راجع إلى اختلاف مقامي عمر وحكيم رضي الله عنهما، ومن ذلك أن النبي r خاطب حكيمًا وهو متلبس بالصفة المذمومة، وكأنه اعتادها، فأراد النبي r أن يترعها عنه، ولا يكفي لمثله مجرد النهي عنها، بل يحتاج إلى تبشيع لها وتنفير منها،

(١) أخرجه البخاري: (١٤٧٣ و٧١٦٤) ، ومسلم: (١٠٤٥).

(٢) ينظر: شرح صحيح البخاري لابن بطال: ٥٠٧/٣، وفتح الباري: ٣٣٨/٣.

(٣) ينظر: المرجعان السابقان.

(٤) شرح صحيح البخاري: ٢٤٠/٨.

فكان الخطاب والنهي بصورة الخبر على ما ذكر سابقًا. أما عمر t فلم يتصف بها، بل هو على خلافها، فيكفيه مجرد النهي، في مقابل الأمر، وحقه أن يكتفى بالأمر بالأخذ، لكن لما أمره النبي r بالأخذ بلا إشراف أو سؤال ناسب أن ينهاه عنه بهما، تنبيهًا إلى أن الأخذ غير مطلق بل هو مقيد بما ذكر، والله أعلم.

ت- الحزن.

ومما ورد حديث الهجرة عن أبي بكر الصديق t أنه نظر إلى أقدام المشركين فوقهم وهو ورسول الله r في الغار، فقال: لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا، فقال الرسول r: «اسْكُتْ. يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللهُ ثَالِثُهُمَا» وفي رواية: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»(١).

ولما رأى t سراقة بن مالك يتبعهم وهم في طريق الهجرة قال للرسول r: أُتينا يا رسول الله. فقال الرسول r: «لا تَحْزَنْ، إِنَّ اللهَ مَعَنَا» فدعا عليه، فارتطمت به فرسه إلى الأرض...(٢).

في هذين الموقفين من مواقف الهجرة إلى المدينة يظهر حزن أبي بكر t حينما اقترب العدو منهما، خشية على رسول الله r أن يظفر به المشركون فيقتلونه، ويقضون على دعوته، فخاطبه النبي r بما يراعي مقتضى حاله، إذ المقام مقام تهدئة للروع، وتطمين للقلب، ومن ذلك ما يلي:

١- نداء النبي r أبا بكر t في الموقف الأول بعد أن أمره بالسكوت لئلا يلفت المشركين إليهم، فقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ». والنداء هنا يظهر فيه التلطف بالمنادى وتأنيسه في حال اشتد فيها حزنه وخوفه من أن يصل المشركون إليهم فيظفرون بهم، وهذا الغرض من النداء سبق الإشارة إليه(٣)، وسيأتي حديث عنه بإذن الله في المبحث الثاني من الفصل الرابع.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٦٥٣ و٣٩٢٢) ، ومسلم: (٢٣٨١).
(٢) أخرجه البخاري: (٣٦١٥) ، ومسلم: (٢٠٠٩).
(٣) ينظر ص (٦١ و٧٥) من هذا البحث.

٢- إخباره r لأبي بكر t بأن «اللهُ ثَالِثُهُمَا» في قوله: «اثْنَانِ اللهُ ثَالِثُهُمَا» وفي الرواية الأخرى: «مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا؟» أي بالنصرة والإعانة والحفظ.

فإن كانت الرواية الأولى هي المحفوظة فإن صيغتها جملة خبريه، وإن كانت الثانية فصيغتها إنشائية استفهامية، لكنها متضمنة لخبر «اللهُ ثَالِثُهُمَا» وهو المقصود من إيراد الكلام، وإنما الاستفهام للتنبيه وإثارة النفس لما يقال(١). وليس الغرض من هذا الخبر هنا إفادة المخاطَب خبرًا لا يعلمه، أو إخباره بعلم المتكلم بحاله، فإن الخبر يساق لأغراض أخرى تستفاد من سياق الكلام وقرائن الأحوال(٢)؛ والذي يظهر أن الغرض في هذا المقام تأنيس المخاطب وتطمينه، فمن كان الله U معه فممن يخاف؟! ولهذا الغرض أيضًا جاء الخبر الآخر «إِنَّ اللهَ مَعَنَا» في قوله r في الموقف الآخر: «لا تَحْزَنْ، إِنَّ اللهَ مَعَنَا». وقد جاء هذا الخطاب: «لا تَحْزَنْ، إِنَّ اللهَ مَعَنَا» في الغار أيضًا، وقد أخبر الله U عن ذلك في كتابه فقال: ﴿إِلا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]. وجاء الإخبار عن الله U بلفظ الجلالة (الله) العلم المختص به ظاهرًا مذكورًا مقدمًا، أما كونه ظاهرًا مذكورًا فإن من أغراض ذكر المسند إليه عند البلاغيين إظهار تعظيمه(٣)، وأما التعريف بالعلمية فمن أغراضه الملائمة لهذا المقام إحضار العلم بعينه في ذهن السامع(٤)، وفي ذكر لفظ الجلالة علمًا بالاسم المختص به U تذكير لأبي بكر t بعظم الرب وإحاطته بخلقه ونصرته لعباده وأوليائه، واستغناء العباد به، وهذا مقام أحوج ما يكون العبد فيه إلى التذكير بذلك ليأنس بالله U، ويستغني به، ويتوكل عليه، فتطمئن نفسه، ويثبت جنانه، قال البقاعي في نظم قول الله U: ﴿لا تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾: ((علل نهيه لصاحبه بقوله معبرًا بالاسم الأعظم، مستحضرًا لجميع ما جمعه من الأسماء الحسنى والصفات العلى، التي تخضع

(١) ينظر: دلالات التراكيب: ٢٤٤، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٢٧.
(٢) ينظر: شروح التلخيص: ١/١٩٣، وعلم المعاني، لفيود: ١/٢٥.
(٣) ينظر: شروح التلخيص: ١/٢٨٤.
(٤) ينظر: المراجع السابقة: ١/٢٩٣.

دونها صلاب الرقاب، وتندك بعظمتها شوامخ الجبال الصلاب: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ أي الذي له الأمر كله ﴿مَعَنَا﴾ أي بالعون والنصرة، وهو كاف لكل مهم، قوي على دفع كل ملـم))[1]، ثم قال: ((كان t حقيقًا لحصول السكينة له عند سماع اسم الشريف الأعظم، الـدال علـى ذلك المقام، المذكر بتلك العظمة، التي يتلاشى عندها كل عظيم، ويتصاغر في جنبها كـل كبير، ولذلك ذُكِر هذا الاسم الأعظم، وقُدِّم))[2]، وتقديم لفظ الجلالة يحقق أكثر من غرض ذكره البلاغيون، فهم ذكروا أن من أغراض تقديم المسند إليه: إظهار تعظيمـه، وتعجيـل المسرة؛ لما فيه من التفاؤل، وتمكين الخبر في ذهن المخاَطب؛ لأن في المبتدأ مـا يشـوق إلى الخبر[3]، وهذه الأغراض متحققة في هذا الخبر، وسيأتي بإذن الله مزيد حديث عن أغـراض الخبر في الفصل الرابع، والله أعلم.

٣- أكد الخبر «إِنَّ اللهَ مَعَنَا» بـ(إِنَّ) مع أن المخاطب لا ينكر خبر رسـول الله r ، ولا يتردد فيه، فهو الصِدِّيق الذي صدقه حين كذبه الناس وآمن به حين أعرض عنـه الناس، ولكن حال الحزن والخوف قد تعرض للمرء وتشتد به حتى يظهر وكأنـه لا يـوقن بالخبر، فيحتاج في مثل هذا المقام إلى التأكيد تذكيرًا وتأنيسًا، أو لكون الخبر تقدمه نهي «لا تَحْزَنْ» يدعو إلى التساؤل عن سر النهي، فجاء الخطاب مؤكدًا تنزيلاً للمخاطـب منزلـة السائل، وذكر البلاغيون أن المخاطَب خالي الذهن كثيرًا ما ينزل منزلة السائل إذا قدم إليه ما يلوح بالخبر، فيستشرف له استشراف الطالب المتردد[4]، وسيأتي بإذن الله مزيد حديث عن خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر في الفصل الخامس.

٤- النهي عن الحزن في قوله: «لا تَحْزَنْ» لا يراد به مجرد طلب الكـف عـن الحزن، بل يراد منه مع ذلك تسكين روعه وتثبيت قلبه، قال أبو حيان (٧٤٥هـ): ((كان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله r ، فنهاه الرسول تسكينًا لقلبـه))[5]، وقـال

(١) نظم الدرر: ٣/٣٢٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ١/٣٩١ و٣٩٣ و٣٩٤.

(٤) ينظر: المراجع السابقة: ١/٢٠٩.

(٥) البحر المحيط: ٥/٥٣.

البقاعي في سر تقديم النهي على الخبر: ((بدأ بالنهي عن الحزن لأنه المقصود بالذات، ومابعده علة له))[1].

ث- الزهو والفخر.

رأى سعد بن أبي وقاص t أن له فضلاً على من دونه، فقال الرسول r: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ»[2].

ظن سعد بن أبي وقاص t أنه بشجاعته وقوته وماله لا يساوى في الغنيمة بمن دونه من الضعفاء والفقراء، فخاطبه الرسول r بخطاب فيه مراعاة لمقتضى حاله، فأعلى مِن شأن من يرى أنهم دونه، وأضعف ما في نفسه -مما يُظن- من الإعجاب والزهو، ومن ذلك:

١- جاء الخطاب بأسلوب القصر، بطريق النفي والاستثناء، و(هل) هنا فيها معنى النفي، أي: ما تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم، وقد ذُكر من المعاني التي يخرج إليها الاستفهام: النفي[3].

ومعنى ذلك مبين في رواية أخرى ليست في الصحيحين أن النبي r قال له: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا؛ بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلاتِهِمْ وَإِخْلاصِهِمْ»[4] قال ابن بطال (٤٤٩هـ): ((وتأويل ذلك أن عبادة الضعفاء ودعاءهم أشد إخلاصًا وأكثر خشوعًا؛ لخلاء قلوبهم من التعلق بزخرف الدنيا وزينتها، وصفاء ضمائرهم مما يقطعهم عن الله، فجعلوا همهم واحدًا، فزكت أعمالهم، وأجيب دعاؤهم))[5].

ومع أن الدعاء والعبادة بإخلاص لله U من أعظم أسباب النصر والرزق، إلا أن ثمة أسبابًا أخرى أمر بها الشرع وحث عليها، ومن ذلك ما في قول الله U: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآَخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا

---

(١) نظم الدرر: ٣/٣٢٠.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٨٩٦).

(٣) ينظر: علم المعاني، لفيود: ٢/١٣٩.

(٤) أخرج الرواية النسائي: كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف، برقم (٣١٧٨).

(٥) شرح صحيح البخاري: ٥/٩٠.

تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠] وإذا كان الأمر كذلك فلِم القصر؟

إن القصر هنا جاء مراعاة لمقتضى حال المخاطب، الذي صدر عنه ما يُظن أنه احتقار للمقصور عليه وغفلة عن أهميته، وأن النصر لا يكون إلا بالشجاعة وكثرة المال، فقوبل ذلك بقصر يؤكد خلاف ما يظنه المخاطب، فيعلي من شأن المقصور عليه، ويبين أن الأسباب الأخرى متوقفة عليه، وجاء هذا القصر على النوع المسمى بقصر القلب؛ لما فيه من قلب وتبديل لحكم المخاطب كله بغيره[1]، مبالغة في التأكيد على أهمية شأن الحكم الذي تضمنته جملة القصر، وحضًا للمخاطب على الاتصاف بالتواضع، قال ابن بطال (٤٤٩هـ): ((قال المهلب: إنما أراد ﷺ بهذا القول لسعد الحض على التواضع ونفى الكبر والزهو عن قلوب المؤمنين. ففيه من الفقه أن من زها على ما هو دونه أنه ينبغي أن يبين من فضله ما يحدث له في نفس المزهو مقدارًا أو فضلاً حتى لا يحتقر أحدًا من المسلمين؛ ألا ترى أن الرسول أبان من حال الضعفاء ما ليس لأهل القوة والغناء فأخبر أن بدعائهم وصلاتهم وصومهم ينصرون))[2].

٢- جاء القصر في رواية الصحيح بصيغة الاستفهام مرادًا به النفي؛ لما في الاستفهام من معنى التقرير، وكأن الأمر حقيقة متقررة لدى المخاطب، فيراد تذكيره بها وتأكيدها له، قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((قوله: إن له فضلاً، أي: شجاعة وكرمًا وسخاوة، فأجابه ﷺ بأن تلك الشجاعة ببركة ضعفاء المسلمين وتلك السخاوة أيضًا ببركتهم، وأبرزه في صورة الاستفهام ليدل على مزيد التقرير والتوبيخ))[3].

ويدل على ذلك مجيء القصر بـ(إنما) في الرواية الأخرى: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا؛ بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلاتِهِمْ وَإِخْلاصِهِمْ» لأن (إنما) تستعمل غالبًا ((فيما من شأنه أنه لا

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٢/١٨٠.

(٢) شرح صحيح البخاري: ٥/٩٠.

(٣) الكاشف: ٩/٣٣٠، وينظر: فيض القدير: ٦/٣٥٤، ومرقاة المفاتيح: ٩/٤٢٠.

ينكر))[1]، قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): ((اعلم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما يترل هذه المترلة))[2].

ولعل مما يدل على ذلك أيضًا مجيء الخطاب بصيغة الجمع «تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ» مع أن المخاطب فرد، فكأن هذا الأمر معروف لدى الجميع، وليس المخاطب وحده.

٣- لم يسند فعل النصر إلى المخاطب، بل أسند إلى غيره، فبني لما لم يسم فاعله، والفاعل هو الله U، كما جاء معلومًا في الرواية الأخرى، ولعل ذلك مقابل ما قد يكون في نفس المخاطب من تعظيم أسباب القوة البشرية، فأراد النبي r أن يذكر المخاطب بأن النصر لا يكون إلا من الله U، الذي يقدره ويحدد أسبابه وييسرها، وأن القوة البشرية مهما بلغت ما هي إلى سبب من أسباب النصر التي يريدها سبحانه وتعالى، والله أعلم.

ومن مواقف الفخر والزهو التي قابل النبي r فيها المخاطب بما يقتضي حاله ما رواه الشيخان عن أبي بكرة t أن الأقرع بن حابس التميمي جاء إلى رسول الله r فقال: إنما بايعك سُرَّاق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وجهينة. فقال رسول الله r: «أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ أَسْلَمُ وَغِفَارُ وَمُزَيْنَةُ وَجُهَيْنَةُ خَيْرًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي عَامِرٍ وَأَسَدٍ وَغَطَفَانَ، أَخَابُوا وَخَسِرُوا؟» ومد بها صوته، فقال: نعم. قال: «فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُمْ لأَخْيَرُ مِنْهُمْ» وفي رواية: «إِنَّهُمْ لَخَيْرٌ مِنْهُمْ»[3].

والأقرع بن حابس من سادات بني تميم، وكان النبي r يتألفه، حتى حسن إسلامه[4]، لكنه في هذا الموقف أظهر احتقارًا شديدًا لتلك القبائل التي سبقت إلى الإسلام، ووصفها وصفًا قبيحًا تنفر النفوس منه: سراق الحجيج، وجاء كلامه بصيغة القصر بـ(إنما) وكأن الوصف فيهم متقرر لا جدال فيه، وكأن الإسلام لم يدخل فيه إلا هؤلاء السراق، وفي المقابل فإن كلامه يتضمن الفخر بقومه وحسبه.

---

(١) مواهب الفتاح: ١/٢٥٥، وينظر: حاشية الدسوقي على مختصر التفتازاني: ٢/١٩٥.

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٣٠، وينظر: ٣٥١، وأساليب القصر في القرآن الكريم: ٢٢٠.

(٣) أخرجه البخاري: (٣٥١٦ و٦٦٣٥) مسلم: (٢٥٢٢).

(٤) ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ١/١٠٣، والإصابة في تمييز الصحابة: ١/٢٥٢.

لم يكن للرسول r أمام الطعن والفخر إلا أن يقلب الأمر على المخاطب، ليظهر له قيمة الإسلام في رفعة الأقوام الذين يبادرون إليه، أو ضَعَتِهم حين يتخلفون عنه.

ولما كان المخاطب بتلك الحال المذكورة من الفخر والطعن، التي جاءت بصيغة مؤكدة مقصورة لا تقبل الجدل والشك، كان مقتضى حاله أن يكون الرد عليه حاسمًا مؤكدًا بأقوى وسائل التأكيد، بحيث لا يقبل الجدال والشك والتردد، حسمًا لدعوى الجاهلية، وانتصارًا لأولئك الذين بادروا إلى الإسلام، فجاء الرد سريعًا بـ(الفاء) ومؤكدًا بالقسم، و(إنَّ)، واللام، وجاء التفضيل (أخير) -إن كانت هذه الرواية هي المحفوظة- بصيغة (أفعل) و لم يكن التفضيل بهذه اللفظة مشهورًا على هذه الصيغة، قال النووي: ((قوله r: «إِنَّهُمْ لأَخْيَرُ مِنْهُمْ» هكذا هو في جميع النسخ (لأخير) وهي لغة قليلة، تكررت في الأحاديث، وأهل العربية ينكرونها، ويقولون: الصواب (خَيْر) و(شَرّ) ولا يقال: (أَخْيَر) ولا (أَشَرّ)[1]. ولا يقبل إنكارهم، فهي لغة قليلة الاستعمال[2]))[3]، ولعل المقام يقتضي استعمالها فيه، لتؤدي مزيدًا من القوة صوتًا ودلالة، خاصة أن النبي r كان رافعًا صوته يمده، والله أعلم.

---

(١) ينظر: إصلاح المنطق: ٣٠٧، وأدب الكاتب: ٣٧٢، ودرة الغواص: ٤٧.

(٢) قال ابن الأنباري في الزاهر في معاني كلمات الناس: ١/٣٧٥: ((ولا يكادون يقولون: فلان أشر من فلان، وفلان أخير من فلان، وربما قالوا)). ونقل النحاس في إعراب القرآن: ٣/٤٧٣ عن الفراء قال: ((من العرب من يقول: أنا أخير منه، وأشر منه، وهذا هو الأصل، إلا أنه حذفت الألف منه لكثرة الاستعمال)).

ومن شواهد استعمال هذه اللغة قول الله تعالى: ﴿بل هو كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥] قرئ بفتح الشين والتعريف باللام: ﴿الكَذَّابُ الأَشَرُّ﴾ ، وكذلك قوله: ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَن الْكَذَّابُ الأَشِرُ﴾ [القمر: ٢٦] قرئ بفتح الشين. وينظر: إعراب القراءات الشواذ: ٢/٥٣٢، ومعجم القراءات القرآنية: ٥/١٢ و١٣.

وفي البخاري (٦٠٢٩) قال الرسول r: «إِنَّ مِنْ أَخْيَرِكُمْ أَحْسَنَكُمْ خُلُقًا». وفي صحيح مسلم (١٤٣٧) قال الرسول r: «إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ اللهِ مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا». وفيه (٢٠٥٧) قال الرسول r لأبي بكر: «بَلْ أَنْتَ أَبَرُّهُمْ وَأَخْيَرُهُمْ».وفي البخاري (٣٧٠٨) عن أبي هريرة t قال: وكان أخير الناس للمسكين جعفر بن أبي طالب. وفيه (٤٣٧٧) عن أبي رجاء العطاردي قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخير منه ألقيناه، وأخذنا الآخر. وفي رواية عند البخاري (٣٣٢٩) عن عبد الله بن سلام أن اليهود قالوا للنبي r لما سألهم عنه: هو أخيرنا وابن أخيرنا. وينظر: فتح الباري: ١٠/٣٩٧.

وقال رؤبة بن العجاج:بلالُ خيرُ الناسِ وابنُ الأَخْيَرِ. وينظر الرجز في: الزاهر: ١/٣٧٥.

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٦/٧٦، وينظر: فتح الباري: ٦/٥٤٥.

وسبق الرد استفهام يقرر فيه النبي r المخاطب أولاً بأسماء القبائل التي يطعن فيها أو يفخر بها ليبني على تقريره الرد[١]، وقَدَّم بني تميم لكونهم قوم المخاطب، والله أعلم.

ج- شدة الخُلُق.

وورد في ذلك حديث المسور بن مخرمة t أن النبي r أهديت له أقبية، فقسمها بين ناس من أصحابه، ولم يعط أباه منها شيئًا، فقال له أبوه: انطلق بنا إلى رسول الله r عسى أن يعطينا منها شيئًا، فقام أبوه على الباب، فتكلم، فعرف النبي r صوته، فخرج ومعه قَبَاء، وهو يريه محاسنه، ويقول: «خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، خَبَأْتُ هَذَا لَكَ» وفي رواية: «يَا أَبَا الْمِسْوَرِ، قَدْ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، يَا أَبَا الْمِسْوَرِ، قَدْ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ» فنظر إليه فقال: رضي مخرمة. قال الراوي: وكان في خلقه شدة[٢].

إن مراعاة مقتضى حال المخاطب ظاهرة في خطاب النبي r لهذا الصحابي الذي في خلقه شدة، ومن ذلك:

١- نداؤه بالكنية، وتكرار ذلك، تلطفًا وتأنيسًا، وكنية الصحابي t أبو صفوان، لكن النبي r كناه أبا المسور، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((دعاه أبا المسور، وكأنه على سبيل التأنيس له بذكر ولده الذي جاء صحبته، وإلا فكنيته في الأصل أبو صفوان))[٣].

٢- إخباره بالتخبية مكررًا، ومؤكدًا بـ(قد)، وتقديم فعلها، وإسناده مبنيًا للمعلوم إلى نفسه r، والإشارة إلى المخبأ، وخطاب الصحابي بكاف الخطاب، لعل ذلك كله ليؤنس مخرمة t ويسل ما قد ينشأ في نفسه من الظن بأن الرسول r قد نسيه أو أنه لم يرد إعطاءه، وحصل ما أراد النبي r فرضي مخرمة.

وقد تعاضد حسن فعل الرسول r مع بلاغة قوله حيث بادر النبي r فتلقى المخاطب قبل أن يسأله، وجعل يريه محاسن القباء إرضاءً له وإشعارًا بالاهتمام، قال ابن

---

(١) ينظر: من بلاغة الإنشاء غير الطلبي: ١٥٣.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٥٩٩ و٢٦٥٧ و٣١٢٧ و٦١٣٢) مسلم: (١٠٥٨). والقَبَاء: بفتح القاف، قال الحميدي في تفسير غريب ما في الصحيحين: ٢٧٦: ((هو الثوب المفرَج المضموم وسطه، وجمعه: أَقْبِيَة، واشتقاقه من القَبْو، وهو الجمع بالأصابع، يقال: قَبَاه يَقْبُوه قَبْوًا، ويقال: قد تَقَبَّيْت قَبَاء، أي: اتخذته)). وينظر: تاج العروس: ٢٦٦/٣٩.

(٣) فتح الباري: ٢٧٠/١٠.

بطال (٤٤٩هـ) في فوائد الحديث: ((وفيه ما كان عليه النبي من كريم الخلق ولين الكلمة، والتواضع، ألا ترى أنه استقبل مخرمة بأزرار القباء، وكناه مرتين، وألطف له في القول، وأراه إيثاره باعتنائه به في مغيبه؛ لقوله: «خَبَأْتُ هَذَا لَكَ» لما علم من شدة خلقه، فترضاه بذلك))[١]، والله أعلم.

ح- الغضب.

عن أبي هريرة t أن رجلاً قال للنبي r : أوصني. قال: «لا تَغْضَبْ» فردد مرارًا، قال: «لا تَغْضَبْ»[٢].

لم يزد النبي r في توصية الرجل على أن نهاه عن الغضب، قال العيني: ((إنما قال r : «لا تَغْضَبْ» لأنه r كان مكاشفًا بأوضاع الخلق، فيأمرهم بما هو الأولى بهم، ولعل الرجل كان غضوبًا فوصاه بتركه))[٣]، وربما دل على اتصافه بهذه الصفة تكرار الطلب.

ومما جاء في الغضب ما رواه سليمان بن صُرَد t أن رجلين استَبَّا عند النبي r ، فجعل أحدهما يغضب ويَحْمَرّ وجهه، وتنتفخ أوداجه، فنظر إليه النبي r فقال: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِن الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» فانطلق إليه رجل فأخبره بقول النبي r ، وقال له: تعوذ بالله من الشيطان، فقال: أتُرى بي بأس؟ أمجنون أنا؟ اذهب[٤].

ذكر بعض العلماء أن الرجل الذي غضب خليق بأن يكون كافرًا أو منافقًا، أو أنه من جفاة الأعراب[٥]، وليس في الرواية ما ينص على شيء من ذلك، لكن قال النووي (٦٧٦هـ): ((وأما قول هذا الرجل الذي اشتد غضبه: هل ترى بي من جنون؟ فهو كلام من لم يفقه في دين الله تعالى، ولم يتهذب بأنوار الشريعة المكرمة، وتوهم أن الاستعاذة مختصة بالمجنون، ولم يعلم أن الغضب من نزغات الشيطان، ولهذا يخرج به الإنسان عن اعتدال حاله،

---

(١) شرح صحيح البخاري: ٢٨٦/٥، وينظر: ١١٧/٧.

(٢) أخرجه البخاري: (٦١١٦).

(٣) عمدة القاري: ١٦٤/٢٢، وينظر: فتح الباري: ٥١٩/١٠.

(٤) أخرجه البخاري: (٣٢٨٢ و٦٠٤٨ و٦١١٥) ، ومسلم: (٢٦١٠).

(٥) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٦٣/١٦، وفتح الباري: ٤٦٧/١٠.

ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض، وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب))(١).

ولعل النبي r لما رأى من استيلاء الغضب على الرجل ما أخرجه عن حد الاعتدال لم يواجهه مباشرة بالخطاب، فيأمره أو ينهاه، خشية أن يرد طلبه، أو يتكلم بما يسوءه r ، فعدل إلى توجيه الخطاب إلى الجالسين معه تعريضًا له إن كان يسمع، أو يبلغه أحد من الجالسين بما يقوله r ، وقد حصل ما أراده النبي r من إبلاغه بما يقول، كما حصل ما خشي منه، والله أعلم.

خ- المرض.

من الصفات التي تعترض المرء وقد تؤثر في شخصيته وسلوكه: المرض، وغالبًا ما يصاب المريض بضعف النفس ووهن القلب، ويصاب مع ذلك بالهم والغم، حتى إن من المرضى من يبلغ به الوهن حدًا ينسى معه الرب U ، فلا يصبر ولا يرضى بما قَدَّر الله وقضى، ويتسخط، ويتعلق بالأسباب، وربما لجأ إلى أهل الشرك من السحرة والمشعوذين، وقد يصل به الحال إلى اليأس من الشفاء والقنوط من رحمة الله U .

وقد خاطب النبي r المرضى بما يظهر منه مراعاته لحالهم، فيؤنسهم ويرجو لهم الشفاء ويبعث فيهم التفاؤل، كما يخاطبهم بما يقيهم من الوقوع في أسر المرض وضعفه، ومن أمثلة ذلك ما روته عائشة رضي الله عنها أن رسول الله r كان إذا أَتى مريضًا أو أُتي به قال: «أَذْهِب الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا» وللحديث روايات أخرى منها: أن النبي r كان يعوذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهِب الْبَاسَ، اشْفِهِ، وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا» ومنها: أن النبي r كان يرقي بهذه الرقية: «أَذْهِبْ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ، لا كَاشِفَ لَهُ إلا أَنْتَ»(٢)، وقد يكون اختلاف الروايات من باب

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١٦/١٦٣.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٦٧٥ و٥٧٤٣ و٥٧٤٤) ، ومسلم: (٢١٩١).

التنوع والتعدد لا التعارض، لأن النبي r لم يكن قال هذا القول مرة واحدة، بل قاله كثيرًا كلما أَتى مريضًا أو أُتي به، فلعل كل هذه الألفاظ نقلت عنه، والله أعلم.

ومع اختلاف الروايات، وهو اختلاف يسير بين كثير منها، فإنها تجتمع على ما يلي مما يراعي مقتضى حال المخاطب، وسأوجز في ذكرها:

١- اختيار الدعاء، وفيه عدة فوائد للمريض، منها: تأنيسه باللفظ الرقيق، وبعث التفاؤل لديه بطلب الشفاء من الله U، خاصة أن الداعي هو الرسول r، وتذكيره بأن الشفاء من الله U لا من غيره.

٢- الدعاء بالربوبية «رَبَّ النَّاسِ»، لأن الشفاء من أفعال الربوبية، فلا يملكه غيره، كما قال إبراهيم u: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ $ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ $ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ $ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٧٧-٨٠] قال ابن القيم: ((في هذه الرقية توسل إلى الله بكمال ربوبيته، وكمال رحمته بالشفاء، وأنه وحده الشافي، وأنه لا شفاء إلا شفاؤه، فتضمنت التوسل إليه بتوحيده وإحسانه وربوبيته))(١).

٣- دعاء الرب U بصيغة الإفراد، لأن مقام الدعاء مقام توحيد لله U، وفيه تذكير أيضًا للمريض بالتوجه إلى الله U والتعلق به وحده، وأن ما يطلبه من أسباب الشفاء ليست مؤثرة بذاتها، وإنما بتقدير الله U ومشيئته.

٤- ويؤكد هذا المعنى مجيء القصر بطرق متنوعة، يؤكد بعضها بعضًا، فجاء في عامة الروايات بتعريف الطرفين في قوله: «أَنْتَ الشَّافِي» وبعده بطريق النفي والاستثناء في قوله: «لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ» وفي الرواية الأخرى جاء بتقديم ما حقه التأخير في قوله: «بِيَدِكَ الشِّفَاءُ» وبعده بطريق النفي والاستثناء في قوله: «لا كَاشِفَ لَهُ إِلا أَنْتَ» قال الطيبي (٧٤٣هـ) عند قوله r: «لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ»: ((خرج مخرج الحصر تأكيدًا لقوله:

(١) زاد المعاد: ١٨٨/٤، وينظر: فيض القدير: ٨٧/٥.

«أَنْتَ الشَّافِي» لأن خبر المبتدأ إذا عرف باللام أفاد الحصر؛ لأن تدبير الطبيب ونفع الدواء لا ينجع إلا بتقدير الله))[1].

٥- السجع مع الجناس في قوله: «أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ» وهذان الأسلوبان ظاهران في رقى النبي ﷺ وتعويذاته، ولعله لما يؤديانه من وظيفة صوتية تسهم في بعث الأنس في نفس المريض، ويلحظ في هذا الحديث تخفيف الهمز في (البأس) طلبًا للسجع، وجاء هنا بحرف السين، وقد سبق أن السين حرف صفير يخرج من بين طرف اللسان وفويق الثنايا السفلى، وهو من الحروف المهموسة، فخروجه سهل هادئ خاصة أنه يسبقه مد، والمريض أحوج ما يكون إلى الهدوء واللطف والرقة في التعامل والحديث.

٦- اختيار الألفاظ التي تتلاءم مع حال المريض، ومما يبرز معنى (الشفاء) ومادته، ففي خطاب موجز جدًا قد لا يتجاوز السطر نجد خمسة ألفاظ من مادة (ش ف ى): «اشْف- الشَّافِي- شِفَاء- شِفَاؤُك- شِفَاء» واللفظ السادس من معناها: «أَذْهِبِ الْبَاسَ» ولعل هذا التكثيف مقصود به إشعار المريض بالتفاؤل بالشفاء، في حال قد يكون بالمريض من الوهن والضعف ما قد يصل به إلى اليأس والقنوط.

٧- تقييد الشفاء في خاتمة الخطاب بقوله ﷺ: «لا يُغَادِرُ سَقَمًا» ومعنى لا يغادر: لا يترك، وجاء السقم نكرة، ورأى بعض شراح الحديث أن التنكير فيه للتقليل[2]، أي لا يترك الشفاء أثرًا من السقم مهما قل، والتقليل من الأغراض التي ذكرها البلاغيون للتنكير[3]، والأظهر أن التنكير للعموم، لمجيئه في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تفيد العموم كما هو معلوم[4]، وفي هذا التقييد مع التنكير تفاؤل بتمام الشفاء الذي لا يترك أي أثر من سقم بعده، وهذا من بلاغة حسن الختام، وقال القاري (١٠١٤هـ): ((فائدة التقييد

---

(١) الكاشف: ٢٩٢/٣، وينظر: مرقاة المفاتيح: ٣٧٣/٨، وفيض القدير: ٨٦/٥.

(٢) ينظر: المراجع السابقة.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٣٥٠/١.

(٤) ينظر: عروس الأفراح: ٣٥٤/١.

بذلك أنه قد يحصل الشفاء من ذلك المرض، فيخلفه مرض آخر يتولد منه مثلاً، فكان يدعو بالشفاء المطلق لا بمطلق الشفاء، والله أعلم))(١).

٨- الإيجاز في الخطاب، وقصر فقراته، والمريض يحتاج إلى مثل هذا الإيجاز، لأنه يضجر من طول الحديث، كما يضجر من طول الزيارة، مراعاة لحالته النفسية من جهة، وتركًا له ليقوم ببعض الحاجات التي قد يستحي من فعلها عند الزائر.

ويوصي العلماء الذي كتبوا في آداب عيادة المريض بخفة الجلسة وقلة السؤال، مع إظهار الرقة، والدعاء له بالعافية(٢)، وذكر بعضهم هذا الشعر:

لا تُضْجِرَنَّ عَلِيلاً فِي مُسَاءَلَةٍ ... إنَّ الْعِيَادَةَ يَوْمًا بَيْنَ يَوْمَيْنِ
بَلْ سَلْهُ عَنْ حَالِهِ وَادْعُ الإِلَهَ لَهُ ... وَاجْلِسْ بِقَدْرِ فُوَاقٍ بَيْنَ حَلْبَيْنِ
مَنْ زَارَ غِبًّا أَخًا دَامَتْ مَوَدَّتُهُ ... وَكَانَ ذَاكَ صَلاحًا لِلْخَلِيلَيْنِ(٣)

إن الحالة النفسية للمريض توجب الإيجاز في الكلام، والتحدث إليه بما يرق ويلطف مما يؤنس نفسه ويطمئن قلبه، ويبعث لديه التفاؤل بالشفاء، ويقربه من ربه U، ويبعد عنه اليأس والقنوط من رحمته، وهذا ما نجده في خطاب النبي r للمريض في هذا النص وفي غيره.

ويعضد النبي r القول المؤنس بالفعل المؤنس، فيمسح بيده المباركة الوجع تفاؤلاً بذهابه(٤)، والله أعلم.

---

(١) مرقاة المفاتيح: ٣٧٣/٨، وينظر: فيض القدير: ٨٦/٥.

(٢) ينظر: إحياء علوم الدين: ٣٢٤/٢، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب: ٨/٢.

(٣) ينظر: الآداب الشرعية: ٥٤٣/٣، وغذاء الألباب شرح منظومة الآداب: ١٠/٢.

(٤) ينظر: شرح صحيح البخاري: ٤٣٣/٩.

المبحث السادس: عدد المخاطبين.

من الطبعي أن يظهر لحال المخاطب من حيث كونه فردًا أو فوق ذلك تأثير في خطاب النبي r ، ومن ذلك مثلاً:

أ- اختيار الوسيلة التعبيرية، فالحوار مثلاً غالبًا ما يكون مع الفرد أو العدد القليل، أما الخطبة فلا تكون إلا للجمع الكثير، كما في خطب الجمعة والعيدين والاستسقاء والكسوف وقبل الغزو، وغيرهن، وقد يمزج النبي r مع الخطبة حوارًا، خاصة في أولها، تشويقًا لما يقول، أو تقريرًا لأمر ما بنى عليه خطبته، وهذا ظاهر في الخطبة التي خاطب بها الأنصار بعد غزوة حنين حينما وجدوا في أنفسهم على رسول الله r حين لم يقسم لهم من الغنائم، وقد سبقت بتمامها في عامل البيئة، ونجد الحوار أيضًا في خطبة يوم النحر في حجة الوداع، فعن أبي بكرة t قال: خطبنا النبي r يوم النحر، قال: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قلنا: بلى، قال: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ؟» قلنا: بلى، قال: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟» قلنا: بلى، قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا، إِلَى يَوْمِ تَلْقَوْنَ رَبَّكُمْ، أَلا هَلْ بَلَّغْتُ؟» قالوا: نعم، قال: «اللَّهُمَّ اشْهَدْ، فَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ، فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ، فَلا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا؛ يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(١).

وسيأتي بإذن الله U مزيد حديث عن الوسائل التعبيرية في الفصل الثاني.

ب- اختيار صيغة اللفظة إفرادًا أو تثنية أو جمعًا، ومن الطبعي أن يختار النبي r صيغ الإفراد في خطاب الواحد، والتثنية للاثنين، والجمع للجمع، وهذا هو الأصل، إلا أن النبي r قد يعدل عن ذلك، فيخاطب المفرد بصيغ التثنية أو الجمع، ومن ذلك مثلاً ما رواه

---

(١) أخرجه البخاري: (١٧٤١) ، ومسلم: (١٦٧٩).

أبو مسعود الأنصاري t قال: جاء رجل إلى رسول الله r ، فقال: إني لأتأخر عن صـــلاة الصبح من أجل فلان؛ مما يطيل بنا. فما رأيت النبي r غضب في موعظة قـــط أشـــد ممـــا غضب يومئذ، فقال: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ أَمَّ النَّاسَ فَلْيُوجِزْ، فَإِنَّ مِـــنْ وَرَائِهِ الْكَبِيرَ وَالضَّعِيفَ وَذَا الْحَاجَةِ»(١).

والإمام هو أُبي بن كعب t ، وورد التصريح باسمه في مسند أبي يعلى الموصلي مـــن رواية جابر t قال: كان أُبَيّ يصلي بأهل قباء، فاستفتح سورة طويلة، ودخل معه غلام من الأنصار في الصلاة، فلما سمعه قد استفتح بسورة طويلة انفتل الغلام من صلاته، وكان يريد أن يعالج ناضحًا له يسقي عليه، فلما انفتل أبي بن كعب قال له القوم: إن فلانًا انفتل مـــن الصلاة، فغضب أُبي، فأتى النبي r يشكو الغلام، فأتاه الغلام يشكوه إليه، فغضب النبي r حتى رئي الغضب في وجهه ثم قال: «إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَأَوْجِزُوا، فَإِنَّ خَلْفَكُـــمْ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَالْمَرِيضَ وَذَا الْحَاجَةِ»(٢).

ونلحظ هنا أن الخطاب جاء للجمع مع أن الإمام واحد، بخلاف قصة معاذ t التي سبق ذكرها في مبحث الديانة، فإن النبي r خاطبه وحده، قال ابن حجـــر (٨٥٢هـــــ): ((يحتمل أن تكون قصة أبي هذه بعد قصة معاذ، فلهذا أتى بصيغة الجمع، وفي قصة معـــاذ واجهه وحده بالخطاب))(٣)، وذكر عن ابن دقيق العيد أن غضبه r قد يكـــون لمخالفـــة الموعظة(٤).

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمر t أن رسول الله r أدرك عمر بن الخطـــاب t وهو يسير في ركب يحلف بأبيه، فقال: «أَلا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَـــائِكُمْ، مَـــنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري: (٩٠ و٧٠٤) ، ومسلم: (٤٦٦) وهذا لفظه.

(٢) مسند أبي يعلى الموصلي: ٣/٣٣٤، وحسن الرواية ابن حجر في فتح الباري: ٢/١٩٨.

(٣) فتح الباري: ٢/١٩٩.

(٤) المرجع السابق: ٢/١٩٨.

(٥) أخرجه البخاري: (٦٦٤٦) ، ومسلم: (١٦٤٦).

ولعل النبي r خاطب الجمع مع أن الحلف وقع من واحد منهم؛ لكونه غير مختص بعمر t ، بل هو من عادهم، ولو توجه الخطاب إلى عمر وحده لظن أن النهي له دون غيره، هذا إن لم يكن قد سبق نهي عن الحلف بغير الله U، أما إن كان قد سبق فلعل خطاب الجمع لعدم إنكارهم عليه، ورضاهم بذلك، وإذا كان الحلف بغير الله U صدر من عمر فغيره ممن معه من باب أولى، والله أعلم.

وسيأتي بإذن الله U مزيد بيان للعدول عن الإفراد أو الجمع إلى غيره في الفصل الثالث.

ت- ولعدد المخاطبين أثر في اختيار المضامين والمعاني التي يخاطبون بها، ولعل خطب المواسم شاهدة على ذلك، ومنها خطب الحج، فقد حج مع النبي r أكثر من مائة ألف حاج، جاؤوا من قبائل وآفاق شتى، وسيرجعون إلى أقوامهم، فلم يكن المقام في خطبه r في هذه المناسبة التي اجتمع فيها هذا العدد الكبير التفصيل في مسائل الدين، إلا ما يتعلق بما هم فيه من أعمال الحج، فالتفصيل له مقام آخر مع الرسل والولاة والدعاة الذين يرسلهم النبي r إلى الأقوام والبلدان، وأما هذا المقام فلتقرير الأصول العظيمة لدين الإسلام، فتكون الخطب موجزة يسهل حفظها، وتبليغها، ولقد كان النبي r يؤكد على الناس في هذه الخطب تبليغ ما سمعوه؛ لـ((تشيع دعوة الإسلام، وتبلغ الرسالة القريب والبعيد))(١)، ولنأخذ خطبة عرفة مثالاً على ذلك كما رواها مسلم عن جابر t قال في حديثه: أجاز رسول الله r حتى أتى عرفة، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة، فنزل بها حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِلت له، فأتى بطن الوادي، فخطب الناس، وقال: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ حَرَامٌ عَلَيْكُمْ، كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا. أَلا كُلُّ شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمَيَّ مَوْضُوعٌ، وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ، كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ. وَرِبَا الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَإِنَّهُ مَوْضُوعٌ كُلُّهُ. فَاتَّقُوا اللهَ فِي النِّسَاءِ، فَإِنَّكُمْ أَخَذْتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللهِ، وَاسْتَحْلَلْتُمْ فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللهِ، وَلَكُمْ عَلَيْهِنَّ أَنْ لا يُوطِئْنَ فُرُشَكُمْ أَحَدًا تَكْرَهُونَهُ، فَإِنْ فَعَلْنَ ذَلِكَ فَاضْرِبُوهُنَّ ضَرْبًا غَيْرَ مُبَرِّحٍ،

(١) شرح صحيح مسلم: ١٧٢/٨.

وَلَهُنَّ عَلَيْكُمْ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ. وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَـنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ اللهِ...»[1].

---

(١) أخرجه مسلم: (١٢١٨).

الفصل الثاني

اختيار الوسائل التعبيرية الملائمة لحال المخاطب

- المبحث الأول:الدعاء.
- المبحث الثاني: الخطابة.
- المبحث الثالث: الحوار.
- المبحث الرابع: الوصية.
- المبحث الخامس: الرسالة.
- المبحث السادس: القصة.
- المبحث السابع: إنشاد الشعر.
- المبحث الثامن: التعبير بغير الكلام.

مدخل:

لا تتوقف بلاغة البليغ في مراعاة مقتضى الحال عند اختيار الألفاظ والعبارات والمعاني والأساليب البلاغية؛ بل يتعدى ذلك إلى اختيار الوسائل والقوالب التي تحمل تلك الألفاظ والمعاني والأساليب، فقد يقتضي الحال وسيلة دون أخرى، أو أكثر من وسيلة، بحسب ما يقتضيه الحال ويستدعيه المقام.

ولذا تنوعت الوسائل التعبيرية عند العرب، ولم يقتصروا على وسيلة واحدة تؤدي المقصود في جميع الأحوال، فكان عندهم الشعر والخطابة والوصية والرسالة، وغيرها.

ومن أمثلة ذلك أنهم يخطبون في الصلح، قال الشاعر:

ومتى تَقُمْ عِنْدَ اجتماعِ عَشيرةٍ خُطَباؤنا بينَ العَشيرةِ يُفْصَلِ(١)

ويخطبون في وفادتهم على الأمراء والرؤساء، قال أَوس بن حَجَر في رثاء فَضَالة بن كَلَدة:

أبا دُلَيجَةَ مَن يُوصَى بأرمَلَةٍ أَم مَنْ لأشعثَ ذِي طِمرَين طِمْلالِ
أَم مَنْ يكون خطيبَ القَومِ إِنْ حَفَلوا لَدَى ملوكٍ أُولي كَيدٍ وأَقوالِ(٢)

وكانوا يستنزلون الكريم ويستعطفون اللئيم بالشعر، ويروى في ذلك قول عمر بن الخطاب t : من خير صناعات العرب الأبياتُ يقدمها الرجل بين يدي حاجته؛ يستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم(٣).

وكره بعض الأدباء والنقاد الشعر في الرسائل إلى الملوك والرؤساء، وربما كرهه بعضهم في الخطب، قال الجاحظ (٢٥٥هـ): ((وأكثر الخطباء لا يتمثَّلون في خطبهم الطِّوال بشيء من الشعر، ولا يكرهونه في الرسائل، إلا أن تكون إلى الخلفاء))(٤)، وقال في

(١) البيت منسوب لابن مُفرِّغ في البيان والتبيين: ٢/٢٧١، ومنسوب لربيعة بن مقروم في الأغاني: ٢٢/١٠٩، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٨/٤٣٦.
(٢) ينظر: ديوان أوس بن حجر: ١٠٣، والبيان والتبيين: ١/١٨٠.
(٣) ينظر: البيان والتبيين: ٢/٣٢١.
(٤) ينظر: المرجع السابق: ١/١١٨.

الرسالة العذراء: ((إن تضمين المثل السائر والبيت الغابر مما يزين كتابتك، ما لم تخاطب خليفة أو ملكًا جليل القدر، فإن اجتلاب الشعر في كتب الخلفاء والجِلّة الرؤساء عيب واستهجان للكتب، إلا أن يكون الكاتب هو القارض للشعر والصانع له، فإن ذلك مما يزيد في أبهته، ويدل على براعته))[1].

وقد سئل ابن المقفع (١٤٢هـ) عن البلاغة فقال: ((البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة؛ فمنها ما يكون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها ما يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل))[2].

وهذا يدل على أن من البلاغة مراعاة مقتضى الحال في اختيار فنون القول، وقد نقد بعض الباحثين عدم تعرض البلاغيين المتأخرين لمراعاة مقتضى الحال في فنون القول، فقال الدكتور فتحي فريد: ((من وجوه الضيق أيضًا في تفسير البلاغيين المتأخرين لموضوع البلاغة، وهو مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته، عدم اتساع ذلك التفسير واشتماله لوجوه القول المتنوعة من شعر وخطابة وحوار وكتابة وغيرها، مما أوحى بضيق البلاغة وعزلتها، وأوهم انحصارها في علومها الثلاثة، ولا سيما علم المعاني الذي يبحث في وجوه المطابقة لمقتضى الحال. ولما كانت البلاغة وثيقة التعلق بالأدب كما عرفت، والأدب متنوع الفنون، ولكل فن ما يناسبه من ألفاظ وأفكار وموضوعات، فكان ضروريًا أن يتضمن تفسير البلاغيين لموضوع البلاغة الأحوال التي تخص كل فن من فنون الأدب، وما يناسب تلك الأحوال))[3].

ويحسن التنبيه إلى أن فنون القول ووسائل التعبير قد تشترك في المقام الواحد في التعبير عن المراد، فقد يخطب الخطيب ويورد في خطبته شعرًا، أو وصية، أو غير ذلك. وسبق آنفًا قول عمر t في إيراد الشعر بين يدي الحاجة، وقول بعض النقاد في إيراد الشعر والأمثال في الخطب والرسائل.

---

(١) الرسالة العذراء: ٧-٨.

(٢) البيان والتبيين: ١/١١٦.

(٣) المدخل إلى دراسة البلاغة: ١١١.

وأما إذا تحدثنا عن بلاغة حديث رسول الله ﷺ فإننا نجد تنوعًا في الوسائل التعبيرية، ويأتي اختيار هذه الوسائل مراعاة لما يقتضيه الحال ويستدعيه المقام، فقد يقتضي المقام الدعاء كما في السجود والقنوت، وقد يقتضي الخُطبة كما في الجمعة والعيدين والنكاح، وقد يقتضي غير ذلك من الوسائل.

ولحال المخاطب أثر مهم في اختيار الوسيلة التعبيرية الملائمة له، وقد جاء في الصحيحين عدة وسائل روعي في اختيارها حال المخاطب.

ويمكن تصنيف هذه الوسائل إلى ما يلي:

أ- وسائل لفظية شفهية، وفيها الدعاء، والخطابة، والحوار، والوصية، والقصة، وإنشاد الشعر.

ب- وسائل لفظية كتابية: وفيها الرسالة.

ت- وسائل غير لفظية: وفيها الإشارات الصوتية، والسكوت، والإشارات والحركات الجسمية.

فهذه عشرة وسائل نظمتها في ثمانية مباحث، بدأتها أولاً بالوسائل اللفظية، ثم الوسائل غير اللفظية، وذكرت في الوسائل اللفظية أولاً ما هو من النثر، وختمتها بإنشاد الشعر، وبدأتها بالدعاء لشرفه، ثم ما رأيت أنه أوفر في كلام الرسول ﷺ، فجاء الترتيب بين المباحث هكذا: الدعاء، فالخطابة، فالوصية، فالحوار، فالرسالة، فالقصة، فإنشاد الشعر، فالتعبير بغير الكلام.

وأُذَكر بما قلته من تداخل الوسائل التعبيرية في النص الواحد للتعبير عن المقصود، فإن هذا موجود أيضًا في كلام الرسول ﷺ، فربما وجدت حوارًا بداية الخطبة، والخطبة تتضمن وصية ودعاء، والدعاء يتآزر مع الإشارة، والإشارة تصحب الحوار. وعلى هذا فقد يتكرر الاستشهاد بالحديث الواحد في أكثر من مبحث.

وليس من همي في هذا الفصل إلا أن أبين عناية النبي ﷺ بحال المخاطب في اختيار الوسائل التعبيرية، فأذكر من الشواهد ما يدل على ذلك من غير إرادة الاستقصاء والإحاطة بالشواهد، وبخصائص كل وسيلة أو الخصائص اللفظية والتركيبية في كل شاهد، وإن كنت لا أغفل عن ذلك، فأشير في بعض الشواهد إشارات تعزز القول، وأدع التفصيل لموضعه في الفصول الآتية، والله الموفق للصواب.

المبحث الأول: الدعاء.

- المقصود بالدعاء.

الدعاء هو طلب الفعل من الأعلى على سبيل التضرع(١)، والمراد به هنا طلب الشيء من الله U، وسؤاله إياه برغبة وتذلل وخضوع.

- صيغ الدعاء.

كثيرًا ما يأتي الدعاء بصيغة الأمر، وذكر البلاغيون أنه من المعاني التي تستعمل فيها صيغة الأمر لغير طلب الفعل على سبيل الاستعلاء تكليفًا وإلزامًا(٢).

وقد ورد الدعاء بصيغة الأمر كثيرًا في القرآن الكريم على ألسنة الأنبياء وغيرهم، وأحصى بعض الباحثين الآيات التي فيها دعاء بصيغة الأمر فوجدها ثنتين وستين آية، وقد تشتمل الآية الواحدة على أكثر من دعاء بهذه الصيغة(٣)، ((وسر التعبير بأسلوب الأمر في مقام الدعاء في الآيات الكريمة هو إظهار كمال الخضوع لله U، وبيان شدة الرغبة في تحقيق تلك الأفعال، حتى كأنها أمور مطلوبة من الله جل وعلا))(٤).

ويأتي الدعاء أيضًا بأسلوب النهي، إذا كان على وجه التضرع والتذلل، كقول الله U: ﴿رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ودعاء المؤمن بهذا الأسلوب يصور صدق رغبته وشدة حرصه على أن يحقق الله U له دعاءه ويجيب طلبه(٥).

وذكروا أيضًا أن الدعاء قد يأتي بصيغة الماضي تفاؤلاً بتحقق المدعو به، أو إظهارًا للرغبة في حصوله(٦).

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٣٢٠/٢، والتبيان، للطيبي: ٢٥٣/١.

(٢) المراجع السابقة.

(٣) بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني: ٨٥.

(٤) علم المعاني، لفيود: ٩٤/٢.

(٥) ينظر: شروح التلخيص: ٣٢٧/٢، وعلم المعاني، لفيود: ١٠٢/٢.

(٦) ينظر: شروح التلخيص: ٣٣٨/٢.

- مراعاة حال المخاطب في اختيار الدعاء في أحاديث الصحيحين.

ورد عن النبي r أدعية كثيرة، أذكر منها هنا ما ورد في الصحيحين مما اختاره النبي r مراعاة لحال المخاطب، وقد جاء اختيار الدعاء لعدة أغراض، ومن ذلك:

أ- التسلية والتأنيس.

قد يقع المرء في حال من المصيبة أو المرض أو غير ذلك، توجب التحدث إليه بما يرق ويلطف، مما يؤنس نفسه ويطمئن قلبه، ويقربه من ربه U، ويبعد عنه اليأس والقنوط من رحمته، ويبعث لديه التفاؤل بزوال الحال، وتغيرها إلى أحسن حال، ولعل من أحسن ما يؤدي ذلك الدعاء، وهذا ما نجده في خطاب النبي r للمريض إذا عاده أو أُتي به إليه، أو لمن أصيب بولده، أو غيرهم، ومن أمثلة ذلك:

١- عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله r كان إذا أَتى مريضًا أو أُتي به قال: «أَذْهِب الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا» وللحديث روايات أخرى منها: أن النبي r كان يعوذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ النَّاسِ، أَذْهِب الْبَاسَ، اشْفِهِ، وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا» ومنها: أن النبي r كان يرقي بهذه الرقية: «أَذْهِبْ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ، لا كَاشِفَ لَهُ إِلا أَنْتَ» ومنها: «امْسَح الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، بِيَدِكَ الشِّفَاءُ، لا كَاشِفَ لَهُ إِلاّ أَنْتَ»[(١)].

وقد سبق تناول هذا الدعاء بالتحليل في المبحث الخامس من الفصل الأول.

٢- عن ابن عباس t أن النبي r كان إذا دخل على مريض يعوده قال: «لا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» وروى أنه دخل على أعرابي يعوده فقال له: «لا بَأْسَ عَلَيْكَ،

(١) أخرجه البخاري: (٥٦٧٥ و٥٧٤٣ و٥٧٤٤) ، ومسلم: (٢١٩١).

طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ» قال الأعرابي: طهور! بل هي حمى تفور، على شيخ كبير، تزيره القبور، قال النبي r : «فَنَعَمْ إِذًا»[1].

والنبي r حينما يقول للمريض: «لا بَأْسَ عَلَيك...» فإنما يريد أن يهون عليه ما يجد في نفسه من ألم المرض، قال ابن بطال (٤٤٩هـ): ((وأما قوله للأعرابي «لا بَأْسَ عَلَيْكَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ» فإنما أراد تأنيسه من مرضه، بأن الله يكفر ذنوبه، ويقيله، ويؤخر وفاته))[2].

وقد جاءت صياغة الخطاب في هذا الحديث بأساليب بلاغية تحقق هذا الغرض، ومن ذلك أن قول النبي r جاء في صورة الخبر، لكن ذكر بعض أهل العلم أنه يراد به الدعاء، قال ابن بطال (٤٤٩هـ): ((قوله r : «فَنَعَمْ إِذًا» دليل على أن قوله: «لا بَأْسَ عَلَيك» أنه على طريق الرجاء، لا على طريق الخبر عن الغيب))[3]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «إِنْ شَاءَ اللهُ» يدل على أن قوله: «طَهُورٌ» دعاء لا خبر))[4]، وقد ذكر البلاغيون أن الخبر يقع موقع الإنشاء، لعدة أغراض، منها التفاؤل[5]، ولعل مجيء الدعاء في صورة الخبر في هذا الحديث لإطماع المريض، وبعث التفاؤل لديه بحصول المدعو به، والله أعلم.

ومن الأساليب التي تحقق الغرض مجيء النكرة (بأس) في سياق النفي، لتفيد العموم[6]، وهذا فيه تفاؤل بزوال كل بأس به. وتقديم نفي البأس فيه إشعار للمريض

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٦١٦ و٧٤٧٠). وقوله: «فَنَعَمْ إِذًا» أي: هو حاصل ما تقول، كما في رواية أخرى في غير الصحيحين: «أَمَّا إِذَا أَبَيْتَ فَهِيَ كَمَا تَقُولُ، وَقَضَاءُ اللهِ كَائِنٌ» فما أمسى من الغد إلا ميتًا. وينظر: فتح الباري: ١٠/١١٩، وعمدة القاري: ١٦/١٤٩.

(٢) شرح صحيح البخاري: ١٠/٤٨٤.

(٣) المرجع السابق: ١٠/٤٨٥.

(٤) فتح الباري: ١٠/١١٩.

(٥) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٣٣٨.

(٦) ينظر في إفادة النكرة العموم: عروس الأفراح: ١/٣٥٤.

بالتفاؤل بزوال المرض، ومن أغراض التقديم التي ذكرها البلاغيون تعجيل المسرة للمخاطَب(١).

٣- عن سعد بن أبي وقاص t أنه مرض بمكة في حجة الوداع مرضًا أشفى منه على الموت، فعاده النبي r وهو يبكي، فقال: «مَا يُبْكِيكَ؟» قال: قد خشيت أن أموت بالأرض التي هاجرت منها كما مات سعد بن خولة، فقال النبي r : «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا» ثلاث مرار، وفي رواية أنه r وضع يده على جبهته، ثم مسح يده على وجهه وبطنه وقال: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، وَأَتْمِمْ لَهُ هِجْرَتَهُ» قال سعد t : فما زلت أجد برده على كبدي - فيما يُخال إلي- حتى الساعة، ثم قال سعد t : يا رسول الله، أأُخَلَّف بعد أصحابي؟ قال r : «إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ فَتَعْمَلَ عَمَلاً تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ إِلاَّ ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً، وَلَعَلَّكَ تُخَلَّفُ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ. اللَّهُمَّ أَمْضِ لأَصْحَابِي هِجْرَتَهُمْ، وَلا تَرُدَّهُمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ. لَكِنِ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ» يرثي له رسول الله r أن مات بمكة(٢).

لم يكن الذي أهم سعدًا t المرض وحده وإن كان شديدًا عليه، ولكن أن يموت من هذا المرض في البلدة التي هاجر منها، وقد كان النبي r يكره أن يموت بالأرض التي هاجر منها(٣). ولذا اجتمع في سعد حالتان؛ حالة المرض، وحالة الخشية من الموت في مكة، فجمع له النبي r في دعائه ما يؤنسه في هذين الأمرين، ويسليه، ويبعث له التفاؤل والطمأنينة، في صياغة بلاغية عالية، ومن ذلك أنه دعا له بالشفاء ثلاث مرات، ويكفي أن يدعو له النبي r مرة واحدة ليجد سعد t في نفسه الطمأنينة والتفاؤل ورجاء الشفاء، لكن التكرار فيه تعميق وتأكيد لذلك(٤)، ومع أن من عادة النبي r أنه إذا دعا دعا ثلاثًا(٥)،

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٣٩١/١ و٣٩٣.

(٢) أخرجه البخاري: (١٢٩٥ و٣٩٣٦ و٥٦٥٩) ، ومسلم: (١٦٢٨). وقوله r : «لَكِنِ الْبَائِسُ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ» هو سعد بن خولة t من المهاجرين، وتوفي بمكة في حجة الوداع، ولذا كان قول النبي r رثاء له أن مات في الأرض التي هاجر منها، وإنما رثاه النبي r لقول سعد بن أبي وقاص في الحديث: قد خشيت أن أموت بالأرض التي هاجرت منها كما مات سعد بن خولة. وينظر: فتح الباري: ٣٦٤/٥.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٧٤٢) ، ومسلم: (١٨٢٦).

(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٢١٨/٣.

ثلاثًا[(١)]، إلا أن تكرار الدعاء هنا قد يكون لشدة ما وجده سعد t في نفسه من خشية الموت في مكة، فأراد النبي r أن يقابل ذلك بتكرار الدعاء، والله أعلم.

ومن ذلك اختيار لفظة (اشف) من (الشفاء) دون غيرها من الألفاظ التي تفيد زوال المرض؛ لكونها أدل على المقصود، وتبعث في نفس المريض الإيناس والتفاؤل منذ أن يسمعها، ولذلك قدمها في الجملة، وسبق قريبًا أن من أغراض التقديم إظهار المسرة.

ومع أن في هذا الجزء من الدعاء «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا» رجاء الحياة ومفارقة الأرض التي هاجر منها، إلا أنه لا يزيل حصول ما خشي منه بغير المرض، فكمل ذلك بأن دعا له أن يتمم الله هجرته، وهو ما يريده المخاطَب حين خشي الموت من هذا المرض في مكة، وهذا الأسلوب يسمى عند البلاغيين بالاحتراس، وهو نوع من الإطناب المحمود، حيث يأتي المتكلم بما يدفع توهم خلاف ما يقصده[(٢)]. ثم دخل سعد t في عموم الدعوة للصحابة y بأن يمضي الله هجرتهم ولا يردهم على أعقابهم، فكانت الدعوة لسعد أربع مرات، ثلاث خص بهن، وواحدة مع عموم الصحابة y.

ويلحظ الإيجاز في الدعاء بشفاء سعد t ؛ لأن المقصود الأهم للمخاطَب من الدعاء إتمام الهجرة، لا الشفاء وحده، فكان الانتقال من الدعاء بالشفاء إلى الدعاء بإتمام الهجرة سريعًا، وهذا مقام حسن من مقامات الإيجاز يقدره البليغ بفطنته ومعرفته بحال من يخاطبه ومقام خطابه، وسيأتي مزيد حديث عن الإيجاز في الفصل الرابع بإذن الله U، والله أعلم.

وفي جملة الدعاء الثانية قدم الجار والمجرور «لَهُ» على المفعول به لإظهار العناية بالمدعو له والاهتمام به، مع ما في تقييد الفعل «أَتْمِمْ» بالجار والمجرور من تأكيد الإتمام، وإشعار المخاطب باختصاص الإتمام به، وهذا مما يدعو إلى مزيد من التفاؤل بتحقق الشفاء، والله أعلم[(٣)].

ويلحظ أن النبي r جمع بين الفعل المؤنس والدعاء المؤنس، حيث وضع r يده على جبهة سعد t ، ثم مسح بيده r على وجهه وبطنه، وهذه حركة تعمق في نفس سعد t

---

(١) أخرجه مسلم: (١٧٩٤) عن ابن مسعود t .

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٣/٢٣١.

(٣) ينظر: المراجع السابقة: ٢/١٦١.

التفاؤل بزوال المرض، فسبحان من أعطى النبي r التأثير البليغ في التعبير بالقول وبالحركة، والله أعلم.

٤- عن أنس بن مالك t قال: كان ابن لأبي طلحة يشتكي، فخرج أبو طلحة، فقبض الصبي، فلما رجع أبو طلحة قال: ما فعل ابني؟ قالت أم سليم: هو أسكن مما كـان، فقربت إليه العشاء، فتعشى، ثم أصاب منها، فلما فرغ قالت: واروا الصبي، فلما أصبح أبو طلحة أتى رسول الله r فأخبره، فقال: «أَعْرَسْتُم اللَّيْلَةَ؟!» قال: نعم، قال: «اللَّهُمَّ بَـارِكْ لَهُمَا» وفي رواية: «بَارَكَ اللهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا» وفي رواية قال: «لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُبَـارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا»(١).

وورد في رواية مسلم أن أبا طلحة t غضب، وقال لأم سليم رضـي الله عنـها: تركتني حتى تلطخت، ثم أخبرتني بابني. فانطلق t إلى النبي r حزينًا على ولده، ومغضـبًا من زوجه، فما كان من النبي r -وهو خبير بنفوس أصحابه y وما يصـلح لهـا- إلا أن قابله بهدوء النفس، واستفهم منه استفهامًا يفيض لطفًا وتعجبًا من حسـن صـنيع زوجـه وتجلدها وحسن تبعلها له، وسرورًا بحسن رضاها بقضاء الله U «أَعْرَسْـتُم اللَّيْلَـةَ؟!»(٢)، وسبق الإشارة مرارًا إلى خروج الاستفهام إلى معاني أخرى سيأتي الحديث عنها بإذن الله في الفصل الرابع، ثم يتوصل النبي r بهذا السؤال إلى الدعاء لهما بالولد، وهو دعاء يخفف مـا في النفس من ألم، ويسليها عما فيها من مصاب، خاصة أنه دعاء بالبركة، وليس بمجرد رزق الولد، وفي الرواية الأخرى جاء الدعاء في صورة خبر فعله ماض، فإن كان هو المحفوظ فهو أقوى في الدلالة على حصول الأمر كما سبق ذكره مرارًا، وسيأتي مزيد حديث في الفصـل الثالث بإذن الله، وفي الرواية الثالثة جاء الحديث بصيغة الترجي، فقد يكون النبي r جمع بين جملتي الدعاء والرجاء، فرويتا منفصلتين، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «لَعَـلَّ اللهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا»... ووقع في رواية أنس بن سيرين: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا» ولا تعارض بينهما، فيجمع بأنه دعا بذلك، ورجا إجابة دعائه. ولم تختلف الرواة عن ثابت وكذا عـن

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣٠١ و٥٤٧٠) ، ومسلم: (٢١٤٤).

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٢٤/١٤.

حميد في أنه قال: «بَارَكَ اللهُ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا» وعرف من رواية أنس بن سيرين أن المـــراد الدعاء، وإن كان لفظه لفظ الخبر))[1]، والله أعلم.

٥- عن أنس t أن أمه أم سليم رضي الله عنها طلبت من النبي r أن يدعو له، قال أنس: فما ترك خير دنيا ولا آخرة إلا دعا لي به، قال: «اللَّهُمَّ ارْزُقْهُ مَالاً، وَوَلَدًا، وَبَارِكْ لَهُ فِيهِ» وفي رواية قال: فدعا لي بكل خير، وكان في آخر ما دعا لي به أن قال: «اللَّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ، وَوَلَدَهُ، وَبَارِكْ لَهُ فِيْه» وفي رواية: «وَبَارِكْ لَهُ فِيمَا أَعْطَيْتَهُ»[2]. وقد سبق ذكر الحديث في المبحث الرابع من الفصل الأول، والدعاء هنا ليس للأم، ولكن فيه تعريضًا بالأم تأنيسًا لها وتلطفًا معها، ومما يدل على ذلك اختيار الدعاء بالكثرة لا بمجرد الرزق، وأن تكون الكثرة في المال والولد، وهذا فيه تطييب لقلب الأم التي يسرها أن يكون ابنها غنيًا كثير الولد، ولذا قدمت حاجة ابنها على نفسها، والله أعلم.

ولعل من التعريض بالدعاء لغير المخاطب تأنيسًا للمخاطب وتألفًا له الدعاء لصاحب الطفيل بن عمرو الدوسي t عنده كما في حديث جابر بن عبد الله t أن الطفيل أتـــى النبي r فقال: يا رسول الله، هل لك في حصن حصين ومنعة؟ -حصن كـــان لـــدوس في الجاهلية- فأبى ذلك النبي r للذي ذخر الله للأنصار، فلما هاجر النبي r إلى المدينة هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه، فاجتووا المدينة، فمرض، فجزع، فأخـــذ مشاقص له، فقطع بها براجمه، فشخبت يداه حتى مات، فرآه الطفيل بن عمرو في منامـــه؛ فرآه وهيئته حسنة، ورآه مغطيًا يديه، فقال له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه r ، فقال: ما لي أراك مغطيًا يديك؟ قال: قيل لي: لن نصلح منك ما أفسدت، فقصـــها الطفيل على رسول الله r ، فقال رسول الله r : «اللَّهُمَّ وَلِيَدَيْهِ فَاغْفِرْ»[3]، وكذلك الدعاء

---

(١) فتح الباري: ٣/١٧١. ويقصد بـــ(ثابت وحميد وأنس بن سيرين) الرواة عن أنس بن مالك t .

(٢) أخرجه البخاري: (١٩٨٢ و٦٣٣٤) ، ومسلم: (٦٦٠ و٢٤٨٠).

(٣) أخرجه مسلم: (١١٦) ، قال النووي في معاني الحديث من شرح صحيح مسلم: ٢/١٣١: ((قولـــه: فـــاجتووا المدينة... معناه كرهوا المقام بها، لضجر ونوع من سقم، قال أبو عبيد والجوهري وغيرهما: اجتويت البلد؛ إذا كرهت المقام به وإن كنت في نعمة... وقوله: فأخذ مشاقص، هي بفتح الميم وبالشين المعجمة وبالقاف والصاد المهملة، وهـــي جمع مشقص بكسر الميم وفتح القاف، قال الخليل وابن فارس وغيرهما: هو سهم فيه نصل عريض، وقال آخرون: سهم طويل ليس بالعريض، وقال الجوهري: المشقص ما طال وعرض، وهذا هو الظاهر هنا؛ لقوله: قطع بهـــا براجمـــه، ولا

لأم أبي هريرة t في الحديث الذي رواه t قال: كنت أدعو أمـي إلى الإسـلام وهـي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله r ما أكره، فأتيت رسول الله r وأنا أبكي، قلت: يا رسول الله، إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى علي، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة، فقال رسول الله r : «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ» فخرجت مستبشرًا بدعوة نبي الله r ، فلما جئت فصرت إلى الباب، فإذا هـو مُجـاف، فسمعت أمي خَشْف قدمي، فقالت: مكانك، يا أبا هريرة، وسمعـت خضخضـة المـاء، فاغتسلت، ولبست درعها، وعجلت عن خمارها، ففتحت الباب، ثم قالت: يا أبا هريـرة، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، قال: فرجعت إلى رسـول الله r فأتيته وأنا أبكي من الفرح، فقلت: يا رسول الله، أبشر، قد استجاب الله دعوتك، وهدى أم أبي هريرة. فحمد الله وأثنى عليه وقال خيرًا. قلت: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين، ويحببهم إلينا، فقال رسول الله r : «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هَذَا وَأُمَّهُ إِلَـى عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ، وَحَبِّبْ إِلَيْهِمْ الْمُؤْمِنِينَ» فما خلق مؤمن يسمع بي ولا يراني إلا أحبني[1].

ب- المكافأة والشكر.

من حسن خلق النبي r أن يكافئ من صنع معروفًا له أو للمسلمين، وهذا منـه r تحقيق لما دعا إليه في قوله r : «مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ»[2].

ومما ورد فيه الدعاء مكافأة وشكرًا ما يلي:

يحصل ذلك إلا بالعريض، وأما البراجم بفتح الباء الموحدة وبالجيم فهي مفاصل الأصابع، واحدها: برجمـة، وقولـه: فشخبت يداه، هو بفتح الشين والخاء المعجمتين، أي: سال دمهما، وقيل: سال بقوة)).

(١) أخرجه مسلم: (٢٤٩١).

(٢) أخرجه أحمد: ٢/٦٨ و٩٥، وأبو داود: كتاب الزكاة، باب عطية من سأل بالله، برقم: (١٦٧٢) ، والنسـائي: كتاب الزكاة، باب من سأل بالله، برقم (٢٥٦٧) ، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، ووافقهما الألبـاني، وينظـر: سلسلة الأحاديث الصحيحة: ١/٢٥٣، برقم (٢٥٤).

١- عن ابن عباس t أن النبي r دخل الخلاء، فوضعت له وَضوءًا، فقال: «مَنْ وَضَعَ هَذَا» فأُخْبِر، فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»[(١)] وفي رواية قال ابن عباس: ضمني رسول الله r ، وقال: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ»[(٢)]، وفي رواية: ضمني رسول الله r إلى صدره، وقال: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْحِكْمَةَ»[(٣)]. وتعدد الروايات يحتمل أن يكون النبي r دعا بهذه الدعوات جميعًا، ويحتمل تعدد الواقعة، وكلا الاحتمالين تؤيده بعض النصوص المذكورة في غير الصحيحين، كما ذكر بعض الشراح[(٤)]، والله أعلم.

وقد سبق القول في هذا الحديث في المبحث الرابع من الفصل الأول.

لكن مما ينبه إليه هنا أن المدعو له ما زال في مرحلة الطفولة، ولعل اختيار الدعاء لما فيه من تعبير عاطفي تجاه المخاطب، والطفل بحاجة إلى التعامل العاطفي معه كما أشير إليه سابقًا في المبحث الرابع من الفصل الأول، ويؤكد هذا أن النبي r ضمه إلى صدره، وهذا من تعاضد القول والفعل في الخطاب المؤثر والتعبير البليغ.

والنبي r هنا دعا بما يحرص عليه المخاطَب، وإذا وافق أن يكون الدعاء بما يحرص عليه المخاطَب كان ذلك أحب إليه، فقد كان ابن عباس t منذ صغره حريصًا على التعلم، والأخذ عن النبي r ، حتى إنه يبيت عند خالته أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها لينظر إلى صلاته r ، ولعل هذه الليلة التي وافق فيها دعاء النبي r بالتفقيه والتعليم هي التي حرص فيها على رؤية صلاته r[(٥)]، فكان المدعو به موافقًا للحال الظاهرة، وهذا من حسن اختيار المفردات التي تلائم حال المخاطَب، وسيأتي الحديث عنها بإذن الله U، وقدمت هذه الألفاظ تعجيلاً بالمسرة للمخاطَب، كما هو أحد أغراض التقديم المشار إليه قريبًا، وسيأتي الحديث عنه بإذن الله في مبحث التقديم والتأخير من الفصل الرابع، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) عن ابن المنير أنه قال: ((مناسبة الدعاء لابن عباس بالتفقه على وضعه الماء من

(١) أخرجه البخاري: (١٤٣) ، ومسلم: (٢٤٧٧).

(٢) أخرجه البخاري: (٧٥).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٧٥٦).

(٤) ينظر: فتح الباري: ١/١٧٠.

(٥) ينظر: المرجع السابق.

جهة أنه تردد بين ثلاثة أمور؛ إما أن يدخل إليه بالماء إلى الخلاء، أو يضعه على الباب ليتناوله من قرب، أو لا يفعل شيئًا، فرأى الثاني أوفق؛ لأن في الأول تعرضًا للاطلاع، والثالث يستدعي مشقة في طلب الماء، والثاني أسهلها، ففعله يدل على ذكائه، فناسب أن يدعى له بالتفقه في الدين، ليحصل به النفع، وكذا كان))[1]، والله أعلم.

٢- عن عبد الله بن أبي أوفى t قال: كان رسول الله r إذا أتاه قوم بصدقتهم قال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ فُلانٍ» فأتاه أبي بصدقته فقال: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى آلِ أَبِي أَوْفَى»[2].

ودعاء النبي r بالصلاة عليهم استجابة لقول الله U: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٣]، ودعاء النبي r للمتصدق فيه طمأنينة للنفس، وثقة بقبول الله U للصدقة، قال البغوي (٥١٦ هـ) عند قوله U: ﴿سَكَنٌ لَهُمْ﴾: ((أي: إن دعاءك رحمة لهم. قاله ابن عباس. وقيل: طمأنينة لهم وسكون لهم أن الله U قد قبل منهم. وقال أبو عبيدة: تثبيت لقلوبهم))[3]، وعلل الطيبي (٧٤٣هـ) الدعاء ((ليكون جبرانًا لما عسى أن يضطرب ويقلق من إخراج شقيق روحه، فيطمئن به)) واستدل بالآية[4]، وقال السعدي (١٣٧٦هـ) في الآية: ((ويؤخذ من المعنى، أنه ينبغي إدخال السرور على المؤمن بالكلام اللين، والدعاء له، ونحو ذلك مما يكون فيه طمأنينة، وسكون لقلبه. وأنه ينبغي تنشيط من أنفق نفقة وعمل عملاً صالحًا بالدعاء له والثناء، ونحو ذلك))[5].

لهذه المعاني التي تبعث الطمأنينة والسكون قُدِّم المدعو به (صَلِّ) كما سبق مرارًا أن من أغراض التقديم تعجيل المسرة.

---

(١) المرجع السابق: ١/٢٤٤-٢٤٥، وينظر: عمدة القاري: ٢/٢٧٤.
(٢) أخرجه البخاري: (١٤٩٧)، ومسلم: (١٠٧٨).
(٣) معالم التنزيل: ٤/٩١.
(٤) الكاشف عن حقائق السنن: ٤/١٣.
(٥) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٣٥١.

وقوله r : «آل» هم الأهل، قال الزبيدي (١٢٠٥هـ): ((لا يستعمل (الآل) إلا فيما فيه شرف غالبًا، فلا يقال: آل الإسكاف، كما يقال: أهله. وخُص أيضًا بالإضافة إلى أعلام الناطقين، دون النكرات والأمكنة والأزمنة، فيقال: آل فلان، ولا يقال: آل رجل، ولا آل زمان كذا، ولا آل موضع كذا، كما يقال: أهل بلد كذا وموضع كذا))(١).

واستشكل بعض الشراح لفظة (آل) مع أن المتصدق هو من أضيف إليه الآل، فكأن الدعاء اتجه إلى الآل لا إليه، وللشراح أقوال في توجيه اللفظة مع اتفاقهم على أن المتصدق داخل في الدعاء.

منها أنها مقحمة بدليل الرواية الأخرى: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَيْه»، لكن الرواية السابقة هي رواية الأكثرين(٢).

ومنها أن المراد بها المتصدق نفسه؛ لأن الآل يطلق على ذات الشيء كقوله r لأبي موسى الأشعري t : «لَقَدْ أُوتِيْتَ مِزْمَارًا مِنْ مَزَامِيرِ آلِ دَاوُدَ»(٣)، والمراد داود u .

ومنها أن الدعاء عام له ولأهل بيته؛ لأنه إذا دعا لآله من أجله فهو مستحق للدعاء بطريق الأولى، كما قيل في قوله U: ﴿أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦](٤).

٣- ومن المكافأة والشكر بالدعاء ما رواه أنس t قال: دخل النبي r على أم سليم فأتته بتمر وسمن، قال: «أَعِيدُوا سَمْنَكُمْ فِي سِقَائِهِ، وَتَمْرَكُمْ فِي وِعَائِهِ؛ فَإِنِّي صَائِمٌ» ثم قام إلى ناحية من البيت، فصلى غير المكتوبة، فدعا لأم سليم وأهل بيتها. وفي رواية قال: ثم دعا لنا أهل البيت بكل خير من خير الدنيا والآخرة(٥). هذه رواية الصحيحين فيها إخبار إخبار عن الدعاء دون ذكر لنصه، ولم أجد في رواية من الرويات التي وقفت عليها في غير الصحيحين نصًا للدعاء لنتبين شيئًا من خصائصه التركيبية الملائمة لحال المخاطب، والمقصود قد تم ببيان أن النبي r اختار الدعاء لهم مكافأة وشكرًا، والله أعلم.

---

(١) تاج العروس: ٢٨/٣٧.

(٢) ينظر: عمدة القاري: ٩/٩٥.

(٣) أخرجه البخاري: (٥٠٤٨) ، ومسلم: (٧٩٣).

(٤) ينظر: فتح الباري: ٣/٣٦١، وعمدة القاري: ٩/٩٥، ومرقاة المفاتيح: ٤/٢٣٤.

(٥) أخرجه البخاري: (١٩٨٢) ، ومسلم: (٦٦٠).

٤- ومن ذلك ما رواه عبد الله بن الزبير t قال: كنت يوم الأحزاب جُعلت أنا وعمر بن أبي سلمة في النساء، فنظرت فإذا أنا بالزبير على فرسه، يختلف إلى بني قريظة مرتين أو ثلاثًا، فلما رجعت قلت: يا أبت، رأيتك تختلف. قال: أوهل رأيتني يا بني؟ قلت: نعم. قال: كان رسول الله r قال: «مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ» فانطلقت، فلما رجعت جمع لي رسول الله r أبويه فقال: «فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي»(١).

والفداء والمفاداة تأتي بمعنى الإنقاذ والتخليص والاشتراء، وإذا قلت: فداك أبي وأمي، فكأنك خلصته واشتريته بهما، ويريدون به الدعاء(٢)، إلا أنه لفظ دعاء يكنى به عن المحبة وعظم المنزلة في النفس والإعجاب بحسن العمل، من غير أن يراد به حقيقته، قال النووي (٦٧٦هـ): ((ليس فيه حقيقة فداء، وإنما هو كلام وألطاف وإعلام بمحبته له ومنزلته))(٣)، وقال مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هـ): ((المراد بالفداء التعظيم والإكبار لأن الإنسان لا يفدي إلا من يعظمه فيبذل نفسه له))(٤).

٥- ومن ذلك أيضًا ما ورد في قصة إسلام أبي ذر t أنه دعا قومه غِفارًا إلى الإسلام، فأسلم نصفهم، وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله r المدينة أسلمنا، فقدم رسول الله r المدينة فأسلم نصفهم الباقي، وجاءت أَسْلَم فقالوا: يا رسول الله، إخوتنا نسلم على الذي أسلموا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله r: «غِفَارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ»(٥).

وجاء الدعاء في الجملتين بصيغة الخبر، بالفعل الماضي تفاؤلاً بتحقق المدعو به، أو إظهارًا للرغبة في تحققه، كما سبق في أول المبحث، والله أعلم.

وقد تخير النبي r من الدعاء ما يناسب اسم المدعو له، فاشتق من غفار الدعاء بالمغفرة، ومن أسلم الدعاء بالمسالمة، وهذا جناس سيأتي الحديث عنه بإذن الله U في

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٢٠) ، مسلم: (٢٤١٦).

(٢) ينظر: تهذيب اللغة: ١٤/١٤١، ولسان العرب: ١٥/١٥١، وتاج العروس: ٣٩/٢٢١.

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٥/١٨٤.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٤٢٢.

(٥) أخرجه مسلم: (٢٤٧٣).

المبحث الثاني من الفصل السادس. قال ابن بطال (٤٤٩هــ): ((في قوله: «غِفَارٌ غَفَــرَ اللهُ لَهَا، وَأَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ» الدعاء للمؤمنين بالمغفرة. تفاءَلَ لهما **r** من أسمائهما فألاً حســنًا، وكان يعجبه الفأل الحسن، وقال الخطابي (٣٨٨هــ): وقوله: «غِفَارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَا» فنــرى -والله أعلم- إنما خصهم بالدعاء والمغفرة لمبادرتهم إلى الإسلام، وبحسن بلائهم فيه، ودعــا لأسلم؛ لأن إسلامهم كان سلمًا من غير حرب))[1].

وقيل باحتمال خبرية الجملتين لفظًا ومعنى[2]، ويقوي الاحتمال ورود زيادة «أَمَــا وَاللهِ مَا أَنَا قُلْتُهُ، وَلَكِنَّ اللهَ قَالَهُ» وهي زيادة صحيحة لم ترد في الصحيحين، رواها أبو هريرة وأبو برزة وسلمة بن الأكوع وخفاف بن إيماء الغفاري **y** عن رسول الله **r** أنــه قــال: «أَسْلَمُ سَالَمَهَا اللهُ، وَغِفَارٌ غَفَرَ اللهُ لَهَا، أَمَا وَاللهِ مَا أَنَا قُلْتُهُ، وَلَكِنَّ اللهَ قَالَهُ»[3] والله أعلم.

ت- الترغيب في العمل، والتنشيط إليه.

إذا كان الدعاء من خير ما يكافأ به من يصنع المعروف، فإن له أثرًا أيضًا في حفــز المرء إلى العمل وترغيبه فيه، لأنه يتضمن أيضًا جزاء ومكافأة على ما يعمله.

وقد يكون مقصود الدعاء الترغيب والمكافأة إذا جاء في أثناء العمل، أما إذا كان قبل العمل فيراد به الترغيب إليه بما يتضمنه الدعاء من المكافأة والجزاء.

وقد ورد كلا النوعين في خطاب النبي **r** لأصحابه **y**، ومن ذلك ما يلي:

١- أما النوع الأول، وهو ما يأتي فيه الدعاء أثناء العمل مكافأة وتنشيطًا، فمنــه دعاء النبي **r** لأصحابه **y** وهم يبنون مسجد الرسول **r**، فعن أنس بن مالك **t** قــال: قدم النبي **r** المدينة، فترل أعلى المدينة في حي يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، فأقام النبي **r**

---

(١) شرح صحيح البخاري: ٧/٣، وينظر: فتح الباري: ٤٩٣/٢.

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٩٤/٢ و٣٧٤/٤، وفتح الباري: ٥٤٤/٦.

(٣) أخرجه أحمد: ٤٨/٤ عن سلمة بن الأكوع **t**، وفي ٥٧/٤ عن إيماء الغفاري **t**، وفي ٤٢٠/٤ عن أبي بــرزة **t**، وأخرجه الحاكم: ٩٢/٤ عن أبي هريرة **t** وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجــاه بهــذه الزيــادة، وللزيادة شاهد آخر بإسناد صحيح)) وروى حديث سلمة **t**، وصحح الحديث بزيادته الألباني في صــحيح الجــامع الصغير: ٢٢٨/١ برقم (٩٧٥).

فيهم أربع عشرة ليلة، ثم أرسل إلى بني النجار، فجاءوا متقلدي السيوف، كأني أنظر إلى النبي r على راحلته، وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، وكان يحب أن يصلي حيث أدركته الصلاة، ويصلي في مرابض الغنم، وأنه أمر ببناء المسجد، فأرسل إلى ملأ من بني النجار فقال: «يَا بَنِي النَّجَّارِ، ثَامِنُونِي بِحَائِطِكُمْ هَذَا» قالوا: لا والله، لا نطلب ثمنه إلا إلى الله. قال أنس: فكان فيه ما أقول لكم: قبور المشركين، وفيه خرب، وفيه نخل، فأمر النبي r بقبور المشركين فنبشت، ثم بالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر، وهم يرتجزون، والنبي r معهم، وهو يقول:

«اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُ الآخِرَهْ ... فَاغْفِرِ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»(١).

ومنه دعاؤه لهم يوم الخندق وهو يحفرون وقد أصابهم الجوع والتعب، فعن أنس t قال: خرج رسول الله r إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

«اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ ... فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ»(٢).

وفي روايات الحديث ما يدل على أن النبي r كان يكرر الدعاء وينوع فيه، فيدعو لهم بالمغفرة، وبالرحمة، وبالنصرة، وبالمباركة، وبالإكرام، وبالإصلاح، فلم يكن النبي r يقتصر على مدعو به واحد بل ينوع فيما يدعو به لهم، وهذا فيه مزيد تحفيز وتنشيط، والله أعلم.

ويلحظ في دعوات النبي r في هذا الحديث تقديم الخبر بأن لا عيش إلا عيش الآخرة على الدعاء؛ لما هم فيه من الجوع وشظف العيش، وقد يكون في ذلك تعريض بعدم الخوف من مواجهة الأعداء رهبة من الموت؛ لأن العيش الحقيقي هو ما في الآخرة، وأن فعلهم الأسباب التي يواجهون بها عدوهم ليحافظوا على الدين الذي به يحيون حياة الآخرة الباقية، لا لأجل أن يحيوا حياة الدنيا الفانية، ولذا جاء الخبر بأسلوب القصر ليتأكد ويترسخ في نفوسهم، وفي هذا مزيد تحفيز لهم وتنشيط للعمل؛ لأنهم بذلك يسعون في خير الآخرة،

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٢٨ و٣٩٣٢)، ومسلم: (٥٢٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٢٨٣٤ و٢٨٣٥ و٢٩٦١ و٣٧٩٥ و٣٧٩٦ و٧٢٠١)، ومسلم: (١٨٠٥).

ويرجون ثوابها وحسن عيشها. وجاء القصر في روايات الحديث مرة بطريق الاستثناء بعد النفي: «لا عَيْشَ إِلاّ عَيْشُ الآخِرَةِ - لا خَيْرَ إِلاّ خَيْرُ الآخِرَهْ» ومرة بطريق التعريف للطرفين: «إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِرَهْ - إِنَّ الْخَيْرَ خَيْرُ الآخِرَهْ» وسيأتي بيان ذلك بإذن الله في مبحث القصر من الفصل الرابع.

ولئن كان القصر يفيد التأكيد، فإن جمل القصر أيضًا جاءت مؤكدة بـ(إن) مزيدًا في التأكيد، أو لأن قصر العيش والحياة على الآخرة دون الدنيا قد يثير لدى المخاطبين تساؤلاً في الخبر فحسن تأكيده، وسيأتي مزيد حديث عن التأكيد في الفصل الرابع بإذن الله U.

والصحابة y مع المشقة التي لحقتهم أحوج ما يكونون إلى تنشيط النفوس وحفزها، لأنهم سيلاقون أحزابًا تقاتلهم، فإذا ضعفت نفوسهم وفترت أبدانهم لم يكن لهم قوة يجاهدون بها عدوهم، وقد بوب البخاري لهذا الحديث في كتاب الجهاد والسير من صحيحه فقال: باب التحريض على القتال وقوله تعالى: ﴿حَرِّضْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ﴾ [الأنفال: ٦٥].

٢- وأما النوع الثاني، وهو ما يأتي الدعاء فيه قبل العمل، متضمنًا الجزاء العظيم لمن يقوم به، فيكون مقصود الدعاء الترغيب والتحفيز، فمنه حديث إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله r قاتلت معه وأبليت، فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك! لقد رأيتنا مع رسول الله r ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقُرّ، فقال رسول الله: «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ» فلم أجد بدًا إذ دعاني باسمي أن أقوم، قال: «اذْهَبْ، فَأْتِنِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، وَلا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ» فلما ولَّيت من عنده جعلت كأنما أمشي في حَمّام، حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يَصلي ظهره بالنار، فوضعت سهمًا في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله r: «وَلا تَذْعَرْهُمْ عَلَيَّ»

ولو رميته لأصبته، فرجعت وأنا أمشي في مثل الحَمّام، فلما أتيته فأخبرتـــه بخـــبر القـــوم، وفرغت، قَرَرت، فألبسني رسول الله r من فضل عباءة كانت عليه يُصلي فيها، فلـــم أزل نائمًا حتى أصبحت، فلما أصبحت قال: «قُمْ يَا نَوْمَانُ»[١].

إن المهمة التي أرادها النبي r خطيرة، وفي وقت عصيب، اجتمع فيه شـــدة الـــريح والبرد وحصار الأعداء، ولذا كان الحث إلى القيام بهذه المهمة عظيمًا، مستعملاً فيه النبي r أساليب بلاغية تتلاءم مع مقام التحفيز والتشويق إلى القيام بالعمل، ومن ذلك الدعاء، وهو دعاء يتضمن جزاءًا عظيمًا يتلاءم مع خطورة المهمة وحال القائم بها: «جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَـــوْمَ الْقِيَامَةِ».

وأتى الدعاء بصيغة الخبر إظهارًا للحرص على وقوع المدعو به، وكونه بفعل مـــاض فيه مزيد تفاؤل بتحققه، لعل المخاطَب أن يتشوف إلى الجزاء ويشتاق إليه فيبادر إلى العمل، وإذا كان الدعاء يأتي للتشويق فإن صيغته هنا تزيده تشويقًا، ولمزيد من التشـــويق والحـــث يكرر النبي r الدعاء حين رآهم ساكتين، والله أعلم[٢].

وحينما نقارن بين هذا الموقف وموقف آخر مشابه في غزوة الأحزاب نجد اختلافـــا في الحث إلى العمل لاختلاف الحالين، فعن جابر t قال: قال رسول الله r يوم الأحزاب: «مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟» فقال الزبير: أنا. ثم قال: «مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟» فقال الزبير: أنا. ثم قال: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ»[٣]. والقوم هنا هم بنو قريضة كمـــا في رواية عبد الله بن الزبير t السابقة: «مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ».

ولعلنا نشعر أن الحث هنا أخف من الحث في الموقف السابق الذي تعاضدت فيه عدة محفزات ومشوقات؛ لكون الحال التي في موقف الزبير أخف من الحال في موقف حذيفة t ، لذا لم يأت الخطاب بصيغة التحضيض، وخلا من الدعاء، وجاء التشويق في هذا الموقف عن طريق الاستفهام «مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟». قال ابن حجر (٨٥٢هـــ): ((قصة الزبير كانت

(١) أخرجه مسلم: (١٧٨٨).
(٢) ينظر في مجيء الدعاء للتشويق: التشويق في الحديث النبوي: ١١٧.
(٣) أخرجه البخاري: (٢٨٤٦ و٤١١٣) ، ومسلم: (٢٤١٥).

لكشف خبر بني قريظة هل نقضوا العهد بينهم وبين المسلمين، ووافقوا قريشًا على محاربة المسلمين؟ وقصة حذيفة كانت لما اشتد الحصار على المسلمين بالخندق، وتمالأت عليهم الطوائف، ثم وقع بين الأحزاب الاختلاف، وحذرت كل طائفة من الأخرى، وأرسل الله تعالى عليهم الريح، واشتد البرد تلك الليلة))[1].

ومما جاء فيه الدعاء قبل العمل حثًا عليه ما ورد عن أبي هريرة t قال: أتى رجل رسول الله r فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله r: «أَلا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللهُ» وفي رواية: «رَحِمَهُ اللهُ» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله...[2].

وجاء الدعاء بصيغة الخبر، إلا أن روايتي الحديث اختلفتا في صيغة الفعل، ففي الرواية الأولى جاءت بالفعل المضارع، وفي الرواية الثانية بالفعل الماضي، وعلى أي الروايتين فإن صيغة الخبر تظهر الحرص على حصول المدعو به، تشويقًا إلى القيام بالفعل، كما قيل في الحديث السابق، وإن كانت الرواية الأولى هي المحفوظة فإن المضارع يفيد استحضار المدعو به في نفس المخاطَب، وكأنه يعايشه، كما يفيد استمرار حصول المدعو به بتجدده[3]، وإن كانت الثانية هي المحفوظة فإن الماضي يشعر بمزيد من التفاؤل في تحقق المدعو به كما سبق ذكره في أول المبحث، والله أعلم.

ولا يخفى ما في الدعاء بالرحمة من التناسب مع الفعل، لأن حال الرجل الذي جاء إلى النبي r تدعو إلى رحمته والإحسان إليه، فكان الجزاء من جنس العمل، والله أعلم.

ومما جاء فيه الدعاء قبل العمل حثًا عليه ما رواه سعد بن أبي وقاص t أن النبي r جمع له أبويه يوم أحد، قال: كان رجل من المشركين قد أحرق المسلمين، فقال له النبي r: «ارْمِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» وفي رواية أن النبي r نثل له كنانته يوم أحد وقال له ذلك. قال:

---

(١) فتح الباري: ٧/٤٠٧.

(٢) أخرجه البخاري: (٣٧٩٨ و٤٨٨٩) ، مسلم: (٢٠٥٤).

(٣) ينظر في بلاغة الفعل المضارع: الإيضاح: ٢/٧٨-٩٠، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٧٦، والطراز: ٢٦٧ و٥٢٨، ومختصر المعاني مع حاشية الدسوقي: ٢/٧٨-٩٠، ومواهب الفتاح: ٢/٣١ و٧٨-٩٠.

فترعت له بسهم ليس فيه نصل، فأصبت جنبه، فسقط، فانكشفت عورته، فضحك رسول الله r حتى نظرت إلى نواجذه(١).

وسبق الحديث قريبًا عن صيغة التفدية.

ومن الدعاء قبل العمل تحفيزًا وتنشيطًا، دعاؤه r على الكفار قبيل الغزو، كما ورد ذلك في غزوة الأحزاب حينما قام النبي r خطيبًا يصبر الناس ويثبتهم، ثم دعا على المشركين فقال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ» وفي رواية: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ» وفي رواية: «وَزَلْزِلْ بِهِمْ»(٢).

ث- الترهيب والتهويل.

ومن الأدعية التي جاءت لهذا الغرض ما يلي:

١- سبق في مبحث البيئة من الفصل الأول أن للبلد الحرام مكانة خاصة في نفوس أهل الجاهلية، ويرون أن الدعوة فيه لا ترد، ولذلك فإنه يعظم عندهم أن يُدعى عليهم فيه، ولما بلغ كفار قريش من السوء والقبح في إيذاء النبي r والاستخفاف به وهو يعبد ربه عند البيت الحرام رفع يديه يدعو عليهم، فشق ذلك على كفار مكة، كما روى عبد الله بن مسعود t أن النبي r كان يصلي عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم يجيء بسلى جزور بني فلان فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم فجاء به، فنظر حتى سجد النبي r وضعه على ظهره بين كتفيه، وأنا أنظر لا أغني شيئًا، لو كان لي منعة، قال: فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله r ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره، فلما قضى رسول الله r صلاته، رفع صوته ودعا عليهم، ثم قال: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال: وكانوا يرون

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٢٥ و٤٠٥٥) ، مسلم: (٢٤١٢). وقوله: أحرق المسلمين، قال النووي في شرح صحيح مسلم: ١٨٥/١٥: ((أي: أثخن فيهم، وعمل فيهم نحو عمل النار)).

(٢) أخرجه البخاري: (٢٨١٨ و٢٩٦٦ و٢٩٣٣ و٧٤٨٩) ، ومسلم: (١٧٤٢).

أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة، ثم سمى: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ، وَعَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ، وَالْوَلِيدِ بْنِ عُتْبَةَ، وَأُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ، وَعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ» وعد السابع فلم يحفظ، قال: فوالذي نفسي بيده لقد رأيت الذين عد رسول الله r صرعى في القليب قليب بدر(١).

قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((إنما استحقوا الدعاء حينئذ لما أقدموا عليه من الاستخفاف به r حال عبادة ربه))(٢).

وصيغة الدعاء فيها من القوة ما ينبئ عن شدة أذاهم، وعظم أثره في نفس النبي r ، ومن ذلك استخدام صيغة الأمر (عليك) وهو اسم فعل أمر، وفيه إغراء بلزوم العقاب لهم إذ المقام مقام دعاء عليهم لا لهم، وهذه الصيغة تدل على الإغراء واللزوم كما سبق ذكره(٣)، وفيها دلالة على طلب إحاطة الله U العذاب بهم، لما تدل عليه (على) في الأصل من العلو والتمكن، ويؤكِّد طلب اللزوم بزيادة حرف الإلصاق (الباء) مع ما يعطيه من قوة في الصوت أثناء الخطاب، إذ هو من الحروف التي تتصف بالجهر والشدة(٤).

وقد نُص على المدعو عليه ولم يُنص على المدعو به، لتذهب نفوس المشركين كل مذهب في تصور العذاب الذي سيحل بهم، وهذا فيه من الرهبة والتهويل ما يجعلهم يخافون دعوته r ، وهذا من الحذف الذي يراد به التعميم تهويلاً وتخويفاً(٥).

وفي تكرار الدعاء مزيد تأثير عليهم وتعميق لتهويلهم وترهيبهم، مع ما ينبئه من شدة تأثر النبي r بهم(٦).

ولم يكن من عادته r الدعاء على أحد إلا إذا اشتد أذاه، كما قال ابن مسعود t في الرواية الأخرى: فما رأيت رسول الله r دعا عليهم إلا يومئذ(٧)، أما إن لم يكن منهم

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٤٠)، ومسلم: (١٧٩٤).

(٢) فتح الباري: ١/٣٥٢.

(٣) ينظر ص (١٢٥) من هذا البحث.

(٤) ينظر: المختصر في أصوات اللغة العربية: ٥٦-٥٨.

(٥) ينظر: شروح التلخيص: ٢/١٤٠ و١٤٢، وعلم المعاني، لفيود: ١/٢٤٦.

(٦) ينظر: شروح التلخيص: ٣/٢١٨.

(٧) أخرجها أبو داود الطيالسي في مسنده: ١/٤٣، برقم (٣٢٥) ، والبيهقي في دلائل النبوة: ٢/٢٧٨.

شديد أذى فكان يدعو لهم بالهداية كما في حديث الطفيل بن عمرو الدوسي t أنه قدم وأصحابه على النبي r فقالوا: يا رسول الله، إن دوسًا قد كفرت وأبت، فادع الله عليها، فظن الناس أنه يدعو عليهم، فقيل: هلكت دوس، فقال «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، وَأْتِ بِهِمْ»[١].

قال ابن بطال (٤٤٩هـ): ((قال المهلب: والدعاء على المشركين يختلف معناه، فإذا كانوا منتهكين لحرم الدين وحرم أهله، فالدعاء عليهم واجب، وعلى كل من سار بسيرهم من أهل المعاصي والانتهاك، فإن لم ينتهكوا حرمة الدين وأهله وجب أن يُدعى لهم بالتوبة كما قال r حين سئل أن يدعو على دوس فقال: «اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، وَأْتِ بِهِمْ». وقيل: إنما يجب أن يكون الدعاء على أهل المعاصي في حين انتهاكهم، وأما عند تركهم وإدبارهم عن الانتهاك فيجب أن يُدعى لهم بالتوبة، وروي أن أبا بكر الصديق وزوجته كانا يدعوان على عبد الرحمن ابنهما يوم بدر بالهلاك إذا حمل على المسلمين، وإذا أدبر يدعوان له بالتوبة))[٢]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((كان تارة يدعو عليهم، وتارة يدعو لهم؛ فالحالة الأولى حيث تشتد شوكتهم ويكثر أذاهم... والحالة الثانية حيث تؤمن غائلتهم ويرجى تألفهم كما في قصة دوس))[٣].

٢- عن جابر بن عبد الله t أنه سمع رسول الله r يقول عام الفتح وهو بمكة: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس، فقال: «لا، هُوَ حَرَامٌ» ثم قال رسول الله r عند ذلك: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ U لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»[٤].

والدعاء على اليهود «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ» فيه ترهيب للمخاطب أن يقع في مثل ما وقع فيه اليهود، فيستوجب العقوبة التي حلت فيهم بسبب فعلهم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٩٣٧ و٦٣٩٧) ، ومسلم: (٢٥٢٤).
(٢) شرح صحيح البخاري: ٣/٧، وينظر: عمدة القاري: ٧/٢٧.
(٣) فتح الباري: ٦/١٠٨، وينظر: عمدة القاري: ٢٣/١٧.
(٤) أخرجه البخاري: (٢٢٣٦ و٤٦٣٣) ، ومسلم: (١٥٨١).

وجاء الدعاء بصيغة الخبر بالفعل الماضي دلالة على حصول المدعو به، ليضفي مزيدًا من الترهيب والتحذير للمخاطَب، والله أعلم.

٣- عن أبي الدرداء t قال: قام رسول الله r فسمعناه يقول: «أَعُـوذُ بِـاللهِ مِنْكَ» ثم قال: «أَلْعَنُكَ بِلَعْنَة اللهِ» ثلاثًا، وبسط يده كأنه يتناول شيئًا، فلما فرغ من الصلاة قلنا: يا رسول الله، قد سمعناك تقول في الصلاة شيئًا لم نسمعك تقوله قبل ذلك، ورأينـاك بسطت يدك، قال: «إِنَّ عَدُوَّ اللهِ إِبْلِيسَ جَاءَ بِشِهَابٍ مِنْ نَارٍ لِيَجْعَلَهُ فِي وَجْهِي، فَقُلْـتُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْكَ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ قُلْتُ: أَلْعَنُكَ بِلَعْنَةِ اللهِ التَّامَّةِ، فَلَمْ يَسْتَأْخِرْ، ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ أَرَدْتُ أَخْذَهُ، وَاللهِ، لَوْلا دَعْوَةُ أَخِينَا سُلَيْمَانَ لأَصْبَحَ مُوثَقًا يَلْعَـبُ بِـهِ وِلْـدَانُ أَهْـلِ الْمَدِينَةِ»(١).

والاستعاذة من الشيطان جاء الأمر بها في كتاب الله U، قـال سـبحانه: ﴿وَإِمَّـا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال سبحانه: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِـيمُ﴾ [فصـلت: ٣٦]، فكانت استعاذة النبي r ملائمة لحال الشيطان المخاطب، والله أعلم.

ج- التعجب.

ورد عن العرب عبارات أصلها دعاء، لكنها تستعمل كناية عن معنى مـن المعـاني وغرض من الأغراض، من غير إرادةٍ لحقيقة الدعاء، قال القاضي عيـاض (٥٤٤ هـ) في قول: تربت يداك: ((الأصح في هذا أن هذا ومثله من الأدعية الموجودة في كلام العـرب، المستعملة كثيرًا لدعم الكلام وصلته وتهويل الخبر، مثل: انج لا أبالك، وثكلتك أمك، وويل أمه مسعر حرب، وهوت أمه، وعَقْرى حَلْقى، وأُلَّ، وغُلَّ، وشبهه، لا تقصد به الدعاء، وإن كان أصله الدعاء، ثم جرى على ألسنتهم، وكثر في استعمالهم في غير مواطن الدعاء والذم، وأتوا به عند التعجب، والاستحسان، والتعظيم للشيء))(٢).

وورد مثل ذلك عن النبي r في مقام التعجب، ومن ذلك:

---

(١) أخرجه مسلم: (٥٤٢).

(٢) مشارق الأنوار: ١/١٢٠.

١- قوله r : «تَرِبَتْ يَمِينُكِ» في حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت أم سليم إلى رسول الله r فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحيي من الحق، فهل على المرأة من غسل إذا احتلمت؟ قال النبي r : «نعم، إِذَا رَأَت الْمَاءَ» فغطت أم سلمة وجهها، وقالت: يا رسول الله، أوتحتلم المرأة؟ قال: «نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا» وفي رواية: «تَرِبَتْ يَدَاكِ»[١]. قال أبو عبيد (٢٢٤ هـ): ((أصله أنه يقال للرجل إذا قَلَّ ماله: قد تَرِب، أي افتقر حتى لصق بالتراب، و قال الله U: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ [البلد: ١٦]))[٢]. وقال في قول النبي r : «فَاظْفَرْ بِذَاتِ الدِّينِ تَرِبَتْ يَدَاكَ»[٣]: ((يرون -والله أعلم- أن النبي r لم يتعمد الدعاء عليه بالفقر، ولكن هذه كلمة جارية على ألسنة العرب يقولونها وهم لا يريدون وقوع الأمر))[٤]، وقال الطيبي في حديث أم سليم: ((قوله r : «تَرِبَتْ يَمِينُكِ» كلمة لم يرد بها الدعاء عليها، وإنما خرجت مخرج التعجب من سلامة صدرها))[٥].

٢- ومن ذلك قوله r : «أَرب، مَا لَهُ» على رواية: «أَرِبَ» فعلاً ماضيًا، في حديث أبي أيوب الأنصاري t أن رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة. فقال القوم: ما له؟ ما له؟ فقال رسول الله r : «أَرب، مَا لَهُ» فقال النبي r : «تَعْبُدُ اللهَ، لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ»[٦]. قال مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هـ) في هذه الرواية: ((معناها الدعاء عليه، أي: أصيبت آرابه وسقطت[٧]، وهي كلمة لا يراد بها وقوع الأمر كما يقال: تربت يداك، وقاتلك الله، وإنما تذكر في معرض

(١) أخرجه البخاري: (١٣٠) ، ومسلم: (٣١٣).
(٢) غريب الحديث: ٩٣/٢.
(٣) أخرجه البخاري: (٥٠٩٠) ، ومسلم: (١٤٦٦).
(٤) غريب الحديث: ٩٣/٢-٩٤.
(٥) الكاشف عن حقائق السنن: ٨١/٢، وينظر: مرقاة المفاتيح: ١٢٦/٢.
(٦) أخرجه البخاري: (١٣٩٦ و٥٩٨٣) ، ومسلم: (١٣).
(٧) الآراب هي الأعضاء، وينظر: لسان العرب: ٢٠٩/١.

التعجب))[1]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((روي بكسر الراء وفتح الموحدة بلفظ الفعل الماضي، وظاهره الدعاء، والمعنى التعجب من السائل. وقال النضر بن شميل: يقال: أَرِبَ الرجل في الأمر؛ إذا بلغ فيه جهده. وقال الأصمعي: أَرِبَ في الشيء؛ صار ماهرًا فيه، فهو أريب. وكأنه تعجب من حسن فطنته والتهدي إلى موضع حاجته، ويؤيده قوله في رواية مسلم المشار إليها: فقال النبي r : «لَقَدْ وُفِّقَ» أَوْ: «لَقَدْ هُدِيَ»))[2].

هذه جملة من الأمثلة التي توضح أن النبي r قد يستعمل الدعاء في خطابه مراعاة لحال المخاطب، ولعلي في نهاية هذا المبحث أشير إلى أبرز النتائج التي تتعلق باختيار النبي r للدعاء، ومن ذلك:

١- يختار النبي r الدعاء في خطابه، نظرًا لعظم موقع الدعاء عند المخاطب في الأغراض المذكورة.

٢- قد يأتي الدعاء مستقلاً بنفسه في الخطاب، كما في بعض أدعيته للمرضى، ودعائه لمن يأتي إليه بصدقته، ودعائه للزبير لما جاءه بخبر بني قريضة، ودعائه على كفار قريش في الحرم.

وقد يأتي مصحوبًا مع غيره، كاستخدامه مع الحوار كما في حديث سعد بن أبي وقاص t لما خشي الموت بمكة، وحديث أبي طلحة وأم سليم رضي الله عنهما في وفاة ابنهما، وحديث تحريم الخمر والميتة. أو مع الخطبة كما في الدعاء على الكفار في الخطبة التي خطبها r في يوم الأحزاب. أو مع التحضيض كما في حديث حذيفة t في الحث على الإتيان بخبر الأحزاب، وحديث الحث على إضافة الرجل الذي أصابه الجهد، وحديث سعد ابن أبي وقاص t في غزوة أحد حينما حثه النبي r على رمي المشركين. أو مع حركة ذات دلالة يدركها المخاطب كما في دعائه لابن عباس حينما أتى بوضوئه مع ضمه.

٣- قد يخاطب النبي r المخاطب بدعاء لغيره، أو بدعاء على غيره، إلا أن المقصود به التعريض بالمخاطب لغرض من الأغراض، ومن الأغراض: تثبيت المؤمنين وتحفيزهم إلى الجهاد في دعائه r على الكفار يوم الأحزاب. ومنها: الترهيب من العمل

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٥/١.

(٢) فتح الباري: ٢٦٤/٣.

الذي قد يقع في مثله المخاطب، كما في دعائه r على اليهود في حديث بيع شحوم الميتــة. ومنها: تأنيس المخاطب والتلطف معه وتألفه، كدعائه r لأنس t عند أمــه أم ســليم، والدعاء لصاحب الطفيل t عنده، والدعاء لأم أبي هريرة رضي الله عنهما.

٤- قد يدعو النبي r بألفاظ يكنى بها عن معان وأغراض تــتلاءم مــع حــال المخاطَب، من غير أن يريد بألفاظ الدعاء حقيقتها، ومن ذلك: إرادة الترغيب في قوله r: «فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» لسعد بن أبي وقاص في حديث رمي المشركين. ومنها: إرادة المكافأة في قوله r: «فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي» للزبير حينما جاءه بخبر بني قريضة. ومنها: إرادة التعجــب في مثل قوله r: «تَرِبَتْ يَمِينُكِ» لأم سلمة رضي الله عنها.

٥- يأتي الدعاء بالصيغة الإنشائية، ويأتي أيضًا بالصيغة الخبرية، بحسب ما يقتضيه حال المخاطب والخطاب.

٦- جاءت بعض الأساليب البلاغية في الدعاء، بحسب ما يقتضيه حال المخاطب، كالتقديم والتأخير، والقصر، والإيجاز، والاحتراس، والجناس، والسجع. وتتميز عموم الأدعية بالإيجاز، ويكثر السجع والجناس في الدعاء للمريض، كما سيأتي الحديث عنهما في موضعه من الفصل الأخير بإذن الله U.

المبحث الثاني: الخطابة.

- المقصود بالخطابة.

الخطابة فن مخاطبة الجمهور، لإقناعهم واستمالتهم. ولا بد في الخطابة من جمهور، فمن يحادث فردًا لا يسمى خطيبًا، ولا توصف المحادثة بالخُطبة(١).

وإذا خلت الخطبة من الإقناع أو الاستمالة صارت خطبة باردة، تفتقد أهم مقوماتها، فإن من الصفات المهمة في الخطيب أن يكون قادرًا على الإقناع، حينما يريد من الجمهور أن يعتقدوا أمرًا، وقادرًا على استمالة الجمهور، حينما يريد منهم أن يقدموا ويندفعوا إلى ما يريد.

والقدرة على الاستمالة من أهم ما يتسم به الخطيب؛ لأنه يهدف من خطبته حفز الهمم وتحريك جمهور المخاطبين إلى ما يقصده، ولا يكون ذلك بمجرد الأدلة والبراهين العقلية، بل يحتاج إلى إثارة المشاعر وإلهاب النفوس بصدقه وحماسته وقوة عاطفته وحرارة شعوره وحسن تخيره للألفاظ والعبارات والأساليب المناسبة لهم وللمقام، وعلى الخطيب أن يدرك أنه يستميل القلوب قبل أن يخاطب العقول، وقيل: إن الأهواء والعواطف هي الخطيب في الجماهير(٢).

- أهمية الخطابة.

ومما ينبغي الإشارة إليه هنا أن الخطابة في الجمع له أهمية بالغة، لما للجماعة من تأثير بالغ في تحقيق ما يصبو إليه الخطيب، فمن أهم ما تمتاز به الجماعة سريان روح عامة تصوغ أفرادها على شعور واحد، وتفكير واحد، فتعمل بطريقة تغاير طريقة الفرد، سواء تشابه أفراد الجماعة أم تغايروا في أعمالهم وأخلاقهم ومداركهم، ومن الأفكار والمشاعر ما لا يتولد أو يتحول إلى فعل عند الفرد إلا حين يكون في جماعة.

ومن سمات الجماعة أنها تميل إلى العاطفة أكثر من الفكر، فيسيرها الوجدان أكثر مما يوجهها الفكر، لأن الأفراد إن فرقت بينهم الخواص الفكرية المتأثرة بالتربية والوراثة

---

(١) ينظر: فن الخطابة: ٥، والخطابة وإعداد الخطيب: ١٢ و١٤.

(٢) ينظر: فن الخطابة: ٥٦ و١٧١-١٧٩، والخطابة وإعداد الخطيب: ١٤-١٥.

والمواهب فإنهم يتشابهون في الخواص الوجدانية، لذا فإن الأفراد إذا اجتمعوا انزوى الــتفكير الفردي، واستترت قدراتهم العقلية، وصار السلطان للخواص المتشابهة النابعة من الوجــدان. حتى إن الرجل العارف المتبصر ليتأثر بروح الجماعة، ويخضع لسلطانها، ويفقــد اســتقلاله الذاتي، وقد يتسم في مواقف بالسذاجة وسرعة التصديق حيث تخلبه الألفاظ والعبارات فتثير مشاعره وتمتلك قلبه وتدفعه إلى الثورة والعنف، و لم يكن له ذلك لو كان منفردًا.

ومما يميز الجماعة أن الشعور الذي يسري فيها سرعان ما ينتشر بين أفرادها بالتــأثير والعدوى، حتى يكاد الكل يطبقون على قبوله(١).

هذه الإشارات السريعة مهمة للخطيب، ولمعرفة أثر الخطابة في الجمــاهير، ولإدراك شيء من أسرار التأثير الخطابي للنبي r في أصحابه y وأمته.

- الخطابة النبوية.

وإذا تحدثنا عن خطابة النبي r فنحن نتحدث عن إمام الخطباء بــلا منــازع، وأي كلام من كلام البشر يحسن التأثير في النفوس كما يحسنه كلام النبي r وخطابتــه، ولقــد كان لخطابته r تأثير بالغ في الخطابة العربية، ويقدر هذا التأثير من عرف كيــف كانــت الخطابة قبله؟، ثم كيف صارت بعده؟. يقول الدكتور محمد رجب البيومي: ((جاء محمد r والخطابة الجاهلية لا ترتكز على أساس من وحدة الموضوع وصحة المنطق، فأحــدث فيهــا انقلابًا كبيرًا، يجب أن يشير إليه الباحثون، إذ لم يرها r مجال خِلابة ومباهاة، وموضــوع افتخار بالفصاحة والإغراب، ومصدر تيه وإعجاب للمتفيهقين المتشدقين، بل كــان u حربًا على هذه الفقاقيع التي لا ترى في الخطابة إلا معرضًا للثرثرة واللمز والتطاول والادعاء. وإذا كانت خطب اليونان على اشتهار صيتها وجهارة رجالها لم تسلم في بعض موضوعاتها من السفسطة الخالية والتضليل المغرق، بحيث عيب على نفر من أعلامها تطاولهم على الحق وتغريرهم بالمستمعين، فإن محمدًا r بخطبه النبوية قد وضع الميزان الجديد للخطيب المنصف الأمين))(٢). ويتناول بعد ذلك حسن المظهر لشخص النبي r وأثره في المخاطبين، ثم يتناول عناية الرسول r بالموضوع وحسن التهيؤ لمعاني القول، ثم يعرض لبعض نصوص الخطابــة

---

(١) ينظر: فن الخطابة: ٤٧-٥١.

(٢) البيان النبوي: ٧٣.

النبوية، ويخلص إلى أن ((خطب نبي الإسلام تتسم بالإيجاز، وقوة الإقناع، وحرارة الصدق، وهي بعد واضحة التركيب، سلسة اللفظ))(١).

- أثر حال المخاطب في اختيار الخطبة.

تلك إشارة سريعة عن خطابة النبي r، ولست هنا في مقام الحديث عن خصائصها(٢)، ولكني أريد أن أبين أثر حال المخاطب في اختياره r للخطبة دون غيرها من وسائل التعبير.

وسأذكر أمثلة على المواقف التي خطب فيها النبي r رعاية لحال المخاطب، وسأصنفها حسب الأغراض التي قيلت الخطبة من أجلها، مشيرًا إلى بعض ما يرد في بعض الخطب من الألفاظ والأساليب التي راعى النبي r في اختيارها حال المخاطب.

أ- تطييب النفوس.

ومن الأمثلة على ذلك:

١- خطبة الأنصار التي ذكرها بتمامها سابقًا(٣)، حينما وجدوا في أنفسهم على النبي r لَمَّا لم يقسم لهم من الغنائم بعد حنين، وكان النبي r بحاجة إلى أن يطيب نفوسهم ويذهب ما في قلوبهم، فحاورهم النبي r معاتبًا لهم على ما قالوه، ثم خطب فيهم بخطاب عاطفي وجداني، ومثل هذا المقام يحتاج إلى مثل هذا الخطاب، خاصة أن الأمر عام فيهم، والأنصار ممن يستجيبون لنداء العواطف، ويتأثرون بلهيب المشاعر، لذا كانت الخطبة في مثل هذه الحال أنفع الوسائل للمتكلم وللمخاطب.

٢- خطبته r في شأن سبي هوازن، فعن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة y أن رسول الله r قام حين جاءه وفد هوازن مسلمين فسألوه أن يرد إليهم أموالهم وسبيهم، فقال لهم رسول الله r: «أَحَبُّ الْحَدِيثِ إِلَيَّ أَصْدَقُهُ، فَاخْتَارُوا إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ؛ إِمَّا السَّبْيَ، وَإِمَّا الْمَالَ، وَقَدْ كُنْتُ اسْتَأْنَيْتُ بِهِمْ» وقد كان رسول الله r انتظرهم بضع عشرة

(١) المرجع السابق: ٨١.

(٢) ينظر: المرجع السابق: ٧١-٨٩، والبيان المحمدي: ٢٦٣-٣٢٢، والخصائص الفنية في الأدب النبوي: ٥٤-٥٩، والجانب الإعلامي في خطب الرسول r: ٣٥١-٣٧٣.

(٣) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

ليلة حين قفل من الطائف، فلما تبين لهم أن رسول الله r غير راد إليهم إلا إحدى الطائفتين قالوا: فإنا نختار سبينا. فقام رسول الله r في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ» فقال الناس: قد طيبنا ذلك لرسول الله r لهم. فقال رسول الله r : «إِنَّا لا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» فرجع الناس، فكلمهم عرفاؤهم، ثم رجعوا إلى رسول الله r ، فأخبروه أنهم قد طيبوا وأذنوا[(١)].

إن رسول الله r يمكن أن يرسل العرفاء دون أن يخطب في الناس، لكن ذلك سيفقد الاهتمام والحماسة لدى المخاطبين، وربما حصل ما لم يرده النبي r ، فإن المرء مهما بلغ من الصلاح يعتريه ما يعتري النفس البشرية من أهواء تنزع بها إلى ما لا يريده المحبوب، خاصة فيما يتعلق بالمال. لكن الخطبة أدت إلى استجابة جميع المخاطبين لما أحبه رسول الله r وقدمه على غيره، وحصلت الاستجابة من الجميع للقدرة البلاغية المؤثرة من رسول الله r ، ومن جهة أخرى لكون الاستجابة صارت شعورًا عامًا لدى غالبهم وأثر على بقيتهم، وقول الراوي: ((قال الناس)) لا يلزم منه كلهم، ولكن غالبيتهم الذين أظهروا الاستجابة السريعة، بدليل قول النبي r : «إِنَّا لا نَدْرِي مَنْ أَذِنَ مِنْكُمْ فِي ذَلِكَ مِمَّنْ لَمْ يَأْذَنْ، فَارْجِعُوا حَتَّى يَرْفَعُوا إِلَيْنَا عُرَفَاؤُكُمْ أَمْرَكُمْ» والله أعلم.

وقد جاء في ألفاظ الخطبة وتراكيبها ما راعى فيه النبي r حال المخاطبين، ومن ذلك وصف الوفد بالإخوان في قوله r : «فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاءِ»، ولعل في ذلك إشعارًا للمخاطبين بالقرب والألفة، وتذكيرًا لهم بأخوة الإسلام التي هي أعظم رابطة تجمع بين الناس.

ولعل هذا المعنى هو الذي سوغ جعل الجملة اسمية ليتقدم المسند إليه المبتدأ (إخوان) فيكون معناه من أول ما يرد على نفوس الصحابة y فتلين قلوبهم لما يريده النبي r منهم،

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٣٠٧).

وهم الذين امتدحهم الله U بقوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال الله U: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤]. والتقديم هنا يراد به الاهتمام بشأن الأخوة وتأكيدها(١)، وأكد الأمر أيضًا بعدة مؤكدات منها: (إنّ)، واسم الإشارة (هؤلاء)، و(قد)، وتكرار ذكر المسند إليه ضميرًا في قوله: «جَاءُونَا»، وكل هذا التأكيد لم يكن لأن الصحابة y ينكرون خبر النبي r، فيكون من باب الخبر الإنكاري الذي يلقى مؤكدًا وجوبًا بمؤكد أو أكثر على من ينكره(٢)، حاشا وكلا؛ بل ليترسخ المعنى في نفوس المخاطبين، لأن النفس البشرية تنزع إلى حب المال، فتحتاج إلى قوة تأثير لتخفيف هذا الحب في القلوب لمصلحة الإسلام والمسلمين، وقد ذكر بعض البلاغيين أن الخبر قد يؤكد من غير نظر إلى كون المقام مقام إنكار أو تساؤل وتردد، وإنما يأتي التأكيد لترسيخ الخبر وتمكينه في نفس المخاطب ترغيبًا أو ترهيبًا أو تسلية وتطييبًا أو إشعارًا بالاهتمام، أو غير ذلك(٣).

ولعله لهذا المعنى عبر النبي r بالمجيء (جَاءُونَا) وكان يمكن أن يقول النبي r: إن إخوانكم هؤلاء تائبون. لكن التعبير بالمجيء فيه إشعار للمخاطبين بحرص الذين جاؤوا وتكلفهم في طلب ما يريدون، وهذا أدعى للين قلوب المخاطبين وإكرامهم لإخوانهم، والله أعلم.

ب- تثبيت المؤمنين، وترغيبهم في الجهاد.

ومن ذلك خطبته قبل لقاء العدو في غزوة الأحزاب لتثبيت الناس وتصبيرهم وبث التفاؤل بالنصر في نفوسهم، فعن عبد الله بن أبي أوفى t أن رسول الله في يوم الأحزاب انتظر حتى مالت الشمس، ثم قام في الناس خطيبًا قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ،

---

(١) ينظر في تقديم المسند إليه للاهتمام والتأكيد: شروح التلخيص: ١/٣٨٩ و٤٠٠. وسيأتي مزيد بيان للتقديم والتأخير في المبحث الثالث من الفصل الرابع.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٧١، والمصباح: ٩، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٤٤، والطراز: ٥١٨، وشروح التلخيص: ١/٢٠٥.

(٣) ينظر: البلاغة العالية في علم المعاني: ٤٦، وخصائص التراكيب: ٩٤، وعلم المعاني، لفيود: ١/٥٠.

وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ» ثم دعا على المشركين فقال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ»[(١)].

والنبي r يدرك حاجة المؤمنين إلى التثبيت والتنشيط إلى الجهاد في ذلك اليوم العصيب الذي وجد فيه المؤمنون شدة وابتلاء، اجتمع فيه شدة الريح والبرد، وحصار المشركين، ونقض اليهود للعهود، وخذلان المنافقين، وتخذيلهم، وقد ذكر الله U ذلك في سورة الأحزاب فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا $ إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا $ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا $ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا $ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ الآيات إلى قوله: ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولاً﴾[الأحزاب: ٩-١٥].

ولقد كان النبي r يثبت المؤمنين ويحفزهم بعدة أساليب وطرق منذ أن بدؤوا في التهيئة للغزوة وحفر الخندق إلى تلك اللحظة التي اقتربت فيها المواجهة، وهي لحظة أحوج ما يكون فيها المؤمنون إلى تثبيت وتصبير وتحميس للجهاد، حتى لا تفتر الهمم وتضعف النفوس أمام قوة الأعداء المحاصرين، خاصة أن المؤمنين في موقف المدافع وهو موقف عادة ما يكون أقل قوة من موقف المهاجم، وفي هذه اللحظة يختار النبي r وسيلة الخطابة التي هي من أقوى الوسائل تأثيرًا وتحميسًا في مثل هذا المقام، ويقرن بها دعاء على المشركين يزلزل قلوبهم، ويثبت قلوب المؤمنين y.

ولقد عَرَفت هذه اللحظة عدة خطب في تاريخ الحروب، لما للخطبة في هذه اللحظة من تأثير عميق في نفوس المحاربين.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٩٣٣ و٢٩٦٦) ، ومسلم: (١٧٤٢).

وجاءت بعض ألفاظ الخطبة وتراكيبها مراعية لحال المخاطبين، ومن ذلك مثلاً تأكيد الخبر في قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ» فتأكيد الخبر في الخطبة يقصد بـه تمكينه في النفس في مقام الحث والترغيب في الجهاد وملاقاة الأعداء بصبر وثبات، والله أعلم.

وفي قوله r : «ظِلالِ السُّيُوفِ» كناية عن الجهاد ومقارعة الأعداء، وهي كناية عن موصوف. وفي قوله r : «الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ» كناية عن نسبة، أي أن الجهاد سبب موصل إلى الجنة(١)، وفي الكناية مزيد حث وترغيب على مقارعة الأعداء وجهادهم، فهي تصور المجاهد الذي يستحق الجنة منغمسًا في العدو مقبلاً غير مدبر، شجاعًا غير هياب ولا وجل، وتشعره بأنه حال قتاله ومقارعته للعدو يعيش في الجنة، ولا شك أن في هذا التصوير ما يدفع المخاطبين إلى القتال ومجاهدة الأعداء، والله أعلم.

ت- الحد من انتشار المخالفة.

ويكون ذلك في المخالفات التي يخشى النبي r أن تعم بين أفراد المجتمع الإسلامي فتحدث اضطرابًا فيه، وانحرافًا عن منهجه المستقيم، فيقوم النبي r خطيبًا في الأمة محذرًا ومبينًا عظم الأمر وخطره، بخلاف الأخطاء التي تخص صاحبها أو لا يتضرر بها إلا فرد أو عدد محدود فإن النبي r لا يخطب فيها(٢).

ومن ذلك مثلاً:

١- خطبته في شأن بعض شباب الصحابة y الذين أرادوا أن يسلكوا مسلك التشدد في التعبد، فيميلوا عن المنهج الإسلامي في التكامل والتوازن بين حاجات النفس البشرية، فعن أنس بن مالك t قال: جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي r يسألون عن عبادة النبي t ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي t ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله r إليهم

---

(١) ينظر في الكناية: دلائل الإعجاز: ٦٦، ومفتاح العلوم: ٤٠٢، وشروح التلخيص: ٤/٢٣٧، وسيأتي حديث عن الكناية عمومًا وفي هذا الحديث خصوصًا في المبحث الأول من الفصل السادس.

(٢) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٢٧٠.

فقال: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي» وفي رواية: فحمد الله وأثنى عليه وقال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا، لَكِنِّي أُصَلِّي وَأَنَامُ، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)].

وقد يعني تعدد هذه الروايات أن النبي ﷺ خصهم بالخطاب أولاً، ثم عم فخطب ثانيًا[(٢)]، وهذا منهج يتبعه النبي ﷺ في المخالفات العامة كما سيأتي له بعض الأمثلة بإذن الله ﻷ.

والناس قد علموا بشأن هؤلاء النفر وما حصل منهم، فلو أن النبي ﷺ خص الثلاثة بالخطاب فقد لا يعلم الناس بالإنكار عليهم في هذا المسلك الخطير على الأمة، وربما استهوى بعض الناس هذا الفعل فيعم بينهم، وإذا عم أوجد خللاً عظيمًا في المجتمع الإسلامي؛ فحصل به ضعف الأمة وقلة أفرادها، وحصر منهجها في شؤون التعبد الخاصة، وتنفير الناس عن الدخول في دينها، فضلاً عما ينتجه هذا المسلك على المستوى الذاتي من فتور ونكوص.

ومثل هذا الموقف ما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ صنع أمرًا تَرَخَّص فيه، فبلغ ذلك ناسًا من أصحابه، فكأنهم كرهوه، وتنزهوا عنه، فبلغه ذلك، فغضب حتى بان الغضب في وجهه، وقام خطيبًا فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللهِ، إِنِّي أَعْلَمُهُمْ بِاللهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»[(٣)].

وفي خطبته ﷺ في الثلاثة الذين تقالوا خطبته نلحظ التقابل في الخطبة، من خلال أسلوب (الطباق) الذي يجمع بين معنى واحد وما يضاده[(٤)]؛ بين الصيام والفطر، وكذلك بين الصلاة والنوم، وجاء الطباق لغرض يقتضيه حال المخاطبين، فإنهم لما أرادوا أن يقتصروا على حالة واحدة لا يتجاوزونها، أرشدهم النبي ﷺ إلى التوازن في حياتهم وعبادتهم بين

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٠٦٣) ، ومسلم: (١٤٠١).

(٢) ينظر: عمدة القاري: ٢٠/٦٥.

(٣) أخرجه البخاري: (٦١٠١ و٧٣٠١) ، ومسلم: (٢٣٥٦).

(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٤/٢٨٦، والتبيان، للطيبي: ٢/٣٩٣، وطراز الحلة: ٣٥٦، وخزانة الأدب، لابن حجة: ١/١٥٦، والقول البديع: ١٢٠.

حاجات النفس البشرية، فيجمعون بين هذه الأضداد، بحيث يكون لكل ضد وقته المناسب له، فجاء التضاد هنا لإحداث التوازن في حياة المخاطبين، والله أعلم.

وسيأتي بإذن الله مزيد حديث عن رعاية النبي r لحال المخاطب في بعض ألفاظ الحديث وأساليبه[(١)].

٢- من الخطب التي خطبها رسول الله r لهذا الغرض ما روته عائشة رضي الله عنها أن امرأة مخزومية سرقت في غزوة الفتح، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد t حِبّ رسول الله r، يستشفعونه، فلما كلم رسول الله r تلون وجهه r، فقال: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟» فقال له أسامة: استغفر لي يا رسول الله. فلما كان العشي قام رسول الله r خطيبًا، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا» ثم أمر رسول الله r بتلك المرأة فقطعت يدها، فحسنت توبتها بعد ذلك[(٢)].

ومع أن الذي شفع في الحد فرد إلا أن الذي دفعه إلى الشفاعة قوم، ثم إن المخالفة لن يخص ضررها هذا الفرد وحده أو قوم المرأة، ولكنه سيعم المجتمع بالهلاك، فلعل ذلك كان دافعًا إلى أن يخطب النبي r في الناس عامة بعد أن خص المخالف بالإنكار، والله أعلم.

ومن أساليب الخطبة المجاز العقلي الذي علاقته السببية[(٣)]، حيث أسند فعل الإهلاك إلى ترك إقامة الحدود على الناس جميعًا بغض النظر عن مترلتهم ومكانتهم، وإنما الإهلاك من الله U، لكن لما كان ترك إقامة الحدود سببًا في الإهلاك أسند إليه، لإشعار المخاطبين بخطورة الفعل الذي يبتغونه، وتصوير سرعة عاقبته، لأن المسبب يحصل بحصول السبب، فإذا

---

(١) ينظر ص (٣١٨، ٣٢٦، ٥١٠، ٦٣٥) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٦٤٨ و٣٤٧٥ و٤٣٠٤ و٦٧٨٨)، ومسلم: (١٦٨٨).

(٣) ينظر في المجاز العقلي: أسرار البلاغة: ٣٨٥، وشروح التلخيص: ١/٢٣١، وعلم البيان: ١٤٩، وسيأتي في الفصل السادس حديث خاص عنه.

حصل الترك حصل الإهلاك، ولذا قدم المسبب على السبب، وجاء فعل الإهـــلاك ماضـــيًا لتأكيد تحقق العاقبة(١)، والله أعلم.

وقصر النبي r الإهلاك على هذا الأمر دون غيره من المهلكات، من أسلوب القصر الحقيقي الادعائي المبني على الادعاء والمبالغة(٢)، ولعل النبي r يريد بذلك إظهار عظم خطر ترك إقامة الحدود في المجتمع المسلم، والله أعلم.

وقدم r سرقة الشريف على سرقة الضعيف؛ لأن المخالفة وقعت في إرادة عدم إقامة الحد على الشريف، أما إقامة الحد على الضعيف فليس فيها مخالفة(٣).

ومن خطبه r في المخالفات التي تهم المجتمع كله خطبته r في شأن العمال الـــذين يقبلون الهدايا ويختصون بها، فعن أبي حميد الساعدي t أن رسول الله r اســـتعمل ابـــن اللُّتْبِية على صدقات بني سليم، فلما جاء حاسبه قال: هذا مالكم، وهذا هدية. فقال رسول الله r: «فَهَلاَّ جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا» ثم قـــام الرسول r عشية بعد الصلاة يخطب، فتشهد، وحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، ثم قـــال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلاَّنِي اللهُ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي. أَفَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ، وَاللهِ، لا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاَّ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَلأَعْرِفَنَّ أَحَدًا مِنْكُمْ لَقِيَ اللهَ يَحْمِـــلُ بَعِيرًا لَهُ رُغَاءٌ أَوْ بَقَرَةً لَهَا خُوَارٌ أَوْ شَاةً تَيْعَرُ» ثم رفع يده حتى رئي بياض إبطه يقول: «اللَّهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ»(٤).

وسيأتي بيان لبعض الأساليب البلاغية التي روعي فيها حال المخاطب، كالاســـتفهام الإنكاري، والقسم، والقصر(٥).

---

(١) ينظر في بلاغة الفعل الماضي: مفتاح العلوم: ٢٤٠، وشروح التلخيص: ٢/٤٠، والتبيـــان في البيـــان، للطـــيبي: ١/١٧٧ و١٨٦، وسيأتي في الفصل السادس حديث خاص عنه.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٢/١٧٤، والبلاغة العالية في علم المعاني: ٥٠، وخصـــائص التراكيـــب: ٤٦، وشـــرح أحاديث من صحيح البخاري: ٣٢٥.

(٣) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٣٢٥.

(٤) أخرجه البخاري: (٢٥٩٧ و٦٦٣٦ و٦٩٧٩) ، ومسلم: (١٨٣٢).

(٥) ينظر ص (٣٨٢، ٤٣٨، ٤٧٧، ٦٥٥) من هذا البحث.

ث- إبراز الاهتمام بمن تتعلق به الخطبة.

قد يكون من أغراض الخطبة إبراز اهتمام النبي r بمن تتعلق به الخطبة، وهو حينئذ أحد المخاطبين بها.

ومن ذلك مثلاً خطبته r في شأن خِطبة علي t لابنة أبي جهل على الزهراء فاطمة رضي الله عنها، فعن المسور بن مخرمة t أن عليًا t خطب بنت أبي جهل، فسمعت بذلك فاطمة، فأتت رسول الله t فقالت: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحًا ابنة أبي جهل، قال المسور: فقام النبي r ، فسمعته حين تشهد، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَنْكَحْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ، فَحَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَإِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ مُضْغَةٌ مِنِّي، وَإِنَّمَا أَكْرَهُ أَنْ يَفْتِنُوهَا، وَإِنَّهَا وَاللهِ لا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا» وفي رواية أنه r قال في الخطبة: «وَإِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلالاً، وَلا أُحِلُّ حَرَامًا، ولَكِنْ لا تَجْتَمِعُ...» وفي رواية أنه r قال: «إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَلا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لا آذَنُ لَهُمْ، إِلاَّ أَنْ يُحِبَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ، فَإِنَّمَا ابْنَتِي بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي مَا رَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا»(١).

ذكر النووي (٦٧٦هـ) عن بعض أهل العلم أن ((قد أعلم r بإباحة نكاح بنت أبي جهل لعلي بقوله r : «لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلالاً» ولكن نهى عن الجمع بينهما، لعلتين منصوصتين: إحداهما: أن ذلك يؤدي إلى أذى فاطمة، فيتأذى حينئذ النبي r ، فيهلك من آذاه، فنهى عن ذلك لكمال شفقته على علي وعلى فاطمة .والثانية: خوف الفتنة عليها بسبب الغيرة))(٢)، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((إنما خطب النبي r ليشيع الحكم المذكور بين الناس، ويأخذوا به إما على سبيل الإيجاب، وإما على سبيل الأولوية))(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (٣١١٠ و٣٧٢٩ و٥٢٣٠) ، ومسلم: (٢٤٤٩).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٣/١٦.

(٣) فتح الباري: ٨٦/٧.

والمقصود بالخطاب في هذه الخطبة علي بن أبي طالب t وعشيرته لتنفيرهم من الإقدام على خِطبة ابنة أبي جهل وزواج علي t على فاطمة رضي الله عنها، ويقصد بالخطاب أيضًا فاطمة رضي الله عنها، إشعارًا لها بمترلتها عند أبيها r .

وقد جاءت أساليب الخطبة مراعية لحال المخاطبين، ومن ذلك مجيء النهي بصيغة الخبر في قوله r : «وَإِنَّهَا وَاللهِ لا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا» وهذا نهي عن اجتماع ابنته r مع بنت أبي جهل، وإنما صيغ النهي بصيغة الخبر للدلالة على تحقق هذا الأمر وتقرره عند النبي r وعند غيره، واستمراره في حياته وبعد مماته، ولذا جاء بصيغة الفعل المضارع، الذي يدل على تجدد الأمر واستمراره شيئًا فشيئًا[1]، والله أعلم.

ومن ذلك التقابل بين (بنت رسول الله) و(بنت عدو الله) وهذا من الطباق بين (رسول الله) و(عدو الله)، و لم يقل النبي r : بنت محمد، ولا: بنت أبي جهل؛ لأن النبي r أراد أن يصرف عليًا عن الزواج بابنة أبي جهل ما دامت فاطمة تحته، فوصفها بأنها بنت عدو الله، تنفيرًا من الزواج منها، ويقابل هذا الوصف البغيض الوصف بأن فاطمة بنت رسول الله r ، إشعارًا لعلي بإكرام الرسول r وإعظام مترلته ومترلة ابنته منه، وفي هذا الطباق ترغيب وترهيب، والله أعلم.

وفي الخطبة أساليب أخرى كالتعريف بالإضافة، والعطف بـ(ثم) مع التكرار، والإظهار في موضع الإضمار، والالتفات، وسيأتي بيانها في مواضعها من البحث بإذن الله[2].

ومن ذلك أيضًا خطبته r لَمَّا طعن الناس في إمارة أسامة بن زيد t حينما ولاه قيادة الجيش إلى الروم، فعن ابن عمر t أن النبي r بعث بعثًا، وأَمَّر عليهم أسامة بن زيد t ، فطعن بعض الناس في إمارته، فخطب على المنبر وقال: «قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ قُلْتُمْ فِي أُسَامَةَ.. إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ -يريد أسامة- فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، وَايْمُ اللهِ إِنْ

---

(١) فتح الباري: ٨٦/٧.

(٢) ينظر ص (٣٣٣، ٥٠٤، ٥٣٨، ٥٦٠، ٥٧٥، ٥٨٣) من هذا البحث.

كَانَ لَخَلِيقًا لَهَا، وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لأَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَايْمُ اللهِ إِنَّ هَذَا لَهَا لَخَلِيقٌ -يريد أسامة-، وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لأَحَبَّهُمْ إِلَيَّ مِنْ بَعْدِهِ، فَأُوصِيكُمْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ صَالِحِيكُمْ»[1].

ويظهر في هذه الخطبة التأكيد القوي للأخبار، بالقسم، و(إنّ)، ولام الابتداء، على سبيل الخبر الإنكاري؛ لكون بعض المخاطبين يطعنون في إمارة أسامة t ، وهذا الطعن فيه تحقير له وتصغير لشأنه، وسيقع في نفس أسامة t بسبب ذلك ما سيقع، فأراد النبي r أن يرد عليهم إنكارهم وطعنهم، ويقرر فضله في أنفسهم وفي نفس أسامة t فخطب إشعارًا بأهمية الأمر وأهمية الموصى به، وأكد الكلام لتقريره وتمكينه في النفوس، والله أعلم.

هذه بعض الأمثلة على مواقف اختار فيها النبي r الخطابة مراعاة لحال المخاطب، وأشير في خاتمتها إلى أبرز ما تبين لي من ملحوظات:

١- يلجأ النبي r للخطبة في المواقف المهمة التي تحتاج إلى خطاب جماهيري، يخاطب فيه النبي r جمعًا من الناس في وقت واحد، وقد سبق في مبحث العدد من الفصل الأول أن لعدد المخاطبين أثرًا في اختيار الوسيلة التعبيرية التي تحمل المضامين إلى المخاطبين.

ومن الصعوبة في الأمور المهمة التي يراد إيصالها إلى الجموع الكثيرة أن يلجأ المتكلم إلى الخطاب الفردي، وتعليل الصعوبة واضح لا حاجة إلى الاستطراد فيه، إلا أن مما يؤكد عليه هنا أن المضامين المهمة التي يراد من الجميع استيعابها والعمل بها لا بد أن تكون ظاهرة ومسموعة بين الجميع، لأمرين.

أما الأول فلأن الخطيب يظهر الاهتمام بما يخطب فيه والحماسة له ومحاولة بثه في المخاطبين، ولكون هذا الاهتمام مركزًا وفي وقت يسير فإنه غالبًا ما يحافظ الخطيب عليه، وهذا يشعر بأهمية الخطبة لدى جميع المخاطبين، ولو كان بعض المخاطبين لم يؤثر فيه اهتمام الخطيب وحماسته فإن الشعور العام بالاهتمام والحماسة في غالب الجماهير ينتقل إليهم، بخلاف الخطاب الفردي مع جمع كثير فإن نسبة الحماسة والاهتمام قد لا تكون واحدة مع كل واحد، بل قد يفتقد الحديث الاهتمام أحيانًا لأحوال تحيط به أو بالمخاطَب أو بهما معًا، كما يفتقد المخاطَب تأثير حالة الجمهور فيه.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٣٠ و٤٢٥٠ و٤٤٦٨) ، ومسلم: (١٤٢٦).

وأما الثاني فلأن البيئة الاجتماعية محفزة وضابطة، فإذا كان المأمور به معلومًا وظاهرًا في المجتمع فإنه يسهل على النفس القيام به، ويصعب عليها تركه، ولو خالفت الأمر لقوبلت بالإنكار، أو على أقل الأحوال تصير في توجس منه، وفي قلق من المخالفة، وكذا القول فيما نهي عنه، فإنه يسهل على النفس تركه، وتتوجس من الإقدام عليه.

٢- يلحظ أن النبي r حينما يخطب في الناس بسبب المخالفات الفردية لا يعين المخالفين بأسمائهم، بل يبهم ويقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ» رعاية لطبيعة النفس البشرية التي تأنف من فضحها والإنكار عليها أمام الجمهور، خاصة أن الإنكار سبق أن وجه إليها. والجمهور أيضًا قد يشمئزون من هذا النوع من الخطاب ويستنكرونه، وربما فسروه بمقاصد شخصية كانتقام ونحو ذلك، ولا يكون حينئذ لهذا الخطاب أثر في المخاطب، والنبي r يوازن في خطابه هذا بين الحاجة إلى الإنكار العلني الذي يستهدف المخالفة ويركز عليها، والمحافظة على المخالفين المقصودين بالخطاب أولاً، وهذا من خلق النبي r المعهود عنه، وقد روت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي r كان إذا بلغه عن الرجل الشيء لم يقل: ما بال فلان يقول، ولكن يقول: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ قَالُوا كَذَا وَكَذَا»[1]، قال النووي (٦٧٦هـ) في قوله r: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ»: ((هو موافق للمعروف من خطبه r في مثل هذا، أنه إذا كره شيئًا فخطب له ذكر كراهيته، ولا يعين فاعله، وهذا من عظيم خلقه r، فإن المقصود من ذلك الشخصُ وجميعُ الحاضرين وغيرُهم ممن يبلغه ذلك، ولا يحصل توبيخ صاحبه في الملأ))[2].

ويستثنى من ذلك ما إذا كان في تعيين الشخص ثناء له، كما في خطبته في شأن الذي عتبوا حينما لم يعطهم من الفيء، وذكر منهم عمرو بن تغلب t.

٣- قد تأتي الخطبة مستقلة بذاتها في التعبير عن المقصود، كخطبته r حينما قتلت خزاعة رجلاً من بني ليث في فتح مكة، وخطبته r في شأن خِطبة علي على فاطمة.

---

(١) أخرجه أبو داود: كتاب الأدب، باب في حسن العشرة، برقم (٤٧٨٨)، وصححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٥/٩٧ برقم (٢٠٦٤)، وفي صحيح سنن أبي داود: ٣/٩٠٩ برقم: (٤٠٠٥).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٩/١٧٦، وينظر: ١٥/١٠٧.

وقد تأتي مصحوبة بحوار في بدئها كخطبته r في شأن الأنصار مع قسمة الغنـــائم بعد غزوة حنين.

وقد تأتي الخطبة مقصودًا بها الوصية، كخطبته في شأن أسامة بن زيد t .

وقد تأتي مصحوبة بإشارة ذات دلالة يفهمها المخاطبون، كتغير وجهه وتلونه غضبًا وإنكارًا على المخالفة، كما في خطبته r فيمن كره ما ترخص فيــه. وكرميــه الخــاتم في حديث ابن عمر t أن النبي r اصطنع خاتمًا من ذهب، وجعل فصه في بطـــن كفـــه إذا لبسه، فاصطنع الناس خواتيم من ذهب، فرقي المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، فقال: «إِنِّـــي كُنْتُ أَلْبَسُ هَذَا الْخَاتِمَ وَأَجْعَلُ فَصَّهُ مِنْ دَاخِلٍ» فرمى به، ثم قال: «وَاللهِ، لا أَلْبَسُهُ أَبَـــدًا» فنبذ الناس خواتيمهم(١).

٤- حينما يستدعي الموقف الخطبة، قد يخطب النبي r في الحال، إذا كان الناس مجتمعين، كما في خطبته في شأن خزاعة في فتح مكة، أو يـــدعو مـــن تخصـــهم الخطبـــة للاجتماع، كما في خطبته في الأنصار. وقد ينتظر النبي r اجتماع الناس للصلاة فيخطـــب فيهم، كما في خطبته بشأن ابن اللُّتْبِية.

٥- في الخطب المبنية على مخالفات فردية يخطب النبي r في عموم الناس بعد أن يخص أصحاب المخالفات بالإنكار، كخطبته r في شفاعة أسامة t بعد أن أنكر عليـــه، وخطبته في شأن ابن اللُّتْبِية بعد أن أنكر عليه.

٦- يخطب النبي r وهو قائم، بحيث يرى الناس ويرونه، وهذا أدعى لأن يتفاعل الخطيب مع خطبته، ومع جمهوره، فيتحمس لإيصال كلامه إلى الناس، ويشدهم لاســـتماع كلامه.

٧- يبدأ النبي r خطبه بالتشهد، وحمد الله U، والثناء عليه، ثم (أمـــا بعـــد)، وبعض الأحاديث لم تذكر شيئًا من هذا.

٨- يكثر في الخطب التأكيد؛ لكون النبي r يخطب في الأمور العامة والمهمة التي تحتاج إلى ترغيب أو ترهيب، فيريد r أن يقرر ذلك ويمكنـــه في النفـــوس، ويـــبرز مـــن المؤكدات (إنّ) والقسم والقصر.

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٨٧٦ و٦٦٥١ و٧٢٩٨) ، ومسلم: (٢٠٩١).

٩- الغالب في خطب النبي r الإيجاز، ويظهر شيء من الإطناب في خطبه الـــتي يطيب بها نفوس أصحابه y .

المبحث الثالث: الحوار.

- المقصود بالحوار.

الحوار، والمحاورة عند أهل اللغة: المجاوبة ومراجعة الكلام بين طرفين أو أكثر، ذكر في لسان العرب: ((المُحاوَرَة: المجاوبة، والتَّحاوُرُ: التجاوب... واستحاره أي: استنطقه... وهم يَتَحاوَرُون أي: يتراجعون الكلام، والمُحاوَرَةُ: مراجعة المنطق والكلام في المخاطبة))(١)، ولا تختلف حقيقة المعنى في اصطلاح المتأخرين، وإن تعددت تعريفاتهم له، فهم يرون أنه محادثة بين شخصين أو أكثر في أمر ما، بطريقة علمية عقلية، لإيضاح الحقيقة.

وقد يكون الحوار عن طريق السؤال والجواب، وقد يكون بغيره(٢).

وورد الحوار بهذا المعنى في القرآن الكريم في قول الله U: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ وَاللهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]، وفي الحوار الذي حصل بين صاحب الجنتين وصاحبه في سورة الكهف قال الله U: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَرًا $ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا $ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ثم رد عليه صاحبه: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف: ٣٤-٣٧].

- أهداف الحوار ودواعيه.

يهدف الحوار إلى الوصول إلى الحقيقة ((عن اقتناع عقلي، وارتياح نفسي، واطمئنان وجداني، يجعل صاحبه يعيش حياته وهو ثابت على ما آمن به ثباتًا لا ينازعه ريب، ولا يخالطه شك، ولا يحوم حوله وهم))(٣)، ولذا يعد الحوار عاملاً مهمًا في وضوح الفكرة وسلامتها، والتخلص من العوائق التي تحول دون الوصول إلى الحقيقة(٤).

---

(١) لسان العرب: ٤/٢١٧. وينظر: تهذيب اللغة: ٥/٢٢٧، وتاج العروس: ١١/١٠٧-١٠٨.

(٢) ينظر: الحوار، آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية: ٢١-٢٢.

(٣) أدب الحوار في الإسلام: ٣.

(٤) ينظر: الحديث النبوي وعلم النفس: ١٥٢.

وثمة دواع عديدة تدعو إلى الحوار، كدعوة، أو تعليم، أو رد على شبهة، أو تعرف على شخصية مخاطب، أو إشعار له باحترامه وتقديره، أو غير ذلك من الدواعي[١].

((وأسلوب الحوار محبب إلى النفس، يضفي الحيوية على النص الأدبي الجميل، ويدفع الملل والشرود، ويشد انتباه السامع، ويجعل الإقبال على متابعة النص أشد، والذهن أكثر تفتحًا وتجاوبًا. وذكروا في وصف الحوار الجيد أنه يجب أن يحتوي على صفتين أساسيتين: التركيز، والإيجاز. وقرروا أن الطول في العبارة الحوارية يميت الحيوية))[٢].

- الحوار في الخطاب النبوي وأثر حال المخاطب فيه.

كثر الحوار في الحديث الشريف بين النبي r وأصحابه، وغيرهم، منه ما يجري ابتداء من النبي r ، ومنه ما يكون البدء من غيره، إلا أن التركيز هنا سيكون على الحوار الذي اختاره النبي r ابتداء أو بناء على رغبة المخاطب، ليكون وسيلة للتعبير عما يهدف إليه، بناء على الحال الذي يقتضيه، والموقف الذي يستدعيه[٣].

ويأتي اختيار النبي r للحوار ملائمًا لحال المخاطب في عدة أغراض، منها:

أ- التعليم والتربية.

يعد الحوار من الأساليب المهمة في التربية والتعليم[٤]، ويستخدم النبي r طرقًا متنوعة في إثارة الحوار مع أصحابه وتشويقهم إلى المعرفة[٥]، من ذلك:

١- أن يستفهم النبي r عن الشيء الذي لا يعرفه الصحابة y، تشويقًا إلى معرفته، والتساؤل عنه.

والتشويق من الأغراض التي يأتي لها الاستفهام، حينما يقصد المتكلم إلى ترغيب المخاطب واستمالته[٦]. والتشويق جاء في صورة الاستفهام لما فيه من تنبيه وإثارة نفسية

---

(١) ينظر: الحوار، آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية: ٣٦-٤٨.

(٢) الحديث النبوي: ٩٦. وينظر: أسلوب الحوار في صحيح البخاري: ٣٣.

(٣) ينظر: البيان النبوي: ٧٤، وأسلوب الحوار في صحيح البخاري: ٣٣، وأسلوب الحوار في صحيح الإمام مسلم: ٣٣٤.

(٤) ينظر: الحوار آدابه وتطبيقاته: ٩٥.

(٥) ينظر: الحديث النبوي: مصطلحه، بلاغته، كتبه: ٩٦-١٠٤، وأسلوب الحوار في صحيح البخاري:٣٥-٤٠.

(٦) ينظر: شرح عقود الجمان، للسيوطي: ٥٤، وشرح عقود الجمان، للمرشدي: ١/١٨٨، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٤١، والتشويق في الحديث النبوي: ١٤.

لتقبل المعلومات، والنفس الإنسانية تستجيب للإثارة(١). ولما كان الصحابة y لا يعرفون الجواب كانوا يردون العلم إلى الله U، وإلى رسوله r.

ومما ورد في ذلك حديث معاذ بن جبل t قال: بينا أنا رديف النبي r ليس بيني وبينه إلا أَخِرة الرحل، فقال: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك. قال: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حَقُّ اللهِ عَلَى عِبَادِهِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا» ثم سار ساعة، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قلت: لبيك رسول الله وسعديك. فقال: «هَلْ تَدْرِي مَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ إِذَا فَعَلُوهُ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللهِ أَنْ لا يُعَذِّبَهُمْ»(٢).

ومعاذ t من أحرص الصحابة على العلم والتعلم، وكان أعرفهم بالحلال والحرام، وقد شهد له بذلك رسول الله r في قوله: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءً عُثْمَانُ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَؤُهُمْ أُبَيٌّ، وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينٌ، وَأَمِينُ هَذِهِ الأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»(٣). ولذا فإن النبي r يخصه ببعض العلم دون غيره(٤)، ولما كان العلم الذي يريد النبي r أن يخبر به معاذًا معاذًا t يحتاج إلى تنبه واهتمام جاء به على صيغة الحوار ليكون معاذ t أكمل استعدادًا واشتياقًا لتلقي الخبر والاهتمام به، وقدم النبي r لذلك نداء معاذ ثلاث مرات ((لتأكيد الاهتمام بما يخبره به، ويبالغ في تفهمه وضبطه))(٥)، والله أعلم.

---

(١) ينظر: علم المعاني، لفيود: ٢/١٢٧، والرسول العربي المربي: ٢٣٩، والحديث النبوي وعلم النفس: ١٩١.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٩٦٧) ، ومسلم: (٣٠).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده: ٣/١٨٤، والترمذي: كتاب المناقب، باب مناقب معاذ بن جبل، برقم (٣٧٩٠ و٣٧٩١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) ينظر: صحيح البخاري: كتاب العلم، باب من خص بالعلم قومًا دون قوم كراهية أن لا يفهموا، وفتح الباري: ١/٢٢٧.

(٥) ينظر: الحديث النبوي وعلم النفس: ١٥٢.

ومما ورد في ذلك حديث أبي هريرة t أن رسول الله r قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْغِيبَةُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ» قيل: أرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ فَقَدْ بَهَتَّهُ»(١).

وقد يحاور النبي r أصحابه y فيسألهم عن معرفتهم بحقيقة الشيء، ثم يجيبهم دون انتظار جوابهم، إدراكًا منه لعدم معرفتهم، ومن ذلك مارواه أنس بن مالك t قال: مر يهودي برسول الله r فقال: السَّام عليك، فقال رسول الله r: «وَعَلَيْكَ» فقال رسول الله r: «أَتَدْرُونَ مَا يَقُولُ؟ قَالَ: السَّامُ عَلَيْكَ» قالوا: يا رسول الله، ألا نقتله؟ قال: «لا، إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ»(٢)، فكان سؤاله تنبيهًا لهم إلى معرفة حقيقة مكر اليهود وكيدهم وسوء قولهم، ثم أخبرهم بما ينبغي عليهم تجاه قول اليهود ومكرهم، من حسن الرد وترك المقاتلة، والله أعلم.

٢- أن يسأل النبي r الصحابة y عن الشيء المعلوم دلالته عندهم، ليضيف إليه دلالة جديدة، هي أولى من الدلالة المعهودة، ويشعر الصحابة y أن النبي r سيضيف شيئًا، ولذا هم يحترسون في الجواب.

ومن الأمثلة على ذلك ما رواه أبو هريرة t أن رسول الله r قال: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. فقال: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ»(٣)، واحتراس الصحابة y في الجواب جاء في قولهم: فينا، وكأنهم شعروا أن النبي r سيعطي مدلولاً للفظ غير ما يعهدونه، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٥٨٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٦٩٢٦) بهذا السياق، ومسلم: (٢١٦٣).

(٣) أخرجه مسلم: (٢٥٨١).

وجاء الاستفهام في رواية الصحيح وعند الترمذي بـ(ما)[١]، لأن الاستفهام ليس عن تصور من يعقل، وإنما عن صفته، و(ما) يطلب بها بيان حقيقة المسمى وصفته[٢]، قال الطيبي: ((قوله: «أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» كذا في صحيح مسلم، وجامع الترمذي، وكتاب الحميدي، وجامع الأصول، وشرح السنة، فعلى هذا السؤالُ عن وصف المفلس لا عن حقيقته، ومن ثم أجاب r بوصفه بقوله: شتم وأكل وقذف))[٣]. ولعل هذا التوجيه يرجح رواية الاستفهام بـ(ما) على رواية الاستفهام بـ(مَن) الواردة في مسند أحمد[٤].

ومن أمثلة ذلك حديث ابن مسعود t قال: قال رسول الله r: «مَا تَعُدُّونَ الرَّقُوبَ فِيكُمْ؟» قلنا: الذي لا يولد له. قال: «لَيْسَ ذَاكَ بِالرَّقُوبِ؛ وَلَكِنَّهُ الرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يُقَدِّمْ مِنْ وَلَدِهِ شَيْئًا» قال: «فَمَا تَعُدُّونَ الصُّرَعَةَ فِيكُمْ؟» قلنا: الذي لا يصرعه الرجال. قال: «لَيْسَ بِذَلِكَ؛ وَلَكِنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»[٥]، ولم يحتج الصحابة y في جوابهم هنا إلى الاحتراس؛ لأن النبي r كفاهم ذلك فسألهم عن معهودهم في اللفظتين فقال: «فِيكُمْ». ومثل ذلك حديث أبي هريرة t قال: قال رسول الله r: «مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟» قالوا: يا رسول الله، من قتل في سبيل الله فهو شهيد. قال: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ» قالوا: فمن هم، يا رسول الله؟ قال: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الْبَطْنِ فَهُوَ شَهِيدٌ»[٦]. وقد سبقت الإشارة إلى بلاغة الاحتراس في حديث سعد t في مبحث الدعاء، وسيأتي مزيد حديث عنها بإذن الله U[٧].

---

(١) سنن الترمذي: كتاب صفة القيامة، باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص، برقم (٢٤١٨).

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٢٧٤.

(٣) الكاشف عن حقائق السنن: ٩/٢٦٣.

(٤) مسند أحمد: ٢/٣٠٣.

(٥) أخرجه مسلم: (٢٦٠٨).

(٦) أخرجه مسلم: (١٩١٥).

(٧) ينظر ص (٥٤٠) من هذا البحث.

٣- أن يستثير النبي r رغبة الصحابة y في التعلم والمعرفة حينما يستفهم عن ترك إخبارهم بالعلم، وهذا أيضًا من التشويق والترغيب؛ لأن النفس الإنسانية تتشوف إلى المعرفة وتشتاق إليها، وتنفر من الجهل، وتأنف أن توصف به، وكيف إذا كان العلم من رسول الله r والمخاطبون هم الصحابة y!.

ومن ذلك قول النبي r: «أَلا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟» ثلاثًا، فقال الصحابة y: بلى، يا رسول الله. قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» وكان متكئًا فجلس، فقال: «أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ، أَلا وَقَوْلُ الزُّورِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ» فما زال يكررها حتى قلنا: لا يسكت[(١)].

ومن ذلك قوله r: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ الْجَنَّةِ؟» قالوا: بلى. قال: «كُلُّ ضَعِيفٍ مُتَضَعِّفٍ، لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ» ثم قال: «أَلا أُخْبِرُكُمْ بِأَهْلِ النَّارِ؟» قالوا: بلى. قال: «كُلُّ عُتُلٍّ جَوَّاظٍ مُسْتَكْبِرٍ»[(٢)].

ومن ذلك قوله r: «أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَى مَا يَمْحُو اللهُ بِهِ الْخَطَايَا، وَيَرْفَعُ بِهِ الدَّرَجَاتِ؟» قالوا: بلى، يارسول الله. قال: «إِسْبَاغُ الْوُضُوءِ عَلَى الْمَكَارِهِ، وَكَثْرَةُ الْخُطَا إِلَى الْمَسَاجِدِ، وَانْتِظَارُ الصَّلاةِ بَعْدَ الصَّلاةِ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ، فَذَلِكُمْ الرِّبَاطُ»[(٣)].

ويلحظ في هذه الأحاديث وأحاديث الصحيحين التي جاء فيها الاستفهام عن ترك إخبارهم بالعلم ترغيبًا للصحابة في التعلم والمعرفة أن الاستفهام يكون بصيغة (أَلاَ) التحضيضية؛ المكونة من همزة الاستفهام ولا النافية، وهذه الصيغة فيها مبالغة في الترغيب واستثارة الحوار، قال الزمخشري (٥٣٨هـ) عند قول الله U: ﴿أَلاَ تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ الآية [التوبة: ١٣]: ((دخلت الهمزة على (لاَ تقاتلون) تقريرًا بانتفاء المقاتلة، ومعناه: الحض عليها على سبيل المبالغة))[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٦٥٤ و٥٩٧٦) ، ومسلم: (٨٧).

(٢) أخرجه البخاري: (٤٩١٨) ، ومسلم: (٢٨٥٣) وهذا لفظه.

(٣) أخرجه مسلم: (٢٥١).

(٤) الكشاف: ٢/٢٤٤، وينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: ٥٠٥.

وسيأتي حديث عن الاستفهام التحضيضي في الفصل الرابع بإذن الله U، والله أعلم.

٤- قد يحصل من النبي r حركة تثير التعجب لدى الصحابة y، فتكون منطلقًا للحوار معهم.

ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك t قال: كنا عند رسول الله r فضحك، فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ؛ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنْ الظُّلْمِ؟ قال: يَقُولُ: بَلَى. قال: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاَّ شَاهِدًا مِنِّي. قال: فَيَقُولُ: كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ شَهِيدًا وَبِالْكِرَامِ الْكَاتِبِينَ شُهُودًا. قال: فَيُخْتَمُ عَلَى فِيهِ، فَيُقَالُ لأَرْكَانِهِ: انْطِقِي. قال: فَتَنْطِقُ بِأَعْمَالِهِ. قال: ثُمَّ يُخَلَّى بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْكَلامِ. قال: فَيَقُولُ: بُعْدًا لَكُنَّ وَسُحْقًا، فَعَنْكُنَّ كُنْتُ أُنَاضِلُ»(١). وفي هذا الحديث قال الدكتور عز الدين السيد: ((استعمل u وسيلة حسية تسترعي الانتباه، وهي الضحك المفاجئ دون أن يعلموا سببه. والمعروف أن ضحكه u كان تبسمًا، وبعد يقظتهم إليه سألهم عن أمر يجهلونه زيادة في التشويق، واستحضارًا للقلوب، وهم أعقل من أن يجيبوه بما لم يعلموا، إذ هو أمر مرجعه إليه. إن القصة هي قصتهم، وهي قصة كل البشر، وهي مهمة للغاية؛ لأنها مصير محتوم لكل حي ينبغي الإعداد له قبل المباغتة، فإيقاظ المخاطب بتلك الطريق إليها دقة تبلغ المعجزة في طرق التعليم، وهي فضلاً عن ذلك قصة الغيب المرتقب، فهي أولى بأن يمهد لها هذا التمهيد المؤنس للنفس لتنزل منزلة العظة والأناة))(٢).

٥- قد يبدأ الحوار من قبل الصحابي فيسأل الرسولَ r عن المسألة فيجيبه الرسول r عن طرف منها ليشوق السائل إلى الحوار عن بقية الجواب.

ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عمرو t قال: جاء أعرابي إلى النبي r فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: «الإِشْرَاكُ بِاللهِ» قال: ثم ماذا؟ قال: «ثُمَّ عُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ» قال: ثم ماذا؟ قال: «الْيَمِينُ الْغَمُوسُ»(٣)، وفي رواية زيادة: «وَقَتْلُ النَّفْسِ»(٤). ولعل ذكر (عقوق

(١) أخرجه مسلم: (٢٩٦٩).

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ٣٥٤، وينظر: الاستفهام في الصحيحين: ٣٢٣.

(٣) أخرجه البخاري: (٦٩٢٠).

(٤) أخرجها البخاري: (٦٦٧٥).

الوالدين وقتل النفس واليمين الغموس) دون بقية الكبائر لما يقع مثله كثيرًا عند الأعـــراب، فأراد النبي r أن يقتصر على ما يناسب حال السائل(١)، والله أعلم.

والملحوظ أن النبي r لم يسرد الكبائر جميعًا في جوابه الأول، وإنما ذكـــر أهمهـــا، وسكت تشويقًا للسائل أن يسأل عن بقية الكبائر، وهكذا أجاب النبي r عن كل كـــبيرة بسؤال مستقل، ولعل في ذلك إشعارًا للسائل بالاهتمام بأمر كل كبيرة، وإعطاء مزيد اهتمام بالكبيرة الأولى «الإِشْرَاكُ بِاللهِ» لأنها جاءت في الإجابة أولاً كأنها الكبائر جميعًا، والله أعلم.

٦- الإفادة من الأحداث الواقعة لإثارة الحوار.

((كان الرسول r يستعين في تعليمه وتوجيهه وإرشاده للصحابة بمـــا يطـــرأ مـــن أحداث، أو بما يمر عليهم من مواقف عملية في الحياة اليومية، وكان يتخذ من هذه الأحداث أو المواقف العملية أمثلة واقعية يستمد منها العبرة أو الموعظة أو الحكمة التي يريد أن يوصلها إليهم، ولا شك أن هذا الأسلوب في التعليم أشد وقعًا، وأعمق أثرًا في النفس مـــن مجـــرد النصيحة أو الموعظة التي تحدث دون أن تصاحبها مواقف عملية معينة تلفت النظر، وتشـــد الانتباه))(٢).

ومن ذلك مثلاً ما رواه جابر بن عبد الله t أن رسول الله r مر بالسوق داخـــلاً من بعض العالية، والناس كنفته، فمر بجدي أَسَكَّ ميتٍ، فتناوله، فأخذ بأذنه، ثم قال: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟! قال: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟» قالوا: والله، لو كان حيًا كان عيبًا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟! فقال: «فَوَاللهِ لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ»(٣).

ومن ذلك ما رواه عمر بن الخطاب t أنه قدم على رسول الله r بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذا وجدت صبيًا في السبي أخذته، فألصقته ببطنها، وأرضعته، فقـــال لنـــا

(١) ينظر: فتح الباري: ١٢/١٨٣.

(٢) الحديث النبوي وعلم النفس: ١٩٠.

(٣) أخرجه مسلم: (٢٩٥٧). والأسك يطلق على الصغير الأذنين الملتصقهما، والذي لا أذنان له، والـــذي قطعـــت أذناه، وينظر: مشارق الأنوار: ٢/٢١٦، وشرح صحيح مسلم: ١٨/٩٣، والنهاية في غريب الحديث: ٢/٣٨٤.

رسول الله r : «أَتَرَوْنَ هَذِهِ الْمَرْأَةَ طَارِحَةً وَلَدَهَا فِي النَّارِ؟» قلنا: لا والله، وهي تقدر على أن لا تطرحه. فقال رسول الله r : «لَلَّهُ أَرْحَمُ بِعِبَادِهِ مِنْ هَذِهِ بِوَلَدِهَا»(١).

ومن ذلك ما رواه سهل بن سعد الساعدي t أن رجلاً من أشراف الناس مَرَّ على رسول الله r فقال: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قالوا: حَرِي إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشَفَّع، وإن قال أن يُسْتَمَع. فسكت رسول الله r ، ثم مَرَّ رجل من فقراء المسلمين، فقال: «مَا تَقُولُونَ فِي هَذَا؟» قالوا: حَرِي إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُسْتَمَع. فقال رسول الله r : «هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا»(٢).

ولا يخرج الغرض من الاستفهام الذي يبدأ به النبي r حواره عن إثارة الانتباه، والتشويق إلى ما يريد أن يتوصل إليه بحواره، والله أعلم.

ب- التقرير.

وهو من أبرز الأغراض التي يسلك النبي r لأجلها أسلوب الحوار، ويأتي التقرير في عدة مواقف، ومن الأمثلة على ذلك:

١- تقرير كذب المخاطب، وكشف الصدق المخالف لدعواه، ويظهر ذلك جليًا مع اليهود، فهم قوم بهت، وأهل خداع ومكر، ومن ذلك حديث ابن عمر t أن رسول الله r أُتي بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق رسول الله r حتى جاء يهود، فقال: «مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَى مَنْ زَنَى؟» قالوا: نسود وجوههما، ونحملهما، ونخالف بين وجوههما، ويطاف بهما. قال: «فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» فجاءوا بها، فقرءوها، حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال له عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله r : مره فليرفع يده، فرفعها فإذا تحتها آية الرجم، فأمر بهما رسول الله r فرجما(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٩٩٩) ، ومسلم: (٢٧٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٥٠٩١ و٦٤٤٧).

(٣) أخرجه البخاري: (٧٥٤٣) ، ومسلم: (١٦٩٩).

وتقييد الإتيان بالشرط «إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ» تنزل مع المخاطب، وإلا فهو كاذب فيما يقول، ولذا جاء الشرط بالأداة (إِنْ) التي تفيد عدم القطع بوقوع الشرط[1]، وهذا يدل على أن الأصل فيهم الكذب، وأن الصدق أمر متوهم فيهم، ولن يكونوا صادقين، قال أبو حيان (٧٤٥هـ) في قول الله U: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣]: ((خرج قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ مخرج الممكن، وهم معلوم كذبهم، وذلك على سبيل الهزء بهم، كقولك: إن كنت شجاعًا فالقني، ومعلوم عندك أنه ليس بشجاع، ولكن هزأت به إذ جعلت هذا الوصف مما يمكن أن يتصف به))[2].

وفي حديث البراء بن عازب t قال: مُرَّ على النبي r بيهودي مُحمَّمًا مجلودًا فدعاهم r، فقال: «هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» قالوا: نعم، فدعا رجلاً من علمائهم، فقال: «أَنْشُدُكَ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى، أَهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟» قال: لا، ولولا أنك نشدتني بهذا لم أخبرك، نجده الرجم... الحديث[3]. وقد سبق بيان مراعاة النبي r لحال المخاطب في هذا الموقف في المبحث الأول من الفصل الأول[4].

وفي هذين الموقفين أراد النبي r بحواره معهم أن يكشف كذبهم، ويصل إلى الحقيقة التي يخفونها.

وفي الموقف الآتي يتدرج بهم النبي r في الحوار حتى يصل إلى الحقيقة التي يريد النبي r أن يقروا بها هم، ولم يكن لهم إلا أن يقروا لكن مع شيء من المكر الذي عُرفوا به، فعن أبي هريرة t قال: لما فتحت خيبر أُهْدِيَت للنبي r شاة فيها سم، فقال النبي r: «اجْمَعُوا إِلَيَّ مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ يَهُودَ» فجمعوا له، فقال: «إِنِّي سَائِلُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم، قال لهم النبي r: «مَنْ أَبُوكُمْ؟» قالوا: فلان، فقال: «كَذَبْتُمْ، بَلْ

---

(١) ينظر في بلاغة (إِنْ) الشرطية: مفتاح العلوم: ٢٤٠، وشروح التلخيص: ٣٩/٢ و٤٣، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٨٥/١، والطراز: ٥٢٨ و٥٣٨.

(٢) البحر المحيط: ٩/٣.

(٣) أخرجه مسلم: (١٧٠٠).

(٤) ينظر ص (٥٤) من هذا البحث.

أَبُوكُمْ فُلاَنٌ» قالوا: صدقت، قال: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي r: «اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا» ثم قال: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُكُمْ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم، يا أبا القاسم، قال: «هَلْ جَعَلْتُمْ فِي هَذِهِ الشَّاةِ سُمًّا؟» قالوا: نعم، قال: «مَا حَمَلَكُمْ عَلَى ذَلِكَ؟» قالوا: أردنا إن كنت كاذبًا نستريح، وإن كنت نبيًا لم يضرك[(١)]. وفي المبحث الأول من الفصل الأول بيان لمراعاة حال المخاطب في هذا الموقف[(٢)].

٢- تقرير صدق النبي r ومعرفته بما يحاوره فيه المخاطب، وحصل هذا أيضًا مع اليهود الذين كثيرًا ما يحاورون النبي r والمسلمين ليبرزوا معرفتهم وعلمهم بما عندهم من التوراة، وليتنقصوا المسلمين، فعن ثوبان مولى رسول الله r قال: كنت قائمًا عند رسول الله r، فجاء حبر من أحبار اليهود فقال: السلام عليك، يا محمد. فدفعته دفعة كاد يصرع منها، فقال: لم تدفعني؟! فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟. فقال اليهودي: إنما ندعوه باسمه الذي سماه به أهله. فقال رسول الله r: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي» فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال له رسول الله r: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قال أسمع بأذني، فنكت رسول الله r بعود معه فقال: «سَلْ» فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟. فقال رسول الله r: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ» قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: «فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ» قال اليهودي: فما تحفتهم حين يدخلون الجنة؟ قال: «زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ» قال: فما غذاؤهم على إثرها؟ قال: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الْجَنَّةِ، الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا» قال: فما شرابهم عليه؟ قال: «مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلاً» قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان. قال: «يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟» قال: أسمع بأذني. قال:

---

(١) أخرجه البخاري: (٣١٦٩).

(٢) ينظر ص (٥٥) من هذا البحث.

جئت أسألك عن الولد؟ قال: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ، وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلا مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آنَثَا بِإِذْنِ اللهِ» قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف فذهب، فقال رسول الله r : «لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنْ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ»[1].

ويلحظ في أجوبة النبي r دون الأخير الإيجاز بذكر المسؤول عنه مباشرة دون ذكر المسند أو المسند إليه المذكور في السؤال[2]؛ دلالة على سرعة الجواب وحضوره، مما يبين علم النبي r به.

وأما السؤال عن الولد، فقد جاء مبهمًا، ومع ذلك أجاب النبي r عنه من دون سؤال عن تخصيص السؤال، وأطنب في الجواب دلالة على معرفته بمقصود السائل وجواب سؤاله، والله أعلم.

٣- تقرير المخاطب بالخطأ الذي وقع فيه، وسببه، فقد يقع أحد الصحابة y في خطأ ما، فيريد النبي r أن يتأكد من حقيقة وقوعه فيه، وسبب ذلك، ليبني بعد ذلك حكمه، ومن ذلك ما ورد في قصة الثلاثة الذين خلفوا، حين تخلف كعب بن مالك ومرارة ابن الربيع وهلال بن أمية y مع من تخلف من المنافقين عن غزوة تبوك، فلما رجع النبي r جاءه المنافقون يعتذرون ويحلفون، فقبل النبي r علانيتهم ووكل سرائرهم إلى الله U، إلا أنه لا يفعل ذلك مع أصحابه الذين يعلم النبي r صدق إيمانهم وبعدهم عن النفاق؛ بل يحاورهم ويسألهم عن حقيقة تخلفهم وسببه. قال كعب بن مالك t راوي القصة: فجئته، فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب، ثم قال: «مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟». وهذا الاستفهام التقريري يحمل أيضًا معاني التعجب والإنكار على المخاطب الذي لا يشك في إيمانه وصدقه، وليس له عذر في التخلف، حيث تيسر له ما يستطيع به المسير مع النبي r وأصحابه y. قال كعب t : فقلت: بلى، إني والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطيتُ جدلاً، ولكني والله لقد علمت لئن

---

(١) أخرجه مسلم: (٣١٥).

(٢) ينظر في حذف المسند والمسند إليه ما سيأتي بإذن الله في المبحث الرابع من الفصل الرابع: ص ( ).

حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عني ليوشكن الله أن يسخطك علي، ولئن حدثتك حديث صدق تجد علي فيه إني لأرجو فيه عفو الله، لا والله ما كان لي من عذر، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك. فقال رسول الله r : «أَمَّا هَذَا فَقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فِيْكَ»(١).

ومن ذلك أيضًا حديث حاطب بن أبي بلتعة t حين أرسل كتابًا إلى مشركي مكة يخبرهم بغزو رسول الله r لهم، فلما اكتشف الرسول r الكتاب قال لحاطب: «يَا حَاطِبُ، مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا صَنَعْتَ؟» وفي رواية: «مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟» وكلاهما استفهامان تقريريان، ويحملان أيضًا معاني التعجب والإنكار، لكون الفعل صدر من رجل لا يشك في صدق إيمانه وصحبته. ولذا قال حاطب t : يا رسول الله، لا تعجل علي، إني كنت امرأ ملصقًا في قريش، ولم أكن من أَنفُسها، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات بمكة يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتي، وما فعلت كفرًا ولا ارتدادًا ولا رضًا بالكفر بعد الإسلام. قال الرسول r : «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكُم، فَلا تَقُولُوا لَهُ إِلاّ خَيْرًا»(٢).

ومما ورد في ذلك حديث ماعز بن مالك t حين جاء إلى النبي r معترفًا بالزنا، فسأل النبي r قومه: «أَبِهِ جُنُونٌ؟» فأخبروه أن ليس به جنون، فقال: «أَشَرِبَ خَمْرًا؟» فقام رجل فاستنكهه فلم يجد به ريح خمر، فقال النبي r لماعز t : «أَزَنَيْتَ؟» قال: نعم، فأمر به فرجم(٣)، وفي رواية أن النبي r قال له: «أَبِكَ جُنُونٌ؟» قال: لا. قال: «فَهَلْ أَحْصَنْتَ؟» قال: نعم(٤)، وفي رواية: أن النبي r قال له: «لَعَلَّكَ قَبَّلْتَ أَوْ غَمَزْتَ أَوْ

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٧٥٧ و٤٤١٨) ، ومسلم: (٢٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٠٠٧ و٣٩٨٣ و٤٢٧٤ و٤٨٩٠ و٦٢٥٩ و٦٩٣٩) ، ومسلم: (٢٤٩٤). وقوله: كنت امرأ ملصقًا في قريش، ولم أكن من أَنفُسها، أي أنه لم يكن منهم أصالة وإنما كان حليفًا لهم، وينظر: فتح الباري: ٥٢٠/٧.

(٣) أخرجه مسلم: (١٦٩٥) من رواية بريدة t .

(٤) أخرجه البخاري: (٥٢٧٠ و٦٨٢٠ و٦٨٢٥) ، ومسلم: (١٦٩١) من رواية جابر وأبي هريرة رضي الله عنهما.

نَظَرْتَ» قال: لا[١]. وفي رواية في سنن أبي داود أن النبي r قال له: «أَنِكْتَهَا» قال: نعم. قال: «حَتَّى غَابَ ذَلِكَ مِنْكَ فِي ذَلِكَ مِنْهَا» قال: نعم. قال: «كَمَا يَغِيبُ الْمِرْوَدُ فِي الْمُكْحُلَةِ، وَالرِّشَاءُ فِي الْبِئْرِ» قال: نعم. قال: «فَهَلْ تَدْرِي مَا الزِّنَا؟» قال: نعم، أتيت منها حرامًا ما يأتي الرجل من امرأته حلالاً. قال: «فَمَا تُرِيدُ بِهَذَا الْقَوْلِ؟» قال: أريد أن تطهرني. فأمر به فرجم[٢].

وأسئلة النبي r في هذا الموقف متعددة ودقيقة وصريحة، لكون الفعل الشنيع الذي اعترف به الصحابي t يترتب عليه عقوبة، وهذه العقوبة تحدد بحسب حال الفاعل، فإن كان محصنًا قتل رجمًا، وإن لم يكن محصنًا جلد، ثم إن النبي r خشي أن الرجل يقول ما لا يدرك، لجنون أو سوء تعبير، ولذا سأله وسأل قومه عن سلامة عقله، فلما تبين له ذلك سأله عن حقيقة فعله، وعن فهمه لحقيقة اللفظ الدال عليه، بالسؤال الصريح تارة وبالتشبيه المبِّين تارة أخرى، فلما تبين له أن الرجل يتكلم بحقائق الألفاظ لا بمجازاتها أجرى عليه الحكم اللائق به، والله أعلم.

٤- تقرير المخاطب على الخطأ، في مقام العتاب، لبيان فضل المعاتِب على المعاتَب، ومثل هذا ما حصل في حواره مع الأنصار لما وجدوا في أنفسهم على رسول الله r حين لم يقسم لهم من الغنائم، وقد سبق الحديث بتمامه في المبحث الثاني من الفصل الأول، وفيه: قال رسول الله r : «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، مَا كَانَ حَدِيثٌ بَلَغَنِي عَنْكُمْ؟!» فسكتوا، فقال له فقهاء الأنصار: أما ذوو رأينا يا رسول الله فلم يقولوا شيئًا، وأما أناس منا حديثة أسنانهم قالوا: يغفر الله لرسوله، يعطي قريشًا ويتركنا، وسيوفنا تقطر من دمائهم. فقال رسول الله r : «فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ» ثم قال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلالاً فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ. فقال: «أَلا تُجِيبُونِي؟» قالوا: الله ورسوله أَمَنّ.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٨٢٤) ، ومسلم: (١٦٩٣) من رواية ابن عباس t .

(٢) سنن أبي داود: كتاب الحدود، باب رجم ماعز بن مالك، برقم: (٤٤٢٨) من رواية أبي هريرة t .

ت- رد الشبهة.

يعد الحوار مع الواقع في شبهة من العوامل المهمة لوضوح الشبهة وتبين حقيقتها، والوصول إلى العلاج الناجح لها(١)، خاصة في تلك الشبه التي بنيت على أوهام وشكوك لا حقيقة لها، فيكون الحوار ناجحًا في إزالة الشك، وميزة الحوار هنا أن الواقع في الشبهة هو الذي يسهم في التخلص منها عن اقتناع تامة، ومثل هذا حصل مع النبي r حينما أتاه أعرابي من بني فَزَارة فقال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود، وإني أنكرته. فقال النبي r: «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم. قال: «فَمَا أَلْوَانُهَا؟» قال: حمر. قال: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟» قال: إن فيها لوُرقًا. قال: «فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟» قال: عسى أن يكون نزعه عرق. قال: «وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ»(٢).

ويمكن للنبي r في هذا الموقف أن يسرد على المخاطب ما يرد شبهته، ويلقيه عليه جملة واحدة دون حوار، إلا أن الشبهة لما كانت بهذه الخطورة وهي صادرة عن أعرابي تراوده الشكوك والأوهام، ولا يؤمن أن تغطي على عقله فلا يدرك ما يلقى إليه حق الإدراك، وإنما الأمر يحتاج إلى تأمل واقتناع تام، ومشاركة بين المتحاورين في علاج الأمر، وعامل الزمن يساعد في التروي وحسن التفكر، ولذا كان الحوار مع المخاطب في الحديث أنفع وأنجح.

ويستخدم النبي r في حواره تشبيهًا حسيًا من البيئة التي يعيشها هذا الأعرابي، فيكون لهذا التشبيه أثر عظيم في اقتناع الأعرابي وزوال الشبهة عنه، والله أعلم.

ومما يمثل به على هذا الغرض حديث نقصان العقل والدين في النساء، فحينما قال النبي r لهن: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ، تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ» فقلن: وبم يا رسول الله؟ قال: «تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ الْعَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ» فاستشكلن وصفهن بذلك فقلن: وما نقصان ديننا وعقلنا، يا رسول الله؟ فأراد النبي r أن يزيل ما علق بهن من إشكال؛ فحاورهن بالاستفهام التقريري

---

(١) فتح الباري: ٣٣٩/١١، وينظر: شرح صحيح مسلم: ٢٣١/١.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٣٠٥ و٧٣١٤) ، ومسلم: (١٥٠٠).

الذي يصل به مع المخاطب إلى زوال الإشكال عن إقرار واقتناع ويقين، قال: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟» قلن: بلى، قال: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟» قلن: بلى، قال: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»[(١)]، واستشكالهن نقصان العقل والدين جعلهن يغفلن عن وصفهن بكثرة اللعن وكفران العشير وإذهاب اللب، وكأنهن أقررن بما قال النبي r ، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: قلن: وما نقصان ديننا؟ كأنه خفي عليهن ذلك حتى سألن عنه، ونفس السؤال دال على النقصان؛ لأنهن سلمن ما نسب إليهن من الأمور الثلاثة: الإكثار، والكفران، والإذهاب، ثم استشكلن كونهن ناقصات. وما ألطف ما أجابهن به r من غير تعنيف ولا لوم، بل خاطبهن على قدر عقولهن))[(٢)].

ومن ذلك حديث ابن صياد الذي كان يظن الناس أنه المسيح الدجال، فأراد النبي r أن يختبر حقيقته، ويتبين أمره، ويزيل الإشكال حوله، فسلك معه سبيل الحوار ليتبين للصحابة y حاله، فعن ابن عمر t أن عمر t انطلق مع النبي r في رهط قبل ابن صياد، حتى وجدوه يلعب مع الصبيان عند أُطُم بني مَغَالة، وقد قارب ابن صياد الحُلُم، فلم يشعر حتى ضرب النبي r بيده، ثم قال لابن صياد: «تَشْهَدُ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ؟» فنظر إليه ابن صياد فقال: أشهد أنك رسول الأميين، فقال ابن صياد للنبي r : أتشهد أني رسول الله؟ فرفضه، وقال: «آمَنْتُ بِاللهِ وَبِرُسُلِهِ» فقال له النبي r : «مَاذَا تَرَى؟» قال ابن صياد: يأتيني صادق وكاذب. فقال النبي r : «خُلِّطَ عَلَيْكَ الأَمْرُ» ثم قال له النبي r : «إِنِّي قَدْ خَبَأْتُ لَكَ خَبِيئًا» فقال ابن صياد: هو الدخ. فقال النبي r : «اخْسَأْ فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ» فقال عمر t : دعني يا رسول الله، أضرب عنقه. فقال النبي r : «إِنْ يَكُنْهُ فَلَنْ تُسَلَّطَ عَلَيْهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْهُ فَلا خَيْرَ لَكَ فِي قَتْلِهِ»[(٣)].

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٤) ، ومسلم: (٨٠).

(٢) فتح الباري: ٤٠٦/١.

(٣) أخرجه البخاري: (١٣٥٤) ، ومسلم: (٢٩٣١). وينظر: فتح الباري: ١٧٣/٦.

هذه جملة من المواقف التي سلك فيها النبي r وسيلة الحوار، وأشير بعدها إلى أبـــرز ما يتسم به الحوار النبوي من سمات، ومن ذلك:

١- ينطلق الحوار من مراعاة الحال وما يقتضيه المقام وخصوصًا حال المخاطـــب، وهي سمة من أهم سمات الحوار النبوي. وبعد دراسة عن الحوار النبوي للدكتور سعيد صيني قال: ((اتضح معنا من خلال الفصول السابقة أن المنطلقات الرئيسة للحوار النبوي يتمثل في عدد منها، ولكن أبرزها: مراعاة حال المحاور الآخر...))[1]، وأذكر هنا شيئًا مما أجملـــه في حديثه عن هذه السمة فقال: ((لقد بدا واضحًا أن النبي r كان يراعي حال المحاور الآخر، فهو عليه الصلاة والسلام يتعامل بطريقة مختلفة مع كل فئة من الفئات الآتية: المشـــركون، أهل الكتاب، المنافقون، الكافر، الجاهل، المكابر، وغيرهم.

ففي تعامله مع المشرك يقف في الغالب موقف المعلم وموقف الناصح، فهو إمـــا أن يجيب عن تساؤلات من يريد معرفة الإسلام، وعن نبوته r ، فيجيبه باختصار، وفي نقـــاط محددة، أو يدعو إلى التوحيد، أو يحاول تأليف قلبه، حتى يقبل الإسلام، أو يحاول كســـب هدنة ليتفرغ إلى الدعوة... وكانت السمة الغالبة في تعامله مع هذه الفئة أن الهـــدف هـــو ترغيب الطرف الثاني في الإسلام، وذلك بتبسيط المعلومات الأساسية التي يتضمنها الحـــوار، واستخدام الأسلوب المباشر الواضح المناسب لطبيعة الإنسان الذي يعيش قريبًا من الفطرة.

وأما أهل الكتاب فيرون أنفسهم أهل علم ومعرفة، ولهذا كان الحوار معهم يغلب في أهدافه إضافة إلى إقناعهم برسالته r كسر حدة كبريائهم. وكان الحوار يأخذ طابع اختبار المعلومات، والتحديات الثقافية، والاستعانة بالوحي...

وأما المنافقون الذين يظهرون للمسلمين المودة، ويبطنون البغضاء والعداوة للإســـلام والمسلمين، فكانت لهم معاملة خاصة؛ يغلب عليها محاولة تأليف قلوبهم وكف شرهم، كما يغلب عليها الحذر والمداراة والمواجهة بالحقائق، ولكن دون الوقوف والتدقيق عندها، فيكفي أن يعلموا أن الرسول r يعلم حقيقتهم وخفاياهم.

وأما الكافر المكابر الذي تصل به درجة الجهل إلى أن يساوم النبي r على شـــيء لا يملكه، وليس عنده هو شيء ثمين يمنحه للإسلام في المقابل بعد أن أعز الله الإســـلام، فـــلا

---

(١) الحوار النبوي: ٣٢٢.

يستحق سوى تعبيرات صارمة تحطم عجرفته وتبجحه، وهي مع هذا كانت تعبيرات قولية وعملية بليغة تخلو من الكلمات الفاحشة أو السوقية))[1].

٢- ومن سمات الحوار النبوي أن النبي ﷺ يستخدم عدة طرق لإثارة الحوار وتحفيز المخاطب إليه، وقد ذكرت في مقام التعليم والتربية عددًا منها، ومنها مما يأتي لأغراض أخرى: أن يأتي النبي ﷺ في كلامه بما يخفى على المخاطب، ويكون عليه غريبًا، فيدعوه إلى التساؤل والحوار. ومن ذلك حديث أبي ذر رضي الله عنه أن ناسًا من أصحاب النبي ﷺ قالوا للنبي ﷺ: يا رسول الله، ذهب أهل الدثور بالأجور؛ يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم. قال: «أَوَ لَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟! إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» قالوا: يا رسول الله، أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلالِ كَانَ لَهُ أَجْرًا»[2]، ((ففي قوله: «وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ» غرابة تثير حوارًا، وهذا ما حدث، إذ إن الصحابة لم يستطيعوا السكوت عليها؛ لأن الذي وقر في أذهانهم أن الأجر إنما يكون على الواجبات التي يتحمل المسلم في أدائها شيئًا من المشقة، أما الشهوات التي يمارس الإنسان فيها غريزته فكيف يكون له فيها أجر إن أتاها؟!... فإتيانه ﷺ بهذه الجملة أثار حوارًا مركزًا حرك السامعين، وجعلهم أكثر تجاوبًا))[3]، ولعل مما زاد الإثارة إلى الحوار تركيب الجملة ومجيئها على خلاف تركيب الجمل التي سبقتها حتى إنك لتشعر أن الجملة الأخيرة ليست معطوفة على ما قبلها، وإنما هي مستأنفة، حيث جاءت الجملة على صورة الكناية، وقدم فيها الجار والمجرور وحقه التأخير، وأسهم في ذلك أيضًا تأخير الجملة ليوقف عليها.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ خرج من عندها ليلاً، قالت: فغِرت عليه، فجاء فرأى ما أصنع، فقال: «مَا لَكِ يَا عَائِشَةُ، أَغِرْتِ؟» فقلت: وما لي

---

(١) المرجع السابق: ٣٢٣-٣٢٤، وينظر: ٣٢٥-٣٣٢، والحوار آدابه وتطبيقاته: ٩٣-١٣٢.

(٢) أخرجه مسلم: (١٠٠٦).

(٣) الحديث النبوي مصطلحه، بلاغته، كتبه: ٩٨.

لا يغار مثلي على مثلك. فقال رسول الله r : «أَقَدْ جَاءَكِ شَيْطَانُكِ؟» قالت: يا رسول الله، أو معي شيطان؟ قال: «نَعَمْ» قلت: ومع كل إنسان؟ قال: «نَعَمْ» قلت: ومعك يا رسول الله؟ قال: «نَعَمْ، وَلَكِنْ رَبِّي أَعَانَنِي عَلَيْهِ حَتَّى أَسْلَم»(١)، فالإتيان بلفظ الشيطان مضافًا إلى عائشة رضي الله عنها أثار عندها التساؤل عن معية الشيطان لها، ولكل إنسان، ثم لرسول الله r . وربما اختار النبي r هذا اللفظ الذي يثير التساؤل عند عائشة ليصرف الحوار إلى شأن آخر غير ما هما فيه من أمر الغيرة الزوجية، وكان يمكن أن يقول مثلاً: أجاءت غيرتك، والله أعلم.

٣- يعتمد الحوار أكثر ما يكون على الاستفهام، ويقل أن يبتدئ النبي r الحوار بغيره، ولعل ذلك لما في الاستفهام من تحفيز إلى الحوار واستمالة إليه واهتمام به، والله أعلم(٢).

٤- يتسم حوار النبي r بالإيجاز والتركيز على المقصود، بعيدًا عن الاستطراد والحشو، كما هو r في سائر كلامه حيث أوتي جوامع الكلم(٣).

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٨١٥).

(٢) ينظر: أسلوب الحوار في صحيح مسلم: ٣٤٥، والحوار آدابه وتطبيقاته: ١٣١.

(٣) ينظر: أسلوب الحوار في صحيح مسلم: ٣٥٥، وأسلوب الحوار في صحيح البخاري: ٣٩٤.

المبحث الرابع: الوصية.

- المقصود بالوصية.

الوصية قول يصدر عن تجربة وحكمة، تتضمن حثًا على سلوك طيب نافع، وعادة ما تكون موجهة إلى فرد واحد، أو أفراد معدودين، وقد توجه إلى جمع كثير، بخلاف الخطبة فإنها لا توجه إلا إلى الجمع، وكثيرًا ما تصدر من ولي الأمر وعظيم الشأن كنبي أو إمام أو سيد قبيلة أو رب أسرة، ((وهي نتيجة الخبرة الطويلة والملاحظة الدقيقة والعقل الواعي والتفكير السليم، ويدفع إليها المودة الصادقة والحب العميق))(١).

قال أسامة بن منقذ: ((الوصية وصيتان: وصية الأحياء للأحياء، وهي أدب، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وتحذير من زلل، وتبصرة بصالح عمل. ووصية الأموات للأحياء عند الموت، بحق يجب عليهم أداؤه، ودين يجب عليهم قضاؤه))(٢).

- الوصية في الخطاب النبوي وأثر حال المخاطب فيها.

وقد ورد عن النبي r وصايا كثيرة، خاطب بها أفرادًا بأعيانهم، وخاطب بها جمعًا، وخاطب بها الأمة كلها.

ولقد كان r يوصي كل واحد من أصحابه بما يلائم حاله، ولعل هذا هو الذي يُفسَّر به اختلاف الوصايا بين أصحابه y(٣)، قال العيني (٨٥٥هـ) في وصية النبي r للرجل الذي استوصاه فقال له: «لا تَغْضَبْ» فردد مرارًا، قال: «لا تَغْضَبْ»(٤): ((إنما قال r: «لا تَغْضَبْ» لأنه r كان مكاشفًا بأوضاع الخلق، فيأمرهم بما هو الأولى بهم، ولعل الرجل كان غضوبًا فوصاه بتركه))(٥). وأوصى r أبا هريرة وأبا الدرداء وأبا ذر y

---

(١) في تاريخ الأدب الجاهلي: ٢٦٨، وينظر: تاريخ الأدب العربي: ١/٩٠، ووصايا الآباء للأولاد: ٢٢-٢٦.

(٢) لباب الآداب: ٣٣.

(٣) ينظر: مراعاة أحوال المخاطبين في ضوء الكتاب والسنة وسير الصالحين: ٥٣-٥٧.

(٤) أخرجه البخاري (٦١١٦).

(٥) عمدة القاري: ٢٢/١٦٤، وينظر: فتح الباري: ١٠/٥١٩.

بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن يوتروا قبل أن يناموا[١]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((اقتصر في الوصية للثلاثة المذكورين على الثلاثة المذكورة؛ لأن الصلاة والصيام أشرف العبادات البدنية، ولم يكن المذكورون من أصحاب الأموال))[٢].

وأوصى أبا ذر t بالسمع والطاعة وإن كان لعبد مُجَدَّع الأطراف، وأن يصلي الصلاة لوقتها إذا أخَّرها الأمراء[٣]، وأوصاه إذا طبخ مرقًا أن يكثر ماءه، ثم ينظر أهل بيت من جيرانه فيصيبهم منها بمعروف[٤]، وأوصى البراء بن عازب إذا أتى مضجعه أن يتوضأ وضوءه للصلاة، ويضطجع على شقه الأيمن، ويقول: «اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ نَفْسِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَوَجَّهْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَا وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلاّ إِلَيْكَ، آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»[٥].

وسأذكر هنا بعض المواقف التي ظهر فيها حال المخاطب واختار فيها النبي r الوصية رعاية لحاله، وسأذكر هذه المواقف حسب الغرض من الوصية، ومن ذلك:

أ- الالتزام بسياسة الحكم، ومنهاج الدعوة.

يحتاج الوالي الذي يرسله النبي r حاكمًا وقاضيًا وداعيًا إلى الله U إلى وصايا، تتضمن سياسة الحكم، وقواعد القضاء، ومنهاج الدعوة، وما يحتاجه من أحكام، ليكون على بصيرة من أمره في ولايته وقضائه ودعوته، بعيدًا عن الاجتهادات الفردية التي قد تكون سبيلاً إلى الظلم، وسببًا في نفرة الخلق عن الحق، وتتأكد الحاجة حينما يكون الوالي في بلاد بعيدة عن النبي r .

---

(١) حديث أبي هريرة t أخرجه البخاري: (١١٧٨ و١٩٨١) ، ومسلم: (٧٢١). وحديث أبي الدرداء t أخرجه مسلم: (٧٢٢). وأما حديث أبي ذر t فأخرجه النسائي: كتاب الصيام، باب صوم ثلاثة أيام من الشهر، برقم (٢٤٠٤).

(٢) فتح الباري: ٣/٥٧-٥٨.

(٣) أخرجه مسلم: (٦٤٨). قال النووي في شرح صحيح مسلم: ٥/١٤٩: ((«مُجَدَّع الأطراف» أي: مقطع الأطراف، والجَدْع، بالدال المهملة: القطع)) وينظر: النهاية في غريب الحديث: ١/٢٤٧.

(٤) أخرجه مسلم: (٢٦٢٥).

(٥) أخرجه البخاري: (٢٤٧ و٦٣١٣) ، ومسلم: (٢٧١٠).

ومن الأمثلة على ذلك وصية النبي r لمعاذ بن جبل t حين بعثه إلى اليمن بمنـــهاج الدعوة فيما يجب أن يبدأ به أولاً، وبالعدل واتقاء الظلم، وكان قد بين له حال من يأتيهم: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَـــهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَـيْهِمْ خَمْـسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَــرَضَ عَلَــيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَإِيَّــاكَ وَكَــرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»(١).

وأوصاه أيضًا وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما حين بعثهما والِيَين على الـــيمن بمنهاج الحكم والدعوة في التعامل مع الناس، وبحسن الصلة بينهما: «ادْعُوَا النَّاسَ، وَبَشِّرَا وَلا تُنَفِّرَا، وَيَسِّرَا وَلا تُعَسِّرَا، وَتَطَاوَعَا وَلا تَخْتَلِفَا»(٢).

وسبق في المبحث الثالث من الفصل الأول بيان ما في بناء الوصـــيتين مـــن رعايـــةٍ لمقتضى حال المخاطب.

ب- الالتزام بأخلاق الإسلام في الغزو.

عن بريدة t قال: كان رسول الله r إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصـــاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا(٣).

إن قادة الجيوش والسرايا هم أحوج ما يكونون إلى وصايا النبي r التي تـــبين لهـــم مقاصد الجهاد ومنهاجه وأحكامه، كي يحققوا المقصود منه بعيدًا عن الأخطاء القاتلة، الـــتي تسيء إلى الدين وأهله، فتؤثر في قبول الناس له.

وكان r أول ما يوصيهم به الاستعانة بالله U وحده مهما كانت قوتهم وعددهم وعتادهم، ويذكرهم بالإخلاص لله U حتى لا يكون للنفس حظ تقصده، فتنحرف عـــن مقصود الدين من الجهاد: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ».

---

(١) أخرجه البخاري: (١٤٩٦) ، ومسلم: (١٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٠٣٨ و٤٣٤٢ و٤٣٤٥) ، ومسلم: (١٧٣٣).

(٣) أخرجه مسلم: (١٧٣١)، وينظر: البيان المحمدي: ٣٧٩-٣٨٢.

ويحدد لهم العدو الذي يقاتلونه دون سواه: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ».

ويبين لهم أخلاق الغزو وما يجب أن يتصف به المسلمون الغزاة: «اغْزُوا، وَلا تَغُلُّوا، وَلا تَغْدِرُوا، وَلا تَمْثُلُوا، وَلا تَقْتُلُوا وَلِيدًا». والتأكيد على هذه الأمور لأنها مظنة الوقوع، أما الغِلّ فربما تضعف النفس البشرية أمام الدنيا فتصيب لنفسها ما تستأثر به دون المسلمين. وأما الغدر فإنه صفة ذميمة في جميع الأحوال، يستبشعها الناس كلهم مؤمنهم وكافرهم، وحين تقع من المؤمن الذي هو أولى باجتنابها فإن ذلك مما يسيء إلى الدين، ويجعل للكفار والمنافقين مجالاً للطعن فيه وفي أهله، مما ينفر الخلق عن قبوله. وأما المثلة وقتل الوليد فإن بعض المسلمين قد يظن أنهم حين يقاتلون كفارًا يحل لهم أن يفعلوا بهم ما يشاؤون، وربما غلب الغيض والحنق على بعضهم فصنع مثل ذلك تشفيًا وانتقامًا، وليس هذا من مقاصد الجهاد.

وتمضي الوصية على النحو الذي سبق روايته في المبحث الثالث من الفصل الأول.

وفي غزوة خيبر أوصى النبي r عليًا حين أعطاه الراية، فعن سهل بن سعد t أن رسول الله r قال يوم خيبر: «لأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ» فبات الناس يَدُوكُون ليلتهم أيهم يعطاها، فلما أصبح الناس غدوا على رسول الله r كلهم يرجون أن يعطاها، فقال: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فقالوا: هو يا رسول الله، يشتكي عينيه. قال: «فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ» فأتي به فبصق رسول الله r في عينيه، ودعا له، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، فقال علي: يا رسول الله، أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ فقال: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللهِ فِيهِ، فَوَاللهِ، لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»(١)، وفي رواية أبي هريرة t قال النبي r: «امْشِ،

(١) أخرجه البخاري: (٢٩٤٢ و٣٠٠٩) ، ومسلم: (٢٤٠٦). ومعنى «يَدُوكُون»: يخوضون، وينظر: مشارق الأنوار: ١/٢٦٣، وشرح صحيح مسلم: ١٥/١٧٨، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/١٤٠. وقوله: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِك» أي: امض على تؤدة وهينة وتأنٍّ، وينظر: مشارق الأنوار: ١/٢٩٩، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٢٢٢.

وَلا تَلْتَفِتْ، حَتَّى يَفْتَحَ اللهُ عَلَيْكَ» فسار علي شيئًا، ثم وقف و لم يلتفت، فصرخ: يا رسول الله، على ماذا أقاتل الناس؟ قال: «قَاتِلْهُمْ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لا إِلَهَ إِلاّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ فَقَدْ مَنَعُوا مِنْكَ دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلاّ بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللهِ»(1).

ولعل النبي r لما رأى من شجاعة علي t وإقدامه على القتال في قوله: أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا؟ أوصاه بالتؤدة والتأني في مسيره، واستعمل في ذلك الألفاظ التي توحي بذلك كـ(على) التي تشير إلى التمكن من التأني، و(حتى) التي تدل على إيفاء التأني حقه، و(ثم) التي تفيد التراخي لتأكيد التأني، ثم أوصاه بما هو أهم من القتال والحصول على الغنائم مهما نفست، وهو الدعوة إلى الإسلام ودخولهم في دين الله U، وأكد هذه الوصية بما يشعره بأهميتها، وأقوى ما أكد به القسم، والله أعلم.

ت- الاهتمام بالموصى به من الصحابة y.

الوصية فيها إشعار للمخاطب بأهمية الموصى به، والعناية به، ويحتاج إلى الوصية به حينما يكون مظنة التفريط به عند المخاطب، كما أوصى بالنساء في قوله r: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ، فَإِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ ضِلَعٍ، وَإِنَّ أَعْوَجَ شَيْءٍ فِي الضِّلَعِ أَعْلاهُ، فَإِنْ ذَهَبْتَ تُقِيمُهُ كَسَرْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَزَلْ أَعْوَجَ، فَاسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ»(2)، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((الوصية بالنساء آكد؛ لضعفهن واحتياجهن إلى من يقوم بأمرهن))(3).

وتتأكد الوصية به حينما يكون رجلاً ذا فضل ومترلة، ويحتقره بعض الناس، كما حصل مع أسامة بن زيد t في القصة السالفة الذكر في مبحث الخطابة من هذا الفصل، حينما طعن بعض الناس في إمارته على الجيش، فقام النبي r في الناس خطيبًا مبينًا فضله وأحقيته، ثم أوصى به: «فَأُوصِيكُمْ بِهِ؛ فَإِنَّهُ مِنْ صَالِحِيكُمْ» وفي هذه الوصية التي ختم بها النبي r خطبته تأكيد لفضله وعظم مترلته، ورد لطعنهم فيه، وفيها أيضًا تسلية لأسامة t

(1) أخرجها مسلم: (٢٤٠٥).

(2) أخرجه البخاري: (٣٣٣١) ، ومسلم: (١٠٥١٠).

(3) فتح الباري: ٦/٣٦٨.

وإشعار له بمزيد العناية به في مقابل طعنهم فيه، من باب خطاب المرء وإرادة غيره تعريضًا له بعظم مترلته عند المتكلم، ولذا جمع النبي r بين الخطابة والتصريح بالوصية، والله أعلم.

ومن هذا الباب أيضًا وصيته بالأنصار y في الخطبة التي خطبها حال مرضه الـــذي توفي فيه، بعد أن بلغه أن الأنصار y بكوا لما تذكروا مجلسه r معهم، فعن أنس بن مالك t قال: مر أبو بكر والعباس رضي الله عنهما بمجلس من مجالس الأنصار وهـــم يبكـــون، فقال: ما يبكيكم؟ قالوا: ذكرنا مجلس النبي r منا، فدخل على النبي r ، فأخبره بـــذلك، فخرج النبي r وقد عصب على رأسه حاشية برد، فصعد المنبر، و لم يصعده بعد ذلك اليوم، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أُوصِيكُمْ بِالأَنْصَارِ؛ فَإِنَّهُمْ كَرِشِي وَعَيْبَتِي، وَقَدْ قَضَوْا الَّذِي عَلَيْهِمْ، وَبَقِيَ الَّذِي لَهُمْ، فَاقْبَلُوا مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَتَجَاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ»(١).

وأشير في ختام هذا المبحث إلى بعض ما يلحظ في وصايا النبي r ، ومن ذلك:

١- تأتي بعض الوصايا استجابة من النبي r لطلب من أحد أصحابه y، كمـــا في وصية الرجل بترك الغضب بعد أن استوصى النبي r .

وقد لا تكون الوصية استجابة لطلب من أحد، ولكنها استجابة لما يقتضيه الحـــال، كما في وصيته للقادة، وغيرها.

٢- لا تختص الوصية بالأفراد، بل توجه أيضًا للجمع الكثير.

٣- تستقل الوصية عن غيرها من الوسائل التعبيرية، وقد تشترك مـــع بعضـــها، كالخطبة في بيان فضل أسامة بن زيد t والتوصية به، وكوصيته بالأنصار y. وإنما تشترك الخطبة مع الوصية إذا كانت الوصية موجهة إلى جمع كثير.

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٩٩ و٣٨٠١) ، ومسلم: (٢٥١٠)، وينظر: البيان المحمدي: ٤٠٩-٤١٢.

المبحث الخامس: الرسالة.

- الداعي لإرسال الرسائل النبوية.

كان صلح الحديبية الذي أبرمه النبي r مع قريش في آخر السنة السادسة من الهجرة فتحًا كما وصفه الله U فقال: ﴿إِنّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾ [الفتح: ١] حيث كان له أثـر في توسيع نطاق الدعوة الإسلامية داخل الجزيرة العربية وخارجها، ووجد النبي r بعده فرصة لمخاطبة الملوك والرؤساء، يدعوهم إلى دين الله U، خاصة أن الصلح أضفى على الدعوة بعدًا سياسيًا حين اعترفت قريش ضمنًا بما يمكن أن يسمى: دولة المدينة.

ولئن كان النبي r سيخاطب هؤلاء من منطلق الدعوة بمنطق القوة فإن أهم وسيلة تتلاءم معهم باعتبارهم ملوكًا وساسة هي إرسال الرسائل (الكتب). وهكذا فعل النبي r، فأرسل السفراء الذين يحملون رسائله، مختومة بخاتمه الذي اتخذه بعد أن قيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا إذا كان مختومًا، كما في الصحيحين عن أنس t قال: لما أراد النبي r أن يكتب إلى الروم قيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا أن يكون مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة، فكأني أنظر إلى بياضه في يده، ونقش فيه: محمد رسول الله، وفي رواية: قال النبي r: «إِنِّي اتَّخَذْتُ خَاتَمًا مِنْ وَرِقٍ، وَنَقَشْتُ فِيهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ، فَلا يَنْقُشَنَّ أَحَدٌ عَلَى نَقْشِهِ»(١)، وفي رواية لمسلم: إن النبي r أراد أن يكتب إلى كسرى وقيصر والنجاشي فقيل: إنهم لا يقبلون كتابًا إلا بخاتم، فصاغ رسول الله r خاتمًا حلقته فضة، ونقش فيه: محمد رسول الله(٢).

- الرسائل النبوية في الصحيحين وأثر حال المخاطب فيها.

ومما ورد في الصحيحين رسالة النبي r إلى هرقل قيصر الروم بنصها، وسبق ذكرها وبيان أثر حال المخاطب في بنائها، في المبحثين الأول والثالث من الفصل الأول(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٩٣٨ و٥٨٧٧)، ومسلم: (٢٠٩٢).

(٢) أخرجها مسلم: (٣٩٠٤).

(٣) ينظر ص (٣٦، ٥٩، ٨٥، ٨٦) من هذا البحث.

وورد إشارة إلى رسائله r إلى كسرى ملك الفرس، والنجاشي ملك الأحباش، وإلى عموم الملوك والرؤساء من دون ذكر لنصوصها، فعن عبد الله بن عباس t أن رسول الله r بعث بكتابه إلى كسرى، مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله r أن يمزقوا كل ممزق(١)، وعن أنس بن مالك t أن نبي الله r كتب إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وليس بالنجاشي الذي صلى عليه النبي r، وإلى كل جبار يدعوهم إلى الله تعالى(٢).

وقد ذكر أهل السير نصوص هذه الرسائل، فأما رسالة كسرى فجاء فيها: «بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ. مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ الله، إلى كِسْرَى عَظِيمِ فَارِسَ.

سَلامٌ عَلَى مَنْ اتّبَعَ الْهُدَى، وَآمَنَ بِاَللّهِ وَرَسُولِهِ، وَشَهِدَ أَنْ لا إلَهَ إلا اللهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنّ مُحَمّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَدْعُوكَ بِدعَاءِ اللّهِ، فَإِنّي أَنَا رَسُولُ اللّهِ إلَى النّاسِ كَافّةً، لأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيّا، وَيَحِقّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، فَإِنْ أَبَيْت فَإِنّ إثْمَ الْمَجُوسِ عَلَيْكَ»(٣).

وأما كتابه إلى النجاشي فجاء فيه: «بِسْمِ اللّهِ الرّحْمَنِ الرّحِيمِ مِنْ مُحَمّدٍ رَسُولِ اللّهِ إلَى النّجَاشِيّ الأَصْحَمِ مَلِكِ الْحَبَشَةِ.

سِلْمٌ أَنْتَ، فَإِنّي أَحْمَدُ إلَيْكَ اللّهَ الّذِي لا إلَهَ إلا هُوَ، الْمَلِكُ الْقُدّوسُ السّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ، وَأَشْهَدُ أَنّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رُوحُ اللّهِ، وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إلَى مَرْيَمَ الْبَتُولِ الطّيّبَةِ الْحَصِينَةِ، فَحَمَلَتْ بِعِيسَى، فَخَلَقَهُ اللّهُ مِنْ رُوحِهِ، وَنَفَخَهُ، كَمَا خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ وَنَفَخَه، وَإِنّي أَدْعُوكَ إلَى اللّهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَالْمُوَالاةِ عَلَى طَاعَتِهِ، وَأَنْ تَتْبَعَنِي، وَتُؤْمِنَ بِالّذِي جَاءَنِي، فَإِنّي رَسُولُ اللّهِ، وَقَدْ بَعَثْتُ إلَيْكَ ابْنَ عَمّي جَعْفَرًا وَنَفَرًا مَعَهُ مِن الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا

(١) أخرجه البخاري: (٦٤ و٤٤٢٤).
(٢) أخرجه مسلم: (١٧٧٤).
(٣) ينظر: تاريخ الأمم والملوك: ٢/٦٥٤، وزاد المعاد: ٣/٦٨٨، ونصب الراية: ٤/٤٢٠.

جَاءَكَ فَأَقِرَّهُمْ، وَدَعِ التَّجَبُّرَ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ وَجُنُودَكَ إِلَى اللَّهِ U، فَقَدْ بَلَّغْتُ وَنَصَحْتُ، فَاقْبَلُوا نُصحِي، وَالسَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى»(١).

وكتب إلى المقوقس ملك مصر: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى الْمُقَوْقِسِ عَظِيمِ الْقِبْطِ.

سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْت فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْقِبْطِ، ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»(٢).

وكتب إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين: «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى.

سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوك إِلَى الإِسْلامِ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، أَسْلِمْ يَجْعَلْ اللهُ لَك مَا تَحْتَ يَدَيْك، وَاعْلَمْ أَنَّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الْخُفِّ وَالْحَافِرِ»(٣).

وكتب إلى جَيفَر وعَبْد ابني الجُلَنْدَى ملكي عُمَان: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، إِلَى جَيْفَرَ وَعَبْدٍ ابْنَيْ الْجُلَنْدَى.

سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكُمَا بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمَا تَسْلَمَا، فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً؛ لأُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا، وَيَحِقّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ، فَإِنَّكُمَا إِنْ أَقْرَرْتُمَا بِالإِسْلامِ وَلَّيْتُكُمَا، وَإِنْ أَبَيْتُمَا أَنْ تُقِرّا بِالإِسْلامِ فَإِنَّ مُلْكَكُمَا زَائِلٌ عَنْكُمَا، وَخَيْلِي تَحُلّ بِسَاحَتِكُمَا، وَتَظْهَرُ نُبُوّتِي عَلَى مُلْكِكُمَا»(٤).

وكتب إلى هَوْذَة بن علي الحنفي صاحب اليمامة: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إلى هَوْذَةَ بْنِ عَلِيّ.

---

(١) ينظر: تاريخ الأمم والملوك: ٢/٦٥٢، وزاد المعاد: ٣/٦٨٩، ونصب الراية: ٤/٤٢١.

(٢) ينظر: زاد المعاد: ٣/٦٩١، ونصب الراية: ٤/٤٢١.

(٣) ينظر: زاد المعاد: ٣/٦٩٢، ونصب الراية: ٤/٤٢٠.

(٤) ينظر: زاد المعاد: ٣/٦٩٣، ونصب الراية: ٤/٤٢٣.

سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَاعْلَمْ أَنَّ دِينِي سَيَظْهَرُ إِلَى مُنْتَهَى الْخُــفّ وَالْحَــافِرِ، فَأَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَجْعَلْ لَكَ مَا تَحْتَ يَدَيْك»[(١)].

وكتب إلى الحارث بن أبي شِمْر الغَسَّاني ملك تُخُوم الشام: «بِسْمِ اللَّــهِ الــرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله، إلى الْحَارِثِ بنِ أَبِي شِمْرٍ.

سَلامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، وَآمَنَ بِاَللهِ وَصَدَّقَ، وَإِنِّي أَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تُــؤْمِنَ بِاَللَّــهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ يَبْقَى لَكَ مُلْكُك»[(٢)].

وتذكر بعض كتب السيرة وغيرها جملة من الرسائل التي أرسلها النبي r إلى القبائل والأقوام مع وفودها التي وفدت على النبي r في العام السابع من الهجرة المعــروف بعــام الوفود، ومن أبرز ما تميزت به هذه الرسائل مخاطبة كل قوم بلسانهم ولهجتهم التي تختلف عن لهجة النبي r القرشية، ولو جاءت إشارة إليها في أحاديث الصــحيحين لــذكرت منــها شيئًا[(٣)].

وفي خاتمة هذا المبحث أشير إلى أبرز ما يلحظ في رســائل الــنبي r إلى الملــوك والرؤساء، التي وردت في الصحيحين بنصها أو لم تذكر فيهما بنصها، لكن ذكــر إشــارة إليها، وذكرها غيرهما، من ذلك:

١- لم يكن النبي r يرسل الرسائل الدعوية ابتداء إلا إلى الملوك والرؤساء، وذكر بعض الباحثين أن النبي r أرسل إلى أكثم بن صيفي حكيم العرب في الجاهلية، وعلل ذلك بأن أكثم ((كان في نظر النبي r أرفع قدرًا من ملك، وأسمى مكانًا من رئــيس))[(٤)]، إلا أن الذي يذكره أهل التراجم والتاريخ أن النبي r كتب إلى أكثم جوابًا لكتابه، وليس ابتداءً، وكان أكثم أرسل ابنه إلى الرسول r وكتب معه: ((باسمك اللَّهُمَّ، من العبد إلى العبد، أما بعد: فبَلِّغْنا ما بَلَّغك الله، فقد بَلَغَنا عنك خير، فإن كنت أُرِيتَ فأرنا، وإن كنــت عُلِّمْــتَ فعَلِّمْنا، وأَشْرِكْنا في خيرك، والسلام)). فكتب إليه الرسول r : «مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله، إِلَى

---

(١) ينظر: زاد المعاد: ٣/٦٩٦، ونصب الراية: ٤/٤٢٥.

(٢) ينظر: تاريخ الأمم والملوك: ٢/٦٥٢، وزاد المعاد: ٣/٦٩٧، ونصب الراية: ٤/٤٢٤.

(٣) ينظر: سبل الهدى والرشاد: ٢/١٠٠، والبيان المحمدي: ١٤٧-١٦٦، والبيان النبوي: ٢٥٩-٢٦٢.

(٤) البيان المحمدي: ١٤٢.

أَكْثَم بنِ صَيفِيّ. أَحْمَدُ اللهَ إليكَ، إنَّ اللهَ أَمَرَني أَنْ أَقُولَ: لا إِلهَ إلاَّ اللهُ، ولِيُقِرَّ بِها النَّاسُ، والخَلْقُ خَلْقُ اللهِ، والأَمْرُ كُلُّهُ للهِ، وهُوَ خَلَقَهُمْ وأَمَاتَهُمْ، وهُوَ يَنْشُرُهُمْ وإِلَيهِ المَصِيرُ...»(١).

٢- خاطب النبي r في هذه الرسائل الملوك والرؤساء بما يليق بمنزلتهم، ويلائم حالهم، وسبق بيان ذلك في المبحث الثالث من الفصل الأول.

٣- يحرص النبي r على أن يشعر الملوك بالاطمئنان على ملكهم إذا أسلموا، ويختار لذلك من الألفاظ والعبارات ما يخدم هذا الغرض، كما سبق الحديث عنه في مبحث المترلة من الفصل الأول، وسيأتي مزيد حديث في الفصل الثالث بإذن الله U(٢).

٤- يظهر في رسائله إلى ملوك الأعاجم وضوح الألفاظ وسهولتها، حتى لا يخفى منها شيء على من له أدنى معرفة في العربية فيسهل عليه ترجمتها، أما فيما يروى من رسائل إلى رؤساء العرب ففيها من فخامة الألفاظ وجزالتها ما يلائم قوهم على فهمها وعادهم لسماع مثلها(٣).

٥- يبدأ النبي r الرسالة بالبسملة، ثم يذكر المرسِل باسمه r موصوفًا بصفة الرسالة، وأحيانًا بصفة العبودية كما في رسالتيه إلى هرقل والمقوقس، ثم يذكر المرسَل إليه بصفته أو باسمه.

٦- لما كانت رسائل النبي r المقصود منها دعوة المرسل إليهم إلى الإسلام كثر استعمال جملة الأمر.

٧- يغلب على رسائل النبي r الإيجاز، وقد أوتي r جوامع الكلم.

---

(١) ينظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ١/٣٧٩، والمنتظم: ٢/٣٧١.

(٢) ينظر ص (٢٨٦) من هذا البحث.

(٣) ينظر: كتاب الصناعتين: ١/١٥٥، والمدخل إلى دراسة البلاغة: ١١٩.

المبحث السادس: القصة.

- المقصود بالقصة.

القصة هي تعبير عن حدث، بما يحويه من شخصيات وحوار وزمان ومكان ومضامين وعناصر غيرها(١).

- أهمية القصة.

تعد القصة من أهم الوسائل التعبيرية المؤثرة في النفس البشرية، لما في النفس من ميل طبعي إليها، ورغبة في سماعها وقراءتها وروايتها، وتتبعها ومشاهدة أحداثها في الواقع.

إن إلقاء الأفكار المجردة تخاطب العقل أو الوجدان أو هما معًا، وقد يستقبلها المتلقي بحماس أو فتور، وربما يقبل بها اليوم ويرفضها في الغد، لكن حينما تصاغ هذه الأفكار في قالب قصصي فإنها تستثير الكيان الإنساني كله بمشاعره ووجدانه وعقله وخياله وتصوراته، وكأنه يعيش هو في أحداثها ومواقفها، فتتغلغل المعاني التي يراد غرسها في نفسه من حيث لا يشعر.

ثم إن تأثيرها فيه ليس محصورًا في وقت قراءة القصة وسماعها، بل يمتد أثرها لتصاحبه في مراحل نموه النفسي والاجتماعي والتربوي(٢).

وتأثيرها العميق في تربية النفس وتقويمها مما يؤكد عليه علماء التربية والباحثون فيها(٣).

ويؤكد أهمية القصة وعظم تأثيرها استخدام القرآن الكريم لها، وعرضه لقصص كثيرة من قصص الأنبياء والصالحين، والمؤمنين والمكذبين، مع تكرار بعضها في أكثر من موضع، وقد قال الله U: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَـذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [يوسف: ٣]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى

---

(١) ينظر: دراسات في القصة العربية: ٦، وفن القصة: ١٣.

(٢) ينظر: الرسول العربي المربي: ٢٤٦-٢٤٧.

(٣) ينظر: منهج التربية الإسلامية: ١/١٩٢-١٩٣، والرسول العربي المربي: ٢٤٨-٢٥٠، و٢٦٠-٢٦٢.

وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [يوسف: ١١١]، وأمر الله U نبيه محمدًا r بالقص فقال U: ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

- القصة النبوية.

احتفت السنة النبوية بالقصة، وصار لها في حديث النبي r نصيب وافر، وقد أحصى الدكتور محمد الزير القصص النبوي التي وردت في تسعة من مصادر الحديث الشريف[١] فكانت تسعًا وثلاثين ومائة قصة[٢].

ويأتي هذا الاحتفاء مراعاة لميل النفس البشرية إلى القصة كما قيل آنفًا، والنبي r يدرك ذلك بفطرته، وبما أوحاه الله U إليه، وأمره به من قص القصص، فكان r يقص على أصحابه وأمته القصص، ويهدف من هذه الوسيلة التعبيرية التي جمعت بين الإمتاع والتأثير غرس العقيدة في النفوس، وتربيتها على السلوك المستقيم[٣].

وانظر مثلاً كيف يغرس النبي r في نفوس المخاطبين توحيد الله U، والإخلاص له وحده في العبودية، والالتجاء إليه دون غيره في كشف الضر، ويغرس أيضًا قيمة العمل الصالح وأثره في حياة العبد، مع الإشارة إلى أفضلية الأعمال الصالحة الواردة في الحديث، كل ذلك بأسلوب قصصي مشوق، يستهوي النفس، ويستثيرها للاقتداء، حينما يقص قصة الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في غار، في الحديث الذي رواه عبد الله بن عمر t عن رسول الله r أنه قال: «بَيْنَمَا ثَلاثَةُ نَفَرٍ يَتَمَشَّوْنَ، أَخَذَهُمُ الْمَطَرُ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فِي جَبَلٍ، فَانْحَطَّتْ عَلَى فَمِ غَارِهِمْ صَخْرَةٌ مِنْ الْجَبَلِ، فَانْطَبَقَتْ عَلَيْهِمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: انْظُرُوا أَعْمَالاً عَمِلْتُمُوهَا صَالِحَةً لِلَّهِ، فَادْعُوا اللهَ تَعَالَى بِهَا؛ لَعَلَّ اللهَ يَفْرُجُهَا عَنْكُمْ، فَقَالَ أَحَدُهُمْ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَ لِي وَالِدَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَامْرَأَتِي، وَلِي صِبْيَةٌ صِغَارٌ، أَرْعَى عَلَيْهِمْ، فَإِذَا أَرَحْتُ عَلَيْهِمْ حَلَبْتُ، فَبَدَأْتُ بِوَالِدَيَّ، فَسَقَيْتُهُمَا قَبْلَ بَنِيَّ، وَأَنَّهُ نَأَى بِي ذَاتَ يَوْمٍ

(١) هي: موطأ مالك، ومسند أحمد، وصحيحا البخاري، ومسلم، وسنن النسائي، وأبي داود، والترمذي، وابن ماجه، وسنن الدارمي.

(٢) القصص في الحديث النبوي: ٤٨٦-٤٩٩، و٥١٣، وقد نازعه الدكتور مأمون جرار في كون بعضها من الفن القصصي، في كتابه: خصائص القصة الإسلامية: ١١٣-١٢١، ثم ينظر: القصص في الحديث النبوي: ٨٩-٩١.

(٣) ينظر: القصص في الحديث النبوي: ٤٣٥- ٤٦٠، وخصائص القصة الإسلامية: ١٦٦-١٦٨.

الشَّجَرُ، فَلَمْ آتِ حَتَّى أَمْسَيْتُ، فَوَجَدْتُهُمَا قَدْ نَامَا، فَحَلَبْتُ كَمَا كُنْتُ أَحْلُبُ، فَجِئْتُ بِالْحِلابِ، فَقُمْتُ عِنْدَ رُءُوسِهِمَا أَكْرَهُ أَنْ أُوقِظَهُمَا مِنْ نَوْمِهِمَا، وَأَكْرَهُ أَنْ أَسْقِيَ الصِّبْيَةَ قَبْلَهُمَا، وَالصِّبْيَةُ يَتَضَاغَوْنَ عِنْدَ قَدَمَيَّ، فَلَمْ يَزَلْ ذَلِكَ دَأْبِي وَدَأْبَهُمْ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً نَرَى مِنْهَا السَّمَاءَ، فَفَرَجَ اللهُ مِنْهَا فُرْجَةً، فَرَأَوْا مِنْهَا السَّمَاءَ. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنَّهُ كَانَتْ لِيَ ابْنَةُ عَمٍّ أَحْبَبْتُهَا كَأَشَدِّ مَا يُحِبُّ الرِّجَالُ النِّسَاءَ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهَا نَفْسَهَا، فَأَبَتْ حَتَّى آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَتَعِبْتُ حَتَّى جَمَعْتُ مِائَةَ دِينَارٍ، فَجِئْتُهَا بِهَا، فَلَمَّا وَقَعْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا قَالَتْ: يَا عَبْدَ اللهِ، اتَّقِ اللهَ، وَلا تَفْتَحْ الْخَاتَمَ إِلاّ بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ عَنْهَا، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مِنْهَا فُرْجَةً. فَفَرَجَ لَهُمْ. وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنِّي كُنْتُ اسْتَأْجَرْتُ أَجِيرًا بِفَرَقِ أَرُزٍّ، فَلَمَّا قَضَى عَمَلَهُ قَالَ: أَعْطِنِي حَقِّي، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ فَرَقَهُ، فَرَغِبَ عَنْهُ، فَلَمْ أَزَلْ أَزْرَعُهُ، حَتَّى جَمَعْتُ مِنْهُ بَقَرًا وَرِعَاءَهَا، فَجَاءَنِي فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلا تَظْلِمْنِي حَقِّي، قُلْتُ: اذْهَبْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ وَرِعَائِهَا فَخُذْهَا، فَقَالَ: اتَّقِ اللهَ، وَلا تَسْتَهْزِئْ بِي، فَقُلْتُ: إِنِّي لا أَسْتَهْزِئُ بِكَ، خُذْ ذَلِكَ الْبَقَرَ وَرِعَاءَهَا، فَأَخَذَهُ فَذَهَبَ بِهِ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ لَنَا مَا بَقِيَ، فَفَرَجَ اللهُ مَا بَقِيَ»(١).

وفي رواية في غير الصحيحين أن النبي ﷺ قال لهم: «مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ صَاحِبِ فَرَقِ الأَرُزِّ فَلْيَكُنْ مِثْلَهُ» قالوا: ومن صاحب فرق الأرز؟ يا رسول الله، فذكر القصة(٢). وهذا السؤال من النبي ﷺ فيه استثارة وتحريك للنفوس، لتتشوف وتشتاق إلى معرفة القصة، وهي النفوس التي تتطلع إلى معرفة الأحداث والوقوف على تفصيلاتها، وهذا من النبي ﷺ خبرة دقيقة بالنفس البشرية وما تحتاج إليه وما يدفعها ويحفزها إلى المعرفة والتعلم، لتكون في أحسن حالات التعلم والتربية، وقد جاءت هذه السمة -أعني استثارة النفوس لمعرفة القصة- في كثير من القصص، وبطرق متنوعة(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٢١٥) ، ومسلم: (٢٧٤٣).

(٢) أخرجها أحمد في مسنده: ٢/١١٦، وأبو داود: كتاب البيوع، باب في الرجل في مال الرجل بغير إذنه، برقم (٣٣٨٧).

(٣) ينظر: القصص في الحديث النبوي: ٩٤-١٢٣.

ومما تتميز به قصص النبي r أنها تحفز المخاطب إلى التفاؤل وتبث فيه الأمل، سواء كان الأمر يتعلق بالنصر على الأعداء، أم الانتصار على النفس الأمارة بالسوء، وهذا منهج مهم؛ لأن النفس البشرية كثيرًا ما تترع إلى التشاؤم والإحباط والسلبية، والقصة السابقة وما سيأتي لاحقًا يؤكد هذا المنهاج النبوي في القصص، يقول الدكتور محمد الزير في الحديث عن نهاية القصة النبوية: ((مما يلفت النظر في النهاية أنها تحرص على أن تقدم للمستمع أو القارئ أحداثًا ومشاهد تختم بنهايات سارة ومفرحة بالنسبة لبطل القصة أو مجموعة من أبطالها، وهي بالتالي ذات آثار تنعكس على نفسية المتلقي، حيث تعطيه الرضا والطمأنينة والاستئناس بهذه المشاهد والخواتيم التي تزرع في نفسه بطريق غير مباشر بذور التفاؤل والأمل))(١)، ثم يقول: ((تسجل النهاية في القصة النبوية في أحيان كثيرة انتصار الحق، وانهزام الباطل مهما كانت الظروف، ومهما أطال الزمن في عمر الباطل، وقد يكون ذلك الانتصار الذي تسجله النهاية معنويًا، يتمثل في الثبات على المبدأ، وعدم الرضوخ إلى رغبة طغيان الباطل وأهوائه، برغم ما يملكه من وسائل الإرهاب والعنف، كما نجد في نهاية قصة أصحاب الأخدود التي تسجل أروع انتصار يحققه الإنسان؛ انتصار على الألم والضعف، ولذة الحياة وحبها))(٢).

---

(١) المرجع السابق: ١٥٥.

(٢) المرجع السابق: ١٥٦.

- أثر حال المخاطب في اختيار القصة.

لست في مقام التفصيل في بناء القصة النبوية وموضوعاتها وأغراضها وخصائصها، وقد تناولها بعض الباحثين فأحسنوا[١]، ولكني هنا أتناول القصص التي راعى النبي r في اختيارها مقتضى حال المخاطب.

و لم أجد من المواقف التي اختار فيها النبي r التعبير بالقصة وتبين لي فيها حال المخاطب إلا قصة الثبات على الدين التي يرويها خباب بن الأرت t ، أنه جاء إلى النبي r ، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقد لقي المسلمون من المشركين شدة، فقال: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول r وهو محمر وجهه، فقال: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ، يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللهِ، لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاّ اللهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[٢].

وهذه القصة الموجزة التي نجد تفاصيلها في مثل قصة أصحاب الأخدود[٣] تأتي في وقت أحوج ما يكون فيه الصحابة y إلى الصبر والثبات في مواجهة المشركين لهم وبغيهم وطغيانهم عليهم، ليبرز لهم النبي r نماذج مشابهة، بل هي أسوء حالاً، لكنها أقوى صبرًا وثباتًا.

إن النفس البشرية قد تضعف في مواطن المحن والبلاء، لكنها تشعر بشيء من العزاء والتسلية حينما ترى من يشاركها همومها وآلامها، وتسمع أو تقرأ عن من يعاني ما تعانيه، فتتجلد وتصبر، وقد قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وَلَوْلا كَثْرَةُ البَاكِينَ حَوْلِي ... عَلَى إِخْوانِهِمْ لَقَتَلْتُ نَفْسِي[٤]

---

(١) ينظر في ذلك: القصص في الحديث النبوي ٨٧-٤٦٠، وخصائص القصة الإسلامية: ١١١-١٧٠ و٢٢٨-٢٣٠، ٢٣٠، والخصائص الفنية في الأدب النبوي: ١٣٧-١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري: (٣٦١٢ و٣٨٥٢ و٦٩٤٣).

(٣) أخرجها مسلم: (٣٠٠٥).

(٤) ديوان الخنساء: ٨٤.

وإذا سمع المرء قصة فيها من الشخصيات من تشابهه فكأنما يراها هو ممثلة في هذه القصة، وتكون هذه الشخصية هي التي ترسم له مسار التعامل مع آلامه ومشكلاته وأحواله(١).

وقد قص القرآن الكريم على نبينا محمد r قصص الأنبياء من قبله ومواجهة أعدائهم لهم، ليثبته ويسليه ويخفف عنه ما يجده من كيد أعدائه ومكرهم، ويبث في نفسه الأمل والتفاؤل بالنصر، وقد قال الله U لنبيه r بعد أن قص عليه قصة نوح u : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وفي خاتمة سورة الأحقاف بعد أن قص عليه قصة عاد قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، وبعد أن قص عليه جملة من قصص الأنبياء قال له: ﴿وَكُلاًّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، وفي موضع آخر يقول له: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ قُلْ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٩٠].

لهذا عدل النبي r عن إجابة طلب الدعاء والاستنصار، إلى سرد القصة عليهم، تثبيتًا لهم وغرسًا للصبر في نفوسهم، وتعريضًا بعتابهم على ضعف صبرهم وقلة تحملهم، ولو عاتبهم صراحة لكان في هذا العتاب مزيد من الهم والألم في نفوسهم، ولو أنه أجاب طلبهم فاكتفى بالدعاء لهم لكان في ذلك إضعاف لنفوسهم عن تحمل المواجهة، لأنهم كلما وقع عليهم البلاء واشتدت بهم المحن أقبلوا على رسول الله r يطلبون الدعاء والاستنصار، فلعل النبي r أراد أن يربيهم على أن الدعاء ليس كل شيء، بل هو وسيلة واحدة من وسائل المواجهة، والأهم مع ذلك ثبات النفس وصبرها، فإن ذلك أدعى إلى قوتها وتراجع أعدائها، ثم إن الرسول r لن يدوم لهم، فكيف إذا مات أو فارقهم أي مفارقة، هل ستضعف نفوسهم ويستسلمون للمحن؟!

وهذه القصة تحمل في طياتها التفاؤل بالانتصار، ليس الانتصار الحسي على الأعداء، ولكنه انتصار معنوي هو أقوى وأعمق أثرًا في نفوس المؤمنين ونفوس أعدائهم من الانتصار

(١) ينظر: الرسول العربي المربي: ٢٤٨.

الحسي، حينما لا يرضخ لأعدائه الذين يحاولون بما يملكونه من قوة الترهيب والترغيب صده عن عقيدته، فيثبت عليها مهما اشتد عليه البلاء وتوالت عليه المحن، وهو ليس انتصارًا على الأعداء فحسب؛ بل هو انتصار على ضعف النفس وحرصها على الحياة الذليلة ولو فرطت بالمعتقد الحق.

ولقد حملت القصة في بناءها وصياغتها ما يدل على هذه المعاني التي أراد النبي r أن يغرسها في نفوس أصحابه y كلهم لا خباب وحده، حيث جاء الخطـــاب جماعيًـــا، لأن خباب t ما هو إلا سفير لأصحابه y أو كالسفير، يتحدث باسمهم، ويتكلم بلسانهم، لذا جاء خطابه بصيغة الجمع: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا. وجاء في بعض الروايات أنـــه قال: شكونا إلى رسول الله r. ومما حملته القصة مما يقوي تلك المعاني ويغرسها في نفـــوس الصحابة y ومن بعدهم ما يلي:

١- لما سمع النبي r ما قاله خباب t بادر بالقعود، وهذه الحركة تحمل دلالـــة اهتمام بالأمر، وشد انتباه لما سيقول.

٢- وصاحب القعود انفعال ظهر في احمرار وجهه r، كناية عن غضبه r من ضعف الصبر وقلة التحمل واستعجال النصر، وفيه إشعار للمخاطب بأن ما ســـيخاطبه بـــه النبي r فيه قوة وغضب لا على ما أراده، فيكون هذا الانفعال ممهدًا لقبول الخطاب.

٣- خلت القصة من تحديد المكان والزمان، إلا إشارة عامة إلى ماض غير محـــدد «فِيمَنْ قَبْلَكُمْ»، ولم تبرز من شخصيات القصة إلا شخصية البطل التي ترمـــز إلى الثبـــات، لكنها لم يذكر اسمها ولا وصفها إلا بكونها رجلاً، وشخصيات القائمين بالتعذيب مجهولـــة وإن كان بشاعة أفعال التعذيب التي يؤدونها تدل على صفتهم.

وعدم اهتمام القصة بعنصري المكان والزمان ورسم صـــورة الشخصـــيات لأجـــل التركيز على الحدث وشد انتباه المخاطب إليه، وليبتعد عن أي تفصـــيلات لا علاقـــة لهـــا بالمقصود من سرد الحدث قد تشغل ذهنه عن متابعته، يقول الدكتور محمد الزير: ((يعتـــبر الحدث في أي قصة روحها الذي يمنحها الحياة والحيوية، وهو في القصة النبوية العنصر المهم والغالب فيها، بحيث نجده هو المسيطر، وهو البارز، وهو محط الاعتبار فيها، ومنبع التطلـــع والإثارة، ولذلك فالشخصيات نفسها حين ترد في القصة لا يهتم بها لذاتها، وإنمـــا تكـــون

العناية بما سيحدث لها، وتكون العناية بمواقفها وأفعالها، ومن هنا نجد الكـثير مـن هـذه الشخصيات ترد في القصة وهي في صورة نكرة (امرأة) أو (رجل) أو ما شابه ذلـك مـن الألفاظ المرادفة))(١).

هذه إشارات، وإلا ففي ألفاظ القصة وتراكيبها ما راعـى فيـه الـنبي r حـال المخاطب، وسيأتي بيان ذلك بإذن الله U في مواضعه من الفصول الآتية(٢)، والله أعلم.

---

(١) القصص في الحديث النبوي: ٣٠٢، وينظر: ٢٥٩.

(٢) ينظر ص (٢٦٠، ٢٧٩، ٣٠٨، ٣٢٣، ٤٣٧، ٥٠٨، ٥١١، ٥٨٧، ٦٠٠) من هذا البحث.

المبحث السابع: إنشاد الشعر.

- نفي الشعر عن النبي r.

لم يكن النبي r شاعرًا وما ينبغي له، كما قال الله U: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ [يس: ٦٩]، قال ابن كثير (٧٧٤ هـ): ((أي: وما هو في طبعه، فلا يحسنه ولا يحبه، ولا تقتضيه جبلته؛ ولهذا ورد أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يحفظ بيتًا على وزن منتظم، بل إن أنشده زَحَّفه أو لم يتمه))(١).

وقد جاء بعض كلامه على وزن الشعر، إلا أنه لم يقصد إليه، كقوله في يوم حنين حين ولّى الناس واستنصر: «أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِب، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب»(٢)، وقوله r لما عثر فدميت إصبعه: «هَلْ أَنْتِ إِلاّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ»(٣). وذكر ابن العربي (٥٤٣هـ) جملة من الأقوال الموزونة مما اعترض به بعض الملاحدة على الآية ثم قال: ((قد أجاب عن ذلك علماؤنا بأن ما يجري على اللسان من موزون الكلام لا يُعَدُّ شعرًا، وإنما يُعدُّ منه ما يجري على وزن الشعر، ومع القصد إليه))(٤)، وقال أبو حيان (٧٤٥هـ): ((قد وقع في كلامه u ما يدخله الوزن كقوله: أنا النبي لا كذب .. أنا ابن عبد المطلب، وكذلك قوله: هل أنت إلا أصبع دميت.. وفي سبيل الله ما لقيت.

وهو كلام من جنس كلامه الذي كان يتكلم به على طبيعته، من غير صنعة فيه، ولا قصد لوزن ولا تكلف. كما يوجد في القرآن شيء موزون ولا يعد شعرًا، كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ البر حتى تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، وقوله: ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩]، وفي كثير من النثر الذي تنشئه الفصحاء، ولا يسمى ذلك شعرًا، ولا يخطر ببال المنشي ولا السامع أنه شعر))(٥)، وهذا الذي ذكره أبو حيان من

---

(١) تفسير القرآن العظيم: ٦/٥٨٨.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٨٦٤) ، ومسلم: (١٧٧٦).

(٣) أخرجه البخاري: (٢٨٠٢ و٦١٤٦) ، ومسلم: (١٧٩٦).

(٤) أحكام القرآن: ٤/٢٧.

(٥) البحر المحيط: ٧/٤٥٨، وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ١٥/٣٦، وفتح الباري: ١٠/٥٤٢، والالتزام الإسلامي في الشعر: ١٣٥-١٣٦.

الانسجام عند أهل البديع، حين يأتي الكلام المنثور موزونًا كالشعر دون قصد إليه، قال ابن أبي الإصبع: ((أكثر ما يقع الانسجام غير مقصود، كمثل الكلام المتزن الذي تأتي به الفصاحة في ضمن النثر عفوًا، كأشطار وأنصاف أبيات وقعت في أثناء الكتاب العزيز، ورويت عن النبي الكريم عليه أفضل الصلاة والتسليم، فإن وقع من ذلك بيتان في غير القرآن فصاعدًا عُدّ ذلك شعرًا وإن لم يقصد، وأما القرآن العزيز فلم يقع فيه إلا ما هو على مثال البيت المفرد فقط، والبيت المفرد لا يسمونه شعرًا قصد أو لم يقصد))[1].

- إنشاد النبي r للشعر.

لا يلزم من امتناعه r عن إنشاء الشعر عدم إنشاده، قال أبو إسحاق الزجاج (٣١١هـ) عند قول الله U: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾: ((أي: ما علمنا محمدًا قول الشعر، وما ينبغي له، أي: ما يتسهل له ذلك... وليس يوجب هذا أن يكون النبي لم يتمثل ببيت شعر قط))[2]، واستحسن هذا القول أبو جعفر النحاس (٣٣٨هـ)، قال: ((ومن أحسن ما قيل في هذا قول أبي إسحاق: إن معنى ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ أي: وما علمناه أن يشعر، أي: ما جعلناه شاعرًا، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئًا من الشعر. وقد قيل: إنما خبَّر الله U أنه ما علمه الشعر، ولم يخبر أنه لا ينشد شعرًا))[3].

- رعاية حال المخاطب في إنشاد النبي r للشعر.

وردت عدة مواقف أنشد فيها النبي r الشعر واستنشده، لكنني أذكر هنا ما ورد في الصحيحين مما جاء الشعر فيه مراعيًا لحال المخاطَب.

ومن ذلك إنشاد الشعر لتحفيز الصحابة وتنشيطهم على العمل، لما ((في الشعر من الرقة ما يلامس العاطفة، فيوقظ القلوب، ويعمرها بالحركة النامية، فتتوجه النفس نحو الغرض المنشود بهمة عالية وعزم متوثب))[4].

من ذلك إنشاده r وهو يبني المسجد مع أصحابه y، ويقول وهو ينقل معهم اللَّبِن:

---

(١) بديع القرآن: ١٦٦، وينظر: تحرير التحبير: ٤٢٩، وخزانة الأدب، لابن حجة: ٤١٧/١.

(٢) معاني القرآن: ٢٩٣/٤-٢٩٤.

(٣) إعراب القرآن: ٤٠٥/٣، وينظر: الجامع لأحكام القرآن: ٣٧/١٥، وفتح الباري: ٢٤٧/٧.

(٤) الالتزام الإسلامي في الشعر: ١٣٣، وينظر: نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد: ١١.

«هَذَا الْحِمَالُ لا حِمَـالَ خَيْبَـرْ   هَـذَا أَبَـرُّ رَبَّنَـا وَأَطْهَـرْ»

ويقول:

«اللَّهُمَّ إِنَّ الأَجْرَ أَجْـرُ الآخِـرَهْ   فَارْحَم الأَنْصَـارَ وَالْمُهَـاجِرَهْ»

قالت عائشة رضي الله عنها راوية الحديث: فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسم لي(١).

وفي رواية لأنس t أن النبي r كان يقول:

«اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلاّ خَيْرُ الآخِـرَهْ   فَاغْفِر لِلأَنْصَـارِ وَالْمُهَـاجِرَهْ»

وفي رواية أخرى:

«اللَّهُمَّ إِنَّهُ لا خَيْرَ إِلاّ خَيْـرُ الآخِـرَهْ   فَانْصُر الأَنْصَـارَ وَالْمُهَـاجِرَهْ»(٢)

ومن ذلك ما ورد في حفر الخندق استعدادًا لملاقاة الأحزاب، فعن أنس t قـال: خرج رسول الله r إلى الخندق، فإذا المهاجرون والأنصار يحفرون في غداة باردة، فلم يكن لهم عبيد يعملون ذلك لهم، فلما رأى ما بهم من النصب والجوع قال:

«اللَّهُمَّ إِنَّ الْعَيْشَ عَيْشُ الآخِـرَهْ   فَاغْفِرْ لِلأَنْصَـارِ وَالْمُهَـاجِرَهْ»

فقالوا مجيبين له:

نَحْـنُ الَّـذِينَ بَـايَعُوا مُحَمَّـدَا   عَلَى الْجِهَادِ مَـا بَقِينَـا أَبَـدَا(٣)

وفي رواية أن النبي r قال لهم:

«اللَّهُمَّ إِنَّ الْخَيْرَ خَيْـرُ الآخِـرَهْ   فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَـاجِرَهْ»(٤)

وفي رواية أنهم كانوا يقولون:

نَحْـنُ الَّـذِينَ بَـايَعُوا مُحَمَّـدَا   عَلَى الإِسْلامِ مَـا بَقِينَـا أَبَـدَا

والنبي r يجيبهم ويقول:

«اللَّهُمَّ إِنَّه لا خَيْرَ إِلاّ خَيْرُ الآخِـرَهْ   فَبَارِكْ فِي الأَنْصَارِ وَالْمُهَـاجِرَهْ»(٥)

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٩٠٦).

(٢) أخرجه البخاري: (٤٢٨ و٣٩٣٢)، ومسلم: (٥٢٤) عن أنس t .

(٣) أخرجه البخاري: (٢٨٣٤)، ومسلم: (١٨٠٥).

(٤) أخرج الرواية البخاري: (٧٢٠١)، ومسلم: (١٨٠٥).

(٥) أخرج الرواية البخاري: (٢٨٣٥).

وفي رواية أهم يقولون:

نَحْـــنُ الَّـــذِينَ بَـــايَعُوا مُحَمَّـــدَا   عَلَى الْجِهَادِ مَـــا حَيِينَـــا أَبَـــدَا

فأجابهم النبي r فقال:

«اللَّهُمَّ لا عَيْشَ إِلاّ عَيْشُ الآخِـــرَهْ   فَأَكْرِم الأَنْصَارَ وَالْمُهَـــاجِرَهْ»[1]

وفي رواية:

«لا عَـــيْشَ إِلاّ عَـــيْشُ الآخِـــرَةِ   فَأَصْلِح الأَنْصَارَ وَالْمُهَـــاجِرَةَ»[2]

وفي رواية: كانوا يرتجزون ورسول الله r معهم، وهم يقولون:

«اللَّهُمَّ لا خَيْرَ إِلاّ خَيْرُ الآخِـــرَهْ   فَانْصُر الأَنْصَارَ وَالْمُهَـــاجِرَهْ»[3]

ولا تعارض بين الروايات في الموقفين والله أعلم؛ لأن الاختلاف هنا اختلاف تنوع، بمعنى أن النبي r وأصحابه يكررون الرجز وينوعون في ألفاظه، فمرة يذكر الصحابة y الإسلام ومرة يذكرون الجهاد، وهم يُذَكِّرون أنفسهم بعهد البيعة، ويجددون وفاءهم للنبي r بمقتضاها، والنبي r يجيبهم فيبشرهم بعيش الآخرة، ويدعو لهم، مرة بالرحمة، ومرة بالمغفرة، ومرة يدعو لهم بالنصرة، وأخرى بالمباركة، وهكذا الإكرام والإصلاح، فلم يكن النبي r يقتصر على مدعو به واحد بل ينوع فيما يدعو به لهم، وهذا فيه مزيد تحفيز وتنشيط، والله أعلم. وقد تعاضد الدعاء مع الرجز في التنشيط، وقد سبق الحديث عن الدعاء.

ومن مواقف الخندق أيضًا ما رواه البراء بن عازب t قال: رأيت النبي r يوم الخندق وهو ينقل التراب، حتى وارى التراب شعر صدره، وكان رجلاً كثير الشعر، وهو يرتجز برجز عبد الله بن رواحة:

اللَّهُمَّ لَوْلا أَنْـــتَ مَـــا اهْتَـــدَيْنَا

وفي رواية: وَاللهِ لَوْلا اللهُ مَا اهْتَدَيْنَا[4].

---

(١) أخرج الرواية البخاري: (٢٩٦١)، ومسلم: (١٨٠٥).

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٣٧٩٥).

(٣) أخرج الرواية مسلم: (١٨٠٥).

(٤) أخرج الرواية البخاري: (٤١٠٤ و٦٦٢٠).

وفي رواية: وَاللهِ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا[١].

وفي رواية: لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا[٢].

وَلا تَصَـــــدَّقْنَا وَلا صَـــــلَّيْنَا

وفي رواية: وَلا صُمْنَا وَلا صَلَّيْنَا[٣].

فَــــأَنْزِلَنْ سَــــكِينَةً عَلَيْنَــــا

وَثَبِّـــتْ الأَقْـــدَامَ إِنْ لاقَيْنَــــا

إِنَّ الأَعْـــدَاءَ قَـــدْ بَغَـــوْا عَلَيْنَــا

وفي رواية: إِنَّ الأُلَى قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا[٤].

وفي رواية: إِنَّ الأُلَى قَدْ أَبَوْا عَلَيْنَا[٥].

وفي رواية: إِنَّ الْمَلا قَدْ أَبَوْا عَلَيْنَا[٦].

وفي رواية: وَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا[٧].

إِذَا أَرَادُوا فِتْنَـــــــةً أَبَيْنَـــــــا

وفي رواية: وَإِنْ أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا[٨]. يرفع بها صوته: «أَبَيْنَا، أَبَيْنَا»[٩].

واختلاف الروايات يقال فيه كما قيل في الحديثين السابقين، وفي إحدى روايات الحديث ما يدل على تنويع النبي r بين ألفاظ الشعر قصدًا، فعن البراء t قال: كان النبي r ينقل معنا التراب يوم الأحزاب، ولقد رأيته وارى التراب بياض بطنه، يقول: «لَوْلا أَنْتَ

(١) أخرج الرواية مسلم: (١٨٠٣).

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٢٨٣٦).

(٣) أخرج الرواية البخاري: (٦٦٢٠).

(٤) أخرج الرواية البخاري: (٢٨٣٧ و٤١٠٤ و٤١٠٦ و٧٢٣٦).

(٥) أخرج الرواية مسلم: (١٨٠٣).

(٦) أخرج الرواية مسلم: (١٨٠٣).

(٧) أخرج الرواية البخاري: (٦٦٢٠).

(٨) أخرج الرواية البخاري: (٤١٠٦).

(٩) أخرجه البخاري: (٣٠٣٤)، ومسلم: (١٨٠٣).

مَا اهْتَدَيْنا نَحْنُ.. وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا.. فَأَنْزِلَنْ سَكِينَةً عَلَيْنَا.. إِنَّ الأُلَى» وربماقال: «الْمَلا قَدْ بَغَوْا عَلَيْنا.. إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا.. أَبَيْنَا» يرفع بها صوته[1].

ولعل مما يتعلق باختيار الشعر رعايةً لحال المخاطب ما سبق ذكره في مبحث البيئة من الفصل الأول، من كون النبي r لما رأى من معاداة مشركي مكة وتطاولهم عليه وعلى المسلمين بالسب والأذى اختار أشد الكلام عليهم وقعًا، وأنفذه ذكرًا وسيرًا بين العرب، فدعا شعراء المسلمين وخاصة الأنصار إلى هجائهم، كما روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله r قال: «اهْجُوا قُرَيْشًا؛ فَإِنَّهُ أَشَدُّ عَلَيْها مِنْ رَشْقٍ بِالنَّبْلِ» فأرسل إلى ابن رواحة فقال: «اهْجُهُمْ»، فهجاهم فلم يُرْضِ، فأرسل إلى كعب بن مالك، ثم أرسل إلى حسان بن ثابت، فلما دخل عليه قال حسان: قد آن لكم أن ترسلوا إلى هذا الأسد الضارب بذنبه، ثم أدلع لسانه، فجعل يحركه، فقال: والذي بعثك بالحق لأَفْرِيَنَّهم بلساني فري الأديم، فقال رسول الله r : «لا تَعْجَلْ؛ فَإِنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ قُرَيْشٍ بِأَنْسَابِها، وإِنَّ لِي فِيْهِم نَسَبًا، حَتَّى يُلَخِّصَ لَكَ نَسَبِي»، فأتاه حسان، ثم رجع فقال: يا رسول الله، قد لخص لي نسبك، والذي بعثك بالحق لأَسُلَّنَّكَ منهم كما تُسَلّ الشعرة من العجين، قالت عائشة فسمعت رسول الله r يقول لحسان: «إِنَّ رُوْحَ الْقُدُسِ لا يَزَالُ يُؤَيِّدُكَ مَا نَافَحَتَ عَن اللهِ ورَسُولِه»، وقالت: سمعت رسول الله r يقول: «هَجَاهُمْ حَسَّانُ، فَشَفَى وَاشْتَفَى»[2]. وقد سبق في ذاك المبحث بيان سبب اختيار الأنصار لهذه المهمة دون غيرهم، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٧٢٣٦)، وينظر رواية مسلم: (١٨٠٣).

(٢) أخرجه مسلم (٢٤٩٠).

المبحث الثامن: التعبير بغير الكلام.

لئن كانت اللغة الملفوظة على اختلاف أجناسها قادرة على التعبير والدلالـة عمـا يختلج في النفس من معان، فإن ثمة وسائل أخرى تسهم بصورة كـبيرة في كشـف تلـك الدلالات والمعاني، بل لا يستطيع المرء في بعض المواقف أن يعبر عما في نفسه إلا من خلالها، لا عجزًا في اللغة الملفوظة، ولكن المقام يقتضي ذلك، فربما لا يستطيع المخاطِب أن ينطـق لأي سبب فيلجأ إلى الإشارة، كما في قول الله U عن مريم عليها السلام حـين ولـدت عيسى U ، وأمرت في ذلك اليوم أن تصوم ولا تكلم إنسيًا: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا $ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا $ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٧-٢٩]، فوجدت في الإشارة ما يغني عن العبارة.

ويرى بعض الباحثين أن نسبة اللغة اللفظية في التعبير عن المعاني والمشاعر تتراوح بين ٣٠% إلى ٣٥%، وقد تصل إلى ٤٠%، بينما النسبة الأكبر للعوامل غير اللفظية، ويوصل بعضهم نسبة العوامل غير اللفظية إلى ٩٣%(١).

وقد فطن العلماء من البلاغيين واللغويين وغيرهم إلى أهمية هذه العوامل في الدلالـة على المعنى، وعدوها من أنواع البيان والبلاغة(٢)، وقد سئل ابن المقفع (١٤٢هـــ) عـن البلاغة فقال: ((البلاغة اسم جامع لمعان تجري في وجوه كـثيرة؛ فمنـها مـا يكـون في السكوت، ومنها ما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها مـا يكـون في الاحتجاج، ومنها ما يكون جوابًا، ومنها ما يكون ابتداءً، ومنها ما يكون شعرًا، ومنها مـا يكون سجعًا وخطبًا، ومنها ما يكون رسائل))(٣)، وتحدث الجاحظ (٢٥٥هــ) عن البيان، مبينًا أنه اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع، ثم قال: ((وجميع أصناف الدلالات على المعاني

---

(١) ينظر: دراسات في علم اللغة: ١٦١، والإشارات الجسمية: ٣٠، والبيان بلا لسـان: ٢٨، واللغـة واختـلاف الجنسين: ١٤١.

(٢) ينظر: الإشارات الجسمية: ٣٤-٣٩، والبيان بلا لسان: ٧٣-١٦٣.

(٣) البيان والتبيين: ١/١١٦.

من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقْد، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصْبة. والنِّصْبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات. ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها. وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصها وعامها، وعن طبقاتها في السار والضار، وعما يكون منها لغوًا بهرجًا، وساقطًا مطرحًا))[1].

وتناول ذلك أيضًا ابن جني (٣٩٢هـ) مبينًا أثر دلالة (الحال) في بيان المعنى، وذكر شاهدًا على ذلك قول الشاعر[2]:

تَقولُ وصَكَّتْ وَجْهَهَا بِيَمِينِها   أَبَعْلِيَ هَذا بِالرَّحَى الْمُتَقَاعسُ

وقال: ((لو قال حاكيًا عنها: أبعلي هذا بالرحى المتقاعس، من غير أن يذكر (صك الوجه) لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لما حكى (الحال)، فقال: (وصكت وجهها) عُلم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها، هذا مع أنك سامع لحكاية الحال غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين، وقد قيل: ليس المخبَر كالمعايَن، ولو لم ينقل الينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله: وصكت وجهها، لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها))[3]، وذكر شواهد أخرى ثم قال: ((وعلى ذلك قالوا: رب إشارة أبلغ من عبارة... وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله: أنا لا أحسن أن أكلم إنسانًا في الظلمة))[4].

ويدخل في التعبير بغير الكلام: السكوت، ونبرة الصوت، والإشارات (الحركات) الجسمية، ونحو ذلك مما يريد به المتكلم الإبانة عن مقصوده. ويشمل هذه الوسائل مصطلح (اللغة غير اللفظية)[5].

---

(١) البيان والتبيين: ١/٧٥-٧٦.

(٢) نسب البيت لأبي مُحلِّم السعدي في الكامل: ١/٥١.

(٣) الخصائص: ١/٢٤٥-٢٤٦.

(٤) المرجع السابق: ١/٢٤٧.

(٥) اللغة واختلاف الجنسين: ١٢٩.

وقد كان للنبي r عناية بهذه اللغة على اختلاف أشكالها، وسأذكر منها ما يتعلق بالبحث مما يلائم حال المخاطَب، وسأذكر أولاً ما له علقة باللفظ وهو الصوت، فالسكوت، ثم الإشارات الجسمية والفعل.

أ- الإشارات الصوتية.

يدخل ضمن اللغة غير اللفظية ((الإشارات النطقية غير اللفظية، التي تتمثل في استخدام الصفات المميزة للصوت، والتي يمكن أن تحمل معنى، وتعطي إشارات صوتية منطوقة ذات خصائص معينة، ويشمل ذلك ارتفاع الصوت، ورنينه، ومعدل سرعته، ومجال درجة الصوت، ونوعية الصوت، واستمراريته، وغير ذلك))(١).

ومما ورد من ذلك في خطاب النبي r ما يلي:

١- عن عوف بن مالك الأشجعي t قال: كنا عند رسول الله r تسعة أو ثمانية أو سبعة فقال: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ» وكنا حديث عهد ببيعة فقلنا: قد بايعناك، يا رسول الله. ثم قال: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ» فقلنا: قد بايعناك، يا رسول الله. ثم قال: «أَلا تُبَايِعُونَ رَسُولَ اللهِ» فبسطنا أيدينا، وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: «عَلَى أَنْ تَعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَالصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ وَتُطِيعُوا» **وأَسَرَّ كلمة خفية:** «وَلا تَسْأَلُوا النَّاسَ شَيْئًا» فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحدًا يناوله إياه(٢)، فالإسرار بالكلمة إشعار لهم بأهمية ما سيقوله، واختصاصهم به، ولعلهم كانوا من خاصة أصحابه.

٢- عن سعد بن أبي وقاص t قال: أصاب رسول الله r غنيمة عظيمة فإذا فيها سيف، فأخذته، فأتيت به الرسول r فقلت: نَفِّلْني هذا السيف، فأنا من قد علمت حاله، فقال: «رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ» فانطلقت حتى إذا أردت أن ألقيه في القبض لامتني نفسي، فرجعت إليه، فقلت: أعطنيه. **فشد لي صوته:** «رُدُّهُ مِنْ حَيْثُ أَخَذْتَهُ» فأنزل الله

(١) المرجع السابق.

(٢) أخرجه مسلم (١٠٤٣).

U: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنْ الأَنْفَالِ﴾ [الأنفال: ١][١]، ولعل شد الصوت هنا كناية عن الإغلاظ في الزجر، لكون المخاطب لم يكتف بالأمر الأول، والله أعلم.

ب- السكوت.

السكوت خلاف النطق[٢]، ويطلق عليه: الصمت، ويسكت المرء غالبًا للدلالة على انتهاء الفقرة أو الفكرة من الكلام، أو انتهاء الكلام كله. وثمة دلالات أخرى للسكوت تتبين من سياق الموقف الذي حصل فيه، فقد يكون السكوت كناية عن الإذن والموافقة، والرضا والقبول، وقد يكنى به عن الحياء، أو الخوف، أو الغضب، أو الكراهية، وقد يراد بالسكوت التعريض بالانصراف عن المجلس، وغير ذلك من الدلالات[٣].

وورد السكوت عن النبي r وهو يحمل عدة دلالات بحسب الموقف الذي ورد فيه، ومما يتعلق منه برعاية حال المخاطب ما يلي:

١- عن سهل بن سعد t أن امرأة جاءت رسول الله r فقالت: يا رسول الله، جئت لأهب لك نفسي. فنظر إليها رسول الله r، فصَعَّد النظر إليها وصَوَّبه، ثم طأطأ رأسه، وفي رواية أنها قامت فقالت: يا رسول الله، إنها قد وهبت نفسها لك، فرَ فيها رأيك، **فلم يجبها شيئًا**، ثم قامت فقالت: يا رسول الله، إنها قد وهبت نفسها لك، فرَ فيها رأيك، **فلم يجبها شيئًا**، ثم قامت الثالثة فقالت: إنها قد وهبت نفسها لك فرَ فيها رأيك[٤]. فلما رأت المرأة أنه لم يقض فيها شيئًا جلست. فقام رجل من أصحابه فقال: يا رسول الله، إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها. فقال: «هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟» فقال: لا، والله، يا رسول الله. قال: «اذْهَبْ إِلَى أَهْلِكَ فَانْظُرْ هَلْ تَجِدُ شَيْئًا»... الحديث[٥]، وفي رواية مختصرة أن النبي r

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٤٨).

(٢) ينظر: لسان العرب: ٤٣/٢.

(٣) ينظر: دراسات لسانية في الحديث النبوي: ١٣٤-١٣٥.

(٤) البخاري: (٥١٤٩).

(٥) أخرجه البخاري: (٢٣١١ و٥٠٢٩ و٥٠٣٠)، ومسلم: (١٤٢٥).

لما وهبت المرأة نفسها قال: «مَا لِي الْيَوْمَ فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ» فقال رجل: يا رسول الله، زوجنيها، فقال: «مَا عِنْدَكَ؟»... الحديث[1].

وسكوت النبي r في هذا الحديث كناية عن رفض العرض، ولم يرد أن يجيبها بالقول الصريح لئلا يخجل المرأة بعد أن جاءت أمام الناس لتعرض نفسها عليه، لكنها لما ألحت عليه بالعرض ولم تكتف بدلالة السكوت قال لها: «مَا لِي الْيَوْمَ فِي النِّسَاءِ مِنْ حَاجَةٍ» وربما قال هذا القول بعد أن قال له الرجل: إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها. وهو قول لطيف من النبي r ، راعى فيه طبيعة الأنثى كما سبق بيانه في المبحث لثالث من الفصل الأول، قال النووي (٦٧٦هـ) ذاكرًا من فوائد الحديث: ((فيه أنه يستحب لمن طلبت منه حاجه لا يمكنه قضاؤها أن يسكت سكوتًا يفهم السائل منه ذلك، ولا يخجله بالمنع، إلا إذا لم يحصل الفهم إلا بصريح المنع فيصرح))[2].

٢- عن عائشة رضي الله عنها أن نساء رسول الله r كن حزبين، فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة، والحزب الآخر أم سلمة وسائر نساء رسول الله r ، وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله r عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله r أخرها، حتى إذا كان رسول الله r في بيت عائشة بعث صاحب الهدية بها إلى رسول الله r في بيت عائشة، فكلم حزب أم سلمة فقلن لها: كلمي رسول الله r يكلم الناس، فيقول: من أراد أن يهدي إلى رسول الله r هدية فليهده إليه حيث كان من بيوت نسائه، فكلمته أم سلمة بما قلن، **فلم يقل لها شيئًا**، فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئًا، فقلن لها: فكلميه، قالت: فكلمته حين دار إليها أيضًا، **فلم يقل لها شيئًا**، فسألنها، فقالت: ما قال لي شيئًا، فقلن لها: كلميه حتى يكلمك، فدار إليها، فكلمته، فقال لها: «لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلاَّ عَائِشَةَ» فقالت: أتوب إلى الله من أذاك، يا رسول الله... الحديث[3]، وفي رواية عن أم سلمة أنها لما كلمت النبي r

(١) البخاري: (٥٠٢٩ و٥١٤١).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٩/٢١٢.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٥٨١ و٣٧٧٥) ، ومسلم: (٢٤٤٢).

قالت: فأعرض عني، فلما عاد إلي ذكرت له ذاك، فأعرض عني، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ...» الحديث[1].

وسكوت النبي r مع إعراضه كناية عن رفضه لما أرادته أم سلمة رضي الله عنها، ولعله لم يرد أن يخاطبها بالقول لئلا يثير مزيدًا من الغيرة، فلما ألحت عليه كلمها، والله أعلم[2].

٣- حديث كعب بن مالك t في تخلفه عن غزوة تبوك، وفيه أن النبي r نهى المسلمين عن كلامه هو وصاحبيه هلال بن أمية ومرارة بن الربيع y، فكان يأتي رسول الله r فيسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فلا يرد عليه، حتى إنه ينظر ويقول في نفسه: هل حرك رسول الله r شفتيه برد السلام عليّ أم لا؟[3].

وهذا السكوت من النبي r ومن المسلمين هو عقوبة على ما حصل من كعب وصاحبيه y حين تخلفوا عن غزوة تبوك من دون عذر، ولم تكن هي العقوبة الوحيدة لهم، لكنها كانت من أشق العقوبات عليهم، كما قال كعب t: نهى رسول الله r المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه، فاجتنبنا الناس، وتغيروا لنا، حتى تنكرت في نفسي الأرض، فما هي التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة، فأما صاحباي فاستكانا وقعدا في بيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين، وأطوف في الأسواق، ولا يكلمني أحد، وآتي رسول الله r فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفتُ نحوه أعرض عني، حتى إذا طال علي ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبي قتادة، وهو ابن عمي وأحب الناس إلي، فسلمت عليه، فوالله ما رد علي السلام، فقلت: يا أبا قتادة، أنشدك بالله، هل تعلمني أحب الله ورسوله؟ فسكت، فعدت له، فنشدته، فسكت، فعدت له، فنشدته، فقال: الله ورسوله أعلم، ففاضت عيناي.

---

(١) البخاري: (٣٧٧٥).

(٢) ينظر: دراسات لسانية في الحديث النبوي: ١٤٤.

(٣) أخرجه البخاري: (٤٤١٨)، ومسلم: (٢٧٦٩).

٤- عن أنس بن مالك t أن رجلاً سأل النبي r قال: متى تقوم الساعة؟ **فسكت رسول الله r هنيهة**، ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة، فقال: «إِنْ عُمِّرَ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ»(١).

وعن أبي هريرة t قال: بينما النبي r في مجلس يحدث القوم جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله r يحدث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع. حتى إذ قضى حديثه قال: «أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةِ؟» قال: ها أنا يا رسول الله، قال: «فَإِذَا ضُيِّعَتْ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ» قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ»(٢).

ولعل سكوت النبي r كراهية للسؤال عن الساعة، إلا أنه لم يصرح بالكراهية، و لم ينه عن السؤال، لكون الذين يسألونه من الأعراب كما روت عائشة رضي الله عنها قالت: كان الأعراب إذا قدموا على رسول الله r سألوه عن الساعة: متى الساعة؟ فنظر إلى أحدث إنسان منهم فقال: «إِنْ يَعِشْ هَذَا لَمْ يُدْرِكْهُ الْهَرَمُ قَامَتْ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ» وفي رواية قالت: كان رجال من الأعراب جفاة يأتون النبي r فيسألونه: متى الساعة؟ فكان ينظر إلى أصغرهم، فيقول: «إِنْ يَعِشْ هَذَا لا يُدْرِكُهُ الْهَرَمُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيْكُمْ سَاعَتُكُمْ»(٣). ولهذا كان النبي r يستخدم معهم أسلوب الحكيم والمعاريض كما سبق بيانه في مبحث البيئة من الفصل الأول.

٥- عن أبي هريرة t قال: قلت: يا رسول الله، إني رجل شاب، وأنا أخاف على نفسي العنت، ولا أجد ما أتزوج به النساء. **فسكت عني.** ثم قلت مثل ذلك. **فسكت عني.** ثم قلت مثل ذلك. **فسكت عني.** ثم قلت مثل ذلك. فقال النبي r : «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا أَنْتَ لاقٍ، فَاخْتَصِ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَرْ»(٤)، وفي رواية للنسائي: قلت: يا

(١) أخرجه مسلم: (٢٩٥٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٥٩).

(٣) أخرجه البخاري: (٦٥١١) ، ومسلم: (٢٩٥٢) واللفظ له.

(٤) أخرجه البخاري: (٥٠٧٦) معلقًا مجزومًا به، في كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء.

رسول الله، إني رجل شاب، قد خشيت على نفسي العنت، ولا أجد طولاً أتزوج النساء، أفأختصي؟...الحديث[١] وهذه الرواية توضح مطابقة الجواب للسؤال[٢].

وسكوت النبي r كناية عن الرفض التام والكراهية لما يريده أبو هريرة t ، ولما ألح أبو هريرة t في طلب الإذن كلمه النبي r فنهاه بأسلوب الأمر الذي يراد به التهديد «فَاخْتَصِ عَلَى ذَلِكَ أَوْ ذَرْ» وهو أحد المعاني التي يخرج إليها الأمر[٣]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((ليس الأمر فيه لطلب الفعل، بل هو للتهديد، وهو كقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩] والمعنى: إن فعلت أو لم تفعل فلا بد من نفوذ القدر، وليس فيه تعرض لحكم الخصاء. ومحصل الجواب أن جميع الأمور بتقدير الله في الأزل، فالخصاء وتركه سواء، فإن الذي قدر لا بد أن يقع، وقوله: «عَلَى ذَلِكَ» هي متعلقة بمقدر، أي: اختص حال استعلائك على العلم بأن كل شيء بقضاء الله وقدره، وليس إذنًا في الخصاء، بل فيه إشارة إلى النهي عن ذلك، كأنه قال: إذا علمت أن كل شيء بقضاء الله فلا فائدة في الاختصاء))[٤]، ثم قال ابن حجر (٨٥٢هـ) ذاكرًا من فوائد الحديث: ((الجواب لمن لا يقنع بالسكوت، وجواز السكوت عن الجواب لمن يظن به أنه يفهم المراد من مجرد السكوت))[٥].

٦- عن سعد بن أبي وقاص t قال: مرضت، فأرسلت إلى النبي r ، فقلت: دعني أقسم مالي حيث شئتُ، فأبى، قلت: فالنصف، فأبى، قلت: فالثلث، قال: **فسكت** بعد الثلث. قال: فكان بعد الثلث جائزًا. وهذه رواية من روايات مسلم للحديث[٦]، وأما سائر روايات الصحيحين فلم تذكر السكوت، وإنما قول النبي r لسعد t : «الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ» أو «كَبِيْرٌ»[٧].

---

(١) أخرجها النسائي في سننه: كتاب النكاح، باب النهي عن التبتل، برقم (٣٢١٥).

(٢) ينظر: فتح الباري: ١١٩/٩.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٣١٤/٢.

(٤) فتح الباري: ١١٩/٩.

(٥) المرجع السابق: ١٢٠/٩.

(٦) مسلم: (١٦٢٨).

(٧) ينظر مثلاً: البخاري: (١٢٩٥ و٢٧٤٢ و٤٤٠٩ و٥٣٥٤ و٦٧٣٣) ، ومسلم: (١٦٢٨).

وسكوت النبي r كناية عن إذنه في الثلث، كما قال سعد t : فكان بعد الثلث جائزًا. ولعله سكت بعد إلحاح سعد t على التصدق بكثير من ماله، للدلالة على إذنه في الثلث مع كراهة له لكثرته أيضًا وإن كان أقل من الشطر والثلثين، ولولا الكراهة لم يسكت في مقابل الإباء بقول: «لا» كما في الروايات الأخرى. ولعل النبي r أتبع سكوته بقوله: «الثُّلُثُ، وَالثُّلُثُ كَثِيْرٌ» أو «كَبِيْرٌ» تأكيدًا لدلالة السكوت، وأكد ذلك بقوله: «إِنَّكَ أَنْ تَذَرَ وَرَثَتَكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ، وَإِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلاّ أُجِرْتَ بِهَا حَتَّى مَا تَجْعَلُ فِي فِيِّ امْرَأَتِكَ» والله أعلم.

٧- عن أبي بكرة t قال: خطبنا النبي r يوم النحر، قال: «أَتَدْرُونَ أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، **فسكت** حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أَلَيْسَ يَوْمَ النَّحْرِ؟» قلنا: بلى، قال: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، **فسكت** حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: «أَلَيْسَ ذُو الْحَجَّةِ؟» قلنا: بلى، قال: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» قلنا: الله ورسوله أعلم، **فسكت** حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: «أَلَيْسَتْ بِالْبَلْدَةِ الْحَرَامِ؟» قلنا: بلى، قال: «فَإِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ...»(١)، ولعل الصحابة y ظنوا أنه r سيسمي ما سأل عنه بغير اسمه لكونه r غيَّر في حجه بعض ما كان معهودًا عندهم في الجاهلية. وإنما سألهم النبي r وحاورهم في بدء الخطبة ليبني بعد ذلك خطبته على ما قرره وفخمه في نفوسهم، وليشد انتباهم إلى ما سيقوله، فقد يتساءلون في نفوسهم عن سبب السؤال، وما علاقته بما سيقول؟(٢)، قال القرطبي (٦٥٦هـ): ((قوله: «أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟» و: «أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟» و: «أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟» وسكوته بعد كل واحد منها كان ذلك منه استحضارًا لفهومهم، وتنبيهًا لغفلتهم، وتنويهًا بما يذكره لهم؛ حتى يقبلوا عليه بكُلِّيتهم، ويستشعروا عظمة حرمة ما عنه يخبرهم))(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (١٧٤١) ، ومسلم: (١٦٧٩).

(٢) ينظر: التشويق في الحديث النبوي: ٢٩.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٥/٤٧.

ت- الإشارات والحركات الجسمية.

وثمة علم يعنى بها يسمى علم الحركة الجسمية، أو علم (الكِيْنَات)، ويطلق على التعبير بها: لغة الجسم[1]، ويرى بعض الباحثين أن الناس يكثرون من استخدام الحركة الجسمية مع الكلام إلى الحد الذي يمكن معه القول: لو كان نصف سكان العالم مصابين بالصمم فإن الناس مع ذلك يمكنهم التفاهم بينهم[2].

وتشمل الحركة الجسمية جميع أعضاء الجسم، فلا تقتصر على عضو ما كاليدين أو الوجه بأعضائه أو الرأس، وإن كانت هذه أكثر الأعضاء أداء للحركات والإشارات التي تعبر عن المعاني والمشاعر.

ولا يقتصر التعبير بالحركة الجسمية على عضو منفرد كالإشارة بالإصبع مثلاً، بل يعبر عن بعض المعاني بالتقاء عضوين مثلاً **كتقليب الكفين** كناية عن الندم والتحسر، أو **جعل الأصابع في الآذان** كناية عن عدم السماع، وقد يعبر بالتقاء أحد أعضاء الجسم بشيء خارجه، **كالأخذ بلحية الآخر**، ولذا عُرِّفت الحركة (الإشارة) الجسمية بأنها أية حركة جسمية سوى الكلام تحدث شعوريًا أو لا شعوريًا بغية الاتصال مع الذات أو مع الآخرين[3].

وقد تحدث الجاحظ (٢٥٥هـ) عن أهمية الإشارات وأثرها في البيان فقال بعد أن بيَّن في نصه المذكور في أول المبحث أن البيان لا يقتصر على اللفظ بل يشمل غيره: ((أما الإشارة فباليد، وبالرأس، وبالعين والحاجب والمَنْكِب، إذا تباعد الشخصان، وبالثوب، وبالسيف، وقد يتهدد رافع السيف والسوط، فيكون ذلك زاجرًا، ومانعًا رادعًا، ويكون وعيدًا وتحذيرًا. والإشارة واللفظ شريكان، ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر ما تنوب عن اللفظ، وما تغني عن الخط. وبعد، فهل تعدو الإشارة أن تكون ذات صورة معروفة، وحِلْية موصوفة، على اختلافها في طبقاتها ودلالاتها، وفي الإشارة بالطرف والحاجب وغير ذلك من الجوارح، مرفق كبير ومعونة حاضرة، في أُمور يسترها بعض الناس

---

(١) ينظر: دراسات في علم اللغة: ١٥٩، ودراسات لسانية في الحديث النبوي: ٨٩.

(٢) دراسات في علم اللغة: ١٦١.

(٣) ينظر: دراسات في علم اللغة: ١٧٠.

من بعض، ويخفونها من الجليس وغير الجليس))(١)، ثم ذكر بعض الأشعار في دلالات الإشارة، منها قول الشاعر:

أشارتْ بطَرْفِ العين خِيفةَ أهلِها ... إشارةَ مذْعورٍ ولم تتكَلَّمِ
فأيقنْتُ أنَّ الطَّرْفَ قد قال مرحبًا ... وأهلاً وسهلاً بالحبيب المتيَّمِ

وقول الآخر:

وللقلب على القلب ... دليلٌ حينَ يلقاهُ
وفي النَّاسِ من الناس ... مقاييسُ وأشباهُ
وفي العينِ غِنى للمرءِ ... أنْ تنطقَ أفواهُ

وقول الآخر:

ترى عينُها عَيْني فتعرف وَحْيَها ... وتعْرف عيني ما به الوَحْيُ يرجعُ

وقال الآخر:

العينُ تُبدِي الذي في نفسِ صاحبها ... من المحبة أو بُغضٍ إذا كانا
والعينُ تنطق والأفواهُ صامتةٌ ... حتَّى ترى من ضمير القلب تِبْيانا

ثم قال: ((وحسن الإشارة باليد والرأس من تمام حسن البيان باللسان))(٢).

وقد جاء عن النبي ﷺ إشارات وحركات جسمية عديدة تدل على معنى ما، منها ما حصل ابتداء من النبي ﷺ، ومنها ما حصل نتيجة سلوك فعلي أو قولي صدر من أحد الناس، وبعض هذه الحركات تصاحب الخطاب اللفظي، وبعضها لا تصاحبه، بل هي بذاتها تكون كافية في التعبير عن المراد، وقد يحسن المخاطَب فهمها فيكتفي بها، وقد لا يكتفي بها لسبب ما، وهي تعد لدى المخاطَب كناية عن المعنى الذي تدل عليه.

ولن أذكر كل ما صدر عن النبي ﷺ من حركات وإشارات، بل سأذكر أمثلة على ما يتعلق بالبحث مما يلائم حال المخاطب، مصنفًا إياها بحسب المعاني التي يكنى بها عنها(٣).

---

(١) البيان والتبيين: ١/٧٧-٧٨.

(٢) المرجع السابق: ١/٧٩، وينظر: العمدة: ١/٣٠٩.

(٣) لمزيد من الأمثلة في الإشارات الجسمية في الحديث النبوي سواء كانت من النبي ﷺ أو من غيره ينظر: البيان بلا لسان: ١٩٩-٢٥١، ودراسات لسانية في الحديث النبوي: ٩١-١٣٠.

١- السرور والبشارة.

وورد في ذلك التعبير عن الوجه بالاستنارة والبروق في حديث كعب بن مالــك t لما سمع البشارة بالتوبة قال: انطلقت إلى رسول الله r ... فلما سلمت على رســول الله r قال **وهو يبرق وجهه من السرور**: «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ» وكـان رسول الله r إذا سُرّ استنار وجهه، حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه.

وقد صاحب هذه الحركة التي تدل على التبشير والسرور التبشير بالقول.

٢- الحب والامتنان.

وظهر ذلك في طريقة قيامه r حين أبصر نساء وصبيانًا من الأنصار مقــبلين مـــن عرس، قال أنس t : **فقام مُمْتنًّا**، وفي رواية: مُمْثِلاً. وكلاهما هنا بمعنى قام قيامًا قويًا، قـــال أنس t : فقال r : «اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ» قالها ثلاث مرار(١). وسبق في المبحث الثاني من الفصل الأول أن قيامه إليهم مسرعًا ومشتدًا في ذلك فرحًا بهم إشعار لهم بعظـــم محبته إياهم، مع ما في القول المكرر ثلاثًا من تأكيد ذلك(٢)، وإقبال المرء إلى من يحب هاشًا باشًا يوحي بمشاعر الحب الكامنة في النفس ما لا يوحيه كثير من الكلام، والله أعلم.

ومن التعبير عن الحب ما رواه أبو هريرة t قال: كنت مع رسول الله r في سوق من أسواق المدينة، فانصرف، فانصرفت فقال: «أَيْنَ لُكَعُ؟» ثلاثًا «ادْعُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِــيٍّ» فقام الحسن بن علي يمشي، وفي عنقه السِّخَاب، **فقال النبي r بيده هكذا**، فقال الحســن بيده هكذا، فالتزمه، فقال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُحِبُّهُ فَأَحِبَّهُ، وَأَحِبَّ مَنْ يُحِبُّهُ»(٣)، ولعــل كـــون الحسن طفلاً يحتاج إلى هذا التعامل العاطفي أبدى له النبي r ما يشير إلى حبــه لـــه، ولم يكتف النبي r بدلالة هذه الحركة التي مد فيها النبي r يده لاحتضانه، بل صاحب ذلــك إخباره عن مشاعر الحب التي يكنها له النبي r ، بل أسمعه الدعاء بمحبة الله U له ولمن يحبه.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٨٥ و٥١٨٠) ، مسلم: (٢٥٠٨).

(٢) ينظر: فتح الباري: ٩/٢٤٨.

(٣) أخرجه البخاري: (٢١٢٢ و٥٨٨٤) ، مسلم: (٢٤٢١).

٣- التفاؤل بالشفاء.

وحصل بإمرار اليد على بعض جسد المريض مع الدعاء له، كما في رواية لحديث سعد بن أبي وقاص t الذي سبق قريبًا أنه قال: تشكَّيت بمكة شكوى شديدة، فجاءني النبي r يعودني. وفيها: ثم **وضع يده على جبهتي، ثم مسح يده على وجهي وبطني**، ثم قال: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، وَأَتْمِمْ لَهُ هِجْرَتَهُ» فما زلت أجد برده على كبدي -فيما يُخال إلي- حتى الساعة[١]، وهذه حركة فيها تأنيس للمريض، وما أحوجه إليه، وتعمق في نفسه التفاؤل بالشفاء.

٤- الشكر والمكافأة.

من ذلك ضم ابن عباس t وهو لم يزل غلامًا، بعد أن دخل النبي r الخلاء، فوضع له ابن عباس وَضوءاً، فقال النبي r: «مَنْ وَضَعَ هَذَا؟» فأُخْبِر، **فضمه** النبي r وقال: «اللَّهُمَّ عَلِّمْهُ الْكِتَابَ»[٢]. وقد سبق أن ضم الطفل واختيار الدعاء مكافأة له فيه مراعاة لحاله، لما فيه من تعبير عاطفي تجاه المخاطب، والمخاطب طفل بحاجة إلى التعامل العاطفي معه، وإشعاره بقبوله، وتقبل العمل الحسن الذي يقوم به[٣].

ومن ذلك أيضًا ما رواه أبو سعيد الخدري t وهو يحدث عن بناء المسجد قال: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي r فينفض التراب عنه، وفي رواية: فمر به النبي r **ومسح عن رأسه الغبار**، ويقول: «وَيْحَ عَمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ»[٤]، وعند مسلم أن النبي r كان **يمسح رأس عمار** t حين كان يحفر الخندق، ويقول: «بُؤْسَ ابْنِ سُمَيَّةَ، تَقْتُلُكَ فِئَةٌ بَاغِيَةٌ» وفي رواية: «يَا وَيْسَ ابْنِ سُمَيَّةَ»[٥].

---

(١) أخرجها البخاري: (٥٦٥٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٧٥ و٣٧٥٦).

(٣) ينظر ص (١١٧، ١٦٧) من هذا البحث.

(٤) أخرجه البخاري: (٤٤٧ و٢٨١٢).

(٥) أخرجه مسلم: (٢٩١٥).

ولعل مسح اليد عن الرأس الغبار يراد به تشجيعه والثناء على جده واجتهاده، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في فوائد الحديث: ((فيه إكرام العامل في سبيل الله، والإحسان إليه بالفعل والقول))[(١)].

٥- الحث والتحفيز، والإعجاب.

وجاء بحركة العين، كما في قصة حديث عائشة رضي الله عنها المذكورة آنفًا في إهداء الناس النبي r في يومها، قالت: فأرسلن زينب بنت جحش، فأتته، فأغلظت وقالت: إن نساءك ينشدنك الله العدل في بنت ابن أبي قحافة، فرفعت صوتها حتى تناولت عائشة، وهي قاعدة، فسبتها حتى إن رسول الله r **لينظر إلى عائشة**؛ هل تكلم؟ فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها، **فنظر** النبي r إلى عائشة وقال: «إِنَّهَا بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ». فلعل في نظر النبي r إلى عائشة أول مرة دعوة لها إلى أن لا يمنعها وجوده r عندها أن تنتصر لنفسها، فترد عن نفسها السب والقول، ولعل النبي r لم يرد أن يحث بالقول لئلا يثير مزيدًا من الغيرة بين نسائه، فجاء الحث بنظر العين، فكان أن ردت على زينب رضي الله عنها حتى أسكتتها، فنظر إليها مرة أخرى نظر إعجاب، وأثنى عليها في مقابل السب والتحقير الذي حصل تجاهها من زينب رضي الله عنها وعن أمهات المؤمنين، والله أعلم.

٦- التلطف.

من ذلك ما رواه سهل بن سعد t قال: جاء رسول الله r بيت فاطمة فلم يجد عليًّا في البيت، فقال: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟» قالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج، فلم يَقِل عندي. فقال رسول الله r لإنسان: «انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟» فجاء فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقد. فجاء رسول الله r وهو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب، **فجعل رسول الله r يمسحه عنه**، ويقول: «قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ»[(٢)].

---

(١) فتح الباري: ٥٤٣/١.

(٢) أخرجه البخاري: (٤٤١) ، ومسلم: (٢٤٠٩).

ومسح النبي r التراب باليد عن زوج البنت يراد به إظهار التلطف به لإرضائه، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) ذاكرًا من فوائد الحديث: ((فيه كرم خلق النبي r ؛ لأنه توجه نحو علي ليترضاه، ومسح التراب عن ظهره ليبسطه))(١).

٧- الحياء.

وورد في ذلك الإعراض بالوجه في أمر يستحيا من الحديث فيه، خاصة أن المخاطَب امرأة، فعن عائشة رضي الله عنها أن امرأة سألت النبي r عن غسلها من المحيض فقال: «تَأْخُذُ إِحْدَاكُنَّ مَاءَهَا وَسِدْرَتَهَا، فَتَطَهَّرُ، فَتُحْسِنُ الطُّهُورَ، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَى رَأْسِهَا، فَتَدْلُكُهُ دَلْكًا شَدِيدًا، حَتَّى تَبْلُغَ شُؤُونَ رَأْسِهَا، ثُمَّ تَصُبُّ عَلَيْهَا الْمَاءَ، ثُمَّ تَأْخُذُ فِرْصَةً مُمَسَّكَةً فَتَطَهَّرُ بِهَا» فقالت: وكيف تطهر بها؟ فقال: «سُبْحَانَ اللهِ! تَطَهَّرِينَ بِهَا» قالت عائشة: ثم إن النبي r استحيا **فأعرض بوجهه.** وفي رواية: قال: «تَطَهَّرِي بِها، سُبْحَانَ اللهِ!» **واستتر**، قال أحد الرواة: وأشار لنا سفيان بن عيينة بيده على وجهه. قالت عائشة: فعرفت ما أراد النبي r ، فاجتبذتها إلي، فقلت: تتبعي بها أثر الدم(٢).

وهذا مقام من مقامات الكناية، إذ الحياء من دواعي العدول عن التصريح إلى الكناية والتعريض كما أشير إليه في المبحث الثالث من الفصل الأول، وسيأتي الحديث عنهما بإذن الله في الفصل السادس، وقد تعاضد مع كناية هذه الحركة الإيجاز في الكلام والتعجب، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) ذاكرًا من فوائد الحديث: ((فيه الاكتفاء بالتعريض والإشارة في الأمور المستهجنة، وتكرير الجواب لإفهام السائل، وإنما كرره مع كونها لم تفهمه أولاً لأن الجواب به يؤخذ من إعراضه بوجهه عند قوله: «تَوَضَّئِي» أي في المحل الذي يستحيا من مواجهة المرأة بالتصريح به، فاكتفى بلسان الحال عن لسان المقال، وفهمت عائشة رضي الله عنها ذلك عنه، فتولت تعليمها))(٣).

---

(١) فتح الباري: ١٠/٥٨٨.

(٢) أخرجه البخاري: (٣١٤ و٣١٥ و٧٣٥٧) ، ومسلم: (٣٣٢).

(٣) فتح الباري: ١/٤١٦.

٨- الإنكار والكراهية.

وورد في ذلك تغير الوجه وتلونه، مما يظهر معه العبوس والتقطيب، مع الوقوف وعدم الدخول، لوجود صور في بيته، وضعتها عائشة رضي الله عنها، وكان لهذه الحركات أثر في إبراز عظم الفعل، فقد فهمت عائشة أنها فعلت منكرًا، وأعلنت التوبة، وإن كانت لا تدري ما ذنبها بالتحديد، فعن عائشة رضي الله عنها أنها اشترت نُمْرُقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله r قام على الباب، فلم يدخله، **فعرفت في وجهه الكراهية** -وفي رواية قالت: **وجعل يتغير وجهه**- فقلت: يا رسول الله، أتوب إلى الله وإلى رسوله r ، ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله r : «مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ؟» قلت: اشتريتها لك؛ لتقعد عليها، وتوسدها. فقال رسول الله r : «إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ، فَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» وقال: «إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لا تَدْخُلُهُ الْمَلائِكَةُ»(١).

٩- الرفض.

ومن ذلك الإعراض بالوجه أو بالجسم كناية عن رفض الأمر الذي يعرضه المخاطب، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها لما كلمت النبي r في شأن إهداء الناس في يوم عائشة دون أيام نسائه الأخريات قالت: **فأعرض عني**، فلما عاد إلي ذكرت له ذاك، **فأعرض عني**، فلما كان في الثالثة ذكرت له فقال: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ...» الحديث(٢)، ولعل النبي r عبر بالحركة إشعارًا لها بالرفض، وتلافيًا لإثارة مزيد من الغيرة بين نسائه، إلا أن إلحاح أم سلمة جعله يكلمها، فينهاها عن إيذائه في عائشة رضي الله عنها.

١٠- الغضب.

ويدل عليه احمرار الوجه، كما في قصة الثبات على الدين التي رواها خباب بن الأرت t ، وسبقت في مبحث القصة من هذا الفصل، وفيها أنه جاء إلى النبي r ، وهو

---

(١) أخرجه البخاري: (٢١٠٥ و٣٢٢٤) ، ومسلم (٢١٠٧).

(٢) البخاري: (٣٧٧٥).

متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقد لقي المسلمون من المشركين شدة، فقال: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول r وهو **محمر وجهه**، فذكر له قصة الرجل الذي يعذب فيثبت. وسبق عند ذكر القصة أن احمرار وجه النبي r ، كناية عن غضبه من ضعف الصبر وقلة التحمل واستعجال النصر، وفيه إشعار للمخاطب بأن ما سيخاطبه به النبي r فيه قوة وغضب لا على ما أراده، فيكون هذا الانفعال ممهدًا لقبول الخطاب، والله أعلم.

ومن التبسم ما يكون كناية عن الغضب، كما حصل لكعب بن مالك t حينما تخلف عن غزوة تبوك، فلما رجع النبي r قال كعب بن مالك t راوي القصة: فجئته، فلما سلمت عليه **تبسَّم تبسُّم المغضب**(١).

١١- التأسف.

عن علي بن أبي طالب t أن رسول الله r طرقه وفاطمة بنت النبي u ليلة، فقال: «أَلا تُصَلِّيَانِ؟» فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف حين قلنا ذلك، ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ **يضرب فخذه**، وهو يقول: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾(٢). والذي يظهر أن ضرب الفخذ كناية عن التأسف والتعجب من جواب علي t ، وعدم الموافقة له على هذا الاعتذار، وفيه تعريض لعلي t بالاستجابة والمبادرة إلى ما يُحث عليه، وترك الجدل فيه، ولهذا جعل جوابه من باب الجدل(٣)، والله أعلم.

١٢- العقوبة.

قال كعب بن مالك t في قصة تخلفه عن غزوة تبوك: وآتي رسول الله r فأسلم عليه، وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: هل حرك شفتيه برد السلام علي أم لا؟ ثم أصلي قريبًا منه، فأسارقه النظر، فإذا أقبلت على صلاتي أقبل إلي، وإذا التفت نحوه **أعرض**

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٤١٨) ، ومسلم: (٢٧٦٩).

(٢) أخرجه البخاري: (١١٢٧ و٧٣٤٧) ، ومسلم (٧٧٥).

(٣) ينظر: شرح صحيح مسلم: ٦/٦٥، وعمدة القاري: ٢٥/١٤٦.

عني. وإعراض النبي r في هذا المقام عقوبة لكعب t على تخلفه عن الغزوة بلا عذر، ولقد كان لهذه العقوبة التي استمرت خمسين يومًا أثر عظيم في نفس كعب وصاحبيه y، كما سبق الإشارة إليه قريبًا.

١٣- القتل.

لما وردت كلمة غريبة على الصحابة الذين يستمعون إلى خطابه، تساءلوا عنها، حيث لم تكن من لغتهم التي يعهدونها، وإنما هي من ألفاظ الحبشة، فوضحها النبي r بالقول، وزاد الإيضاح بحركة اليد التي تدل على معنى القتل، فعن أبي هريرة t عن النبي r قال: «يُقْبَضُ الْعِلْمُ، وَيَظْهَرُ الْجَهْلُ، وَالْفِتَنُ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ» قيل: يا رسول الله، وما الهرج؟ **فقال هكذا بيده، فحَرَّفَها**، كأنه يريد القتل، وفي رواية أنه r قال: «الْقَتْلُ، الْقَتْلُ»[1]، قال أبو موسى الأشعري t : والهرج القتل بلسان الحبشة[2]، ولعل غموض المعنى لدى المخاطبين كان دافعًا للإيضاح الحركي.

ومما ورد في القتل حديث أبي هريرة t أن النبي r قال للأنصار y في فتح مكة: «تَرَوْنَ إِلَى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِمْ» ثم **قال بيديه إحداهما على الأخرى**، ثم قال: حتى توافوني بالصفا، قال: فانطلقنا فما شاء أحد منا أن يقتل أحدًا إلا قتله، وما أحد منهم يوجه إلينا شيئًا، قال: فجاء أبو سفيان فقال: يا رسول الله، أبيحت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، ثم قال r : «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ...» الحديث. وفي رواية: **ثم قال بيديه إحداهما على الأخرى**؛ احصدوهم حصدًا. وفي رواية: «انْظُرُوا إِذَا لَقِيتُمُوهُمْ غَدًا أَنْ تَحْصُدُوهُمْ حَصْدًا» وأخفى بيده، ووضع يمينه على شماله[3]، ولعل اختيار الأنصار لهذه المهمة لكونهم ليسوا من أهل مكة، ولو كانوا كذلك لربما أخذتهم رأفة بأهليهم وقومهم، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٨٥ و٦٠٣٧).

(٢) أخرجه البخاري: (٧٠٦٥ و٧٠٦٧).

(٣) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

١٤- التأكيد.

وفي ذلك حديث سلمة بن الأكوع t أن سيف عامر بن الأكوع t كان قصيرًا في غزوة خيبر، فتناول به ساق يهودي ليضربه، فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته، فمات منه، فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله r شاحبًا، وهو آخذ بيدي فقال: «مَا لَكَ؟» قلت له: فداك أبي وأمي، زعموا أن عامرًا حبط عمله. قال: «كَذَبَ مَنْ قَالَهُ. إِنَّ لَهُ لأَجْرَيْنِ اثْنَيْنِ -**وجمع بين إصبعيه**- إِنَّهُ لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ، قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ»[(١)]. فالجمع بين الإصبعين لتأكيد حصول الأجرين له، وهو تأكيد ثان بعد قوله: «اثْنَيْنِ» فصيغة التثنية تدل على الاثنين، فجاءت لفظة «اثْنَيْنِ» تأكيدًا، وحركة الجمع بين الإصبعين تأكيدًا ثانيًا، وجاء التأكيد لشدة ما أهم سلمة t حين ظن أن عمه قد حبط عمله كما يزعم القالة.

ث- الإيضاح بالفعل.

لعل مما يدخل في هذا المبحث فعل النبي r للشيء لإيضاحه جوابًا لسؤال سائل، ويكتفي بالفعل دون القول، وأحيانًا يأتي بالفعل تأكيدًا للقول، ومن ذلك:

١- عن عمار بن ياسر t قال: بعثني رسول الله r في حاجة فأجنبت، فلم أجد الماء، فتمرغت في الصعيد كما تمرغ الدابة، ثم أتيت النبي r فذكرت ذلك له، فقال: «إِنَّمَا كَانَ يَكْفِيكَ أَنْ تَقُولَ بِيَدَيْكَ هَكَذَا» ثم ضرب بيديه الأرض ضربة واحدة، ثم مسح الشمال على اليمين، وظاهر كفيه ووجهه[(٢)].

٢- عن بريدة t أن رجلاً سأل النبي r عن وقت الصلاة، فقال له: «صَلِّ مَعَنَا هَذَيْنِ» يعني اليومين، فلما زالت الشمس أمر بلالاً فأذن، ثم أمره فأقام الظهر، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرتفعة بيضاء نقية، ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام العشاء حين غاب الشفق، ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر، فلما أن كان اليوم الثاني أمره فأبرد بالظهر، فأبرد بها فأَنْعَم أن يُبْرِد بها، وصلى العصر والشمس مرتفعة أخرها

---

(١) أخرجه البخاري: (٤١٩٦ و٦١٤٨ و٦٨٩١) ، ومسلم: (١٨٠٢).

(٢) أخرجه البخاري: (٨٥ و٦٠٣٧).

فوق الذي كان، وصلى المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصلى العشاء بعدما ذهب ثلث الليل، وصلى الفجر فأسفر بها، ثم قال: «أَيْنَ السَّائِلُ عَنْ وَقْتِ الصَّلاةِ؟»فقال الرجل: أنـــا، يـــا رسول الله. قال: «وَقْتُ صَلاتِكُمْ بَيْنَ مَا رَأَيْتُمْ»[(١)]. قال النووي (٦٧٦هـــ): ((فيه البيـــان بالفعل، فإنه أبلغ في الإيضاح، والفعل تعم فائدته السائل وغيره))[(٢)].

٣- عن أبي قتادة t أنه كان مع رسول الله r ، حتى إذا كان ببعض طريق مكة تخلف مع أصحاب له محرمين، وهو غير محرم، فصاد حمارًا وحشيًا، فأكل منه بعض أصحاب النبي r وأبى بعضهم، فأدركوا رسول الله r فسألوه عن ذلك. فقال: «أَمِنْكُمْ أَحَدٌ أَمَـــرَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا؟» قالوا: لا. قال: «هُوَ حَلالٌ، فَكُلُوهُ» أو قال: «فَكُلُوا مَـــا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا» «إِنَّمَا هِيَ طُعْمَةٌ أَطْعَمَكُمُوهَا اللهُ» ثم قال: «هَلْ مَعَكُمْ مِنْ لَحْمِهِ شَـــيْءٌ» قال: معنا رجله، فأخذها فأكلها. وفي رواية: فناولته العضد، فأكلها حتى نَفِدها. وفي رواية: حتى تَعَرَّقَها[(٣)]، أي حتى لم يبق على عظمها لحمًا[(٤)]. قال ابن حجر (٨٥٢هـــ): ((وقـــال عياض: عندي أن النبي r طلب من أبي قتادة ذلك تطييبًا لقلب من أكل منه بيانا للجـــواز بالقول والفعل لإزالة الشبهة التي حصلت لهم))[(٥)]، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم: (٦١٣) وأخرجه برقم (٦١٤) عن أبي موسى t .

(٢) شرح صحيح مسلم: ١١٤/٥.

(٣) أخرجه البخاري: (١٨٢٣ و٢٥٧٠ و٢٨٥٤ و٢٩١٤ و٥٤٠٧) ، ومسلم: (١١٩٦).

(٤) ينظر: فتح الباري: ٥٤٧/٩.

(٥) المرجع السابق: ٣١/٤، وينظر: شرح صحيح مسلم: ١١٢/٨.

الفصل الثالث

رعاية حال المخاطب

في اختيار المفردات

- المبحث الأول: اختيار المفردات من حيث مادهّا.
- المبحث الثاني: اختيار المفردات من حيث صيغتها.
- المبحث الثالث: اختيار المفردات من لهجة المخاطب.

مدخل

المفردات: جمع مفردة، وهي: اللفظة الواحدة، يدل على ذلك أصل المادة اللغوية (ف ر د) كما قال في (العين): ((الفَرْد: ما كان وحده، يقال: فَرَد يَفــرُد، وانفَــرَد انفــرادًا، وأَفردْته: جعلته واحدًا))[1]. وقال ابن فارس (٣٩٥هــ): ((الفاء والراء والــدال: أصــل صحيح يدل على وُحدة، من ذلك: الفَرْد: وهو الوَتْر، والفارد والفَرْد: الثور المنفرد، وظبية فارد: انقطعت عن القطيع، وكذلك السدرة الفاردة: انفردت عن سائر الســدر، وأفــراد النجوم: الدراري في آفاق السماء، والفريد: الدر إذا نظم وفصل بينه بغــيره، والله أعلــم بالصواب))[2].

ويتناول البلاغيون المفردات من جهتي الفصاحة، والبلاغة.

أما في جهة الفصاحة التي تعنى بالوضوح والإبانة فوضعوا معايير يحكم من خلالهــا على المفردة بأنها فصيحة أو غير فصيحة، ومن ذلك: أن تكون سهلة النطق، بحيث تسلم من ثقلها على اللسان وعسر النطق بها، وأن تكون ظاهرة المعنى، ومأنوسة الاستعمال، بحيــث تسلم من الغرابة الوحشية في عرف أهل اللغة، وأن تكون على وفاق الاستعمال اللغوي في تصريفها، وللذوق السليم مدخل في التحسين والتقبيح[3].

وأما بلاغة المفردة فالمعيار في ذلك مراعاة مقتضى الحال بعد فصاحتها، ولذا كــان الحديث عن بلاغة المفردات في سياق التراكيب، فالمفردة الفصيحة لا توصف بالبلاغة مجردة عن سياقها، وإنما سياقها هو الذي ينبئ عن بلاغتها، وقد قــال عبــد القــاهر الجرجــاني (٤٧١هــ) بعد أن تحدث عن أثر النظم في حسن الألفاظ في قول الله U: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْــدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [هود: ٤٤] قال: ((اتضح إذن اتضاحًا لا يدع للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجردة، ولا من حيث هي كلم مفردة، وأن الفضيلة وخلافهــا

(١) كتاب العين: ٨/٢٤.

(٢) معجم مقاييس اللغة: ٤/٥٠٠.

(٣) ينظر: سر الفصاحة: ٦٠-٨٤، والمثل السائر: ١/١٤٢ و٢٥٤-٣٠٤، وشروح التلخيص: ١/٧٦-٩٤.

في ملاءمة معنى اللفظة لمعنى التي تليها، وما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح اللفظ. ومما يشهد لذلك أنك ترى الكلمة تروقك وتؤنسك في موضع، ثم تراها بعينها تثقل عليك وتوحشك في موضع آخر))[1]، ومثل لذلك بلفظتي الأخدع و الشيء، ثم قال: ((وهذا باب واسع، فإنك تجد متى شئت الرجلين قد استعملا كلمًا بأعيانها، ثم ترى هذا قد فَرَع السِّماك، وترى ذاك قد لصق بالحضيض، فلو كانت الكلمة إذا حَسُنت حَسُنت من حيث هي لفظ، وإذا استحقت المزية والشرف استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها، دون أن يكون السببَ في ذلك حالٌ لها مع أخواتها المجاورة لها في النظم، لما اختلف بها الحال، ولكانت إما أن تحسن أبدًا أو لا تحسن أبدًا))[2].

إن اللفظة البليغة هي التي تختار بعناية لتدل على المراد بدقة، ولا تظهر تلك الدلالة الدقيقة إلا في نظم يراعي مقتضى الحال.

واختيار اللفظة التي تدل على المعنى المراد يتناول جانبين فيها:

الأول: مادة الكلمة، أو ما يسمى بالجذر، الذي تشتق منه سائر الصيغ، وترمز للدلالة الأصلية للمادة.

وتظهر هنا بلاغة المتكلم في اختيار المادة التي تعبر بدقة عن المعنى المراد بخلاف المواد الأخرى التي تشاركها في أصل المعنى، ويتعلق بذلك أيضًا الجرس الصوتي لحروف المادة التي تعطي مزيدًا من الدقة في التعبير بخلاف المواد الأخرى التي لا يتوافر فيها من الدلالة الصوتية ما يراعي مقتضى الحال، كما يتعلق بذلك أيضًا اختيار المادة التي تتلاءم مع غيرها في سياق الكلام.

الثاني: الصيغة، وهي هيئة الكلمة المشتقة من المادة الأصلية، وتشتق الكلمات من الجذر على صيغ كثيرة، تعطي دلالة وظيفية للكلمة، ومن الصيغ: اسم الفاعل واسم المفعول والصفة المشبهة وأوزان الأفعال وأنواع الجموع...

وتظهر هنا بلاغة المتكلم في اختيار الصيغة التي تدل على الوظيفة المطلوبة، والاختيار بين الصيغ المتشابهة لما هو أدق تعبيرًا وأرعى لمقتضى الحال.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٤٦.

(٢) المرجع السابق: ٤٨، وينظر: ٨٧، وسر الفصاحة: ٥٥، والمثل السائر: ١/١٤٦ و٢٤٦.

قال الدسوقي (١٢٣٠هـ): ((اللفظ بجوهره وهيئته يدل على المعنى، فعدم ظهور دلالته إما باعتبار جوهره فيحتاج إلى التنقير والتفتيش، وإما باعتبار هيئته فيحتاج إلى التخريج))(١).

واختيار الألفاظ في كلا الجانبين لا يتم إلا من خلال النظر في موضعها من النص على ما يقتضيه الحال ((ولعل تعبير اللفظ عن تمام المعنى المراد، واستقراره في مكانه من أشق ما يعانيه البليغ، ومن أدل الدلائل -إن وفق إليهما- على قدرته البيانية))(٢).

وبذلك يتفاوت البلغاء في حسن اختيار الألفاظ التي تنبئ عن مكنونات النفس ومراداتها، وتصور الحال التي نُظم الكلام على مقتضاها.

ولقد وفق الله U رسوله r؛ فيسر له أسباب الفصاحة والعلو في البلاغة، فجاءت ألفاظه في نظمه كالعقد الذي انتقيت له أحسن الدرر، ثم نظمت فيه أحسن نظم، فكانت به أحسن حسنًا وأجمل جمالاً. قال الجاحظ (٢٥٥هـ) في وصف فصاحة النبي r وبلاغته: ((لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوى، من كلامه r))(٣)، وقال الرافعي في وصف ألفاظه r: ((مسدد اللفظ، محكم الوضع، جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه، واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفًا مضطربًا، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتم منها أداء للمعنى، وتأتيًا لسره في الاستعمال))(٤).

وسأتناول في هذا البحث من ألفاظ النبي r ما كان لحال المخاطَب أثر في اختياره ونظمه في كلامه، وإن كانت حال المخاطب لا تنفصل كثيرًا عن الأحوال الأخرى إلا أني سأجتهد أن أذكر ما يظهر فيه رعاية حال المخاطب أكثر من غيره، والله ولي التوفيق.

وسأتناول هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

---

(١) حاشية الدسوقي على مختصر السعد: ١/٨٤.

(٢) بلاغة الرسول: ٢٣.

(٣) البيان والتبيين: ٢/١٧.

(٤) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٣٢٥، وينظر: بلاغة الرسول: ٢٣.

المبحث الأول: اختيار المفردات من حيث مادها.

المبحث الثاني: اختيار المفردات من حيث صيغتها.

المبحث الثالث: اختيار المفردات من لهجة المخاطب.

ولما كان اختيار المادة سابقًا لاختيار الصيغة قُدم الحديث عن المادة، وأخر الحـــديث عن اختيار لهجة المخاطب لكونه على خلاف الغالب من الخطاب النبوي.

المبحث الأول: اختيار المفردات من حيث مادها.

تتعدد المعاني وتتكاثر أمام المتكلم حتى تكون كما قال الجاحظ (٢٥٥هـ): ((المعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي والمدني))[١]، وإنما الشأن عند البليغ في تخير المعنى الملائم للحال، والتعبير عنه باللفظ الملائم له حقيقة أو مجازًا؛ فإن المعنى الواحد قد تشترك ألفاظ عدة في الدلالة على أصله، إلا أنها تختلف في الإبانة والدلالة على ما دق من ذلك المعنى الذي يريد أن يعبر عنه المتكلم.

ويختلف البليغ عن غيره في اختيار اللفظة التي تعبر عن المعنى الدقيق ووضعها الموضع اللائق بها في كلامه.

والبليغ هو الذي يحسن اختيار اللفظة التي تعبر عما يريد بدقة، ويتفاوت البلغاء أيضًا في حسن الاختيار، ولن يبلغ أحد الكمال في ذلك بعد كتاب الله U الذي أعجز الخلق ببلاغته وحسن نظمه.

كما لن يبلغ أحد من البشر في حسن الاختيار ودقة الدلالة كما بلغه النبي r في كلامه.

ومما يشهد لدقة النبي r في اختيار الألفاظ حديث سعد بن أبي وقاص t أن رسول الله r أعطى رهطًا وهو جالس فيهم، قال: فترك رسول الله r رجلاً هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله، ما لك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أَوْ مُسْلِمًا» فسَكَتُّ قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه، فعدت لمقالتي فقلت: مالك عن فلان؟ فوالله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أَوْ مُسْلِمًا» ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله r ، ثم قال: «يَا سَعْدُ، إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ وَغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ، خَشْيَةَ أَنْ يَكُبَّهُ اللهُ فِي النَّارِ»[٢].

فالنبي r يرشد سعدًا t إلى حسن اختيار اللفظة التي تعبر عن الموصوف بدقة، و(أَوْ) في الحديث للإضراب بمعنى: بل[٣]، كما في الرواية الأخرى: «لا تَقُلْ: مُؤْمِن؛ بَلْ:

(١) الحيوان: ٣/١٣١.
(٢) أخرجه البخاري: (٢٧ و١٤٧٨) ، ومسلم: (١٥٠).
(٣) ينظر في مجيء (أو) للإضراب: مغني اللبيب: ٩١.

مُسْلِم»[(١)]، وفي رواية: «لا تَقُلْ: مُؤْمِنٌ، وَقُلْ: مُسْلِمٌ»[(٢)]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((وأما قوله r : «أَوْ مُسْلِمًا» فليس فيه إنكار كونه مؤمنًا، بل معناه النهي عن القطع بالإيمان، وأن لفظة الإسلام أولى به؛ فإن الإسلام معلوم بحكم الظاهر، وأما الإيمان فباطن لا يعلمه إلا الله تعالى))[(٣)].

ومن ذلك أيضًا حديث البراء بن عازب t قال: قال النبي r : «إِذَا أَتَيْتَ مَضْجَعَكَ فَتَوَضَّأْ وُضُوءَكَ لِلصَّلاةِ، ثُمَّ اضْطَجِعْ عَلَى شِقِّكَ الأَيْمَنِ، ثُمَّ قُلْ: اللَّهُمَّ أَسْلَمْتُ وَجْهِي إِلَيْكَ، وَفَوَّضْتُ أَمْرِي إِلَيْكَ، وَأَلْجَأْتُ ظَهْرِي إِلَيْكَ، رَغْبَةً وَرَهْبَةً إِلَيْكَ، لا مَلْجَأَ وَلا مَنْجَا مِنْكَ إِلاّ إِلَيْكَ، اللَّهُمَّ آمَنْتُ بِكِتَابِكَ الَّذِي أَنْزَلْتَ، وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ. فَإِنْ مُتَّ مِنْ لَيْلَتِكَ فَأَنْتَ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَاجْعَلْهُنَّ آخِرَ مَا تَتَكَلَّمُ بِهِ» قال: فرددها على النبي r ، فلما بلغت: اللهم آمنت بكتابك الذي أنزلت، قلت: ورسولك. قال: «لا، وَنَبِيِّكَ الَّذِي أَرْسَلْتَ»[(٤)]. والنبي r هنا يرشد البراء t إلى الالتزام بالألفاظ التي جاء بها الذكر؛ لأنها بنيت على ما يقتضيه السياق.

وقد ذكر العلماء عدة توجيهات في إيثار لفظ (النبوة) على لفظ (الرسالة) وسبب إنكار النبي r على الصحابي تغيير اللفظ، ومن أظهرها أن لفظ (الرسول) يشمل كل رسول أرسله الله U من البشر والملائكة، فإطلاق الرسول هنا يتناول المَلَك كجبريل u ، فكان اختيار لفظ (النبوة) يعين الرسول البشري المقصود في الذكر، ويخلص الكلام من اللبس، والله أعلم[(٥)]. وقيل: لإرادة الجمع بين نعمتي النبوة والرسالة[(٦)]، ولا مانع من إرادته مع ما قبله، والله أعلم.

---

(١) أخرج الرواية ابن الأعرابي في معجمه، كما ذكر ابن حجر في فتح الباري: ١/٨٠.

(٢) أخرج الرواية النسائي في سننه: كتاب الإيمان وشرائعه، باب: تأويل قوله U: ﴿قَالَتْ الأَعْرَابُ آمَنَّا﴾، برقم (٤٩٩٣).

(٣) شرح صحيح مسلم: ٢/١٨١، وينظر: فتح الباري: ١/٨٠.

(٤) أخرجه البخاري: (٢٤٧) ، ومسلم: (٢٧١٠).

(٥) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٧/٣٣، وفتح الباري: ١١/١١٢، وعمدة القاري: ٢٢/٢٨٣.

(٦) ينظر: المراجع السابقة، والمفهم في شرح مختصر صحيح مسلم: ٧/٤٠.

وقيل: إن الذكر لو كان بلفظ الرسالة لكان فيه حشو معيب عند أهل البلاغة، لأن المعنى سيتكرر في لفظ (أرسلت) بلا فائدة؛ لأنه إذا قال: ورسولك، فقد فهم منه أنه أرسله، فيكون لفظ (أرسلت) حشوًا[1]، قال القرطبي (٦٥٦هـ) في توجيه إيثار لفظ (النبوة): ((ليخرج عما يشبه تكرار اللفظ من غير فائدة، لأنه إذا قال: ورسولك، فقد فهم منه أنه أرسله، فإذا قال: الذي أرسلت، صار كالحشو الذي لا فائدة له، بخلاف: نبيك الذي أرسلت، فإنهما لا تكرار فيهما لا محققًا ولا متوهمًا))[2]، وتعقبه ابن حجر (٨٥٢هـ) فقال: ((وقوله: صار كالحشو، متعقب؛ لثبوته في أفصح الكلام كقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ﴾ [إبراهيم: ٤] ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ [المزمل: ١٥] ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى﴾ [التوبة: ٣٣] ومن غير هذا اللفظ: ﴿يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ﴾ [ق: ٤١] إلى غير ذلك))[3].

ومما يشهد على دقة اختيار النبي r للمفردات قوله r: «لا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: خَبُثَتْ نَفْسِي، وَلَكِنْ لِيَقُلْ: لَقِسَتْ نَفْسِي»[4]، وهذا الحديث أيضًا يظهر عناية النبي r بحسن اختيار الألفاظ التي تعبر عن المقصود وتلائم المقام، ولو اشتركت هذه الألفاظ في الدلالة على المعنى العام، فـ(اللَّقْس) يشترك مع (الخُبْث) في الدلالة على سوء الخلق ومجانبة الطِّيب[5]، إلا أن مادة (الخُبْث) تحمل في طياها من الدلالات ما ليس في (اللَّقْس)، فهي تستعمل في الفسق والفجور والخسة والحرام والمكروه والمستقذر والفاسد والزنا والخمر والشياطين وما لا خير فيه[6]، و ذكر في اللسان عن ابن الأعرابي (٢٣١هـ): ((أصل الخبث في كلام العرب: المكروه، فإن كان في الكلام فهو الشتم، وإن كان من المِلَل فهو الكفر، وإن كان من الطعام فهو الحرام، وإن كان من الشراب، فهو الضار، ومنه قيل لما

(١) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٧/٣٣.

(٢) المفهم في شرح مختصر صحيح مسلم: ٧/٤٠.

(٣) فتح الباري: ١١/١١٢.

(٤) أخرجه البخاري: (٦١٧٩ و٦١٨٠) ، ومسلم: (٢٢٥٠ و٢٢٥١) عن عائشة وسهل بن حنيف رضي الله عنهما.

(٥) مقاييس اللغة: ٢/٢٣٨ و٥/٢٦٢.

(٦) ينظر: لسان العرب: ٢/١٤١-١٤٥.

يرمى من منفي الحديد: الخَبَث))[1]، وقال الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ): ((يتناول الباطل في الاعتقاد، والكذب في المقال، والقبيح في الفعال))[2].

ولعل لبشاعة هذا اللفظ وما يحمله من هذه الدلالات القبيحة التي تشعر بتأصل الخبث في النفس، مما لا ينبغي أن يسند إلى نفس المسلم، كرهه النبي r وأمر باستعمال لفظ أدق منه في الدلالة على المراد[3]، والله أعلم.

وكيف لا يكون النبي r دقيقًا في اختيار الألفاظ وخلقه القرآن الكريم الذي أرشد إلى الدقة في اختيار الألفاظ الملائمة للحال، فضلاً عن مجيئه على هذه السمة، فقد قال الله U: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا لا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٠٤]، وقال: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آَمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤][4].

واختيار النبي r للمفردات يتأثر بمراعاة مقتضى الحال، ويبرز في ذلك حال المخاطَب الذي هو غالبًا ما يكون مقصودًا بالخطاب.

وسأتناول بلاغة اختيار المفردات في هذا المبحث من خلال ما يلي:

أولاً: اختيار المفردة دون غيرها من المفردات التي لا ترادفها.

ثانيًا: اختيار المفردة دون غيرها من المفردات التي ترادفها في أصل المعنى.

والأول يتناول اختيار المادة في الحال الذي اختيرت فيه بغض النظر عن مرادفاتها، ولكن بالنظر إلى المعاني الأخرى التي يمكن أن يعبر بها في ذلك الحال.

والثاني يتناول اختيار المادة التي تنفرد بمعنى خاص يتلاءم مع الحال، بالمقارنة مع مرادفاتها التي تشترك معها في المعنى العام.

---

(١) المرجع السابق: ١٤٤/٢.

(٢) المفردات: ٢٧٢.

(٣) ينظر: غريب الحديث، لأبي عبيد: ٣/ ٣٣٤، والحيوان: ٣٣٥/١، وشرح صحيح مسلم: ٨/١٥، والفائق في غريب الحديث ٣٢٥/٣، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٦٤/٤، وفتح الباري: ٥٦٤/١٠، وعمدة القاري: ٢٠١/٢٢، ودراسات لسانية في الحديث النبوي: ٥١.

(٤) ينظر: خصائص التعبير القرآني: ٢٥٢/١.

وقدمت الأول على الثاني لأن المتكلم حينما ينشئ الخطاب يتخير من المعاني الممكنة معنى هو أدقها وأكثرها ملاءمة للحال، ثم يتخير من بين الألفاظ المترادفة لفظًا هو أدقهـــا في التعبير عن هذا المعنى.

أولاً: اختيار المفردة دون غيرها من المفردات التي لا ترادفها.

ومن الأمثلة على ذلك:

١- عن المعرور بن سويد أنهم مروا بأبي ذَرّ بالرَّبَذَة، وعليه برد، وعلى غلامه مثله، فقالوا: يا أبا ذر، لو جمعت بينهما كانت حلة، فذكر t لهم أنه كان بينه وبين رجل كلام، وكانت أمه أعجمية، فعيره بأمه، فشكاه إلى النبي r، فلقيه النبي r، فقال له: «أَسَابَبْتَ فُلانًا؟» قال: نعم، قال: «أَفَنِلْتَ مِنْ أُمِّهِ؟» -وفي رواية: «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟»- قال: نعم، قال: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيْكَ **جَاهِلِيَّةٌ**» قال: على حال ساعتي من الكِبَر؟ قال: «نَعَمْ، عَلَى حَالِ سَاعَتِكَ مِنْ الكِبَرِ» قال: يا رسول الله، من سب الرجال سبوا أباه وأمه. قال: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيْكَ **جَاهِلِيَّةٌ**. هُمْ **إِخْوانُكُمْ**، جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم، فَأَطْعِمُوهُم مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُم مِمَّا تَلْبَسُونَ، وَلا تَكْلَفُوهُم مَا يَغْلِبُهُم، فَإِنْ كَلَفْتُمُوهُم فَأَعِينُوهُم» وفي رواية: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيْكَ **جَاهِلِيَّةٌ**. إِخْوانُكُمْ خَوَلُكُم، جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيهِ -وفي رواية: «فَمَنْ جَعَلَ اللهُ أَخَاهُ تَحْتَ يَدِهِ»- فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تَكْلَفُوهُم مَا يَغْلِبُهُم، فَإِنْ كَلَفْتُمُوهُم فَأَعِينُوهُم عَلَيهِ»(١).

والذي يظهر من سياق الحديث أن الذي سابه أبو ذر t أحد خدمه، لقول النبي r: «جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم» ويدل على ذلك مساواة أبي ذر t نفسه بغلامه في لباسه.

- مادة (جهل).

وفي هذا السياق يأتي بناء الخطاب النبوي في نظمه ومفرداته متلائمًا مع حال المخاطَب، ومن ذلك اختيار لفظ (الجَاهِلِيَّة) من (الجَهْل) وهو وصف نقص يضاد كمالين: العلم، والعقل، فعدم العلم والمعرفة والخبرة جهل، وخفة العقل والسفه جهل، وكلاهما

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٠ و٢٥٤٥ و٦٠٥٠)، ومسلم: (١٦٦١).

مذموم، وينفر المرء من أن يوصف بأحدهما، فكيف بهما؟ قال ابن فــارس (٣٩٥هـــ): ((الجيم والهاء واللام أصلان: أحدهما خلاف العلم، والآخر الخفة وخلاف الطمأنينة))[١].

والجاهلية ((هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله ورسوله وشرائع الدين، والمفاخرة بالأنساب، والكِبْر والتَّجَبُّر، وغير ذلك))[٢].

والإنسان -أي إنسان- ينفر من الوصف بـ(الجهل) و(الجاهلية) فكيف إذا كــان مسلمًا توحي له لفظة (الجاهلية) بما يضاد الدين من الشرك والكفر، وتعرض له صور الظلم والفجور، والصد عن الدين، وقتل الأولاد ودفنهم أحياء، وشرب الخمر، والربا، وغيرها من صور الجاهلية التي تتراءى له من خلال هذه اللفظة، فيستبشع كــل عمــل مــن أعمــال الجاهلية؟. ثم كيف إذا كان المخاطب بذلك ممن كان في الجاهلية يعيب على أهلها أفعالهم، ويتعبد لله U[٣]؟ ثم هو مع ذلك قد بلغ الكِبَر في عمره، ولذلك قال أبو ذر t لما وصف النبي r فعله بالجاهلية: على حال ساعتي من الكِبَر؟! فكان لهذا اللفظ أثر في نفــس أبي ذر t ، لدقة النبي r في اختيار اللفظ الملائم للمخاطب في مثل هذا المقام: مقام الترهيب مــن الفعل القبيح، والتشنيع على صاحبه، والله أعلم.

- مادة (أخ).

ومن حسن اختيار الألفاظ في هذا الحديث اختيار معنى (الأخوة) في قوله r : «هُمْ إِخْوانُكُمْ...» «فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيهِ». وإطلاق الأخ غلب على أخوة النسب إلا أن الذي سابه أبو ذر t كان رقيقًا عنده، وليس أخًا له في النسب. ولعل السر في اختيار ذلك ما في(الأخوة) من معاني الملازمة والمشاكلة والتآلف، ولذا فهي تطلق على الصديق، وعلــى أخوة الإيمان، وأخوة القومية، والإنسانية، وغيرها[٤]، فأراد النبي r أن يُذَكِّر المخاطَب بهذه المعاني، التي حين يستشعرها فإنه يعظم عنده سوء فعله، خاصة مع رجل رقيق القلب كــأبي ذر t ، ولقد كان لهذا الأسلوب النبوي أثر فيه، قال الطيبي (٧٤٣هــ): ((في تخصــيص

---

(١) مقاييس اللغة: ١/٤٨٩.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/٣٢٣، وينظر: مشارق الأنوار: ١/١٦٢، ولسان العرب: ١١/١٣٠.

(٣) ينظر: قصة إسلام أبي ذر t في صحيح مسلم: (٢٤٧٣).

(٤) ينظر: لسان العرب: ١٤/١٩.

الذكر بالأخوة إشعار بعلة المواساة في الارتفاق، وأن ذلك مستحب؛ لأنه وارد على سبيل التعطف عليهم، وهو غير واجب. وناسب لهذا أن يقال: فليعنه؛ لأن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه المسلم))[1].

ومن اختيار معنى (الأخوة) ما ورد في خطبة سبي هوازن حينما أراد النبي r أن يرد السبي على وفد هوازن بعد أن جاءوه مسلمين، فقام رسول الله r في المسلمين، فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ إِخْوَانَكُمْ هَؤُلاءِ قَدْ جَاءُونَا تَائِبِينَ، وَإِنِّي قَدْ رَأَيْتُ أَنْ أَرُدَّ إِلَيْهِمْ سَبْيَهُمْ، فَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يُطَيِّبَ بِذَلِكَ فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ أَحَبَّ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَظِّهِ حَتَّى نُعْطِيَهُ إِيَّاهُ مِنْ أَوَّلِ مَا يُفِيءُ اللهُ عَلَيْنَا فَلْيَفْعَلْ» فقال الناس: قد طيبنا ذلك لرسول الله r لهم[2]، ولعل في وصف الوفد بالإخوان إشعار للمخاطبين بالقرب والألفة، وتذكير لهم بأخوة الإسلام التي هي أعظم رابطة تجمع بين الناس، ولقد كان لخطاب النبي r أثره في الصحابة y فاستجابوا.

٢- عن عبد الله بن عباس t أن رسول الله r بعث بكتابه إلى كسرى، مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله r أن **يُمَزَّقُوا** كُلَّ مُمَزَّقٍ[3].

- مادة (مزق).

قال مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هـ): ((التمزيق: التخريق والتقطيع، وأراد بتمزيقهم تفرقهم وزوال ملكهم وقطع دابرهم))[4].

واختيار الدعاء بـ(التمزيق) يتلاءم مع حال المدعو عليه، حيث مزق كسرى كتاب رسول الله r إليه، فكان الجزاء من جنس العمل، فضلاً عما في لفظ التمزيق وجرسه الصوتي من قوة الدلالة على تفرق الملك وزواله، كما أشار إلى ذلك مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هـ) في نصه القريب، والله أعلم. ودعاء الرسول r لكسرى بالتمزيق عقوبة له

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن: ٦/٣٧٧.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري: (٦٤ و٤٤٢٤).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/٣٢٥.

كقول الله U في أهل سبأ: ﴿فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ الآية [سبأ: ١٩]، قال أبو السعود (٩٨٢هـ) في بلاغة التعبير بـ(التمزيق) في الآية: ((في عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزقناهم تمزيقًا لا غاية وراءه، بحيث يضرب به الأمثال في كل فرقة ليس بعدها وصال))(١).

٣- عن حذيفة بن اليمان t قال: لقد رأيتنا مع رسول الله r ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقُرٌّ، فقال رسول الله: «أَلا **رَجُلٌ يَأْتِينِي** بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «أَلا **رَجُلٌ يَأْتِينِي** بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «أَلا **رَجُلٌ يَأْتِينِي** بِخَبَرِ الْقَوْمِ، جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فسكتنا فلم يجبه منا أحد...(٢).

وقد سبق تناول هذا الحديث في مبحث الدعاء من الفصل الثاني، وذكرت هناك أن المقام هنا مقام ترغيب وتحفيز؛ لأن المهمة التي أرادها النبي r خطيرة، وفي وقت عصيب، اجتمع فيه شدة الريح والبرد وحصار الأعداء، ولذا كان الحث إلى القيام بهذه المهمة عظيمًا، مستعملاً فيه النبي r أساليب بلاغية تتلاءم مع هذا المقام ومن ذلك الدعاء، وسبق الحديث عنه.

- مادة (رجل).

ومن الترغيب أيضًا في هذا الحديث اختيار لفظة (رجل) في قوله r: «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ».

واختيار هذه اللفظة في مقام الترغيب وبعد (ألا) التحضيضية فيه ترغيب وتنشيط للعمل المقصود؛ لما في (الرجولة) من معاني الكمال والشدة والشجاعة، قال ابن سيده (٤٥٨هـ): ((وقد يكون (الرجل) صفة، يُعنى بذلك الشدة والكمال))(٣)، وقال سيبويه

(١) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ١٢٩/٧، وينظر: روح المعاني: ١٣١/٢٢.
(٢) أخرجه مسلم: (١٧٨٨).
(٣) المحكم: ٢٦٤/٧، وينظر: لسان العرب: ٢٦٧/١١، وتاج العروس: ٣٤/٢٩.

(١٨٠هـ): ((إذا قلت: هذا الرجل، فقد يكون أن تعني كماله))[١]، وقال الزمخشري (٥٣٨هـ) في الأساس: ((هذا رجل؛ أي كامل في الرجال بين الرجولية والرجولية، وهذا أرجل الرجلين))[٢]، وقوله: هذا أرجل الرجلين، أي: أشدهما[٣]، ولذلك لا يطلق الرجل غالبًا إلا على من احتلم وشب[٤]؛ لأنه بلغ مبلغًا يشتد فيه عوده، ويحسن رأيه وتصرفه، ويتحمل فيه المسؤولية، وفي اللسان: ((يقال: امرأة رجلة؛ إذا تشبهت بالرجال في الرأي والمعرفة))[٥]، ويروى: كانت عائشة رضي الله عنها رجلة الرأي[٦]، ويدل على معنى الكمال والقوة في الرجولة قول الله U: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً﴾ [الكهف: ٣٧]، وقول لوط u لقومه: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]. وجاءت في مقام المدح والثناء في قول الله U: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨]، وقوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ $ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٦-٣٧]، وقوله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣]، والله أعلم.

ومن الدقة في اختيار المفردات في هذا الحديث مجيء التحضيض بلفظ (الإتيان) في قوله r: «يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ»، وهو نتيجة الفعل المقصود، فلم يقل مثلاً: ألا رجل يذهب ليعرف خبر القوم، أو: ألا رجل يتبين خبر القوم، ونحو ذلك، وهذا يتضمن الإخبار بسلامة الذاهب ورجوعه إليه[٧]، وفي هذا مزيد حث وترغيب للقيام بالعمل، والله أعلم.

---

(١) كتاب سيبويه: ٢/٩٤.
(٢) أساس البلاغة: ١٥٦.
(٣) ينظر: المحكم: ٧/٢٦٤، والقاموس المحيط: ٣/٥٥٩.
(٤) ينظر: القاموس المحيط: ٣/٥٥٩، ولسان العرب: ١١/٢٦٥.
(٥) لسان العرب: ١١/٢٦٨.
(٦) ذكره ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٢٠٣.
(٧) ينظر: المفهم في شرح تلخيص صحيح مسلم: ٣/٦٤٧.

وقد جاء اختيار لفظة (رجل) في مقام الترغيب في أحاديث أخرى، منها حديث أبي هريرة t قال: أتى رجل رسول الله r فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد. فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله r: «أَلا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللهُ» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله...[1]، ولا يخفى ما في اختيار لفظ (الرحمة) في الدعاء من التناسب مع الفعل، لأن حال الرجل الذي جاء إلى النبي r تدعو إلى رحمته والإحسان إليه، فكان اختيار لفظ (الرحمة) جزاء من جنس العمل، والله أعلم.

ومن الأحاديث التي وردت فيها لفظة (رجل) في مقام الترغيب قول النبي r لما جاءه قوم من مضر حفاة عراة، ورأى ما بهم من الفاقة: «تَصَدَّقَ رَجُلٌ مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»...[2].

ومنها قوله r: «مَنْ رَجُلٌ يَتَقَدَّمُنَا، فَيَمْدُرُ الْحَوْضَ، فَيَشْرَبُ، وَيَسْقِينَا؟»[3].

وجاءت هذه اللفظة أيضًا في مقام الترغيب على الثبات، كما في قصة الثبات على الدين التي رواها خباب بن الأرت t، وسأذكرها في المثال الآتي.

٤- عن خباب بن الأرت t، أنه جاء إلى النبي r، وهو متوسد بردة له في ظل الكعبة، وقد لقي المسلمون من المشركين شدة، فقال: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا، فقعد الرسول r وهو محمر وجهه، فقال: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ، يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ **بِالْمِنْشَارِ**، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُمْشَطُ بِأَمْشَاطِ **الْحَدِيدِ** مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ. وَاللهِ، **لَيُتِمَّنَّ** هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاّ اللهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ»[4].

وقد سبق في مبحث القصة من الفصل الثاني بيان حال المخاطب، وأن النبي r ذكر هذه القصة لأصحابه y في وقت أحوج ما يكونون فيه إلى الصبر والثبات في مواجهة

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٩٨ و٤٨٨٩)، مسلم: (٢٠٥٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧).

(٣) أخرجه مسلم (٣٠١٤).

(٤) أخرجه البخاري: (٣٦١٢ و٣٨٥٢ و٦٩٤٣).

المشركين لهم وبغيهم وطغيانهم عليهم، ليبرز لهم النبي r نماذج مشابهة، بل هي أسوء حالاً، لكنها أقوى صبرًا وثباتًا، وهو في ذلك يدعوهم إلى التفاؤل بالنصر ويبين لهم أن المستقبل للدين وأهله.

وجاءت مفردات القصة متلائمة مع حال المخاطب، ومن ذلك لفظة (الرجل) التي أشير إليها آنفًا، حيث جاءت في مقام الترغيب على الثبات، لإشعار المخاطب بما توحيه هذه اللفظة من معنى القوة والشدة، ليكون دافعًا للتحمل والثبات على الحق.

ويلحظ اختيار الألفاظ التي تحمل جرسًا صوتيًا فيه شدة، للتعبير عن هول التعذيب وشدته على المعذبين، لكنهم مع ذلك صابرون ثابتون، ومن هذه الألفاظ: يُجْعَل، يُجَاء، الْمِنْشَار، يُشَقّ، يُمْشَط، أَمْشَاط.

- مادة (نشر).

واختيار لفظة (المنشار) مع ما فيها من جرس صوتي لها دلالة إيحائية ترمز إلى الشدة وتبعث الرهبة[1]، وتأتي هذه الدلالة من استعمال هذه الآلة عادة في نشر الشيء الصلب لشقه وتقطيعه وتفريق أجزائه، ومادة (نشر) فيها معنى السعة والتشعب والانتشار، قال ابن فارس (٣٩٥هـ): ((النون والشين والراء أصل صحيح يدل على فتح شيء وتشعبه))[2].

- مادة (حدّ).

واختيار مادة (الْحَدِيدِ) في الأمشاط للدلالة نفسها، لما في الحديد من الصلابة والقوة، والقدرة على شحذه ليكون حده أنفذ وأسرع مضاء، بخلاف الخشب مثلاً فإنه أضعف صلابة وحدًا وأسرع تلفًا، والله U يقول: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ [الحديد: ٢٥]، قال ابن فارس (٣٩٥هـ): ((سمي الحديد حديدًا لامتناعه وصلابته وشدته))[3].

- مادة (تمّ).

واختيار معنى (الإتمام) في قوله r: «وَاللهِ، لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ» لبعث التفاؤل في نفس المخاطب، الذي يشعر بالهم والغم والضيق مما يجده من أعداء الدين من طغيان وتعذيب

(١) ينظر: بلاغة التراكيب: ٤٤١.
(٢) مقاييس اللغة: ٥/٤٣٠.
(٣) المرجع السابق: ٢/٤، وينظر: لسان العرب: ٣/١٤١.

وتضييق، فبين له النبي r أن الأمر لن يستمر على هذه الحال، بل سيجد أمنًا وانتشارًا. وبعْثُ التفاؤل فيه مزيد من الترغيب في الصبر والثبات حتى ينال الصابرون العاقبة الحميدة في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما معًا، وهذا منهج رباني في دعوات الأنبياء عليهم السلام كما قال الله U عن موسى u وقومه: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ $ قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٢٨-١٢٩].

٥- عن جابر بن عبد الله t قال: كنا في غزاة فكَسَع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار، فقال الأنصاري: يا للأنصار، وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فسمع ذلك رسول الله r فقال: «مَا بَالُ دَعْوَى **الْجَاهِلِيَّةِ؟**» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا **مُنْتِنَةٌ**»[(١)]، وفي رواية للبخاري: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا **خَبِيثَةٌ**»[(٢)].

والمراد بدعوى الجاهلية الاستنصار بالآل والعشيرة ولو كان في ظلم، حيث كان الرجل من أهل الجاهلية إذا غلب عليه خصمه نادى قومه بأعلى صوته: يا آل فلان، فيبتدرون إلى نصرته ظالمًا كان أو مظلومًا[(٣)]، وصارت هذه الدعوى سنة من سنن أهل الجاهلية وشعارًا من شعائرهم، قال العيني (٨٥٥هـ): ((وتسميتها: دعوى الجاهلية، لأنها كانت من شعارهم))[(٤)]، وقد جاء الإسلام بإبطالها والنهي عنها، فعن عبد الله بن مسعود t قال: قال النبي r: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَطَمَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»[(٥)]، وعن الحارث الأشعري t أن النبي r قال: «مَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ

---

(١) أخرجه بهذه الرواية البخاري: (٤٩٠٥)، ومسلم: (٢٥٨٤).

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٣٥١٨).

(٣) ينظر: فتح الباري: ٦/٥٤٦، وتحفة الأحوذي: ٨/١٣٢.

(٤) عمدة القاري: ١٦/٨٨.

(٥) أخرجه البخاري: (١٢٩٤)، ومسلم: (١٠٣).

مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ» فقال رجل: يا رسول الله، وإن صلى وصام؟ قال: «وَإِنْ صَلَّى وَصَامَ، فَادْعُوا بِدَعْوَى اللهِ الَّذِي سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ، الْمُؤْمِنِينَ، عِبَادَ اللهِ»[(١)].

ونظرًا لبشاعة الدعوى التي حصلت من الرجلين ((لأنها تثير الغضب على غير الحق، والتقاتل على الباطل، وتؤدي إلى النار))[(٢)] عبر عنها النبي r بألفاظ تنادي على المخاطب ببشاعتها وقبحها، وتنفر منها، وتعرض بالإنكار على فاعلها، فوصفها بـ(الْجَاهِلِيَّة) وبكونها (خَبِيْثَة) و(مُنْتِنَة).

أما (الجَاهِلِيَّة) فقد سبق الحديث في أول المسألة عن حسن اختيارها في قصة أبي ذر t مع رقيقه، والمقام هنا كالمقام هناك، حيث يراد بذكرها الترهيب من الفعل والإنكار على فاعله.

- مادة (خبث).

وكذلك سبق آنفًا الحديث عن (الخبث) ودلالاته الشنيعة التي اقتضت أن يختار النبي r هذا المعنى تلاؤمًا مع سوء فعل المخاطبين، إنكارًا عليهم وبيانًا لسوء فعلهم.

- مادة (نتن).

ومثل ذلك قوله r: «مُنْتِنَة» من (النَّتَن) وهو الرائحة الكريهة[(٣)]، فهي لفظة تحمل من الدلالات القبيحة ما يُنَفر من الموصوف به، ويدل على قبح فعله، والله أعلم.

٦- عن أبي موسى الأشعري t قال: كنا مع رسول الله r، فكنا إذا أشرفنا على واد هلَّلنا وكبَّرنا ارتفعت أصواتنا -وفي رواية: كنا مع رسول الله r في غزاة، فجعلنا لا نصعد شرفًا، ولا نعلو شرفًا، ولا نهبط في واد إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير- فقال النبي r: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، **ارْبَعُوا** عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ **سَمِيعٌ قَرِيبٌ**»[(٤)].

---

(١) أخرجه الترمذي: كتاب الأمثال، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة، برقم (٢٨٦٣)، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي: ٣٧٨/٢، برقم (٢٢٩٨).

(٢) عمدة القاري: ٨٨/١٦.

(٣) ينظر: لسان العرب: ٤٢٧/١٣.

(٤) أخرجه البخاري: (٢٩٩٢ و٦٦١٠)، ومسلم: (٢٧٠٤).

وسأقف عند هذا الحديث مع المفردات الآتية: ارْبَعُوا، سَمِيعٌ، قَرِيبٌ.

- مادة (ربع).

فقد جاءت هذه المفردات متلائمة مع حال المخاطبين، الذين كانوا يجهرون بذكر الله U وتكبيره وتهليله كلما علوا أو نزلوا في سفرهم، وكأنهم ينادون من هو بعيد عنهم، فلا يسمع صوتهم، ولا يعلم حالهم، فيحتاج إلى أن يرفعوا له أصواتهم، فخاطبهم النبي r على ما يقتضيه حالهم، واختار في خطابه لهم من المعاني ما يلائمهم، فقد كانوا يجتهدون في الذكر فيجهرون، فأمرهم النبي r بالرفق في قوله: «ارْبَعُوا» و(الرَّبْع) الرِّفْق، ويأتي بمعنى الكَفّ، ذكر في اللسان: ((ارْبَعْ على نفسك رَبْعًا، أَي: كُفَّ وارْفُق))[1]، ولعل دلالة اللفظة على (الكَفّ) تبين سر إيثار النبي r لها دون لفظ (الرِّفْق)، كما أن دلالة اللفظة على (الرفق) تبين سر إيثارها دون لفظ (الكف) فلعل النبي r أراد منهم أن يرفقوا بأنفسهم، فيكفوا عن جهرهم، لا عن التكبير والتهليل، والله أعلم.

- مادة (سمع) و(قرب).

واختيار صفتي (السَّمْع) و(القُرْب) دون غيرهما من صفات الله U؛ لكون المخاطبين يظهرون بجهرهم بُعْد المدعو وعدم سماعه لهم لو أسروا، فبين النبي r في تعليل الأمر أن الله U الذي يدعونه يتصف بهاتين الصفتين اللتين تقتضيان من الداعي أن لا يجهر بدعائه، وقد قال الله U: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ الآية [البقرة: ١٨٦].

٧- مما يشهد على دقة اختيار النبي r للمفردات تغييره أسماء بعض الصحابة y لما تدل عليه من صفات مكروهة، أو صفات فيها تزكية للنفس[2].

- مادة (جمل).

ويأتي التغيير مراعًى فيه طبيعة النفس البشرية عمومًا وحال الذي غُيِّر اسمه خصوصًا، ومن ذلك تغييره اسم (عاصية) بنت عمر t إلى اسم (جميلة)، وهو اسم حسن محبب إلى الأنثى لفظًا ومعنى وصورة، كما روى ابن عمر t أن ابنة لعمر t كانت يقال لها:

---

(١) لسان العرب: ٨/١١٠.

(٢) ينظر: فتح الباري: ١٠/٥٧٧، ودراسات لسانية في الحديث النبوي: ٤٥.

عاصية، فسماها رسول الله r جميلة، وفي رواية أن رسول الله r غَيَّر اسم عاصية، وقال: «أَنْتِ **جَمِيلَةُ**»(١).

- مادة (زنب).

وغَيَّر اسم بَرَّة إلى زَيْنَب، كما روت زينب بنت أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان اسمي برة، فسماني رسول الله r زينب، قالت: ودخلت عليه زينب بنت جحش، واسمها برة، فسماها زينب(٢)، وإنما غَيَّر اسمها لما فيه من تزكية النفس، كما روى محمد بن عمرو ابن عطاء قال: سميت ابنتي برة، فقالت لي زينب بنت أبي سلمة: إن رسول الله r نهى عن هذا الاسم، وسُميت برة، فقال رسول الله r: «لا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ، اللهُ أَعْلَمُ بِأَهْلِ الْبِرِّ مِنْكُمْ» فقالوا: بم نسميها. قال: «سَمُّوهَا **زَيْنَبَ**»(٣)، والزينب: شجر حسن المنظر، طيب الرائحة، قال ابن الأعرابي (٢٣١هـ): ((وبه سميت المرأة: زينب))(٤) وقيل من السِّمَن، قال أبو عمرو بن العلاء (١٥٤هـ): ((الأزْنَبُ: السَّمين، وبه سمّيتِ المرأةُ: زينب))(٥)، وكلا المعنيين مستحسن في المرأة عند العرب، وقال الفيروزآبادي (٨١٧هـ): ((أو أصلها: زين أب))(٦)، فحذفت الألف لكثرة الاستعمال(٧)، وقيل غير ذلك(٨).

هذه بعض الشواهد التي تدل على أثر حال المخاطب في اختيار النبي r للمفردات الملائمة له، وقد سبق في الفصلين الماضيين عدة شواهد، تضاف إلى هذه الشواهد(٩)، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم: (٢١٣٩).
(٢) أخرجه مسلم: (٢١٤٢).
(٣) أخرجه مسلم: (٢١٤٢).
(٤) ينظر: تهذيب اللغة: ١٣/١٥٧، ولسان العرب: ١/٤٥٣، وتاج العروس: ٣/٢٦.
(٥) ينظر: المراجع السابقة.
(٦) القاموس المحيط: ١/٢٢٠.
(٧) ينظر: تاج العروس: ٣/٢٦.
(٨) ينظر: القاموس المحيط: ١/٢٢٠، وتاج العروس: ٣/٢٦.
(٩) ينظر مثلاً ص (٦١، ٦٣، ٧٣، ٨٠، ١٣١) من هذا البحث.

ثانيًا: اختيار المفردة دون غيرها من المفردات التي ترادفها في أصل المعنى.

ومن الأمثلة على ذلك ما يلي:

١- كتاب النبي r إلى هرقل وفيه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِاللهِ وَرَسُولِهِ، إِلَى هِرَقْلَ **عَظِيمِ** الرُّومِ. **سَلامٌ** عَلَى مَن اتَّبَعَ **الْهُدَى**. أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ **الأَرِيسِيِّينَ** وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾»(١).

ولكي ندرك دقة النبي r في اختيار المفردات يحسن أن نعرف حال المخاطَب الذي كاتبه النبي r ، فهرقل هو ملك الروم، والروم في ذاك الزمان قوة عظمى لا يضاهيها إلا قوة الفرس، ولذا كانت الممالك تابعة لهما أو متحالفة معهما، وهرقل اسمه، ويلقب بقيصر كما يلقب ملك الفرس بكسرى، ويدين وقومه بالنصرانية، و لم يكونوا من بني إسرائيل، إلا أنهم ممن دخل في النصرانية بعد التبديل(٢).

فالنبي r يكاتب ملكًا نصرانيًا معدودًا من أهل الكتاب الذين عندهم علم برسالته بعد عيسى u ، وهو معظَّم عند قومه، يدعوه وإياهم إلى الدخول في دين الإسلام.

وقد جاءت مفردات الخطاب النبوي متلائمة مع حال المخاطب في ديانته ومترلته في نفسه وقومه.

- مادة (عظم).

ومن ذلك اختيار (عظيم) من العظمة والتعظيم، وهو وصف عدل به عن الملك، وقد سبق بيان سر العدول في مبحث المنــزلة من الفصل الأول(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (٧ و٢٩٤١ و٤٥٥٣) ، ومسلم: (١٧٧٣).

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٠٣/١٢، وفتح الباري: ٣٣/١ و٣٨، وعمدة القاري: ٧٩/١.

(٣) ينظر ص (٨٦) من هذا البحث.

- مادة (سلم).

ومن ذلك اختيار مادة (س ل م) التي تبرز في مطلع النص وفي خاتمته وما بينهما، وهي تشعر المخاطب بالطمأنينة على ملكه، لأن المقصود من الدعوة الدخول في الإسلام، لا منازعة الملك، وقد سبق بيان ذلك(١).

لكن يرد السؤال عن سر اختيار هذه المادة دون غيرها مما يشترك معها في المعنى كمادة (أ م ن) فيقال مثلاً: أمان - آمن - تأمن...

ولعل ذلك لكون مادة (س ل م) أشمل في الدلالة وأدق في هذا السياق من مادة (أ م ن) فالأمن والأمان يكون مع خوف، كما قال الله U: ﴿وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٤]، وقد يشعر اختيار هذه المادة بالتهديد والتخويف، وإعلان الحرب، والدخول في أجوائها، وهذا ما لا يراد. وقد اختار النبي r هذه المادة (أ م ن) في سياق الحرب لتلاؤمها معه، كقوله في فتح مكة لما استحر القتل في المشركين، وجاءه أبو سفيان قائلاً: يا رسول الله، أبيدت خضراء قريش، لا قريش بعد اليوم، قال r: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ»(٢).

أما مادة (س ل م) فيبرز فيها معنى البراءة والعافية من كل عيب ونقص وآفة، وهو أمر يسعى إليه المرء في كل أحواله، قال ابن فارس (٣٩٥هـ): ((السين واللام والميم معظم بابه من الصحة والعافية، ويكون فيه ما يشذ، والشاذ عنه قليل، فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى، قال أهل العلم: الله جل ثناؤه هو السَّلام لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء... ومن الباب أيضًا الإسلام، وهو الانقياد، لأنه يسلم من الإباء والامتناع))(٣)، وفي اللسان: ((كانت العرب في الجاهلية يُحيُّون؛ بأن يقول أحدهم لصاحبه: أَنعِم صَباحًا، وأَبَيت اللَّعن، ويقولون: سَلام عليكم، فكأنه علامة المسالمة، وأنه لا حرب هنالك))(٤)، وفيه أيضًا: ((قيل للجنة: دار السلام؛ لأنها دار السلامة من الآفات))(٥).

---

(١) ينظر ص(٨٦) من هذا البحث.

(٢) أخرجه مسلم: ١٧٨٠.

(٣) مقاييس اللغة: ٣/٩٠، وينظر: لسان العرب: ١٢/٢٨٩.

(٤) لسان العرب: ١٢/٢٨٩، وينظر: التحرير والتنوير: ٧/٢٥٧.

(٥) لسان العرب: ١٢/٢٩١.

ولعل اختيار لفظ (الإسلام) دون (الإيمان) لكونه من هذه المادة التي تشعر بالسلامة لمن دخل في هذا الدين، ولكون (الإسلام) فيه معنى الانقياد والاتباع، لأن (الإيمان) يبرز فيه معنى التصديق، والمخاطَب من أهل الكتاب، قد يصدق بخبر الإنجيل عن رسالة النبي r ، ولكن المراد ليس هذا وحده، وإنما الخضوع والانقياد لهذا الدين وما جاء به رسوله r ، ولذا قال أولاً: «سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى» حضًا على الاتباع والانقياد، ثم قال بعد أن دعاه إلى الإسلام: «فَإِنْ تَوَلَّيْتَ» والتولي ينافي الانقياد. وفي اللسان: ((الإسلام والاستسلام: الانقياد. الإسلام من الشريعة: إظهار الخضوع، وإظهار الشريعة، والتزام ما أتى به النبي، وبذلك يُحقن الدم، ويُستدفع المكروه))[1]، وفي الحديث: «الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ»[2]، قال الأزهري (٣٧٠هـ): ((معناه: أنه دخل في باب السلامة حتى يسلم المؤمنين من بوائقه))[3].

- مادة (هدى).

ومن المفردات (الهدى) في قوله: «سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى» حيث جاء اختيارها دون غيرها من المعاني التي يمكن أن تأتي موضعها، وإن لم تكن تعبر كتعبيرها، كالإسلام والإيمان، ولعل سر إيثارها لكون النفس البشرية ترتضي الهداية وتبتغيها، وتسعى إليها في جميع أمورها، والمرء حينما يتبع دينًا -أَيَّ دين- فإنما يبتغي به الهداية. ومجيئها في بدء الكلام مع السلام فيه تنبيه للمخاطب إلى أن ما يُدعى إليه بعدُ هو الهدى لا غيره، وفيه تعريض بأن ما هو عليه ليس هو الهدى، فكان اختيار هذه المادة مع السلام من حسن الافتتاح الذي يراد به التنبيه والتشويق إلى طلب الهدى الذي لا هدى بعده، مهما كان عليه المرء من المكانة والديانة التي يظنها على هدى بعد رسالة النبي r ، ولذا جاءت اللفظة معرفة، لتفيد أن ما يدعو إليه النبي r هو الهدى المعروف الذي يتسم بالكمال والتمام، والله أعلم، يقول الدكتور محمد أبو موسى: ((تعريف (الهدى) في قوله: «سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى» يعني الهدى المتعالم المعروف الذي هو الهدى، وهو هدى الله، وهذا مأخوذ من قوله سبحانه: ﴿إِنَّ

(١) المرجع السابق: ٢٩٣/١٢، وينظر: تهذيب اللغة: ٤٥٢/١٢.
(٢) أخرجه البخاري: (١٠) ، ومسلم: (٤٠).
(٣) تهذيب اللغة:٤٥١/١٢.

هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى﴾ [البقرة: ١٢٠] فكل ما تهتدي إليه العقول المستقلة بالنظر، والباحثة عن الأصول الضابطة لمناحي الحياة والسلوك ونظام الاجتماع وسياسة الأمم هو في حقيقته ليس هدى كاملاً؛ لأنهم وإن أصابوا في كثير مما جاهدوا فيه، فإنهم لم يصلوا إلى الكمال؛ لأن العلم بالحقائق الكاملة المطلقة في كل معلوم لا يكون إلا علم من خلق، وهو اللطيف الخبير))(١).

- مادة (أرس).

ولفظة «الأرِيسيِّينَ» في الرسالة تعني الفلاحين(٢)، يريد الضعفاء والأتباع منهم، كما قال الخطابي (٣٨٨هـ)(٣)، قال النووي (٦٧٦هـ): ((واختلفوا في المراد بهم على أقوال، أصحها وأشهرها أنهم الأكَّارون، أي: الفلاحون والزراعون، ومعناه أن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك... وهذا القول هو الصحيح، وقد جاء مصرحًا به في رواية رويناها في كتاب دلائل النبوة للبيهقي وفي غيره: «فإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَكَّارِيْنَ» وفي رواية ذكرها أبو عبيد في كتاب الأموال: «وَإِلاّ فَلا يَحِلْ بَيْنَ الفَلاّحِيْنَ وَبَيْنَ الإِسْلامِ»... قال أبو عبيد: ليس المراد بالفلاحين الزراعين خاصة؛ بل المراد بهم جميع أهل مملكته))(٤).

وإذا كان المراد جميع أهل مملكته فلم اختير الفلاحون دون غيرهم؟ ولبيان ذلك قال النووي (٦٧٦هـ): ((نبه بهؤلاء على جميع الرعايا؛ لأنهم الأغلب، ولأنهم أسرع انقيادًا، فإذا أسلم أسلموا، وإذا امتنع امتنعوا))(٥)، وذلك كقوله U: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا $ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٦٧-٦٨](٦).

---

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٤٨٢.

(٢) ينظر: غريب الحديث، للخطابي: ٤٩٩/١، ومشارق الأنوار: ٢٨/١، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٨/١، ولسان العرب: ٤/٦.

(٣) غريب الحديث، للخطابي: ٤٩٩/١.

(٤) شرح صحيح مسلم: ١٠٩/١٢، وينظر: فتح الباري: ٣٩/١.

(٥) شرح صحيح مسلم: ١٠٩/١٢.

(٦) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٨/١، ولسان العرب: ٥/٦.

وللدكتور محمد أبو موسى لمحة حسنة في سبب تحميل هرقل إثم أتباعه، بخلاف النجاشي، فإن النبي r لم يحمله إثم جنده في الرسالة التي رويت عن النبي r إليه، قال: ((قوله u : «فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ» جمع أريس، وهو الزارع التابع، ومعناه أن رسول الله r يُحَمِّل هرقلاً[1] إثم شعبه؛ لأن شعبه يتبعه، و لم يحمل النجاشي إثم جنده، والمراد أتباعه. وأفهم من هذا أن الروم كانوا يتبعون عظيمهم تبعية كاملة، وأن الأحباش كانت لهم إرادة حرة لم تكن للروم، وسبحان مغير الأحوال))[2].

٢- حديث أبي ذر t مع رقيقه، وقد سبق ذكره قريبًا[3]، وفيه قوله r : «إِخْوانُكُمْ **خَوَلُكُم**، جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم».

- مادة (خول).

وفي هذا الحديث اختيار مادة (خول) في قوله: «خَوَلُكُم» بدلاً من مادة (خدم) التي يغلب إطلاقها على الرقيق، فيقال: خادِم وجمعه خَدَم. ولعل إيثار (خولكم) بدلاً من (خدمكم) لما في مادة (خول) من دقة معنى تتلاءم مع السياق أكثر من (خدم)، فإن الخدمة تعني القيام بحاجة المرء[4]، أما الخَوَل فيعني تعهده وحسن رعايته وحفظ شأنه، قال القاضي عياض (٥٤٤ هـ) في معنى الحديث: ((«خَوَلُكُم» بفتح الواو أي: خدمكم وعبيدكم الذين يتخولون أموركم، أي: يصلحونها))[5]، وقال في اللسان: ((الخائل: الحافظ للشيء، يقال: فلان يَخُول على أهله وعياله، أَي: يَرْعَى عليهم، ورَاعِي القوم يَخُول عليهم، أَي: يَحْلُب ويَسْعَى ويَرْعَى، وخال المالَ يَخُوله: إذا ساسه وأَحسن القيام عليه، وكذلك خلته أَخوله، والخَوْلِيُّ: القائم بأَمر الناس السائس له، والخائل: الراعي للشيء الحافظ له))[6].

---

(١) هكذا أورد المؤلف (هرقل) مصروفًا، ولعله خطأ طباعي، أو أن المؤلف لا يرى منعه من الصرف. قال العيني في عمدة القاري: ٧٩/١: ((وزعم الجواليقي أنه عجمي، تكلمت به العرب. وهو اسم علم له غير منصرف، للعلمية والعجمة)).

(٢) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٥٠٢.

(٣) ينظر ص (٢٧٣) من هذا البحث.

(٤) ينظر: لسان العرب: ١٦٦/١٢، والمعجم الوسيط: ٢٢١/١.

(٥) مشارق الأنوار: ٢٤٧/١-٢٤٨.

(٦) لسان العرب: ٢٢٥/١١، وينظر: مقاييس اللغة: ٢٣٠/٢.

فتبين أن في معنى الخول مزيد دلالة على معنى الخدمة، ولعل في إيثار هذا اللفظ مزيد توبيخٍ للمخاطَب وإشعارٍ له بسوء فعله، حين يقابل اجتهاد رقيقه وإحسانه بالإساءة إليـــه، والله أعلم.

- لفظ الجلالة (الله).

ولعل في اختيار لفظ الجلالة (الله) دون سائر أسمائه وصفاته، لإشـــعار المخاطـــب بعظمة الله U وإحاطته بخلقه وقدرته الشاملة على عباده، في مقابل القدرة المحدودة للســـيد الضعيف على رقيقه، وفي ذلك موعظة للمخاطب لعله يرتدع، وقد حصل ذلك. ومثل هذا حديث أبي مسعود البدري t قال: كنت أضرب غلامًا لي بالسوط، فسمعت صوتًا مـــن خلفي: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ» فلم أفهم الصوت من الغضب، فلما دنا مني إذا هو رســـول الله r ، فإذا هو يقول: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ» فألقيت السوط من يدي، فقـــال: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ» وفي رواية: «وَاللهِ لَلَّـــهُ أَقْـــدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ» قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا، وأعتقه(١)، واختيـــار وصـــف القدرة ملائم هنا لحال المخاطب كما هو ظاهر، والله أعلم.

٣- عن عبد الله بن عمرو t أن رسول الله r وقف في حجة الـــوداع بمـــنى للناس يسألونه، فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبـــح؟ فقـــال: «اذْبَـــحْ، وَلا حَرَجَ». فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ قال: «ارْمِ، وَلا حَرَجَ». فما سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «افْعَلْ، وَلا حَرَجَ»(٢)، وفي رواية مسلم قال عبد الله t : وقف رسول الله r على راحلته، فطفق ناس يسألونه، فيقول القائل منهم: يا رسول الله، إني لم أكن أشعر أن الرمي قبل النحر، فنحرت قبل الرمي، فقال رسول الله r : «فَارْمِ، وَلا حَرَجَ» قال: وطفق آخر يقول: إني لم أشعر أن النحـــر قبـــل الحلـــق، فحلقت قبل أن أنحر. فيقول: «انْحَرْ، وَلا حَرَجَ» قال: فما سمعته يسأل يومئذ عن أمر ممـــا

---

(١) أخرجه مسلم: (١٦٥٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٨٣) ، ومسلم: (١٣٠٦). ورواه بنحوه ابن عبـــاس t في البخـــاري: (٨٤) ، ومســـلم: (١٣٠٧).

ينسى المرء ويجهل، من تقديم بعض الأمور قبل بعض وأشباهها، إلا قال رسول الله r: «افْعَلُوا ذَلِكَ، وَلا حَرَجَ». وفي هذه الرواية مزيد بيان لحال المخاطَب ونفسيته الراغبة في التخلص من الإثم، حيث يقبل الصحابي إلى النبي r وهو يشعر أنه وقع في الإثم حين يفعل ما يخالف هدي النبي r في ترتيب أفعال الحج يوم النحر، ظانًا أن الترتيب واجب. وقول الراوي t: طَفِق، فيه تعبير عن مدى ما في نفس السائل من الشعور بالإثم والرغبة في التخلص منه، ولم أجد (طفق) مستعملة في القرآن الكريم إلا في هذا المقام؛ مقام الحرص على الفعل، وقد وردت في ثلاث آيات، آيتين في آدم وحواء عليهما السلام حينما أكلا من الشجرة التي نهيا عنها قال الله U: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٢] وقال: ﴿فَأَكَلا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [طه: ١٢١]، وآية في سليمان u حينما ألهته الخيل عن ذكر الله، قال الله U عنه: ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ $ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالأَعْنَاقِ﴾ [ص: ٣٢-٣٣]، ويلحظ أن (طفق) جاءت في الآيات في مقام الرغبة في التخلص من آثار الذنب، والله أعلم.

- مادة (حرج).

والمقصود أن السائل في الحديث كان حريصًا متحرجًا حينما جاء إلى النبي r، فيأتي جواب النبي r للسائلين بقوله: «لا حَرَجَ»، ولم يقل: لا إثم، لأن السائل جاء متحرجًا على ما يظن، فنفى r عنه ما يجده في نفسه من الحرج. ذكر في اللسان: ((تَحَرَّجَ فلانٌ، إذا فعل فعلاً يَتحَرَّجُ به، مِن الحَرَج: الإثم، والضيق))(١)، ففي (الحرج) معنى أوسع من معنى (الإثم) يلائم حال السائلين، فإن (الإثم) هو الذنب الذي يستحق عليه صاحبه العقوبة(٢)، أما (الحرج) وإن كان يطلق على الإثم إلا أنه في الأصل بمعنى الضيق، قال ابن فارس (٣٩٥هـ): ((الحاء والراء والجيم أصل واحد، وهو معظم الباب وإليه مرجع فروعه، وذلك تجمع الشيء، وضيقه))(٣)، وقال مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هـ): ((الحرج في الأصل:

---

(١) لسان العرب: ٢/٢٣٣.

(٢) ينظر: المرجع السابق: ١٢/٥، والمعجم الوسيط: ١/٦.

(٣) مقاييس اللغة: ٢/٥٠.

الضيق، ويقع على الإثم والحرام. وقيل: الحرج أضيق الضيق))[1]، ثم قال: ((وأحاديث الحرج كثيرة وكلها راجعة إلى هذا المعنى))[2] أي معنى الضيق، فبيَّن النبي r بنفي (الحرج) صواب الفعل وسعة الأمر، والله أعلم.

٤- عن أبي هريرة أن رسول الله r مر على صُبْرَة طعام، فأدخل يـده فيهـا، فنالت أصابعه بللاً، فقال: «مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟» قال: أصابته السماء يا رسول الله، قال: «أَفَلا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَيْ يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ **غَشَّ** فَلَيْسَ مِنِّي»[3].

- مادة (غشّ).

لعل اختيار مادة (غ ش ش) دون غيرها مما يشترك معهـا في المعـنى كالتـدليس والخداع، لما في هذه المادة من دقة في التلاؤم مع مقام الخطاب وحال المخاطب.

وحين نقارن بين معاني الألفاظ يتبين لنا دقة الاختيار لمادة الغش دون غيرها.

أما الغِشُّ فهو نقيض النُّصْح، وقد غَشَّه غِشًّا: لم يَمْحَضه النصيحة، وأظهر له خلاف ما يضمره، مأْخوذ من الغَشَش: المَشْرَب الكدِر، أو مـن الغِشَـاش، وهـو أول الظلمـة وآخرها[4]، وكلاهما فيه اختلاط، فالغاش في بيعه يخلط الحسن بالسيء، لكنه يبرز المحاسن، ويخفي المساوئ.

وأما التدليس فهو إخفاء العيب، من الدَّلَس، وهـو الظلمـة، قـال ابـن فـارس (٣٩٥هـ): ((الدال واللام والسين أصل يدل على ستر وظلمة، فالدَّلَس دَلَس الظلام، ومنه قولهم: لا يُدَالِس، أي: لا يخادع، ومنه التَّدْليس في البيع، وهو أن يبيعه من غير إبانـة عـن عيبه، فكأنه خادعه وأتاه به في ظلام))[5].

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٦١/١.

(٢) المرجع السابق: ٣٦٢/١.

(٣) أخرجه مسلم: (١٠٢)، والصُّبرة: ما جمع من الطعام بلا كيل ووزن، بعضه فوق بعض. ينظر: لسـان العـرب: ٤٤١/٤.

(٤) ينظر: القاموس المحيط: ٤١٠/٢، ولسان العرب: ٣٢٣/٦.

(٥) مقاييس اللغة: ٢٩٦/٢، وينظر: لسان العرب: ٨٦/٦.

وأما الخداع فهو تدبير فيما يضر الخصم خفية، حيث يختل بالمخادَع من حيث لا يعلم، ففيه إظهار خلاف ما يخفى، كما في الغش والتدليس(١).

وأفهم مما ذكر في معنى اللفظتين -الغش والتدليس- أن المدلس يحاول الإخفاء التام للعيب، بخلاف الغاش فإنه يحاول إخفاء العيب مع قرب تبينه لمن يفطن.

أما الخداع فإنه يلتقي مع معنيي الغش والتدليس في إظهار ما لا يخفي، إلا أن الغش والتدليس خُلُقين منكرين، بخلاف الخداع فإن منه ما ينكر ومنه ما يحمد، وقد وُصف الله U به في مقابل خداع المنافقين في قول الله U: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، قال ابن القيم (٧٥١هـ): ((إن المكر: إيصال الشيء إلى الغير بطريق خفي، وكذلك الكيد والمخادعة، ولكنه نوعان: قبيح وهو إيصال ذلك عمن لا يستحقه، وحسن وهو إيصاله إلى مستحقه عقوبة له، فالأول مذموم والثاني ممدوح، والرب إنما يفعل من ذلك ما يحمد عليه عدلاً منه وحكمة))(٢).

فإن كان ما ذكر من فرق صحيحًا فإن موقف البائع مع النبي r أقرب إلى معنى الغش من غيره، والله أعلم.

وثمت فرق مهم يتعلق بالجرس الصوتي للفظة الغش؛ فإن المقام مقام إنكار على من يخادع الناس بالباطل، فيحتاج إلى غلظة في الإنكار وشدة في العتاب لعله أن يزدجر ويرجع عن منكره، ومما يظهر ذلك النطق، ولفظة (غشّ) بجرسها الصوتي أدل على ذلك وأقوى من غيرها؛ لأن الغين حرف مجهور، ومفخم، يخرج من أقصى اللسان(٣)، والشين حرف تفشي، يخرج هواءه منتشرًا على دائرة مقدم اللسان، وليس متحيزًا في خط دقيق مستقيم كالسين(٤)، وتضعيف الحرف يعطي مزيدًا من التفشي، فتساعد صفات الحرفين في قوة الإنكار، والدلالة على سوء الفعل.

---

(١) مقاييس اللغة: ٢/١٦١، وينظر: لسان العرب: ٨/٦٣.

(٢) إعلام الموقعين: ٣/٢١٨، وينظر: صفات الله U: ١٢٩.

(٣) ينظر: دراسة الصوت اللغوي: ٣١٨ و٣٢٤ و٣٢٥، والمختصر في أصوات اللغة: ٩١.

(٤) ينظر: دراسة الصوت اللغوي: ٣٢٤، والمختصر في أصوات اللغة: ١٠٤.

أما لفظة (دَلَّس) مثلاً فإن نطقها أقل شأنًا في الإنكار من (غَشَّ) مع أن حرف الدال مجهور شديد[1] إلا أنه يخرج من طرف اللسان بخلاف الغين، ثم إن حرفي اللام والسين اللذين يليانه في النطق يخرجان كذلك من طرف اللسان، وإن كان حرف اللام مجهورًا إلا أنه سلس الخروج[2]، وحرف السين مهموس رخو[3]، فلا يكون لهذه اللفظة في مقام الإنكار ما للفظة (غَشَّ) من القوة والدقة في الدلالة، والله أعلم.

٥- عن عمر بن الخطاب t أن رجلاً توضأ، فترك موضع ظُفُر على قدمه، فأبصره النبي r فقال: «ارْجِعْ، **فَأَحْسِنْ** وُضُوءَكَ» فرجع ثم صلى[4].

- مادة (حسن).

الإحسان ضد الإساءة، وهو فعل الحَسَن، وإتقان الشيء، وإجادة صنعه وإحكامه[5]، قال تعالى: ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ [غافر: ٦٤]، وقال النبي r : «إِنَّ اللهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»[6]، فاختيار مادة (الإحسان) في هذا الحديث كان ملائمًا لحال المخاطب الذي ترك جزءًا يسيرًا من قدمه لم يمسه الماء، فيكون بذلك ممن لم يحسن الفعل ويحكمه.

ويلحظ أن النبي r في هذا الحديث أمر الرجل بـ(الإحسان) في الوضوء، بينما جاء الأمر بـ(الإسباغ) في موقفين آخرين؛ في حديث المسيء صلاته، وفيه: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغْ الْوُضُوءَ» وحديث: «وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِن النَّارِ، أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ».

---

(١) ينظر: دراسة الصوت اللغوي: ٣١٦ و٣٢٤، والمختصر في أصوات اللغة: ١٠٦ و١٢٢.

(٢) ينظر: دراسة الصوت اللغوي: ٣١٧ و٣٢٤، والمختصر في أصوات اللغة: ١٠٦ و١٠٧.

(٣) ينظر: دراسة الصوت اللغوي: ٣١٦ و٣٢٤، والمختصر في أصوات اللغة: ١٠٦ و١٢٥.

(٤) أخرجه مسلم: (٢٤٣).

(٥) ينظر: القاموس المحيط: ٣٠٥/٤، ولسان العرب: ١١٤/١٣، والمعجم الوسيط: ١٧٤/١.

(٦) أخرجه مسلم: (١٩٥٥).

وقد سبق ذكر الحديثين في مبحث الصفات من الفصل الأول، وبينت هناك أن الإسباغ يدل على الكمال والتمام والتوسعة، وأن إسباغ الوضوء: المبالغة فيه وإتمامه[1]، قال الزبيدي (١٢٠٥هـ): ((أسْبَغ الوُضُوءَ إسْبَاغًا: أبلغه مواضعه، ووفّى كل عضو حقه))[2]، وهذا مما يحتاج إلى التأني في الفعل حتى يتمه ويكمله ويعطيه حقه، وهو معنى يلائم المستعجل أو الذي يظن منه الاستعجال في الوضوء، لأنه غالبًا ما يترك من عجلته جزءاً من العضو لم يبلغه الماء، وغالبًا ما يكون آخر العضو، وقد ورد الأمر بالإسباغ في هذا المقام؛ مقام الاستعجال.

أما الأمر بالإحسان في الحديث المذكور فإنه لا يظهر أنه مقام استعجال، فربما لم يتنبه الرجل إلى موضع الظفر فتركه سهوًا منه، أو أنه تنبه إليه فيما بعد وظن أنه يسير لا يحتاج مثله إلى الرجوع لغسله أو إعادة الوضوء، فإن كان كذلك فهذا مقام يلائمه التعبير بالإحسان، والله أعلم.

٦- عن جابر بن عبد الله t أن رسول الله r دخل على أم السّائب، أو أم المسيَّب، فقال: «مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ! -أَوْ: يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ- **تُزَفْزِفِينَ**» قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: «لا تَسُبِّي الْحُمَّى فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ»[3].

- مادة (زفزف).

قوله r: «تُزَفْزِفِينَ» أي: ترتعدين[4]، إلا أن هذا الارتعاد فيه سرعة وخفة واضطراب حركة تصدر صوتًا وأزيزًا، لأن الزفزفة في استعمالات اللغة تتضمن هذه المعاني، ومن استعمالات هذه المادة: الزَّفزفة: حنين الريح وصوتها في الشجر، ويقال للريح إذا اشتد هبوبها: زَفْزَافة، أي لها زَفْزَفَة، وهو صوت حركتها و هبوبها. والزَّفْزفة: تحريك الريح يَبَس

---

(١) ينظر ص (١٢٨، ١٣٠، ١٣٢) من هذا البحث.

(٢) تاج العروس: ٢٢/٥٠٠.

(٣) أخرجه مسلم: (٢٥٧٥).

(٤) ينظر: مشارق الأنوار: ١/٣١٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٣٠٥، ولسان العرب: ٩/١٣٧.

الحشيش. والزَّفزافُ: النَّعام الذي يُزَفْزِف في طيَرانه، أي: يحرك جناحيه إذا عدا وأسرع، يقال: زَفّ الظَّلِيم -وهو ذكر النعام- إذا أسرع، حتى يسمع لجناحه زَفْزفة، أي صوت. ويقال: زَفّ القوم في سيرهم: أسرعوا، قال U: ﴿فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ﴾ [الصافات: ٩٤][(١)].

وفي لفظ الزفزفة جرس صوتي يحاكي حركة المريض وحاله ((ولو نظرنا في مخرج الحرفين (الزاي والفاء) لوجدنا أن الأول يخرج من بين طرف اللسان وفوق الثنايا السفلى، والآخر يخرج من بطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا، فمسار حركة الحرفين تبدأ من الثنايا السفلى وتنتهي بالثنايا العليا.

وهذه الصورة تتفق مع حركة الارتعاد والارتجاف التي يصاب بهما المريض، إذ تتحرك أسنانه أثناء إصابته بالحمى من الأسفل إلى الأعلى، على وجه من التكرار والسرعة))[(٢)].

ويسهم في ذلك أيضًا أن حرف (الزاي) من حروف الصفير، وهذا يتناسب مع الصوت الذي يخرجه المريض عند ارتعاده[(٣)] ((فيخيل إليك جرس الكلمة صوت فكي أم السائب رضي الله عنها وهي ترتعد من شدة الحمى، إذ تصطك أسنانها، فيسمع لها صوت وأزيز))[(٤)].

وأسهم في أداء هذه المعاني في الزفزفة مجيء فعل الزفزفة رباعيًا، على صيغة (فَعْلَل) وهو ثنائي مضاعف ((وهذه الصيغة تفيد التكرار، كما أنها تفيد الحركة والاضطراب. والشيء إذا تكرر أحدث صوتًا، فجاء الفعل على هذه الصورة ليماثل حركة الإنسان المصاب بمرض الحمى))[(٥)].

ولهذا اختار النبي r لفظ الزفزفة على الارتعاد، والله أعلم.

---

(١) ينظر: تهذيب اللغة: ١٣/١٦٩-١٧٠، ومعجم مقاييس اللغة: ٣/٤، وتفسير غريب ما في الصحيحين: ٢٢٣، ولسان العرب: ٩/١٣٦.

(٢) تصوير المعنى بجرس اللفظ: ١١٣.

(٣) المرجع السابق: ١١٣.

(٤) المرجع السابق: ١١٢.

(٥) المرجع السابق: ١١٣.

٧- عن أبي سعيد الخدري t وهو يحدث عن بناء المسجد قال: كنا نحمل لبنة لبنة، وعمار لبنتين لبنتين، فرآه النبي r فينفض التراب عنه، وفي رواية: فمر به النبي r ومسح عن رأسه الغبار، ويقول: «**وَيْحَ** عَمَّارٍ، تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ، يَدْعُوهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ وَيَدْعُونَهُ إِلَى النَّارِ»(١) وفي رواية مسلم: «**وَيْسَ**» أو يقول: «يَا **وَيْسَ** ابْنِ سُمَيَّةَ»(٢).

وعنه t قال: بينما نحن عند رسول الله r وهو يقسم قسمًا أتاه ذو الخُوَيْصِرَة، وهو رجل من بني تَمِيم، فقال: يا رسول الله، اعدل. فقال: «**وَيْلَكَ**، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟. قَدْ خِبْت وَخَسِرْت إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ»...(٣).

- (ويح) و(ويس) و(ويل).

في الحديثين السابقين ثلاث لفظات (ويح) و(ويس) و(ويل).

ويرى بعض أهل اللغة أن لا فرق بينها في الاستعمال(٤)، وأكثرهم يفرقون بينها، على أن (ويل) كلمة عذاب، تستعمل في مقام التقبيح والعذاب أو الهلكة التي يستحقها من وقع فيها، ولا يترحم عليه معها. و(ويح) كلمة رحمة، تقال في مقام الترحم والتوجع والرثاء، وقد يراد منها الزجر مع رفق. و(ويس) تستعمل في مطلق الرحمة والرأفة والاستملاح، ولذا يكثر ذكرها للصبيان(٥). قال الأزهري (٣٧٠هـ): ((قد قال أكثر أهل اللغة: إن (الويل) كلمة تقال لمن وقع في هُلْكَة أو بَلِيَّة لا يُتَرحَّمُ عليه معها، و(وَيْحَ) تقال لمن وقع في بَلِيّة يُرْثى له ويُدْعَى له بالتخلُّص منها، ألا ترى أن (الويل) في القرآن ما جاء إلا لمن استحق العذاب بجرمه، من ذلك قول الله جلّ وعزّ: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقال: ﴿وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ $ الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٤٧ و٢٨١٢).

(٢) أخرجه مسلم: (٢٩١٥).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٦١٠) ، ومسلم: (١٠٦٤). قال النووي في شرح صحيح مسلم: ١٥٩/٧: ((روي بفتح التاء في «خِبْت وَخَسِرْت» وبضمهما فيهما، ومعنى الضم ظاهر، وتقدير الفتح خبتَ أنت أيها التابع إذا كنتُ لا أعدل، لكونك تابعًا ومقتديًا بمن لا يعدل، والفتح أشهر، والله أعلم)).

(٤) ينظر: تهذيب اللغة: ٢٩٤/٥، و١٤٤/١٣، والصحاح: ٤١٧/١.

(٥) ينظر: تهذيب اللغة: ٢٩٤/٥-٢٩٥، و١٤٣/١٣، والفائق في غريب الحديث: ٨٥/٤، ولسان العرب: ٦٣٨/٢ و٢٥٩/٦ و٧٣٨/١١.

[فصلت: ٦-٧]، وقال: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]. فما جاء ويلٌ إلا لأهل الجرائم نعوذ باللهِ من سخط اللهِ، وأما (وَيْحَ) فقد صحّ عن النبي r أنه قالها لعمَّار الفاضل، كأنــه أُعْلِم ما أصابه من القتل، فتوجع له وترحم عليه))(١)، ويُروى عن علي t : ((ويح بــاب رحمة، وويل باب عذاب))(٢)، ويروى عن عائشة أن النبي r قال لها في قصة: «لا تجزعــي من الويح، فإنه كلمة رحمة، ولكن اجزعي من الويل» قال ابن حجر (٨٥٢هـــ): ((أخرجه الخرائطي في مساوىء الأخلاق بسند واه))(٣).

وعلى هذا الفرق جاء الحديثان السابقان، فأما الحديث الأول فاستعملت (ويـــح) أو (ويس) في مقام الرحمة بعمَّار t لما سيصيبه من القتل والبلاء. وأما الحديث الثـــاني فـــإن المخاطب وقع في قول قبيح وخطاب منكر مع النبي r ، وهذه هلكة يستحق معها العـــذاب والإنكار والزجر الشديد، ولذا استعملت (ويل) والله أعلم.

وعلى هذا الفرق جاءت أحاديث كثيرة، فمما جاء في استعمال (ويـــح) حـــديث الأعرابي الذي سأل النبي r عن الهجرة، فقـــال لـــه: «**وَيْحَـــكَ**، إِنَّ الْهِجْـــرَةَ شَـــأْنُهَا شَدِيدٌ...»(٤)، وحديث أم حارثة بن سراقة y ، وكان حارثة قد قتل في غزوة بدر، فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهـــدت عليه في البكاء، فقال لها النبي r : «**وَيْحَكِ**، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»(٥)، وحديث الصحابي الذي زنى فجاء إلى النبي r فقال: يا رسول رسول الله، طهرني. فقال: «**وَيْحَكَ**، ارْجِعْ، فَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ، وَتُبْ إِلَيْهِ» قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني. فقال رسول الله r : «**وَيْحَكَ**، ارْجِعْ، فَاسْـــتَغْفِرْ اللَّهَ، وَتُبْ إِلَيْهِ» قال: فرجع غير بعيد، ثم جاء، فقال: يا رسول الله، طهرني. فقال النبي r مثـــل

---

(١) تهذيب اللغة: ٢٩٥/٥.

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم: ٤٠/١٨.

(٣) فتح الباري: ٥٥٣/١٠.

(٤) أخرجه البخاري: (١٤٥٢ و٣٩٢٣) ، ومسلم: (١٨٦٥).

(٥) أخرجه البخاري: (٢٨٠٩ و٦٥٥٠).

ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله: «فِيمَ أُطَهِّرُكَ؟» فقال: مـــن الـــزنى...[١]، وحديث أَنْجَشَةَ الذي كان يحدو مع رسول الله r في سفر، ومعهم نساء، فقال له رســـول الله r : «**وَيْحَكَ**، يَا أَنْجَشَةُ، رُوَيْدَكَ بِالْقَوَارِيرِ»[٢].

فهذه الأحاديث كلها استعملت فيها (ويح) في مقام الرحمة والرفـــق، والوقـــوع في الهلكة التي يستحق المخاطب معها الرحمة. ولم يرد استعمال (ويس) في الصـــحيحين إلا في رواية حديث عمار t ، والله أعلم.

ومما جاء فيه استعمال (ويل) حديث عبد الله بن سلام t مع اليهود وفيه قول النبي r : «يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، **وَيْلَكُمْ**، اتَّقُوا اللهَ، فَوَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ، فَأَسْلِمُوا» قاله ثلاث مرار[٣]، وفي حديث ابن عباس t قال: كان المشركون يقولون: لبيك لا شريك لك، فيقول رسول الله r : «**وَيْلَكُمْ**، قَـــدْ قَـــدْ» فيقولون: إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، يقولون هذا وهم يطوفون بالبيت[٤]، وحديث الذي اشترى صاع تمر جيد بصاعين من تمر رديء، فقال لـــه رســـول الله r : «**وَيْلَـــكَ**، أَرْبَيْتَ. إِذَا أَرَدْتَ ذَلِكَ فَبِعْ تَمْرَكَ بِسِلْعَةٍ، ثُمَّ اشْتَرِ بِسِلْعَتِكَ أَيَّ تَمْرٍ شِئْتَ»[٥]، وفي حديث القوم الذين استعجلوا في الوضوء، فكانت أعقابهم تلوح لم يمسها الماء، فقال رسول الله r : «**وَيْلٌ** لِلأَعْقَابِ مِن النَّارِ، أَسْبِغُوا الْوُضُوءَ»[٦]، وحديث الرجل الذي كان يســـوق بدنـــة، فقال له النبي r : «ارْكَبْهَا» فقال: إنها بدنة، فقال: «ارْكَبْهَا» قال: إنهـــا بدنـــة، قـــال: «ارْكَبْهَا، **وَيْلَكَ**» في الثالثة أو في الثانية، وفي رواية مســـلم: «**وَيْلَـــكَ** ارْكَبْهَـــا، **وَيْلَـــكَ**

---

(١) أخرجه مسلم: (١٦٩٥) عن بريدة t .

(٢) أخرجه البخاري: (٦١٤٩ و٦١٦١) ، ومسلم: (٢٣٢٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٣٢٩ و٣٩١١).

(٤) أخرجه مسلم: (١١٨٥). قال النووي في شرح صحيح مسلم: ٩٠/٨: ((قوله r : «قد قد» قال القاضي: روي بإسكان الدال، وكسرها مع التنوين)).

(٥) أخرجه البخاري: (٢٢٠١) ، ومسلم: (١٥٩٤).

(٦) أخرجه البخاري: (٦٠ و٩٦) ، ومسلم: (٢٤١).

ارْكَبْهَا»[1]، وفي حديث الأعرابي الذي أتى النبي r ، فقال: يا رسول الله، متى الساعة قائمة؟ قال: «**وَيْلَكَ**، وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟»...[2].

فهذه الأحاديث استعملت فيها (ويل) في مقام الإنكار، وبيان بشاعة الأمر، أو التحذير والترهيب من الوقوع في المنكر، والله أعلم.

وقد جاءت أحاديث روي فيها اللفظتان (ويح) و(ويل) كحديث الذي وقع على امرأته في نهار رمضان، فأتى رسول الله r فقال: يا رسول الله، هلكت. قال: «**وَيْحَكَ**» وفي رواية زيادة: «مَا لَكَ؟!» أو «مَا شَأْنُكَ؟» قال: وقعت على امرأتي وأنا صائم...[3]، وفي رواية معلقة عند البخاري: «**وَيْلَكَ**»[4]. وسلك بعض شراح الحديث مسلك الترجيح بناء على ما يقتضيه المقام، فرجح ابن حجر (٨٥٢هـ) رواية «وَيْحَكَ» لكثرة رواتها، ولكون المقام يقتضيها، قال: ((تابع ابنَ خالد في قوله: «وَيْلَكَ» صالحُ بن أبي الأخضر، وتابع الأوزاعيَّ في قوله: «وَيْحَكَ» عقيلٌ وابنُ إسحاق وحجاجُ بن أرطاة، فهو أرجح، وهو اللائق بالمقام، فإن (ويح) كلمة رحمة، و(ويل) كلمة عذاب، والمقام يقتضي الأول))[5]، ومما يدل على أن المقام يقتضيها ما جاء في رواية مسند أحمد قال أبو هريرة t : بينما نحن عند رسول الله r إذ جاء رجل ينتف شعره، ويدعو ويله...[6]، وهذه الحال الحال في أول الأمر تقتضي الرأفة والرحمة بالمخاطب، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٦٨٩) ، ومسلم: (١٣٢٢) عن أبي هريرة t . وأخرجه البخاري: (١٦٩٠ و٢٧٥٤ و٦١٥٩) ، ومسلم: (١٣٢٣) عن أنس t .

(٢) أخرجه البخاري: (٣٦٨٨ و٦١٦٧ و٧١٥٣) ، ومسلم: (٢٦٣٩ و٢٩٥٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٦١٦٤) ، ومسلم: (١١١١).

(٤) أخرج الرواية البخاري: (٦١٦٤)، والحديث المعلق هو: الذي حذف من مبتدأ إسناده راو أو أكثر، وينظر: علوم علوم الحديث: ٢٠.

(٥) فتح الباري: ٤/١٦٥. وابن خالد والأوزاعي اللذان توبعا هما الراويان عن الزهري، والزهري روى الحديث عن حميد بن عبد الرحمن عن أبي هريرة t .

(٦) أخرج الرواية أحمد في مسنده: ٢/٢٠٨.

المبحث الثاني: اختيار المفردات من حيث صيغتها.

لئن كان الحديث في المبحث الأول عن قدرة البليغ على حسن اختيار المادة التي تحمل الدلالة الملائمة للحال عمومًا وحال المخاطب خصوصًا، فإن هذه القدرة لا تتم إلا حينما يشتق البليغ من تلك المادة الصيغة التي تحمل الدلالة الخاصة الملائمة للحال، فالمادة الواحدة يشترك فيها صيغ كثيرة، اسمية وفعلية، وكل صيغة تؤدي دلالة خاصة بها إضافة إلى الدلالة الأصلية للمادة، فمادة (ع ل م) التي تدل على (العِلْم) نقيض الجهل، يصاغ منها الأفعال (عَلِمَ، يَعْلَم، اعْلَم) وكل فعل من هذه الأفعال له دلالة خاصة به من حيث الزمن، فالأول ماض يدل على حصول الفعل في الزمن الماضي، والثاني مضارع يدل على الزمن الحاضر أو المستقبل، والثالث أمر يدل على طلب حصول الفعل. وقد تأتي من هذه المادة صيغ فعلية أخرى لها دلالات أخرى مع دلالة الزمن، مثل (عَلَّم) و(تَعَلَّم) و(اسْتَعْلَم). ويصاغ من هذه المادة أيضًا أسماء مثل (عَالِم) للدلالة على الفاعل، و(عَلاَّمَة) للمبالغة في وصفه بالفعل، و(أعْلَم) للتفضيل بين فاعلين، و(مَعْلُوم) للدلالة على المفعول، وغيرها من المشتقات والدلالات.

وهذه دلالات تظهر من اللفظة بغض النظر عن نظمها مع غيرها، أما إذا نظمت مع غيرها في سياق ما فإن ثمة دلالات أخرى تظهر لها، قد تستوجب تغييرًا في صيغة اللفظة كالبناء للإفراد والتثنية والجمع، أو للتذكير والتأنيث، أو للتنكير والتعريف، أو لغير ذلك.

وقد تدل بعض الصيغ على دلالتين متقابلتين مثل (فَعِيل) تدل على الفاعل مثل (سليم) بمعنى (سالم) وتدل على المفعول مثل (نضيد) بمعنى (منضود)(١)، بل إن اللفظة الواحدة على وزن (فَعِيل) تأتي للدلالتين، مثل (بديع) تدل على الفاعل (مُبْدِع) وعلى المفعول (مُبْدَع)، و(حفيظ) تدل على (حافظ) و(محفوظ)، قال الزمخشري (٥٣٨هـ) في قول الله U: ﴿وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ [ق: ٤]: ((محفوظ من الشياطين ومن التغير، وهو اللوح المحفوظ. أو حافظ لما أودعه وكتب فيه))(٢).

(١) ينظر: أوضح المسالك: ٣/٢٤٦، و٤/٢٨٨، ومعاني الأبنية في العربية: ٥٣.

(٢) الكشاف: ٤/٣٧١.

وقد تأتي بعض الألفاظ على وزن واحد للمذكر والمؤنث، مثل (صَبُور) تقال للمذكر (رجل صبور) بمعنى (صَابِر)، وللمؤنث (امرأة صبور) بلا تاء تأنيث، بمعنى (صَابِرة)[1].

وللجرس الصوتي أثر في اختيار الصيغة المعبرة عن الدلالة المقصودة، ففرق مثلاً بين (قَطَع) و(قَطَّع)، و(كَسَر) و(كَسَّر) فالتضعيف له أثر في الدلالة على كثرة حصول الفعل[2].

وحال الخطاب هو الذي يقتضي صيغة دون أخرى، كما أنه هو الذي يحدد لنا الدلالة الدقيقة للصيغة، وهنا تظهر بلاغة المتكلم في اختيار المفردة التي هي أدق تعبيرًا وأرعى لمقتضى الحال.

وحينما نأتي للحديث عن الخطاب النبوي في الصحيحين نجد دقة في اختيار الصيغة الملائمة للحال عمومًا، ولحال المخاطب خصوصًا، وهو ما سيكشفه هذا المبحث من خلال تصنيف الشواهد على صيغ المسائل الآتية:

أ- صيغ الأفعال.

ب- صيغ الأسماء المشتقة.

ت- صيغ الجمع.

ث- التنكير والتعريف.

ج- التصغير.

ولم أقصد استقصاء مسائل الصيغة، كما لم أقصد في كل مسألة أن أستقصي صيغها وشواهدها وخصائصها، وإنما أردت أن أذكر بعض الصيغ والشواهد التي تدل على رعاية النبي ﷺ لحال المخاطب في اختيار الصيغ الملائمة له، وأظن أن كل مسألة من هذه المسائل تحتاج إلى بحث مستقل فيها لإدراك مقاماتها وخصائصها في الخطاب النبوي البليغ، ولعل الله ييسر لذلك من الباحثين من يقوم به.

---

(١) ينظر: كتاب سيبويه: ٣/٣٨٥، وأوضح المسالك: ٤/٢٨٧.

(٢) ينظر: أوزان الفعل ومعانيها: ٧٤.

أ- صيغ الأفعال.

يعرف الفعل بأنه: ما دل على معنى في نفسه مقترن بـــزمن. ويُقســـم إلى: مـــاض، ومضارع، وأمر. فأما الفعل الماضي فيدل على حدوث الفعل في الزمن الماضي، وأما المضارع فيدل على حدوث الفعل في الزمن الحاضر أو المستقبل، وأما الأمر ففيه طلب لحدوث الفعل في المستقبل(١).

وتصاغ هذه الأفعال على أوزان كثيرة، على حسب عدد الحروف. والمادة الواحدة قد يصاغ منها أكثر من فعل ماض أو مضارع أو أمر، فمادة (س ل م) يـــأتي منـــها مـــثلاً (سَلِمَ، يَسْلَم، اِسْلَمْ) و(أَسْلَمَ، يُسْلِم، أَسْلِمْ) و(سَلَّمَ، يُسَلِّم، سَلِّمْ) و(اسْتَسْـــلَمَ، يَسْتَسْـــلِم، اسْتَسْلِمْ) وكل صيغة لها دلالة تخصها، مع اشتراك الصيغ في الدلالة العامة للمادة.

والفعل الماضي أو المضارع يبنيان للفاعل، أو ما يسمى بالمعلوم، فيسندان إلى فاعـــل ظاهر أو مقدر. ويبنيان لما لم يسم فاعله، فيسندان إلى المفعول، ولذا يسمى بالمبني للمفعول، ويسمى أيضًا: المبني للمجهول(٢).

وقد تناول البلاغيون بلاغة الصيغة الفعلية في عدة مواضع، منها حديثهم عن إيـــراد المسند فعلاً في أحوال المسند، وعن حذف الفاعل إذا كان الفعل مبنيًا للمجهول في أحـــوال المسند إليه، وعن المخالفة في صيغ الأفعال في خروج الكلام على خلاف مقتضى الظـــاهر، وعن بلاغة الأمر في الإنشاء الطلبي.

وسأشير إلى أبرز ما ذكروه في بلاغة الصيغة الفعلية، مرجئًا الحديث عن المخالفة بين صيغ الأفعال وبلاغة الأمر إلى موضعهما من الفصلين الرابع والخامس.

ومما ذكروه أن الفعل يأتي لتقييد الحدث بأحد الأزمنة الثلاثة (الماضـــي والحاضـــر والمستقبل) عند اقتضاء الغرض بذلك، على أخصر وجه(٣)، قال التفتازاني (٧٩٢هـــ) في بيان وجه الاختصار: ((لأن الفعل دال بصيغته على أحد الأزمنة الثلاثة من غير احتيـــاج إلى

---

(١) ينظر: كتاب سيبويه: ١٢/١، وشرح الكفراوي على الآجرومية: ١٣، والأفعال في القرآن الكـــريم: ٩/١-٤٢، ومعجم المصطلحات النحوية والصرفية: ١٧٤.

(٢) ينظر: كتاب سيبويه: ٢٨٠/٤ و٣٤٢، وأوضح المسالك: ١٥٥/٢، ومعجم المصطلحات النحوية والصرفية: ٥٧.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٠٨، وشروح التلخيص: ٢٥/٢، والتبيان، للطيبي: ١٧٥/١، والطراز: ٥٢٨.

قرينة تدل على ذلك، بخلاف الاسم فإنه يُدل عليه بقرينة خارجية، كقولنا: زيد قائم الآن، أو أمس، أو غدًا))(١).

ولاقتران الفعل بالزمان فإنه يدل على التجدد والحدوث(٢)، قال ابن يعقوب المغربي (١١٢٨هـ): ((يفيد التجدد لأن أصل وضع الفعل الدلالة على ذلك؛ لتضمنه الزمان الموصوف بعدم الاستقرار، والتجدد))(٣)، وقال السبكي (٧٧٣هـ): ((الفعل يدل على التجدد ماضيًا كان أم مضارعًا أم أمرًا، غير أن التجدد الذي يدل عليه الماضي المراد به الحصول، والمضارع يدل على التجدد بمعنى أن من شأنه أن يتكرر، ويقع مرة بعد أخرى))(٤).

قال ابن يعقوب المغربي (١١٢٨هـ): ((التجدد المعتبر في الحدث تجدد مطلق وقوعه، لا التجدد بمعنى الحصول على وجه الاستمرار شيئًا فشيئًا؛ فإنه إنما يدل عليه الفعل بقرينة السياق)) قال: ((وعلى هذا فلقائل أن يقول: فما المانع من اعتبار ذلك في الاسم بالقرينة أيضًا، اللهم إلا أن يجاب بأن أكثر إفادة هذا التجدد ولو بالقرينة في الفعل لمناسبة مقارنة الزمان الذي تحقق فيه ذلك المعنى، فصح تخصيصه بالفعل))(٥).

وإذا قصد تحقق وقوع الحدث في المستقبل صيغ له الفعل ماضيًا؛ لدلالة الماضي على تحقق الوقوع.

ولذا يغلب استعمال الماضي بعد (إذا) الشرطية التي تفيد الجزم بحصول الشرط في المستقبل(٦).

---

(١) مختصر التفتازاني على تلخيص المفتاح: ٢/٢٦ من شروح التلخيص، وينظر في الموضع نفسه بقية الشروح.

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٧٤، نهاية الإيجاز: ١٥٦، ومفتاح العلوم: ٢٠٨ و٢١٨، والتبيان في علم البيان، للزملكاني: ٤٩، وشروح التلخيص: ٢/١٩ و٢٧، والطراز: ١٥٧.

(٣) مواهب الفتاح: ٢/١٩-٢٠.

(٤) عروس الأفراح: ٢/٢٨.

(٥) مواهب الفتاح: ٢/٢٧.

(٦) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٤٠، وشروح التلخيص: ٢/٤٠، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٧٧ و١٨٧، والطراز: ٥٢٨ و٥٣٨.

وأما إذا كان المقام بعدم الجزم بوقوع الشرط، أو ندرة وقوعه فتأتي (إن) للشرط في المستقبل، ولذا فالأصل أن يستعمل معها الفعل المضارع؛ لكن قد يستعمل الماضي إذا جاءت في مقام الجزم بوقوع الشرط، لنكتة ما يقتضيها المقام(١).

وأما إذا كان المقام لإفادة القطع بعدم حصول الشرط والجزاء فتأتي (لو) للشرط في الماضي، ولذا كان الأصل في فعلي الشرط والجزاء أن يكونا ماضيين؛ لكن قد يعدل عن الماضي إلى المضارع لنكتة ما يقتضيها المقام(٢).

ويفيد الفعل المضارع تجدد حصول الفعل وتكرره واستمرار تجدده، إلا إذا أريد به الحال(٣)، كما يفيد أيضًا استحضار الصورة الماضية أو المستقبلة في مشاهدة السامع، كأنه ينظر إلى فاعلها حال وجود الفعل، فيتعجب لها، أو يرغب فيها أو عنها(٤).

ويبنى الفعل للمفعول لأغراض، منها أن يكون الفاعل رفيع القدر عظيم الشأن، والفعل لا ينبغي أن يصدر إلا عن مثله، أو أن يكون الفعل مما يتره عنه الفاعل، أو أن المقصود التعبير عن حدوث الفعل على المفعول بغض النظر عن فاعله، أو غير ذلك من الأغراض(٥).

وبعد هذه الإشارات في بلاغة الصيغة الفعلية أذكر بعض الأمثلة من الخطاب النبوي في الصحيحين مما يدل على دقة اختيار النبي r لصيغة الفعل مراعاة لحال المخاطَب، وسأذكر أولاً ما يتعلق بالفعل الماضي، ثم ما يتعلق بالمضارع، ثم ما يتعلق بالأمر، ولن أشير إلى ما يدل على مجرد الزمان، وأمثلته كثيرة، وإن كان مجيء الفعل الماضي لما حصل في

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٤٠، وشروح التلخيص: ٣٩/٢ و٤٣، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٨٥/١، والطراز: ٥٢٨ و٥٣٨.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٤٦، وشروح التلخيص: ٦٨/٢-٩٠، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٨٨/١، والطراز: ٥٢٨.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٧٨/٢-٩٠، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٧٦/١، والطراز: ٥٢٨، ومواهب الفتاح: ٣١/٢.

(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٨٨/٢، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٧٦/١، والطراز: ٢٦٧.

(٥) ينظر: التبيان في البيان، للطيبي: ١٩٤/١، ومواهب الفتاح: ٢٧٨/١، والبلاغة العالية في علم المعاني: ٦٥-٦٦، وعلم المعاني، لفيود: ١٠٢/١، ومن أساليب التعبير القرآني: ٣١٥.

الماضي، أو المضارع لما حصل في الحاضر أو المستقبل من مراعاة مقتضى الحال، إلا أنه لا يدل على تميز بلاغي، ولكني سأذكر ما كان مجيئه لغرض آخر فوق اعتبار مجرد الزمان.

أ- أما الفعل الماضي فمن أمثلته:

١- في الخطبة التي خطبها في الأنصار بعد أن وجدوا في أنفسهم شيئًا على رسول الله ﷺ حينما أعطى الناس من الغنائم ولم يعطهم، وسبقت بتمامها[١]، قال الرسول ﷺ فيها: «يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلالاً **فَهَدَاكُمْ** اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ **فَأَلَّفَكُمْ** اللهُ بِي، وَعَالَةً **فَأَغْنَاكُمْ** اللهُ بِي؟».

- الأفعال (هَدَى) و(أَلَّف) و(أَغْنى).

والرسول ﷺ هنا أراد أن يعاتبهم على ما صدر منهم تجاهه قبل أن يطيب نفوسهم، فبيَّن فضله عليهم، واختار للتعبير عن ذلك الأفعال الماضية (هَدَاكُمْ، أَلَّفَكُمْ، أَغْنَاكُمْ) تذكيرًا لهم بتحقق هذه الفضائل فيهم، منذ زمن ماض، والله أعلم.

٢- عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول عام الفتح وهو بمكة: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة؛ فإنها يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هُوَ حَرَامٌ» ثم قال رسول الله ﷺ عند ذلك: «**قَاتَلَ** اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»[٢].

- الفعل (قَاتَل).

والمقام الذي يخاطب فيه النبي ﷺ السائل بقوله: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ» مقام تحذير وترهيب من الوقوع فيما نُهي عنه، خاصة أن كثيرًا من المخاطبين حديثو عهد بإسلام بعد فتح مكة، ولذا جاء الخطاب دعاء بصيغة الخبر والفعل (قَاتَلَ) بصيغة الماضي، للدلالة على تحقق حصول المدعو به. وجاء الفعل (قَاتَلَ) على صيغة (فَاعَلَ) التي تدل غالبًا على المفاعلة، والمقصود (قَتَلَ) مبالغة في الترهيب من الفعل؛ أي أن (فَاعَلَ) أتت لغير المفاعلة مثل (سافر،

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٢٣٦) ، ومسلم: (١٥٨١).

(٢) أخرجه البخاري: (٢٢٣٦) ، ومسلم: (١٥٨١).

خادع، عاقب) وغيرها[١]، فيكون استعمال (قَاتَلَ) بمعنى (قَتَلَ) من اختيار اللفظ الزائد مبنى لزيادة في المعنى، وزيادة الألف تعطي بعدًا صوتيًا في تأكيد الترهيب من الفعل. وقد تكون (قَاتَلَ) مستعملة في المفاعلة؛ للدلالة على أنهم بما فعلوه من الحيلة انتصبوا لمحاربة الله ومقاتلته[٢]، وهذا فيه أيضًا مبالغة في الترهيب، والله أعلم.

٣- عن أبي بكرة t قال: سمعت رسول الله r يقول: «إِذَا الْتَقَى الْمُسْلِمَانِ بِسَيْفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ» فقلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟! قال: «إِنَّهُ **كَانَ** حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ» وفي رواية: «إِنَّهُ قَدْ **أَرَادَ** قَتْلَ صَاحِبِهِ»[٣].

- الفعل (كان) و(أراد).

إن كون المقتول في النار أمر يدعو إلى التعجب والتساؤل؛ لأنه هو الذي وقع عليه القتل، فهو في الظاهر مظلوم، ولذا تعجب أبو بكرة t وتساءل، فأجابه النبي r بما يزيل تعجبه، ويبين له أن سبب كون المقتول في النار عزمه على قتل صاحبه لو قدر على ذلك، وعبَّر في خطابه بالفعل الماضي (كَانَ) أو (أَرَادَ) للدلالة على تحقق العزيمة من المقتول، ولذلك استحق العقوبة، و(كان) قد تفيد ملازمة الصفة للموصوف[٤]، ولعل التعبير بصيغة الماضي وغيرها من الأساليب التي عبر بها النبي r لإزالة التعجب والتساؤل من المخاطب، والله أعلم.

ب- وأما الفعل المضارع فمن أمثلته:

١- في خطبة الأنصار التي أشير إليها آنفًا اختار النبي r الأفعال المضارعة لما أراد أن يطيب نفوسهم ويزيل ما فيها من تعلق بالدنيا، قال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ **يَذْهَبَ** النَّاسُ بِالدُّنْيَا **وَتَذْهَبُونَ** بِرَسُولِ اللهِ r **تَحُوزُونَهُ** إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ».

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٦٣/٨، وأوزان الفعل ومعانيها: ٨٤ و٨٦، والأفعال في القرآن الكريم: ٦٣/١، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٤٤٤/٤.

(٢) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ١٧/٦.

(٣) أخرجه البخاري: (٣١ و٦٨٧٥ و٧٠٨٣) ، ومسلم: (٢٨٨٨).

(٤) ينظر: الأفعال في القرآن الكريم: ٤٣/١، و١٢٠٨/٣، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٣٣٣/٨.

- الفعل (يذهب) و(تذهبون) و(تحوزون).

إن اختيار الفعل المضارع (يذهب) في قوله r : «يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا» يصور في هذا السياق مدى حرص الناس على هذه الدنيا التي يلازمونها ويلتصقون بها ويسعون في بقائها لهم، لكن الأنصار في المقابل أفضل حظًّا وأعظم جزاءً، فهم كما قال لهم الرسول r : «تَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ r تَحُوزُونَهُ إِلَى بُيُوتِكُمْ».

وجاء الفعل المضارع (تَذْهَبُونَ) و(تَحُوزُونَ) دالاً على تجدد الفعل واستمراره، ومصورًا حرص الأنصار على رسول الله r ، وكأني بالأنصار y تتراءى أمامهم صورة رسول الله r وهم يحيطون به ويحفظونه ويرعونه ويسيرون به إلى بيوتهم، وكأنه قد اختص بهم دون غيرهم، لما في لفظة (تَحُوزُونَه) من دلالة الضَمّ والملكية[1]، ولعل هذه الصورة تتراءى أمامهم لما في الفعل المضارع من استحضار لصورة الفعل، فيكون التعبير به أبلغ في استشعار عظم الجزاء الذي رجع به الأنصار t ، ولذا قال النبي r : «فَوَاللهِ، لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» وعبر أيضًا بالفعل المضارع (تَنْقَلِبُونَ - يَنْقَلِبُونَ) للدلالات السابقة، والله أعلم.

٢- في تعقيب النبي r على قصة الثبات على الدين التي قصها على خباب بن الأرت t قال: «وَاللهِ، **لَيُتِمَّنَّ** هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى **يَسِيرَ** الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا **يَخَافُ** إِلاّ اللهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ».

- الأفعال (يتم) و(يسير) و(يخاف).

استعمال الأفعال المضارعة (يتم، يسير، لا يخاف) للدلالة على حدوث هذه الأفعال في المستقبل وتجددها واستمرارها، مع ما يفيده الفعل المضارع من استحضار صورة هذه الأفعال، وكأن المخاطب يشاهدها تتراءى أمامه، وهذه الدلالة في هذا المقام تبعث لدى المخاطَب استبشارًا بالنصر، وتفاؤلاً بتفريج الهم والغم، وزوال الضيق والعذاب الذي أصابهم من المشركين[2]، والله أعلم.

(١) ينظر: لسان العرب: ٣٤٢/٥.

(٢) ينظر: بلاغة التراكيب: ٤٣٩-٤٤٠.

٣- عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها أنها قالت: جاءت امـرأة إلى النبي ﷺ فقالت: إحدانا يصيب ثوبها من دم الحيضة، كيف تصنع به؟ فقال: «**تَحُتُّهُ**، ثُمَّ **تَقْرُصُهُ** بِالْمَاءِ، ثُمَّ **تَنْضِحُهُ**، ثُمَّ **تُصَلِّي** فِيهِ» وفي رواية للبخاري: «إِذَا أَصَابَ ثَوْبَ إِحْدَاكُنَّ الدَّمُ مِنْ الْحَيْضَةِ **فَلْتَقْرُصْهُ**، ثُمَّ **لِتَنْضِحْهُ** بِمَاءٍ، ثُمَّ **لِتُصَلِّي** فِيهِ»[١].

- الأفعال (تحت) و(تقرص) و(تنضح).

واختيار صيغة المضارع في الأفعال (تحت، تقرص، تنضح) لإشعار المخاطبة بأهمية الحرص على إزالة الدم النجس؛ لدلالة المضارع على الاستمرار في تجدد الفعل حتى يحصل الإنقاء، وأكد هذه الدلالة مجيء الحرف (ثُمَّ) الدال على العطف بمهلة، ومجيء لام الأمر في الرواية الثانية.

وقد يكون النبي ﷺ فهم من سؤال المرأة طلب التخفيف في شأن الدم الذي يكثر إصابته لثياب النساء، وربما لا يجدن ثيابًا بدلاً عنها، فأراد أن يؤكد الحرص على إزالته والتحرز منه.

- الفعل (تصلي).

ولعل اختيار المضارع في الفعل (تصلي) الدال على التجدد واستمراره، لتأكيد طهارة الثوب وصحة الصلاة فيه، وإزالة أي شك في ذلك، ويؤكد هذه الدلالة مجيء لام الأمر في الرواية الثانية، وتقييده بالجار والمجرور (فيه) أي في هذا الثوب الذي أصابه الدم ثم حصل له الإنقاء، والله أعلم.

٤- في رسالة النبي ﷺ إلى هرقل عظيم الروم، وقد سبق ذكرها[٢] قال النبي ﷺ له: «أَسْلِمْ **تَسْلَمْ**، وَأَسْلِمْ **يُؤْتِكَ** اللهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ».

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٢٧ و٣٠٧) ، ومسلم: (٢٩١). قال النووي في شرح صحيح مسلم: ١٩٩/٣: ((ومعنى «تَحُتّه» تقشره وتحكه وتنحته، ومعنى «تَقْرُصه» تقطعه بأطراف الأصابع مع الماء ليتحلل، وروي «تَقْرُصه» بفتح التاء وإسكان القاف وضم الراء، وروي بضم التاء وفتح القاف وكسر الراء المشددة، قال القاضي عياض: رويناه بهما جميعًا، ومعنى «تَنْضِحه» تغسله، وهو بكسر الضاد، كذا قاله الجوهري وغيره)).

(٢) ينظر ص (٥٩، ٨٦) من هذا البحث.

- الفعل (تسلم) و(يؤتك).

وذكرت سابقًا أن المخاطب لما كان ملكًا عظيمًا عند قومه أراد النبي r أن يشعره بالطمأنينة على ملكه، لأن المقصود من دعوته الدخول في الإسلام، لا منازعة الملك، وهـذا مقام ترغيب للمخاطب في الإسلام والاستجابة للدعوة، لذا جاءت ألفاظ الخطاب ملائمـة لهذا المقام، ومنها قوله r في بيان جزاء الدخول في الإسلام: «تَسْلَمْ» و«يُؤْتِـكَ» حيـث استعمل النبي r صيغة الفعل المضارع؛ للدلالة على استمرار حصول السلامة وإتيان الأجر مادام الفعل المترتب عليه الجزاء حاصلاً، واستمرار السلامة إشعار ببقاء الملك، وسبق قـول ابن حجر (٨٥٢هـ): ((لكن لو تفطن هرقل لقوله r في الكتاب الذي أرسل إليه: «أَسْلِمْ تَسْلَمْ» وحمل الجزاء على عمومه في الدنيا والآخرة لسلم لو أسلم من كل ما يخافه، ولكـن التوفيق بيد الله تعالى))(١).

ومثل هذه الصيغة قول النبي r لليهود: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْـلِمُوا **تَسْـلَمُوا**» في حديث أبي هريرة t قال: بينا نحن في المسجد خرج رسول الله r ، فقال: «انْطَلِقُوا إِلَـى يَهُودَ» فخرجنا معه حتى جئنا بيت المِدْراس، فقام النبي r فناداهم، فقال: «يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، أَسْلِمُوا **تَسْلَمُوا**» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله r : «ذَلِـكَ أُرِيـدُ، أَسْلِمُوا **تَسْلَمُوا**» فقالوا: قد بلغت يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله r : «ذَلِكَ أُرِيـدُ» ثم قالها الثالثة، فقال: «اعْلَمُوا أَنَّمَا الأَرْضُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ، وَأَنِّي أُرِيدُ أَنْ أُجْلِيَكُمْ مِنْ هَذِهِ الأَرْضِ، فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ، وَإِلا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا الأَرْضُ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ»(٢).

إن المخاطبين هنا هم اليهود، وهم قوم قد عرفوا بالحرص على الدنيا، وجمع الأموال، وقد بلغوا في ذلك ما لم يبلغه غيرهم، حتى تحايلوا على أمر الله U لأجل الدنيا، ومن ذلك تحايلهم على نهي الله لهم عن اصطياد الحيتان يوم السبت، فوضعوا قبل يوم السبت الحبائـل والحيل التي بها يصطادون، ولا يأخذونها إلا يوم الأحد، فقال الله عنهم: ﴿وَاسْـأَلْهُمْ عَـنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُـرَّعًا

(١) فتح الباري: ١/٣٧.

(٢) أخرجه البخاري: (٣١٦٧ و٧٣٤٨) ، ومسلم: (١٧٦٥).

وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ الآيات إلى قوله: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [الأعراف: ١٦٣-١٦٦][(١)]، وفي الحديث الذي سلف قريبًا: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ»، وقد قال الله U عنهم: ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ الآية [البقرة: ٩٦].

والنبي r يدرك هذه الحقيقة في اليهود، وورد عن النبي r أنه قال: «لا تَرْتَكِبُوا مَا ارْتَكَبَت اليَهُوْدُ، فَتَسْتَحِلُّوا مَحَارِمَ اللهِ بِأَدْنَى الْحِيَلِ»[(٢)].

ولذا خاطب النبي r في هذا الحديث اليهود بما يلائمهم ويناسب حالهم، فرغبهم في الإسلام بسلامتهم وسلامة أرضهم وأموالهم فقال: «أَسْلِمُوا تَسْلَمُوا» بصيغة الفعل المضارع التي تدل على استمرار تجدد السلامة لهم، وهذا يشعرهم بالطمأنينة على أرضهم وأموالهم[(٣)]. وكرر النبي r مقولته لما رأى أنهم لم يذعنوا لطاعته، تأكيدًا لهم، وإعذارًا لما سيفعله بهم من الإجلاء، والله أعلم.

- الفعل (يجد).

ومن مراعاة النبي r للطبيعة اليهودية في الحرص على الدنيا قوله: «فَمَنْ وَجَدَ مِنْكُمْ بِمَالِهِ شَيْئًا فَلْيَبِعْهُ» لأنهم يشق عليهم فراق أموالهم التي يعسر عليهم تحويلها[(٤)]، ولذا عبر بالفعل (وَجَدَ) وقد يراد به وَجْد المحبة، وجاء الفعل بصيغة الماضي للدلالة على تأصل هذا الأمر في نفوسهم، وروي الحديث: «فَمَنْ **يَجِدْ** مِنْكُمْ...» بصيغة الفعل المضارع، فإن كانت هذه الرواية هي المحفوظة فالفعل المضارع دال على تجدد الوَجْد في الحاضر، أي من يحصل له وَجْد بعد العزم على الإجلاء فله فسحة في أن يبيع ما يشاء من ماله. والباء في قوله: «بِمَالِهِ» للسببية[(٥)]، أي: حصل له لأجل ماله محبة، واحتمل ابن حجر أن يراد بالفعل

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم: ١/٢٨٨ و٣/٤٩٣.

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره: ٣/٤٩٣، وجود إسناده.

(٣) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٨/٨٠.

(٤) ينظر: فتح الباري: ٦/٢٧١.

(٥) ينظر في معنى السببية في (الباء): الجنى الداني: ١٠٣، ومغني اللبيب: ١٣٩.

(وَجَدَ) الوِجْدان، أي: يجد مشتريًا لماله مقابل شيء يأخذه معه، فتكون الباء في قوله: «بِمَالِهِ» للبدلية[١]، أو تكون بمعنى (مِنْ)[٢] أي: وجد من ماله شيئًا مما لا يتيسر نقله فله أن يبيعه، أو بمعنى (في)[٣] أي: وجد في ماله[٤]. فإن صح هذا الاحتمال فإن استعمال الماضي لإشعارهم بتحقق ما يريدون من البيع وتحصيل الثمن، دون منع لهم. وإن كانت الرواية بالمضارع فيراد به من الدلالة ما قيل في المعنى الأول، والله أعلم.

ولعل مما يدل على مراعاة الطبيعة اليهودية في هذا الحديث اختيار حرف الجر (الباء) الذي يلازمه معنى الإلصاق، ولو تعددت معانيه[٥]، للتعبير عن شدة رغبتهم في أموالهم وحرصهم على عدم مفارقتها، والله أعلم.

ت- وأما فعل الأمر فمن أمثلته:

١- في حديث ابن عباس t لما وضع للنبي r وضوءه، وعلم النبي r به دعا له فقال: «اللَّهُمَّ **فَقِّهْهُ** فِي الدِّينِ»[٦] وفي رواية قال ابن عباس: ضمني رسول الله r وقال: «اللَّهُمَّ **عَلِّمْهُ** الْكِتَابَ»[٧].

- الفعل (فَقِّه) و(عَلِّم).

إن المقام هنا مقام مكافأة على حسن الصنيع من هذا الغلام الذي كان حريصًا منذ صغره على التعلم والتفقه، فكان أن ضمه النبي r مراعاة لصغر سنه ليعبر له عن شكره وموافقته على حسن عمله، ودعا له بالتعليم والتفقيه مراعاة لحرصه على ذلك.

---

(١) ينظر في معنى البدلية في (الباء): الجنى الداني: ١٠٤، ومغني اللبيب: ١٤١.

(٢) ينظر في معنى (من) في (الباء): الجنى الداني: ١٠٦، ومغني اللبيب: ١٤٢.

(٣) ينظر في معنى (في) في (الباء): الجنى الداني: ١٠٤، ومغني اللبيب: ١٤١.

(٤) فتح الباري: ٣١٨/١٢، وينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٨٠/٨، ومرقاة المفاتيح: ٥٨٢/٧، وعون المعبود: ١٦٣/٨.

(٥) ينظر في معنى الإلصاق في (الباء): الجنى الداني: ١٠٢، ومغني اللبيب: ١٣٧.

(٦) أخرجه البخاري: (١٤٣) ، ومسلم: (٢٤٧٧).

(٧) أخرجه البخاري: (٧٥ و٣٧٥٦).

وأوثر التعبير بفعل الأمر (فَقِّه) و(عَلِّم) المضعف العين، للدلالة على التكثير والتضعيف للمدعو به، لأن الفعل الرباعي المضعف العين على وزن (فَعَّل) يدل على ذلك إذا كان منقولاً من الثلاثي(١)، وفي هذا مزيد مكافأة للمخاطب، والله أعلم.

٢- عن عبد الله بن عمرو t قال: رجعنا مع رسول الله r من مكة إلى المدينة، حتى إذا كنا بماء بالطريق تعجل قوم عند العصر، فتوضؤوا وهم عجال، فانتهينا إليهم وأعقابهم تلوح لم يمسها الماء، فقال رسول الله r: «وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ، **أَسْبِغُوا** الْوُضُوءَ»(٢).

- الفعل (أسبغ).

حال المخاطب هنا الاستعجال في الوضوء استعجالاً يخل بتمامه وكماله، ولذا كان المقام هنا مقام أمر بإسباغ الوضوء، كما سبق بيانه(٣)، والله أعلم.

وسيأتي مزيد حديث عن الأمر وصيغه في الفصل الرابع بإذن الله U.

(١) ينظر: المثل السائر: ٢/٢٨٤، وأوزان الفعل ومعانيها: ٧٤، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٤/٢٧٣.
(٢) أخرجه البخاري: (٦٠ و٩٦) ، ومسلم: (٢٤١) وهذا لفظه.
(٣) ينظر ص (١٣٢) من هذا البحث.

ب- صيغ الأسماء المشتقة.

يعرف الاسم بأنه ما دل على معنى في نفسه غير مقترن بزمن(١)، ولذا فإن الاسم لا يفيد التجدد في أصل الوضع كما يفيده الفعل، لعدم اقترانه بالزمان، وإنما يفيد الاسم في أصل الوضع مطلق الثبوت والاستقرار ((والمراد بالثبوت: حصول المسند للمسند إليه من غير دلالة على تقييده بالزمان))(٢)، ويفيد الاسم كذلك الدوام بحسب القرائن والسياق(٣). قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): ((موضوع الاسم على أن يثبت به المعنى للشيء من غير أن يقتضي تجدده شيئًا بعد شيء. وأما الفعل فموضوعه على أنه يقتضي تجدد المعنى المثبت به شيئًا بعد شيء. فإذا قلت: زيد منطلق، فقد أثبت الانطلاق فعلاً له من غير أن تجعله يتجدد، ويحدث منه شيئًا فشيئًا. بل يكون المعنى فيه كالمعنى في قولك: زيد طويل، وعمرو قصير. فكما لا تقصد هاهنا إلى أن تجعل الطول أو القصر يتجدد ويحدث، بل توجبهما وتثبتهما فقط، وتقضي بوجودهما على الإطلاق، كذلك لا تتعرض في قولك: زيد منطلق. لأكثر من إثباته لزيد))(٤).

وقد تستعمل الصيغة الاسمية فيما لم يحدث بعد، للدلالة على أنه بمنزلة الحاصل المستقر الثابت، كما في قوله U: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ الآية [البقرة: ٣٠]، وقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ﴾ الآية [الأنعام: ١٣٤]، وقوله: ﴿وَلا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود: ٣٧](٥).

والأسماء المشتقة أنواع عديدة، يندرج فيها المصدر، وأسماء الفاعل، والمبالغة، والصفة المشبهة، والمفعول، والتفضيل، وغيرها، ولكل نوع صيغ عديدة لها دلالات متنوعة.

---

(١) ينظر: شرح الكفراوي على الآجرومية: ١٣.

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر السعد: ١٩/٢.

(٣) ينظر في دلالة الصيغة الاسمية: دلائل الإعجاز: ١٧٤، ونهاية الإيجاز: ١٥٦، ومفتاح العلوم: ٢١٨، والتبيان في علم البيان، للزملكاني: ٤٩، وشروح التلخيص: ١٩/٢ و٢٩، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٧٥/١، ومعاني الأبنية في العربية: ٩.

(٤) دلائل الإعجاز: ١٧٤.

(٥) ينظر: التعبير القرآني: ٢٢.

وقد ورد في أحاديث الصحيحين كثير من صيغ الأسماء، ووردت بناء على ما يتطلبه المقام، سواء في اختيار الاسمية، أو في نوع صيغتها ودلالتها، ولست أقصد الإحصاء والاستقصاء كما قلت سابقًا، وإنما سأذكر أمثلة مما اختاره النبي r من هذه الصيغ لإبراز مراعاته r لمقتضى حال المخاطب في اختيار المفردات، ومن ذلك:

١- عن أنس بن مالك t قال: كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء، وكانت مستقبلة المسجد، وكان رسول الله r يدخلها ويشرب من ماء فيها طيِّب، فلما أنزلت هذه الآية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢] قام أبو طلحة إلى رسول الله r فقال: يا رسول الله، إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ وإن أحب أموالي إلي بيرحاء، وإنها صدقة لله، أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله. فقال رسول الله r: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ **رَابِحٌ**، ذَلِكَ مَالٌ **رَابِحٌ**. وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الأَقْرَبِينَ»(١)، وفي رواية: «رَايِح»(٢)، وفي أخرى: «رَائِح»(٣).

إن النفس البشرية شديدة الحب للمال، تحرص عليه، وتبخل به، كما قال الله U: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨] قال ابن كثير (٧٧٤ هـ): ((أي: وإنه لحب الخير -وهو: المال- لشديد. وفيه مذهبان: أحدهما: أن المعنى: وإنه لشديد المحبة للمال. والثاني: وإنه لحريص بخيل؛ من محبة المال. وكلاهما صحيح))(٤).

وما فعله أبو طلحة t من تصدقه بأحب أمواله إليه معروف عظيم، يستوجب الثناء والشكر، ولذا قال له النبي r: «بَخٍ» وهي كلمة تقال عند تفخيم الأمر وتعظيمه وتمدحه وتفضيله والإعجاب والرضا به(٥).

---

(١) أخرجه البخاري: (١٤٦١)، ومسلم: (٩٩٨). و(بيرحاء) ضبطت بفتح الباء الموحدة والراء، وبضم الراء، مع المد فيهما، وبكسر الباء الموحدة وفتح الراء، وبضم الراء، مع المد فيهما، وبفتح الباء والراء مع القصر، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١١٤، وفتح الباري: ٣/٣٢٦ و٥/٣٩٧.

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٢٣١٨).

(٣) أخرج الرواية البخاري: (٤٥٥٥).

(٤) تفسير القرآن العظيم: ٨/٤٦٧.

(٥) ينظر: لسان العرب: ٣/٦.

ثم قال له: «ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ» ومعنى رابح أي: ذو ربح، وقيل: مربوح فيه، من (فَاعِل) بمعنى (مَفْعول)[1].

وعلى أي التوجيهين فإن اختيار لفظة (رَابِح) بالصيغة الاسمية لإشعار المخاطب المتصدق بثبوت الأجر ودوامه، و(رابح) على وزن (فَاعِل) وفعلها لازم، فهي في هذا السياق أقرب أن تكون صفة مشتقة، لتعطي مزيدًا من الدلالة على ثبوت الربح ودوامه في الحال، لأن الصفة المشتقة تبنى من الفعل اللازم لتدل على لزوم الصفة لصاحبها في الحال[2]، وهذا من الجزاء العظيم لأبي طلحة t مقابل معروفه العظيم، والله أعلم.

٢- في حديث أبي موسى الأشعري t السابق حينما كانوا يرفعون أصواتهم بالتكبير والتهليل في السفر إذا صعدوا أو هبطوا قال لهم النبي r: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا، إِنَّهُ مَعَكُمْ، إِنَّهُ **سَمِيعٌ قَرِيبٌ**»[3].

وقد سبق أن ذكرت أن النبي r اختار صفتي (السَّمْع) و(القُرْب) لكون المخاطبين يظهرون بجهرهم بُعْد المدعو وعدم سماعه لهم لو أسروا، فبين النبي r في تعليل الأمر أن الله U الذي يدعونه يتصف بهاتين الصفتين اللتين تقتضيان من الداعي أن لا يجهر بدعائه.

وأذكر هنا أن النبي r اختار الصيغة الاسمية في بناء هاتين الصفتين فقال: «إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ».

ويمكن أن يختار النبي r الصيغة الفعلية فيقول مثلاً: إنه يسمعكم، ويقرب منكم. لكن هذه الصيغة لا تلائم مقتضى حال المخاطب، لأنه حينما يجهر بالصوت كأنه لا يستيقن سماع المدعو، فهو بحاجة إلى خطاب يزيل ما يُظن عنده من الوهم، فيكون الاسم الدال على الثبوت والاستقرار والدوام أقوى في الدلالة من الفعل الذي يفيد الحدوث والتجدد، وقد لا يفيد اختيار الفعل في هذا المقام دلالة دوام الصفتين، حتى لو كان التعبير بالفعل المضارع الذي يفيد الاستمرار؛ لأن المضارع يفيد تجدد الاستمرار، أي أنه يحصل مرة بعد مرة، لا دوام الفعل بلا انقطاع الذي يفيده الاسم، ولذا جاء التعبير بالاسم على صيغة (فَعِيل)

---

(١) ينظر: فتح الباري: ٣/٣٢٦.

(٢) ينظر: معاني الأبنية في العربية: ٦٥-٦٨، وتصريف الأفعال والأسماء: ٣٨٥، وتصريف الأسماء:٩٦.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٩٩٢ و٦٦١٠) ، ومسلم: (٢٧٠٤).

للمبالغة، وهذه الصيغة لها دلالة خاصة تنفرد بها عن سائر أخواتها من صيغ المبالغة، وهي أنها يوصف بها من صار له الفعل كالطبيعة(١)، والله أعلم.

٣- عن أبي قتادة t قال: بينما نحن نصلي مع النبي r إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال: «فَلا تَفْعَلُوا. إِذَا أَتَيْتُمْ الصَّلاةَ فَعَلَيْكُمْ **بِالسَّكِينَةِ**، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»(٢).

إن المخاطب من حرصه على إدراك الصلاة يسرع إليها حتى لا يفوته شيء منها، وقد أخبر النبي r أن العبد في صلاة منذ أن يخرج إليها، فعليه أن يخرج إليها بسكينة ووقار، كما في الحديث الذي رواه أبو هريرة t أن النبي r قال: «إِذَا ثُوِّبَ لِلصَّلاةِ فَلا تَأْتُوهَا وَأَنْتُمْ تَسْعَوْنَ، وَأْتُوهَا وَعَلَيْكُمْ السَّكِينَةُ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا، فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا كَانَ يَعْمِدُ إِلَى الصَّلاةِ فَهُوَ فِي صَلاةٍ»(٣).

فأراد النبي r من هؤلاء الذين يسرعون إليها أن يلازموا السكينة، وعبَّر بما يؤكد ما أراد، ومن ذلك التعبير عن السكينة بالصيغة الاسمية، للدلالة على ملازمة الذي يتجه إلى الصلاة للسكينة وعدم تخلفها عنه، والله أعلم.

٤- عن عائشة قالت: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرهم، أمرهم من الأعمال بما يطيقون، قالوا: إنا لسنا كهيئتك يا رسول الله، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه، ثم يقول: «إِنَّ **أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ** بِاللَّهِ أَنَا»(٤). وعنها رضي الله عنها أن رسول الله r صنع أمرًا تَرَخَّص فيه، فبلغ ذلك ناسًا من أصحابه، فكأنهم كرهوه، وتنزهوا عنه، فبلغه ذلك، فغضب حتى بان الغضب في وجهه، وقام خطيبًا فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ، إِنِّي **أَعْلَمُهُمْ** بِاللَّهِ، **وَأَشَدُّهُمْ** لَهُ خَشْيَةً»(٥)، وفي حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة

(١) ينظر: همع الهوامع: ٥٩/٣، والوصف المشتق في القرآن الكريم: ٢٧٧.
(٢) أخرجه البخاري: (٦٣٥) ، ومسلم: (٦٠٣).
(٣) أخرجه البخاري: (٦٣٦) ، ومسلم: (٦٠٢).
(٤) أخرجه البخاري: (٢٠).
(٥) أخرجه البخاري: (٦١٠١ و٧٣٠١) ، ومسلم: (٢٣٥٦).

النبي r فتقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي t ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تـــأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا. وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر. وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله r إليهم فقال: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْــتُمْ كَــذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ، إِنِّي **لأَخْشَاكُمْ** لِلَّهِ، **وَأَتْقَاكُمْ** لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِــرُ، وَأُصَــلِّي وَأَرْقُــدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»[(١)].

إن المخاطبين في هذه الأحاديث يظنون أن النبي r ما دام مغفور الــذنب فلــه أن يسلك مسلك الترخص، ولا حاجة له أن يستزيد في العبادة، ويبالغ فيها، أما هم فإن عليهم أن يبالغوا ويشددوا على أنفسهم رغبة في ثواب الله ورهبة من عقابه.

وفي هذا الظن انحراف عن منهج الإسلام الذي جاء بما يلائم الطبيعة البشرية الــتي خلقها الله U، وهو الذي أمرهم بهذا الدين واتباع رسوله r .

كما أن فيه ما يوهم سوء الظن بالرسول r ، لكونه قليـــل العبـــادة في نظـــرهم، ويترخص فيما ما أحل الله، فكأنه يكسل عن القيام بعبودية الله U ما دام مغفور الذنب.

فلما كان حالهم كذلك، وكان من أهم البواعث إلى عبوديـــة الله U العلـــم بـــه سبحانه، وخشيته وتقواه، أراد النبي r أن يبيّن لهم أن هذه البواعث متحققة فيه أعظم من تحققها فيهم مع كونهم يتشددون في عبوديتهم، وهو على حال من الاعتدال في عبوديتـــه، وإن تقالوها، لكنها على ما يحب الله ويرضاه، ولذلك اختار في صياغة هذه البواعث الــتي يتصف بها صيغة التفضيل «أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ» «أَعْلَمُهُمْ بِاللَّـــهِ، وَأَشَـــدُّهُمْ لَـــهُ خَشْـــيَةً» «أخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ» مع ما في صيغة التفضيل هنا من تزكية النفس، إلا أن المقـــام يقتضيها لا تعاظمًا ومباهاة، ولكن ردًا على سوء الفهم لحقيقة الدين وسوء الظن برســـول رب العالمين، قال ابن حجر (٨٥٢هــ) في شرح الحديث الثالث: ((قوله: «لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ» فيه إشارة إلى رَدِّ ما بنوا عليه أمرهم، من أن المغفور له لا يحتاج إلى مزيـــد في العبادة، بخلاف غيره، فأعلمهم أنه مع كونه [لا] يبالغ[(٢)] في التشديد في العبادة أخشـــى لله

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٠٦٣) ، ومسلم: (١٤٠١).

(٢) في النسخة التي رجعت إليها من فتح الباري: يبالغ من دون (لا) ولعل الصواب ما أثبته.

وأتقى من الذين يشددون، وإنما كان كذلك لأن المشدد لا يأمن من الملل، بخلاف المقتصد فإنه أمكن لاستمراره، وخير العمل ما داوم عليه صاحبه))[1].

واختيار النبي r للصيغة الاسمية في صياغة الصفات دون الصيغة الفعلية للدلالة على تحقق هذه الصفات فيه على سبيل الثبوت والدوام، ويدل على ذلك بصورة واضحة الحديث الأخير في قوله r: «إِنِّي لأخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ» حيث عبر عن أفعال الصوم والفطر والصلاة والرقود والزواج بصيغة الفعل المضارع، لكونها أفعال تتجدد، غير متصف بها النبي r على وجه الثبوت والدوام، بخلاف الخشية والتقوى، فقد أراد النبي r أن يبين اتصافه بهما على وجه الثبوت والدوام في كل أحواله، فعبر عنهما بالصيغة الاسمية، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في شرح الحديث الثاني: ((أعلمهم النبي r أنه وإن كان غفر الله له، لكنه مع ذلك أخشى الناس لله وأتقاهم، فمهما فعله r من عزيمة ورخصة فهو فيه في غاية التقوى والخشية، لم يحمله التفضل بالمغفرة على ترك الجد في العمل قيامًا بالشكر. ومهما ترخص فيه فإنما هو للإعانة على العزيمة ليعملها بنشاط))[2]، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري: ٩/١٠٥، وينظر: ١/٧١.

(٢) فتح الباري: ١٣/٢٧٩، وينظر: ٩/١٠٥.

ت- صيغ الجمع.

للجمع ثلاثة أنواع:

١- جمع المذكر السالم، وهو ما دل على أكثر من اثنين بزيادة واو ونون أو ياء ونون حسب الموقع الإعرابي للجمع، وسلم فيه المفرد، نحو: فاز المحمدون، وأكرم بالصالحين.

٢- جمع المؤنث السالم، وهو ما دل على أكثر من اثنتين بزيادة ألف وتاء، وسلم فيه المفرد، نحو: فازت الهندات، وأكرم بالصالحات.

٣- جمع التكسير، وهو ما دل على أكثر من اثنين بتغيير في المفرد، نحو: رجال جمع رجل. وينقسم إلى جمع قلة، وجمع كثرة. أما جمع القلة فللدلالة على الثلاثة إلى العشرة، وله أربعة أوزان (أَفْعِلَة، أَفْعُل، فِعْلَة، أَفْعَال) وأما الكثرة فلما فوق العشرة، وما سوى أوزان القلة هي أوزان جمع الكثرة وهي كثيرة(١).

وقد وردت أنواع الجموع في أحاديث الصحيحين، ولن أقف عند مجرد اختيار نوع من أنواع الجمع إذا كان المقام يقتضيه، ولكن سأذكر ما يشترك فيه أكثر من جمع، إلا أن النبي r يختار واحدًا منها رعاية لحال المخاطب، وهذا الذي يبرز فيه براعة البليغ في دقة الاختيار، ومن أمثلة ذلك:

١- حديث أم حارثة بن سراقة y، وكان حارثة قد قتل في غزوة بدر، فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء. وفي رواية قالت: يا رسول الله، قد عرفت منزلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع. فقال النبي r مناديًا لها بصفة الأمومة: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ، إِنَّهَا **جِنَانٌ** فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى» وفي رواية: «وَيْحَكِ، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، إِنَّهَا **جِنَانٌ** كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ»(٢).

---

(١) ينظر في الجموع: أوضح المسالك: ١/٥١ و٦٨، وتصريف الأسماء: ١٩٢-٢٠٦، ومعاني الأبنية في العربية: ١١٣.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٨٠٩ و٦٥٥٠).

وقد سبق ذكر هذا الحديث، وبينت أن النبي r لما رأى ما بها من عظم المصاب بولدها لعظم مترلته عندها، لم يكتف بجواب سؤالها عن مآله في الآخرة أن يخبرها بأنه في الجنة، بل أكد لها ذلك وعَظَّم، ومن ذلك جمع الجنة جمع تكسير (جِنَان) لا جمع مؤنث سالم (جَنَّات) لأن جمع التكسير على وزن (فِعَال) من جموع الكثرة[1]، بخلاف جمع المؤنث السالم فإن الظاهر أنه لمطلق الجمع، فيأتي للكثرة وللقلة بحسب السياق، كما ذهب إلى ذلك ابن الأنباري (٣٢٨هـ)، وابن خروف (بعد ٦٠٣هـ)، والرضي الإستراباذي (٦٨٦هـ)، والفيومي (نحو ٧٧٠هـ)، والصبان (١٢٠٦هـ)[2]، وذهب سيبويه (١٨٠هـ) وغيره إلى أنه للقلة وقد يجيء للكثرة[3]، وفي المسألة آراء أخر[4]. ويحضرني هنا نقد النابغة الذبياني لحسان بن ثابت t في القصة المشهورة حين أنشده قوله:

لَنَا الجَفَنَاتُ الغُرُّ يَلْمَعْنَ في الضُّحَى وأسيافُنا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدةٍ دَمَا

قال النابغة: إنك قلت: الجَفَنَات، فقللت العدد، ولو قلت: الجِفَان، لكان أكثر[5]، وفي صحة هذه القصة نظر عند بعض أهل العلم[6].

فمقام النبي r مع أم حارثة مقام تعظيم وتكثير فحسن الإتيان بالصيغة التي تدل على التكثير، والله أعلم.

٢- في خطبة الأنصار، وقد سبقت، قال النبي r لهم: «يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ **ضُلالاً** فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللهُ بِي، **وَعَالَةً** فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟».

---

(١) ينظر: الكتاب: ٣/٥٦٧، وأوضح المسالك: ٤/٣١٥.

(٢) ينظر: أسرار العربية: ٣١٠، وشرح الرضي على الكافية: ٤/٣٧٠، والمصباح المنير: ٥٧٣، وحاشية الصبان على شرح الأشموني: ٤/٨٨، والنحو الوافي: ٤/٦٣١.

(٣) ينظر: الكتاب: ٣/٥٧٨، وشرح الأشموني: ٤/٨٨، وشرح الرضي على الكافية: ٤/٣٧٠، والمصباح المنير: ٥٧٣، والنحو الوافي: ٤/٦٣١.

(٤) ينظر: شرح الرضي على الكافية: ٤/٣٧٠، وشرح الأشموني مع حاشية الصبان: ٤/٨٨-٨٩، وتصريف الأسماء: ٢٠٦، ومعاني الأبنية في العربية: ١١٨ و١٢٦، والخلاف التصريفي: ٢٤٦-٢٤٨.

(٥) البيت في ديوان حسان t : ٢٢١، والقصة في: الأغاني: ٩/٣٨٤، ونقد الشعر: ٩٢، ونضرة الإغريض: ٢٢٨.

(٦) ينظر: أسرار العربية: ٣١٠، وشرح الرضي على الكافية: ٤/٣٧٠، وخزانة الأدب، للبغدادي: ٨/١٠٧ و١٠٨، والمصباح المنير: ٥٧٣، والخلاف التصريفي: ٢٤٧.

وقد قال النبي r هذا الكلام للأنصار حينما وجدوا في أنفسهم أن النبي r لم يعطهم من الغنائم كما أعطى غيرهم، فعاتبهم النبي r وبّين فضله عليهم، وقد سبق بيان حالهم التي راعاها النبي r.

وفي هذا الموضع من الخطاب نجد أن النبي r حينما يعاتبهم ويبين فضله عليهم يصفهم بصيغة الجمع «ضُلالاً - مُتَفَرِّقِينَ - عَالَةً».

وقوله r: «ضُلاّلاً» على وزن (فُعَّال) جمع تكسير لـ(ضَالّ) على وزن (فَاعِل)، و(فُعَّال) من جموع الكثرة، ويجمع (ضَالّ) أيضًا جمع مذكر سالم (ضَالّين)، إلا أن المقام لما كان للعتاب وإظهار الفضل حسن جمع التكسير الدال على الكثرة، ومما يزيده إشعارًا بالكثرة تضعيف العين.

ومثل هذا جمع (عَائِل) جمع تكسير (عَالَة) مع صحة جمعه جمع مذكر سالم (عائلين)، والله أعلم.

٣- عن سهل بن سعد t أن النبي r أتي بشراب، وعن يمينه غلام أصغر القوم، وعن يساره الأشياخ، فقال: «يَا غُلامُ، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ **الأَشْيَاخَ**؟» فقال الغلام t: ما كنت لأوثر بفضلي منك أحدًا يا رسول الله، فأعطاه إياه(١).

(أَشْيَاخَ) على وزن (أَفْعَال) جمع قلة لـ(شَيْخ)، ويجمع أيضًا جمع كثرة على (شُيُوخ)، وله جموع أخرى ذكر منها في لسان العرب (شِيْخان، وشِيَخَة، وشِيْخَة) وغيرها(٢).

ولعل النبي r اختار جمع القلة، لقلة عددهم، وقد يكون في هذا إشعار للغلام بإدراكه الشراب.

ولعل في هذه الصيغة تعظيمًا لهؤلاء الأشياخ من غير اعتبار كثرة أو قلة؛ لأن الخطاب فيه تعريض لهم، تألفًا لقلوبهم، وإعلامًا بودهم وإيثار كرامتهم إذا لم تمنع سنة. وجاء التعظيم من فخامة النطق، فإنه يظهر في صيغة (أَفْعال) من فخامة النطق ما ليس في صيغة (فُعُول) وبقية الجموع، ولعل ذلك من بدء الجمع بالهمزة ثم المد، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٣٥١ و٢٦٠٢)، ومسلم: (٢٠٣٠).

(٢) ينظر: لسان العرب: ٣/٣١.

وقد وجدت لذلك نظائر في كلام النبي r ، فمن ذلك أن بني سَلِمة كانت ديارهم بعيدة عن المسجد، فأرادوا أن يتحولوا عن منازلهم فيتزلوا قريبًا من النبي r ، فكره النبي r أن يخلوا ديارهم فتكون في العراء، فقال لهم: «يَا بَنِي سَلِمَةَ، أَلا تَحْتَسِبُونَ **آثَارَكُمْ**»[1]. فقوله r : «آثَارَكُمْ» جمع قلة لـ(أَثَر)، ويجمع أيضًا على (أُثُور)[2]، ولعل إيثار وزن (أَفْعَال) تفخيمًا لاحتساب الخطا إلى المسجد من غير مراعاة للقلة أو الكثرة، والله أعلم.

ومن ذلك قصة الثبات على الدين التي قصها النبي r على خباب t ومرت قبل ذلك[3]، وفيها: «وَيُمْشَطُ **بِأَمْشَاطِ** الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ» فـ(أَمْشَاط) جمع (مِشْط)، ويجمع أيضًا على (مِشاط)، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) أنه الجمع الأشهر[4]، وقد وردت به رواية واحدة في صحيح البخاري[5]، إلا أن الرواية الأولى هي ما جاء في غالب الروايات عند البخاري وغيره[6]. ولعل المقام لما كان للتفخيم والتهويل أوثرت الصيغة الملائمة له، والله أعلم.

٤- عن أنس بن مالك t قال: بينما نحن في المسجد مع رسول الله r إذ جاء أعرابي، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله r : مه مه. قال رسول الله r : «لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ» فتركوه حتى بال، ثم إن رسول الله r دعاه فقال له: «إِنَّ هَذِهِ **الْمَسَاجِدَ** لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ U ، وَالصَّلاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» أو كما قال رسول الله r ، قال: فأمر رجلاً من القوم، فجاء بدلو من ماء، فشنه عليه[7].

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٥٦) عن أنس بن مالك t .

(٢) ينظر: لسان العرب: ٤/٥.

(٣) ينظر ص (٢٣٣) من هذا البحث.

(٤) ينظر: فتح الباري: ٧/١٦٦.

(٥) صحيح البخاري: (٣٨٥٢).

(٦) ينظر: صحيح البخاري: (٣٦١٢ و٦٩٤٣) ، ومسند أحمد: ٥/١٠٩ و١١١، وسنن أبي داود: كتاب الجهاد، برقم (٢٦٤٩).

(٧) أخرجه البخاري: (٢١٩)، ومسلم: (٢٨٥) واللفظ له.

ومن الجموع في هذا الحديث (المساجد) مع أن الموقف حصل في مسجد الرســـول r ، ولعل النبي r جمع لئلا يتوهم المخاطب أن الحكم خاص بمسجد النبي r دون غيره[1]، والله أعلم.

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح: ٢/١٨٢.

ث- التنكير والتعريف

لا يخلو الاسم أن يكون معرفة أو يكون نكرة، والمعرفة: ما دل على شيء بعينه، والنكرة: ما دل على شيء لا بعينه.

والمعرفة ستة أقسام: الضمائر؛ وتأتي للمتكلم والمخاطب والغائب، والأعلام؛ أسماء أو ألقابًا أو كنًى، والأسماء الموصولة، وأسماء الإشارة، والمعرف بأل، والمضاف إلى واحد مما سبق[1].

وتناول البلاغيون بلاغة التعريف والتنكير، وذكروا عدة مقامات وأغراض لتعريف الاسم أو تنكيره[2]، قال العلوي (٧٤٩هـ): ((اعلم أن المعرفة والنكرة يتعلق بكل واحد منهما معان دقيقة متعلقة بأسرار البلاغة))[3].

أما التعريف فيكون بالإضمار إذا كان المقام مقام تكلم أو مقام خطاب أو مقام غيبة.

وبالعلمية إذا أريد إحضار العلم بعينه في ذهن السامع ابتداءً باسم مختص به، أو لتعظيمه، أو إهانته، كما في الكنى والألقاب المحمودة والمذمومة، أو لغير ذلك من الأغراض.

وبالموصولية إذا كان المخاطب لا يعلم من الأحوال المختصة بالمخبر عنه سوى الصلة، أو إذا استهجن التصريح بالاسم، أو لزيادة التقرير، أو للتفخيم، أو لغير ذلك.

وبالإشارة لتمييز المشار إليه أكمل تمييز إحضارًا له في ذهن السامع حسًا، أو للتعريض بغباء السامع حيث لا يتميز الشيء عنده إلا بالحس، أو لبيان حاله من القرب أو التوسط أو البعد، وقد يشار بالقرب تحقيرًا، وبالبعد تعظيمًا، أو لغير ذلك.

وبالألف واللام للإشارة إلى معهود بين المتكلم والمخاطب، أو لإرادة نفس الحقيقة، أو للاستغراق، أو لغير ذلك.

---

(١) ينظر: التبيان في علم البيان، للزملكاني: ٥٠، والبرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ١٣٣، والطراز: ٢٠٨، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢/٢٨٢.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٧٨-١٨٧ و٢١٢-٢١٧، وشروح التلخيص: ١/٢٨٧-٣٥٩ و٢/٩١-١٠٣، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٤٨-١٦٤ و١٧٨-١٨٠، والطراز: ٢٠٨-٢١٤.

(٣) الطراز: ٢٠٨.

وبالإضافة إلى معرفة، لإرادة الإيجاز إذا لم يكن لإحضار المخبر عنه في الذهن طريق أخصر من الإضافة، والمقام يقتضيه، أو لتعظيم المضاف أو المضاف إليه، أو تحقيرهما، أو لغير ذلك.

وأما التنكير فذكروا له أغراضًا بلاغية عديدة، منها: بيان أن المخبر عنه فرد غير معين من أفراد حقيقته حيث لا يتعلق بتعريفه غرض، أو لإرادة التعظيم، أو التحقير، أو لإفادة التكثير، أو التقليل، أو لغير ذلك، ومما ذكره الزملكاني (٦٥١هـ) في شأن التنكير قوله: ((قد يظن ظان أن المعرفة أجلى، فهي من النكرة أولى، ويخفى عليه أن الإبهام في مواطن خليق، وأن سلوك الإيضاح ليس بسلوك للطريق، خصوصًا في موارد الوعد والوعيد، والمدح والذم اللذين من شأنهما التشييد، وعلة ذلك أن مطامح الفكر متعددة المصادر بتعدد الموارد، والنكرة متكثرة الأشخاص، يتقاذف الذهن من مطالعها إلى مغاربها، وينظرها بالبصيرة من منسمها إلى غاربها، فيحصل في النفس لها فخامة، وتكتسي منها وسامة. وهذا فيما ليس لمفرده مقدار محصور، بخلاف المعرفة فإنه لواحد بعينه، يثبت الذهن عنده ويسكن إليه))[(١)].

وإذا نظرنا في حديث رسول الله ﷺ وجدنا صيغتي التعريف والتنكير ظاهرتين فيه، لعدة أغراض، منها ما روعي فيه حال المخاطب، وهو ما يتعلق ببحثنا، وسأذكر على ذلك أمثلة على التعريف حسب ترتيب المعارف، ثم أمثلة على التنكير، ومن ذلك:

١- التعريف بالضمير.

من التعريف بالضمير ما جاء في الأحاديث التي سبق ذكرها في صيغ الأسماء المشتقة التي رد النبي ﷺ فيها على الذين أرادوا أن يسلكوا مسلك التشدد في التعبد، ويدعوا منهج النبي ﷺ، وفيها قال النبي ﷺ: «إِنَّ أَتْقَاكُمْ وَأَعْلَمَكُمْ بِاللَّهِ **أَنَا**»، وفي الحديث الآخر قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَتَنَزَّهُونَ عَنْ الشَّيْءِ أَصْنَعُهُ، فَوَاللَّهِ، **إِنِّي** أَعْلَمُهُمْ بِاللَّهِ، وَأَشَدُّهُمْ لَهُ خَشْيَةً»، وفي حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي ﷺ فتقالُّوها قال: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا

---

(١) البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن: ١٣٦.

وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ، **إِنِّي** لأخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، **لَكِنِّي** أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ **سُنَّتِي** فَلَيْسَ مِنِّي».

واختيار الضمير -ضمير المتكلم- في هذه الأحاديث ليس لأن النبي r في مقام التكلم فقط، ولكن في مقام رَدّ التهمة وسوء الظن به r ، من كونه قليل العبادة ويترخص فيما أحل الله U لكونه مغفور الذنب، فمجيء الضمير في هذا المقام يعطي قوة في إثبات الحقيقة، والرد على المخاطب ودفع تهمته وسوء ظنه، وإشعاره بتمام الثقة بما هو عليه من منهج التعبد لله U ، وبعث الطمأنينة بسلامته من النقص والخلل، والله أعلم.

ومثل ذلك قوله r في غزوة حنين حين ولَّى الناس منهزمين: «**أَنَا** النَّبِيُّ لا كَذِب، **أَنَا** ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب»(١).

فلم يتحدث النبي r هنا عن نفسه بضمير المتكلم، ويشير إلى نبوته، وينتسب إلى جده افتخارًا أو عصبية، ولكن قال ذلك في مقام الحرب وحين تولى الناس إظهارًا للشجاعة والقوة والاستهانة بالعدو، وتذكيرًا للناس بصدق نبوته ووعد ربه U ، وتقوية لقلوبهم وحثًا لهم على الثبات، قال النووي (٦٧٦هـ): ((أراد النبي r تذكيرهم بذلك وتنبيههم بأنه r لا بد من ظهوره على الأعداء، وأن العاقبة له، لتقوى نفوسهم، وأعلمهم أيضًا بأنه ثابت ملازم للحرب، لم يُوَلِّ مع من وَلَّى، وعرفهم موضعه ليرجع إليه الراجعون، والله أعلم))(٢).

وفي هذا الحديث موضعان للتعريف بالنبي r سوى التعريف بالضمير:

الأول: تعريف (النبي) بأل، والتعريف هنا يراد به قصر النبوة عليه r ، وفي هذا تأكيد وتذكير للناس بنبوته وصدقه في خبره ووعد ربه حين تولى الناس وانهزموا عنه.

والثاني: التعريف بإضافة (ابن) إلى (عبد المطلب). واستشكل انتساب النبي r إلى جده دون أبيه عبد الله، وأجيب بأنه r اشتهر في الجاهلية بجده أكثر من أبيه، قال النووي (٦٧٦هـ): ((فإن قيل كيف قال النبي r : «أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب» فانتسب إلى جده دون أبيه... فالجواب أنه r كانت شهرته بجده أكثر؛ لأن أباه عبد الله توفي شابًا في حياة أبيه

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٨٦٤) ، ومسلم: (١٧٧٦).

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٢/١١٩-١٢٠، وينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٩/١٣٥، وفتح الباري: ٨/٣١، ومرقاة المفاتيح: ٦/٤٤٠، و٩/١١٨.

عبدالمطلب قبل اشتهار عبد الله، وكان عبد المطلب مشهورًا شهرة ظاهرة شـائعة، وكـان سيد أهل مكة، وكان كثير من الناس يدعون النبي r : ابن عبد المطلب، ينسبونه إلى جـده لشهرته. ومنه حديث همام بن ثعلبة في قوله: أيكم ابن عبد المطلب. وقد كـان مشـتهرًا عندهم أن عبد المطلب بشر بالنبي r ، وأنه سيظهر وسيكون شأنه عظيمًا))[(١)]، والله أعلم.

ومن التعريف بالضمير حديث عقبة بن عامر t أن النبي r أعطاه غنمًا يقسـمها على صحابته y ضحايا، فلم يبق لعقبة t إلا عتود، وفي رواية: جذعة، فذكر ذلك للنبي r ، فقال له: «ضَحِّ بِهِ أَنْتَ»[(٢)]. ولعل التعبير بضمير المخاطب (أنت) لتخصيصه بالترخيص دون غيره، لكون الجذعة من المعز لا تجزئ التضحية بها، ولذا ورد في رواية عند البيهقـي (٤٥٨هـ): «ضَحِّ بِهَا أَنْتَ، وَلا أُرْخَصُهُ لأَحَدٍ فِيها بَعْد» قال البيهقي (٤٥٨هـ): ((هذه الزيادة إذا كانت محفوظة كانت رخصة له كما رخص لأبي بردة بن نيار))[(٣)]، والله أعلم.

٢- التعريف بالعلمية.

من التعريف بالعلمية ما رواه عبد الله بن عمر t قال: كان الرجل في حياة النبي r إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله r ، فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله r ، وكنت غلامًا شابًا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله r ، فرأيت في النوم كـأن ملكين أخذاني فذهبا بي إلى النار، فإذا هي مَطْوية كطَيِّ البئر، وإذا لها قَرْنان، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار. فلقينا ملك آخـر، فقـال لي: لم تُـرَع. فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله r فقال: «نِعْمَ الرَّجُلُ **عَبْدُاللهِ**، لَـوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ». قال سالم بن عبد الله: فكان عبد الله بعد ذلك لا ينام من الليـل إلا قليلاً[(٤)].

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١١٩/١٢.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٣٠٠ و٢٥٠٠ و٥٥٤٧ و٥٥٥٥) ، ومسلم: (١٩٦٥).

(٣) السنن الكبرى: ٢٧٠/٩، كتاب الضحايا، باب لا يجزئ الجذع إلا من الضأن وحدها ويجزي الثني مـن المعـز والإبل والبقر.

(٤) أخرجه البخاري: (١١٢٢ و٣٧٣٩) ، ومسلم: (٢٤٧٨).

ولعل تعريف عبد الله باسمه دون تعريفه بلفظ آخر كأن يقول لحفصة رضي الله عنها: أخوك، أو غير ذلك؛ لكون الخطاب مقصودًا به عبد الله t ، وتعيينه باسمه فيه ترغيب له على الاستزادة من العبودية ليتقي بها النار، خاصة أنه ممن يلازم المسجد، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في أثر كلام النبي r على ابن عمر t : ((حصل لعبد الله من ذلك تنبيه على أن قيام الليل مما يتقي به النار والدنو منها، فلذلك لم يترك قيام الليل بعد ذلك. وأشار المهلب إلى أن السر في ذلك كون عبد الله كان ينام في المسجد، ومن حق المسجد أن يتعبد فيه))(١)، والله أعلم.

ومن التعريف بالعلمية في مقام التوبيخ والتحسير مخاطبة النبي r لقتلى بدر من صناديد قريش، حيث ذكرهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، فعن أنس بن مالك t عن أبي طلحة t أن نبي الله r أمر يوم بدر بأربعة وعشرين رجلاً من صناديد قريش، فقذفوا في طَوِيٍّ من أَطْواء بدر، خبيث مُخْبِث، وكان إذا ظهر على قوم أقام بالعَرْصة ثلاث ليال، فلما كان ببدر اليوم الثالث أمر براحلته فشد عليها رحلها، ثم مشى واتبعه أصحابه، وقالوا: ما نرى ينطلق إلا لبعض حاجته، حتى قام على شفة الرَكِيّ، فجعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ، وَيَا فُلانُ بْنَ فُلانٍ -وفي رواية: «يَا **أَبَا جَهْلِ** بْنَ هِشَامٍ، يَا **أُمَيَّةَ** بْنَ خَلَفٍ، يَا **عُتْبَةَ** بْنَ رَبِيعَةَ، يَا **شَيْبَةَ** بْنَ رَبِيعَةَ- أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمْ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله r : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» قال قتادة -أحد رواة الحديث-: ((أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا ونقيمة وحسرة وندمًا))(٢).

ومن التعريف بالعلمية ما رواه سهل بن سعد t قال: جاء رسول الله r بيت فاطمة فلم يجد عليًّا في البيت، فقال: «أَيْنَ ابْنُ عَمِّكِ؟» قالت: كان بيني وبينه شيء، فغاضبني، فخرج، فلم يَقِل عندي. فقال رسول الله r لإنسان: «انْظُرْ أَيْنَ هُوَ؟» فجاء

---

(١) فتح الباري: ٣/٧.

(٢) أخرجه البخاري: (٣٩٧٦) ، ومسلم: (٢٨٧٥).

فقال: يا رسول الله، هو في المسجد راقد. فجاء رسول الله r وهو مضطجع، قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب، فجعل رسول الله r يمسحه عنه، ويقول: «قُمْ **أَبَا تُــرَابٍ**، قُمْ **أَبَا تُرَابٍ**»[1].

والتعريف هنا بالكنية «أَبَا تُرَابٍ» التي صيغت من حال المخاطب، وإنما دعا النبي r عليًا بكنيته تلطفًا معه، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في فوائد الحديث: ((فيه كرم خلق النبي r لأنه توجه نحو علي ليترضاه، ومسح التراب عن ظهره ليبسطه، وداعبه بالكنية المذكورة المأخوذة من حالته، ولم يعاتبه على مغاضبته لابنته مع رفيع مترلتها عنده، فيؤخذ منه استحباب الرفق بالأصهار وترك معاتبتهم إبقاء لمودتهم))[2].

٣- التعريف بالموصول.

من التعريف بالموصولية ما رواه ابن عباس t أن رجلاً أهدى لرسول الله r راوية خمر، فقال له رسول الله r: «هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَهَا؟» قال: لا. فسارَّ إنسانًا، فقال له رسول الله r: «بِمَ سَارَرْتَهُ؟» فقال: أمرته ببيعها، فقال: «إِنَّ **الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا** حَرَّمَ بَيْعَهَا» ففتح المزادة حتى ذهب ما فيها[3].

والموصول في قوله r: «إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا» قد يكون مقصودًا به الرب U، وقد يكون مقصودًا به المقتضي للتحريم؛ أي: إن الذي اقتضى تحريم شربها اقتضى كذلك تحريم بيعها[4]، والأول أظهر لقوله قبل: «هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَهَا؟». والتعريف بالموصولية يراد به والله أعلم تنبيه المخاطب إلى خطأ التفريق في الحكم بين شرب الخمر وبيعه، حيث ظن المخاطب جواز بيع الخمر ولو كان محرم الشرب، فبين له النبي r أن لا فرق في الحكم؛ لأن بيعها مقصود به شربها، وكيف يباح البيع والشرب محرم؟! وتنبيه المخاطب على الخطأ من أغراض التعريف بالموصول[5]. وقد يراد بالتعريف مع ما سبق

(١) أخرجه البخاري: (٤٤١)، ومسلم: (٢٤٠٩).

(٢) فتح الباري: ١٠/٥٨٨.

(٣) أخرجه مسلم: (١٥٧٩).

(٤) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٤/ ٤٥٧.

(٥) ينظر: مفتاح العلوم: ١٨٢، وشروح التلخيص: ١/٣٠٧، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٥٦.

تعظيم الحكم بتحريم البيع في نفس المخاطب بعد أن عظم لديه تحريم بيعها في قوله r: «هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَهَا؟» حيث أسند التحريم إلى (الله) معرفًا باسمه العلم المختص به دون سائر المعارف تعظيمًا للحكم، في مقابل تعظيم الخمر عند المخاطب حيث جاء به ليهديـه للنبي r، ولن يهدي النبيَ r إلا ما هو نفيس عنده، وإنما أهداه بعد أن حرمت، فأراد النبي r أن يبين له التحريم ويؤكده ويعظمه في نفسه إن لم يكن قد علم تحريمه، لكون الخمر مما اعتادوه وتمكن في نفوسهم، والله أعلم.

٤- التعريف بالإشارة.

من التعريف بالإشارة ما ورد في حديث أبي طلحة t السابق ذكره في صيغ الأسماء المشتقة، وفيه أنه t تصدق ببستانه (بيرحاء) وكانت أحب أمواله إليه، فقال له الرسـول r: «بَخٍ، **ذَلِكَ** مَالٌ رَابِحٌ، **ذَلِكَ** مَالٌ رَابِحٌ. وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَـا فِي الأَقْرَبِينَ».

والتعريف بالإشارة إلى المال بـ(ذلك) المتصل به لام البعد وكاف الخطاب أبلغ من التعريف بغيرها، كقوله مثلاً: بيرحاء، أو مالك، أو الذي تصدقت به، فإن التعريف بهذه لا يشعر بتعظيم المال والتصدق به، والمقام مقام تعظيم وتفخيم وإعجـاب بالعمـل، يناسـبه الإشارة إليه باسم الإشارة الدال على البعد، والقصد إلى تعظيم المشار إليـه مـن أغـراض التعريف بالإشارة إلى البعيد، تنزيلاً لبعد درجته وشرف منزلته منزلة بعد المسافة، قال ابـن يعقوب المغربي (١١٢٨هـ): ((إن لفظ البعد بنفسه يفيد التعظيم، كما يقال: هذا أمر بعيد عن فلان، أي عزيز التناول بعيد الإدراك لأمثال فلان، لشرفه ورفعته، فكذا اسم الإشـارة الدال في الأصل على البعد الحسي))(١).

وقد يقصد بالإشارة التحقير والتهوين(٢)، كما في قول الله U عن الدنيا: ﴿وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت:

---

(١) مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح: ٣١٧/١، وينظر: مفتاح العلوم: ١٨٤، وشروح التلخـيص: ٣١٧/١، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٥٨/١.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٨٤، وشروح التلخيص: ٣١٦/١، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٥٨/١.

٦٤]، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((هذه: فيها ازدراء للدنيا وتصغير لأمرها، وكيف لا يصغرها وهي لا تزن عنده جناح بعوضة؟!))(١).

وقد جاءت الإشارة في مقام التحقير والتهوين من شأن المخاطب في حديث مسيلمة الكذاب وسبق ذكره في مبحث الديانة من الفصل الأول، وفيه أن مسيلمة قال: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته. فأقبل إليه رسول الله r وفي يده قطعة جريد فقال له: «لَوْ سَأَلْتَنِي **هَذِهِ** الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا...» ثم انصرف عنه.

والنبي r يشير إلى القطعة ويعرفها (هذه القطعة) حتى لا يتوهم مسيلمة غيرها مما يظن تعظيمه واختصاصه بالنبي r ، وإنما هي هذه التي يمكن أن يجد مثلها في أي مكان. وإذا كانت قطعة جريد بيده وهو الكريم المعطاء r لا يستحقها مسيلمة فكيف بما هو أعلى منها شأنًا؟ بل كيف بالنبوة؟

وقد جاءت الإشارة للتعظيم والتحقير في حديث الأعرابي الذي بال في المسجد، وقد سبق قريبًا في الجموع، وفيه: «إِنَّ **هَذِهِ** الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ» قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((قوله: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ» إنما أتى باسم الإشارة، والمشار إليه حاضر مشاهد لا لبس فيه؛ للدلالة على تعظيم المشار إليه وتفخيمه، ليكون كالوصف المناسب المشعر بنزاهتها عما لا يليق بالتعظيم، وصونها عن الأقذار والأنجاس، فيكون اسم الإشارة في قوله: «هَذَا الْبَوْلِ» للتحقير على عكس الأول))(٢).

٥- التعريف بـ(أل).

من التعريف بأل ما رواه جابر بن عبد الله t قال: مر بنا جنازة فقام لها النبي r ، وقمنا به، فقلنا: يا رسول الله، إنها جنازة يهودي. قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ **الْجَنَازَةَ** فَقُومُوا»، وفي رواية مسلم: مرت جنازة فقام لها رسول الله r ، وقمنا معه، فقلنا: يا رسول الله، إنها يهودية. فقال: «إِنَّ **الْمَوتَ** فَزَعٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ **الْجَنَازَةَ** فَقُومُوا»(٣).

(١) الكشاف: ٣/٤٤٨.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن: ٢/١١٣.

(٣) أخرجه البخاري: (١٣١١) ، ومسلم: (٩٦٠).

لقد ظن الصحابة y أن جنازة غير المسلم لا يؤبه لها كالمسلم، فنبههم النبي r إلى أن الحالة الجامعة بينهما هي الموت، والموت مما ينبغي أن لا يتساهل في أمره ويغفل عنه، بل يفزع له لما فيه من الفزع، فإذا رأى المرء أيَّ جنازة فعليه أن يقلق ويضطرب ولا يظهر عدم الاحتفال والمبالاة[1]، قال السندي (١١٣٨هـ): ((معنى قوله: «فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ فَقُومُوا» أي تعظيمًا لهول الموت وفزعه، لا تعظيمًا للميت، فلا يختص القيام بميت دون ميت))[2].

ولهذا المعنى جاء لفظ (الموت) معرفًا بأل لإرادة نفس الحقيقة[3]، تنبيهًا للصحابة y إلى أن القيام لما في الموت من الفزع، وفي التعريف أيضًا تعظيم لشأن الموت حتى لا يتهاون به الناس ولو كان في جنازة لغير المسلم، والله أعلم.

ولهذا المعنى أيضًا جاء لفظ (الجنازة) معرفًا بأل الاستغراقية، التي تفيد استغراق كل من يطلق عليهم لفظ مدخولها[4] تنبيهًا أيضًا للصحابة y إلى أن القيام لكل جنازة لا لجنازة المسلم فقط كما ظنوه، والله أعلم.

٦- التعريف بالإضافة.

من التعريف بالإضافة تعريف النبي r بـ(ابن عبد المطلب) في الحديث الذي سبق ذكره آنفًا في التعريف بالضمير وبينت سببه، ومن ذلك أيضًا حديث علي t في شأن خِطبته لابنة أبي جهل على الزهراء فاطمة رضي الله عنها، وسبق ذكره في مبحث الخطابة من الفصل الثاني[5]، وفيه أن النبي r قام وقال: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَنْكَحْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ، فَحَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَإِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ مُضْغَةٌ مِنِّي، وَإِنَّمَا أَكْرَهُ أَنْ يَفْتِنُوهَا، وَإِنَّهَا وَاللَّهِ لا تَجْتَمِعُ **بِنْتُ رَسُولِ اللهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ** عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا» وفي رواية أنه r قال: «إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَلا آذَنُ

---

(١) ينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم: ٦٢٠/٢، وفتح الباري: ١٨٠/٣، وفيض القدير: ٣٩٧/٢.

(٢) حاشية السندي على سنن النسائي: ٤٦/٤.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم: ١٨٥، وشروح التلخيص: ٣٢٣/١، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٥٩/١.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٢١٦، وشروح التلخيص: ٣٢٨/١، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٦٠/١.

(٥) ينظر ص (١٩٣) من هذا البحث.

لَهُمْ، ثُمَّ لا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لا آذَنُ لَهُمْ، إِلاّ أَنْ يُحِبَّ **ابْنُ أَبِي طَالِبٍ** أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ، فَإِنَّمَا ابْنَتِي بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي مَا رَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا».

إن المقصود بالخطاب في هذا الموقف علي بن أبي طالب t الذي رغب في الزواج من بنت أبي جهل على فاطمة بنت رسول الله r، فأراد النبي r أن يصرفه عنه شفقة عليه وعلى بنته، لما فيه من الأذية له ولبنته كما سبق بيانه[١]. كما أن الخطاب أيضًا مقصود به فاطمة رضي الله عنها إشعارًا لها بمترلتها عنده، وقد أتت أباها رسول الله t فقالت له: إن قومك يتحدثون أنك لا تغضب لبناتك، وهذا علي ناكحًا ابنة أبي جهل.

وفي سياق هذه الحال للمخاطبين جاء التعريف بالإضافة في أكثر من موضع، فعرف النبي r ابنته أولاً بالعلمية -فاطمة- لتعيينها، وهو كاف في الدلالة عليها، لكن النبي r أتبع هذا التعريف تعريفًا آخر بالإضافة إليه باسمه؛ تعظيمًا لها وإظهارًا لفضلها وإشعارًا لها رضي الله عنها بأبوته وشفقته عليها، ثم أضافها إليه بوصف الرسالة في مقابل تعريف بنت أبي جهل بالإضافة إلى أبيها بوصف العداوة في قوله: «لا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ» وهذه أربع إضافات تعريفية (بنت رسول الله – رسول الله – بنت عدو الله – عدو الله) ولعل في ذلك حثًا لعلي t على ترك الخطبة، ولذا جاءت الإضافات بأسلوب التقابل كما سيأتي الحديث عنه بإذن الله في الفصل السادس، والله أعلم.

ومن التعريف بالإضافة في الحديث تعريف علي t في قول النبي r: «إِلاّ أَنْ يُحِبَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ» فعرفه بإضافته إلى أبيه دون ذكر اسمه العلم -عليّ- إشعارًا له t بغضب النبي r عليه وكراهية فعله، لأن العلم قد يذكر استئناسًا بذكره وتلذذًا بنطقه وإشعارًا لصاحبه بقربه[٢]، والله أعلم.

٧- التنكير.

ويأتي التنكير في عدة أغراض سبق الإشارة إليها، وسأذكر شواهدها في أحاديث الصحيحين بحسب الأغراض التي جاء التنكير عليها.

---

(١) ينظر ص (١٩٤) من هذا البحث.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٨٠، وشروح التلخيص: ١/٣٠١، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٥٤.

- تنكير التعظيم.

والتعظيم من أغراض التنكير عند البلاغيين[1]، ومن ذلك تنكير (الحجاب) في قـــول النبي r وهو يخاطب النساء: «مَا مِنْكُنَّ مِن امْرَأَةٍ تُقَدِّمُ بَيْنَ يَدَيْهَا مِنْ وَلَدِهَا ثَلاثَةً لَمْ يَبْلُغُوا الْحِنْثَ إِلا كَانُوا لَهَا **حِجَابًا** مِن النَّارِ»[2].

وفي هذا تخفيف وتسلية لمن يصاب بموت مولوده، خاصة النساء اللاتي هن أقل تحملاً وأسرع جزعًا، لذا خصهن النبي r بهذا القول ((وجاء بلفظ «حِجَابًا» منكــرًا للتعظــيم وارتفاع الشأن، أي حجابًا عظيمًا يقي من النار ويحجز عنها، وفي هذا تعظيم لأجر الصــبر والتحمل لمن أصيب بالمصائب والابتلاءات إذا احتسبها عند الله))[3].

ومن تنكير التعظيم ما رواه عبد الله بن مسعود t قال: كنا نسلم على رســول الله r وهو في الصلاة، فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يــرد علينــا، فقلنا: يا رسول الله، كنا نسلم عليك في الصلاة فترد علينا، فقال: «إِنَّ فِي اَلصَّلاةِ **شُــغْلاً**» وفي رواية: «**لَشُغْلاً**»[4].

والتنكير في قوله: «شُغْلاً» لتفخيم الأمر وتعظيمه، وأسهم في إبراز هذا المعنى تأكيد الخبر بإنّ واللام، وتقديم خبر إنّ على اسمها، ولعل النبي r خشي أن يجدوا في أنفسهم عليه شيئًا حينما لم يرد على سلامهم بعد أن كان يرد عليهم، فعلل لهم سبب الرد بأسلوب فيــه تفخيم وتعظيم لأمر الصلاة كي يعذروه، والله أعلم.

ويرى بعض الشراح أن التنكير يحتمل التنويع، قال الطيبي (٧٤٣هـــ): ((التنكير فيه يحتمل النوع، يعني أن شغل الصلاة قراءة القرآن والتسبيح والـــدعاء لا الكـــلام، ويحتمـــل

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ١٩٢، وشروح التلخيص: ١/٣٤٩، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٧١.

(٢) أخرجه البخاري: (١٠١ و١٠٢ و٧٣١٠) ، ومسلم: (٢٦٣٤).

(٣) البلاغة النبوية في أحاديث الترغيب والترهيب: ١٧٩، وينظر: البلاغة النبوية في أحاديث كتابي الفتن والاعتصـــام من صحيح البخاري: ٩٤.

(٤) أخرجه البخاري: (١١٩٩ و١٢١٦) ، ومسلم: (٥٣٨).

التعظيم، أي شغلاً أيّ شغل؛ لأنها مناجاة مع الله تبارك وتعالى، واستغراق في خدمته، فــلا يصلح الاشتغال بالغير))[(١)].

- تنكير التحقير.

وقد يأتي التنكير للتحقير[(٢)]، وورد ذلك في تنكير (الحجاب) أيضًا في قول الــنبي r لمعاذ t حين أرسله إلى اليمن واليًا وقاضيًا وداعيًا: «وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ؛ فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ **حِجَابٌ**» والمقام هنا مقام تحذير من الظلم، لأن المخاطب سيكون واليًا، وهذا مقام لا يسلم أمثاله فيه من الظلم، ولذا حذره النبي r منه غاية التحذير بأساليب عــدة، ومــن ذلك تنكير (حجاب) في قوله: «لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أي مــانع حقــير فكيــف بالعظيم؟! وقد يراد بالتنكير العموم، أي: ليس هناك أيّ حاجب، لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم[(٣)]، والله أعلم.

وقد جاء لفظ (حجاب) نكرة للتعظيم وللتحقير في بيت واحد في قول الشاعر:

فتًــى لا يُيَــالي الْمُــدْلِجُونَ بنُــورِه ... إِلى بابِــه أَن لا تُضِــيءَ الكواكــبُ
لَهُ حاجِــبٌ في كــلِّ أَمْــرٍ يَشِــينُهُ ... وليس له عن طالب العُــرفِ حَاجِــبُ[(٤)]

((أي أنه إذا أراد أن يرتكب أمرًا قبيحًا منعه مانع حصين عظيم بالغ في العظمة إلى حيث لا يمكن تعيينه، وإذا طلب منه إنسان معروفًا وإحسانًا لم يكن له مانع حقير، فضلاً عن العظيم، يمنعه من الإحسان إليه))[(٥)]، قال السبكي (٧٧٣هـ): ((نفي الحاجب الحقير فُهِم من عموم عموم النكرة في سياق النفي، ويجاب بأن جعل النفي للحقير لينفي غيره مــن بــاب الأولى أنسب))[(٦)]، وإلى هذا ذهب الطيبي (٧٤٣هـ)، قال: ((إنما لم يذهب إلى نفــي الجــنس لأمرين؛ لمراعاة التطابق بين العظيم والحقير، ولأن نفي الشيء مع الصفة في مقام نفيه أبلــغ

(١) الكاشف عن حقائق السنن: ٣٩٧/٢، وينظر: فتح الباري: ٧٣/٣.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٩٢، وشروح التلخيص: ٣٤٩/١، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٧١/١.

(٣) ينظر: عروس الأفراح: ٣٥٤/١.

(٤) البيتان لابن أبي السمط مروان بن أبي حفصة، وينظر: زهر الآداب: ٥٥١/١، والإيضــاح: ٣٤٩/١، ومعاهــد التنصيص: ١٢٧/١.

(٥) حاشية الدسوقي على مختصر التفتازاني: ٣٤٩/١، وينظر: شروح التلخيص: ٣٤٩/١.

(٦) عروس الأفراح: ٣٥٠/١.

من نفيه وحده... وعليه قول نوح u جوابًا عن قولهم: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾ [الأعراف: ٦٠]: ﴿لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾ [الأعراف: ٦١]، أي: ضلالة نزرة. قال جار الله[١]: كما لو قيل لك: ألك تمر؟ فقلت: ما لي تمرة))[٢]. وعلى هذا فإن تنكير (حاجب) في حديث معاذ t للتحقير، والله أعلم.

- تنكير التقليل.

ومن ذلك ما رواه سليمان بن صُرَد t أن رجلين استَبَّا عند النبي r ، فجعل أحدهما يغضب ويَحْمَرّ وجهه، وتنتفخ أوداجه، فنظر إليه النبي r فقال: «إِنِّي لأَعْلَمُ **كَلِمَةً** لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِن الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ» فانطلق إليه رجل فأخبره بقول النبي r ، وقال له: تعوذ بالله من الشيطان، فقال: أَتُرى بي بأس؟ أمجنون أنا؟ اذهب[٣].

والتنكير في قوله r : «كَلِمَةً» للتقليل والتعظيم معًا، وقد أراد النبي r بها تهوين القول على المغضب، حثًا له على قوله ليذهب ما في نفسه من غضب، والله أعلم.

وجاءت اللفظة (كلمة) نكرة في أكثر من موقف مرادًا بها تهوين القول على قائلها مع عظم مدلولها، وهذا فيه حث للمخاطب وتحفيز له على القول اليسير الذي فيه فضل كبير، ومن ذلك قوله r لعمه أبي طالب حين حضرته الوفاة: «أَيْ عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، **كَلِمَةً** أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[٤]، وقوله r لأبي موسى الأشعري t : «أَلا أَدُلُّكَ عَلَى **كَلِمَةٍ** مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟». ولهذا القول قصة تبين حال المخاطب، قال أبو موسى t : لما غزا رسول الله r خيبر، أو قال: لما توجه رسول الله r أشرف الناس على واد، فرفعوا أصواتهم بالتكبير: الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله. فقال رسول الله r : «ارْبَعُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ إِنَّكُمْ لا تَدْعُونَ أَصَمَّ وَلا غَائِبًا إِنَّكُمْ تَدْعُونَ سَمِيعًا قَرِيبًا وَهُوَ مَعَكُمْ» وأنا

(١) جار الله هو الزمخشري، وقوله هذا في تفسيره الكشاف: ٢/١٠٩، وتمامه: ((فإن قلتَ: لم قال: ﴿لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ﴾ ولم يقل: ضلال، كما قالوا؟ قلتُ: الضلالة أخص من الضلال، فكانت أبلغ في نفي الضلال عن نفسه، كأنه قال: ليس بي شيء من الضلال، كما لو قيل لك: ألك تمر؟ فقلتَ: ما لي تمرة)).

(٢) التبيان في البيان، للطيبي: ١/١٧١.

(٣) أخرجه البخاري: (٣٢٨٢ و٦٠٤٨ و٦١١٥) ، ومسلم: (٢٦١٠).

(٤) أخرجه البخاري: (١٣٦٠ و٣٨٨٤ و٤٦٧٥ و٤٧٧٢) ، ومسلم: (٢٤).

خلف دابة رسول الله r فسمعني وأنا أقول -وفي رواية: ثم أتى عليّ وأنا أقول في نفسي-: لا حول ولا قوة إلا بالله. فقال لي: «يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ قَيْسٍ» قلت: لبيك، يا رسول الله. قال: «أَلا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كَنْزٍ مِنْ كُنُوزِ الْجَنَّةِ؟» قال: بلى، يا رسول الله، فداك أبي وأمي. قال: «لا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلاَّ بِاللَّهِ»(١).

ولعل في هذه الشواهد ما يكفي لبيان أن اختيار صيغتي التعريف والتنكير في الخطاب النبوي قد يأتي مراعاة لحال المخاطب، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٢٠٥ و٦٣٨٤) ، ومسلم: (٢٧٠٤).

ج- التصغير.

يأتي التصغير بتغيير في بنية الاسم إلى صيغة فُعَيل، أو فُعَيعِل، أو فُعَيعِيل، كجُبَيل، ودُريهِم، وعُصَيفِير[(١)].

والأصل فيه أن يكون لتصغير المقدار وتقليله، نحو: جُبَيل، ودُرَيهمات، وتُحيت، وقُبَيل، قال التنوخي (٧٤٨هـ): ((أصله الصغر في المقدار، وإذا ورد في المعنى كان تشبيهًا له بالمقدار))[(٢)].

وذكر بعض أهل اللغة والبلاغة أن الاسم يصغر في المعاني لعدة أغراض، منها التحقير والتهوين من الشأن كرُجَيل للرجل الجبان أو الجاهل أو قليل المروءة. ومنها التعظيم كالدهيماء في حديث حذيفة t في الفتن، وفيه: «أَتَتْكُم الدُّهَيْماءُ تَرْمِي بالنَّشْف»[(٣)]، وفي حديث ابن عمر في ذكر الفتن، وفيه: «ثُمَّ فِتْنَة الدُّهَيْمَاء، لا تَدَعُ أَحَدًا مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ إِلاَّ لَطَمَتْهُ لَطْمَةً...»[(٤)]، قال أبو عبيد (٢٢٤ هـ): ((نراه أراد الدهماء، ثم صغرها))[(٥)]، وقال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((هي تصغير الدهماء: وهي الفتنة المظلمة، وهو التصغير الذي يقصد به التعظيم))[(٦)]. ومنها التحبب والعطف والشفقة كبُنيّ وأُخَيّ[(٧)].

والتصغير كسائر الصيغ والأساليب البلاغية إنما يستحسن إذا وقع موقعه وورد في مقامه الذي يقتضيه، من غير إفراط فيه[(٨)].

---

(١) ينظر: كتاب سيبويه: ٤١٥/٣، وأوضح المسالك: ٣٢٥/٤.

(٢) الأقصى القريب: ٣٦.

(٣) هذا الحديث يذكره أهل اللغة، ولم أجده في دواوين السنة، وممن ذكره: أبو عبيد في غريب الحديث: ١٢٤/٤، والأزهري في تهذيب اللغة: ٢٢٥/٦، والزمخشري في الفائق: ٤٤٩/١، وابن الأثير في النهاية: ١٤٦/٢.

(٤) أخرجه أحمد: ١٣٣/٢، وأبو داود: كتاب الفتن والملاحم، باب ذكر الفتن ودلائلها، برقم (٤٢٤٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة: ٦٦٦/٢، برقم (٩٧٤).

(٥) غريب الحديث: ١٢٥/٤.

(٦) الفائق في غريب الحديث: ٤٤٩/١، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٤٦/٢، ولسان العرب: ٤٥٩/٤.

(٧) ينظر: كتاب سيبويه: ٤٧٧/٣ و٤٨٥، والأقصى القريب: ٣٦، ولسان العرب: ٤٥٨/٤، وشرح التصريح على التوضيح: ٣١٧/٢.

(٨) ينظر: الأقصى القريب: ٣٧.

قال القنوجي: ((وهو أحلى من اللمى في الأذواق، وأنفع للسليم من الدرياق، ذكره أدباء الفرس في أنواع البديع الفارسي، وأهمله أدباء العرب، مع أهم تصدوا لنظمه في غاية الحلاوة، وجلوه على المنصة في نهاية الطلاوة))[1].

وقد ورد في أحاديث الصحيحين مواقف اقتضى حال المخاطب فيها اختيار صيغة التصغير، ومن ذلك:

١- حديث أنس t في شأن أخيه أبي عمير وكان طفلاً يلعب بطائر صغير يقال له: النُّغَر، وكان النبي r يمازحه، قال أنس: فكان إذا جاء رسول الله r فرآه قال: «أَبَا **عُمَيْر**، مَا فَعَلَ **النُّغَيْر**؟» وقد قال له النبي r ذلك حينما رآه حزينًا بعدما توفي طائره الذي كان يلعب به. وقد سبق الحديث برواياته في المبحث الرابع من الفصل الأول.

وفي هذا الحديث تصغير الأسماء (عُمَير) و(نُغَير) وهذا يتلاءم مع خطاب طفل صغير، في مقام العطف والشفقة، وقد تناول بعض شراح الحديث التصغير دون ربطه بحال المخاطب، فمن ذلك قول ابن حجر (٨٥٢هـ) ذاكرًا من فوائد الحديث: ((دعاء الشخص بتصغير اسمه عند عدم الإيذاء))[2].

وتصغير الأشياء مع الأطفال ورد في غير هذا الحديث، ومن ذلك تصغير (غلام) في حديث ابن عباس t قال: بت في بيت خالتي ميمونة بنت الحارث زوج النبي r، وكان النبي r عندها في ليلتها، فصلى النبي r العشاء، ثم جاء إلى مترله، فصلى أربع ركعات، ثم نام، ثم قام، ثم قال: «نَامَ الْغُلَيِّمُ» أو كلمة تشبهها، ثم قام فقمت عن يساره، فجعلني عن يمينه... الحديث[3]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) عند قوله r: «نَامَ الْغُلَيِّمُ»: ((وهو من تصغير الشفقة، والمراد به ابن عباس، ويحتمل أن يكون ذلك إخبارًا منه r بنومه، أو استفهامًا بحذف الهمزة، وهو الواقع))[4].

---

(١) غصن البان المورق بمحسنات البيان: ٧٣.

(٢) فتح الباري: ١٠/٥٨٦، وينظر: شرح صحيح مسلم: ١٤/١٢٩.

(٣) أخرجه البخاري: (١١٧) وهذا لفظه، ومسلم: (٧٦٣).

(٤) فتح الباري: ١/٢١٢.

ولعل عاطفة الحب والحنان والشفقة التي يحتاج الطفل أن يحاط بها هي التي تدفع النبي r إلى أن يصغر الأشياء في حديثه مع الأطفال أو حديثه عنهم، والله أعلم.

٢- ومن تصغير العطف والتحبب قول النبي r لابنته فاطمة رضي الله عنها لما جاءته مبلغة رسالة احتجاج من أزواجه إليه في شأن عائشة رضي الله عنها، قال لها: «أَيْ **بُنَيَّةُ**، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟» فقالت: بلى، قال: «فَأَحِبِّي هَذِهِ» فرجعت إليهن فأخبرهن، فقلن: ارجعي إليه، فأبت أن ترجع[١].

فتصغير (بُنَيَّة) تصغير تحبب وتعطف، وقد كانت فاطمة رضي الله عنها أصغر بناته وأحبهن إليه.

٣- عن عائشة رضي الله عنها أن امرأة رفاعة القرظي جاءت النبي r، فقالت: كنت عند رفاعة فطلقني فأَبَتَّ طلاقي، فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير، إنما معه مثل هُدْبة الثوب، فجاء زوجها ومعه ابنان له من غيرها، وقال: كَذَبَتْ، والله، يا رسول الله. إني لأنفضها نفض الأديم، ولكنها ناشز تريد رفاعة. فقال رسول الله r: «أَتُرِيدِينَ أَنْ تَرْجِعِي إِلَى رِفَاعَةَ؟ لا، حَتَّى تَذُوقِي **عُسَيْلَتَهُ**، وَيَذُوقَ **عُسَيْلَتَكِ**»[٢].

والعُسَيلة تصغير عَسَل، والغرض من التصغير التقليل، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((ضرب ذوق العُسَيلة -وهي تصغير العَسَلَة، من قولهم: كنا في لحمة ونبيذة وعسلة- مثلاً لإصابة حلاوة الجماع ولذته، وإنما صغر إشارة إلى القدر الذي يُحلل))[٣]، وقال مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هـ): ((إنما صغره إشارة إلى القدر القليل الذي يحصل به الحل))[٤]، وقال السندي (١١٣٨هـ): ((والمراد لذة الجماع، لا لذة إنزال الماء، فإن التصغير يقتضي الاكتفاء بالتقليل، فيُكتفى بلذة الجماع))[٥]، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٥٨١)، ومسلم: (٢٤٤٢).

(٢) أخرجه البخاري: (٢٦٣٩ و٥٨٢٥)، ومسلم: (١٤٣٣).

(٣) الفائق في غريب الحديث: ٤٣٠/٢.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٣٧/٣، وينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٣٣٤/٦.

(٥) حاشية السندي على سنن النسائي: ٩٣/٦-٩٤.

المبحث الثالث: اختيار المفردات من لهجة المخاطب.

من أبرز ما تتسم به البلاغة النبوية: القدرة على مخاطبة كل قوم بلغتهم، وهذه سمة توقف عندها الباحثون في السيرة النبوية والبلاغة النبوية، وتعجبوا فيها، وقد روي العجب عن بعض أصحاب رسول الله r في أحاديث لا تصح، فروي عن علي بن أبي طالب t أنه قال: يارسول الله، نراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، ونحن بنو أب واحد، فقال: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحَسَنَ تَأْدِيبِي، ورَبِيتُ في بَنِي سَعْد»(١)، ويروى أن رجلاً من بني سليم قال للنبي r : يا رسول الله، أَيُدالك الرجل امرأته، قال: «نعم، إذا كان مُلْفِجًا» فقال له أبو بكر t : يا رسول الله، ما قال لك؟ قال: «قال لي: أَيُماطِل الرجل امرأته. قلت: نعم، إذا كان مُفْلسًا» فقال أبو بكر: ما رأيت أفصح منك!، فمن أدبك يا رسول الله؟ قال: «أَدَّبَنِي رَبِّي، ونَشَأتُ في بَنِي سَعْد»(٢)، قال القاضي عياض (٥٤٤ هـ) في شأن فصاحة النبي r وبلاغته: ((عُلِّم ألسنة العرب، فكان يخاطب كل أمة منها بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله))(٣)، وقال مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هـ): ((قد عرفت -أيدك الله وإيانا بلطفه وتوفيقه- أن رسول الله r كان أفصح العرب لسانًا، وأوضحهم بيانًا، وأعذبهم نطقًا، وأسدهم لفظًا، وأبينهم لهجة، وأقومهم حجة، وأعرفهم بمواقع الخطاب، وأهداهم إلى طرق الصواب، تأييدًا إلهيًا ولطفًا سماويًا وعناية ربانية ورعاية روحانية، حتى لقد قال له علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه -وسمعه يخاطب وفد بني نهد-: يا رسول الله نحن بنو أب واحد، ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره، فقال: «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحَسَنَ تَأْدِيبِي،

---

(١) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة: ٧٣، وقال: ((سنده ضعيف جدًا))، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ١/١٧٢، برقم: (٧٢).

(٢) ذكره السخاوي في المقاصد الحسنة: ٧٣، ووهى إسناده، وضعفه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة: ٥/٢٠٧، برقم (٢١٨٥). وقال ابن تيمية في مجموع الفتاوى: ١٨/٣٧٥ عن لفظ «أَدَّبَنِي رَبِّي فَأَحَسَنَ تَأْدِيبِي»: ((المعنى صحيح، لكن لا يعرف له إسناد ثابت))، وينظر: كشف الخفاء: ١/٧٢.

(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى r : ٥٤.

ورَبيتُ في بَني سَعْد». فكان r يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم، وتباين بطونهم وأفخاذهم وفصائلهم، كلاً منهم بما يفهمون، ويحادثهم بما يعلمون. ولهذا قال صَدَّق الله قوله: «أُمرتُ أنْ أُخاطِبَ الناسَ على قَدْرِ عُقُولِهم»[1]. فكأن الله U قد أعلمه ما لم يكن يعلمه غيره من بني أبيه، وجمع فيه من المعارف ما تفرق و لم يوجد في قاصي العرب ودانيه. وكان أصحابه y ومن يفد عليه من العرب يعرفون أكثر ما يقوله، وما جهلوه سألوه عنه فيوضحه لهم))[2].

ويذكرون شواهد على ذلك، من ذلك ما ذكره الصالحي (٩٤٢هـ) قال:((كقوله r في حديث عطية السعدي رضي الله تعالى عنه قال: قدمت على رسول الله r ، فلما رآني قال: «مَا أَغْنَاكَ اللهُ فَلا تَسأَلِ النَّاسَ، فَإِنَّ اليَدَ العُلْيا خَيْرٌ، هِيَ الْمُنْطِيَةُ، واليَدَ السُّفْلَى هِيَ الْمُنْطاةُ، وإِنَّ مَالَ اللهِ مَسْؤُولٌ ومُنْطًى» قال: فكلمنا رسول الله r بلغتنا. رواه الحاكم، وصححه البيهقي (٤٥٨هـ)[3].

وقوله r لكعب بن عاصم الأشعري رضي الله تعالى عنه: «لَيْسَ مِنْ اَمْبِرِّ اَمْصِيَامُ في اَمْسَفَرِ» رواه عبد الرزاق والحميدي وابن القاسم البغوي[4]، أي: ليس من البر الصيام في

---

(١) الحديث لا يصح كما سبق في التمهيد: ص (٢٥).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/١، وينظر: سبل الهدى والرشاد: ١٠٠/٢، والمثل السائر: ٢٦٩/١، وصبح الأعشى: ٢٤٣/٢، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٣١٩، والبيان النبوي: ٢٥٩، والبيان المحمدي: ٩٩.

(٣) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى: ٣٣٢/٤، كتاب الزكاة، باب بيان اليد العليا واليد السفلى، برقم (٧٨٨٤)، والحاكم في المستدرك: ٣٢٧/٤، وقال: ((هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه)) ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه بهذا اللفظ أحمد في مسنده: ٤٣٤/٥، وقال ابن حجر في التلخيص الحبير: ٢٠٥/٢: ((هذه لغة لبعض أهل اليمن يجعلون لام التعريف ميمًا، ويحتمل أن يكون النبي r خاطب بها هذا الأشعري كذلك لأنها لغته، ويحتمل أن يكون الأشعري هذا نطق بها على ما ألف من لغته، فحملها عنه الراوي عنه، وأداها باللفظ الذي سمعها به، وهذا الثاني أوجه عندي، والله أعلم)). وقال الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة عن إسناد أحمد: ((هذا إسناد ظاهره الصحة، رجاله كلهم ثقات رجال مسلم، و علته الشذوذ ومخالفة الجماعة. فقد قال أحمد أيضًا: حدثنا سفيان عن الزهري به بلفظ: «ليس من البر الصيام في السفر». وتابعه عليه ابن جريج ويونس ومحمد بن أبي حفصة والزبيدي كلهم رووه عن الزهري بلفظ سفيان. وتابعهم معمر نفسه عند البيهقي وقال: ((وهو المحفوظ عنه r)). و ليس يشك عالم بأن اللفظ الذي وافق معمر الثقات عليه هو الصحيح الذي ينبغي الأخذ به، و الركون إليه، بخلاف اللفظ الآخر الذي خالفهم فيه، فإنه ضعيف لا يعتمد عليه... وإن مما يؤكد وهم معمر في هذا اللفظ الذي شذ به عن الجماعة أن

السفر. وهذه لغة صحيحة، وأكثر ما يتكلم بها الأشعريون، وهي في الغالب يمنية، والأشعريون من اليمن، وإنما تكلم بها رسول الله r رغبة في البيان وحسن التعلم والإفهام لهم بلغتهم.

وقوله في حديث العامري حين سأله، فقال له النبي r: «سل عنك» رواه أبو نعيم عن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه[١]، أي: اسأل عما شئت، وهي لغة بني عامر))[٢]. ومن ذلك مخاطباته مع وفود العرب، وكتبه ورسائله إليهم، و لم يرد شيء منها في أحاديث الصحيحين[٣].

أما في الصحيحين فقد وردت مواقف تبين أن النبي r كان يراعي أحوال المخاطبين في لغاتهم ولهجاتهم، ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري t قال: بَعَث عليٌّ وهو باليمن إلى النبي r بذُهَيْبَة في تربتها، فقسمها بين الأَقْرع بن حابس الحنظلي ثم أحد بني مجاشع، وبين عُيَينة بن بَدْر الفَزَاري، وبين عَلْقَمة بن عُلاثة العامِري ثم أحد بني كلاب، وبين زَيْد الخيل الطائي ثم أحد بني نَبْهان، فتغيظت قريش والأنصار، فقالوا: يعطيه صناديد أهل نجد ويدعنا. قال: «إِنَّمَا أَتَأَلَّفُهُمْ» فأقبل رجل غائر العينين، ناتئ الجبين، كث اللحية، مشرف

الحديث قد ورد عن جماعة آخرين من الصحابة، مثل جابر بن عمرو، و عمار بن ياسر، وأبي الدرداء، جاء ذلك عنهم من طرق كثيرة، وكلها أجمعت على روايته باللفظ الثاني الذي رواه الجماعة، و قد خرجت أحاديثهم جميعًا في إرواء الغليل [٥٨/٤، برقم ٩٢٥] فمن شاء الوقوف عليها فليرجع إليه إن شاء الله تعالى)). وقد أخرج البخاري: (١٩٤٦) ومسلم (١١٥) هذا الحديث بلفظ «لَيْسَ مِن الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ» عن جابر بن عبد الله t .

(١) أخرجه الطبري في تاريخه: ١٦٠/٢، والآجري في الشريعة: ١٤٢٢/٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق: ٤٦٩/٣، من طريق عمر بن صُبح عن يزيد بن ثور عن مكحول عن شداد بن أوس t ، وقال ابن عساكر: ((فيه انقطاع... مكحول لم يدرك شداد)) وقال ابن كثير في البداية والنهاية: ٢٥٦/٢: ((عمر بن صبح هذا متروك الحديث، كذاب، متهم بالوضع)). وأخرجه ابن عساكر: ٤٦٦/٣ من وجه آخر ليس فيه قول: «سل عنك»، وقال فيه: ((هذا حديث غريب، وفيه من يُجهل)).

(٢) سبل الهدى والرشاد: ١٠٢/٢، وينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى r : ٥٩.

(٣) ينظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى r : ٥٥، وسبل الهدى والرشاد: ١٠٠/٢، والبيان المحمدي: ١٤٧-١٦٦، والبيان النبوي: ٢٥٩-٢٦٢.

الوجنتين، محلوق الرأس، فقال: يا محمد، اتق الله. فقال النبي r : «فَمَنْ يُطِيعُ الله إِذَا عَصَيْتُهُ؟ **فَيَأْمَنِّي** عَلى أهْلِ الأَرْضِ، ولا تأْمَنُونِي؟!» الحديث[1].

قال العيني (٨٥٥هــ): ((قوله: «فَيَأْمَنِّي» بفتح الميم وتشديد النون، أصله: يَأْمَنُنِي، فأدغمت النون الأولى في الثانية، ويروى على الأصل: «فَيَامَنُنِي» أي : فيأمنني الله تعالى، أي: يجعلني أمينًا على أهل الأرض، ولا تأمنوني أنتم؟))[2].

وإن كان ما ذكره العيني في هذه الرواية «فَيَأْمَنِّي» هو المحفوظ عن النبي r فإن هذا مما راعى فيه النبي r لغة تميم، والمخاطب تميمي، وهو ذو الخويصرة التميمي كما بينته الروايات الأخرى[3]، وتميم تدغم كثيرًا الحرفين المتماثلين أو الحرفين المتجاورين المتقاربين، المتقاربين، قال الدكتور صبحي الصالح: ((من الفروق بين تميم وقريش أن تميمًا تجنح كثيرًا إلى إدغام المِثلين أو الحرفين المتجاورين المتقاربين، فالأمر من (غَضّ) مثلاً في لغة أهل الحجاز (اغْضُض) بالفك، وفي التنزيل: ﴿وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان: ١٩] أي: اخفض الصوت... وأهل نجد يقولون: غضّ صوتك، بالإدغام، ومن ذلك قول جرير، وهو كما نعلم تميمي:

فَغُضّ الطَّرْفَ إِنَّكَ مِنْ نُمَيرٍ فَلا كَعْبًا بَلَغْتَ ولا كِلابا[4]

وتميم تقول: إنْ تَمَسّكُمْ حَسَنَةٌ، وَمَنْ يَحِلّ عَلَيْهِ غَضَبِي، وَلا تَمُنّ تَسْتَكْثِرُ. وهي جميعًا في القرآن بلهجة قريش مفكوكة الإدغام[5]))[6].

ومما يورد أيضًا في هذه المسألة حديث أم خالد بنت خالد بن سعيد y أن النبي r أُتِي بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فقال: «مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ؟» فسكت القوم،

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٣٤٤ و٤٣٥١ و٧٤٣٢) ، ومسلم: (١٠٦٤).

(٢) عمدة القاري: ١٢١/٢٥.

(٣) ينظر: فتح الباري: ٦٩/٨.

(٤) ينظر: ديوان جرير: ٦٣.

(٥) قال الله U: ﴿إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وقال: ﴿وَمَنْ يَحلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي﴾ [طه: ٨١]، وقال: ﴿وَلا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

(٦) دراسات في فقه اللغة: ٨١، وينظر: الكامل للمبرد: ٤٣٨/١.

فقال: «ائْتُونِي بِأُمِّ خَالِدٍ» فأُتِي بها وهي جويرية تحمل، فأخذ الخميصة بيده، فألبسها، وقال: «أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي» وكان فيها علم أخضر أو أصفر، فجعل ينظر إليه، ويشير بيده إليها، ويقول: «يَا أُمَّ خَالِدٍ، هَذَا **سَنَاهْ**»(١).

وأم خالد هي بنت خالد بن سعيد بن العاص **t** ، وأبوها من السابقين الأولين إلى الإسلام، هاجر إلى الحبشة الهجرة الثانية، وولدت له ابنته هناك، وسماها أَمَة، وكناها أم خالد، وقدمت مع أبيها بعد غزوة خيبر في السنة السابعة، وهي جويرية تعقل(٢)، فهي في هذا الحديث لما خاطبها النبي **r** حديثة عهد بالحبشة ولغتها، فلأجل ذلك خاطبها بلغتهم، قال ابن تيمية (٧٢٨هـ): ((الكلمة بعد الكلمة من العجمية أمرها قريب، وأكثر ما يفعلون ذلك، إما لكون المخاطب أعجميًا، أو قد اعتاد العجمية، يريدون تقريب الأفهام عليه، كما قال النبي **r** لأم خالد بنت خالد بن سعيد بن العاص، وكانت صغيرة قد ولدت بأرض الحبشة لما هاجر أبوها، فكساها النبي **r** خميصة وقال: «يَا أُمَّ خَالِدٍ، هَذَا سَنَا»))(٣)، وقال الكرماني (٧٨٦هـ): ((إنما كان غرض رسول الله **r** من التكلم بهذه الكلمة الحبشية استمالة قلبها؛ لأنها كانت قد ولدت بأرض الحبشة))(٤).

وقد تكلم النبي بلفظة حبشية في حديث أبي موسى الأشعري وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما أن النبي **r** قال: «إِنَّ بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ لأَيَّامًا، يَنْزِلُ فِيهَا الْجَهْلُ، وَيُرْفَعُ فِيهَا الْعِلْمُ، وَيَكْثُرُ فِيهَا الْهَرْجُ»(٥)، قال أبو موسى الأشعري **t** : والهرج: القتل بلسان الحبشة(٦)، وهذه اللفظة مستعملة في لغة العرب، لكن بمعنى الاختلاط، وكثرة الشيء واتساعه(٧)، أما استعمالها في حقيقة القتل فهي لغة الحبشة كما ذكر أبو موسى **t** ، قال ابن

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٧١ و٣٨٧٤ و٥٨٢٣ و٥٨٤٥ و٥٩٩٣).

(٢) ينظر: الإصابة في معرفة الصحابة: ٨/٢٨، وفتح الباري: ٧/١٩٠ و١٠/٢٨٨.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم ١/٤٦٨.

(٤) شرح الكرماني: ٢١/٧٥، وينظر: عمدة القاري: ٢١/٣١٣، وإرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ٨/٤١٨.
٨/٤١٨.

(٥) أخرجه البخاري: (٧٠٦٣ و٧٠٦٥ و٧٠٦٧).

(٦) أخرجه البخاري: (٧٠٦٥ و٧٠٦٧).

(٧) ينظر: معجم مقاييس اللغة: ٦/٤٩، ولسان العرب: ٢/٣٧٩.

ابن حجر (٨٥٢هـ): ((أخطأ من قال: نسبة تفسير الهرج بالقتل للسان الحبشة وهم من بعض الرواة، وإلا فهي عربية صحيحة. ووجه الخطأ أنها لا تستعمل في اللغة العربية بمعنى القتل إلا على طريق المجاز، لكون الاختلاط مع الاختلاف يفضي كثيرًا إلى القتل، وكثيرًا ما يسمى الشيء باسم ما يؤول إليه، واستعمالها في القتل بطريق الحقيقة هو بلسان الحبش، وكيف يدعى على مثل أبي موسى الأشعري الوهم في تفسير لفظة لغوية، بل الصواب معه))[1]، ومما يدل على ذلك سؤال الصحابة عن المراد باللفظة في حديث أبي هريرة t عن النبي r قال: «يَتَقَارَبُ الزَّمَانُ، وَيَنْقُصُ الْعَمَلُ، وَيُلْقَى الشُّحُّ، وَيَكْثُرُ الْهَرْجُ» قالوا: وما الهرج؟ قال: «الْقَتْلُ، الْقَتْلُ»[2]، ولم يظهر لي وجه استعمال النبي r للفظة، وهي لها مدلول لا يوجد في لغة المخاطب، إلا أن يكون على سبيل إثارة الاهتمام بمدلولها حيث سيسأل الصحابة y عما غمض عليهم، والله أعلم.

(١) فتح الباري: ١٣/١٨.

(٢) أخرجه البخاري: (٨٥ و١٠٣٦ و٦٠٣٧ و٧٠٦١) ، ومسلم: (١٥٧).

الفصل الرابع

رعاية حال المخاطب في اختيار التراكيب

- المبحث الأول: الجملة الخبرية.
- المبحث الثاني: الجملة الإنشائية.
- المبحث الثالث: التقديم والتأخير.
- المبحث الرابع: الحذف والذكر.
- المبحث الخامس: القصر.
- المبحث السادس: الفصل والوصل.
- المبحث السابع: الإيجاز والإطناب.

مدخل

التركيب في لسان العرب: بمعنى الضم والتأليف، يقال: ركَّب الشيء؛ إذا وضع بعضه على بعض، أو ضمه إلى غيره، وتركَّب الشيء من كذا وكذا، بمعنى: تألف وتكوَّن[١].

وهو يرد عند أهل البلاغيين بمعنى تأليف الألفاظ، وضم بعضها إلى بعض بحيث تكون جملة مفيدة، ويعبر عنه البلاغيون في مبحث الفصاحة من كتبهم بالكلام أو الجملة في مقابل الكلمة المفردة التي هي جزء منه، والكلام هو: اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليها[٢]، وهو تعريف يصح على الجملة، وقد عرفها الدكتور إبراهيم أنيس بأنها: ((أقل قدر من الكلام يفيد السامع معنى مستقلاً بنفسه، سواء تركب هذا القدر من كلمة واحدة أو أكثر))[٣].

وأقل ما يتركب منه الكلام ركنان: المسند إليه: وهو المخبر عنه أو المحكوم عليه، والمسند: وهو المخبر به أو المحكوم به، ولا يغني واحد منهما عن الآخر، كما ذكر سيبويه (١٨٠هـ)[٤].

ويبحث البلاغيون في (التراكيب) نوع الجملة المركبة خبرية أو إنشائية، وأحوال ركنيها وما يتعلق بهما مما يتمم المراد منهما، وعلاقات الجمل ببعضها، ومدى أداء التركيب للمعنى المراد إطنابًا أو إيجازًا، وغيرها من المسائل التي يبحثها أكثرهم في علم المعاني، وهو: علم يعرف به أحوال اللفظ العربي التي بها يطابق مقتضى الحال[٥].

ومراعاة هذه الأحوال في اختيار الألفاظ والجمل ونظمها في النص هو البلاغة حقيقة إذا كان النظم مراعيًا لما يقتضيه المقام، فليس الشأن في البلاغة أن يضم بين الكلمات ويؤلف بينها كيفما اتفق، ولو جاءت سليمة صحيحة على ما يقتضيه علما الصرف والنحو، ولكن

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٤٣٢/١، والمعجم الوسيط: ٣٦٨/١.
(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٧٢/١، وأوضح المسالك: ١١/١.
(٣) من أسرار اللغة: ٢٧٦.
(٤) ينظر: كتاب سيبويه: ٢٣/١.
(٥) ينظر: شروح التلخيص: ١٥٢/١.

شأن البليغ أن يحسن انتقاء ألفاظه ثم ينظم بينها نظمًا يكشف عما في نفسه، وينفذ به في نفس مخاطَبه، فيبلغ به كنه مراده، قال العلوي (٧٤٩هـ): ((يجب مراعاة التأليف بين الألفاظ المفردة والجمل المركبة، حتى تكون أجزاء الكلام متلائمة، آخذًا بعضها بأعناق بعض، وعند ذلك يقوى الارتباط، ويصفو جوهر نظام التأليف، ويصير حاله بمنزلة البناء المحكم المرصوص المتلائم الأجزاء، أو كالعقد من الدر فُصّلت أسماطه بالجواهر واللآلئ، فخلص على أتم تأليف وأرشق نظام))(١).

أما النظم النبوي للتراكيب فجاء على أحسن ما يأتي به بشر، بل ((لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعًا، ولا أقصد لفظًا، ولا أعدل وزنًا، ولا أجمل مذهبًا، ولا أكرم مطلبًا، ولا أحسن موقعًا، ولا أسهل مخرجًا، ولا أفصح معنًى، ولا أبين في فحوى، من كلامه r)) كما قال الجاحظ (٢٥٥هـ)(٢).

ونظمه r لكلامه يأتي على ما تقتضيه البلاغة من مراعاة المقام وسياق الكلام، وسنتبين في هذا الفصل ما جاء منه مراعاة لما يقتضيه حال المخاطَب، وسأتناوله في مباحث سبعة تتناول: الجملة الخبرية، والجملة الإنشائية، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر، والقصر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب. ورتبت هذه المباحث كترتيب البلاغيين لها، إلا أن التقديم والتأخير والحذف والذكر يتناولونها عادة في أحوال المسند والمسند إليه في حديثهم عن الإسناد الخبري، إلا أنها لما كانت تتعلق بالجمل خبرية أو إنشائية، وليست مختصة بالمفردات، أخرتها بعد النظر في الجملتين الخبرية والإنشائية، والله أعلم.

---

(١) الطراز: ٣١١، وينظر: التبيان في علم البيان، للزملكاني: ٨٩.

(٢) البيان والتبيين: ٢/١٧.

المبحث الأول: الجملة الخبرية.

الجملة الخبرية هي: الجملة المتضمنة خبرًا، لا إنشاءً.

والخبر في لغة العرب يطلق ويراد به: النبأ والعلم، ذكر في اللسان: ((الخَبَـــر: النَّبـــأ، والجمع: أَخْبار، وأَخابير جمع الجمع... وخَبَّرَه بكذا وأَخْبَره: نَبَّأه))[١]، وقال ابـــن فـــارس (٣٩٥هـــ): ((أما أهل اللغة فلا يقولون في الخبر أكثر من أنه إعلام، تقول: أَخْبَرتُه أُخْبِرُه، والخُبْر هو العلم))[٢].

وفي الدراسات اللغوية المتقدمة يذكر بعض أئمة اللغة الخبر مقابل الاستفهام، وقـــد يسمونه استخبارًا[٣]، وكأنهم يريدون بذلك أن الخبر هو: ما يصح أن يقـــع جوابًـــا عـــن استفهام. ويصحح ذلك ما ذكره في اللسان: ((الخَبَر: ما أتاك من نبأ عمـــن تســـتخبر...، واستَخْبَرَه: سأله عن الخبر، وطلب أن يخبره، ويقال: تَخَبَّرت الخبر واستَخْبَرْتُه... وتَخَبَّرت الجواب واستَخْبَرْتُه، والاستخْبَار والتَّخَبُّر: السؤال عن الخبر))[٤]

ولا يصح أن يعترض بالإجابة بالطلب في مثل قول القائل: ما قلت؟ فيجاب: اقـــرأ، أو يجاب: لا تقرأ، أو: هل قرأت؟، فإن الجواب جزء من الخبر، فهو مقول القول المحذوف، والتقدير: قلت: اقرأ...، ولذا قال ابن وهب (٣٣٥هـــ): ((ومن الخبر ما يبتدئ المخبر بـــه فيُخَص باسم (الخبر)، ومنه ما يأتي به بعد سؤال فيسمى (جوابًا) كقولك: في جواب مـــن سألك: ما رأيك في كذا؟ فتقول: رأيي كذا، وهذا يجوز أن يكون ابتداء منك فيكون خبرًا، فإذا أتى بعد سؤال كان جوابًا كما قلنا))[٥].

---

(١) لسان العرب: ٤/٢٢٧.

(٢) الصاحبي: ٢٨٩.

(٣) ينظر: كتاب سيبويه: ١/١١٩ و١٣٤ و١٣٥، ومعاني القرآن للفراء: ١/٣٣٥ و٢/٨٤ و٣٥٤، وقواعد الشـــعر: ٣١، وينظر: الصاحبي: ٢٨٩، والبرهان في علوم القرآن: ٢/٤٢٥ و٤٣٣.

(٤) لسان العرب: ٤/٢٢٧.

(٥) البرهان في وجوه البيان: ١١٣.

ومع وضوح المقصود بالخبر فإن البلاغيين ومعهم علماء الأصول اختلفوا في حـــده، وأطنبوا في الكلام على ذلك ومناقشته[1]، ناهجين في كثير منه منهجًا فلسفيًا وكلاميًا،كما يقول الدكتور درويش الجندي: ((انتهى الأمر إلى البلاغيين ففصلوا الكلام في هذا الموضوع تفصيلاً فيه كثير من العقم والجمود وجفاف الفلسفة والمنطق والنحو))[2]، وقال ابن بدران (١٣٤٦هـــ): ((وقد أطنب الأصوليون في هذه المسألة وعلماء البلاغة بما لا يـــأتي بكـــثير نفع))[3].

والأولى في مثل هذا الاختلاف أن ينظر في تعريف الخبر إلى أوصافه فيعرف بأخصها الذي يميزه عن غيره، وبما أنه من ضروب القول فإنه يشترك معها في كثير مـــن الأوصـــاف كعموم الإسناد والإفادة، إلا أنه ينفرد عنها بجواز وقوعه جوابًا للاستفهام أو الاستخبار كما يعبر عنه بعض أهل اللغة، وبوصفه بالصدق والكذب، وهذا الأخير هو أخص أوصافه، وقد ذكر عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـــ) أن العقلاء ((جعلوا من خاص وصفه أنـــه يحتمـــل الصدق والكذب))[4]، وقال ابن وهب (٣٣٥هـــ): (وليس في فنون القول مـــا يقـــع بـــه الصدق والكذب غير الخبر والجواب؛ إلا أن (الصدق والكـــذب) يســـتعملان في الخـــبر، ويستعمل مكانهما في الجواب (الخطأ والصواب)، والمعنى واحد وإن فرق في اللفظ بينـــهما، وكذلك يستعمل في الاعتقاد في موضع الصدق والكـــذب: (الحـــق والباطـــل) والمعـــنى قريب))[5].

ولذا فإن كثيرًا من علماء البلاغة وغيرهم وخاصة المتأخرين منهم يرتضي تعريـــف الخبر بهذا الوصف اللازم له، أي أن الخبر عندهم: ما يحتمل الصدق والكذب[6].

---

(١) ينظر: عروس الأفراح١/١٧٤.

(٢) علم المعاني: ٢٢.

(٣) نزهة الخاطر العاطر شرح روضة الناظر: ٢٤٣/١.

(٤) دلائل الإعجاز: ٥٣١ و٥٣٣.

(٥) البرهان في وجوه البيان: ١١٤.

(٦) ينظر: الصاحبي: ٢٨٩، ومفتاح العلوم: ١٦٤، ولطائف التبيان: ٤، والتعريفات: ١٢٩، والفوائد الغياثية: ١١١، ١١١، وعلم المعاني، للجندي: ٢٣، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٤٦٤.

وقد أورد على هذا التعريف بهذا اللفظ أن كل خبر لا يحتمل الصدق والكذب معًا، بل من الأخبار ما لا يحتمل أحدهما، خاصة خبر الله U وخبر رسوله r إذ هما صـــدق لا يحتملان الكذب البتة.

إلا أن البلاغيين تخلصًا من هذا الإيراد قيدوا الصدق والكذب بالنظر إلى ذات الخبر لا إلى قائله.

قال السيوطي (٩١١هـــ): ((الكلام إما خبر أو إنشاء لا ثالث لهما؛ لأنـــه إمـــا أن يحتمل الصدق والكذب، أو لا، والأول الخبر، والثاني الإنشاء، وبعضهم يقيد الأول بقولـــه: لذاته؛ ليخرج الخبر المقطوع بصدقه، كخبر الله تعالى ورسوله r ، ومن سكت عـــن هـــذا القيد قال: الخبر من حيث هو يحتملهما وإن خرج بعض أفراده لأمر خارج عنه، ألا ترى أن قول الإنسان مثلاً: زيد قائم، يحتملهما، وإن كان السامع يقطع بصـــدقه لمشـــاهدته لـــه قائمًا))[(١)].

ومعنى هذا أن أبلغ كلام أنشئ علم البلاغة لتلمس إعجـــازه لا يـــدخل في هـــذا التعريف، أو يدخل في هذا التعريف من حيث هو كلام من جنس سائر الكـــلام، لا مـــن حيث هو قرآن تكلم به أصدق القائلين، وقد اكتسب القرآن الصدق من المتكلِّم به U لا من تطابقه مع الواقع، وهكذا كلام رسول الله r . ولذا ناقش بعض الباحثين هذا القيد غير مسلمين بالتعريف[(٢)].

ومن التعريفات التي استحسنها بعض أهل العلم أن الخبر: ما يتطرق إليه التصديق أو التكذيب[(٣)]، قال الغزالي (٥٠٥هـــ) بعد أن ذكره: ((وهو أولى من قولهم: يدخله الصـــدق والكذب؛ إذ الخبر الواحد لا يدخله كلاهما، بل كلام الله تعالى لا يدخله الكذب أصـــلاً، والخبر عن المحالات لا يدخله الصدق أصلاً))[(٤)].

---

(١) شرح عقود الجمان: ٩.

(٢) ينظر: بلاغة الكلمة والجملة والجمل: ٨٨، والنظم القرآني في آيات الجهاد: ٢٥٥.

(٣) ينظر: عروس الأفراح: ١/١٧٤، وروضة الناظر: ١/٣٤٧.

(٤) المستصفى: ١٠٦، وينظر: شروح التلخيص: ١/١٧٤، وشرح الكوكب المنير: ٢/٢٨٩.

وذكر الشيخ ابن عثيمين (١٤٢١هـ) في الخبر أنه: الكلام الدائر بين النفي والإثبات من قبل المتكلم، المقابل بالتصديق أو التكذيب من قبل المخاطب[1]، وهذا وصف حسن، يجمع بين بعض التعريفات التي ذكرها العلماء، ولا يرد عليه كثير إشكال، ولو اقتصر على الجزء الثاني لكان أسهل وأضبط، فيقال:

الخبر هو: الكلام الذي يقابل بالتصديق أو بالتكذيب.

وهذا ضابط سهل للمتعلمين، لأنه يضبط الخبر بأخص أوصافه الظاهرة، كما أنه لا يوقع في الحرج مع كلام الله U وكلام رسوله r ؛ لأن (أو) في التعريف للتنويع ومنع الخلو، فأي كلام خبري لا يخلو إما أن يقابل بالتصديق ومنه كلام الله U ورسوله r ، أو يقابل بالتكذيب.

وعلى هذا فإن التصديق والتكذيب ليس مرده إلى مطابقة الواقع، بل يوصف الخبر بالصدق لأن قائله متره عن الكذب كخبر الله U ورسوله r ، ومطابقته للواقع تبع لقائله، ويوصف الخبر بالصدق لمطابقته للواقع ولو كان قائله معروفًا بالكذب كما في حديث الشيطان مع أبي هريرة t ، حينما وكله رسول الله r بحفظ زكاة رمضان، فأتاه آت فجعل يحثو من الطعام، فأخذه، فقال: لأرفعنك إلى رسول الله r ... فذكر الحديث، وفيه: فقال الشيطان له: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي، وقال له: لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي r : «صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان»[2].

وقد تناول البلاغيون في حديثهم عن الجملة الخبرية الغرض من الخبر، وذكروا أن الأصل في المخبر أن يقصد بخبره إفادة المخاطب؛ إما أن يفيده حكمًا جديدًا تتضمنه الجملة، ويسمى هذا الغرض (فائدة الخبر)، وإما أن يفيده أنه عالم بالخبر، ويسمى هذا الغرض (لازم الفائدة). وقد يقصد المخبر غرضًا آخر غير الإفادة بحسب ما يقتضيه المقام الذي قيل فيه الخبر، كأن يريد به الفخر، أو العتاب، أو إظهار الضعف أو التحسر، أو الاسترحام أو غيرها

---

(١) تقريب التدمرية: ١٣، وينظر: التدمرية: ٣.

(٢) أخرجه البخاري تعليقاً بصيغة الجزم (٢٣١١ و٣٢٧٥ و٥٠١٠).

من الأغراض التي تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال. وهذه الأغراض منها ما يراعى فيه حال المتكلم، ومنها ما يراعى فيه حال المخاطَب.

وإذا كان الغرض من الخبر هو (إفادة المخاطَب) فإن البلاغيين نظروا إلى المخاطَب، فوجدوا أنه لا يخلو من ثلاث حالات؛ إما أن يكون خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه الخبر، وإما أن يكون متصورًا له؛ مترددًا فيه ومتسائلاً عنه، وإما أن يكون منكرًا له. وقسموا على ذلك الخبر إلى أضرب ثلاثة:

الأول: يسمى ابتدائيًا، ويلقى إلى خالي الذهن، فيكون خاليًا من المؤكدات.

الثاني: يسمى طلبيًا، ويلقى إلى المتردد والمتسائل، فيستحسن توكيد الخبر بما يزيل تساؤله وتردده.

الثالث: يسمى إنكاريًا، ويلقى إلى المنكر، فيؤكد بمؤكد أو أكثر، وجوبًا، على حسب قوة إنكاره(١).

والخبران الطلبي والإنكاري كلاهما يؤكدان لكن الفرق بينهما كما ذكر البلاغيون أن الطلبي توكيده مستحسن، وأما الإنكاري فتوكيده واجب(٢).

وترك المستحسن يخل بالبلاغة، لكن ليس كإخلال ترك الواجب، قال ابن يعقوب المغربي في ترك تأكيد الخبر الطلبي: ((من لم يؤكد والحالة هذه لا يكون في درجة التترل عن البلاغة كحال من لم يؤكد في الإنكار؛ بل حال من لم يؤكد في الإنكار أنزل، وإن كان كل منهما قد فاته ما يراعى في باب البلاغة))(٣).

وأما التفريق بعدد المؤكدات فلا أراه، لمجيء الطلبي بأكثر من مؤكد كما سيأتي في شواهد الخبر الطلبي. وكما قيل في تفاوت التأكيد في الخبر الإنكاري بحسب قوة الإنكار أو ضعفه، يقال أيضًا بتفاوت التأكيد في الخبر الطلبي بحسب قوة التردد والتساؤل والظن أو ضعفها.

---

(١) ينظر: دلائل الإعجاز: ٣٢٥، ومفتاح العلوم: ١٧٠، والمصباح: ٩، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٤٣، والطراز: ٥١٧، وشروح التلخيص: ١/١٩٢-٢٠٨.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ١/٢٠٥-٢٠٦.

(٣) مواهب الفتاح: ١/٢٠٥، وينظر: حاشية الدسوقي على مختصر السعد: ٢/٢٠٦.

واستشهد البلاغيون لأضرب الخبر بقول الله U: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ $ إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ $ قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ $ قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ $ وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [يس: ١٣-١٧]، حيث زاد الرسل في تأكيد الخبر فقالوا: ﴿رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ بعد أن كان أقل تأكيدًا في قولهم: ﴿إِنَّا إِلَيْكُمْ مُرْسَلُونَ﴾ وما ذاك إلا لزيادة المخاطبين في تكذيبهم(١)، والله أعلم.

وذكروا تأييدًا لذلك قصة الكندي المتفلسف مع أبي العباس، وسبقت في التمهيد(٢).

وقد يخالف بين أضرب الخبر، فيترل خالي الذهن مترلة المتسائل، أو مترلة المنكر، فيؤكد له الخبر، وكذا العكس، فلا يؤكد الخبر، وسيأتي بيان ذلك في الفصل الخامس بإذن الله.

وقد جاء الخبر في البلاغة النبوية مراعيًا لأحوال المخاطب في هذا الغرض، ومن أمثلة ذلك ما يلي:

١- الخبر الابتدائي.

كثير من الأخبار التي يلقيها النبي r على أصحابه y من هذا الضرب، لكونهم ممن يصدق بخبره، ولا يتردد فيه، ولذا تأتي خالية من التأكيد، ويغلب ذلك في مقام التعليم، إذ يأتي المخاطب راغبًا في الخبر غير متردد فيه ولا منكر له، وما جاء مؤكدًا فلغرض يتعلق بالمقام، وسيأتي بيان هذا بإذن الله في موضعه.

ومن الخبر الابتدائي حديث جبريل u حين أتى النبي r يومًا على هيئة رجل، وكان النبي r بارزًا للناس، فقال: ما الإيمان؟ قال: «**الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَبِلِقَائِهِ، وَرُسُلِهِ، وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ**» قال: ما الإسلام؟ قال: «**الإِسْلامُ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَلا تُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ**» قال: ما الإحسان؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ» قال: متى الساعة؟

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ١٧١، وشروح التلخيص: ١/٢٠٦.

(٢) ينظر ص (١٧) من هذا البحث.

قال: «إِذَا وَلَدَتْ الأَمَةُ رَبَّهَا، وَإِذَا تَطَاوَلَ رُعَاةُ الإِبِلِ الْبُهْمُ فِي الْبُنْيَانِ، فِي خَمْسٍ لا يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ اللَّهُ» ثم تلا النبي r : ﴿إِنَّ اللهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ الآية [لقمان: ٣٤]، ثم أدبر، فقال: «رُدُّوهُ» فلم يروا شيئًا، فقال: «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ»(١).

المخاطب هنا جبريل u ، إلا أن المقصود بالخطاب هم الصحابة y، بل كبار الصحابة y الذين عرفوا الإسلام، ويهمهم معرفة مراتب الدين، والفروق بينها، فهو مقام تعليم لهم، وتعريض بحاجتهم إلى هذه المعرفة، كما قال النبي r : «هَذَا جِبْرِيلُ جَاءَ يُعَلِّمُ النَّاسَ دِينَهُمْ» وفي رواية مسلم: «هَذَا جِبْرِيلُ أَرَادَ أَنْ تَعَلَّمُوا إِذْ لَمْ تَسْأَلُوا» وقد كان النبي r قال للصحابة y قبل أن يأتي جبريل u : «سَلُونِي» فهابوه أن يسألوه(٢)، على أن النبي r لم يكن يعلم أنه جبريل u إلا بعد أن ولَّى، كما جاء في بعض الروايات، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((في رواية أبي فروة: «وَالَّذِي بَعَثَ مُحَمَّدًا بِالْحَقِّ، مَا كُنْت بِأَعْلَم بِهِ مِنْ رَجُل مِنْكُمْ، وَإِنَّهُ لَجِبْرِيل» وفي حديث أبي عامر: ثم ولَّى، فلما لم نر طريقه قال النبي r : «سُبْحَان الله، هَذَا جِبْرِيل جَاءَ لِيُعَلِّم النَّاس دِينَهمْ. وَالَّذِي نَفْس مُحَمَّد بِيَدِهِ، مَا جَاءَنِي قَطُّ إِلاّ وَأَنَا أَعْرِفهُ، إِلاّ أَنْ تَكُون هَذِهِ الْمَرَّة» وفي رواية التيمي: ثم نهض فولَّى، فقال رسول الله r : «عَلَيَّ بِالرَّجُلِ» فطلبناه كل مطلب، فلم نقدر عليه. فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَنْ هَذَا؟ هَذَا جِبْرِيل أَتَاكُمْ لِيُعَلِّمكُمْ دِينكُمْ، خُذُوا عَنْهُ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا شُبِّهَ عَلَيَّ مُنْذُ أَتَانِي قَبْل مَرَّتِي هَذِهِ، وَمَا عَرَفْته حَتَّى وَلَّى»))(٣). وعلى هذا فإن النبي r خاطب جبريل u على أنه رجل جاء ليتعلم. ولما كان المقام مقام تعليم جاءت الأخبار خالية من التأكيد، والله أعلم.

ومن ذلك حديث طلحة بن عبيد الله t قال: جاء رجل إلى رسول الله r ، من أهل نجد، ثائر الرأس، يُسمع دَوِيّ صوته ولا يُفقه ما يقول، حتى دنا، فإذا هو يسأل عن

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٠ و٤٧٧٧) ، ومسلم: (٩ و١٠).

(٢) ينظر: بلاغة الحوار في صحيح مسلم: ٢٧ و٣٥٤.

(٣) فتح الباري: ١/١٢٤.

الإسلام، فقال رسول الله r : «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**» فقال: هل علي غيرها؟ قال: «لا إِلاّ أَنْ تَطَوَّعَ» قال رسول الله r : «**وَصِيَامُ رَمَضَانَ**» قال: هل علي غيره؟ قال: «لا إِلاّ أَنْ تَطَوَّعَ» وذكر له رسول الله r الزكاة، قال: هل علي غيرها؟ قال: «لا إِلاّ أَنْ تَطَوَّعَ» فأدبر الرجل وهو يقول: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص، قال رسول الله r : «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»(١).

والمقام هنا مقام تعليم لأركان الإسلام مع رجل يجهلها، ويسأل الرسول r راغبًا في معرفتها، لا مترددًا فيها ولا منكرًا لها، ولذا جاءت أخبار الرسول r من الضرب الابتدائي خالية من التأكيد، لأن المخاطب يستقبلها بتصديق وإيمان، والله أعلم.

ومن هذا الضرب حديث وفد عبد القيس حينما قدموا على رسول الله r فقالوا له: يا رسول الله، إن بيننا وبينك المشركين من مضر، وإنا لا نصل إليك إلا في أشهر الحرم، حدثنا بجمل من الأمر، إن عملنا به دخلنا الجنة، وندعو به من وراءنا، فقال لهم: «**آمُرُكُمْ بِأَرْبَعٍ، وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ، الإِيمَانِ بِاللهِ، هَلْ تَدْرُونَ مَا الإِيمَانُ بِاللهِ؟ شَهَادَةُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِن الْمَغَانِمِ الْخُمُسَ. وَأَنْهَاكُمْ عَنْ أَرْبَعٍ: مَا انْتُبِذَ فِي الدُّبَّاءِ، وَالنَّقِيرِ، وَالْحَنْتَمِ، وَالْمُزَفَّتِ**» وفي رواية: «وَلا تَشْرَبُوا فِي الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ»(٢). وقد جاء هؤلاء الوفد طالبين من النبي r أن يعلمهم الدين وأحكامه، فأخبرهم النبي r بما يأمرهم به وما ينهاهم عنه في خبر خلا من التأكيد، لكون المخاطب ممن يصدق الخبر ولا يتردد فيه أو يكذب، بل هو راغب في العلم به، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أبي هريرة t قال: كان رسول الله r إذا كبر في الصلاة سكت هُنَيَّة قبل أن يقرأ، فقلت: يا رسول الله، بأبي أنت وأمي، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ما تقول؟ قال: «**أَقُولُ: اللَّهُمَّ بَاعِدْ بَيْنِي وَبَيْنَ خَطَايَايَ كَمَا بَاعَدْتَ بَيْنَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ، اللَّهُمَّ نَقِّنِي مِنْ خَطَايَايَ كَمَا يُنَقَّى الثَّوْبُ الأَبْيَضُ مِنْ الدَّنَسِ، اللَّهُمَّ اغْسِلْنِي**

(١) أخرجه البخاري: (٤٦) ، ومسلم: (١١).

(٢) أخرجه البخاري: (٥٣ و٤٣٦٨ و٦١٧٦)، ومسلم: (١٧).

مِنْ خَطَايَايَ بِالثَّلْجِ وَالْمَاءِ وَالْبَرَدِ»[1]، وإجابة النبي r لأبي هريرة t جـــاءت بخـــبر لا تأكيد فيه، وهذا مقتضى حال المخاطب أبي هريرة t الذي استخبر راغبًا في العلم، وهـــو ممن يتلقى خبر رسول الله r بيقين وتصديق لا يشوبهما تردد ولا إنكار، والله أعلم.

٢- الخبر الطلبي.

يؤكد الخبر الطلبي استحسانًا، ويخاطب به من يبدو عليه التســاؤل والتعجـــب أو التردد، والظن، وأكثر ما يأتي التأكيد بـــ(إنّ)، ويكون الخبر جوابًا عن تساؤل يحمل معـــه التعجب والتردد، وليس كل جواب سؤال يرد عليه التأكيد كما نبه على ذلك عبد القـــاهر الجرجاني (٤٧١هـــ)، فقال بعد أن بيّن أن (إنَّ) في كثير من مواقعها يقصد بها إلى الجواب، وضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم: ((وجب إذا قيل: إنها جواب سائل، أن يشترط فيـــه أن يكون للسائل ظن في المسؤول عنه، على خلاف ما أنت تجيبه به، فأما أن يجعـــل مجـــرد الجواب أصلاً فيه فلا؛ لأنه يؤدي أن لا يستقيم لنا إذا قال الرجل: كيف زيد؟ أن تقـــول: صالح. وإذا قال: أين هو؟ أن تقول: في الدار. وأن لا يصح حتى تقول: إنه صالح، وإنـــه في الدار. وذلك ما لا يقوله أحد))[2].

ومن شواهده حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها سمعت النبي r ينهى عن الركعتين بعد العصر، قالت: ثم رأيته يصليهما، حين صلى العصر ثم دخل علي، وعندي نسوة من بني حرام من الأنصار، فأرسلت إليه الجارية، فقلت: قومي بجنبه، فقولي له: تقول لك أم سلمة: يا رسول الله، سمعتك تنهى عن هاتين وأراك تصليهما؟ فإن أشار بيده فاســتأخري عنـــه. ففعلت الجارية، فأشار بيده، فاستأخرت عنه، فلما انصرف قال: «سَأَلْتِ عَنْ الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ، **وَإِنَّهُ أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ**، فَشَغَلُونِي عَنْ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْـــرِ، فَهُمَـــا هَاتَانِ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري: (٧٤٤)، ومسلم: (٥٩٨).

(٢) دلائل الإعجاز: ٣٢٦.

(٣) أخرجه البخاري: (١٢٣٣)، ومسلم: (٨٣٤).

وأكد النبي r لأم سلمة الخبر لما وقع عندها من التساؤل التعجبي عن الركعتين اللتين صلاهما بعد العصر، وقد كان النبي r ينهى عن الصلاة بعد العصر، فظنت أنه حصل منه ما نهى عنه، إما نسيانًا وإما نسخًا وإما تخصيصًا[1]، فبين لها النبي r الأمر مؤكدًا لإزالة ما علق بها من إشكال وتعجب، وحصل التأكيد بـ(إنّ) وضمير الشأن في (إنه)، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أم المؤمنين حفصة رضي الله عنها أن النبي r أمر أزواجه أن يحللن عام حجة الوداع، فقالت حفصة: فما يمنعك؟! وفي رواية قالت: يا رسول الله، ما شأن الناس حلوا بعمرة، و لم تحلل أنت من عمرتك؟! قال: «**إِنِّي لَبَّدْتُ رَأْسِي**، وَقَلَّدْتُ هَدْيِي، فَلا أَحِلُّ حَتَّى أَنْحَرَ»[2]، وحفصة رضي الله عنها في هذا الحديث رأت أن النبي r أمرها وأمهات المؤمنين رضي الله عنهن أن يحللن بعمرة، وأمر من لم يسق الهدي من الصحابة y بذلك فحلوا، إلا أن النبي r لم يحلل، فكان ذلك مثار تعجب عندها وتساؤل، فسألت النبي r متعجبة من فعله، وهذا حال منها يقتضي أن يخبرها النبي r بشأنه في أسلوب يزيل ما عندها من تساؤل وتعجب، فكان أن أكد لها الخبر بـ(إنَّ)، وتقديم الفاعل المعنوي، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أم سلمة رضي الله عنها أن النبي r آلى من نسائه شهرًا، فلما مضى تسعة وعشرون يومًا غدا أو راح، فقيل له: إنك حلفت أن لا تدخل شهرًا. فقال: «**إِنَّ الشَّهْرَ يَكُونُ تِسْعَةً وَعِشْرِينَ يَوْمًا**»[3]، وتأكيد النبي r الخبر لإزالة ما توهمه المخاطب من كون الشهر لا يكون إلا ثلاثين يومًا، وحصل تأكيد الخبر بـ(إنَّ)، وتقديم الفاعل المعنوي، والله أعلم.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله r : «يَغْزُو جَيْشٌ الْكَعْبَةَ، فَإِذَا كَانُوا بِبَيْدَاءَ مِنْ الأَرْضِ **يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ**» قلت: يا رسول الله، كيف

---

(١) فتح الباري: ٣/١٠٧.

(٢) أخرجه البخاري: (١٥٦٦ و٤٣٩٨) ، ومسلم: (١٢٢٩).

(٣) أخرجه البخاري: (١٩١٠) ، ومسلم: (١٠٨٥).

يخسف بأولهم وآخرهم وفيهم أسواقهم ومن ليس منهم؟! قال: «**يُخْسَفُ بِأَوَّلِهِمْ وَآخِرِهِمْ**، ثُمَّ يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»(1).

إن المخاطبة في هذا الحديث وهي عائشة رضي الله عنها لا تشك في خبر رسول الله r ، ولكنها استشكلت أن يقع العذاب على من لم يشارك في القتال، فيخسف بالجيش الغازي في البيداء وفيها من ليس منهم.

واستشكال عائشة رضي الله عنها وتعجبها من حدوث ذلك استحسن معه تأكيد الخبر، وكان ذلك بتكرار الخبر تأكيدًا لوقوعه، ثم جاء بخبر آخر يزيل الإشكال «يُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ» والله أعلم.

وعن أنس بن مالك t أن إبراهيم بن النبي r كان يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله r تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف t : وأنت يا رسول الله! فقال: «يَا ابْنَ عَوْفٍ، **إِنَّهَا رَحْمَةٌ**» ثم أتبعها بأخرى، فقال: «إِنَّ الْعَيْنَ تَدْمَعُ، وَالْقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلا نَقُولُ إِلاّ مَا يَرْضَى رَبُّنَا. وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»(2)، ولعل المخاطب حينما رأى عيني النبي r تذرفان توهم أن النبي r حصل له مثل ما يحصل للناس من الجزع والتفجع وضعف الصبر، مع كونه ينهى عن ذلك، فتساءل وتعجب t ، قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((قوله: وأنت يا رسول الله! فيه معنى التعجب، والواو يستدعي معطوفًا عليه، أي الناس لا يصبرون على المصائب، ويتفجعون، وأنت تفعل كفعلهم! أي لا ينبغي لك أن تتفجع، كأنه استغرب ذلك منه؛ لأنه يدل على ضعف النفس، والعجز عن مقاومة المصيبة بالصبر، ويخالف ما عهده منه من الحث على الصبر، والنهي عن الجزع، وأجاب عنه بقوله: «إِنَّهَا رَحْمَةٌ» أي الحالة التي تشاهدها مني يا ابن عوف رقة ورحمة على المقبوض، ينبعث عن التأمل فيما هو عليه، لا ما توهمت من الجزع وقلة الصبر))(3). لهذا كان حال المخاطب مقتضيًا أن يؤكد له الخبر ليرد توهمه، ويزيل تعجبه، والله أعلم.

---

(1) أخرجه البخاري: (٢٨٣ و٢٨٥) ، ومسلم: (٣٧١).

(2) أخرجه البخاري: (١٣٠٣)، ومسلم: (٢٣١٥).

(3) الكاشف عن حقائق السنن: ٣٩١/٣، وينظر: فتح الباري: ١٧٤/٣، وعمدة القاري: ١٠٢/٨.

٣- الخبر الإنكاري.

يخاطب بالخبر الإنكاري من غلب عليه التكذيب، أو من يبدو عليه علامات الإنكار، ويكون مؤكدًا وجوبًا بمؤكد أو أكثر بحسب المقام.

ومن أمثلته خطابه r للمشركين في بدء الدعوة لما نزل قول الله U: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] خرج حتى صعد الصفا فهتف: «يَا صَبَاحَاهْ» فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا: محمد، فاجتمعوا إليه، فقال: «يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي فُلانٍ، يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ» فاجتمعوا إليه، فقال: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «**فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ**»(١)، وأكد النبي r الخبر للمشركين، لأنهم ممن يتوقع منهم التكذيب في مثل ما جاء به، وتقرر عند النبي r بخبر الله U في القرآن أنهم يكذبونه، وقد قال له ورقة بن نوفل بعد أن جاءه الوحي أول مرة في غار حراء: يا ليتني فيها جذعًا، ليتني أكون حيًا إذ يخرجك قومك. فقال رسول الله r: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟!» قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي(٢). والله U بعد أن أمره بالإنذار في الآية السابقة قال: ﴿فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٦]، ولعله اكتفى بالتأكيد بـ(إنّ) لكونه قدم في الكلام ما يقرر صدقه عندهم، والله أعلم.

ومن الخطاب الإنكاري مع الكفار قوله r لليهود: «يَا مَعْشَرَ الْيَهُودِ، وَيْلَكُمْ اتَّقُوا اللهَ، **فَوَاللهِ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللهِ حَقًّا، وَأَنِّي جِئْتُكُمْ بِحَقٍّ**، فَأَسْلِمُوا» قاله ثلاث مرار(٣)، وقد بالغ النبي r في تأكيد علمهم برسالته لأنهم قوم بهت أهل كذب وتكذيب، ولذا كانوا يقولون بعد كل مرة: ما نعلمه.

ومن خطابه للكفار وصيته r لمعاذ بن جبل t حين بعثه إلى اليمن قال فيها: «ادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا **أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ**، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٧٧٠ و٤٨٠١) ، ومسلم (٢٠٨) عن ابن عباس t .

(٢) أخرجه البخاري: (٤) ، ومسلم (١٦٠).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٣٢٩ و٣٩١١).

بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ **أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ**، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لَكَ بِذَلِكَ فَأَخْبِرْهُمْ **أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ...**»[(١)]، فتأكيد الإخبار بتوحيد الألوهية، والرسالة المحمدية، وفرض الصلاة والزكاة، لكون المخاطبين من أهل الكفر الذين يتوقع منهم التكذيب والإنكار، والله أعلم.

ومن ذلك خطابه لمسيلمة الكذاب، وقد سبق ذكره[(٢)]، وفيه: «وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ **لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ، وَإِنِّي لأَرَاكَ** الَّذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ».

ومن ذلك أيضًا رسالته إلى هرقل عظيم الروم، وقد سبق ذكرها[(٣)]، وفيها من التأكيد قوله r : «**فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ**» وقوله: «فَإِنْ تَوَلَّيْتَ **فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ**».

ومن الخبر الإنكاري مع غير الكفار حديث أبي بكرة t أن الأقرع بن حابس التميمي جاء إلى رسول الله r فقال: إنما بايعك سُرَّاق الحجيج من أسلم وغفار ومزينة وجهينة. فقال رسول الله r : «أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ أَسْلَمُ وَغِفَارُ وَمُزَيْنَةُ وَجُهَيْنَةُ خَيْرًا مِنْ بَنِي تَمِيمٍ وَبَنِي عَامِرٍ وَأَسَدٍ وَغَطَفَانَ، أَخَابُوا وَخَسِرُوا؟» ومد بها صوته، فقال: نعم. قال: «**فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهُمْ لأَخْيَرُ مِنْهُمْ**» وفي رواية: «إِنَّهُمْ لَخَيْرٌ مِنْهُمْ»[(٤)]، ولما كان المخاطب بهذه الحال المذكورة من الفخر والطعن التي جاءت بصيغة مؤكدة مقصورة لا تقبل الجدل والشك، كان مقتضى حاله أن يكون الرد عليه حاسمًا مؤكدًا بأقوى وسائل التأكيد، بحيث لا يقبل الجدال والشك والتردد، حسمًا لدعوى الجاهلية، وانتصارًا لأولئك الذين بادروا إلى الإسلام، كما سبق ذكر ذلك في المبحث الخامس من الفصل الأول[(٥)].

وحينما أنكر الناس إمارة أسامة بن زيد t على البعث الذي بعثه رسول الله r ، وطعنوا فيها كما طعنوا من قبل في إمارة أبيه، أكد الرسول r فضله واستحقاقه للإمارة

---

(١) أخرجه البخاري: (١٤٩٦) ، ومسلم: (١٩).

(٢) ينظر ص (٦٤) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٢٨٤) من هذا البحث.

(٤) أخرجه البخاري: (٣٥١٦ و٦٦٣٥) مسلم: (٢٥٢٢).

(٥) ينظر ص (١٤٣) من هذا البحث.

كما كان أبوه كذلك، وقد سبق الحديث[(١)]، وفيه: «إِنْ تَطْعَنُوا فِي إِمَارَتِهِ -يريد أسامة- فَقَدْ طَعَنْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ، **وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لَهَا، وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لأَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ**، وَايْمُ اللهِ **إِنَّ هَذَا لَهَا لَخَلِيقٌ** -يريد أسامة-، **وَايْمُ اللهِ إِنْ كَانَ لأَحَبَّهُمْ إِلَيَّ مِنْ بَعْدِهِ**، فَأُوصِيكُمْ بِهِ؛ **فَإِنَّهُ مِنْ صَالِحِيكُمْ**».

ومن ذلك حديث ابن عباس t أن نفرًا من أصحاب النبي r مروا بماء فيهم لديغ، أو سليم، فعرض لهم رجل من أهل الماء فقال: هل فيكم من راق، إن في الماء رجلاً لديغًا، أو سليمًا، فانطلق رجل منهم، فقرأ بفاتحة الكتاب على شاءٍ، فبرأ، فجاء بالشاء إلى أصحابه، فكرهوا ذلك، وقالوا: أخذت على كتاب الله أجرًا. حتى قدموا المدينة، فقالوا: يا رسول الله، أخذ على كتاب الله أجرًا. فقال رسول الله r: «**إِنَّ أَحَقَّ مَا أَخَذْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا كِتَابُ اللهِ**»[(٢)]، فأكد النبي r الخبر لأن بعض الذين كانوا في النفر أنكروا على الراقي أن يأخذ أجرة على رقيته بكتاب الله U، فأخبرهم النبي r بالقول المؤكد، وأكد ذلك أيضًا بالفعل، كما في الرواية الأخرى أنه قال لهم: «قَدْ أَصَبْتُمْ. اقْسِمُوا، وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ سَهْمًا» والله أعلم.

ومن ذلك حديث عمرو بن تغلب t أن رسول الله r أُتي بمال أو سبي، فقسمه، فأعطى رجالاً وترك رجالاً، فبلغه أن الذين ترك عتبوا، فحمد الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، **فَوَاللهِ، إِنِّي لأُعْطِي الرَّجُلَ**، وَأَدَعُ الرَّجُلَ، وَالَّذِي أَدَعُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ الَّذِي أُعْطِي، وَلَكِنْ أُعْطِي أَقْوَامًا لِمَا أَرَى فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْجَزَعِ وَالْهَلَعِ، وَأَكِلُ أَقْوَامًا إِلَى مَا جَعَلَ اللهُ فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ الْغِنَى وَالْخَيْرِ، فِيهِمْ عَمْرُو بْنُ تَغْلِبَ» فوالله، ما أحب أن لي بكلمة رسول الله r حمر النعم[(٣)].

---

(١) ينظر ص (١٩٤) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٧٣٧) من حديث ابن عباس t، وأخرجه البخاري: (٢٢٧٦)، ومسلم: (٢٢٠١) من حديث أبي سعيد الخدري t. وقوله: أو سليم، قال ابن حجر في فتح الباري: ١٠/١٩٩: ((شك من الراوي، والسليم هو اللديغ، سمي بذلك تفاؤلاً من السلامة، لكون غالب من يلدغ يعطب)).

(٣) أخرجه البخاري: (٩٢٣).

وهذا المقام مقام تأكيد للمخاطب، لما حصل منه من إنكار على القسمة، ووجد في نفسه على رسول الله r وعتاب له، فاحتاج النبي r إلى أن يؤكد الخبر بعدة مؤكـــدات، من أعظمها القسم، ليزيل ما في نفوس أصحابه y، والله أعلم.

وقد يأتي الخبر مؤكدًا مراعاة لحال المخاطب، لا لقصد إفادته فقط، وإنما لأغـــراض أخرى لا ينظر فيها إلى كون المقام مقام إنكار أو تساؤل وتردد فيؤكد الخبر، وإنمـــا يـــأتي التأكيد لترسيخ الخبر وتمكينه في نفس المخاطب ترغيبًا أو ترهيبًا أو تسلية وتطييبًا أو إشعارًا بالاهتمام، أو غير ذلك[1].

ومن الترغيب حديث عبد الله بن أبي أوفى t في خطبته r قبل لقاء العدو في غزوة الأحزاب لتثبيت الناس وتصبيرهم وبث التفاؤل بالنصر في نفوسهم، وحثهم على الجهـــاد، وقد سبق بتمامه[2]، وفيه: «أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَـــلُوا اللهَ الْعَافِيَـــةَ، فَـــإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا **أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**» فتأكيد الخبر في الخطبة يقصد به تمكينه في النفس في مقام الحث والترغيب في الجهاد وملاقاة الأعداء بصبر وثبـــات، والله أعلم.

ومن ذلك حديث جرير بن عبد الله البجلي t في خطبته لما جاءه قوم عليهم أثـــر الحاجة والفاقة، فتَمَعَّر وجه رسول الله r لما رأى ما بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى الظهر، ثم صعد منبرًا صغيرًا، فحمد الله، وأثنى عليه، فقال: «أَمَّـــا بَعْدُ، **فَإِنَّ اللهَ أَنْزَلَ فِي كِتَابِهِ**: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: ١]» الحديث[3]، وجاء التأكيد في مقام الحث والترغيب في الصدقة لهؤلاء المحتاجين، والله أعلم.

---

(١) ينظر: عروس الأفراح ١/٢١٩-٢٢٠، والبلاغة العالية في علم المعاني: ٤٦، وخصائص التراكيـــب: ٩٤، وعلـــم المعاني، لفيود: ١/٥٠.

(٢) ينظر ص (١٨٧) من هذا البحث.

(٣) أخرجه مسلم (١٠١٧).

ومن الترهيب حديث أبي مسعود البدري t في ضربه غلامه بالسوط، وقد سبق بتمامه في الفصل الماضي[1]، وفيه أن النبي r قال له: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، **أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ**» وفي رواية: «**وَاللهِ، لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ**» قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا، وأعتقه[2]، فالتأكيد هنا يقصد به تمكين الخبر وترسيخه في نفس المخاطب في مقام الترهيب من الفعل السيء، والله أعلم.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أنها اشترت نُمْرُقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله r قام على الباب، فلم يدخله، فعرفت في وجهه الكراهية، فقلت: يا رسول الله، أتوب إلى الله وإلى رسوله r، ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله r: «مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ؟» قلت: اشتريتها لك؛ لتقعد عليها، وتوسدها. فقال رسول الله r: «**إِنَّ أَصْحَابَ هَذِهِ الصُّوَرِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُونَ**، فَيُقَالُ لَهُمْ أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ» وقال: «**إِنَّ الْبَيْتَ الَّذِي فِيهِ الصُّوَرُ لا تَدْخُلُهُ الْمَلائِكَةُ**» وفي رواية قال: «**إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُصَوِّرُونَ هَذِهِ الصُّوَرَ**»[3]، وقد أكد النبي r هذه الأخبار زيادة في الزجر عن اتخاذ الصور[4]، والله أعلم.

ومن التسلية وتطييب النفس حديث عائشة لما جاءها الحيض وهي في طريقها إلى الحج فحزنت لذلك حزنًا شديدًا، فقال لها النبي r مما قال لها: «**إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ**» الحديث، وقد سبق ذكره بتمامه في الفصل الأول[5]، فلعل النبي r أكد لها الخبر لقصد تسليتها وتخفيف مصابها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أنس بن مالك t أن رجلاً قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قال: «فِي النَّارِ» فلما قَفَّى دعاه -وفي رواية عند أحمد: فلما رأى ما في وجهه- فقال: «**إِنَّ أَبِي**

---

(١) ينظر ص (٢٨٩) من هذا البحث.

(٢) أخرجه مسلم: (١٦٥٩).

(٣) أخرجه البخاري: (٢١٠٥ و٣٢٢٤ و٦١٠٩) ، ومسلم (٢١٠٧).

(٤) ينظر: فتح الباري: ١٠/٣٩٠.

(٥) ينظر ص (٩٦) من هذا البحث.

وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»[1]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((وقوله r : «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ» هو من حسن العشرة للتسلية بالاشتراك في المصيبة))[2].

ومن ذلك حديث أنس t أن رجلاً جاء فدخل الصف، وقد حفزه النفس، فقال: الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، فلما قضى رسول الله r صلاته قال: «أَيُّكُمْ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ؟» فأَرَمّ القوم، فقال: «أَيُّكُمْ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا؟ **فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا**» فقال رجل: جئت وقد حفزني النفس فقلتها. فقال: «لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا»[3]، وتأكيد النبي r الخبر «فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا» وفي رواية عند الطبراني: «فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ إِلاّ صَوَابًا» لتطمين المخاطب حينما سكت ولم يجب النبي r ظانًا أنه قد أخطأ في فعله، وقد جاء في رواية أنه قال: فوددت أني خرجت من مالي، وأني لم أشهد مع النبي r تلك الصلاة[4]، فلما رأى النبي r منه ذلك أراد أن يطمئنه فأكد له الخبر، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أم حارثة بن سراقة y لما جاءت بعد ما استشهد ابنها حارثة t في غزوة بدر فقالت: يا نبي الله، ألا تحدثني عن حارثة، فإن كان في الجنة صبرت، وإن كان غير ذلك اجتهدت عليه في البكاء، ومضى الحديث بتمامه في المبحث الرابع من الفصل الأول[5]، وفيه قال النبي r لها: «**إِنَّهَا جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ**» حيث رأى النبي r ما بها من عظم المصاب بولدها لعظم مترلته عندها، فلم يكتف بجواب سؤالها عن مآله في الآخرة أن يخبرها بأنه في الجنة، بل أكد لها ذلك بعدة مؤكدات، ولعل النبي r أراد أن يطمئنها ويسليها عن فقد ابنها، والله أعلم.

وقد يأتي التأكيد في مقام الاعتذار لتطييب نفس المخاطب وإزالة ما علق بنفسه تجاه النبي r ، ومن ذلك حديث الصَّعْب بن جَثَّامة t أنه أهدى لرسول الله r حمارًا وحشيًا وهو بالأَبْواء أو بوَدَّان، فرد عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «**أَمَا إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلاّ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٠٣) ، ورواية أحمد في المسند: ٣/١١٩.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٣/٧٩.

(٣) أخرجه مسلم (٦٠٠)، وأخرجه البخاري: (٧٩٩) من رواية رفاعة بن رافع t بلفظ آخر.

(٤) ينظر: فتح الباري: ٢/٢٨٦.

(٥) ينظر ص (١٠٤) من هذا البحث.

أَنَّا حُرُمٌ»[1]، قال النووي (٦٧٦هـ) في فوائد الحديث: ((فيه أنه يستحب لمن امتنع من قبول هدية ونحوها لعذر أن يعتذر بذلك إلى المهدي تطييبًا لقلبه))[2]، والنبي r أكد الخبر وأتى به بأسلوب القصر ليفيد المخاطب أن لا قصد له في الرد غير المقصور عليه، والله أعلم.

وجاء مثل هذا الأسلوب في مثل هذا المقام في حديث جابر بن عبد الله t قال: بعثني رسول الله r في حاجة له، فانطلقت، ثم رجعت وقد قضيتها، فأتيت النبي r فسلمت عليه، فلم يرد علي، فوقع في قلبي ما الله أعلم به، فقلت في نفسي: لعل رسول الله r وجد علي أني أبطأت عليه، ثم سلمت عليه، فلم يرد علي، فوقع في قلبي أشد من المرة الأولى، ثم سلمت عليه فرد علي، فقال: «**إِنَّمَا مَنَعَنِي أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ أَنِّي كُنْتُ أُصَلِّي**» وفي رواية: «**إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ إِلاَّ أَنِّي كُنْتُ أُصَلِّي**» وكان على راحلته متوجها إلى غير القبلة[3]. وتأكيد النبي r لخبر الاعتذار يأتي حرصًا منه على نفوس أصحابه حتى لا يقذف الشيطان فيها شيئًا، والله أعلم.

وقد يأتي التأكيد في مقام الثناء على العمل الصالح العظيم، إعجابًا به وإشعارًا للمخاطب بحسن صنيعه، ومن ذلك حديث أبي طلحة t السابق ذكره في الفصل الماضي[4]، وفيه أنه t تصدق ببستانه (بيرحاء) وكانت أحب أمواله إليه، فقال له الرسول r: «بَخٍ، **ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ**» وما فعله أبو طلحة t من تصدقه بأحب أمواله إليه معروف عظيم، يستوجب الثناء والشكر وإظهار الإعجاب به، ومما فعله النبي لذلك تأكيده الخبر «ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ» بتكراره، مع ما فيه من إشارة للبعيد ومجيئه بصيغة اسمية وتقديم لفظة (بخ) وسبق بيان ذلك في مواضعه، والله أعلم.

وقد يأتي التأكيد لإشعار المخاطب بالاهتمام ومن ذلك ما رواه أنس بن مالك t أن امرأة من الأنصار أتت النبي r معها أولاد لها، فقال النبي r: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ،**

---

(١) أخرجه البخاري: (١٨٢٥ و٢٥٧٣) ، ومسلم: (١١٩٣).

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٠٧/٨، وينظر: فتح الباري: ٣٤/٤.

(٣) أخرجه البخاري: (١٢١٧) ، ومسلم: (٥٤٠).

(٤) ينظر ص (٣١٣) من هذا البحث.

إِنَّكُمْ لأحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ» قالها **ثلاث مرار**[(١)]، وعنه أن النبي r أبصر نساء وصبيانًا من الأنصار مقبلين من عرس فقام مُمْتَنًّا أو قال: مُمْثِلاً، فقال: «**اللَّهُمَّ أَنْتُمْ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ**» قالها **ثلاث مرار**[(٢)]. وتأكيد النبي r الخبر في الموقفين فيه إشعار للأنصار باهتمام النبي r بهم، ومحبته لهم، وأنه يحفظ لهم فضلهم ونصرهم، وأكد الخبر في الموقف الأول بالقسم وإن واللام مع تكرار القول، وفي الموقف الثاني قدم لفظ (اللهم) للاستشهاد بالله على صدقه، وخلا التأكيد من القسم وإن واللام، لكن أغنى عن هذه المؤكدات قيامه إليهم مسرعًا ومشتدًا في ذلك فرحًا بهم، وإقبال المرء إلى من يحب هاشًا باشًا يوحي بمشاعر الحب الكامنة في النفس ما لا يوحيه كثير من الكلام، كما سبق بيانه[(٣)]، والله أعلم.

ومن ذلك حديث المسور بن مخرمة t وقد سبق في الفصل الأول[(٤)]، وفيه أن النبي r قسم أقبية بين ناس من أصحابه، ولم يعط أباه منها شيئًا، فقال له أبوه: انطلق بنا إلى رسول الله r عسى أن يعطينا منها شيئًا، فقام أبوه على الباب، فتكلم، فعرف النبي r صوته، فخرج ومعه قَبَاء، وهو يريه محاسنه، ويقول: «**خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، خَبَأْتُ هَذَا لَكَ**» وفي رواية: «يَا أَبَا الْمِسْوَرِ، **قَدْ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ**، يَا أَبَا الْمِسْوَرِ، **قَدْ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ**» فنظر إليه فقال: رضي مخرمة. ولعل إخبار النبي r مخرمة t بالتخبية مؤكدًا بالتكرار و(قد) ليؤنس مخرمة t ، ويسل ما قد ينشأ في نفسه من الظن بأن الرسول r قد نسيه أو أنه لم يرد إعطاءه، وحصل ما أراد النبي r فرضي مخرمة، وقد ذكرت فيما سبق أن بلاغة قول الرسول r تعاضدت مع حسن فعله، حيث بادر النبي r فتلقى المخاطب قبل أن يسأله، وجعل يريه محاسن القباء إرضاءً له وإشعارًا بالاهتمام به، والله أعلم.

هذه جملة من الأغراض جاء فيها الخبر مؤكدًا مراعاة من النبي r لحال المخاطب، ولعل فيما ذكرته من الشواهد كفاية في الدلالة على ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٨٦) ، ومسلم: (٢٥٠٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٧٨٥ و٥١٨٠) ، مسلم: (٢٥٠٨) وقوله: ممتنًا، أو ممثلاً، كلاهما هنا بمعنى قام قيامًا قويًا، والله أعلم، وينظر: فتح الباري: ٩/٢٤٨.

(٣) ينظر ص (٧٦) من هذا البحث.

(٤) ينظر ص (١٤٥) من هذا البحث.

ومما يتعلق بالجملة الخبرية أن النبي r ربما عبر عن الخبر بالصيغة الإنشائية، وربما عبر بالصيغة الخبرية عن الإنشاء، وسيأتي بيان ذلك في موضعه من الفصل الخامس بإذن الله U.

المبحث الثاني: الجملة الإنشائية.

الجملة الإنشائية هي التي لا يصح أن تقابل بالتصديق أو التكذيب.

وقسم البلاغيون (الإنشاء) إلى قسمين:

الأول: ما يستدعي مطلوبًا غير حاصل وقت الطلب، وهو الإنشاء الطلبي.

الثاني: ما ليس كذلك، وهو الإنشاء غير الطلبي.

أما الأول فيشمل: التمني، والاستفهام، والأمر، والنهي، والنداء.

وأما الثاني فمنه: القسم، والترجي، وصيغ المدح والذم، وغيرها.

وقد عني كثير من البلاغيين بدراسة الإنشاء الطلبي، وأهملوا دراسة غير الطلبي بحجة أن أساليب الإنشاء الطلبي غنية بالاعتبارات والملاحظات البلاغية، كما أنها تخرج عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى بلاغية، بخلاف أساليب الإنشاء غير الطلبي فإن أكثر هذه الأساليب هي في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء، كما أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها(١).

وسأتناول في هذا الفصل ما ورد في أحاديث الصحيحين من نوعي الإنشاء، مما يظهر فيه مراعاة النبي r لمقتضى حال المخاطب، وسأبدأ بالإنشاء الطلبي لعناية البلاغيين به.

---

(١) ينظر: مختصر المعاني: ٢/ ٢٣٦، ومواهب الفتاح: ٢/٢٣٧، ودلالات التراكيب: ١٩٢، وعلم المعـاني، لفيـود: ٨٢/٢.

أولاً: الإنشاء الطلبي.

يذكر له البلاغيون خمسة أنواع: التمني، والاستفهام، والأمر، والنـــهي، والنـــداء. واختلفوا في أنواع أخرى هل تعد من الطلبي أو من غير الطلبي؟

وقد وردت أنواع الإنشاء الطلبي في أحاديث الرسول ﷺ في الصحيحين مراعى فيها حال المخاطب، إلا التمني فلم يتبين لي فيه حديث يظهر فيه مراعاة مقتضى حال المخاطب، والله الموفق للصواب، وسأرتب الأنواع حسب ترتيب البلاغيين لها: الاســـتفهام، فـــالأمر، فالنهي، فالنداء.

أ- الاستفهام.

- تعريفه.

الاستفهام: طلب العلم بشيء غير معلوم بأدوات خاصة[1]، ويعرفه بعـــض شـــراح التلخيص بأنه: طلب حصول صورة الشيء في الذهن[2].

وأدواته: الهمزة، وهل، وما، ومَن، وأي، وكم، وكيف، وأيـــن، وأنّـــى، ومـــتى، وأيَّان[3].

- معاني الاستفهام.

الأصل في الاستفهام ما ذُكِر، إلا أنه كثيرًا ما يخرج عن طلب الفهم والعلم بالشيء الذي لم يعلم إلى معان أخرى، تفهم من خلال السياق وقرائن الأحوال، كالتقرير والتعجب والإنكار والاستبطاء وغيرها[4]، وهي معان غير محصورة كما قال التفتازاني (٧٩٢هـ) في شرح كلام القزويني (٧٣٩هـ) عن معاني الاستفهام البلاغية: ((كلمة الاستفهام إذا امتنع حملها على حقيقته تولد منه بمعونة القرائن ما يناسب المقام، ولا تنحصر المتولدات فيما ذكره

(١) ينظر: علم المعاني، لفيود: ٢/١١٠، والاستفهام في الصحيحين: ١١.

(٢) ينظر: مختصر التفتازاني، ومواهب الفتاح، وحاشية الدسوقي على المختصر، كلها ضـــمن شـــروح التلخـــيص: ٢/٢٤٦.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٠٨، وشروح التلخيص: ٢/٢٤٦-٢٤٧.

(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٢٩٠، وأساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: ٤١١.

المصنف، ولا ينحصر أيضًا شيء منها في أداة دون أداة، بل الحاكم في ذلك هـو سـلامة الذوق وتتبع التراكيب، فلا ينبغي أن تقتصر في ذلك على معنى سمعته أو مثال وجدته مـن غير أن تتخطاه، بل عليك بالتصرف، واستعمال الروية، والله الهادي))[1].

وإذا خرج الاستفهام عن الأصل إلى هذه المعاني فهل يتجرد عن معنى الاستفهام؟ أو يقال: إن معنى الاستفهام لا زال متضمنًا فيه.

ذهب بعض العلماء إلى أن أدوات الاستفهام تتجرد عن معنى الاستفهام إذا أريد بها غير طلب العلم، وذهب بعضهم إلى أن من المعاني ما يتجرد معنى الاستفهام عنها، ومنها ما يبقى فيها معنى الاستفهام، ومنها ما يحتمل هذا وذاك[2].

وذهب آخرون إلى أن معنى الاستفهام لا زال باقيًا، وهو الذي ذهب إليه السـبكي (٧٧٣هـ) حيث قال: ((هذا النوع من خروج الاستفهام عن حقيقته يسمى (الإعنـات) وسماه ابن المعتز (تجاهل العارف). وهل نقول: إن معنى الاستفهام فيه موجود، وانظم إليـه معنى آخر، أو تجرد من الاستفهام بالكلية؟ محل نظر، والذي يظهـر الأول))[3]، ثم تنـاول بعض المعاني وبين علاقتها بالاستفهام، ولا يخلو من تكلف في بعض ذلك، كما حصل مـن بعض البلاغيين[4].

وهذا الرأي هو أوجه الآراء وأظهرها، وإلا فما معنى أن يلجأ البليغ إلى صياغة المعنى بأسلوب الاستفهام إذا كان لذاك المعنى أسلوبه الخاص به؟! لم يكن ذلك إلا حينما وجد في أسلوب الاستفهام ما يؤدي غرضه في مقام التكلم بأبلغ مما لو عـبر بالأسـلوب الخـاص بالغرض، يقول الدكتور محمد أبو موسى: ((إن مزية أداء هذه المعاني بطريق الاستفهام على أدائها بطرقها المعهودة لا يرجع إلا إلى بقاء معنى الاستفهام في هذه الأدوات))[5].

---

(١) المطول في شرح تلخيص المفتاح: ٢٣٩، وينظر: الاستفهام في الصحيحين: ٢٨.

(٢) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين: ٤١٤ و٤١٧.

(٣) عروس الأفراح: ٢/٣٠٦.

(٤) ينظر: أساليب الطلب عند النحويين والبلاغـيين: ٤١٧، وعلـم المعـاني، لفيـود: ٢/١٢٦، والاسـتفهام في الصحيحين: ٢٩-٣٢.

(٥) دلالات التراكيب: ٢١٦.

وهنا يبرز سؤال: ما المعنى الذي يميز أسلوب الاستفهام لكي يعبر المتكلم من خلاله عن معاني الإنكار أو التعجب أو التقرير أو الأمر أو غير ذلك؟

ولعل أبرز ما يميز الاستفهام قدرته العالية على تنبيه النفس وإثارة الذهن واستمالة المخاطب للنظر والتدبر والتأمل، ولعل منشأ ذلك أن الاستفهام أصلاً يصدر عن نفس ثائرة راغبة حريصة في طلبها الفهم والمعرفة، فيخرج الاستفهام بقوة نفس فيثير الوجدان وينبه الأذهان، يقول الدكتور أبو موسى: ((الاستفهام هنا يهيئ النفس لتتلقى من السياق ما يجيش به من خواطر ومشاعر وصور هي التي جاشت في نفس ملقيه))[1]. وقد أشار عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) إلى أن المقصود في الاستفهام إنما هو محض التنبيه، فقال بعد أن تحدث عن بعض الشواهد في معنى الإنكار: ((اعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع، ويعيى بالجواب))[2]، وعقب الدكتور محمد أبو موسى على قول الجرجاني بقوله: ((وهذا التنبيه عند الشيخ يكفي لتلقي كل ما يثار حول الفكرة من حقائق وبراهين تؤدي إلى رفضها أو قبولها أو الإقرار بها أو الخجل منها أو استنكارها أو استبعادها إلى آخر ما يعطيه الموقف.. المهم أن يلتفت السامع إلى هذه الحقائق، ثم ندعه يتعامل معها بوعيه، ويتدبرها بفكره، وينتهي فيها إلى ما يراه))[3].

- الاستفهام في أحاديث الصحيحين.

وقد كثر الاستفهام في حديث رسول الله r في الصحيحين، وأحصى أحد الباحثين شواهد الاستفهام في الصحيحين فوجدها تزيد على (٩٣٠) شاهدًا[4]، مع ملاحظة أن هذا العدد يشمل ما صدر عن النبي r وعن غيره، وقد تتبعت منها ما صدر عن النبي r مما أحصاه فوجدتها تقارب (٤٤٠) استفهامًا، مع ملاحظة أن الباحث ربما كرر روايات الاستفهام الواحد، خاصة إذا اختلفت الروايات في الأدوات. وهذه الاستفهامات منها ما روعي في اختياره مقتضى حال المخاطب، ومنها غير ذلك، كما أن منها ما جاء على

---

(١) المرجع السابق: ٢٤٤.

(٢) دلائل الإعجاز: ١١٨.

(٣) دلالات التراكيب: ٢٤٤، وينظر: علم المعاني، لفيود: ١٢٧/٢.

(٤) الاستفهام في الصحيحين: ٣.

الأصل، ومنها ما جاء لمعان أخرى. وأكثر الاستفهامات النبوية جاءت على غير الأصل، ومن أبرز المعاني: التقرير، والتشويق، والتحضيض، والإنكار، والتعجب، والتأنيس، وغيرها، ويعلل أحد الباحثين في البلاغة النبوية في موطأ مالك كثرة خروج الاستفهام النبوي عن الأصل بأن ((الاستفهام أكثر أساليب الكلام تعبيرًا عن المعاني، في المواقف والمواطن التي يراد بها التأثير في الناس، وتهييج مشاعرهم، وإلهاب أحاسيسهم، وصولاً إلى استمالتهم إلى صف الإيمان، وحملاً لهم على التزام أحكام الله، وردعًا لهم عن الوقوع في محارمه، ولذلك كان رسول الله r يستعمل الاستفهام ليمكن في نفوسهم المعاني التي يريدها))[١]، ومن شواهد ذلك:

١- التقرير.

مما جاء للتقرير؛ مرادًا به التثبت والتحقيق، أو حمل المخاطب على الإقرار بأمر قد استقر عنده[٢]، الأحاديث التي سبق ذكرها في مبحث الحوار من الفصل الثاني حيث يعتمد الحوار كثيرًا على الاستفهام، ومن ذلك قول النبي r للأنصار y حينما وجدوا في أنفسهم على رسول الله r لما لم يعطهم من غنائم حنين: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، **أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَلاً فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟**» وقد مضى الحديث بتمامه[٣]، والنبي r أراد في مقام العتاب أن يقررهم بفضل الله U عليهم بسببه، وجاء هذا بطريق الاستفهام لما فيه من تنبيههم واستثارة نفوسهم للتأمل في فضله عليهم، وقد يحمل معه توبيخًا على صنيعهم وعتابهم وهو الذي كان عليهم خيرًا وبركة، وكثيرًا ما يصحب التقرير توبيخًا أو إنكارًا لعل المخاطب أن يرتدع ويرجع[٤]. ولذا لم يأت الكلام بأسلوب الخبر مع دلالته عليه لكونه لا يحمل تلك الإثارة وذلك التنبيه المشعر بالتوبيخ، وربما استقبلته النفوس بنوع من الفتور أو النفور لما فيه من حديث صريح ومباشر عن النفس

---

(١) أساليب الطلب في الحديث النبوي: ٧٣.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٢٩٤، وأساليب الطلب: ٤٢٤.

(٣) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

(٤) ينظر: أساليب الطلب: ٤٢٧.

وفضلها على المخاطب، مع أن النبي r لم يسند أفعال الهداية والتأليف والإغناء إليه، وإنما أسندها إلى الله U، وقيد ذلك بكونه سببًا، وهذه بلاغة عالية من النبي r في هذا المقام الذي يقتضي بيان فضله عليهم مع التحرز من نفورهم(١)، والله أعلم.

واختيار المعاني المستفهم عنها والترتيب فيما بينها لكونها من أعظم النعم التي حصلت للأنصار y ببركة رسول الله r عليهم، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((رتب r ما من الله عليهم على يده من النعم ترتيبًا بالغًا، فبدأ بنعمة الإيمان التي لا يوازيها شيء من أمر الدنيا، وثنى بنعمة الألفة، وهي أعظم من نعمة المال؛ لأن الأموال تبذل في تحصيلها، وقد لا تحصل، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع لما وقع بينهم من حرب بُعاث وغيرها...، فزال ذلك كله بالإسلام، كما قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْت بَيْن قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٣]))(٢).

ومما جاء للتقرير موقف النبي r مع كفار مكة حينما أمره الله U أن يصدع بالدعوة، فقام على الصفا، وكان مما قاله: «**أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟**» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» وقد سبق الحديث آنفًا(٣)، النبي r يدرك جوابهم قبل أن يسألهم لما يعلمه من حاله معهم وحالهم معه، ولكنه أراد أن يقرر صدقه عندهم حينما أراد أن يجهر بدعوته التي تخالف ما هم عليه من الشرك والكفر، ليكون ذلك مدخلاً إلى دعوتهم وإنذارهم وإعذارهم، والله أعلم.

٢- التشويق.

كثيرًا ما يأتي التشويق في مقام التعليم، حيث يكون المخاطب جاهلاً بالخبر وحريصًا على المعرفة، فيكون للاستفهام وقع في نفسه، فيستميله ويدفعه إلى الحرص على التعلم والرغبة في تحصيله، خاصة إذا كان من أهل الحرص عليه، والنفس الإنسانية غالبًا ما

(١) ينظر: الاستفهام في الصحيحين: ٣٠٩.

(٢) فتح الباري: ٨/٥٠.

(٣) ينظر ص (٧٣) من هذا البحث.

تستجيب للإثارة[1]. وقد ذكرت في مبحث الحوار من الفصل الثاني أن النبي r يستخدم طرقًا متنوعة في إثارة الحوار والتحفيز إلى ما بعده، ومن هذه الطرق ما يتعلق بالاستفهام التشويقي، وهي:

أ- أن يستفهم النبي r عن الشيء الذي لا يعرفه الصحابة y، تشويقًا إلى معرفته، والتساؤل عنه.

ب- أن يسأل النبي r الصحابة y عن الشيء المعلوم دلالته عندهم، ليضيف إليه دلالة جديدة، هي أولى من الدلالة المعهودة، ويشعر الصحابة y أن النبي r سيضيف شيئًا، ولذا هم يحترسون في الجواب.

ت- أن يستثير النبي r رغبة الصحابة y في التعلم والمعرفة حينما يستفهم عن ترك إخبارهم بالعلم.

وذكرت عدة شواهد لهذه الطرق فيرجع إليها.

ومن الشواهد حديث أنس بن مالك t حينما ضحك الرسول r والصحابة عنده، فقال: «**هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «مِنْ مُخَاطَبَةِ الْعَبْدِ رَبَّهُ؛ يَقُولُ: يَا رَبِّ، أَلَمْ تُجِرْنِي مِنْ الظُّلْمِ؟ قال: يَقُولُ: بَلَى. قال: فَيَقُولُ: فَإِنِّي لا أُجِيزُ عَلَى نَفْسِي إِلاّ شَاهِدًا مِنِّي» الحديث، وقد مضى بتمامه[2]. ففي هذا الموقف يسأل النبي r الصحابة y عن معرفتهم بسبب ضحكه المفاجئ الذي لا يعرفون سببه، وإنما سألهم استثارة لأذهانهم وتمهيدًا لما يريد أن يعلمهم إياه، تشويقًا للخبر، كما سبق بيانه[3].

ومن استفهام التشويق حديث زيد بن خالد الجهني t أن رسول الله r صلى صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «**هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي

---

(١) ينظر: شرح عقود الجمان، للسيوطي: ٥٤، وشرح عقود الجمان، للمرشدي: ١/١٨٨، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٢٧ و١٤١، والتشويق في الحديث النبوي: ١٤، والرسول العربي المربي: ٢٣٩، والحديث النبوي وعلم النفس: ١٩١.

(٢) ينظر ص (٢٠٥) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٢٠٥) من هذا البحث.

وَكَافِرٌ؛ فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ. وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[1]، وفي رواية للبخاري: «أَتَدْرُونَ...» بالهمزة[2]، واختلاف الرواية في نوع الأداة لا يؤثر في المقصود بالغرض من السؤال ((فقد سألهم رسول الله r هذا السؤال و لم يرد أنهم يجيبوه، أو أن يردوا على سؤاله، فهو يعلم علم اليقين أن لا دراية لهم بذلك، وأنّى لهم أن يعلموا بهذه الحقيقة الغيبية؟ ولا سبيل إلى علمها إلا بالوحي، يدل على ذلك قول الصحابة y: الله ورسوله أعلم. فما الغرض إذن من هذا الاستفهام؟ الغرض منه هو التشويق؛ فقد أراد r من هذا الاستفهام أن يشوق أصحابه y في ذكر هذه الحقيقة لهم، وأن يجعلهم يتلهفون شوقًا إلى معرفة ماذا قال ربهم سبحانه وتعالى))[3].

٣- التحضيض.

قد يأتي الاستفهام النبوي للتحضيض، الذي يتضمن طلب الشيء مع حث وترغيب، ويتفق التحضيض مع العرض في الصياغة والأدوات، ويفرق بعضهم بينهما بأن العرض لا حث فيه ولا تأكيد، والتحضيض فيه حث وتأكيد[4]، ويأتي التحضيض بعدة أدوات، ويتعلق منها بالاستفهام (هلاّ، وأَلاَ، وأَلم، وأَما) المركبات من أداتي الاستفهام (هل والهمزة) مع (لا) النافية، أو الهمزة مع (لم) أو (ما) النافيتين[5]، وإذا دخلت الأدوات على أمر مستقبل وكان فيه معنى الطلب فهو تحضيض، أما إذا دخلتا على ماض فهو تنديم[6]، ولم أجد التحضيض بـ(هلاّ) في كلام الرسول r في الصحيحين، ومما ورد فيه التحضيض حديث عبد الله بن عمر t قال: اشتكى سعد بن عبادة شكوى له، فأتاه النبي r يعوده مع عبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن مسعود y، فلما دخل عليه، فوجده في غاشية

(١) أخرجه البخاري: (٨٤٦ و١٠٣٨) ، ومسلم: (٧١).
(٢) أخرج الرواية البخاري: (٤١٤٧).
(٣) الاستفهام في الصحيحين: ٣١٨.
(٤) ينظر في التفريق بين التحضيض والعرض: الصاحبي: ٣٠٣، ومواهب الفتاح: ٢/٣٣٠.
(٥) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٢٤٢ و٣٣٠، وأساليب الطلب: ٤٩٣.
(٦) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٢٤٤، وأساليب الطلب: ٤٩٣.

أهله، فقال: «قَدْ قَضَى؟» قالوا: لا، يا رسول الله. فبكى النبي r ، فلما رأى القوم بكـاء النبي r بكوا، فقال: «**أَلا تَسْمَعُونَ**؟ إِنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ بِدَمْعِ الْعَيْنِ، وَلا بِحُزْنِ الْقَلْبِ، وَلَكِنْ يُعَذِّبُ بِهَذَا -وَأَشَارَ إِلَى لِسَانِهِ- أَوْ يَرْحَمُ. وَإِنَّ الْمَيِّتَ يُعَذَّبُ بِبُكَاءِ أَهْلِهِ عَلَيْهِ»(١)، فقـول النبي r : «أَلا تَسْمَعُونَ؟» تحضيض على سماع ما يقوله، وهم في حال من البكـاء، ولعـل النبي r فهم من بعض أصحابه الإنكار على البكاء، فأراد أن يبين الفرق بـين الحـالين(٢)، والله أعلم.

ومن التحضيض حديث جابر بن سمرة t أن النبي r خرج عليهم فرآهم حِلَقًـا، فقال: «مَالِي أَرَاكُمْ عِزِينَ؟» ثم خرج عليهم فقال: «**أَلا تَصُفُّونَ كَمَا تَصُفُّ الْمَلائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟**» فقالوا: يا رسول الله، وكيف تصف الملائكة عند ربها؟ قال: «يُتِمُّـونَ الصُّـفُوفَ الأُوَلَ وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ»(٣)، فلعل النبي r رآهم لم يحسنوا الصف في الصلاة فأراد أن يحضهم على ذلك ويرغبهم فيه فقال لهم: «أَلا تَصُفُّونَ» بصيغة التحضيض، وقوى رغبتهم بالتشبيه بصف الملائكة، وتقييد الصف بكونه عند الرب U ، وهذا حض عظيم، ولذا كان له أثر في نفوس الصحابة y فاشتاقت نفوسهم أن يكونوا كذلك فسألوا عن صف الملائكة عند ربهم، والله أعلم.

ومن ذلك قول النبي r لبني سَلِمة لما أرادوا أن يتحولوا عن منازلهم، فيترلوا قريبًا من النبي r ، فكره رسول الله r أن يعروا المدينة، فقال: «يَا بَنِـي سَـلِمَةَ، **أَلاَ تَحْتَسِـبُونَ آثَارَكُم**»(٤)، وهل يمكن أن يفرط المخاطب بهذا الأجر العظيم، بعد هذا التحضيض من النبي r ، وجاء بصيغة الاستفهام ليثير فيهم الرغبة في طلب الثواب بعد مراجعة النفس، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري: (١٣٠٤) ، ومسلم: (٩٢٤).
(٢) ينظر: فتح الباري: ١٧٥/٣، وعمدة القاري: ١٠٤/٨.
(٣) أخرجه مسلم: (٤٣٠).
(٤) أخرجه البخاري: (٦٥٦).

ومن ذلك حديث أبي هريرة t أن الرسول r صلى بهم يومًا ثم انصرف، فقال: «يَا فُلانُ، **أَلا تُحْسِنُ صَلاتَكَ؟ أَلا يَنْظُرُ الْمُصَلِّي إِذَا صَلَّى كَيْفَ يُصَلِّي؟** فَإِنَّمَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ. إِنِّي وَاللهِ لأُبْصِرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ»(١)، وهذا تحضيض للرجل على إحسان الصلاة، ولا يخلو من عتاب وإنكار(٢).

ومن التحضيض حديث الأنصار حينما عتبوا على رسول الله r، وقد مر الحديث بتمامه(٣)، وفيه قال النبي r لهم: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، **أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَذْهَبُونَ بِرَسُولِ اللهِ r تَحُوزُونَهُ إِلَى بُيُوتِكُمْ؟** فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» فقالوا: بلى، يا رسول الله، قد رضينا. وجاء التحضيض على الرضا بـ(أما)، وأسهمت المقابلة بين ذهاب الأنصار بالرسول r وذهاب الناس بالدنيا في تقوية الرغبة على الرضا، كما أسهم في ذلك أيضًا القسم، وكان لأسلوبه r أثره على الأنصار t فأعلنوا الرضا مؤكدين: قد رضينا.

وقد جاء التحضيض على الرضا في كلام النبي r في الصحيحين بـ(أما) في عدة أحاديث، منها قوله r لابنته فاطمة رضي الله عنها لما أسر إليها قرب أجله فبكت، فقال: «**أَمَا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» أَوْ: «نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ» فضحكت لذلك، وقد سبق الحديث بتمامه(٤).

ومن ذلك حديث عمر t لما رأى النبي r قد أثر الحصير في جنبه فبكى، فقال له النبي r: «مَا يُبْكِيكَ؟» قال: يا رسول الله، إن كسرى وقيصر فيما هما فيه، وأنت رسول الله. فقال: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ لَهُمْ الدُّنْيَا وَلَنَا الآخِرَةُ**» وفي رواية لمسلم: «أَلاَ تَرْضَى...»(٥).

---

(١) أخرجه مسلم: (٤٢٣).

(٢) ينظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في الحديث النبوي: ٧٠.

(٣) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

(٤) ينظر ص (١٠٩) من هذا البحث.

(٥) أخرجه البخاري: (٤٩١٣)، ومسلم: (١٤٧٩).

ومن ذلك قوله r لعلي t : «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، غَيْرَ أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي**» وفي رواية للبخاري: «**أَلاَ تَرْضَى...**» قال ذلك له لما خلفه النبي r في غزوة تبوك، فقال علي t : يا رسول الله، تخلفني في النساء والصبيان[(١)].

وقد مضى شواهد أخرى على التحضيض في الفصول الماضية، فيرجع إليها[(٢)].

٤- الإنكار.

قد يأتي الاستفهام النبوي للإنكار، وهو نوعان: إنكار تكذيبي، ويسمى إبطاليًا[(٣)]، ويأتي لتكذيب المخاطب أو إبطال قوله، كقول الله U: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُمْ بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا﴾ [الإسراء: ٤٠] أي: لم يكن من الله U اصطفاء ولا اتخاذ، ومن ذلك قول الله U: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَارِهُونَ﴾ [هود: ٢٨] أي: لن يكون منا إلزام. والنوع الثاني: إنكار توبيخي، يأتي لتوبيخ المخاطب على ما وقع منه من فعل مذموم[(٤)].

وقد جاء الاستفهام الإنكاري عن النبي r ، أما الإنكار التكذيبي الإبطالي فإن أحد الباحثين عن الاستفهام في الصحيحين يرى أن كلام النبي r في الصحيحين خلا منه[(٥)]، وقد وجدت استفهامًا أقرب ما يراد منه الإنكار الإبطالي، في حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله r إذا أراد أن يعتكف صلى الفجر، ثم دخل معتكفه، وإنه أمر بخبائه فضرب، أراد الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، فأمرت زينب بخبائها فضرب، وأمر غيرها من أزواج النبي r بخبائه فضرب، فلما صلى رسول الله r الفجر نظر، فإذا الأخبية، فقال: «**آلْبِرَّ تُرِدْنَ؟**» فأمر بخبائه فقوض، وترك الاعتكاف في شهر رمضان حتى اعتكف في

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٠٦ و٤٤١٦) ، ومسلم: (٢٤٠٤).

(٢) ينظر مثلاً ص (١٧٤، ٢٠٥، ٢٧٧) من هذا البحث.

(٣) ينظر: مغني اللبيب: ١/٢٤، وحاشية الدسوقي: ٢/٣٠١.

(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٣٠٠.

(٥) ينظر: الاستفهام في الصحيحين، للدكتور عبد العزيز العمار: ٣٤٢.

العشر الأول من شوال[١]، فقوله: «آلْبِرَّ تُرِدْنَ؟» أي: ما أردتن البر، ويدل على ذلك روايات الاستفهام الأخرى، فعند البخاري أن النبي r لما رأى الأخبية قال: «مَا هَذَا؟» فأخبر، فقال: «آلْبِرَّ تُرَوْنَ بِهِنَّ؟» وفي رواية: «مَا حَمَلَهُنَّ عَلَى هَذَا؟ آلْبِرُّ؟ انْزِعُوهَا فَلا أَرَاهَا» وفي رواية: «آلْبِرَّ أَرَدْنَ بِهَذَا؟ مَا أَنَا بِمُعْتَكِفٍ»[٢]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قال القاضي: قال r هذا الكلام إنكارًا لفعلهن، وقد كان r أذن لبعضهن في ذلك كما رواه البخاري. قال: وسبب إنكاره أنه خاف أن يكن غير مخلصات في الاعتكاف، بل أردن القرب منه لغيرتهن عليه، أو لغيرته عليهن))[٣]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((كأنه r خشي أن يكون الحامل لهن على ذلك المباهاة والتنافس الناشيء عن الغيرة))[٤]، والله أعلم.

ولعل منه قوله r لابن اللُّتْبِية t حينما استعمله على صدقات بني سليم، وقد سبق النص بتمامه[٥]، وفيه أن ابن اللتبية لما جاء قال: هذا مالكم، وهذا هدية. فقال رسول الله r: «فَهَلاّ جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا» ثم قال في الخطبة بعد ذلك: «إِنِّي أَسْتَعْمِلُ الرَّجُلَ مِنْكُمْ عَلَى الْعَمَلِ مِمَّا وَلاّنِي اللهُ، فَيَأْتِي فَيَقُولُ: هَذَا مَالُكُمْ، وَهَذَا هَدِيَّةٌ أُهْدِيَتْ لِي. **أَفَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ حَتَّى تَأْتِيَهُ هَدِيَّتُهُ**» أي: لن يكون ذلك، ويرى بعض الباحثين أن هذا من الاستفهام التوبيخي[٦]، والله أعلم.

ولعل منه أيضًا قول النبي r لسعد بن أبي وقاص t لما رأى سعد t أن له فضلاً على من دونه: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ**»[٧]، فـ(هل) هنا للإنكار والنفي، أي: لا تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم، ويدل على أن الاستفهام للإنكار الإبطالي مجيء

(١) أخرجه البخاري: (٢٠٣٣ و٢٠٤١ و٢٠٤٥) ، ومسلم: (١١٧٣) وهذا لفظه.
(٢) أخرج الروايات البخاري، وأرقامها على الترتيب: (٢٠٣٣ و٢٠٤١ و٢٠٤٥).
(٣) شرح صحيح مسلم: ٦٩/٨.
(٤) فتح الباري: ٢٧٦/٤.
(٥) ينظر ص (١٩٣) من هذا البحث.
(٦) ينظر: الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في الحديث النبوي، لأحمد ماضي عناني: ١١٠.
(٧) أخرجه البخاري: (٢٨٩٦).

الاستثناء، وقد قال السبكي (٧٧٣هـ): ((تعين في (هل) التي للجحد الاستثناء، مثل: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلاّ الْكَفُورَ﴾ [سبأ: ١٧]، وهَلْ أَنَا إلا مِنْ رَبِيعَةَ أَوْ مُضَرَ[١]))[٢].

ولعل منه أيضًا إنكار النبي r على ذي الخويصرة في الحديث الذي مر في الفصل الماضي[٣]، وفيه أن ذا الخويصرة جاء والرسول r يقسم قسمًا، فقال: يا رسول الله، اعدل. اعدل. فقال له الرسول r: «وَيْلَكَ، **وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟**. قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ» وفي رواية أن الرجل قال للنبي r: اتق الله، يا محمد. فقال الرسول r: «**فَمَنْ يُطِعِ اللهَ إِنْ عَصَيْتُهُ؟**»[٤]، فـ(مَنْ) الاستفهامية في هذا المقام للنفي والإنكار الإبطالي، أي: لا أحد يعدل إن لم أعدل، والله أعلم.

وأما الإنكار التوبيخي فقد سبق ذكر مواقف فيه مع معاذ t لما أطال الصلاة فشُكي إلى النبي r فقال له: «يَا مُعَاذُ، **أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟** -أَوْ: **أَفَاتِنٌ؟**» - ثلاث مرار[٥]، ومع أسامة بن زيد t لما قتل الرجل الذي قال: لا إله إلا الله، فقال له النبي r: «يَا أُسَامَةُ، **أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ؟**»[٦]، ومعه أيضًا حينما شفع في المرأة التي سرقت، فقال له الرسول r: «**أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟**»[٧]، قال الدكتور محمد أبو موسى: ((لم يزد رسول الله r على أن قال لأسامة: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ؟» والاستفهام استفهام إنكاري، والمعنى: لا ينبغي أن يكون ذلك منك))[٨]. ومن التوبيخ حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمع رسول الله r صوت خصوم بالباب عالية أصواتهما، وإذا أحدهما يستوضع الآخر ويسترفقه في شيء، وهو يقول: والله لا أفعل. فخرج عليهما رسول الله r

---

(١) هذا عجز بيت للبيد بن ربيعة t ، وصدره: تَمَنَّى ابْنَتَاي أَنْ يَعِيشَ أَبُوهُما، وهو في ديوانه: ٧٩.

(٢) عروس الأفراح: ٢/٣٠٨.

(٣) ينظر ص (٢٩٧) من هذا البحث.

(٤) أخرج الرواية البخاري: (٣٣٤٤) ، ومسلم: (١٠٦٤).

(٥) ينظر ص (٥٢) من هذا البحث.

(٦) ينظر ص (٥١) من هذا البحث.

(٧) ينظر ص (١٩٢) من هذا البحث.

(٨) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٣٢١، وينظر: فتح الباري: ١٢/٩٤، والاستفهام في الصحيحين: ٣٤٤.

فقال: «**أَيْنَ الْمُتَأَلِّي عَلَى اللهِ لا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفَ؟**» فقال: أنا يا رسول الله، وله أي ذلك أحب[1]، ولعل النبي r في هذا الموقف كره للرجل قطع نفسه عن فعل الخير فأنكر عليه ذلك توبيخًا[2]، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) عن بعضهم أنه يشكل على هذا حديث الأعرابي الذي سأل عن فرائض الإسلام، فلما أجابه النبي r قال: والله لا أزيد على هذا ولا أنقص منه، فقال النبي r: «أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ»[3]، فلم ينكر النبي r عليه الحلف على ترك الزيادة، وهي من فعل الخير، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((ويمكن الفرق بأنه في قصة الأعرابي كان في مقام الدعاء إلى الإسلام والاستمالة إلى الدخول فيه، فكان يحرص على ترك تحريضهم على ما فيه نوع مشقة مهما أمكن، بخلاف من تمكن في الإسلام فيحضه على الازدياد من نوافل الخير))[4]، والله أعلم.

ومن الإنكار التوبيخي حديث عمران بن حصين t أن رجلاً عض يد رجل، فنزع يده من فمه فوقعت ثنيتاه، فاختصموا إلى النبي r فقال: «**يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الْفَحْلُ؟**. لا دِيَةَ لَكَ» وفي رواية بإظهار الأداة: «**أَيَعَضُّ...**»[5]، ومما زاد في الإنكار التشبيه بعض الفحل، زجرًا وتنفيرًا من هذا العمل، والله أعلم.

ومنه قول النبي r لمن صلى النافلة حينما أقيمت الصلاة: «**أَتُصَلِّي الصُّبْح أَرْبَعًا؟**» وفي رواية: «**آلصُّبْحَ أَرْبَعًا ؟ آلصُّبْحَ أَرْبَعًا ؟**»[6]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قوله r: «أَتُصَلِّي الصُّبْح أَرْبَعًا؟» هو استفهام إنكار، ومعناه أنه لا يشرع بعد الإقامة للصبح إلا الفريضة، فإذا صلى ركعتين نافلة بعد الإقامة، ثم صلى معهم الفريضة صار في معنى من صلى الصبح أربعًا، لأنه صلى بعد الإقامة أربعًا))[7].

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٧٠٥) ، ومسلم: (١٥٥٧).

(٢) ينظر: فتح الباري: ٥/٣٠٨.

(٣) أخرجه البخاري: (٤٦) ، ومسلم: (١١).

(٤) فتح الباري: ٥/٣٠٩.

(٥) أخرجه البخاري: (٦٨٩٢) ، ومسلم: (١٦٧٣).

(٦) أخرجه البخاري: (٦٦٣) ، ومسلم: (٧١١).

(٧) شرح صحيح مسلم: ٥/٢٢٣.

واستخدام الاستفهام في الإنكار لما قيل في الاستفهام من استثارة النفس وشدة التنبيه لها لعلها أن تتأمل في سوء صنيعها وترتدع، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) أن النبي r يعاتب وينكر بأسلوب الاستفهام للتخفيف من حدة الإنكار على أصحابه y[1]، والله أعلم.

وثمة صيغة استفهامية تشعر بالتلطف يستخدمها النبي r في الإنكار على من يقع في الأمر الواضح الذي لا ينبغي أن يخفى على المخاطب، أو يُظن أنه حصل منه الفعل عن جهل أو نسيان، ولذا يصحبها تعجب، وهي صيغة (أما): همزة الاستفهام بعدها (ما) النافية، متبوعين بفعل يدل على العلم، كما في حديث أبي هريرة t أن الحسن t أخذ تمرة من تمر الصدقة، فجعلها في فيه، فقال له النبي r: «كِخْ كِخْ» ليطرحها، ثم قال: «**أَمَا شَعَرْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟**» وفي رواية: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ r لا يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ؟**» وفي أخرى: «**أَمَا تَعْرِفُ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟**»[2]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قوله r: «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّا لا نَأْكُلُ الصَّدَقَةَ؟» هذه اللفظة تقال في الشيء الواضح التحريم، ونحوه وإن لم يكن المخاطب عالمًا به، وتقديره: عجب كيف خفي عليك هذا مع ظهور تحريم الزكاة على النبي r وعلى آله؟))[3]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وهو أبلغ في الزجر من قوله: لا تفعل))[4].

ومثل هذا حديث عمرو بن العاصي t قال: لما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي r، فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك. فبسط يمينه. فقبضت يدي. قال: «مَا لَكَ يَا عَمْرُو؟» قلت: أردت أن أشترط. قال: «تَشْتَرِطُ بِمَاذَا؟» قلت: أن يُغفر لي. قال: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الإِسْلامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ، وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلِهَا، وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟**»[5].

---

(١) فتح الباري: ١٩٧/٢.

(٢) أخرجه البخاري: (١٤٨٥ و١٤٩١ و٣٠٧٢) ، ومسلم: (١٠٦٩).

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٧٦/٧، وينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ١٦٣/١.

(٤) فتح الباري: ٣٥٥/٣.

(٥) أخرجه مسلم: (١٢١).

وقول النبي r لعائشة رضي الله عنها لما جعلت للنبي r وسادة فيها تماثيل كأنها نُمْرُقة: «**أَمَا عَلِمْتِ أَنَّ الْمَلائِكَةَ لا تَدْخُلُ بَيْتًا فِيهِ صُورَةٌ، وَأَنَّ مَنْ صَنَعَ الصُّورَةَ يُعَذَّبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يَقُولُ: أَحْيُوا مَا خَلَقْتُمْ؟**»(١).

ومن ذلك قول النبي r لعمر t: «يَا عُمَرُ، **أَمَا شَعَرْتَ أَنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ؟**» وسياق القول كما يرويه أبو هريرة t قال: بعث رسول الله r عمر على الصدقة، فقيل: منع ابن جميل وخالد بن الوليد والعباس عم رسول الله r. فقال رسول الله r: «مَا يَنْقِمُ ابْنُ جَمِيلٍ إِلاّ أَنَّهُ كَانَ فَقِيرًا فَأَغْنَاهُ اللهُ. وَأَمَّا خَالِدٌ فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا؛ قَدْ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتَادَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ. وَأَمَّا الْعَبَّاسُ فَهِيَ عَلَيَّ وَمِثْلُهَا مَعَهَا» ثم قال: «يَا عُمَرُ...»(٢).

ومن ذلك أيضًا حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل على رسول الله r رجلان، فكلماه بشيء لا أدري ما هو، فأغضباه، فلعنهما وسبهما، فلما خرجا قلت: يا رسول الله، من أصاب من الخير شيئًا ما أصابه هذان؟! قال: «وَمَا ذَاكِ؟» قلت: لعنتهما وسببتهما. قال «**أَوَ مَا عَلِمْتِ مَا شَارَطْتُ عَلَيْهِ رَبِّي؟** قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّ الْمُسْلِمِينَ لَعَنْتُهُ أَوْ سَبَبْتُهُ فَاجْعَلْهُ لَهُ زَكَاةً»(٣).

هذه بعض الأغراض التي جاءت في الاستفهام النبوي، وقد خرج فيها عن الأصل مراعاة لمقتضى حال المخاطب، وثمة أغراض أخرى أشير إليها مع شاهد لها:

ومن ذلك التعجب في حديث أخذ الحسن التمرة وقول النبي r له: «**أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ آلَ مُحَمَّدٍ r لا يَأْكُلُونَ الصَّدَقَةَ؟**» وسبق في غرض الإنكار أن هذا الاستفهام فيه تعجب من عدم علمه بما هو واضح التحريم(٤).

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البخاري: (٣٢٢٤).

(٢) أخرجه مسلم: (٩٨٣).

(٣) أخرجه مسلم: (٢٦٠٠).

(٤) ينظر ص (٣٨٤) من هذا البحث.

وكحديث أم سلمة السابق حينما قالت: يا رسول الله، أوتحتلم المرأة؟ قال: «نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ، **فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا؟!**»(١)، ففي استفهامه «بِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا؟!» تعجب من إنكارها لشيء دلالته ظاهرة.

ومن ذلك التلطف، كما في حديث سهل بن سعد t أن النبي r أتي بشراب، وعن يمينه غلام أصغر القوم، وعن يساره الأشياخ، فقال: «يَا غُلامُ، **أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الأَشْيَاخَ؟**» وفي رواية: «إِنْ أَذِنْتَ لِي أَعْطَيْتُ هَؤُلاءِ» وقد سبق ذكر الحديث برواياتيه(٢)، والشاهد في الرواية الأولى التي جاء الاستئذان فيها بالاستفهام، وذكرت من قبل أن الاستئذان بمجرده فيه تلطف، فكيف إذا كان بأسلوب الاستفهام وكان بالهمزة، إذا كانت الرواية بالاستفهام هي المحفوظة، والله أعلم.

ومن ذلك التأنيس والتسلية، كما في استفهامه لزوجتيه عائشة وأم سلمة حينما حاضتا، فقال لكل واحدة: «**مَا لَكِ؟ أَنَفِسْتِ؟**» والنبي r يدرك من حال زوجتيه أنهما حاضتا، بدليل قوله في الرواية الأخرى: «لَعَلَّكِ نَفِسْتِ» بصيغة الترجي، لكنه أراد تسليتهما والتخفيف عنهما، خاصة عائشة رضي الله عنها، حيث حزنت وبكت، وقد سبق تحليل هذين الموقفين، والله أعلم.

ومن ذلك التحسير في مخاطبة النبي r لقتلى بدر من صناديد قريش، وقد سبق الحديث(٣)، وفيه أن النبي r جعل يناديهم بأسمائهم وأسماء آبائهم: «يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، **أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمْ اللهَ وَرَسُولَهُ؟**، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟» قال قتادة -أحد رواة الحديث-: ((أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا ونقيمة وحسرة وندمًا))(٤).

ولعلي أكتفي بما ذكرت من الأغراض للدلالة على ما أراد البحث بيانه، والله أعلم.

---

(١) ينظر ص (١١١) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (١١٨) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٣٢٨) من هذا البحث.

(٤) ذكره البخاري: (٣٩٧٦).

- جواب الاستفهام بالاستفهام.

ثمة مسألة أشير في خاتمة الحديث عن الاستفهام إليها، وهي أن بعضًا من الاستفهامات النبوية جاءت جوابًا عن استفهام للمخاطب ((إما لأن في الاستفهام نوع خفاء يقتضي المقام إزالته، فيكون الجواب استفهامًا حقيقيًا، وإما لأن السائل لا ينبغي أن يصدر منه هذا الاستفهام، فيكون الجواب استفهامًا إنكاريًا، وإما لأن المستفهم عنه ليس أمرًا مجهولاً لدى السائل، وإنما سأله طلبًا للتقرير، فيجاب باستفهام تقريري))[١]، ومن أمثلة ذلك مما روعي فيه حال المخاطب، حديث عائشة السالف الذكر حينما اشترت نُمْرُقة فيها تصاوير، فلما رآها رسول الله r قام على الباب، فلم يدخله، فعرفت في وجهه الكراهية، فقالت: يا رسول الله، أتوب إلى الله وإلى رسوله r، ماذا أذنبت؟ فقال رسول الله r: «**مَا بَالُ هَذِهِ النُّمْرُقَةِ؟**» قلت: اشتريتها لك؛ لتقعد عليها، وتوسدها. فلما سألت عائشة رضي الله عنها عن ذنبها، كان ذلك علامة على عدم علمها بالحكم، فأراد أن يعرف النبي r سبب فعلها، فسألها، ويظهر أن السؤال جاء على الأصل، وقد يتضمن إنكارًا؛ لإشعار عائشة رضي الله عنها بأن فعلها منكر ولو حصل منها عن غير قصد، والله أعلم.

ومما جاء فيه جواب الاستفهام استفهامًا إنكاريًا لكون السائل سأل عن شيء لا ينبغي أن يكون حديث زيد بن خالد الجهني t أن النبي r لما سئل عن ضالة الإبل؟ غضب النبي r حتى احمرت وجنتاه، أو قال: احمر وجهه، وقال: «**وَمَا لَكَ وَلَهَا؟** مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ، فَذَرْهَا حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا»[٢].

ومما جاء فيه جواب الاستفهام استفهامًا تقريريًا حديث أبي سعيد الخدري t في نقصان الدين والعقل في النساء، وقد مضى بتمامه[٣]، وفيه: فقلن: وما نقصان ديننا وعقلنا، يا رسول الله؟ فأراد النبي r أن يزيل ما علق بهن من إشكال؛ فأجابهن بالاستفهام التقريري الذي يصل به مع المخاطب إلى زوال الإشكال عن إقرار واقتناع ويقين، قال: «**أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟**» قلن: بلى، قال: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا.

---

(١) ملامح بلاغية لجواب الاستفهام في الحديث النبوي، بحث في مجلة العرب، ج١١ و١٢ س٤١: ص ٩١٧.

(٢) أخرجه البخاري: (٩١) ، ومسلم: (١٧٢٢).

(٣) ينظر ص (١٠٠، ١٠٢، ٢١٣) من هذا البحث.

أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟» قلن: بلى، قال: «فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا»، وحديث أنس بن مالك t أن رجلاً قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟! قال: **«أَلَيْسَ الَّذِي أَمْشَاهُ عَلَى الرِّجْلَيْنِ فِي الدُّنْيَا قَادِرًا عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُ عَلَى وَجْهِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟»** قال قتادة: بلى وعزة ربنا[1].

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٧٦٠ و٦٥٢٣) ، ومسلم: (٢٨٠٦) وقتادة هو الراوي عن أنس t .

ب- الأمر.

- تعريفه وصيغه.

يقصد بالأمر: طلب حصول الفعل بصيغة من صيغه الأربع، وهي:

١- فعل الأمر، كقول الله U: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقـــرة: ٢١]، وهي موضوعة أصلاً لأمر المخاطَب المواجَه غير الغائب.

٢- الفعل المضارع المقرون بلام الأمر، كقول الله U: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَـــعَةٍ مِـــنْ سَعَتِهِ﴾ [الطلاق: ٧]، وغالبًا ما تكون لمخاطب غير مواجه.

٣- اسم فعل الأمر، نحو: عليك، بمعنى: الزم، كقول الله U: ﴿يَا أَيُّهَا الَّـــذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ [المائدة: ١٠٥].

٤- المصدر النائب عن فعل الأمر، كقول الله U: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّـــذِينَ كَفَـــرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾ [محمد: ٤]، وتأتي هذه الصيغة لتأكيد الأمر، قال الزمخشري (٥٣٨هـ) في هذه الآية: ((أصله : فاضربوا الرقاب ضربًا، فحذف الفعل وقدّم المصدر فأنيب منابـــه، مضافًا إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد؛ لأنك تذكر المصدر وتدل علـــى الفعل بالنصبة التي فيه))[1].

- صيغ الأمر في أحاديث الصحيحين.

وقد وردت هذه الصيغ في كلام رسول الله r في أحاديث الصحيحين.

ومما ورد على فعل الأمر قوله r للذين استعجلوا في الوضوء وأعقابهم لم يمسها الماء: «وَيْلٌ لِلأَعْقَابِ مِن النَّارِ، **أَسْبِغُوا** الْوُضُوءَ»[2].

وقوله r لمن أراد أن يترع خفيه وقد أدخلهما طاهرتين: «**دَعْهُمَا**؛ فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَـــا طَاهِرَتَيْنِ» فمسح عليهما[3].

---

(١) الكشاف: ٤/٣٠٨.

(٢) أخرجه البخاري: (٦٠ و٩٦) ، ومسلم: (٢٤١) وهذا لفظه.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٠٦) ، ومسلم: (٢٧٤).

وقوله r لعمر بن الخطاب t لما كان يعطيه العطاء فيقول عمر: أعطه من هو أفقر مني: «**خُذْهُ**، **فَتَمَوَّلْهُ**، وَ**تَصَدَّقْ** بِهِ، فَمَا جَاءَكَ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَأَنْتَ غَيْرُ مُشْرِفٍ وَلا سَائِلٍ **فَخُذْهُ**، وَإِلاّ فَلا تُتْبِعْهُ نَفْسَكَ»(١)، وهذه الصيغة هي أكثر صيغ الأمر ورودًا.

ثم يليها الفعل المضارع المقرون بلام الأمر، ويغلب مجيئه على صيغة خطاب الغائب ولو كان المقصود بالخطاب حاضرًا، ومن ذلك حديث أبي ذر t مع عبده في الحديث الذي مضى بتمامه(٢)، وفيه أن أبا ذر t عيره بأمه، فقال له الرسول r في إحدى الروايات: «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيْكَ جَاهِلِيَّةٌ. إِخْوانُكُمْ، وَخَوَلُكُم، جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيهِ **فَلْيُطْعِمْهُ** مِمَّا يَأْكُلُ، وَ**لْيُلْبِسْهُ** مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تُكَلِّفُوهُم مَا يَغْلِبُهُم، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُم فَأَعِينُوهُم عَلَيهِ» وفي الرواية الأخرى جاء الأمر بفعل الأمر «فَأَطْعِمُوهُم مِمَّا تَأْكُلُونَ، وَأَلْبِسُوهُم مِمَّا تَلْبَسُونَ» فإن كانت صيغة المضارع هي المحفوظة فلعل النبي r أراد أن يكون الحكم عامًا لأبي ذر وغيره بعد أن خص أبا ذر t بالخطاب والإنكار أولاً، أو أراد أن يخفف من حدة الإنكار حينما يكون الخطاب بالغيبة، أو لكليهما، والله أعلم.

ومما جاء بالمضارع حديث أبي مسعود الأنصاري t أن رجلاً قال: والله، يا رسول الله، إني لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان، مما يطيل بنا، فما رأيت رسول الله r في موعظة أشد غضبًا منه يومئذ، ثم قال: «إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ **فَلْيَتَجَوَّزْ**؛ فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ وَالْكَبِيرَ وَذَا الْحَاجَةِ» وسبق الحديث في مبحث العدد من الفصل الأول(٣)، وبينتُ هناك أن الإمام هو أبي بن كعب t كما في رواية عند أبي يعلى الموصلي، وتبين من الرواية أن أبيًّا كان موجودًا لما خاطب النبي r بهذا الخطاب، مما يدل على أن الأمر بالمضارع للجمع بضمير الغائب لما قلته في الحديث السابق، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنها أنها قالت: جاءت امرأة إلى النبي r فقالت: إحدانا يصيب ثوبها من دم الحيضة، كيف تصنع به؟ فقال النبي

---

(١) أخرجه البخاري: (٧١٦٤) ، ومسلم: (١٠٤٥).

(٢) ينظر ص (٢٧٣) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (٩٠ و٧٠٢) ، ومسلم: (٤٦٦).

r : «إِذَا أَصَابَ ثَوْبَ إِحْدَاكُنَّ الدَّمُ مِنْ الْحَيْضَةِ **فَلْتَقْرُصْهُ**، ثُمَّ **لِتَنْضِحْهُ** بِمَاءٍ، ثُمَّ **لِتُصَلِّي** فِيهِ» وقد سبق تخريجه وبيان ألفاظه[1]، ولعل النبي r أمر المرأة بصيغة المضارع للغائبة لكون المرأة سألت بصيغة الغائب حياءً.

ومن ذلك حديث ابن عباس t قال: بينا النبي r يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه، فقالوا: أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي r : «مُرْهُ **فَلْيَتَكَلَّمْ**، **وَلْيَسْتَظِلَّ**، **وَلْيَقْعُدْ**، **وَلْيُتِمَّ** صَوْمَهُ»[2]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في فوائد الحديث: ((وفيه أن كل شيء يتأذى به الإنسان ولو مآلاً مما لم يرد بمشروعيته كتاب أو سنة كالمشي حافيًا والجلوس في الشمس ليس هو من طاعة الله، فلا ينعقد به النذر، فإنه r أمر أبا إسرائيل بإتمام الصوم دون غيره، وهو محمول على أنه علم أنه لا يشق عليه، وأمره أن يقعد ويتكلم ويستظل))[3]، ولو سكت النبي r عن الأمر بالصيام لفهم من السكوت إتمامه، إلا أن النبي r أمره بالإتمام، ولعل في ذلك احتراسًا من أن يفهم أنه يبطل نذر الصيام كما أبطل ما سواه، والله أعلم.

ولعل اختيار الأمر بصيغة المضارع في هذه المواقف وغيرها لإشعار المخاطب باستمرار المأمور به وتجدده، وعدم الاقتصار على حال الأمر دون غيره، لما مضى من كون المضارع يفيد تجدد حصول الفعل وتكرره واستمرار تجدده، إلا إذا أريد به الحال[4]، والله أعلم.

ويلي هذه الصيغة صيغة اسم الفعل الدال على الأمر، ومن شواهدها مما روعي فيه حال المخاطب حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة كانت عندها، فدخل عليها رسول الله r فسأل عنها، فقالت: فلانة، وجعلت تذكر من صَلاتها وأنها لا تنام الليل، فقال النبي r : «**مَهْ**. عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ. فَوَاللهِ، لا يَمَلُّ اللهُ حَتَّى تَمَلُّوا»[5].

---

(١) ينظر ص (٣٠٨) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (٦٧٠٤).

(٣) فتح الباري: ١١/٥٩٠، وينظر: مرقاة المفاتيح: ٦/٥٤٦.

(٤) ينظر ص (٣٠٤) من هذا البحث.

(٥) أخرجه البخاري: (٤٣ و١١٥١) ، ومسلم: (٧٨٥).

وقد جمع النبي r في هذا الموقف بين اسمي الفعل (مه، وعليكم). أما (مه) فتـأتي في مقام الزجر والإنكار، بمعنى: اكفف، أو اسكت ونحوهما[1]، قال ابن حجـر (٨٥٢هـ): ((وهذا الزجر يحتمل أن يكون لعائشة، والمراد نهيها عن مدح المرأة بما ذكرت. ويحتمـل أن يكون المراد النهي عن ذلك الفعل))[2].

ومما وردت فيه (مه) حديث عبد الله بن مسعود t في الرجل الذي لاعَنَ امرأتـه، وفيه: فجاء هو وامرأته إلى رسول الله r فتلاعنا، فشهد الرجل أربع شهادات بالله إنه لمـن الصادقين، ثم لعن الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين. فذهبت لتلعن فقال لهـا رسول الله r: «**مَهْ**» فأبت فلعنت...[3].

وحديث عائشة رضي الله عنها قالت: إن رسول الله r قال في مرضه: «مُرُوا أَبَـا بَكْرٍ يُصَلِّي بِالنَّاسِ» قلت: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس. قالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يُسْمِع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس. ففعلت حفصة، فقال رسول الله r: «**مَهْ**. إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ. مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ»[4].

وأما (عليك) فتأتي في مقام الإغراء بالفعل، بمعنى: الزم وخذ[5]، ولعل النبي r لمـا رأى أن فعل المرأة مما يشق عليها، وأن عائشة وغيرها يمدحن فعلها وكـأنه هو الحق، أراد بعد الزجر عن الفعل ومدحه أن يبين المنهج الصحيح في التعبد بأسلوب فيه إغراء في مقابـل الإعجاب بضده فكان الأمر بهذه الصيغة (عليكم...) والله أعلم.

ومما ورد فيه الإغراء بهذه الصيغة حديث «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَن اسْـتَطَاعَ الْبَـاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ **فَعَلَيْهِ** بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ».

---

(١) ينظر: لسان العرب: ١٣/٥٤٢.
(٢) فتح الباري: ١/١٠٢.
(٣) أخرجه مسلم: (١٤٩٥).
(٤) أخرجه البخاري: (٦٧٩)، ومسلم: (٤١٨).
(٥) ينظر: لسان العرب: ١٥/٨٨.

وقد سبق ذكره في الفصل الأول[١]، ومما ذكرته ما يلحظ من الاختلاف في صيغة الأمر بين الزواج والصوم، حيث عدل النبي r في الأمر بلزوم الصوم عن صيغة المضارع المقرون بلام الأمر -فليلزم الصوم- كما في الأمر بالزواج «فَلْيَتَزَوَّجْ» إلى صيغة اسم فعل الأمر -عَلَيه- الذي بمعنى الملازمة، فقال: «فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ» ليفيد ملازمة الصوم والإغراء به، إذ الصوم فيه مشقة على النفس فيغرى به وبالإكثار منه، ومجيء (الباء) الدالة على الإلصاق تأكيد لأهمية ملازمة الصوم لمن أراد أن يكسر حدة الشهوة، ولو قال: فليصم، لم يدل على ملازمة الصوم، ولم يكن إغراء بها مع وجود المقتضي للإغراء، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أبي قتادة t قال: بينما نحن نصلي مع النبي r إذ سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال:«فَلا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمْ الصَّلاةَ **فَعَلَيْكُمْ** بِالسَّكِينَةِ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»[٢]، ولعل النبي r لما رأى استعجالهم الذين يفضي إلى عدم الوقار وتشتت البال وعدم استقامة الحال، وكان ذلك حرصًا منهم على إدراك الصلاة، أراد في مقابل ذلك أن يغريهم بلزوم السكينة، فجاء باسم الفعل (عليكم) والله أعلم.

ومثله حديث ابن عباس t أنه دفع مع النبي r يوم عرفة، فسمع النبي r وراءه زجرًا شديدًا وضربًا وصوتًا للإبل، فأشار بسوطه إليهم، وقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، **عَلَيْكُمْ** بِالسَّكِينَةِ؛ فَإِنَّ الْبِرَّ لَيْسَ بِالإِيضَاعِ»[٣]، ولعل حرص الصحابة y على الطاعة والمبادرة إليها جعلهم يسرعون في سيرهم، فأراد النبي r أن يغريهم بملازمة السكينة، فأمرهم بصيغة (عليكم)، قال القاري (١٠١٤هـ) في شرح الحديث: ((«عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ» أي الطمأنينة والسكون مع الله، وترك الحركة المشوّشة لقلوب خلق الله. «فَإِنَّ الْبِرَّ» في الحج وغيره «لَيْسَ بِالإِيضَاعِ» وهو حمل الإبل على سرعة السير، أي ليس يحصل البر بذلك فقط، بل بأداء المناسك واجتناب المحظورات. والحاصل أن المسارعة إلى الخيرات والمبادرة إلى المبرات

---

(١) ينظر ص (١٢٤) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (٦٣٥) ، ومسلم: (٦٠٣).

(٣) أخرجه البخاري: (١٦٧١) ، ومسلم: (١٢٨٢).

مطلوبة، لكن لا على وجه يجر إلى المكروهات، وما يترتب عليه من الأذيات))[(١)]، ولعل اختيار اسم الفعل (عليك) فيه مزيد إغراء للمخاطب، لما يوحيه من معنى العلو والتمكن، حيث يبقى هذا المعنى فيه ولو كان منتقلاً من الحرفية إلى الاسمية، والله أعلم.

ومن أسماء الأفعال قول النبي r لأنجشة t : «**رُوَيْدَكَ**، يَا أَنْجَشَةُ، سَوْقَكَ بِالْقَوَارِيرِ» وفي رواية: «وَيْحَكَ يَا أَنْجَشَةُ، **رُوَيْدَكَ**، سَوْقًا بِالْقَوَارِيرِ» قال هذا لأنجشة وهو غلام حسن الصوت، كان يحدو وهو يسوق بالنساء في سفر مع النبي r[(٢)]، و(رويد) اسم فعل بمعنى: ارفق وتأن وأمهل[(٣)]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((أي: سق سوقًا رويدًا، ومعناه الأمر بالرفق بهن))[(٤)]. وقد اختلف العلماء في سبب أمره بالرفق، فقيل: لحسن صوته في حدائه، وكان ينشد القريض والرجز وما فيه تشبيب، فخشي النبي r أن يحرك نفوسهن ويقع في قلوبهن فتنة بحسن صوته، والنساء يسرع إليهن التأثر لضعف عزائمهن. وقيل: لأن في سوقه بالإبل عنف، فأمره أن يرفق بالمطايا خشية على النساء من السقوط أو التأثر بالحركة والاضطراب الناشئ عن سرعة السير[(٥)]، وعلى أي القولين فإن النبي r خشي على النساء من التأثر بقوله أو فعله تأثرًا يُضِرُّ بِهِن فأمره بالرفق والإمهال.

وقيل: إن (رويدك) هنا مصدر نائب مناب فعل الأمر[(٦)]، فيكون في الأمر عزم وتأكيد، لما في الاسم من دلالة الثبات، كما سبق[(٧)]، مع ما يقتضيه الموقف من سرعة الأمر، الأمر، فكان أن يأتي بالمصدر دون فعله، والله أعلم.

ولم أجد في المصدر النائب عن فعل الأمر شاهدًا إلا هذا القول، والله أعلم.

---

(١) مرقاة المفاتيح: ٥/٥٢٠.

(٢) أخرجه البخاري: (٦١٤٩ و٦١٦١ و٦٢١٠ و٦٢١١) ، ومسلم: (٢٣٢٣).

(٣) ينظر: لسان العرب: ٣/١٨٩-١٩٠.

(٤) شرح صحيح مسلم: ١٥/٨١.

(٥) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٥/٨١، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/٣٩، وفتح الباري: ١٠/٥٤٥، ومرقاة المفاتيح: ٩/٤٩.

(٦) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٥/٨١، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٢٧٦، وفتح الباري: ١٠/٥٤٥، ولسان العرب: ٣/١٩٠.

(٧) ينظر ص (٣١٣) من هذا البحث.

وقد يأتي الأمر بغير هذه الصيغ، كصيغة الخبر، وسيأتي الحديث عنها في مبحث المخالفة بين الخبر والإنشاء من الفصل الخامس بإذن الله U[1].

ومن ذلك صيغة الاستفهام[2]، كما في حديث أبي الدرداء t قال: كنت جالسًا عند النبي r إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه حتى أبدى عن ركبته، فقال النبي r: «أَمَّا صَاحِبُكُمْ فَقَدْ غَامَرَ» فسلَّمَ، وقال: إني كان بيني وبين ابن الخطاب شيء، فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لي، فأَبَى عَلَيّ، فأقبلت إليك. فقال: «يَغْفِرُ اللهُ لَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ» ثلاثًا. ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبي بكر فسأل: أَثَمَّ أبو بكر؟ فقالوا: لا. فأتى إلى النبي r فسلَّم، فجعل وجه النبي r يتمعر، حتى أشفق أبو بكر فجثا على ركبتيه، فقال: يا رسول الله، والله، أنا كنت أظلم، مرتين. فقال النبي r: «إِنَّ اللهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، **فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟**» مرتين، فما أوذي بعدها[3]. فاستفهام النبي r: «هَلْ أَنْتُمْ تَارِكُو لِي صَاحِبِي؟» يفهم منه الأمر، أي: اتركوا لي صاحبي. ((وإيراد الأمر في صورة الاستفهام -فضلاً عما فيه من تعبير مؤدب؛ لأنك تترك مخاطبك بالخيار بين أن يفعل وألا يفعل- فيه إغراء بالعمل والحث عليه))[4]، وقال السبكي (٧٧٣هـ) في مجيء الاستفهام للأمر: ((الأمر يجوز أن يكون مفهومًا، مع بقاء قصد إفهام الناس حالهم وطلب نطقهم))[5]، والله أعلم.

ومن الأمر بالاستفهام ما جاء تحضيضًا، وسبق ذكر شواهد له، فليرجع إليه.

ومن الأمر ما جاء بالإشارة[6]، ومن ذلك حديث سهل بن سعد الساعدي t أن رسول الله r ذهب إلى بني عمرو بن عوف ليصلح بينهم، فحانت الصلاة، فجاء المؤذن إلى أبي بكر فقال: أتصلي للناس، فأقيم؟ قال: نعم. فصلى أبو بكر، فجاء رسول الله r والناس

---

(١) ينظر ص (٥٥٤) من هذا البحث.

(٢) ينظر: الإيضاح: ٢/٢٩٣، والأمر والنهي عند علماء العربية: ٦٩.

(٣) أخرجه البخاري: (٣٦٦١ و٤٦٤٠).

(٤) من بلاغة القرآن: ١٦٥، وينظر: بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني: ٢٠.

(٥) عروس الأفراح: ٢/٣٠٨، وينظر: الاستفهام في الصحيحين: ٣٦٠-٣٦٥.

(٦) ينظر: أساليب الطلب في الحديث النبوي: ١٣١.

في الصلاة، فتخلص حتى وقف في الصف، فصفق الناس، وكان أبو بكر لا يلتفت في صلاته، فلما أكثر الناس التصفيق التفت، فرأى رسول الله r ، **فأشار إليه رسول الله r أن امكث مكانك**، فرفع أبو بكر t يديه، فحمد الله على ما أمره به رسول الله t من ذلك، ثم استأخر أبو بكر حتى استوى في الصف، وتقدم رسول الله r فصلى، فلما انصرف قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا مَنَعَكَ أَنْ تَثْبُتَ إِذْ أَمَرْتُكَ؟» فقال أبو بكر: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله r ... الحديث(١)، فهذا الحديث يفيد أن من إشارة النبي r ما هو أمر، وقد اقتضى التفات أبي بكر t أمره بالبقاء إمامًا حتى لا يظن أن النبي r يريد أن يتقدم فيرجع مع تصفيق الناس، إلا أن كون النبي r في صلاة اقتضى أمره بالإشارة، والله أعلم.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها رسول الله r صلى في بيته وهو شاك، فصلى جالسًا، وصلى وراءه قوم قيامًا، **فأشار إليهم أن اجلسوا**، فلما انصرف قال: «إِنَّمَا جُعِلَ الإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ، فَإِذَا رَكَعَ فَارْكَعُوا، وَإِذَا رَفَعَ فَارْفَعوا، وَإِذَا صَلَّى جَالِسًا فَصَلُّوا جُلُوسًا»(٢)، فمقتضى حال الصحابة y أن يأمرهم النبي r بالجلوس، لكن لما كان في صلاة اكتفى بالإشارة، وقد فهم الصحابة y أمره فجلسوا كما في الرواية الأخرى، ثم بين لهم ما ينبغي عليهم مع الإمام(٣)، والله أعلم.

- معاني الأمر في أحاديث الصحيحين.

والأظهر أن الأصل في صيغ الأمر أن يطلب بها حصول الفعل طلبًا جازمًا على جهة الاستعلاء، فيراد بها التكليف والإلزام(٤)، وقد تأتي لمعان أخرى تفهم من خلال السياق

(١) أخرجه البخاري: (٦٨٤) ، ومسلم: (٤٢١).
(٢) أخرجه البخاري: (٦٨٨) ، ومسلم: (٤١٢).
(٣) أخرج الرواية البخاري: (٣٧٨ و٦٨٩) ، ومسلم: (٤١١) عن أنس بن مالك t .
(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٣٠٨-٣١٢، وعلم المعاني، لفيود: ٢/٨٣-٨٥، ودلالات التراكيب: ٢٤٦، وأساليب الطلب: ٨٣، والأمر والنهي عند علماء العربية والأصوليين: ٣٧ و٤١.

وقرائن الأحوال، ذكر البلاغيون جملة منها[١]، ووردت منها جملة في كـلام الـنبي r في أحاديث الصحيحين، وقد جاء اختيار بعضها مراعاة لمقتضى حال المخاطب، ومن ذلك:

١- الدعاء.

ورد فيه شواهد كثيرة ذكرتها في مبحث الدعاء من الفصل الثاني، فليرجع إليه. وإنما يأتي الدعاء بصيغة الأمر إظهارًا للرغبة الجازمة في الاستجابة للـدعاء، وفي ذلـك إشـعار للمخاطب المدعو له أو عليه بحرص النبي r على حصول المدعو به وتحققه، مما يكون لـه الأثر العظيم في نفس المدعو له أو عليه إيجابًا أو سلبًا، والله أعلم.

٢- الإباحة.

لعل التعبير عن الإباحة بصيغة الأمر لإزالة الحرج الذي قد يقع لدى المخاطـب في فعل المأمور به، كما في حديث عبد الله بن عمرو t أن رسول الله r وقـف في حجـة الوداع بمنى للناس يسألونه، فجاءه رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبـل أن أذبـح؟ فقـال: «**اذْبَحْ**، وَلا حَرَجَ». فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمـي؟ قـال: «**ارْمِ**، وَلا حَرَجَ» فما سئل النبي r عن شيء قدم ولا أخر إلا قال: «**افْعَلْ**، وَلا حَـرَجَ»[٢]، ولعـل السائل حينما جاء متحرجًا ظانًا أنه قد وقع فيما لا يصح لمخالفته هدي النبي r في ترتيب أفعال الحج، اقتضى حاله أن ينفى عنه ما يجد من الحرج، ويؤكد له صحة ما فعل، فجـاء الأمر ليؤكد له جواز فعله، والله أعلم.

ومن ذلك أيضًا حديث ميمونة t أن رسول الله r سئل عن فـأرة سـقطت في سمن، فقال: «أَلْقُوهَا وَمَا حَوْلَهَا فَاطْرَحُوهُ، **وَكُلُوا** سَمْنَكُمْ»[٣]، والشـاهد في قولـه r: «وَكُلُوا سَمْنَكُمْ» فالأمر للإباحة، ولعل مجيئها بصيغة الأمر لإزالة أي حرج قد ينشأ عنـد المخاطب من تناول السمن بعد إلقاء الفأرة وما حولها، والله أعلم.

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٣١٣-٣٢٢، وأساليب الطلب: ٢٠٦-٢١٣، والأمر والنهي عند علمـاء العربيـة والأصوليين: ١٠٥-١٢٠.

(٢) أخرجه البخاري: (٨٣) ، ومسلم: (١٣٠٦). ورواه بنحوه ابن عبـاس t في البخـاري: (٨٤) ، ومسـلم: (١٣٠٧).

(٣) أخرجه البخاري: (٢٣٥).

٣- الإرشاد.

ومما ورد فيه حديث عبد الله بن عمرو t قال: أنكحني أبي امــرأة ذات حســب، فكان يتعاهد كنته، فيسألها عن بعلها، فتقول: نعم الرجل من رجل، لم يطأ لنا فراشًــا، و لم يفتش لنا كنفًا منذ أتيناه، فلما طال ذلك عليه ذكر للنبي r ، فقال: «الْقَنِي بِهِ» فلقيته بعد، فقال: «كَيْفَ تَصُومُ؟» قال: كل يوم. قال: «وَكَيْفَ تَخْتِمُ؟» قال: كل ليلة. قال: «صُــمْ فِي كُلِّ شَهْرٍ ثَلاثَةً، وَاقْرَأ الْقُرْآنَ فِي كُلِّ شَهْرٍ» قال: أطيق أكثر من ذلك. قــال: «صُــمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْجُمُعَةِ» قال: أطيق أكثر من ذلك. قال: «أَفْطِرْ يَوْمَيْنِ وَصُمْ يَوْمًــا» قــال: أطيق أكثر من ذلك. قال: «**صُمْ** أَفْضَلَ الصَّوْمِ؛ صَوْمَ دَاوُدَ؛ صِيَامَ يَوْمٍ وَإِفْطَارَ يَوْمٍ، **وَاقْــرَأْ** فِي كُلِّ سَبْعِ لَيَالٍ مَرَّةً» قال: فليــتني قبلــت رخصــة رســول الله r وذاك أني كــبرت وضعفت[^١]، فالنبي r لما رأى ما في عبد الله من الإقبال على الصيام والقيام وقراءة القــرآن في حال قد تشق عليه أرشده إلى ما هو أرفق به وأنسب لحاله، وجاء الإرشاد بصيغة الأمــر إشعارًا له بأهمية ما يرشده إليه في مقابل ما يفعله هو، ودفعًا له إلى قبول ما يؤمر به حيــث يتضمن الأمر عزمًا وجزمًا في الطلب لا يكون لو جاء بصيغة الخبر، والله أعلم.

٤- الإنكار.

ومما ورد فيه حديث زيد بن خالد الجهني t وقــد مضــى قريبًــا في الاســتفهام الإنكاري[^٢] أن النبي r لما سئل عن ضالة الإبل؟ غضب النبي r حتى احمرت وجنتــاه، أو قال: احمر وجهه، وقال: «وَمَا لَكَ وَلَهَا؟ مَعَهَا سِقَاؤُهَا وَحِذَاؤُهَا، تَرِدُ الْمَاءَ وَتَرْعَى الشَّجَرَ، **فَذَرْهَا** حَتَّى يَلْقَاهَا رَبُّهَا» وفي رواية قال: «مَا لَكَ وَلَهَــا؟ **دَعْهَــا** فَــإِنَّ مَعَهَــا حِــذَاءَهَا وَسِقَاءَهَا...» فقوله: «ذَرْهَا» أو «دَعْهَا» أمر في مقام الإنكار، لكون السائل ســأل عــن شيء لا ينبغي أن يكون.

ومن ذلك حديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما أن النبي r رأى رجلاً يســوق بدنة، فقال له: «**ارْكَبْهَا**» فقال: إنها بدنة، فقال: «**ارْكَبْهَا**» قال: إنها بدنة، قال: «**ارْكَبْهَا**،

[^١]: (١) أخرجه البخاري (٥٠٥٢) ومسلم (١١٥٩).
[^٢]: (٢) ينظر ص (٣٨٧) من هذا البحث.

وَيْلَكَ» في الثالثة أو في الثانية، وفي رواية مسلم: «وَيْلَكَ ارْكَبْهَا، وَيْلَكَ ارْكَبْهَا»[1]، والنبي r أمر الرجل أولاً أمر إرشاد، ولعل ذلك شفقة عليه كما ورد في رواية عند النسائي أنه جهده المشي[2]، لكن الرجل لما لم يبادر إلى الامتثال لأمره r أغلظ عليه القول فأمره أمر إنكار وإلزام، مع قوله: «وَيْلَكَ» التي تقال عادة لمن وقع في هلكة[3]، والله أعلم.

٥- الإهانة والتحقير.

ومن ذلك قوله r لابن صياد الذي كان يظن الناس أنه المسيح الدجال، فأراد النبي r أن يختبر حقيقته، ويتبين أمره، ويزيل الإشكال حوله، فحاوره، فلما تبين له كذبه قال له: «اخْسَأْ، فَلَنْ تَعْدُوَ قَدْرَكَ» وقد مضى الحديث بتمامه في مبحث الحوار من الفصل الثاني[4].

وقوله r لليهود: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي r: «اخْسَئُوا فِيهَا، وَاللهِ لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا»[5].

هذه بعض المعاني التي خرج فيها الأمر عن الأصل، ويتبين من خلال شواهدها أن النبي r يراعي حال المخاطب في اختيار أسلوب الأمر في الغرض الذي ورد فيه، والله أعلم.

وهنا مسائل تتعلق بمراعاة النبي r لحال المخاطب في اختيار أسلوب الأمر:

الأولى: أن المأمور به يتلاءم مع حال المخاطب المأمور، وقد مضى في الفصل الأول شواهد كثيرة تدل على ذلك، كأمر الكافر بالإسلام، واليهود بالصدق، والولاة بالعدل واتقاء الظلم، والدعاة بالتبشير والتيسير، والشباب بالزواج والتوازن في الحياة، والنساء بحسن التبعل للزوج، وبالتصدق والإهداء للجارة، وغير ذلك، والإسلام لم يأت إلا بما يتلاءم مع

---

(١) أخرجه البخاري: (١٦٨٩)، ومسلم: (١٣٢٢) عن أبي هريرة t. وأخرجه البخاري: (١٦٩٠ و٢٧٥٤ و٦١٥٩)، ومسلم: (١٣٢٣) عن أنس t.

(٢) سنن النسائي: كتاب مناسك الحج، باب ركوب البدنة لمن جهده المشي، برقم (٢٨٠١).

(٣) ينظر: فتح الباري: ٣/٥٣٨.

(٤) ينظر ص (٢١٤) من هذا البحث.

(٥) أخرجه البخاري: (٣١٦٩).

النفس البشرية ويوافق طبيعتها التي خلقها الله عليها ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

الثانية: قد يتشابه الموقفان، لكن النبي r يأمر المخاطب في كل موقف بأمر يختلف عن الآخر، لوجود نوع اختلاف بينهما.

ومن ذلك ما رواه أنس t أن النبي r رأى شيخًا يهادى بين ابنيه، قال: «مَا بَالُ هَذَا؟» قالوا: نذر أن يمشي، قال: «إِنَّ اللهَ عَنْ تَعْذِيبِ هَذَا نَفْسَهُ لَغَنِيٌّ» وأمره أن يركب[(١)]، وفي رواية أبي هريرة t قال: «ارْكَبْ أَيُّهَا الشَّيْخُ، فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكَ وَعَنْ نَذْرِكَ»[(٢)].

وعن عقبة بن عامر t قال: نذرت أختي أن تمشي إلى بيت الله حافية، وأمرتني أن أستفتي لها النبي r ، فاستفتيته، فقال: «لِتَمْشِ وَلْتَرْكَبْ»[(٣)].

قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((إنما أمر الناذر في حديث أنس أن يركب جزمًا، وأمر أخت عقبة أن تمشي وأن تركب؛ لأن الناذر في حديث أنس كان شيخًا ظاهر العجز، وأخت عقبة لم توصف بالعجز، فكأنه أمرها أن تمشي إن قدرت، وتركب إن عجزت))[(٤)]، والله أعلم.

وقد يتفق الفعلان فيأمر النبي r به مخاطبًا، وينكر على الآخر.

ومن ذلك أنه r أنكر على عبدالله بن عمرو t سرد الصوم، وقد سبق الحديث قريبًا، وفي روايات له أن النبي r قال: «يَا عَبْدَ اللهِ، أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ: وَاللهِ لأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ» فقلت: بلى، يا رسول الله، قد قلته، ولم أرد بذلك إلا الخير. قال: «إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَلا تَفْعَلْ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ الْعَيْنُ وَنَفِهَتْ النَّفْسُ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّكَ لا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ».

---

(١) أخرجه البخاري: (١٨٦٥ و٦٧٠١) ، ومسلم: (١٦٤٢).

(٢) أخرجها مسلم: (١٦٤٣).

(٣) أخرجه البخاري: (١٨٦٦) ، ومسلم: (١٦٤٤).

(٤) فتح الباري: ١١/٥٨٨.

ولم ينكر r على عمرو بن حمزة الأسلمي t ، فقد سأل رسول الله r فقال: يـا رسول الله، إني رجل أسرد الصوم، أفأصوم في السفر؟ وفي رواية قال: يا رسول الله، أجـد بي قوة على الصيام في السفر، فهل علي جناح. فقال النبي r : «صُمْ إِنْ شِئْتَ، وَأَفْطِـرْ إِنْ شِئْتَ»[١].

قال النووي (٦٧٦هـ): ((أخبر بسرده، ولم ينكر عليه، بل أقره عليه وأذن له فيـه في السفر، ففي الحضر أولى. وهذا محمول على أن حمزة بن عمرو كان يطيق السرد بلا ضرر ولا تفويت حق، كما قال في الرواية التي بعدها: أجد بي قوة على الصيام. وأما إنكـاره r على ابن عمرو بن العاص صوم الدهر فلأنه علم r أنه سيضعف عنه، وهكذا جرى، فإنـه ضعف في آخر عمره، وكان يقول: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله r ، وكان رسـول الله r يحب العمل الدائم وإن قل، ويحثهم عليه))[٢]، والله أعلم.

وقد يأمر النبي r بالفعل مخاطبًا ولا يأمر به آخر مثله لوجود اختلاف في الحالين.

ومن ذلك أن النبي r أمر من لم يجد مؤنة النكاح من الشباب بالصيام، لكنه لم يأمر بعض الشباب بذلك كما في حديث ابن مسعود t قال: كنا نغزو مع النبي r ليس لنـا نساء، فقلنا: يا رسول الله، ألا نستخصي؟ فنهانا عن ذلك[٣]، وحديث أبي هريرة t أنـه استأذن النبي r في الاختصاء، قال: قلت: يا رسول الله، إني رجل شاب، وأنا أخاف على نفسي العنت، ولا أجد ما أتزوج به النساء...[٤]، فنهاه النبي r ، ولم يأمره بالصيام.

ولعل جواب ذلك أن حديث ابن مسعود t مقامه في الغزو ((وكـانوا في حـال الغزو يؤثرون الفطر على الصيام للتقوي على القتال))[٥]، وأما أبو هريرة t فلعل الغالـب من حاله ملازمة الصيام؛ لأنه كان من أهل الصفة، وقيل: يحتمل أنه سأل عن ذلك وقـت الغزو كما حصل لابن مسعود t ، والله أعلم[٦].

---

(١) أخرجه البخاري: (١٩٤٣) ، ومسلم: (١١٢١).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٢٣٧/٧.

(٣) أخرجه البخاري: (٥٠٧١).

(٤) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به، في كتاب النكاح، باب ما يكره من التبتل والخصاء.

(٥) فتح الباري: ١٢٠/٩.

(٦) ينظر: المرجع السابق.

الثالثة: يأتي الأمر مؤكدًا لكلام سبقه، فقد يأتي مؤكدًا للخبر كحديث أنس بن مالك t أنه أعطى رسول الله r حليبًا، وأبو بكر عن يساره وعمر وجاهه وأعرابي عن يمينه، فلما فرغ رسول الله r من شربه قال عمر: هذا أبو بكر يا رسول الله؛ يريه إياه، فأعطى رسول الله r الأعرابي وترك أبا بكر وعمر، وقال رسول الله r: «الأَيْمَنُونَ الأَيْمَنُونَ. أَلا فَيَمِّنُوا»، وقد مضى الحديث في الفصل الأول[1]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «الأَيْمَنُونَ الأَيْمَنُونَ» فيه تقدير مبتدأ مضمر، أي: المقدم الأيمنون، والثانية للتأكيد، وقوله: «أَلا فَيَمِّنُوا» كذا وقع بصيغة الاستفتاح والأمر بالتيامن... وتوجيهه أنه لما بين أن الأيمن يقدم، ثم أكده بإعادته، أكمل ذلك بصريح الأمر به))[2].

وقد يأتي مؤكدًا لمعنى استفهام قبله كما في حديث عقبة بن الحارث t قال: تزوجت امرأة فجاءتنا امرأة سوداء، فقال: أرضعتكما، فأتيت النبي r، فقلت: تزوجت فلانة بنت فلان، فجاءتنا امرأة سوداء فقالت لي: إني قد أرضعتكما، وهي كاذبة. فأعرض عني. فأتيته من قبل وجهه، قلت: إنها كاذبة. قال: «كَيْفَ بِهَا وَقَدْ زَعَمَتْ أَنَّهَا قَدْ أَرْضَعَتْكُمَا؟! دَعْهَا عَنْكَ»[3]، واستفهامه r فيه تعجب وإنكار على المخاطب أن يمسك امرأته بعد ما قيل، وهذا يفيد النهي عن إمساك المرأة، والأمر بمفارقتها، ثم أكد النبي r هذا المفهوم بصريح الأمر، والله أعلم.

وقد يأتي مؤكدًا لجواب الاستفهام، كحديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما أن أمها قدمت عليها وهي مشركة في عهد رسول الله r، فاستفتت رسول الله r قالت: إن أمي قدمت علي وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نَعَمْ، صِلِيهَا»[4]، فقوله r: «نَعَمْ» يدل على على صلتها، إلا أنه أكد ذلك بصريح الأمر «صِلِيهَا» ولعل في ذلك حثًا وترغيبًا على الصلة، كي لا تفهم أسماء أن الجواب لمجرد الإباحة، والله أعلم.

---

(١) ينظر ص (٧١) من هذا البحث.
(٢) فتح الباري: ٥/٢٠١.
(٣) أخرجه البخاري: (٥١٠٤).
(٤) أخرجه البخاري: (٢٦٢٠ و٣١٨٣)، ومسلم: (١٠٠٣).

وورد مثل ذلك أيضًا في عدة أحاديث منها حديث ابن عباس t أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي r فقالت: إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا»(١)، وحديث عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال للنبي r: إن أمي افتلتت نفسها، وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق عنها؟ قال: «نَعَمْ، تَصَدَّقْ عَنْهَا»(٢)، والأمر في الحديثين للترغيب في الفعل، حتى لا يظن في الجواب مجرد الإباحة كما قيل في الحديث الأول، والله أعلم.

وقد يأتي مؤكدًا للنهي، والنهي عن الشيء يفهم منه الأمر بضده(٣)، ومن ذلك حديث أنس بن مالك t في الأعرابي الذي بال في المسجد، وقد مضى بتمامه(٤)، وفيه: فقال أصحاب رسول الله r: مه، مه. قال رسول الله r: «لا تُزْرِمُوهُ، دَعُوهُ» فقوله r: «لا تُزْرِمُوهُ» أي: لا تقطعوا عليه بوله(٥)، ومعنى هذا أن يدعوه، إلا أن الأمر لما كان لا يكفي فيه مجرد النهي لما يترتب على زجر الأعرابي من المفاسد العظيمة الدينية والدنيوية أكد النبي r نهيه بالأمر بقوله: «دَعُوهُ» ولعله r أراد عموم الترك، فليس المقصود فقط أن لا يقطعوا عليه بوله، بل يتركوا كل شيء يوحي للأعرابي بالزجر والإنكار ما دام على هذه الحال، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٨٥٢ و٧٣١٥).

(٢) أخرجه البخاري: (١٣٨٨ و٢٧٦٠) ، ومسلم: (١٠٠٤). ومعنى: افتلتت: ماتت فجأة، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٤٦٧.

(٣) ينظر: شرح الكوكب المنير: ٣/٥٤، وإرشاد الفحول: ٣٨٤-٣٩١، وإتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر: ٥/٤٠٦.

(٤) ينظر ص (٤٢) من هذا البحث.

(٥) ينظر: شرح صحيح مسلم: ٣/١٩١، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٣٠١.

ت- النهي.

- **تعريفه وصيغته.**

يراد بالنهي: طلب الكف عن الفعل، وله صيغة صريحة واحدة، وهي (لا) الجازمة المقرونة بالفعل المضارع[1].

وقد وردت كثيرًا في حديث رسول الله r ، وسيأتي شواهد كثيرة عليها.

وقد يأتي النهي بصيغة الخبر، وسيأتي في مبحث المخالفة بين الخبر والإنشاء في الفصل القادم بإذن الله.

ويفهم النهي من الاستفهام الإنكاري التوبيخي، وقد مضى أمثلة على ذلك في الاستفهام.

ومن النهي ما جاء بالإشارة، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لَدَدْنا رسول الله r في مرضه، **وجعل يشير إلينا: لا تَلُدُّونِي.** فقلنا: كراهية المريض بالدواء، فلما أفاق قال: «أَلَمْ أَنْهَكُمْ أَنْ تَلُدُّونِي؟» قلنا: كراهية للدواء. فقال رسول الله r : «لا يَبْقَى مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلاّ لُدَّ، وَأَنَا أَنْظُرُ، إِلاّ الْعَبَّاسَ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يَشْهَدْكُمْ»[2]، وقد فسر النبي r إشارته بالنهي، وكان أهله قد فهموا ذلك عنه، قال النووي (٦٧٦هـ) في فوائد الحديث: ((فيه أن الإشارة المفهمة كصريح العبارة))[3].

- **معاني النهي في أحاديث الصحيحين.**

الأصل في صيغة النهي أن تكون على سبيل الاستعلاء إلزامًا بالكف، وتحريمًا للفعل، إلا أن النهي قد يرد لمعان أخرى تفهم من سياق الكلام وقرائن الأحوال[4]. وقد ورد من ذلك في حديث رسول الله r في الصحيحين ما كان فيه مراعاة لحال المخاطب، ومن ذلك:

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٣٢٦/٢، وأساليب الطلب: ٤٦٥، والأمر والنهي عند علماء العربية: ١٧٥.

(٢) أخرجه البخاري: (٤٤٥٨ و٦٨٩٧) ، ومسلم: (٢٢١٣).

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٩٩/١٤.

(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٣٢٤/٢، والأمر والنهي عند علماء العربية: ١٨٨.

١- النصح والإرشاد.

ومما ورد في ذلك حديث أبي هريرة t أن رجلاً قال للنبي r: أوصني. قال: «**لا تَغْضَبْ**» فردد مرارًا، قال: «**لا تَغْضَبْ**»[(١)]، ولم يزد النبي r في توصية الرجل على أن نهاه عن الغضب، قال العيني (٨٥٥هـ): ((إنما قال r: «لا تَغْضَبْ» لأنه r كان مكاشفًا بأوضاع الخلق، فيأمرهم بما هو الأولى بهم، ولعل الرجل كان غضوبًا فوصاه بتركه))[(٢)]، وربما دل على اتصافه بهذه الصفة تكرار الطلب، والله أعلم.

ومن ذلك نهي النساء عن احتقاره الهدية أو الصدقة ولو كان المُهْدَى أو المُتَصَدَّق به قليلاً كما في الحديث السابق ذكره: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، **لا تَحْقِرَنَّ** جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ» قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وخص النهي بالنساء لأنهن موارد المودة والبغضاء، ولأنهن أسرع انفعالاً في كل منهما))[(٣)].

ومن ذلك نهي أبي ذر t أن يتولى الإمارة أو الولاية على مال اليتيم، لما فيه من ضعف لا يقوى معه على ذلك، قال r له: «يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنِّي أَرَاكَ ضَعِيفًا، وَإِنِّي أُحِبُّ لَكَ مَا أُحِبُّ لِنَفْسِي، **لا تَأَمَّرَنَّ** عَلَى اثْنَيْنِ، **وَلا تَوَلَّيَنَّ** مَالَ يَتِيمٍ»[(٤)]، وكان أبو ذر t سأل النبي r الإمارة فقال له ذلك كما في الرواية الأخرى[(٥)].

وقد نهى النبي r في هذا الحديث أبا ذر t أن يتولى الإمارة، وفي حديث آخر نهى عبد الرحمن بن سمرة أن يسأل الإمارة ولم ينهه أن يتولاها، كما قال r له: «يَا عَبْدَالرَّحْمَنِ ابْنَ سَمُرَةَ، **لا تَسْأَل** الإِمَارَةَ، فَإِنَّكَ إِنْ أُوتِيتَهَا عَنْ مَسْأَلَةٍ وُكِلْتَ إِلَيْهَا، وَإِنْ أُوتِيتَهَا مِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ أُعِنْتَ عَلَيْهَا. وَإِذَا حَلَفْتَ عَلَى يَمِينٍ فَرَأَيْتَ غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا فَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، وَأْتِ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ»[(٦)].

---

(١) أخرجه البخاري: (٦١١٦).

(٢) عمدة القاري: ٢٢/١٦٤، وينظر: فتح الباري: ١٠/٥١٩.

(٣) فتح الباري: ١٠/٤٤٥.

(٤) أخرجه مسلم: (١٨٢٦).

(٥) أخرج الرواية مسلم: (١٨٢٥).

(٦) أخرجه البخاري: (٦٦٢٢)، ومسلم: (١٦٥٢).

ولعل عبد الرحمن t كان لديه قدرة على تولي الإمارة إلا أن النبي r نهاه عن سؤالها والحرص عليها، و لم أجد في روايات الحديث سبب إرشاده إلى ذلك، والله أعلم.

٢- الكراهة.

ومن النهي ما يأتي لبيان كراهة الفعل الذي حصل من المخاطب، كنهيه r عن الإسراع إلى الصلاة في حديث أبي قتادة t السابق ذكره[(١)]، حينما سمع جلبة رجال، فلما صلى قال: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قالوا: استعجلنا إلى الصلاة. قال:«**فَلا تَفْعَلُوا**، إِذَا أَتَيْتُمْ الصَّلاةَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا».

ومثله حديث أبي بكرة t أنه انتهى إلى النبي r وهو راكع، فركع قبل أن يصل إلى الصف، فذكر ذلك للنبي r فقال: «زَادَكَ اللَّهُ حِرْصًا، **وَلا تَعُدْ**»[(٢)].

ومن ذلك قوله r لعبد الله بن عمرو t لما أراد أن يصوم النهار ويقوم الليل: «إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، **فَلا تَفْعَلْ**» وقد مضى الحديث بتمامه قريبًا[(٣)].

٣- الإنكار.

ومن النهي ما يأتي في مقام الإنكار على المخاطب، كما في حديث ابن مسعود t قال: سمعت رجلاً قرأ آية، وسمعت النبي r يقرأ خلافها، فجئت به النبي r ، فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «كِلاكُمَا مُحْسِنٌ، **وَلا تَخْتَلِفُوا**، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»[(٤)]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((في هذا الحديث والذي قبله الحض على الجماعة والألفة، والتحذير من الفرقة والاختلاف، والنهي عن المراء في القرآن بغير حق))[(٥)].
حق))[(٥)].

ومن ذلك نهيه r عن التفضيل بين الأنبياء الذي يؤدي إلى التنازع والتخاصم أو تنقيص المفضول، كما في حديث أبي هريرة t قال: بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها

---

(١) ينظر ص (٣١٦) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (٧٨٣).

(٣) ينظر ص (٣٩٣) من هذا البحث.

(٤) أخرجه البخاري: (٢٤١٠ و٣٤٧٦).

(٥) فتح الباري: ٩/١٠٢-١٠٣.

شيئًا كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار، فقام فلطم وجهه، وقال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر، والنبي r بين أظهرنا! فذهب إليه فقال: أبا القاسم إن لي ذمة وعهدًا، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: «لِمَ لَطَمْتَ وَجْهَهُ؟» فذكره، فغضب النبي r حتى رئي في وجهه، ثم قال: «**لا تُفَضِّلُوا** بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللهِ» وفي رواية: «**لا تُخَيِّرُونِي** عَلَى مُوسَى» الحديث[1].

٤- التأنيس.

وقد يأتي النهي للتأنيس، كقول النبي r لأبي بكر t لما رأى t سراقة بن مالك يتبعهم وهم في طريق الهجرة فقال للرسول r: أُتينا يا رسول الله، فقال الرسول r: «**لا تَحْزَنْ**، إِنَّ اللهَ مَعَنَا»[2]، قال أبو حيان (٧٤٥هـ): ((كان سبب حزن أبي بكر خوفه على رسول الله r، فنهاه الرسول تسكينًا لقلبه))[3]، والله أعلم.

٥- التأكيد.

وقد يأتي النهي تأكيدًا لما قبله، ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري t قال: جاء بلال إلى النبي r بتمر بَرْنِي، فقال له النبي r: «مِنْ أَيْنَ هَذَا؟» قال بلال: كان عندنا تمر ردي، فبعت منه صاعين بصاع، لنطعم النبي r. فقال النبي r عند ذلك: «أَوَّهْ، أَوَّهْ، عَيْنُ الرِّبَا، عَيْنُ الرِّبَا، **لا تَفْعَلْ**. وَلَكِنْ إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَشْتَرِيَ فَبِعْ التَّمْرَ بِبَيْعٍ آخَرَ، ثُمَّ اشْتَرِهِ»[4]، فقول النبي r: «أَوَّهْ، أَوَّهْ» كلمة تقال عند التوجع والشكاية[5]، ويفهم منها أن المخاطب جاء بشيء غير مرضي، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قال ابن التين: إنما تأوه ليكون أبلغ في الزجر))[6]، ثم قوله r: «عَيْنُ الرِّبَا، عَيْنُ الرِّبَا» فيه بيان أن الفعل من الربا الصريح المنهي

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٤١١ و٣٤١٥) ، ومسلم: (٢٣٧٣).
(٢) أخرجه البخاري: (٣٦١٥) ، ومسلم: (٢٠٠٩).
(٣) البحر المحيط: ٥/٥٣.
(٤) أخرجه البخاري: (٢٣١٢) ، ومسلم: (١٥٩٤).
(٥) ينظر: لسان العرب: ١٣/٤٧٢.
(٦) فتح الباري: ٤/٤٩٠.

عنه، والمخاطب يفهم من هذا أن فعله محرم منهي عنه لا ينبغي أن يأتيه، إلا أن النبي r لما كان الفعل المأتي عظيمًا أكد النهي المفهوم بنهي صريح: «لا تَفْعَلْ» والله أعلم.

وقد يؤكد الأمر، كقوله r للمستعجلين إلى الصلاة: «إِذَا سَمِعْتُمْ الإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلاةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، **وَلا تُسْرِعُوا**، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»[١]، فقوله: «عَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ» أمر جاء بصيغة اسم الفعل (عليكم) الدال على الملازمة والإغراء بالفعل (السكينة والوقار)، وهذا يدل على النهي عن الإسراع، إلا أن النبي r أكد الأمر الذي يفهم منه النهي عن خلافه بنهي صريح: «وَلا تُسْرِعُوا» قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «وَلا تُسْرِعُوا» فيه زيادة تأكيد))[٢]، والله أعلم.

ومن ذلك قوله r لأبي هريرة t : «ابْغِنِي أَحْجَارًا أَسْتَنْفِضْ بِهَا، **وَلا تَأْتِنِي بِعَظْمٍ** وَلا رَوْثَةٍ»[٣]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «وَلا تَأْتِنِي» كأنه r خشي أن يفهم أبو هريرة من قوله: أستنجي، أن كل ما يزيل الأثر وينقي كاف، ولا اختصاص لذلك بالأحجار، فنبهه باقتصاره في النهي على العظم والروث على أن ما سواهما يجزئ))[٤]، ولعل ولعل النهي لكون الروث والعظم مما يستنجون بها، وقد يشهد لذلك حديث عبد الله بن مسعود t قال: أتى النبي r الغائط فأمرني أن آتيه بثلاثة أحجار، فوجدت حجرين، والتمست الثالث فلم أجده، فأخذت روثة فأتيته بها، فأخذ الحجرين، وألقى الروثة، وقال: «هَذَا رِكْس»[٥]، والله أعلم.

ومما يتلاءم فيه النهي مع حال المخاطب أن يخصص المخاطب بمنهي عنه يختص به لسبب من الأسباب، كتخصيص النساء بالنهي عن احتقار الصدقة والإهداء للجارة في

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٣٦) ، ومسلم: (٦٠٢).

(٢) فتح الباري: ١١٨/٢.

(٣) أخرجه البخاري: (١٥٥ و٣٨٦٠). ومعنى أستنفض بها: أستنجي بها، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٩٦/٥.

(٤) فتح الباري: ٢٥٦/١.

(٥) أخرجه البخاري: (١٥٦). والركس، كالرجس، بمعنى النجس، وينظر: فتح الباري: ٢٥٨/١.

الحديث الذي سبق قريبًا(١)، ونهيهن عن التطيب إذا أردن أن يخرجن للصلاة كما في حديث زينب امرأة ابن مسعود رضي الله عنهما قالت: قال لنا رسول الله r : «إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْمَسْجِدَ فَلا تَمَسَّ طِيبًا» وفي رواية: «إِذَا شَهِدَتْ إِحْدَاكُنَّ الْعِشَاء فَلا تَطَيَّبْ تِلْكَ اللَّيْلَة».

وقد مضى الحديث في الفصل الأول(٢)، وذكرت أن النهي عن خروج المرأة متطيبة عام في كل الأوقات، إلا أن النبي r خص العشاء الآخرة بمزيد من النهي، ولعل ذلك لأن العطر يستثير الشهوة، ويستميل إلى المرأة، والليل وقت الظلمة وخلو الطريق، فكان الخوف عليهن في الليل أكثر، وقيل: لأن عادتهن استعمال البخور في الليل لأزواجهن، والله أعلم.

وكما في حديث وفد عبد القيس قال النبي r لهم: «وَلا تَشْرَبُوا فِي الدُّبَّاءِ وَالْحَنْتَمِ وَالنَّقِيرِ وَالْمُزَفَّتِ» وقد مضى الحديث بتمامه وشرح مفرداته(٣)، إلا أن المقصود هنا أن النبي r اقتصر في النهي على الانتباذ في الأوعية مع أن في المناهي ما هو أشد في التحريم منه، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((اقتصر عليها لكثرة تعاطيهم لها))(٤)، والله أعلم. وكما في نهي أبي ذر t عن تولي الإمارة لكونه ضعيفًا، وقد سبق ذكره آنفًا(٥).

---

(١) ينظر ص (١٠٦، ٤٠٥) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (١٠٦) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٧٢) من هذا البحث.

(٤) فتح الباري: ١/١٣٤.

(٥) ينظر ص (٤٠٥) من هذا البحث.

ث- النداء.

- تعريفه وادواته.

النداء هو: طلب إقبال المنادى بحرف من حروف النداء. وحروفه: (يا) للبعيد والقريب، وهي أكثر حروف النداء استعمالاً، ولا يقدر عند الحذف سواها، ولذا عدها النحاة أم الباب وأصل حروف النداء، ولم يرد في القرآن من حروف النداء إلا هي، ونودي بها البعيد والقريب(١). و(الهمزة، وأي) للقريب، و(آ، وآي، وأيا، وهيا، ووا) للبعيد، وتختص (وا) بالندبة، وقد تستعمل للنداء المحض(٢).

وقد يترل البعيد مترلة القريب فينادى بحروف القرب إشعارًا بأنه حاضر في القلب لا يغيب. وقد يعكس فيترل القريب مترلة البعيد لأغراض بلاغية منها: الإشعار ببعد مترلته ومكانته، أو للإشعار ببعده عن القلب لضعته وانحطاط مكانته، أو للتنبيه على عظم الأمر المدعو له وعلو شأنه، أو لكونه غافلاً أو نائمًا، أو لغير ذلك(٣).

وربما حذف حرف النداء كقول الله U: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَـذَا﴾ [يوسف: ٢٩] ويرى بعض المفسرين أن حذف الحرف هنا لقرب المنادى وكمال تفطنه للحديث، وفيه تقريب له وتلطيف لمحله(٤).

- موقعه من الكلام.

والأصل في الخطاب أن يبدأ المتكلم بالنداء تنبيهًا للمخاطب أن يصغي إليه، خاصة إذا كان أمرًا ذا بال، ولذا غلب أن يلي النداء أمر أو نهي أو استفهام أو إخبار بحكم يخص المخاطب، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((كل ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه وعظاته وزواجره ووعده ووعيده واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم وغير ذلك مما أنطق به كتابه أمور عظام وخطوب جسام ومعان عليهم أن يتيقظوا لها ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم

---

(١) قيل -واستُضعِف-: إن الهمزة للنداء في قراءة من خفف ميم (من) في قول الله تعالى: ﴿أَمَنْ هو قانتٌ آناءَ اللَّيلِ ساجدًا وقائمًا...﴾[الزمر:٩]، وينظر: دراسات لأسلوب القرآن: ٦١٢/٣، وأساليب الطلب: ٢٢٤.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٣٣٣/٢، وأساليب الطلب: ٢٢٠-٢٣٠.

(٣) ينظر: الكشاف: ٩٥/١-٩٦، ومواهب الفتاح: ٣٣٣/٢-٣٣٤، وحاشية الدسوقي: ٣٣٤/٢، وعلم المعاني، لفيود: ١٤٧/٢-١٤٩.

(٤) ينظر: الكشاف: ٤٤٤/٢، ونظم الدرر: ٣٣/٤، وإرشاد العقل السليم: ٢٧٠/٤، وروح المعاني: ٢٢٤/١٢.

إليها))[١]، وكثر حذف النداء من أول الكلام استغناء بإقبال المخاطب، قال سيبويه (١٨٠هـ): ((أول الكلام أبدًا النداء، إلا أن تدعه استغناء بإقبال المخاطب عليك، فهو أول كل كلام لك، به تعطف المكلَّم عليك))[٢].

- بلاغة النداء في أحاديث الصحيحين.

كثر النداء في خطاب النبي ﷺ في أحاديث الصحيحين، وأذكر هنا من بلاغته ما له علاقة بمراعاة حال المخاطب، ومن ذلك:

١- مقامات حروف النداء.

ورد من حروف النداء: (يَا) وهو الأكثر، و(أَيْ) و(وَا) في مواضع قليلة. ولئن كان الحرف (يا) يستعمل في كل الأحوال، فإن الظاهر في (أَيْ) أن يستعمل في القريب، و(وَا) في الندبة.

أما (أَيْ) فجاء في خطاب النبي ﷺ للقريب، إلا أنه غالبًا ما نودي به في مقام اللين والإشفاق والتسلية، ولذا جاء في نداء القريب حسًّا ومعنى كالبنت والزوجة والعم والصاحب، ومن ذلك قول النبي ﷺ لفاطمة رضي الله عنها لما جاءته مبلغة رسالة احتجاج من أزواجه إليه، وقد سبق الحديث بتمامه[٣]، وفيه أن فاطمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، إن أزواجك أرسلنني إليك يسألنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقال لها رسول الله ﷺ: «**أَيْ بُنَيَّةُ**، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟» فقالت: بلى، قال: «فَأَحِبِّي هَذِهِ» فقامت فاطمة حين سمعت ذلك من رسول الله ﷺ فرجعت إلى أزواج النبي ﷺ فأخبرتهن بالذي قالت وبالذي قال لها رسول الله ﷺ، فقلن لها: ما نراك أغنيت عنا من شيء، فارجعي إلى رسول الله ﷺ فقولي له: إن أزواجك ينشدنك العدل في ابنة أبي قحافة، فقالت فاطمة: والله لا أكلمه فيها أبدا. وهذه رواية مسلم، وفي رواية البخاري: «يَا بُنَيَّةُ، أَلا تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟»[٤]، فإن كانت رواية مسلم هي المحفوظة فإن النداء بـ(أَيْ) يلائم المخاطب والمقصود من الخطاب، فإن

---

(١) الكشاف: ١/٩٦.

(٢) كتاب سيبويه: ٢/٢٠٨، وينظر: أساليب الطلب: ٢١٨، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٤٤.

(٣) ينظر ص (٢٤٧، ٢٥٨) من هذا البحث.

(٤) أخرجه البخاري: (٢٥٨١)، ومسلم: (٢٤٤٢).

فاطمة رضي الله عنها ابنة الرسول r وهي من أحب الناس إليه، ولعل النبي r أراد من فاطمة أن لا تدخل في موضوع كهذا دافعه الغيرة بين الزوجات، فإن الزوجات قد يتسامح في خطابهن مع النبي r لما فيهن من الغيرة، بخلاف غيرهن، فكان المقام يقتضي اللين والتلطف مع فاطمة رضي الله عنها، ومن ذلك نداؤها بـ(أَيْ) والله أعلم.

ومن ذلك نداؤه لعمه أبي طالب لما حضرته الوفاة، حينما جاءه فوجد عنده أبا جهل وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، فقال له: «**أَيْ عَمِّ**، قُلْ: لا إِلَهَ إلا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» وقد سبق الحديث بتمامه في الفصل الأول(١)، وذكرت أن النداء في مثل هذا المقام فيه تلطف ومؤانسة، ومحاولة لتقريب المخاطب إلى ما يريده المتكلم، وإذا كان بالحرف الموضوع لنداء القريب كان أكثر تلطفًا وإيناسًا وتقريبًا وترقيقًا للقلب. والنداء بـ(أَيْ) هو الوارد في سائر الروايات، والمقام يرجحه، وورد في بعضها النداء بـ(يا)، فإن كان هو المحفوظ فإن النداء به لا يخرجه عما قيل في عموم النداء في هذا المقام، والله أعلم.

ومن ذلك نداؤه بلالاً: «**أَيْ بِلالُ**» وذلك في حديث أبي هريرة t أن رسول الله r حين قفل من غزوة خيبر سار ليلة، حتى إذا أدركه الكَرى عرَّس، وقال لبلال: «اكْلأْ لَنَا اللَّيْلَ» فصلى بلال ما قدر له، ونام رسول الله r وأصحابه، فلما تقارب الفجر استند بلال إلى راحلته مواجه الفجر، فغلبت بلالاً عيناه وهو مستند إلى راحلته، فلم يستيقظ رسول الله r ولا بلال ولا أحد من أصحابه حتى ضربتهم الشمس، فكان رسول الله r أولهم استيقاظًا، ففزع رسول الله r فقال: «**أَيْ بِلالُ**» فقال بلال: أخذ بنفسي الذي أخذ -بأبي أنت وأمي يا رسول الله- بنفسك. قال: «اقْتَادُوا» فاقتادوا رواحلهم شيئًا، ثم توضأ رسول الله r ، وأمر بلالاً فأقام الصلاة، فصلى بهم الصبح، فلما قضى الصلاة قال: «مَنْ نَسِيَ الصَّلاةَ فَلْيُصَلِّهَا إِذَا ذَكَرَهَا فَإِنَّ اللهَ قَالَ: ﴿أَقِمْ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤]»(٢).

---

(١) ينظر ص (٦٠) من هذا البحث.

(٢) أخرجه مسلم: (٦٨٠). والكرى: النعاس أو النوم. والتعريس: نزول المسافر آخر الليل للنوم والاستراحة، وقيل: نزوله في أي وقت، وقوله r : «اكْلأْ لَنَا اللَّيْلَ» أي: ارقبه حتى لا يفوت الفجر. وينظر: شرح صحيح مسلم: ١٨٢/٥.

ولعل نداءه r بلالاً بـ(أيْ) مع قربه منه في الخطاب فيه تلطف في العتاب لئلا يفزعه، ولو ناداه بـ(يا) مثلاً لكان في ذلك قوة في العتاب وإشعار بالإنكار، والله أعلم.

ولذا كان النبي r ينادي بـ(يا) ولا ينادي بـ(أيْ) في مقام الإنكار على المخاطب الذي وقع في المنكر الواضح البين، كقوله لمعاذ t لما أنكر عليه إطالة الصلاة: «يَا مُعَاذُ، أَفَتَّانٌ أَنْتَ؟» وقد سبق الحديث بتمامه(١)، وقوله لأسامة t: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ: لا إِلَهَ إلا اللهُ؟» حينما قتل أسامة t رجلاً من الكفار بعد ما قال: لا إله إلا الله، وقد سبق الحديث(٢).

ولعل اختيار النداء بالحرف (يا) في مقام الإنكار لما فيه من مد يسهم في إبراز الإنكار صوتيًا، والله أعلم.

وأما النداء بالحرف (وَا) فيأتي خاصة في النُّدْبة، وهي: نداء المتفجع عليه أو المتوجع منه، وقد تستعمل في نداء غير المندوب(٣).

وقد ورد في موقف واحد في مرضه r الذي توفي فيه، كما روى القاسم بن محمد قال: قالت عائشة: وا رأساه. فقال رسول الله r: «ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ، فَأَسْتَغْفِرَ لَكِ، وَأَدْعُوَ لَكِ» فقالت عائشة: وا ثكلياه، والله إني لأظنك تحب موتي، ولو كان ذاك لظللت آخر يومك معرسًا ببعض أزواجك. فقال النبي r: «بَلْ أَنَا **وَا رَأْسَاه**. لَقَدْ هَمَمْتُ -أو: أَرَدْتُ- أَنْ أُرْسِلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَابْنِهِ، وَأَعْهَدَ أَنْ يَقُولَ الْقَائِلُونَ أَوْ يَتَمَنَّى الْمُتَمَنُّونَ. ثُمَّ قُلْتُ: يَأْبَى اللهُ وَيَدْفَعُ الْمُؤْمِنُونَ» أو: «يَدْفَعُ اللهُ وَيَأْبَى الْمُؤْمِنُونَ»(٤).

وإنما قالت عائشة رضي الله عنها: وا رأساه، لصداع ألم بها، كما ذكرته في الرواية الأخرى في غير الصحيحين قالت: رجع إلي رسول الله r ذات يوم من جنازة بالبقيع وأنا

---

(١) ينظر ص (٥٢) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (٥١) من هذا البحث.

(٣) ينظر: مغني اللبيب: ٤٨٢، والجنى الداني: ٣٤٦، وأساليب الطلب: ٢٢٨.

(٤) أخرجه البخاري: (٥٦٦٦ و٧٢١٧) واللفظ له، وأخرج مسلم: (٢٣٨٧) الجزء الثاني من الحديث عن عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال لي رسول الله r في مرضه: «ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ أَبَاكِ وَأَخَاكِ حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا؛ فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولُ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى. وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلاّ أَبَا بَكْرٍ».

أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه[1]. وقول النبي r : «ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَـــيٌّ، فَأَسْتَغْفِرَ لَكِ، وَأَدْعُوَ لَكِ» أي: لو مت وأنا حي، كما في الرواية الأخرى أن النبي r قال: «مَا ضَرَّكِ لَوْ مُتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ، وَكَفَّنْتُكِ، ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ، وَدَفَنْتُكِ»، ولعل الـــنبي r أراد بذلك مداعبتها والتخفيف عنها والإشارة لها بأنها ستعيش بعده، إلا أن عائشة رضي الله عنها أخذتها الغيرة، فتوجع النبي r وقال: «بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاه» وقد كان النبي r بـــدأ بـــه مرضه الذي توفي فيه. ولعل النبي r أظهر توجعه ليصرف عائشة عما هي فيه من الغـــيرة، ولذا جاء بصيغة الإضراب، والله أعلم، وذكر بعض الشراح أن الإضراب عن وجع رأســـها والاشتغال بوجع رأسه، قال العيني (٨٥٥هــ): ((أتى بكلمة إضراب لأن معناه: دعي ذكر ما تجدينه من وجع رأسك، واشتغلي بي؛ إذ لا بأس بك، وأنت تعيشين بعدي))[٢]، ويؤيـــد هذا التوجيه أن إضراب النبي r جاء في الرواية الأخرى بعد توجع عائشة رضي الله عنـــها مباشرة وقبل مداعبته لها بالكلام السابق، وسأذكر الرواية بتمامها ليتبين ســـياقها، قالـــت عائشة رضي الله عنها: رجع إلي رسول الله r ذات يوم من جنازة بالبقيع وأنا أجد صداعًا في رأسي، وأنا أقول: وا رأساه. قال: «بَلْ أَنَا وَا رَأْسَاهْ» قال: «مَا ضَرَّكِ لَوْ مِـــتِّ قَبْلِـــي فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ» قلت: لكأني بك والله لو فعلت ذلـــك لقـــد رجعت إلى بيتي فأعرست فيه ببعض نسائك. قالت: فتبسم رسول الله r ، ثم بُدئ بوجعـــه الذي مات فيه.

ثم بدا لي أن فصل عائشة بين قولي النبي r يوحي بأن القول الثاني لا يلزم أن يكون النبي r قاله بعد القول الأول، والله أعلم.

٢- الأغراض البلاغية للنداء.

الأصل في النداء أن يكون لطلب إقبال المنادى، ولذا يأتي في أول الخطاب كما سبق ذكره، إلا أن النداء يأتي لأغراض أخرى يقتضيها الحال[٣].

---

(١) أخرج الرواية أحمد في مسنده: ٢٢٨/٦، وابن ماجه في سننه: كتاب الجنائز، باب ما جاء في غسل الرجل امرأته، برقم (١٤٦٥).

(٢) عمدة القاري: ٢١/ ٢٢٣، ينظر: فتح الباري: ١٢٥/١٠.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٢٣، وشروح التلخيص: ٣٣٤/٢-٣٣٧.

وقد جاء النداء في خطاب النبي r لأغراض اقتضاها حال المخاطب، ومن ذلك:

- التكريم.

يأتي النداء في تكريم المخاطب وتبجيله كما في نداء أبي بكر t بكنيته، ولم يكن النبي r يناديه بغير ذلك، ولعل ذلك من إكرام أبي بكر والاعتراف بفضله، وقد كان النبي r يجله ويكرمه، ويغضب لإغضابه، حتى قال: «إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ النَّاسِ أَحَدٌ أَمَنَّ عَلَيَّ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ مِنْ أَبِي بكْرِ بْنِ أَبِي قُحَافَةَ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ النَّاسِ خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، وَلَكِنْ خُلَّةُ الإِسْلامِ أَفْضَلُ. سُدُّوا عَنِّي كُلَّ خَوْخَةٍ فِي هَذَا الْمَسْجِدِ غَيْرَ خَوْخَةِ أَبِي بَكْرٍ»(١).

- التلطف.

ويأتي النداء للتلطف وتأليف القلب، كما في مقام الدعوة إلى الله U، ومن ذلك قول النبي r لعمه: «**أَيْ عَمِّ**، قُلْ: لا إِلَهَ إِلا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ».

وقوله لسيد أهل اليمامة ثمامة بن أثال وكان أسيرًا في المسجد: «مَاذَا عِنْدَكَ **يَا ثُمَامَةُ؟**» وكرر له القول ثلاث مرات في ثلاثة أيام، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قوله r: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ؟» وكرر ذلك ثلاثة أيام، هذا من تأليف القلوب وملاطفة لمن يرجى إسلامه من الأشراف الذين يتبعهم على إسلامهم خلق كثير))(٢). وروي عن بعض السلف في تفسير قول الله U: ﴿فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤] أن القول اللين تكنيته(٣).

ومن التلطف مع أصحابه y حديث المسور بن مخرمة t وقد سبق بتمامه(٤)، وفيه أن النبي r أهديت له أقبية، فقسمها بين ناس من أصحابه، ولم يعط أباه منها شيئًا، وكان في خُلُقه شدة، فجاء مخرمة t إلى النبي r فلما سمع r صوته عرفه فخرج إليه ومعه قَبَاء، وهو يريه محاسنه، ويقول: «**يَا أَبَا الْمِسْوَرِ**، قَدْ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، **يَا أَبَا الْمِسْوَرِ**، قَدْ خَبَأْتُ

(١) أخرجه البخاري: (٤٦٧).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٨٩/١٢.

(٣) ينظر: جامع البيان: ٤١٩/٨، وتفسير القرآن العظيم: ٢٩٤/٥.

(٤) ينظر ص (١٤٥) من هذا البحث.

هَذَا لَكَ» فنظر إليه فقال: رضي مخرمة. ولعل في نداء النبي r له بالكنية، وتكرار ذلك، تلطفًا معه وتأليفًا لقلبه، قال ابن بطال (٤٤٩هـ): ((فيه ما كان عليه النبي من كريم الخلق ولين الكلمة والتواضع، ألا ترى أنه استقبل مخرمة بأزرار القباء، وكناه مرتين وألطف له في القول، وأراه إيثاره باعتنائه به في مغيبه؛ لقوله: «خَبَأْتُ هَذَا لَكَ» لما علم من شدة خلقه، فترضاه بذلك))[١]، وقال في موضع آخر: ((وفي هذا من الفقه الاستئلاف لأهل اللسانة وغيرهم))[٢]، أي: تأليف قلوبهم والتلطف معه، والله أعلم.

- التأنيس.

وجاء النداء للتأنيس والتسلية، ومن ذلك نداء أبي بكر t وهما في الغار في الهجرة إلى المدينة لما خشي t أن يدركهم العدو: «**يَا أَبَا بَكْرٍ**، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا» وفي رواية: «اسْكُتْ **يَا أَبَا بَكْرٍ**، اثْنَانِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[٣]، والنداء هنا يظهر فيه تأنيس المنادى في حال اشتد فيها حزنه وخوفه من أن يصل المشركون إليهم فيظفرون بهم.

ومن ذلك حديث فاطمة رضي الله عنها لما أسر النبي r إليها قرب أجله فبكت، قالت: فلما رأى جزعي سارَّني الثانية فقال: «**يَا فَاطِمَةُ**، أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ» أَوْ: «سَيِّدَةَ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ» فضحكت لذلك، وقد سبق الحديث بتمامه[٤]، فالنداء هنا جاء في مقام التأنيس والتلطف والتسلية، والله أعلم.

- الإنكار.

وجاء النداء في مقام الإنكار والعتاب، و لم يستعمل في هذا المقام من حروف النداء إلا (يا) وقد سبق آنفًا تعليل ذلك[٥]، وغالبًا ما يتقدم النداء في هذا المقام، ولعل في ذلك قوة في تنبيه المخاطب إلى خطئه، وإشعارًا بأهمية الأمر.

---

(١) شرح ابن بطال: ٥/٢٨٦.

(٢) المرجع السابق: ٧/١١٦.

(٣) أخرجه البخاري: (٣٦٥٣ و٣٩٢٢) ، ومسلم: (٢٣٨١).

(٤) ينظر ص (١٠٩) من هذا البحث.

(٥) ينظر ص (٤١٣) من هذا البحث.

ومن ذلك إنكاره على أبي ذر t حينما سب غلامه وعَيَّره بأمه، وقد سبق الحديث[١]، وفيه أن النبي r قال له بعد حوار معه: «**يَا أَبَا ذَرٍّ**، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ...».

ومن ذلك إنكاره على معاذ t لما أطال الصلاة، وعلى أسامة لما قتل الكافر بعد أن قال الشهادة، في الحديثين الذين مضيا آنفًا[٢].

ومن ذلك إنكاره على أم سلمة رضي الله عنها لما كلمته في شأن إهداء الناس له في بيت عائشة، وقد سبق الحديث في الفصل الثاني[٣]، وفيه: أن النبي r كان يعرض عنها، فلما ألحت عليه قال لها: «**يَا أُمَّ سَلَمَةَ**، لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّهُ وَاللهِ مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا» فقالت: أتوب إلى الله من أذاك، يا رسول الله.

- الثناء والمدح.

وجاء النداء في مقام الثناء والمدح، كما في حديث أبي بن كعب t أن النبي r سأله عن أعظم آية في كتاب الله U، فقال: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فضرب النبي r في صدره، وقال له: «وَاللهِ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، **أَبَا الْمُنْذِرِ**»[٤]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((فيه تبجيل العالم فضلاء أصحابه، وتكنيتهم، وجواز مدح الإنسان في وجهه إذا كان فيه مصلحة، ولم يُخَف عليه إعجاب ونحوه، لكمال نفسه ورسوخه في التقوى))[٥].

ومن ذلك نداء أهل السفينة من المهاجرين إلى الحبشة ثم إلى المدينة في حديث أبي موسى الأشعري t أن عمر t قال لأسماء بنت عميس رضي الله عنها وكانت ممن هاجر إلى الحبشة: سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله r منكم. فغضبت، وقالت: كلا والله، كنتم مع رسول الله r يطعم جائعكم، ويعظ جاهلكم، وكنا في دار أو في أرض

---

(١) ينظر ص (٢٧٣) من هذا البحث.
(٢) ينظر ص (٥١، ٥٢) من هذا البحث.
(٣) ينظر ص (٢٤٧) من هذا البحث.
(٤) أخرجه مسلم: (٨١٠).
(٥) شرح صحيح مسلم: ٦/٩٣.

البعداء البغضاء بالحبشة، وذلك في الله وفي رسوله r . وايم الله، لا أطعم طعامًا ولا أشرب شرابًا حتى أذكر ما قلت لرسول الله r ، ونحن كنا نؤذى ونخاف، وسأذكر ذلك للنبي r ، وأسأله، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد عليه. فلما جاء النبي r قالت: يا نبي الله، إن عمر قال كذا وكذا. قال: «فَمَا قُلْتِ لَهُ؟» قالت: قلت له كذا وكذا. قال: «لَيْسَ بِأَحَقَّ بِي مِنْكُمْ، وَلَهُ وَلأَصْحَابِهِ هِجْرَةٌ وَاحِدَةٌ، وَلَكُمْ أَنْتُمْ -**أَهْلَ السَّفِينَةِ**- هِجْرَتَانِ»[1]. وقد فرح أهل السفينة بهذا فرحًا عظيمًا، قالت أسماء: فلقد رأيت أبا موسى وأصحاب السفينة يأتوني أرسالاً يسألوني عن هذا الحديث، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ولا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي r . والنداء بـ(أهل السفينة) فيه تخصيص لهم، ومما يدل على التخصيص تقديم المسند (لكم) على المسند إليه (هجرتان)، وكذلك مجيء الضمير (أنتم) لتعيينهم دون غيرهم، والله أعلم، والاختصاص من المعاني التي يأتي عليها النداء[2].

- التحسير.

وجاء النداء في مقام التحسير والتنديم والتبكيت، كنداء النبي r لصناديد قريش من قتلى غزوة بدر، وقد سبق الحديث في الفصل الثالث[3]، وفيه أن النبي r وقف على البئر الذي ألقوا فيه وناداهم: «**يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَامٍ، يَا أُمَيَّةَ بْنَ خَلَفٍ، يَا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، يَا شَيْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ**، أَيَسُرُّكُمْ أَنَّكُمْ أَطَعْتُمْ اللهَ وَرَسُولَهُ، فَإِنَّا قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟» فقال عمر: يا رسول الله، ما تكلم من أجساد لا أرواح لها، فقال رسول الله r : «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ» قال قتادة -أحد رواة الحديث-: أحياهم الله حتى أسمعهم قوله توبيخًا وتصغيرًا ونقيمة وحسرة وندمًا.

٣- مراعاة نوع المنادى.

يراعي النبي r مقتضى حال المخاطب في نوع المنادى، فربما نادى بالاسم، وربما نادى بالكنية، وربما نادى بالصفة.

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٢٣١) ، ومسلم: (٢٥٠٣).

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٢٣، وشروح التلخيص: ٢/٣٣٥.

(٣) ينظر ص (٣٢٨) من هذا البحث.

- النداء بالاسم.

أما الاسم فالأصل أن ينادى المخاطب باسمه الذي يعينه إذا كان المخاطب مفـــردًا، ويعدل إلى نداء الكنية أو الوصف واللقب لكونه الأشهر في تعيين المخاطب، أو لغرض مـــن الأغراض البلاغية التي ذكر منها البلاغيون في تعريف المســـند إليـــه أو المســـند: الإكـــرام والتعظيم، أو الإهانة(١)، وثمة أغراض أخرى وردت في خطاب النبي r لأصحابه أو غيرهم بالكنية أو الوصف واللقب، وقد سبق ذكرها.

- النداء بالكنية.

أما الكنية فينادى بها عادة للإكرام والتعظيم والتبجيل، كما قال الشاعر(٢):

أَكْنِيـــهِ حـــينَ أُنادِيـــهِ لأُكْرِمَـــهُ ولا أُلَقِّبُـــهُ، والسَّـــوْأَةَ اللَّقَبـــا

كَذاكَ أُدِّبتُ حتى صارَ مِن خُلُقِـــي أَنِّي وَجَدْتُ مِلاكَ الشِّـــيمَةِ الأَدَبـــا

قال الغزالي (٥٠٥هـــ) عن النبي r : ((كان يدعو أصحابه بكناهم إكرامًـــا لهـــم واستمالة لقلوبهم))(٣). وذكرت في الحديث عن أغراض النداء مثالاً على ذلك نداء أبي بكر t ، وأذكر هنا نداء النبي r لأُبي بن كعب t بكنيته في مقامي التعليم والثناء في الحديث الذي سبق ذكره مختصرًا وتمامه أن أُبيًا قال: قال رسول الله r : «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ**، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «**يَا أَبَا الْمُنْذِرِ**، أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟» قلت: ﴿اللهُ لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقـــرة: ٢٥٥] فضرب في صدري، وقال: «وَاللهِ، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ، **أَبَا الْمُنْذِرِ**»(٤).

وندرك الإكرام بتكنية النبي r لأُبي t في هذا الموقف إذا قارناه بالموقف الآخـــر الذي أنكر فيه النبي r على أُبي t ما وقع في قلبه من خواطر مذمومة ووساوس شيطانية، قال أبي t : كنت في المسجد، فدخل رجل يصلي، فقرأ قراءة أنكرها عليه، ثم دخل آخـــر

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ١٨١، وشروح التلخيص: ٢٩٨/١، والتبيان في البيان، للطيبي: ١٥٤/١.

(٢) البيتان نسبهما أبو تمام إلى بعض الفزاريين في الحماسة: ٥٧٤/١، وينظر: الحماسة البصـــرية: ٧٩٧/٢، وخزانـــة الأدب، للبغدادي: ١٤٠/٩.

(٣) إحياء علوم الدين: ٥٧٠/٢.

(٤) أخرجه مسلم: (٨١٠).

فقرأ قراءة سوى قراءة صاحبه، فلما قضينا الصلاة دخلنا جميعًا على رسول الله r ، فقلت: إن هذا قرأ قراءة أنكرها عليه، ودخل آخر فقرأ سوى قراءة صاحبه، فأمرهما رسول الله r فقرآ فحسَّن النبي r شأنهما، فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهليــة[(١)]، فلما رأى رسول الله r ما قد غشيني ضرب في صدري، ففضت عرقًا، وكأنما أنظر إلى الله U فرقًا، فقال لي: «**يَا أُبَيُّ**، أُرْسِلَ إِلَيَّ أَن اقْرَأْ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَــوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَرَدَّ إِلَيَّ الثَّانِيَةَ: اقْرَأْهُ عَلَى حَرْفَيْنِ، فَرَدَدْتُ إِلَيْهِ أَنْ هَوِّنْ عَلَى أُمَّتِي، فَــرَدَّ إِلَــيَّ الثَّالِثَةَ: اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَدَّةٍ رَدَدْتُكَهَا مَسْأَلَةٌ تَسْأَلُنِيهَا. فَقُلْتُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِأُمَّتِي، وَأَخَّرْتُ الثَّالِثَةَ لِيَوْمٍ يَرْغَبُ إِلَيَّ الْخَلْقُ كُلُّهُمْ حَتَّى إِبْرَاهِيمُ r »[(٢)].

وقد جاء النداء بالكنية في مواقف اقتضت أن ينادي النبي r المخاطب بما يلابسه، لا بما يكنى به أصلاً.

ومن ذلك حديث المسور بن مخرمة t وقد سبق قريبًا، وفيه أن الــنبي r نــاداه بإضافته إلى ابنه الذي جاء به: «**يَا أَبَا الْمِسْوَرِ**، قَدْ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ» وكنيته t أبو صفوان، قال ابن حجر (٨٥٢هــ): ((دعاه أبا المسور، وكأنه على سبيل التأنيس له بــذكر ولــده الذي جاء صحبته، وإلا فكنيته في الأصل أبو صفوان))[(٣)].

ومن ذلك تكنية علي بن أبي طالب t بأبي تراب في قصة مغاضبته لزوجه فاطمــة رضي الله عنها، وقد سبق ذكرها[(٤)]، وفيها أن النبي r جاء إلى علي وهــو مضــطجع في المسجد قد سقط رداؤه عن شقه، وأصابه تراب، فجعل رسول الله r يمسحه عنه، ويقول: «**قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ**» وهذا فيه مداعبة وتلطف بزوج ابنته وابن عمه، قال ابن حجر (٨٥٢هــ) في فوائد الحديث: ((داعبه بالكنية المذكورة المأخوذة من حالته، ولم يعاتبه على

---

(١) قال النووي في شرح صحيح مسلم: ١٠٢/٦: ((قال: فسقط في نفسي من التكذيب ولا إذ كنت في الجاهليــة. معناه: وسوس لي الشيطان تكذيبًا للنبوة أشد مما كنت عليه في الجاهلية؛ لأنه في الجاهلية كان غــافلاً أو متشــككًا، فوسوس له الشيطان الجزم بالتكذيب)).

(٢) أخرجه مسلم: (٨٢٠).

(٣) فتح الباري: ٢٧٠/١٠.

(٤) ينظر ص (٣٢٨) من هذا البحث.

مغاضبته لابنته مع رفيع مترلتها عنده، فيؤخذ منه استحباب الرفق بالأصهار وترك معاتبتهم إبقاء لمودهم))(١)، وقال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((قد يكنون بما يلابس المكنى من غير الأولاد، كقول رسول الله r في علي: أبو تراب... وكان من أحب أسمائه إليه، وكقولهم: أبو لهب؛ لحمرة لونه... وسمعتهم يكنون الكبير الرأس والعمامة بأبي الرأس وأبي العمامة))(٢).

ونادى r الصغير الذي لم يولد له بكنية فيها تصغير وتأنيس وتلطف معه، وهو مما يحتاجه الأطفال، كما سبق الحديث عن ذلك في المبحث الرابع من الفصل الأول(٣)، وذكرت نداءه لأخ أنس t بقوله: «**أَبَا عُمَيْر**، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟» وفي رواية بإثبات حرف النداء: «**يَا أَبَا عُمَيْرٍ**» وقد كان يلعب الطفل بالنُّغَر فلما مات خاطب النبي r الطفل بهذا الخطاب ملاطفة له. وقد يكون حذف الحرف أقرب إلى المقام ملاطفة للمخاطَب، وإشعارًا له بسرعة الاستجابة لمشاعره، والقرب منه، وزوال الحواجز النفسية بينهما، وهذان الغرضان -الملاطفة والتقريب- من الأغراض التي يحذف لها حرف النداء(٤)، والله أعلم.

ومن ذلك تكنيته r أم خالد وقد كانت جويرية صغيرة، وسبق ذكر قصتها مع النبي r(٥).

قال الغزالي (٥٠٥هـ) عن النبي r: ((ويكني الصبيان فيستلين به قلوبهم))(٦). وقد كان العرب يكنون الصغير ومن لا يولد له تفاؤلاً له بالولد، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((إذا كنوا من لم يولد له فعلى جهة التفاؤل وبناء الأمر على رجاء أن يعيش ويولد له، كالأطفال المكنين والعقم))(٧).

---

(١) فتح الباري: ١٠/٥٨٨.
(٢) ربيع الأبرار: ٢/٣٨٥.
(٣) ينظر ص (١١٤) من هذا البحث.
(٤) ينظر: الكشاف: ٢/٤٤٤، وخصائص التعبير القرآني: ٢/٧، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٤٦.
(٥) ينظر ص (١٢١، ٣٤٥) من هذا البحث.
(٦) إحياء علوم الدين: ٢/٥٧١.
(٧) ربيع الأبرار: ٢/٣٨٥.

- النداء بالوصف واللقب.

وأما النداء بالوصف أو اللقب فإن النبي r يلائم في اختياره حال المخاطب، ومن ذلك نداؤه r لفاطمة رضي الله عنها بوصف البنوة: «**أَيْ بُنَيَّةُ**، أَلَسْتِ تُحِبِّينَ مَا أُحِبُّ؟» وفي ذلك تلطف معها، كما سبق الإشارة إليه قريبًا.

ومن ذلك أيضًا نداؤه r لأبي طالب بوصف العمومة في الحديث الذي سبق قريبًا: «**أَيْ عَمِّ**، قُلْ: لا إِلَهَ إلا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ» وهذا فيه تأكيد للتلطف والإيناس، وإشعار له بالاعتراف بحقه عليه، والاهتمام به والحرص عليه، وتمهيد لدعوته وأمره.

ومن ذلك نداؤه r لحذيفة بن اليمان t وكان نائمًا بعد أن جاء من مهمة كلفه بها النبي r، فلما أصبح قال له النبي r: «قُمْ **يَا نَوْمَانُ**» وقد سبق الحديث بتمامه(١)، وهذا من التلطف والمداعبة لحذيفة t بعد أن أنجز المهمة.

ومن ذلك نداؤه r لعمرو بن سلمة t وكان غلامًا تطيش يده في الصحفة: «**يَا غُلامُ**، سَمِّ اللَّهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ»(٢)، ومثل ذلك نداؤه لابن عباس t: «**يَا غُلامُ**، أَتَأْذَنُ لِي أَنْ أُعْطِيَهُ الأَشْيَاخَ؟» وقد كان ابن عباس عن يمينه، والأشياخ عن يساره، ومضت القصة بتمامها في الفصل الأول(٣).

ومن ذلك نداؤه r للشباب كما روى عبد الله بن مسعود t قال: كنا مع النبي r شبابًا لا نجد شيئًا، فقال لنا رسول الله r: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ**، مَنِ اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ...» الحديث، وقد مضى ذكره(٤)، والنداء بوصف الشباب مع كون الخطاب لهم فيه إغراء بما بعده، والإغراء أحد المعاني التي تأتي عليها صيغة النداء(٥).

---

(١) ينظر ص (١٧٣) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٣٧٦)، ومسلم: (٢٠٢٢).

(٣) ينظر ص (١١٨) من هذا البحث.

(٤) ينظر ص (١٢٤) من هذا البحث.

(٥) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٣٣٤.

ونادى r النساء وكان يخاطبهن فقال: «**يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ**، تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ»[(١)].

وفي خطابه للنصارى قال: «**وَيَا أَهْلَ الْكِتَابِ**، تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا...» وذلك في رسالته التي أرسلها إلى هرقل، وسبق ذكرها[(٢)]، والنصارى أهل كتاب.

ولعل النبي r ناداهم بهذا الوصف تذكيرًا لهم بما في كتابهم من صفته وذكر نبوته ((وتنبيهًا على أن من كان أهل كتاب من الله ينبغي أن يتبع كتاب الله))[(٣)]، وقال الفخر الرازي (٦٠٦هـ) في قول الله U: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لا نَعْبُدَ إِلا اللهَ وَلا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا﴾ الآية [آل عمران: ٦٤]: ((إن هذا اللقب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب، وفي تطييب قلبه، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف))[(٤)]، والله أعلم.

ومن النداء بالوصف نداؤه r لأصحابه y وكانوا يحفرون الخندق: «**يَا أَهْلَ الْخَنْدَقِ**، إِنَّ جَابِرًا قَدْ صَنَعَ سُؤْرًا فَحَيَّ هَلاً بِكُمْ»[(٥)].

ونادى أهل السفينة من المهاجرين تخصيصًا لهم كما في القصة السالفة الذكر: «لَكُمْ أَنْتُمْ -**أَهْلَ السَّفِينَةِ**- هِجْرَتَانِ».

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٤ و١٤٦٢) ، ومسلم: (٨٠).
(٢) ينظر ص (٥٩) من هذا البحث.
(٣) البحر المحيط: ٧٧٢/٢.
(٤) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ٩٥/٨.
(٥) أخرجه البخاري: (٣٠٧٠ و٤١٠١) ، ومسلم: (٢٠٣٩). والسور، بالهمز أو دونه، ويطلق بلا همز على الطعام، الطعام، وقيل: إنها لفظة فارسية، وقيل: حبشية، وأما بالهمز فيراد به البقية. ينظر: شرح صحيح مسلم: ٢١٦/١٣، وفتح الباري: ١٨٤/٦.

ونادى أعرابيًا جاء يسأله عن أكل الضب فقال: «**يَـــا أَعْرَابِـــيُّ**، إِنَّ اللهَ لَعَـــنَ -أَوْ غَضِبَ- عَلَى سِبْطٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَمَسَخَهُمْ دَوَابَّ يَدِبُّونَ فِي الأَرْضِ، فَلا أَدْرِي لَعَـــلَّ هَذَا مِنْهَا، فَلَسْتُ آكُلُهَا، وَلا أَنْهَى عَنْهَا»[1].

(١) أخرجه مسلم: (١٩٥١).

ثانيًا: الإنشاء غير الطلبي.

سبق القول إن كثيرًا من البلاغيين عنوا بدراسة الإنشاء الطلبي، وأهملوا دراسة غير الطلبي بحجة أن أساليب الإنشاء الطلبي غنية بالاعتبارات والملاحظات البلاغية، كما أنها تخرج عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى بلاغية، بخلاف أساليب الإنشاء غير الطلبي فإن أكثر هذه الأساليب هي في الأصل أخبار نقلت إلى معنى الإنشاء، كما أنها لا تستعمل إلا في معانيها التي وضعت لها.

ويرى بعض البلاغيين المتأخرين أن أساليب الإنشاء غير الطلبي غنية بالاعتبارات البلاغية والمزايا الجمالية، مما يجعلها لا تقل أهمية عن أساليب الإنشاء الطلبي، يقول الدكتور بسيوني فيود: ((هذا لا يعني أن تلك الأساليب خالية من الاعتبارات البلاغية والمزايا الجمالية؛ بل تكمن وراءها ملاحظات بلاغية واعتبارات دقيقة. انظر إلى أسلوب التعجب في التعبيرات الجيدة تجد وراءه كثيرًا من الدقائق التي يتوهج فيها الإحساس بالأشياء والمعاني، وتأمل أسلوب القسم في القرآن وتعدد مواقعه واختلاف المقسم به وأجوبة القسم، تجد وراء ذلك اعتبارات وراء ذلك اعتبارات جديرة بالبحث والدراسة. وهكذا تجد وراء كثير من أساليب الإنشاء غير الطلبية مزايا واعتبارات تستحق الدراسة والتأمل))(١).

ونظرًا لما في هذه الأساليب من دقائق ومزايا بلاغية، ولأن اختيارها في الكلام البليغ لا يكون إلا مراعاة لمقتضى الحال، والبحث يتعلق بمراعاة مقتضى حال المخاطب فسوف أتناول منها ما وجدته في كلام النبي ﷺ مما راعى في اختياره مقتضى حال المخاطب. ومن هذه الأساليب: الترجي، والقسم، والتعجب.

وقد اختلف في كون الترجي والقسم من أساليب الطلب أو من غير الطلب(٢). واختلف في كون التعجب من الخبر أو الإنشاء(٣).

---

(١) علم المعاني: ٨٣، وينظر: دلالات التراكيب: ١٩٢، والأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في الحديث النبوي: ٢١٢.

(٢) ينظر: عروس الأفراح: ٢/٢٣٧ و٢٤٠ و٣٣٧، ومواهب الفتاح: ٢/٢٣٨، وحاشية الدسوقي: ٢/٢٣٩.

(٣) ينظر: عروس الأفراح: ٢/٢٣٥، وشرح الرضي على الكافية: ٤/٨٥، و٥/٢٤٣ و٢٥٣-٢٥٤.

ولم أر أن أشتغل بذكر الخلاف والترجيح بين الأقوال، فكلٌّ مجتهد وله معتمد، ولا يترتب على الخلاف فائدة تذكر سوى نقل الأسلوب من نوع إلى نوع، ولا أثر في ذلك على بلاغة الأسلوب، ولذا جريت على ما اشتهر من ذكر هذه الأساليب في الإنشاء غير الطلبي[1].

أ- الترجي.

- **تعريفه وأدواته.**

هو: ترقب حصول الشيء وتوقعه، سواء كان محبوبًا ويقال له: طمع، أم مكروهًا ويقال له: إشفاق. ويرى بعضهم أن الترجي لا يطلق إلا على ما فيه طمع فيكون طلبًا، دون ما فيه إشفاق، ولعل ذلك لكون المرء لا يرجو إلا ما فيه طمع دون ما فيه إشفاق. وفرق بينه وبين التمني بأن التمني طلب حصول الشيء المحبوب الذي لا يتوقع حصوله؛ إما لبعده وإما لاستحالته[2].

وللترجي أداتان هما: (لعل) و(عسى).

- **مقامات الترجي في أحاديث الصحيحين.**

وردت أداتا الترجي في حديث رسول الله ﷺ في مقامات عديدة تفيدان الترجي طمعًا أو إشفاقًا، ومن ذلك:

١- التفاؤل.

كثيرًا ما يأتي الطمع في المحبوب في خطاب النبي ﷺ لبعث التفاؤل بقرب حصول المحبوب وتحققه، وإذا كان المخاطب واقعًا في مصيبة أو مشقة ما، فيكون الترجي له تسلية وتطييبًا لنفسه، كما في حديث عائشة رضي الله عنها لما حاضت وهي في طريقها إلى الحج، فحزنت لذلك وجعلت تبكي، قالت: خرجنا مع رسول الله ﷺ في أشهر الحج وليالي الحج وحُرُم الحج، فنزلنا بسَرِف، فخرج إلى أصحابه فقال: «مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَعَهُ هَدْيٌ فَأَحَبَّ

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٢/٢٣٦.

(٢) ينظر: الأقصى القريب: ٧، وشروح التلخيص: ٢/٢٣٨-٢٤٠ و٢٤٥، والطراز: ٥٣٥، وأساليب الطلب: ٥٤٣ و٥٥٠.

أَنْ يَجْعَلَهَا عُمْرَةً فَلْيَفْعَلْ، وَمَنْ كَانَ مَعَهُ الْهَدْيُ فَلا» قالت: فالآخذ بها والتارك لها من أصحابه، فأما رسول الله r ورجال من أصحابه فكانوا أهل قوة وكان معهم الهدي، فلم يقدروا على العمرة، قالت: فدخل علي رسول الله r وأنا أبكي، فقال: «مَا يُبْكِيكِ يَا هَنْتَاهُ؟» قلت: سمعت قولك لأصحابك فمنعت العمرة. قال: «وَمَا شَأْنُكِ؟» قلت: لا أصلي. قال: «فَلا يَضِيرُكِ، إِنَّمَا أَنْتِ امْرَأَةٌ مِنْ بَنَاتِ آدَمَ، كَتَبَ اللهُ عَلَيْكِ مَا كَتَبَ عَلَيْهِنَّ، فَكُونِي فِي حَجَّتِكِ، **فَعَسَى** اللهُ أَنْ يَرْزُقَكِيهَا»[١]، فالنبي r هنا يريد تسلية عائشة وتخفيف مصابها، فيعبر ببعض الأساليب التي تؤدي إلى ذلك مراعاة لحالها، وقد مضى ذكر بعضها[٢]، وفي هذه الرواية يزيد النبي r في تسليتها وتخفيف مصابها بالتعبير بأسلوب الترجي، تفاؤلاً بتحقق ما تحبه وإشعارًا بقرب زوال ما تخشاه، والله أعلم.

ومن ذلك حديث سعد بن أبي وقاص t حينما مرض بمكة في حجة الوداع مرضًا أشفى منه على الموت، وقد سبق الحديث بتمامه في الفصل الثاني[٣]، وفيه أن النبي r دخل على سعد وهو يبكي خشية أن يموت في الأرض التي هاجر منها، فدعا النبي r الله U أن يشفيه ويتمم له هجرته، وكان مما قال له: «**وَلَعَلَّكَ** تُخَلَّفُ حَتَّى يَنْتَفِعَ بِكَ أَقْوَامٌ، وَيُضَرَّ بِكَ آخَرُونَ» وفي رواية: «ثُمَّ **لَعَلَّكَ** أَنْ تُخَلَّفَ...» وفي رواية: «**وَعَسَى** اللهُ أَنْ يَرْفَعَكَ...» أي: لعل الله أن يطيل عمرك[٤]، وهذا من التفاؤل الذي يبعثه النبي r في سعد t ، ويطيب به نفسه، فإن التعبير بـ(لعل) أو (عسى) فيه ترقب وتوقع لحصول الشيء الممكن، فاستعمال الترجي هنا ملائم لحال سعد t ، خاصة أنه من النبي r الذي لا ينطق عن الهوى، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قال بعض العلماء: (لعل) وإن كانت للترجي لكنها من الله للأمر الواقع، وكذلك إذا وردت على لسان رسوله غالبًا))[٥].

(١) أخرجه البخاري: (١٥٦٠ و١٧٨٨) ، ومسلم: (١٢١١).

(٢) ينظر ص (٩٦) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (١٦٢) من هذا البحث.

(٤) فتح الباري: ٥/٣٦٧.

(٥) المرجع السابق.

ومن ذلك حديث أم سليم مع أبي طلحة رضي الله عنهما، وقد سبق ذكره[1]، وفيه أن ولده توفي، فلم تخبره أم سليم إلا بعد أن أصاب منها، فانطلق إلى النبي r مغضبًا حزينًا، فكان مما قال له النبي r: «**لَعَلَّ** اللهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا» والتعبير بأسلوب الترجي فيه تفاؤل وإشعار للمخاطب بقرب حصول المرجو، والله أعلم.

والذي يظهر من الجمل التي ورد فيها الترجي أنها جمل دعائية، وقد وردت رواية لحديث سعد t قال فيها: يا رسول الله ادع الله أن لا يردني على عقبي. قال: «**لَعَلَّ** اللهَ يَرْفَعُكَ، وَيَنْفَعُ بِكَ نَاسًا»[2].

ومن الترجي الذي جاء في جملة تحتمل الدعاء قول النبي r لأبي ذر t في قصة إسلامه: «إِنَّهُ قَدْ وُجِّهَتْ لِي أَرْضٌ ذَاتُ نَخْلٍ، لا أُرَاهَا إِلاَّ يَثْرِبَ، فَهَلْ أَنْتَ مُبَلِّغٌ عَنِّي قَوْمَكَ؟ **عَسَى** اللهُ أَنْ يَنْفَعَهُمْ بِكَ، وَيَأْجُرَكَ فِيهِمْ»[3].

ومن ذلك أيضًا حديث جابر بن عبد الله t أن الناس شكوا في غزوة إلى رسول الله r الجوع فقال: «**عَسَى** اللهُ أَنْ يُطْعِمَكُمْ» قال: فأتينا سيف البحر، فزخر زخرة، فألقى دابة، فأورينا على شقها النار، فاطَّبخنا، واشتوينا، وأكلنا حتى شبعنا[4].

ولما جاءت أدوات الترجي في مقام الدعاء رأى بعض الباحثين أنها تستعمل في معنى الدعاء، لإظهار المدعو به في صورة المحبب إلى النفس المرجو الوقوع[5]، والله أعلم.

ومما جاء فيه رجاء المحبوب في غير الدعاء حديث أبي هريرة t قال: جاء رجل إلى النبي r فقال: إني تزوجت امرأة من الأنصار. فقال له النبي r: «هَلْ نَظَرْتَ إِلَيْهَا؟ فَإِنَّ فِي عُيُونِ الأَنْصَارِ شَيْئًا» قال: قد نظرت إليها. قال: «عَلَى كَمْ تَزَوَّجْتَهَا؟» قال: على أربع أواق. فقال له النبي r: «عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ! كَأَنَّمَا تَنْحِتُونَ الْفِضَّةَ مِنْ عُرْضِ هَذَا الْجَبَلِ. مَا

---

(١) ينظر ص (١٦٤) من هذا البحث.

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٢٧٤٤).

(٣) أخرجه مسلم: (٢٤٧٣).

(٤) أخرجه مسلم: (٣٠١٤).

(٥) من بلاغة الإنشاء غير الطلبي في البيان النبوي: ٧٢.

عِنْدَنَا مَا نُعْطِيكَ، وَلَكِنْ **عَسَى** أَنْ نَبْعَثَكَ فِي بَعْثٍ تُصِيبُ مِنْهُ» قال فبعث بعثًا إلى بني عبس بعث ذلك الرجل فيهم(١)، ولعل النبي ﷺ لما لم يكن لديه ما يعين به الرجل على النكاح، لم يدعه يرجع منكسرًا بعد أن أنكر عليه كثرة المهر وهو فقير، بل رجا له قرب سبب يحصل به على المال، قال القرطبي (٦٥٦هـ): ((هذا الإنكار منه ﷺ على هذا الرجل المتزوج على أربعة أواق ليس إنكارًا لأجل المغالاة والإكثار في المهر، فإنه ﷺ قد أصدق نساءه خمسمئة درهم، وأربعة أواق مئة وستون درهمًا؛ وإنما أنكر بالنسبة إلى حال الرجل، فإنه كان فقيرًا في تلك الحال، فأدخل نفسه في مشقة تعرَّضَ للسؤال بسببها، ولذلك قال له: «مَا عِنْدَنَا مَا نُعْطِيكَ» ثم إن النبي ﷺ بكرم أخلاقه ورأفته ورحمته جبر منكسر قلبه بقوله: «وَلَكِنْ عَسَى أَنْ نَبْعَثَكَ فِي بَعْثٍ تُصِيبُ مِنْهُ»))(٢).

٢- الترغيب.

وجاء الرجاء تعريضًا بالحث على التصدق وفعل المعروف في حديث جابر رضي الله عنه قال: طُلقت خالتي، فأرادت أن تَجُد نخلها، فزجرها رجل أن تخرج، فأتت النبي ﷺ فقال: «بَلَى، فَجُدِّي نَخْلَكِ؛ فَإِنَّكِ **عَسَى** أَنْ تَصَدَّقِي، أَوْ تَفْعَلِي مَعْرُوفًا»(٣)، قال النووي (٦٧٦هـ): ((وفيه استحباب الصدقة من التمر عند جداده والهدية، واستحباب التعريض لصاحب التمر بفعل ذلك))(٤)، والمخاطب هنا امرأة، والنبي ﷺ كثيرًا ما يخاطب النساء بالحث على الصدقة والإهداء كما سبق ذكره في الفصل الأول(٥)، والله أعلم.

٣- الإشفاق.

مما جاءت فيه أدوات الترجي للإشفاق حديث كعب بن عجرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ رآه في الحديبية وهو محرم، والقمل يتناثر على وجهه، فقال له: «**لَعَلَّكَ** آذَاكَ هَوَامُّكَ» قال: نعم، يا رسول الله. قال: «احْلِقْ رَأْسَكَ، وَصُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ، أَوْ انْسُكْ

(١) أخرجه مسلم: (١٤٢٤).

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم: ١٢٦/٤.

(٣) أخرجه مسلم: (١٤٨٣).

(٤) شرح صحيح مسلم: ١٠٨/١٠، وينظر: المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم: ٢٧٩/٤.

(٥) ينظر ص (١٠٠) من هذا البحث.

بِشَاةٍ»[١]، و(لعل) في خطاب النبي r هنا للإشفاق، لما رآه من حال كعب t التي تـدعو إلى ذلك، والله أعلم.

ومن الإشفاق قول النبي r لعبد الله بن عمرو t حينما أراد أن يصوم النهار كـل يوم، ويقوم الليل: «فَلا تَفْعَلْ. قُمْ وَنَمْ، وَصُمْ وَأَفْطِرْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا. وَإِنَّكَ **عَسَى** أَنْ يَطُولَ بِـكَ عُمُرٌ...» وفي رواية: «وَإِنَّكَ لا تَدْرِي **لَعَلَّكَ** يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ»[٢]، فقد أشفق النبي r على عبد الله وهو الشاب المتحمس للعبادة أن يفعل ما أراد ثم لا يقوى عليه بعدما يكبر، ولعـل النبي r ذكر له توقعه بطول العمر لينبهه إلى أنه قد لا يقوى على الاستمرار فيثنيه ذلك عما أراد، ولكن عبد الله لم يأخذ بنصح رسول الله r له، فحصل له ما توقعه النبي r، قال عبد الله: فشددت فشدد علي. وكان يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي r.

ومن الإشفاق حديث عائذ بن عمرو t أن أبا سفيان أتى على سلمان وصـهيب وبلال في نفر فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها. فقال أبو بكـر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! فأتى النبي r فأخبره، فقال: «يَا أَبَا بَكْـرٍ، **لَعَلَّـكَ** أَغْضَبْتَهُمْ. لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ» فأتاهم أبو بكـر فقـال: يـا إخوتـاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي[٣]، فالنبي r توقع حصول ما يغضب أصـحابه y، بسبب قول أبي بكر لهم، فأشفق r على أبي بكر t أن يقع عليـه غضـب الله U لإغضابهم، فأتى في خطابه بـ(لعل). وقد يكون في التوقع إشعار لأبي بكر بـأن غضـبهم محتمل وليس مجزومًا به، فلا يحصل لأبي بكر بذلك جزع شديد، ويدفعه إلى أن يطلب منهم الصفح والعفو، وقد فعل ذلك، والله أعلم.

ومن ذلك حديث عائشة لما حاضت في الحج، وسبق الحديث برواياته[٤]، وفيـه أن النبي r لما رآها جزعة حزينة تبكي قال: «مَا يُبْكِيْكِ؟» فقالت: والله لوددت أني لم أكـن

(١) أخرجه البخاري: (١٨١٤-١٨١٨)، ومسلم: (١٢٠١).
(٢) أخرجه البخاري: (٦١٣٤)، ومسلم: (١١٥٩).
(٣) أخرجه مسلم: (٢٥٠٤).
(٤) ينظر ص (٩٦، ٤٢٧) من هذا البحث.

خرجت العام. قال: «مَا لَكِ؟ **لَعَلَّكِ** نَفِسْتِ» قلت: نعم. ومن ذلك حـديث أبي سـعيد الخدري t أن رسول الله r مر على رجل من الأنصار، فأرسل إليه، فخرج ورأسه يقطر، فقال: «**لَعَلَّنَا** أَعْجَلْنَاكَ» قال: نعم، يا رسول الله. قال: «إِذَا أُعْجِلْتَ أَوْ أَقْحَطْتَ فَلا غُسْلَ عَلَيْك، وَعَلَيْكَ الوُضُوء»(١).

٤- مجيء (لعل) للاستفهام.

رأى بعض الباحثين أن (لعل) في حديث أبي سعيد وحديث عائشة وكعب، وفي أحاديث غيرها، أنها للاستفهام، بدلالة الجواب بـ(نعم)، ومجيء بعض الأحاديث بروايات أخرى فيها استفهام بدلاً من الترجي(٢).

وقد سبق إلى القول بأن (لعل) تأتي للاستفهام بعض العلماء من نحاة الكوفيين وغيرهم، وجعلوا منه قول الله U: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى﴾ [عبس: ٣]، وحديث: «لَعَلَّنَا أَعْجَلْنَاكَ»(٣).

قال المرادي (٧٤٩هـ): ((هذا عند البصريين خطأ، والآية عندهم ترج، والحديث إشفاق))(٤).

والذي يظهر لي أن (لعل) في هذه الأحاديث ليست للاستفهام، وإنما هي لتوقع أمر يشفق فيه على المخاطب، بناء على ما ظهر من حاله، فقول النبي r مثلاً: «لَعَلَّنَا أَعْجَلْنَاكَ» توقعٌ منه r لإعجاله، لما رآه في حال تجعل النبي r يتوقع ذلك، حيث خرج الصحابي t والماء يقطر من رأسه من أثر الغسل، مما يدل على أنه تعجل استجابة لطلب النبي r، وقول المخاطب: (نعم) لا يلزم أن يكون جواب استفهام، وإنما هو لتصديق التوقع. و(نعم) تأتي للتصديق، قال سيبويه (١٨٠هـ): ((أما (نعم) فعدة وتصديق، تقول: قد كان كذا وكذا،

---

(١) أخرجه البخاري: (١٨٠)، ومسلم: (٣٤٥).

(٢) ينظر: من بلاغة الإنشاء غير الطلبي في البيان النبوي: ٤٣-٥٧، وأساليب الطلب في الحديث النبوي: ١٧٤.

(٣) ينظر: مغني اللبيب: ١/٣٧٩، والجنى الداني: ٥٢٨، والأقصى القريب: ٨، وعروس الأفراح: ٢/ ٣٣٧، وأساليب الطلب: ٥٥٥.

(٤) الجنى الداني:٥٢٨.

فيقول: نعم))[١]، وقال المرادي (٧٤٩هــ): ((هي لتصديق مخبر، أو إعلام مستخبر، أو وعد طالب. فالأول كقولك: نعم، لمن قال: قام زيد. والثاني كقولك: نعم، لمن قال: هل جـــاء زيد؟ والثالث كقولك: نعم، لمن قال: اضرب زيدًا))[٢].

وقد ورد الرد بـــ(نعم) تصديقًا فيما لا يحتمل الاستفهام، كما في حـــديث غـــزوة تبوك أن الناس أصابتهم مجاعة، فقالوا: يا رسول الله، لو أذنت لنا فنحرنا نواضحنا، فأكلنا، وادهنا. فقال رسول الله r : «افْعَلُوا» فجاء عمر t فقال: يا رسول الله، إن فعلت قَـــلّ الظهر، ولكن ادعهم بفضل أزوادهم، ثم ادع الله لهم عليها بالبركة، لعـــل الله أن يجعـــل في ذلك. فقال رسول الله r : «نَعَمْ» الحديث[٣]، والله أعلم.

---

(١) كتاب سيبويه: ٢٣٤/٤.

(٢) الجنى الداني: ٤٦٩، وينظر: مغني اللبيب: ٤٥١.

(٣) أخرجه مسلم: (٢٧).

ب- القسم.

- تعريفه وفائدته.

وهو إنشاء اليمين والحلف بالله U على خبر ما[1]، ويـؤتى بـه للتأكيـد، قـال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((هو جملة فعلية أو اسمية، تؤكد بها جملة موجبة أو منفيـة، نحـو قولك: حلفت بالله، وأقسمت، وآليت، وعلم الله، ويعلم الله، ولعمرك، ولعمر أبيك، ولعمر الله، ويمين الله، وأيمن الله، وايم الله، وأمانة الله، وعلي عهد الله لأفعلن أو لا أفعل))[2]، وقال الزركشي (٧٩٤هـ): ((وفائدته تحقق الجواب عند السامع، وتأكده ليزول عنـه التـردد فيه))[3]، والبلاغيون أشاروا إليه في مؤكدات الجملة الخبرية، لتأكيد الكـلام للمنكـر، في الضرب الإنكاري من أضرب الخبر[4].

ويذكرونه في فنون البديع بهذا الاسم (القسم)، وذكره بعضهم باسم (الاقتسام)[5]، وقال ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) في تعريفه: ((هو أن يريد المتكلم الحلف على شيء فيحلف بما يكون فيه فخر له، أو تعظيم لشأنه، أو تنويه لقدره، أو ما يكون ذمًا لغـيره، أو جاريًـا مجرى الغزل والترقق، أو خارجًا مخرج الموعظة والزهد))[6].

واختيار القسم في هذه المقامات التي يذكرها البلاغيون لا يخرجه عن التأكيد، وقـد سبق أن الخبر يأتي مؤكدًا مراعاة لحال المخاطب، لا لقصد إفادته فقط، وإنما لأغراض أخرى لا ينظر فيها إلى كون المقام مقام إنكار أو تساؤل وتردد فيؤكد الخبر، وإنما يـأتي التأكيـد لترسيخ الخبر وتمكينه في نفس المخاطب ترغيبًا أو ترهيبًـا أو تسـلية وتطييبًـا أو إشـعارًا بالاهتمام، أو غير ذلك، قال النووي (٦٧٦هـ) في اليمين: ((وهي مستحبة إذا كان فيـه مصلحة من توكيد الأمر، أو زيادة طمأنينة، أو نفي توهم نسيان، أو غير ذلك من المقاصـد

---

(١) ينظر: القاموس المحيط: ٢٣٢/٤، ولسان العرب: ٤٨١/١٢.
(٢) المفصل في صنعة الإعراب: ٣٥٨.
(٣) البرهان في علوم القرآن: ٤٧٣/٢.
(٤) ينظر: المفتاح: ١٦٧ و١٧١، وشروح التلخيص: ٢٠٦/١.
(٥) ينظر: تحرير التحبير: ٣٢٧، وبديع القرآن: ١١٢، والمصباح في تلخيص المفتاح: ٢٦٢، والطراز: ٤٧٢، وعروس الأفراح: ٤٦٩/٤، وخزانة الأدب، لابن حجة: ٣٢٢/١.
(٦) بديع القرآن: ١١٢.

السائغة. وقد كثرت في الأحاديث، وهكذا القسم من الله تعالى، كقوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ﴾ ﴿وَالطُّورِ﴾ ﴿وَالْمُرْسَلاتِ﴾ ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ ﴿وَالضُّحَى﴾ ﴿وَالتِّينِ﴾ ﴿وَالْعَادِيَاتِ﴾ ﴿وَالْعَصْرِ﴾ ونظائرها، كل ذلك لتفخيم المقسم عليه وتوكيده، والله أعلم))(١).

- أغراض التأكيد بالقسم في أحاديث الصحيحين.

وقد اختار النبي r التأكيد بالقسم في عدة أغراض(٢)، وكثيرًا ما يكون اختياره r له مراعاة لحال المخاطب، ومن ذلك:

١- رد الدعوى.

يأتي التأكيد بالقسم لرد إنكار المخاطب ودعواه الباطلة، وفيه حديث أبي هريرة t في الشاة المسمومة التي أهداها اليهود للنبي r في خيبر، وقد مضى الحديث بتمامه(٣)، وفيه أن النبي r حاورهم فسألهم عن أبيهم، فقالوا: فلان، فقال r: «كَذَبْتُمْ، بَلْ أَبُوكُمْ فُلانٌ» قالوا: صدقت، قال: «فَهَلْ أَنْتُمْ صَادِقِيَّ عَنْ شَيْءٍ إِنْ سَأَلْتُ عَنْهُ؟» فقالوا: نعم، يا أبا القاسم، وإن كذبنا عرفت كذبنا كما عرفته في أبينا، فقال لهم: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» قالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تخلفونا فيها، فقال النبي r: «اخْسَئُوا فِيهَا. **وَاللهِ**، لا نَخْلُفُكُمْ فِيهَا أَبَدًا» فالنبي r يقسم هنا ردًا لكذبهم ودعواهم الباطلة، وهم قوم أهل كذب وتكذيب، ولعل النبي r أقسم في هذا السؤال ولم يقسم في الذي قبله، لكون الأول في أمر ماض معلوم، بخلاف الثاني فإنه في أمر غيبي، وهم أهل كتاب، فقد يلبسون بجوابهم على غيرهم(٤)، والله أعلم.

ومن ذلك حديث امرأة رِفَاعة القرظي رضي الله عنهما، وقد طلقها رفاعة طلاقًا بائنًا، فتزوجت عبد الرحمن بن الزبير t، فأتت الرسول r، وسمع زوجها عبد الرحمن أنها

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٥/١٣١-١٣٢.

(٢) ينظر: من بلاغة الإنشاء غير الطلبي في البيان النبوي: ١٢٠-١٨٤، والقسم النبوي في صحيح البخاري: ٣٤٠ و٣٤٨.

(٣) ينظر ص (٥٥) من هذا البحث.

(٤) ينظر: من بلاغة الإنشاء غير الطلبي في البيان النبوي: ١٢١.

قد أتت الرسول r ، فجاء ومعه ابنان له من غيرها، فقالت: ما لي إليه من ذنب إلا أن ما معه ليس بأغنى عني من هذه، وأخذت هُدْبة من ثوبها. فقال زوجها: كَذَبَتْ، والله، يا رسول الله، إني لأنفضها نفض الأديم، ولكنها ناشز، تريد رفاعة. فقال النبي r : «فَإِنْ كَانَ ذَلِكِ لَمْ تَحِلِّي لَهُ -أَوْ لَمْ تَصْلُحِي لَهُ- حَتَّى يَذُوقَ مِنْ عُسَيْلَتِكِ» وأبصر النبي r معه ابنين له فقال: «بَنُوكَ هَؤُلاءِ؟» قال: نعم. قال: «هَذَا الَّذِي تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ. **فَوَاللهِ**، لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنْ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ»[(١)]، فأقسم النبي r لرد دعواها العنة على زوجها، والله أعلم.

وقد سبق في أضرب الخبر في المبحث السابق ذكر بعض الأحاديث التي يصح الاستشهاد بها على هذا الغرض.

٢- تطييب نفس المخاطب.

ويأتي القسم لتطييب نفس المخاطب، ومن ذلك حديث النبي r مع عمه أبي طالب حينما حضرته الوفاة، وقد سبق ذكره[(٢)]، وفيه أن النبي r أراده أن يسلم فأبى، فقال له: «أَمَا **وَاللهِ**، لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فأقسم النبي r قسمًا مؤكدًا لعمه أن يستغفر له ((لتوكيد العزم على الاستغفار، وتطييبًا لنفس أبي طالب)) كما قال النووي (٦٧٦هـ)[(٣)].

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله t أن عمر بن الخطاب t جاء يوم الخندق بعد ما غربت الشمس، فجعل يسب كفار قريش، قال: يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب. فقال النبي r : «**وَاللهِ**، مَا صَلَّيْتُهَا» وفي رواية: «فَوَاللهِ إِنْ صَلَّيْتُهَا» قال جابر: فقمنا إلى بُطْحان، فتوضأ للصلاة، وتوضأنا لها، فصلى العصر بعد ما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب[(٤)]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((وإنما حلف النبي r تطييبًا لقلب عمر t ، فإنه شق عليه تأخير العصر إلى قريب من المغرب، فأخبره النبي r أنه

---

(١) أخرج هذه الرواية البخاري: (٥٨٢٥).
(٢) ينظر ص (٦٠) من هذا البحث.
(٣) شرح صحيح مسلم: ١/٢١٥.
(٤) أخرجه البخاري: (٥٩٦) ، ومسلم: (٦٣١).

لم يصلها بعد، ليكون لعمر به أسوة، ولا يشق عليه ما جرى، وتطيب نفسه، وأكد ذلك الخبر باليمين))[(١)].

ومن ذلك خطبة الأنصار التي أراد النبي r بها أن يطيب نفوسهم حينما وجدوا عليه لما لم يعطهم من الغنائم، وقد سبقت بتمامها[(٢)]، وقد تكرر القسم فيها من النبي r .

٣- التسلية والتثبيت.

ويأتي القسم للتسلية والتصبير والتثبيت على الحق، ومن ذلك حديث خباب t حينما شكى الصحابة y إلى رسول الله r ما يجدونه من أذى الكفار وتعذيبهم، وقد سبق الحديث[(٣)]، وفيه قص النبي r عليهم قصة الثبات على الدين، ثم قال: «**وَاللهِ**، لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ، حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ لا يَخَافُ إِلاّ اللهَ أَوْ الذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ، وَلَكِنَّكُمْ تَسْتَعْجِلُونَ» والصحابة y هم في وقت أحوج ما يكونون إلى الصبر والثبات في مواجهة المشركين لهم وبغيهم وطغيانهم عليهم، فقوله r : «وَاللهِ، لَيُتِمَّنَّ هَذَا الأَمْرَ» يبعث التفاؤل في نفوسهم التي تشعر بالهم والغم والضيق لما يجدونه من أعداء الدين من طغيان وتعذيب وتضييق، فبين لهم النبي r أن الأمر لن يستمر على هذه الحال، بل سيجد أمنًا وانتشارًا، ولما كان هذا الإتمام أمرًا مستقبليًا وهم يعيشون لحظتهم الحاضرة في تضييق وعذاب أقسم النبي r على ذلك تأكيدًا لهذا الإتمام المستقبلي، والله أعلم.

ومن القسم للتسلية والتصبير حديث أبي هريرة t أن النبي r خرج ذات يوم أو ليلة فإذا هو بأبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فقال: «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قالا: الجوع، يا رسول الله. وفي رواية: أخرجنا الجوع من بيوتنا، والذي بعثك بالحق. قال: «وَأَنَا **وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ**، لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا»[(٤)]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((وقوله r : «وَأَنَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا» فيه جواز

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١٣١/٥.

(٢) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٢٣٣) من هذا البحث.

(٤) أخرجه مسلم: (٢٠٣٨).

ذكر الإنسان ما يناله من ألم ونحوه، لا على سبيل التشكي وعدم الرضا، بل للتسلية والتصبر كفعله r هنا))[١].

٤- التحذير والترهيب.

ويأتي القسم للتحذير والترهيب، ومن ذلك حديث أبي مسعود البدري t في ضربه غلامه بالسوط، وقد سبق بتمامه[٢]، وفيه أن النبي r قال له: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ اللهَ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ» وفي رواية: «**وَاللهِ**، لَلَّهُ أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ» قال: فقلت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا، وأعتقه. فالتأكيد هنا يقصد به تمكين الخبر وترسيخه في نفس المخاطب في مقام الترهيب من الفعل السيء، والله أعلم.

ومن ذلك قسمه r في التحذير من الشفاعة في الحدود، حينما جاءه أسامة t ليشفع في المخزومية التي سرقت، وقد سبق ذكر الحديث، وفيه أن النبي r أنكر عليه، ثم خطب فكان مما قاله: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

وكذلك قسمه r في تحذير العمال من أخذ الهدايا، كما في حديث ابن اللُّتْبية، وقد سبق[٣]، وفيه أن النبي r أنكر عليه، ثم خطب فكان مما قاله: «**وَاللهِ**، لا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاّ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

ومن ذلك قسمه r في مقام التحذير من الدنيا، كما في حديث عمرو بن عوف الأنصاري t أن رسول الله r بعث أبا عبيدة بن الجراح إلى البحرين يأتي بجزيتها، فقدم بمال من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، فوافت صلاة الصبح مع النبي r ، فلما صلى بهم الفجر انصرف، فتعرضوا له، فتبسم رسول الله r حين رآهم، وقال: «أَظُنُّكُمْ قَدْ سَمِعْتُمْ أَنَّ أَبَا عُبَيْدَةَ قَدْ جَاءَ بِشَيْءٍ» قالوا: أجل، يا رسول الله. قال: «فَأَبْشِرُوا، وَأَمِّلُوا مَا

---

(١) شرح صحيح مسلم: ٢١٢/١٣.

(٢) ينظر ص (٢٨٩) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (١٩٢) من هذا البحث.

يَسُرُّكُمْ، **فَوَاللهِ**، لا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِي أَخَشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمْ الدُّنْيَا، كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[١].

هذه جملة من الأغراض التي اختار رسول الله r القسم فيها، ونقل العيني (٨٥٥هـ) عن المهلب -أحد شراح البخاري- أن النبي r كان يحلف بالله U لغرض تصحيح عقيدة الناس، حيث يتعود الناس على الحلف بالله U وحده بعد أن كانوا يحلفون بأصنامهم وآبائهم، قال: ((إنما كان r يحلف في تضاعيف كلامه وكثير من فتواه تبرعًا بذلك، لنسخ ما كانت الجاهلية عليه من الحلف بآبائهم وآلهتهم وأصنام وغيرها، ليعرفهم أن لا محلوف به سوى الله U، وليتدربوا على ذلك حتى ينسوا ما كانوا عليه من الحلف بغير الله تعالى))[٢].

---

(١) أخرجه البخاري: (٣١٥٨ و٤٠١٥ و٦٤٢٥) ، ومسلم: (٢٩٦١).

(٢) عمدة القاري: ٢٣/١٧٩، وينظر: القسم النبوي: ٣٤٨.

ت- التعجب.

- تعريفه وصيغه.

قال الرضي الإسترباذي (٦٨٦هـ) في تعريف التعجب: ((اعلم أن التعجب: انفعال يعرض للنفس عند الشعور بأمر يخفى سببه، ولهذا قيل: إذا ظهر السبب بطل العجب))(١).

وهذا الانفعال يكون باستعظام زيادة في وصف المتعجب منه، ولذا عرفه بعض النحاة بأنه: استعظام زيادة في وصف الفاعل، خفي سببها، وخرج بها المتعجب منه عن نظائره، أو قل نظيره(٢)، وقال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((معنى التعجب: تعظيم الأمر في قلوب السامعين؛ لأن التعجب لا يكون إلا من شيء خارج عن نظائره وأشكاله))(٣).

وله صيغتان موضوعتان له، هما: ما أَفْعَلَه، وأَفْعِلْ بِهِ، نحو: ما أَكْرَمَ محمدًا، وأَكْرِمْ بمحمد.

ويأتي على ألفاظ وصيغ أخرى يدل السياق والقرائن على إرادة التعجب بها، ومن ذلك: سبحان الله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولله دَرُّه، ولله أنت، واسم الفعل: واهًا، ووَيْ، والاستفهام، ومنه: ألم تر إلى كذا، وغيرها(٤).

ولم أجد من أفرد له بابًا في كتب البلاغة إلا رشيد الدين الوطواط (٥٧٣هـ) في حدائق السحر، وقال في بيانه: ((تكون هذه الصنعة بأن يظهر الشاعر في أحد أبياته تعجبه وحيرته من شيء من الأشياء، ومثاله قول أديب ترك:

أَيَا شَمْعًا يُضيءُ بِلا انْطِفاءٍ ... ويا بَدْرًا يَلوحُ بِلا مَحاقِ
فَأَنْت البَدْرُ ما مَعْنى انتِقاصي ... وأنْت الشَّمعُ ما سَبَبُ احْتراقي))(٥)

---

(١) شرح الرضي على الكافية: ٥/٢٤٣.

(٢) ينظر: شرح التصريح مع حاشية يس العليمي: ٢/٨٦، وحاشية الصبان على شرح الأشموني: ٢/١٣. وينظر: الأقصى القريب: ٣٢.

(٣) الكشاف: ٤/٥١١.

(٤) ينظر: أوضح المسالك: ٣/٢٥٠، وشرح التصريح مع حاشية يس العليمي: ٢/٨٦، وحاشية الصبان على شرح الأشموني: ٢/١٣. وينظر: شرح صحيح مسلم: ٣/١٠، وفتح الباري: ١٠/٥٩٨، والقاموس المحيط: ٤/٤٧٩.

(٥) حدائق السحر: ١٨٩.

وتبعه الفخر الرازي (٦٠٦هـ) في نهاية الإيجاز، وجعله من أقسام النظم[(١)].

· صيغ التعجب في أحاديث الصحيحين.

وقد ورد التعجب بعدة صيغ في كلام النبي r مراعيًا في اختياره حال المخاطب، ومن ذلك:

١- (سُبْحان الله).

والتسبيح التنزيه، و(سبحان الله) تنزيه لله U عن كل سوء وما لا ينبغي له أن يوصف به[(٢)]، وتستعمل هذه الصيغة في التعجب، قال النووي (٦٧٦هـ): ((ولفظة (سبحان الله) لإرادة التعجب كثيرة في الحديث وكلام العرب))[(٣)]، وذكر في اللسان أن العرب تقول: سُبْحان مِن كذا، إذا تعجبت منه[(٤)]، وبوب البخاري في صحيحه: باب التكبير والتسبيح عند التعجب[(٥)]، وقد ورد التعجب بها في القرآن العظيم في قول الله U: ﴿وَلَوْلا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((و﴿سُبْحَانَكَ﴾ للتعجب من عظم الأمر))[(٦)]. وقال ابن بطال (٤٤٩هـ) في شرحه: ((التكبير والتسبيح معناهما تعظيم الله وتنزيهه من السوء، واستعمال ذلك عند التعجب واستعظام الأمور حسن، وفيه تمرين اللسان على ذكر الله، وذلك من أفضل الأعمال))[(٧)].

---

(١) نهاية الإيجاز: ٢٩٧.

(٢) ينظر: تهذيب اللغة: ٣٣٨/٤، ولسان العرب: ٤٧١/٢.

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٠/٣.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٤٧١/٢.

(٥) صحيح البخاري: كتاب الأدب، باب التكبير والتسبيح عند التعجب.

(٦) الكشاف: ٢١٥/٣، وينظر: معالم التنزيل: ٢٥/٦، وروح المعاني: ١٢٠/١٨.

(٧) شرح صحيح البخاري: ٣٦٤/٩. وقد أخرج مسلم: (٢٧٣١) عن أبي ذر t أن رسول الله r سئل: أي الكلام أفضل؟ قال: «مَا اصْطَفَى اللهُ لِمَلائِكَتِهِ -أَوْ لِعِبَادِهِ- سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ». وفي رواية قال r: «إِنَّ أَحَبَّ الْكَلامِ إِلَى اللهِ سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ» قال النووي في شرح صحيح مسلم: ٤٩/١٧: ((هذا محمول على كلام الآدمي، وإلا فالقرآن أفضل، وكذا قراءة القرآن أفضل من التسبيح والتهليل المطلق، فأما المأثور في وقت أو حال ونحو ذلك فالاشتغال به أفضل، والله أعلم))

قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((فإن قلت: ما معنى التعجب في كلمة التسبيح؟ قلت: الأصل في ذلك أن يسبح الله عند رؤية العجيب من صنائعه، ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه))(١).

وورد التعجب بهذا اللفظ في حديث أبي هريرة t أن النبي r لقيه في بعض طريق المدينة وهو جنب، فانخنس منه، فذهب، فاغتسل، ثم جاء، فقال: «أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة. فقال: «**سُبْحَانَ اللهِ!** إِنَّ الْمُسْلِمَ لا يَنْجُسُ»(٢)، فأبو هريرة t رأى أن المسلم إذا كان جنبًا ينجس بالحدث، فخشي أن يمسه النبي r وهو كذلك، وقد كان النبي r إذا لقي أحدًا من أصحابه ماسحه ودعا له(٣)، فلما كان الأمر على خلاف ما رآه أبو هريرة t، وما كان لمثله أن يخفى عليه الحكم الحكم تعجب النبي r منه، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «سُبْحَانَ اللهِ!» تعجب من اعتقاد أبي هريرة التنجس بالجنابة، أي: كيف يخفى عليه هذا الظاهر؟!))(٤)، والله أعلم.

ومن التعجب بهذا اللفظ حديث عائشة رضي الله عنها في المرأة التي سألت النبي r عن غسلها من المحيض، وقد سبق(٥)، وفيه أنه r قال لها: «خُذِي فِرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي فَتَطَهَّرِي بِهَا» فقالت: كيف أتطهر؟ قال: «تَطَهَّرِي بِهَا» قالت: كيف؟ قال: «**سُبْحَانَ اللهِ!** تَطَهَّرِي» ثم إن النبي r استحيا فأعرض بوجهه، فأخذتها فجذبتها، فأخبرتها بما يريد النبي r. وهذا موضع تعجب، إذ كيف يخفى هذا الأمر المعتاد عند النساء على مثلها؟!، قال النووي (٦٧٦هـ): ((معنى التعجب هنا: كيف يخفى مثل هذا الظاهر الذي لا يحتاج الإنسان في فهمه إلى فكر؟!))(٦).

---

(١) الكشاف: ٣/٢١٥، وينظر: حاشية يس العليمي على شرح التصريح: ٢/٨٦.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٨٣ و٢٨٥)، ومسلم: (٣٧١).

(٣) أخرجه النسائي: (٢٦٧) وصححه الألباني في إرواء الغليل: ١/١٩٣، برقم (١٧٤) وفي صحيح سنن النسائي: ١/٥٦، برقم (٢٥٨). وينظر: فتح الباري: ١/٣٩١، وعمدة القاري: ٣/٢٣٩.

(٤) فتح الباري: ١/٣٩١.

(٥) ينظر ص (١١٠) من هذا البحث.

(٦) شرح صحيح مسلم: ٤/١٤.

ومن ذلك حديث أنس t أن رسول الله r عاد رجلاً من المسلمين قد خَفَت فصار مثل الفرخ، فقال له رسول الله r : «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟» قال: نعم، كنت أقول: اللهم ما كنت معاقبي به في الآخرة فعجله لي في الدنيا. فقال رسول الله r : «**سُبْحَانَ اللهِ!**، لا تُطِيقُهُ -أَوْ: لا تَسْتَطِيعُهُ- أَفَلا قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً، وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً، وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ» فدعا الله له، فشفاه[(١)]، وهذا موضع تعجب، إذ كيف يدعو المرء على نفسه بأمر لا يطيقه، فيستعجل عقوبة ربه U، وهو العفو الغفور لمن استغفره ودعاه؟![(٢)].

ويلحظ أن في اختيار التعجب بالتسبيح تلاؤمًا مع المقامات التي وردت فيها، فالتسبيح تنزيه لله U عن كل سوء ونقص، وورد هذا اللفظ في مقامات النقص والضعف البشري، ففي حديث أبي هريرة t جاء اللفظ في مقام حاجة الإنسان إلى قضاء الوطر والاغتسال منه، وفي حديث عائشة في مقام التطهر مما يعتري المرأة من حيض وأذى، وفي حديث أنس في مقام المرض والضعف الذي يعتري الإنسان، والله U متره عن ذلك كله، فسبحان الله U، وسبحان من هدى رسوله r لأبلغ الكلام.

٢- الاستفهام.

من المعاني التي يأتي عليها الاستفهام: التعجب، وقد يصحبه إنكار وتوبيخ[(٣)]، قال السبكي (٧٧٣هـ): ((وهو يشارك الاستفهام في أن التعجب مما خفي سببه، والاستفهام يكون عما خفي))[(٤)].

وقد ورد في ذلك قول الله U عن زوج إبراهيم u : ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ [هود: ٧٢]، فقال لها الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ﴾ [هود: ٧٣]، قال ابن عاشور (١٣٩٣هـ): ((والاستفهام في ﴿أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ﴾ مستعمل في التعجب. وجملة ﴿أَنَا عَجُوزٌ﴾ في موضع الحال، وهي مناط

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٦٨٨). وخَفَتَ، بمعنى: ضعف. ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٣/١٧.

(٢) ينظر: من بلاغة الإنشاء غير الطلبي: ١٠٢.

(٣) ينظر: المفتاح: ٣١٤، وشروح التلخيص: ٢٩١/٢.

(٤) عروس الأفراح: ٢٩٢/٢.

التعجب... وزادت تقرير التعجب بجملة ﴿إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ﴾ وهي جملة مؤكدة لصيغة التعجب، فلذلك فصلت عن التي قبلها، لكمال الاتصال))[١].

ومما جاء في خطاب النبي r حديث أم سليم مع أبي طلحة رضي الله عنهما، وقد سبق ذكره وأشير إليه قريبًا[٢]، وفيه أن ولده توفي، فلم تخبره أم سليم إلا بعد أن أصاب منها، فانطلق إلى النبي r مغضبًا حزينًا، فأخبره، فقال r : «**أَعْرَسْتُم اللَّيْلَةَ؟!**» قال: نعم...الحديث. فالنبي r استفهم منه استفهامًا يفيض لطفًا وتعجبًا من حسن صنيع زوجه وتجلدها وحسن تبعلها له، وسرورًا بحسن رضاها بقضاء الله U، وهذا مما يدعو الزوج ألا يغضب على زوجه ما دامت بمثل هذه الحال، قال النووي (٦٧٦هـ): ((وهذا السؤال للتعجب من صنيعها وصبرها، وسرورًا بحسن رضاها بقضاء الله تعالى))[٣].

ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري t أن ناسًا من أصحاب رسول الله r كانوا في سفر، فمروا بحي من أحياء العرب، فاستضافوهم فلم يضيفوهم، فقالوا لهم: هل فيكم راق؟ فإن سيد الحي لديغ، أو مصاب. فقال رجل منهم: نعم، فأتاه فرقاه بفاتحة الكتاب، فبرأ الرجل، فأعطي قطيعًا من غنم، فأبى أن يقبلها، وقال: حتى أذكر ذلك للنبي r ، فأتى النبي r فذكر ذلك له، فقال: يا رسول الله، والله ما رقيت إلا بفاتحة الكتاب. فتبسم، وفي رواية: فضحك، وقال: «**وَمَا أَدْراكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!**» وفي رواية: «**وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!**» وفي رواية لأحمد: قال الراقي: أُلْقي في رَوعي[٤]. ثم قال r : خذوا منهم، واضربوا لي بسهم معكم[٥]، والراقي هو الرواي أبو سعيد t كما بينته روايات الحديث، فاستفهام النبي r «وَمَا أَدْراكَ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟!» يحمل معنى التعجب من اهتداء أبي سعيد t إلى الرقية بالفاتحة، مع أنه لم يذكر لهم شيئًا في ذلك، كما يحمل أيضًا تعظيمًا للفاتحة، لأن صيغة (ما أدراك) أو

---

(١) تفسير التحرير والتنوير: ١٢/١٢٠.

(٢) ينظر ص (١٦٤، ٤٢٨) من هذا البحث.

(٣) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٤/١٢٤.

(٤) مسند أحمد: ٣/٥٠.

(٥) أخرجه البخاري: (٢٢٧٦ و٥٧٣٦) ، ومسلم: (٢٢٠١).

(ما يدريك) تستعمل في مقام التعظيم للشيء، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وهي كلمة تقال عند التعجب من الشيء، وتستعمل في تعظيم الشيء أيضًا، وهو لائق هنا))[١].

وثمة أحاديث أخرى ورد فيها من الاستفهام ما يفيد التعجب، وقد سبق ذكر بعضها عند تناول صيغة الاستفهام[٢].

٣- الدعاء بعبارات يراد منها التعجب، لا حقيقة الدعاء.

وقد سبق الإشارة إلى هذه المسألة في مبحث الدعاء من الفصل الثاني[٣]، وذكر قول القاضي عياض (٥٤٤ هـ) في قول: تربت يداك: ((الأصح في هذا أن هذا ومثله من الأدعية الموجودة في كلام العرب، المستعملة كثيرًا لدعم الكلام وصلته وتهويل الخبر، مثل: انج لا أبالك، وثكلتك أمك، وويل أمه مسعر حرب، وهوت أمه، وعَقْرى حَلْقى، وأُلَّ، وغُلَّ، وشبهه، لا تقصد به الدعاء، وإن كان أصله الدعاء، ثم جرى على ألسنتهم، وكثر في استعمالهم في غير مواطن الدعاء والذم، وأتوا به عند التعجب، والاستحسان، والتعظيم للشيء))[٤]. وذكرت أحاديث في ذلك، ومنها قول النبي r: «**تَرِبَتْ يَمِينُكِ**» وفي رواية: «تَرِبَتْ يَدَاكِ» قاله لأم سلمة رضي الله عنها لما قالت: يا رسول الله، أوتحتلم المرأة؟!. قال الطيبي (٧٤٣هـ) في حديث أم سلمة: ((قوله r: «تَرِبَتْ يَمِينُكِ» كلمة لم يرد بها الدعاء عليها، وإنما خرجت مخرج التعجب من سلامة صدرها))[٥]، وقد قابل النبي r تعجبها بتعجب، والله أعلم.

ومن ذلك قوله r: «أَرب، مَا لَهُ» على رواية: «أَرِبَ» فعلاً ماضيًا، في حديث أبي أيوب الأنصاري t أن رجلاً قال: يا رسول الله، أخبرني بعمل يدخلني الجنة. فقال القوم: ما له؟ ما له؟ فقال رسول الله r: «**أَرب**، مَا لَهُ» الحديث، قال مجد الدين ابن الأثير

---

(١) فتح الباري: ٤/٤٥٧.
(٢) ينظر ص (٣٨٥) من هذا البحث.
(٣) ينظر ص (١٧٩) من هذا البحث.
(٤) مشارق الأنوار: ١/١٢٠.
(٥) الكاشف عن حقائق السنن: ٢/٨١، وينظر: مرقاة المفاتيح: ٢/١٢٦.

(٦٠٦هـ) في هذه الرواية: ((معناها الدعاء عليه، أي: أصيبت آرابه وسقطت[١]، وهي كلمة لا يراد بها وقوع الأمر كما يقال: تربت يداك، وقاتلك الله، وإنما تذكر في معرض التعجب))[٢]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((كأنه تعجب من حسن فطنته والتهدي إلى موضع حاجته، ويؤيده قوله في رواية مسلم المشار إليها: فقال النبي r : «لَقَدْ وُفِّقَ» أَوْ: «لَقَدْ هُدِيَ»))[٣].

٤- التبسم والضحك.

مضى في الفصل الأول الحديث عن بلاغة الإشارات والحركات وأثرها في البيان، ومن ذلك التبسم والضحك، فقد ورد عن النبي r أنه يتعجب بالتبسم والضحك، ومن ذلك حديث عبد الله بن مسعود t أن حبرًا من اليهود جاء إلى رسول الله r ، فقال: يا محمد، إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلائق على إصبع، ثم يهزهن، ثم يقول: أنا الملك، أنا الملك. قال ابن مسعود t : فلقد رأيت النبي r **يضحك حتى بدت نواجذه**، تعجبًا وتصديقًا لقوله، ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧][٤].

وذهب بعضهم إلى أن الضحك تعجب من جهل اليهودي وإنكار عليه، فرارًا من إثبات الأصابع لله U[٥]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قال ابن التين: تكلف الخطابي في تأويل الإصبع وبالغ حتى جعل ضحكه r تعجبًا وإنكارًا لما قال الحبر، ورَدّ ما وقع في الرواية الأخرى: فضحك r تعجبًا وتصديقًا؛ بأنه على قدر ما فهم الراوي))[٦]، ثم قال: ((ولو كان الأمر على خلاف ما فهمه الراوي بالظن للزم منه تقرير النبي r على الباطل،

---

(١) الآراب هي الأعضاء، وينظر: لسان العرب: ٢٠٩/١.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣٥/١.

(٣) فتح الباري: ٢٦٤/٣.

(٤) أخرجه البخاري: (٧٤١٤ و٧٥١٣) ، ومسلم: (٢٧٨٦).

(٥) ينظر: كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب U: ١٨٧ و١٩٩، وشرح صحيح مسلم: ١٣٠/١٧، والمفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم: ٣٨٩/٧، وفتح الباري: ٣٩٨/١٣.

(٦) فتح الباري: ٥٥١/٨.

وسكوته عن الإنكار، وحاشا لله من ذلك))[١]. وقد قال ابن خزيمة: ((جَلّ ربنا عن أن تكون أصابعه كأصابع خلقه، وعن أن يشبه شيء من صفات ذاته صفاتَ خلقه، وقد أجَلّ الله قدر نبيه r عن أن يوصَف الخالق البارئ بحضرته بما ليس من صفاته، فيسمعه، فيضحك عنده، ويجعل بدل وجوب النكير والغضب على المتكلم به ضحكًا تبدو نواجذه تصديقًا وتعجبًا لقائله. لا يصف النبي r بهذه الصفة مؤمن مصدق برسالته))[٢].

ومن التبسم تعجبًا حديث ابن عمر t أن النبي r حاصر أهل الطائف فلم يفتحها، فقال: «إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ». فقال ناس من أصحاب رسول الله r: لا نبرح أو نفتحها. فقال النبي r: «فَاغْدُوا عَلَى الْقِتَالِ» فغدوا، فقاتلوهم قتالاً شديدًا، وكثر فيهم الجراحات، فقال رسول الله r: «إِنَّا قَافِلُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ» فسكتوا، **فضحك** رسول الله r، وفي رواية: **فتبسم** رسول الله r[٣]. قال النووي (٦٧٦هـ): ((فضحك النبي r تعجبًا من سرعة تغير رأيهم، والله أعلم))[٤].

ومن التبسم ما جاء في حديث رفاعة القرضي t، وقد مضى تخريجه[٥]، وفيه أن النبي r **تبسم** ضاحكًا لما قالت المرأة: كنت عند رفاعة، فطلقني فبت طلاقي، فتزوجت عبدالرحمن بن الزبير، وإن ما معه مثل هدبة الثوب، وأخذت بهدبة من جلبابها.

قال النووي (٦٧٦هـ): ((قال العلماء: إن التبسم للتعجب من جهرها وتصريحها بهذا الذي تستحي النساء منه في العادة، أو لرغبتها في زوجها الأول وكراهة الثاني، والله أعلم))[٦].

ومن ذلك أيضًا حديث أبي سعيد t في الرقية بالفاتحة، ومضى ذكره قريبًا في التعجب بالاستفهام، والله أعلم.

٥- ضرب الفخذ.

---

(١) المرجع السابق: ١٣/٣٩٩.
(٢) كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب U: ١٧٨.
(٣) أخرجه البخاري: (٤٣٢٥ و٦٠٨٦ و٧٤٨٠)، ومسلم: (١٧٧٨).
(٤) شرح صحيح مسلم: ١٢/١٢٤.
(٥) ينظر ص (٣٤٠، ٤٣٤) من هذا البحث.
(٦) شرح صحيح مسلم: ١٠/٣-٤.

وهو من البيان بالحركات، وورد فيه حديث علي بن أبي طالب t ، وقد سبق ذكره[١]، وفيه أن الرسول r حضه وفاطمة على صلاة الليل، فقال: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا. فانصرف r ، قال علي: ثم سمعته وهو مُوَلٍّ **يضرب فخذه**، وهو يقول: ﴿وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً﴾. قال النووي (٦٧٦هـ): ((المختار في معناه أنه تعجب من سرعة جوابه وعدم موافقته له على الاعتذار بهذا، ولهذا ضرب فخذه))[٢]، والله أعلم.

(١) ينظر ص (٢٥٩) من هذا البحث.

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم: ٦/٦٥، وعمدة القاري: ٢٥/١٤٦.

المبحث الثالث: التقديم والتأخير.

- عناية البلاغيين بهما.

التقديم والتأخير كما قال عبد القاهر: ((باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية، لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة))[١]، وذكر ابن النقيب أن العرب أتوا به دلالة على تمكنهم في الفصاحة، وملكتهم للكلام، وتصرفهم فيه على حكم ما يختارونه، وانقياده لهم لقوة ملكتهم فيه وفي معانيه، ثقة بصفاء أذهانهم[٢].

وإذا كان هذا الأسلوب قد حفل به العرب، فهو في النظم القرآني له أهميته التي نبعت من حكمة بالغة، وقدرة معجزة في حسن اختيار الألفاظ، وضم بعضها إلى بعض، حسب ما يقتضيه المقام.

ولأهمية هذا الأسلوب عني البلاغيون به عناية فائقة، فرصدوا أنواعه وأقسامه، وتتبعوا أسبابه ومقتضياته، على اختلاف بينهم في طريقة تناول هذا الأسلوب[٣]. وغالب الذين جروا على طريقة السكاكي في التأليف تناولوا التقديم والتأخير في أحوال المسند إليه ثم في أحوال المسند ثم في أحوال الفعل مع متعلقاته، وهو غالب التأليف إلى اليوم.

وقد اهتم البلاغيون في تناولهم لتقديم المسند إليه بدراسة تقديمه على الخبر الفعلي في النفي أو في الإثبات، وتقديمه إذا كان نكرة، أو إذا كان بلفظ (مثل) أو (غير)، وتقديمه إذا كان من ألفاظ العموم على النفي ((ولعل اهتمام البلاغيين بدراسة هذه الأمور وإبرازها يرجع إلى ما يكمن وراءها من دقائق وأسرار ينبغي على الدارس الوقوف عليها والإحاطة بها))[٤].

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٠٦.

(٢) مقدمة ابن النقيب/١٦٦.

(٣) ينظر في هذا الأسلوب: المفتاح: ١٩٤ و٢١٩، والمصباح: ٢٦ و٣٨ و٤٩، وشروح التلخيص: ١/٣٨٩-٤٤٧، و٢/١٠٩-١١٦ و١٤٥-١٦٥، ونهاية الإيجاز: ٢٩٨-٣٢٠، والمثل السائر: ٢/٢٣٩، والتبيان في علم البيان، للزملكاني: ٩٤ و١٠٥ و١٤٧، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٧٢ و١٨٠ و١٩٧-٢٠٤، والطراز: ٢٣٠-٢٣٩ و٥٢٥ و٥٢٩، والبرهان في علوم القرآن: ٣/٣٠٣، والأسلوب في الإعجاز البلاغي للقرآن/٣٢٥، ومعجم المصطلحات البلاغية٢/٣٢٩.

(٤) علم المعاني، لفيود: ١/١٥٤.

وذكروا للتقديم والتأخير عدة أغراض، منها: التشويق إلى ذكر المؤخر، وإرادة تعجيل المقصود من مسرة أو تعظيم أو مساءة أو تحقير، والتخصيص، والتأكيد وتقوية الحكم، ودفع توهم الخطأ. وقد يكون المقام يستلزم تقديم السبب على المسبب، أو الأكثر على الأقل، أو الأعجب، أو الأشرف، وقد يصحب أحد الأغراض إرادة المحافظة على الفواصل ومراعاة النسق الصوتي وما له من أثر في المعنى ووقع في النفس، إلى غير ذلك من الأغراض التي يفيد التقديم فيها العناية بالمقدم والاهتمام به، لكونه المقصود من غرض الكلام(١).

- التقديم والتأخير في أحاديث الصحيحين.

وقد ورد هذا الأسلوب في كلام النبي r ، بل لم يخل منه حديث من أحاديثه ولا جملة من جمله، ولا ينفك أي كلام من تقديم وتأخير، وإنما الشأن في البلاغة أن يأتي هذا الأسلوب مراعاة لما يقتضيه الحال ويستدعيه المقام، ولقد كان كذلك في حديث رسول الله r ومخاطباته.

وقد تناول بعض الباحثين بناء الجملة في أحاديث الصحيحين، ووجد عدة صور للتقديم والتأخير فيها، خاصة ما خرج عن الأصل فقُدم وحقه التأخير، ومنها: تقديم الخبر على المبتدأ، أو على أسماء النواسخ، وذكر له عدة صور، ومنها تقديم المفعول به على الفاعل، وذكر له عدة صور، ومنها التقديم والتأخير في جملة الاستفهام، وفي جملة الشرط، وغيرها من الصور(٢)، وكل هذا في حدود الجملة، فكيف إذا نظرنا إلى هذا الأسلوب في النص كله، وتتبعنا علاقات الجمل ببعضها، من حيث تقديم بعض الجمل على بعض، وتقديم بعض المعاني والأفكار على بعض. وكل ذلك يجري في كلام النبي r مراعاة لمقتضى الحال عمومًا، ومنه ما راعى فيه مقتضى حال المخاطب خصوصًا.

وسأذكر شواهد من الخطاب النبوي تبين أن النبي r كان يراعي مقتضى حال المخاطب في اختيار ترتيب الجملة أو النص، سواء أكان هذا الترتيب جاء على الأصل أم على خلافه، وأرتب هذه الشواهد بناء على ما ذكره البلاغيون في أحوال المسند إليه والمسند

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ١/٣٨٩، و٢/١٠٩ و١٤٥، والبلاغة العالية في علم المعاني: ٨١، وعلم المعاني، لفيود: ١/١٥٤ و٢٠٣ و٢٥٠-٢٥٩.

(٢) ينظر: بناء الجملة في الحديث النبوي: ٢٠٣-٢٠٥ و٢٣٠ و٢٣١ و٢٣٢ و٢٧٤ و٢٧٥ و٢٨٠ و٢٨٧ و٢٨٨ و٢٩١ و٢٩٧ و٣١٦-٣١٧ و٣٣١ و٤٢١ و٤٢٧ و٤٢٨ و٤٣٦ و٥٧٣ و٦٤٩.

والمتعلقات، هذا فيما يتعلق بمفردات الجملة الواحدة، ثم أذكر ما يتعلق بالتقديم والتأخير بين الجمل والمعاني في النص.

أ- تقديم المسند إليه.

من الشواهد على مراعاة حال المخاطب في تقديم المسند إليه تقديم لفظ الجلالة (الله) في حديث المتلاعنين، فعن ابن عمر t أن رجلاً اتهم امرأته بالزنا، فكذَّبته، فتلاعنا، وقال النبي r لهما: «**اللهُ** يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» فأبيا، فقال: «**اللهُ** يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» فأبيا، فقال: «**اللهُ** يَعْلَمُ أَنَّ أَحَدَكُمَا كَاذِبٌ، فَهَلْ مِنْكُمَا تَائِبٌ؟» فأبيا، ففرق بينهما[(١)].

والذي يظهر من الروايات أن النبي r قال ذلك لهما بعد أن تلاعنا[(٢)]. وقد كان النبي r قبل أن يتلاعنا يعظهما ويخوفهما، كما في الرواية الأخرى عند مسلم أن الرجل جاء إلى النبي r ورمى امرأته فأنزل لله U هؤلاء الآيات في سورة النور: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ [النور: ٦] فتلاهن عليه، ووعظه وذكره، وأخبره أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، قال: لا، والذي بعثك بالحق، ما كذبت عليها. ثم دعاها، فوعظها وذكرها، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة، :قالت لا، والذي بعثك بالحق، إنه لكاذب. ثم تلاعنا.

ولعل النبي r قال لهما ذلك بعد أن تلاعنا زيادة في الترهيب والتخويف لهما، لعل أحدهما أن يتوب، وجاء بلفظ الجلالة (الله) تذكيرًا لهما بعظمة الله U وسعة علمه وإحاطته واطلاعه وأنه لا يخفى عليه خافية من أمرهما، ولذا جاء المسند فعلاً مضارعًا (يعلم) إشعارًا للمخاطب بأن علم الله حاصل الآن، وإحضارًا له في ذهن المخاطب وقلبه، لعله يرتدع، وجاء متعلق الفعل جملة مؤكدة لتأكيد كذب أحدهما وتأكيد علم الله U بهما، وفي ذلك مزيد ترهيب لهما، وقدم المسند إليه لفظ الجلالة (الله) تأكيدًا للترهيب والتخويف وتقوية له، وقد ذكر البلاغيون أن تقديم المسند إليه في الإثبات يفيد تقوية الحكم وتأكيده، والله أعلم.

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح: ٦/٤٢٢.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٣١١ و٥٣٤٩) ، ومسلم: (١٤٩٢).

ومثل هذا الحديث في هذا الغرض قول النبي r لأبي مسعود t حينما كان يضرب غلامه بالسوط وقد سبق بتمامه في الفصل الماضي[(١)]: «اعْلَمْ أَبَا مَسْعُودٍ، أَنَّ **اللهَ** أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَى هَذَا الْغُلامِ» وفي رواية: «وَاللهِ، **لَلَّهُ** أَقْدَرُ عَلَيْكَ مِنْكَ عَلَيْهِ» قـال: فقلـت: لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا، وأعتقه. وقد سبق أن ذكرت أن في اختيار لفظ الجلالة (الله) دون سائر أسمائه وصفاته، إشعارًا للمخاطب بعظمة الله U وإحاطته بخلقه وقدرته الشاملة على عباده، في مقابل القدرة المحدودة للسيد الضعيف على رقيقه، وفي ذلك موعظة للمخاطـب لعله يرتدع، وقد حصل ذلك[(٢)]. فتقديم لفظ الجلالة (الله) في الروايتين يعطي مزيد تأكيـد للموعظة والترهيب والتخويف، مع ما في الجملة من التأكيد بأنّ، والقسم، واللام، ثم مجيء المسند على صيغة أفعل التفضيل، والله أعلم.

ومن تقديم المسند إليه ما جاء في حديث المغيرة بن شعبة وغـيره y أن الشـمس كسفت على عهد رسول الله r يوم مات إبراهيم t ، فقال الناس: كسفت الشمس لموت إبراهيم، فقال رسول الله r : «إِنَّ **الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ، وَلا لِحَيَاتِـهِ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ فَصَلُّوا وَادْعُوا اللهَ» وفي رواية: «إِنَّ **الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ** آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ وَإِنَّهُمَا لا يَخْسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ»[(٣)].

وكان الناس في الجاهلية يظنون أن الكسوف يحصل لحدوث تغـير في الأرض مـن موت أو ضرر[(٤)]، فلما مات إبراهيم t ظن الناس أن الكسوف حصل لموته، فخطب النبي r الناس بعد أن صلى بهم صلاة الكسوف وأخبرهم بهذا الخبر الذي يرد فيه على ظنـهم، وقد ورد رواية في مسلم أن النبي r قال: «وَإِنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: إِنَّ الشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ لا يَخْسِفَانِ إِلاّ لِمَوْتِ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُمَا آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللهِ يُرِيكُمُوهُمَا، فَإِذَا خَسَفَا فَصَلُّوا حَتَّى تَنْجَلِيَ»[(٥)].

---

(١) ينظر ص (٢٨٩) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (٢٨٩) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (١٠٤٠ و١٠٤٣ و١٠٤٤ و١٠٤٨ و١٠٦٣) ، ومسلم: (٩١١ و٩١٢ و٩١٤ و٩١٥).

(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم: ٦/٢٠١، وفتح الباري: ٢/٥٢٨.

(٥) أخرج الرواية مسلم: (٩٠٤) عن جابر بن عبد الله t ، وينظر: فتح الباري: ٢/٥٢٨.

ولعل النبي r قدم المسند إليه (الشمس والقمر) على المسند الفعلي المنفي في مقام الإنكار تأكيدًا وتقوية للحكم، ومجيء المسند المنفي فعلاً مضارعًا للدلالة على تجدد النفي واستمراره في كل حين وآن، وقد ذكر البلاغيون أن تقديم المسند إليه في النفي يفيد تقوية الحكم وتأكيده، والله أعلم.

ومن تقديم المسند إليه حديث أبي ذر t حينما سابّ غلامًا له، وسبق بتمامه[1]، وفيه أن النبي r قال له: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيْكَ جَاهِلِيَّةٌ. **إِخْوانُكُمْ** خَوَلُكُم، جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم...» وفي رواية: «إِنَّ **إِخْوانَكُمْ** خَوَلُكُم». والشاهد هنا تقديم المسند إليه (إخوانكم) على المسند (خولكم). قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((في تقديم لفظ (إخوانكم) على (خولكم) إشارة إلى الاهتمام بالأخوة))[2]. والتعبير عن الرقيق والخدم بالإخوان فيه تعريض للمخاطب بمراعاة حقوق الأخوة الإسلامية ولو كان المسلم مملوكًا أو مخدومًا، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((ويؤخذ منه المبالغة في ذم السب واللعن، لما فيه من احتقار المسلم، وقد جاء الشرع بالتسوية بين المسلمين في معظم الأحكام، وأن التفاضل الحقيقي بينهم إنما هو بالتقوى، فلا يفيد الشريف النسب نسبه إذا لم يكن من أهل التقوى، وينتفع الوضيع النسب بالتقوى كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]))[3].

ب- تقديم المسند.

ومن شواهد ذلك تقديم المسند الفعلي في الدعاء للمريض كما روت عائشة رضي الله عنها أن رسول الله r كان إذا أتى مريضًا أو أُتي به قال: «**أَذْهِب** الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا» والشاهد في قوله: «أَذْهِب الْبَاسَ» وفي رواية: «**امْسَح** الْبَاسَ» ولعل تقديم المسند (أذهب-امسح) يقصد منه التفاؤل، حيث يسمع المخاطب من أول وهلة ما يعجل بسروره وتفاؤله بالشفاء وزوال المرض،

---

(١) ينظر ص (٢٧٣) من هذا البحث.

(٢) فتح الباري: ١٧٤/٥.

(٣) المرجع السابق: ٤٦٨/١٠.

والمريض وهو في هذه الحال أحوج ما يكون إلى ما يسليه ويؤنسه ويبعث لديـــه التفـــاؤل بالشفاء ورجاء قربه.

ويقدم المسند أيضًا إذا كان فيه ما يسر المخاطب، تعجيلاً له بما يسره مكافأة له على ما فعله من معروف، كتقديم المسند (عجب) في حديث أبي هريرة t أن رجـــلاً أصـــابه الجهد أتى رسول الله r يستضيفه، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله r : «أَلا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، يَرْحَمُهُ اللهُ» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رســـول الله، فجاء إلى امرأته فلم يجد عندها إلا قوت صبياهم، فنوموا الصبيان، وأطفأوا الســـراج، وقدموا الطعام، وأوهموه أهم يأكلون، وباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى الرسول r ، فقال له الرسول r : «قَدْ **عَجِبَ** اللهُ مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيْفِكُمَا اللَّيْلَةَ»(١).

وفي مقام التبشير يقدم النبي r المسند الذي يعجل بالبشرى للمخاطـــب، كمـــا في حديث كعب بن مالك t حينما تخلف عن غزوة تبوك، وفيه أنه لما نزلت توبة الله عليهم جاء إلى الرسول r فقال له وهو يبرق وجهه من السرور: «**أَبْشِرْ** بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ»(٢)، وقوله لعائشة رضي الله عنهما لما نزلـــت براءها في حادثـــة الإفـــك: «**أَبْشِرِي**، يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ»(٣).

ومن تقديم المسند للتعجيل بما يسره حديث سلمة بن الأكوع t ، وقد ســـبق(٤)، وفيه أن سيف عمه عامر t كان قصيرًا في غزوة خيبر، فتناول به ساق يهودي ليضـــربه، فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته، فمات منه، فزعم ناس أن عامرًا حبط عمله، فاغتم سلمة لذلك. فسأله النبي r فأخبره بما يقولون، فقال r : «**كَذَبَ** مَنْ قَالَـــهُ. إِنَّ لَـــهُ لأَجْـــرَيْنِ اثْنَيْنِ...». وجاء تقديم المسند في الجملتين؛ الفعل (كذب) وخبر إن (له)، وفي كلا الموضعين قدم المسند تعجيلاً للمخاطب بما يسره ويزيل همه وغمه، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٧٩٨ و٤٨٨٩) ، مسلم: (٢٠٥٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٤٤١٨) ، مسلم: (٢٧٦٩).

(٣) أخرجه البخاري: (٢٦٦١) ، مسلم: (٢٧٧٠).

(٤) ينظر ص (٢٦١) من هذا البحث.

ومثل ذلك تقديم الخبر (لَكَ) في حديث عثمان t لما منعه النبي r من الخروج لغزوة بدر ليمرض زوجه رقية رضي الله عنها، وقال له: «إِنَّ **لَكَ** أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ»[(١)].

ومثل ذلك أيضًا في تقديم ما يسر تقديم الخبر (لكِ) في حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها سألت النبي r قالت: يا رسول الله، هل لي من أجر في بني أبي سلمة أن أنفق عليهم، ولست بتاركتهم هكذا وهكذا، إنما هم بَنِيّ؟ قال: «نَعَمْ، **لَكِ** أَجْرُ مَا أَنْفَقْتِ عَلَيْهِمْ»[(٢)].

ومن تقديم المسند حديث المسور بن مخرمة t ، وقد سبق[(٣)]، وفيه أن أباه وجد في نفسه أن النبي r لم يعطه من الأقبية التي أعطى ناسًا منها، فانطلق إلى الرسول r ، فقام على الباب، فتكلم، فعرف النبي r صوته، فخرج ومعه قَبَاء، وهو يريه محاسنه، ويقول: «يَا أَبَا الْمِسْوَرِ، قَدْ **خَبَأْتُ** هَذَا لَكَ، يَا أَبَا الْمِسْوَرِ، قَدْ **خَبَأْتُ** هَذَا لَكَ» فنظر إليه فقال: رضي مخرمة. وفي تقديم المسند (خبأ) تعجيل بإشعار المخاطب باهتمام النبي r به على خلاف ما قد يظنه، وهذا تلطف من النبي r بأصحابه y وتألف لقلوبهم، والله أعلم.

وقد يقدم المسند لتعظيم أمره وإشعار المخاطب بأهميته، كما في حديث عبد الله بن مسعود t قال: كنا نسلم على رسول الله r وهو في الصلاة، فيرد علينا، فلما رجعنا من عند النجاشي سلمنا عليه فلم يرد علينا، فقلنا: يا رسول الله، كنا نسلم عليك في الصلاة فترد علينا، فقال: «إِنَّ **فِي اَلصَّلاَةِ** شُغْلاً» وفي رواية: «لَشُغْلاً»[(٤)]. فلعل تقديم المسند الجار والمجرور (في الصلاة) وهو خبر إن يفيد تعظيم أمر الصلاة وإشعار المخاطبين بأهميتها، ولذا حصل الانشغال بها عن رد سلامهم، وفي هذا اعتذار من النبي r لهم عن عدم رده عليهم، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣١٣٠ و٣٦٩٨).

(٢) أخرجه البخاري: (١٤٦٧ و٤٣٦٩) ، مسلم: (١٠٠١).

(٣) ينظر ص (١٤٥) من هذا البحث.

(٤) أخرجه البخاري: (١١٩٩ و١٢١٦) ، ومسلم: (٥٣٨).

ت- تقديم المتعلقات وتأخيرها.

ومن ذلك تقديم المفعول به على الفعل في حديث اعتكاف النبي r ، وقد سبق[١]، وفيه أنه لما أراد الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان أمر بخبائه فضرب، فأمرت زينب بخبائها فضرب، وأمر غيرها من أزواج النبي r بخبائه فضرب، فلما صلى رسول الله r الفجر نظر، فإذا الأخبية، فقال: «آلْبِرَّ تُرِدْنَ؟» وفي رواية: «آلْبِرَّ تُرَوْنَ بِهِنَّ؟».

وتقديم المفعول به على عامله يفيد غالبًا الاختصاص، والمقام في الحديث مقام إنكار على الأزواج كما سبق، لكون النبي r ظن أن يكون الحامل لهن على الاعتكاف المباهاة والتنافس الناشيء عن الغيرة، فقال النبي r هذه الجملة نفيًا لاختصاص فعلهن بالبر دون غيره، والله أعلم.

وفي الرواية الأخرى «آلْبِرَّ تُرَوْنَ بِهِنَّ؟» جاء الخطاب للصحابة y والمقصود من التقديم هو ما قيل في الرواية السابقة من نفي التخصيص، أي: لا تظنون أهن أردن البر دون غيره، والله أعلم.

وفي التقديم تعريض للأزواج رضي الله عنهن بقصر العبادة على إرادة البر دون غيره من المقاصد[٢]، والله أعلم.

ومن ذلك حديث عبد الله بن عمرو t ان رجلاً جاء يستأذن الرسول r في الجهاد، فقال له: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟» قال: نعم. قال: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»[٣].

وقدم الجار والمجرور (فيهما) على العامل (جاهد) لإفادة الاختصاص، أي: ليكن جهادك مختصًا بهما دون غيرهما، قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((فيهما: متعلق بالأمر، قدم للاختصاص، والفاء الأولى جزاء شرط محذوف، والثانية جزائية لتضمن الكلام معنى الشرط، أي: إذا كان الأمر كما قلت فاختص المجاهدة في خدمة الوالدين))[٤].

---

(١) ينظر ص (٣٨٠) من هذا البحث.

(٢) ينظر: الاستفهام في الصحيحين: ٢٢٢.

(٣) أخرجه البخاري: (٣٠٠٤ و٥٩٧٢) ، ومسلم: (٢٥٤٩).

(٤) الكاشف عن حقائق السنن: ٢٨٦/٦.

ث- التقديم والتأخير بين الجمل.

ما سبق من أحاديث هي شواهد لتقديم بعض الألفاظ على بعض في الجملة، وهنا أورد شواهد أخرى على تقديم بعض الجمل والمعاني على بعض.

ومن ذلك التقديم والتأخير بين جملة النداء وغيرها، مع أن النداء في الأصل يأتي أولاً لينتبه المخاطب إلى ما سيقال، كما سبق بيانه في الحديث عن النداء[1]، إلا أنه قد يؤخر مراعاة لحال المخاطب، ومن ذلك ما ذكرته آنفًا من قول النبي r لعائشة رضي الله عنها لما نزلت براءها في حادثة الإفك: «أَبْشِرِي، يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللهُ فَقَدْ بَرَّأَكِ» فقد أخر نداء عائشة تعجيلاً بالبشرى التي تحملها جملة الأمر «أَبْشِرِي» وفي ذلك إشعار لعائشة بمحبة النبي r لها واهتمامه ببراءها، والله أعلم.

ومن ذلك أيضًا تأخير النداء في حديث جابر بن عبد الله t قال: جاء رجل والنبي r يخطب الناس يوم الجمعة، فقال: «أَصَلَّيْتَ يَا فُلان؟» قال: لا. قال: «قُمْ فَارْكَعْ رَكْعَتَيْنِ»[2]، ولعل النبي r أخر نداءه إشعارًا له بأهمية المقدم وهو الصلاة، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أسامة بن زيد t أن ابنًا لزينب رضي الله عنها ابنة الرسول r أرسلت إليه: إن ابنًا لي قبض فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إِنَّ لِلَّهِ مَا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»[3].

وقدم النبي r جملة الأخذ على جملة الإعطاء مع أن الإعطاء سابق؛ لأن المخاطب في حال أخذ، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قدم ذكر الأخذ على الإعطاء وإن كان متأخرًا في الواقع؛ لما يقتضيه المقام، والمعنى أن الذي أراد الله أن يأخذه هو الذي كان أعطاه، فإن أخذه أخذ ما هو له، فلا ينبغي الجزع؛ لأن مستودع الأمانة لا ينبغي له أن يجزع إذا استعيدت منه))[4].

(١) ينظر ص (٤١٠) من هذا البحث.
(٢) أخرجه البخاري: (٩٣٠) ، ، مسلم: (٨٧٥).
(٣) أخرجه البخاري: (١٢٨٤) ، ومسلم: (٩٢٣).
(٤) فتح الباري: ١٥٧/٣.

وفي الحديث أيضًا تقديم للمسند (لله) على المسند إليه (ما) لإفادة الاختصـــاص[1]، وفي هذا تسلية للمخاطبة وتخفيف لمصيبتها، والله أعلم.

ومن ذلك تقديم الأمر بالتقوى على الأمر بالصبر في حديث أنس t أن النبي r مَرَّ بامرأة تبكي ولدها عند قبره فقال لها: «اتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي»[2]، وكذلك في حديث فاطمـــة رضي الله عنها لما أخبرها النبي r بأن جبريل عارضه بالقرآن مرتين بعد أن كان يعارضه به مرة واحدة في السنة، قال لها: «وَلا أَرَى الأَجَلَ إِلا قَدْ اقْتَرَبَ، فَاتَّقِي اللهَ وَاصْبِرِي، فَإِنِّي نِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ».

ولعل تقديم التقوى في الحديث الأول لما رأى فيها من الجزع على وفاة ولـــدها، وفي الحديث الثاني خشي النبي r على فاطمة من الجزع بموت أبيها r، وقد ظهر عليها بعد أن أخبرها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري t الذي سبق قريبًا في شأن الرجـــل الـــذي أرسل إليه النبي r، فخرج ورأسه يقطر، فقال: «لَعَلَّنَا أَعْجَلْنَاكَ» قال: نعم، يا رسول الله. قال: «إِذَا أُعْجِلْت أَوْ أَقْحَطْت فَلا غُسْلَ عَلَيْك، وَعَلَيْكَ الوُضُوء»[3]، وقدم شأن الإعجال لكونه هو حال المخاطب، وأما الإقحاط فذكر لكونه يشارك الإعجال في الحكم، وهو ممـــا قد يحصل للمخاطب، والله أعلم.

---

(١) ينظر: مرقاة المفاتيح: ٤/١٧٨.

(٢) أخرجه البخاري: (١٢٨٣)، ومسلم: (٩٢٦).

(٣) ينظر ص (٤٣١) من هذا البحث.

المبحث الرابع: الحذف والذكر.

- عناية البلاغيين بهما.

عني البلاغيون بالحذف والذكر عناية فائقة، لما وراءهما من المزايا والأسرار البلاغية، وقد عقد عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) للحذف بابًا ففخم أمره ونوه بذكره، فقال: ((هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به ترك الذكر أفصح من الذكر، والصمت عن الإفادة أزيد للإفادة، وتجدك أنطق ما تكون إذا لم تنطق، وأتم ما تكون بيانًا إذا لم تُبِن))[1]، ثم قال: ((ما من اسم أو فعل تجده قد حذف، ثم أصيب به موضعه، وحذف في حال ينبغي أن يحذف فيها إلا وأنت تجد حذفه هناك أحسن من ذكره، وترى إضماره في النفس أولى وآنس من النطق به))[2].

وكانت عنايتهم في الحذف والذكر بما يمكن الاستغناء عنه ويجوز حذفه أو ذكره، فيحذف أو يذكر مراعاة لمقتضى الحال.

وتناول البلاغيون الحذف والذكر أكثر ما يكون في مباحث المسند إليه والمسند وما يتعلق بالفعل، وفي مباحث الإيجاز والإطناب، لكون الحذف ضربًا من الإيجاز، ومن الذكر ما هو من الإطناب.

وذكروا أن الحذف أو الذكر لا يكون بليغًا إلا إذا كان المقام يقتضيه، ودلت قرينة على المحذوف، أو المذكور عند حذفه.

وذكروا من أغراض الحذف: قصد الاختصار، والاحتراز عن العبث لوجود القرينة، وضيق المقام عن إطالة الكلام، وتعين المحذوف وعدم احتمال غيره، وتعظيم المحذوف لفظه وصونه عن اللسان، أو تحقيره وصون اللسان عن التلفظ به، وغيرها من الأغراض التي يقتضيها المقام، ويدل عليها السياق، يقول الدكتور بسيوني: ((إن هناك ثلاث مزايا تراها كامنة وراء كل حذف يقع في اللغة، وهي: الإيجاز، وإثارة وتحريك خيال المخاطب وأحاسيسه ليدرك من العبارة ما طوي ذكره وسكت عنه، والاحتراز عن العبث بناء على

---

(١) دلائل الإعجاز: ١٤٦.

(٢) المرجع السابق: ١٥٢.

الظاهر؛ لأن ذكر الكلمة التي أقيم عليها الدليل وأشار إليها السياق، وأرشدت إليها قرائن الأحوال يعد عبثًا بمقتضى البلاغة))[١].

ومن أغراض الذكر: زيادة التقرير والإيضاح، والرغبة في إطالة الكلام، والتلذذ بذكر الاسم، وإظهار تعظيمه، أو إهانته، والتعريض بغباوة السامع، وغيرها من الأغراض[٢].

· الحذف والذكر في أحاديث الصحيحين.

وقد كثر الحذف والذكر في كلام النبي ﷺ لأغراض بلاغية مراعاة لمقتضى الحال، وسأتناول كل واحد منهما مبينًا مراعاة النبي ﷺ في اختيارهما لحال المخاطب، كما هو موضوع البحث.

أ- الحذف.

وقع الحذف في الخطاب النبوي في المسند إليه، والمسند، والمتعلقات والقيود والأدوات، ووقع حذف الجملة، والجمل[٣]، ومن شواهد ذلك ما يلي:

١- حذف المسند إليه.

من حذف المسند إليه ما ورد في أحاديث الرد على سلام اليهود، وقد سبقت[٤]، وفيها أن اليهود كانوا يقولون في سلامهم على النبي ﷺ: السَّام عليك. والسام: الموت. وكان النبي ﷺ يرد عليهم فيقول: «وَعَلَيْكم»، وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ فَقُولُوا: وَعَلَيْكُمْ» بحذف المسند إليه المبتدأ، والتقدير: وعليكم السام، كما جاء في حديث عائشة أنها ردت عليهم فقالت: عليكم السام...، وقد ذكرت أن رد النبي ﷺ: «وَعَلَيْكُمْ» هكذا من دون مبتدأ ظاهر يوهم اليهود أن النبي ﷺ رد عليهم سلامهم، وقد

---

(١) علم المعاني، لفيود: ١/٩٥، وينظر في الحذف وأغراضه: مفتاح العلوم: ١٧٦ و٢٠٦، وشروح التلخيص: ١/٢٧٣ و٢/٢، والطراز: ٥٢٠ و٥٢٧، والبلاغة العالية في علم المعاني: ٦٤-٦٩.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٧٧ و٢٠٧، وشروح التلخيص: ١/٢٨٢ و٢/١٩، والطراز: ٥٢٠ و٥٢٧، والبلاغة العالية في علم المعاني: ٦٢-٦٣، وعلم المعاني، لفيود: ١/٩٤-١١٠، و١٧٣-١٩١، والمعنى في البلاغة العربية: ١٨٣ و١٨٨.

(٣) ينظر: بناء الجملة في الحديث النبوي: ٢٠٦-٢١٠ و٢٦٩ و٣١٢-٣١٦ و٣٢٩-٣٣١ و٤٣٨-٤٤١ و٤٥٣ و٤٦٧ و٤٧٤ و٥٧٦-٥٧٩ و٦٤٦.

(٤) ينظر ص (٥٧) من هذا البحث.

يجعلهم في حيرة؛ أ سمع النبي r ما قالوه فرد السام عليهم، أم أنه لم يسمع فكان الرد للسلام؟ وهذا الإضمار يحقق أكثر من غرض، فهو من جهة يحفظ للنبي r خلقه المعهود عنه، ومن جهة أخرى يتألف اليهود لعلهم يرجعون(١).

ومن حذف المسند إليه قول النبي r للمريض إذا دخل عليه يعوده: «لا بَأْسَ، طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ» كما ورد في حديث ابن عباس السابق(٢)، والشاهد هنا في حذف المسند إليه المبتدأ في قوله: «طَهُورٌ» أي: هو -أي المرض- طهور. ولعل في الحذف تعجيلاً بالمسرة للمريض، وفيه تسلية وإيناس له، وتفاؤل بزوال المرض لفظًا ومعنى، إذ لو ذكر المسند إليه لكان في ذلك ذكر للمرض، وتذكير للمريض به، وهو أحوج ما يكون إلى ما يشغله عن المرض وينسيه إياه، والله أعلم.

٢- حذف المسند.

من حذف المسند ما ورد في الحديث السابق، حيث حذف المسند وبعض القيود في قوله r: «لا بَأْسَ» أي: لا بأس عليك من المرض، وسبق أن ذكرت أن مجيء (بأس) نكرة في سياق النفي يفيد العموم، وحينما تبنى الجملة على نفي المسند إليه وحده دون ذكر ما يقيده فكأن النبي r يشعر المريض بأن البأس منفي عن كل شيء، فلا بأس موجود في هذه الحياة، ولن يلحقه بأس، وهذا فيه تفاؤل بزوال كل بأس به. وحذف القيد المقدر: من المرض، للتفاؤل بزواله، كحذف المسند إليه (المرض) وهو مبتدأ مقدر في قوله r: «طَهُورٌ...» والله أعلم.

ومن ذلك حديث أم حرام بنت ملحان رضي الله عنها أن رسول الله r نام عندها ثم استيقظ وهو يضحك، قالت: فقلت: وما يضحكك يا رسول الله، بأبي أنت وأمي؟ قال: «نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ، يَرْكَبُونَ ثَبَجَ هَذَا الْبَحْرِ، مُلُوكًا عَلَى الأَسِرَّةِ» أو قال: «مِثْلَ الْمُلُوكِ عَلَى الأَسِرَّةِ»(٣).

---

(١) ينظر: فتح الباري: ١١/٤٣، وعمدة القاري: ٢٢/١١٤.

(٢) ينظر ص (١٦٠) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٧٨٩ و٢٨٠٠ و٢٨٧٨ و٦٢٨٢ و٧٠٠٢) ، ومسلم: (١٩١٢).

واستفهام أم حرام يدل على أن المحذوف المسند الفعلي وما يتعلق به من مفعول بـــه، والتقدير: يضحكني، ولعل أم حرام تعجبت من ضحك النبي r واستغربته، فحرصت على معرفة سببه، فبادرت إلى سؤال النبي r كما يظهر من روايتها، ولعل النبي r لما رآها بهذه الحال من الحرص والتعجب أجابها بحذف الفعل ومتعلقه المعلوم للمخاطبة، تعجيلاً بما يزيـــل تعجبها واستغرابها ويشبع نهمها، فضلاً عما في الخطاب من اختصار وإيجاز يقتضيه المقـــام، والنبي r قد أوتي جوامع الكلم، والله أعلم.

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله t أنهم غزوا مع رســـول الله r ، فأدركتـــهم القائلة، فترلوا يستظلون تحت الشجر، ونزل رسول الله r تحت سَمُرة وعلق بهـــا ســـيفه، وناموا، فإذا رسول الله r يدعوهم، وعنده أعرابي، فقال: «إِنَّ رَجُلاً أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلاّ وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ لِـــي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ. ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ. فَشَامَ السَّـــيْفَ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ»[1].

وكل روايات البخاري ورواية عند مسلم جاء فيها رواية القصة على لسان الرسول r ، وفيها كلها قال الرسول r : «اللهُ» بحذف المسند إما الخبر وإما الفعل، وفي رواية عند مسلم جاء فيها رواية القصة على لسان الصحابي جابر t بذكر المسند، بلفظ: «اللهُ يَمْنَعُني مِنْكَ». وهذه الرواية تدل على أن المحذوف هو جملة الخبر.

والمقام هنا مقام شجاعة وثبات وتحد، فلعل حذف المسند وما يتعلق به والاكتفـــاء بذكر المسند إليه لفظ الجلالة (الله) لما فيه من معاني العظمة والإحاطة والقدرة الشاملة ممـــا يدركه المخاطب الذي يظن أنه قد تفرد بالنبي r ، وحينما يجيء الرد بهذه اللفظة المفـــردة مكررًا ثلاث مرات فإنها تشعر المخاطب بأن النبي r يفرد الله U وحـــده بالتوكـــل ولا يستطيع أحد من الخلق أن يمنعه أو يؤذيه إلا بقدرة الله وحده، وإنها لتجعل المخاطب أيضًـــا يستشعر أنه ليس أمام رسول الله r وحده بل هو أيضًا أمام الله الذي أرسله، ومن يقـــدر

(١) أخرجه البخاري: (٢٩١٠ و٢٩١٣ و٤١٣٧ و٤١٣٩) ، ومسلم: (٨٣٤). وشام السيف بمعنى: أغمده، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٢/٥٢١.

على محادة الله ورسوله؟ إن إلقاء لفظ الجلالة (الله) بمفرده من غير أن يحيط به كلام ليزلزل كيان المخاطب ويثير في قلبه الخوف والهول والهلع، وقد كان، فاستسلم الرجل وعلم أن الذي أمامه هو رسول الله حقًا، والله أعلم، قال العيني (٨٥٥هـ): ((قوله: «الله» أي: يمنعك الله، قاله ثلاث مرات، فلم يبال r بقوله، ولا عرج عليه ثقة بالله وتوكلاً عليه، فلما شاهد هذا الرجل تلك القوة التي فارق بها عادة الناس في مثل تلك الحالة، تحقق صدقه، وعلم أنه لا يصل إليه بضرر، وهذا من أعظم الخوارق للعادة، فإنه عدو متمكن، بيده سيف مشهور وموت حاضر، ولا تغير له r بحال، ولا حصل له روع ولا جزع، وهذا من أعظم الكرامات، ومع اقتران التحدي يكون من أوضح المعجزات))(١).

وذكر بعض البلاغيين أن ((من أحسن مواقع حذف المسند ما ترى الجملة فيه قد بنيت على كلمة واحدة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥١] أي: فلا فوت لهم، فحذف المسند، وبقيت كلمة واحدة ﴿فَلا فَوْتَ﴾ وهذه الكلمة تراها كالطود الشامخ والحاجز المنيع الذي قضى على كل أمل لهم في الفوت والتفلت، ولا يخفى عليك ما في حذف جواب الشرط وبناء الفعل ﴿أُخِذُوا﴾ للمجهول من إفادة التهويل والتفظيع. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَلأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ $ قَالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلَى رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٩-٥٠] أجاب السحرة وعيد فرعون وتهديده لهم بكلمة واحدة: ﴿لا ضَيْرَ﴾ أي: لا ضير علينا فيما تصنعه بنا، إنا إلى ربنا منقلبون. وهذا ينبئ بقوة الإيمان وصدق اليقين، إذ أجابوا توعده بكلمة واحدة كالسهم النافذ الذي بدد كل وعيد، وشتت كل تهديد))(٢).

٣- حذف المسند إليه والمسند جميعًا.

قد يحذف المسند إليه والمسند جميعًا لدلالة حال المخاطب عليهما، كما في حديث جابر بن عبد الله t أن رسول الله r قال له: «تَزَوَّجْتَ؟» قال: قلت: نعم. قال: «بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟» قلت: بل ثيبًا. قال: «أَفَلا جَارِيَةً تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ»(٣).

---

(١) عمدة القاري: ١٤/١٩٠، وينظر: فتح الباري: ٧/٤٢٧.

(٢) علم المعاني، لفيود: ١/١٨١.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٠٩٧ و٢٣٠٩ و٤٠٢٥ و٥٠٧٩ و٥٢٧٤ و٥٣٦٧ و٦٣٨٧) ، ومسلم: (٧١٥).

وفي قول النبي r : «بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟» و«أَفَلا جَارِيَةً» حذف للمسند والمسند إليه، والتقدير: أتزوجت بكرًا...، و: أفلا تزوجت جارية. وغالب روايات الحديث على الحذف، ووردت رواية بذكر المحذوف. ولعل الحذف في جملة التنديم للتركيز عليه، خاصة أن النبي r عبر في غالب الروايات بلفظ (الجارية) وليس (البكر) الذي جاء في السؤال، فإن كان هو المحفوظ فلما في لفظ (الجارية) من معنى الصبا والصغر، وتذكير المخاطب بفواته فيه مزيد تنديم له، بخلاف (البكر) فإنها التي لم تمسس قط، سواء كانت صغيرة أم كبيرة(١)، والله أعلم.

ومن حذف المسند والمسند إليه حديث الرجل الفقير الذي جاء إلى النبي r يستعين على الزواج، وقد مضى الحديث(٢)، وفيه أن النبي r سأله: «عَلَى كَمْ تَزَوَّجْتَهَا؟» قال: على أربع أواق. فقال له النبي r : «عَلَى أَرْبَعِ أَوَاقٍ؟!» والتقدير: أتزوجتها على أربع أواق؟! وهذا تعجب من النبي r يحمل معنى الإنكار عليه المغالاة في المهر وهو بهذه الحال من الفقر، ولعل النبي r حذف المسند والمسند إليه تركيزًا على الإنكار ومبادرة إليه، والله أعلم.

ويكثر حذف المسند والمسند إليه، وكذلك المتعلقات والقيود في جواب الاستفهام، لدلالة استفهام المخاطب على الحذف، ويكتفى بحرف الجواب، ومن ذلك حديث أنس t حديث أنس t أن رجلاً من البادية جاء إلى النبي r فقال: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد علي في نفسك. فقال: «سَلْ عَمَّا بَدَا لَكَ» فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللَّهُمَّ نَعَمْ» قال: أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي r : «اللَّهُمَّ نَعَمْ» فقال الرجل: آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة، أخو بني سعد بن

---

(١) مقاييس اللغة: ١/٢٨٩.

(٢) ينظر ص (٤٢٨) من هذا البحث.

بكر[1]، ومن ذلك حديث جابر بن سمرة t أن رجلاً سأل النبي r: أصلي في مرابض الغنم؟ قال: «نَعَمْ» قال: أصلي في مبارك الإبل؟ قال: «لا»[2].

٤- حذف أداة الاستفهام.

قد تحذف أداة الاستفهام لغرض يتعلق بحال المخاطب، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أنه كان يوم عيد يلعب السودان بالدَّرَق والحِراب، فإما سألت رسول الله r، وإما قال: «تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟» فقلت: نعم. فأقامني وراءه، خدي على خده، وهو يقول: «دُونَكُمْ يَا بَنِي أَرْفِدَةَ» حتى إذا مللت قال: «حَسْبُكِ؟» قلت: نعم. قال: «فَاذْهَبِي»[3].

وقول النبي r: «تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ؟» استفهام محذوف منه الأداة، والتقدير: أتشتهين؟ أو هل تشتهين؟ ولعل ذلك لكون النبي r يدرك رغبة عائشة رضي الله عنها في النظر، وهي الجارية حديثة السن، كما قالت في آخر الحديث: فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن حريصة على اللهو. وقد جاء في رواية لمسلم أنها قالت: وددت أني أراهم. فلعلها قالت ذلك أولاً ثم قال لها النبي r: «تَشْتَهِينَ تَنْظُرِينَ». فأخرج النبي r الكلام كأنه خبر يحصل، لا استفهام، لكونه يعلم حرصها على النظر إلى اللعب، والله أعلم.

ومثل ذلك أيضًا قوله r لما ملت من النظر: «حَسْبُكِ؟» فهو استفهام حذفت منه الأداة، ولعل النبي r ظهر له ما يشعره بمللها فتوقعه منها، فأخرج السؤال بلا أداة وكأنه خبر حصل؛ لتوقعه حصول المستفهم عنه، والله أعلم.

ومن ذلك حديث امرأة رِفَاعة القرظي رضي الله عنهما، وقد سبق، وفيه أن النبي r أبصر معه ابنين له فقال: «بَنُوكَ هَؤُلاءِ؟» قال: نعم. قال: «هَذَا الَّذِي تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ. فَوَاللهِ، لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنْ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ»[4]، فقوله r: «بَنُوكَ هَؤُلاءِ؟» استفهام بلا أداة،

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٣)، ومسلم: (١٢).
(٢) أخرجه مسلم: (٣٦٠).
(٣) أخرجه البخاري: (٩٥٠)، ومسلم: (٨٩٢).
(٤) أخرج هذه الرواية البخاري: (٥٨٢٥).

فظهرت صورته صورة الخبر المتحقق، ولعل حذف الأداة لتوقع النبي r أهم بنوه، لما ظهر من الشبه بينه وبينهم، وقد قال بعد: «لَهُمْ أَشْبَهُ بِهِ مِنْ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ» والله أعلم.

وكذلك حذفت الأداة في قوله: «هَذَا الَّذِي تَزْعُمِينَ مَا تَزْعُمِينَ» لكونه أمرًا قد تحقق حصوله، وإنما استفهم إنكارًا عليها، والله أعلم.

ب- الذكر.

لئن كان النبي r يختار أسلوب الحذف مراعاة لمقتضى حال المخاطب كما تبين في الشواهد السابقة، فإنه أيضًا يختار أسلوب الذكر مراعاة لمقتضى حال المخاطب، ولذلك شواهد ومواضع كثيرة، منها:

١- الغالب في الجواب أن يحذف ما دل عليه الاستفهام، إلا أن الخطاب النبوي جاء في بعض المواقف بذكره، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال للنبي r إن أمي افتلتت نفسها، وأراها لو تكلمت تصدقت، أفأتصدق عنها؟ قال: «نَعَمْ، **تَصَدَّقْ عَنْهَا**»[1]، والجواب يصح بحذف المسند والمسند إليه والجار والمجرور، والاكتفاء بقول (نعم) للدلالة على الإقرار بالتصدق عنها، إلا أن النبي r ذكر ذلك له ولم يحذف فقال: «تَصَدَّقْ عَنْهَا» لفائدة لا تحصل بالحذف، فلعل النبي r أراد بهذا الذكر تأكيد التصدق عن الأم لعظم منزلتها، ولكون الصدقة مما يشق على النفوس، ولذا جاء الخطاب بصيغة الأمر تأكيدًا وترغيبًا، حتى لا يفهم المخاطب من الجواب مجرد الإباحة، كما سبق بيان هذا المعنى في مبحث الأمر من هذا الفصل[2]، والله أعلم.

وما قيل في هذا الحديث يقال مثله في حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما قالت: قدمت علي أمي وهي مشركة، في عهد قريش إذ عاهدهم، فاستفتيت رسول الله r ، فقلت: يا رسول الله، قدمت علي أمي وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: «نَعَمْ، **صِلِي**

---

(١) أخرجه البخاري: (١٣٨٨ و٢٧٦٠) ، ومسلم: (١٠٠٤)، ومعنى: افتلتت: ماتت فجأة، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ٣/٤٦٧.

(٢) ينظر ص (٣٩٧) من هذا البحث.

أُمَّكِ»[(١)]، فإن للأم حقًا ولو كانت مشركة، وذكر هذا الحق ولو كان حذفه جائزًا لفائدة لا تحصل بالحذف، فلعل أسماء ظنت أنه لا يلزمها صلة أمها لكونها مشركة، فأراد النبي r بالذكر توكيد حق أمها عليها وصلتها، بل زاد الأمر تأكيدًا بمجيء الخطاب بصيغة الأمر لحثها وترغيبها، ولئلا تفهم من الجواب مجرد الإباحة، والله أعلم.

ومثل ذلك حديث ابن عباس t أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي r فقالت: إن أمي نذرت أن تحج، فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نَعَمْ، **حُجِّي عَنْهَا**. أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَى أُمِّكِ دَيْنٌ أَكُنْتِ قَاضِيَةً؟ اقْضُوا اللهَ، فَاللهُ أَحَقُّ بِالْوَفَاءِ»[(٢)]، فالنبي r ذكر المستفهم عنه «حُجِّي عَنْهَا» وكان يمكن أن يستغني عنه بحرف الجواب (نعم). ولعل ذلك لحث المرأة للقيام بحق أمها عليها، وتأكيده، خاصة أنه مما يشق على النفس، بل إن النبي r زاد على ذلك فذكر لها سبب الأمر ودليله، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «أَرَأَيْتِ» الخ، فيه مشروعية القياس وضرب المثل؛ ليكون أوضح وأوقع في نفس السامع، وأقرب إلى سرعة فهمه. وفيه تشبيه ما اختلف فيه وأشكل بما اتفق عليه. وفيه أنه يستحب للمفتي التنبيه على وجه الدليل إذا ترتبت على ذلك مصلحة، وهو أطيب لنفس المستفتي وأدعى لإذعانه))[(٣)].

ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب t أنه قال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام؟ فقال له النبي r: «أَوْفِ نَذْرَكَ، **فَاعْتَكِفْ لَيْلَةً**»[(٤)]، ولعل عمر t ظن أن إسلامه يسقط نذره الذي حصل في الجاهلية، فأمره النبي r بالوفاء فقال: «أَوْفِ نَذْرَكَ، فَاعْتَكِفْ لَيْلَةً». ولو حذفت الجملة الثانية «فَاعْتَكِفْ لَيْلَةً» لدل عليها استفهام عمر t لأنه ذكر في استفهامه أن النذر هو اعتكاف ليلة، إلا أن النبي r ذكره وبصيغة الأمر تأكيدًا للوفاء بالنذر، والمبادرة إليه والتعجيل به، ولذا جاء العطف

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٦٢٠ و٣١٨٣) ، ومسلم: (١٠٠٣).

(٢) أخرجه البخاري: (١٨٥٢).

(٣) فتح الباري: ٤/٦٦.

(٤) أخرجه البخاري: (٢٠٣٢ و٢٠٤٢) ، ومسلم: (١٦٥٦).

بالفاء التي تفيد التعقيب والمباشرة كما سأبينه بإذن الله في مبحث الفصـــل والوصـــل، والله أعلم.

٢- قد يأتي الذكر في تعليل الحكم أو الفعل، مع أن ذكر العلة غير ملزم، إلا أن حال المخاطب تقتضي أن يعلل له الأمر، كأن يتعجب المخاطب من طلب النبي r فيعلل له الطلب ليزيل تعجبه، كما في حديث عبد الله بن مسعود t أن النبي r قال له: «اقْرَأْ عَلَيَّ القُرآنَ» فقال: آقرأ عليك وعليك أنزل؟! قال: «نَعَمْ» وفي رواية: «**فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي**» الحديث[1]، فقوله: «فَإِنِّي أُحِبُّ أَنْ أَسْمَعَهُ مِنْ غَيْرِي» تعليل لطلب قراءته عليه، وذكر التعليل لإزالة تعجب ابن مسعود t .

وقد يكون في الطلب ما يدعو إلى التعجب والاستغراب وإن لم يظهره المخاطـــب، فيبادر النبي r بذكر التعليل، كما في حديث عمر بن الخطاب t أن رجلاً على عهد النبي r كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحك رسول الله r ، وكان النبي r قد جلده في الشراب، فأُتي به يومًا، فأمر به، فجلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به!. فقال النبي r : «لا تَلْعَنُوهُ».

وهذا النهي قد يوجد استغرابًا عند الصحابة y إذ كيف ينهاهم وهو قد أتى أمـــرًا محرمًا وكبيرة من كبائر الذنوب أوجبت عقوبته وجلده؟!، فعلل النبي r نهيه فقال: «**فَوَاللهِ، مَا عَلِمْتُ، إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ**»[2].

وقد يكون في الطلب ما يدعو إلى التساؤل عن سببه، فيبادر النبي r إلى بيان العلة، كما في حديث المغيرة بن شعبة t أنه كان مع النبي r في سفر، فتوضأ النبي r وكـــان عليه خفان، قال المغيرة: فأهويت لأنزع خفيه، فقال «دَعْهُمَا».

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٥٨٢ و٥٠٥٠) ، ومسلم: (٨٠٠).

(٢) أخرجه البخاري: (٦٧٨٠). وللعلماء توجيهات لـــ(ما) في قوله: «مَا عَلِمْتُ، إِنَّهُ يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ» منـــها أن (ما) موصولة، و(إن) مفتوحة الهمز، وقيل: زائدة للتأكيد، وقيل: نافية، ومفعول (علمت) محذوف، أي: مـــا علمـــت عليه سوءًا، ثم استأنف: إنه...، وينظر: فتح الباري: ١٢/٧٧-٧٨.

وهذا الأمر يدعو إلى تساؤل المغيرة عن سبب تركهما، وعدم خلع الخفين لغسل الرجلين، فبين النبي r له العلة فقال: «**فَإِنِّي أَدْخَلْتُهُمَا طَاهِرَتَيْنِ**» فمسح عليهما(١).

ومن ذلك حديث علي t أنه قال: يا رسول الله، ما لك تَنَوَّق في قريش وتدعنا؟ فقال: «وَعِنْدَكُمْ شَيْءٌ؟» قال: نعم، بنت حمزة. فقال رسول الله r: «إِنَّهَا لا تَحِلُّ لِي» وفي هذا الرد ما يثير استغراب علي وتساؤله عن سبب ذلك، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وكأن عليًا لم يعلم بأن حمزة رضيع النبي r، أو جوز الخصوصية، أو كان ذلك قبل تقرير الحكم))(٢)، قال القرطبي (٦٥٦هـ): ((وبعيد أن يقال: إنه لم يعلم بتحريم ذلك))(٣)، فلما كان المقام يقتضي التعليل بادر النبي r بذكر العلة فقال: «**إِنَّهَا ابْنَةُ أَخِي مِنْ الرَّضَاعَةِ، وَيَحْرُمُ مِنْ الرَّضَاعَةِ مَا يَحْرُمُ مِنْ الرَّحِمِ**»(٤).

وقد يكون في التعليل ما يؤنس المخاطب ويسليه ويطيب نفسه لكون حاله تدعو إلى ذلك كمن أصابه مرض، كما في حديث أم السّائب، وقد مضى(٥)، وفيه أن النبي r سألها عن سبب رعدها: فقالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: «لا تَسُبِّي الْحُمَّى، **فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ** كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ» فعلل لها نهيه بما يسليها ويخفف عليها مرضها، والله أعلم.

وقد يكون التعليل لإيناس المخاطب وطمأنته لما أصابه من خشية كما في حديث أنس t أن رجلاً جاء فدخل الصف وقد حفزه النفس، فقال: الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه. فلما قضى رسول الله r صلاته قال: «أَيُّكُمْ الْمُتَكَلِّمُ بِالْكَلِمَاتِ؟» فأَرَمّ القوم، فقال: «أَيُّكُمْ الْمُتَكَلِّمُ بِهَا؟ **فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ بَأْسًا**» فقال رجل: جئت وقد حفزني النفس فقلتها.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٠٦ و٣٦٣)، ومسلم: (٢٧٤).

(٢) فتح الباري: ٩/١٤٢.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم: ٤/١٨١، قال النووي في شرح صحيح مسلم: ١٠/٢٣: ((قوله: «ما لك تَنَوَّق في قريش» هو بتاء مثناة فوق مفتوحة، ثم نون مفتوحة، ثم واو مفتوحة مشددة، ثم قاف، أي: تختار وتبالغ في الاختيار)).

(٤) أخرجه البخاري: (٢٦٤٥ و٥١٠٠)، ومسلم: (١٤٤٦ و١٤٤٧).

(٥) ينظر ص (٢٩٤) من هذا البحث.

فقال: «لَقَدْ رَأَيْتُ اثْنَيْ عَشَرَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا، أَيُّهُمْ يَرْفَعُهَا»[١]، ولعل القوم ومنهم المتكلم سكتوا خشية أن يكون فيما قاله ضير فيؤاخذ به، فأعاد النبي ﷺ طلبه مصحوبًا بما يطمئن المخاطب ويزيل عنه الخشية، والله أعلم.

٣- من المواقف التي اجتمع فيها الحذف والذكر مما يتبين معه دقة اختيار النبي ﷺ لكل أسلوب بحسب الحال حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أأتوضأ من لحوم الغنم؟ قال: «إِنْ شِئْتَ فَتَوَضَّأْ، وَإِنْ شِئْتَ فَلا تَوَضَّأْ» قال: أتوضأ من لحوم الإبل؟ قال: «نَعَمْ، فَتَوَضَّأْ مِنْ لُحُومِ الإِبِلِ» قال: أصلي في مرابض الغنم؟ قال: «نَعَمْ» قال: أصلي في مبارك الإبل؟ قال: «لا»[٢].

والشاهد في جواب النبي ﷺ على السؤال عن الوضوء من لحوم الإبل، حيث لم يكتف بحرف الجواب (نعم) ودلالة الاستفهام على المحذوف لو حذف المستفهم عنه، وإنما ذكره بصيغة الأمر للدلالة على الجزم في الحكم، ولئلا يفهم المخاطب لو كان حذف أن الحكم على سبيل الإباحة كما في الجواب عن لحوم الغنم، والله أعلم.

ولما سبق ما يبين التفريق للمخاطب بين الإبل والغنم لم يحتج إلى ذكر المنهي عنه في الجواب عن الصلاة في مبارك الإبل، والله أعلم.

هذه عدة شواهد تبين لنا أن النبي ﷺ يراعي في خطابه مقتضى حال المخاطب من حيث اختيار أسلوبي الحذف والذكر، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم: (٦٠٠)، وأَرَمَّ القوم، أي: سكتوا، وينظر: النهاية في غريب الحديث: ٢/٢٦٧.

(٢) أخرجه مسلم: (٣٦٠).

المبحث الخامس: القصر.

- القصر عند البلاغيين.

يعرف البلاغيون القصر بأنه: تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص[(١)].

وللقصر عدة طرق، أشهرها في اصطلاح البلاغيين أربعة: العطف بـــ(بل) أو (لا) أو (لكن)، والاستثناء بعد النفي، وإنما، والتقديم والتأخير.

ومن الطرق أيضًا: تعريف الطرفين، وضمير الفصل، وغيرهما، وقد أوصلها السيوطي (٩١١هــ) إلى أربعة عشر طريقًا، وإن كان أكثرها لا تفيد القصر دائمًا[(٢)].

يقول الدكتور محمد أبو موسى: ((القيد الذي أضافه البلاغيون للتعريف، وهو قولهم: بطريق مخصوصة، كأنهم أرادوا به أن يحددوا مسار البحث في هذا الباب، وأن يجعلوه يدور حول طرق معينة هي المقصود لهم بالبحث فيه، وهي العطف، والنفي والاستثناء، وإنما، والتقديم. وقد زاد بعضهم ضمير الفصل، وفصل بعضهم مباحث التقديم وجعلها طرقًا، فذكر من طرقه تقديم المسند إليه، وتقديم المسند، وتقديم المتعلقات كل واحد منها طريقًا، وهكذا حتى صار عند بعضهم أربعة عشر طريقًا، ولكن ذلك كله غير مشهور، والذي عليه جمهور المتأخرين هو هذه الطرق الأربعة، لا لأنها وحدها تفيد القصر، ولكن لأنها هي التي يدور حولها البحث في هذا الباب، ودلالة غيرها على القصر لا مشاحة فيها، وقد درست في مواضعها))[(٣)].

قال عبد المتعال الصعيدي: ((العطف أقوى هذه الطرق في الدلالة على القصر، للتصريح فيه بالإثبات والنفي، ويليه في ذلك الاستثناء من النفي، ثم إنما، ثم التقديم؛ ودلالته على القصر بالذوق والنظر في سر التقديم، حتى يفهم بالقرائن الحالية أنه للتخصيص ونفي الحكم عن غير المذكور فيه. أما دلالة الثلاثة قبله على القصر فبالوضع لا بالذوق))[(٤)].

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٢/١٦٦.

(٢) الإتقان: ٢/٥١، وينظر: مفتاح العلوم: ٢٨٨-٢٩٢، وشروح التلخيص: ٢/١٨٦-٢٠٣، وأساليب القصر في القرآن الكريم: ١٣٣.

(٣) دلالات التراكيب: ٣٤، وينظر: ٩٢.

(٤) البلاغة العالية في علم المعاني: ٤٨، وينظر: حاشية الدسوقي: ٢/١٨٦.

ويقسم البلاغيون القصر إلى حقيقي، وغير حقيقي.

أما الحقيقي فيراد به تخصيص المقصور بالمقصور عليه بحيث لا يتعداه إلى غيره، فيكون المنفي عن المقصور عليه عامًا.

وهذا العموم إن كان مطابقًا للواقع الخارجي كان القصر حقيقيًا تحقيقيًا، وإلا كان ادعائيًا، ويسميه بعضهم بالقصر المجازي؛ لأنه مبني على المبالغة والادعاء.

وأما القصر غير الحقيقي فهو الذي يسمى الإضافي، ويختص فيه المقصور بالمقصور عليه بالإضافة إلى شيء معين، لا إلى كل ما عداه.

ويقسم بالنظر إلى حال المخاطب إلى قصر إفراد، وقلب، وتعيين.

أما الإفراد فيخاطب به الذي يعتقد الاشتراك في حكم بين شيئين أو أكثر، وأما القلب فيخاطب به الذي يعتقد عكس الحكم، وأما التعيين فيخاطب به الذي يتردد في الحكم.

ويقسم القصر باعتبار طرفي القصر -المقصور، والمقصور عليه- إلى قصر صفة على موصوف، أو قصر موصوف على صفة. ويراد بالصفة المعنوية لا النحوية(١).

والمقصور عليه في العطف ببل ولكن هو ما بعدهما، وفي العطف بلا هو ما قبلها المقابل لما بعدها، وفي الاستثناء من النفي هو ما بعد أداة الاستثناء، وفي إنما هو المؤخر، وفي التقديم هو المقدم.

ويعد القصر ضربًا من الإيجاز، والتأكيد؛ فجملة القصر بمنزلة جملتين إحداهما مثبتة والأخرى منفية، ويقصد منه تمكين الكلام وتقريره في الذهن، كما هو سبيل التأكيد(٢).

يقول الدكتور فيود: ((أساليب القصر من الأساليب الغنية بالاعتبارات الدقيقة والملاحظات العديدة، فهو فن دقيق المجرى، لطيف المغزى، جليل المقدار، كثير الفوائد، غزير الأسرار... ويرجع ثراء أساليب القصر وكثرة فوائدها إلى تنوع طرقها وما بين تلك الطرق من فروق دقيقة واعتبارات وملاحظات لطيفة))(٣).

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٢/١٦٨.

(٢) ينظر: البلاغة العالية في علم المعاني: ٤٨.

(٣) علم المعاني: ٢/٥.

- طرق القصر في أحاديث الصحيحين.

ورد أسلوب القصر كثيرًا في الخطاب النبوي، وتنوعت فيه الطرق شاملة الطرق الأربعة التي اشتهرت عند البلاغيين، وأكثر ما ورد منها الاستثناء من النفي(١).

وسأذكر شواهد على ذلك مما جاء فيه اختيار القصر مراعاة لمقتضى حال المخاطب، وسأرتب هذه الشواهد بحسب الترتيب المشهور عند البلاغيين لطرق القصر، بدءًا بالعطف، فالاستثناء من النفي، فإنما، ثم التقديم.

١- العطف بـ(لا وبل ولكن).

أما العطف بـ(لا) فلم أجد له شاهدًا، وأما (بل ولكنْ) فإن الأشهر عند البلاغيين كما هو عند النحويين أنهما لا تفيدان العطف إلا إذا سبقا بنفي أو نهي، وكان المعطوف مفردًا لا جملة، و لم أجده في حديث الرسول r ، لكن الظاهر أن مجيء الجملة بعدهما يفيد معنى القصر، وفي عده من القصر الاصطلاحي محل نظر عند بعض البلاغيين(٢)، ومما جاءتا فيه لمعنى القصر حديث أنس بن مالك t قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية [الحجرات: ٢] جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي r ، فسأل النبي r سعد بن معاذ فقال: «يَا أَبَا عَمْرٍو، مَا شَأْنُ ثَابِتٍ؟ اشْتَكَى؟» قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله r ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أني من أرفعكم صوتًا على رسول الله r ، فأنا من أهل النار. فذكر ذلك سعد للنبي r ، فقال رسول الله r : «**بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**» أي: إنه ليس من أهل النار بل هو من أهل الجنة، وفي رواية للبخاري: «اذْهَبْ إِلَيْهِ، فَقُلْ لَهُ: إِنَّكَ لَسْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، **وَلَكِنْ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ**»(٣)، وهذا مقام تطمين للمخاطب، الذي بلغ به الهم والغم والظن حد اليقين بأنه من

---

(١) ينظر: بناء الجملة في الحديث النبوي: ٣٨٨.

(٢) ينظر: مواهب الفتاح: ٢/١٨٧، ودلالات التراكيب: ٩٥-٩٧، وعلم المعاني، لفيود: ٢/٣١-٣٤.

(٣) أخرجه البخاري: (٣٦١٣) ، ومسلم: (١١٩). ويلحظ في هذا الحديث مجيء (لكن) مسبوقة بـ(الواو)، واشترط بعض العلماء لتكون عاطفة أن لا تسبق بالواو، وفيه نظر، لمجيئه في النصوص البليغة من كتاب الله U وسنة

أهل النار، فيحتاج مع هذه الحال إلى تأكيد قوي بنفي ما اعتقده، ونفي كونه من أهل النار مؤكدًا بــ(إنّ) كاف في الدلالة على أنه من أهل الجنة، إلا أن حال المخاطب تقتضي مزيدًا من التأكيد فجاء القصر بــ(لكن) أو (بل) اللتين تثبتان خلاف ما نفي قبلهما، أي أنه مقصور على أن يكون من أهل الجنة لا من أهل النار، وإن كانت الرواية الأولى هي المحفوظة فإن النبي r فيها حذف جملة النفي، ولعل في ذلك تعجيلاً بالتطمين والبشرى لثابت t . وحذف الجملة المنفية قبل (بل) كثير في القرآن الكريم[1]. والظاهر أنه لا تنافي بين الروايتين، فقد يكون النبي r قال: «بَلْ هُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» لما أخبر بحاله أولاً، ثم أمر سعدًا أن ينطلق إليه فيبشره بالقول الثاني، والله أعلم.

ومن ذلك ما جاء في حوار النبي r مع يهود في حديث مضى بتمامه[2]، وفيه أن النبي r سأل يهود عن أبيهم، فقالوا: فلان، فقال r : «كَذَبْتُمْ، **بَلْ أَبُوكُمْ فُلانٌ**» أي: ليس أبوكم فلانًا وإنما هو فلان، واليهود أهل بهت وتكذيب، ولذا فإن الخطاب معهم يقتضي التأكيد، وفي هذا المقام الذي كذبوا فيه وقد وعدوا أن يصدقوا فيه يقتضي مزيدًا من التأكيد لرد دعواهم الباطلة في الانتساب إلى غير أبيهم، فنفى النبي r انتسابهم إلى ما يدعون وأثبت غيره على طريق العطف بــ(بل) وحذف جملة النفي تعجيلاً بتكذيبهم، ولكونهم يعلمون أنهم كاذبون في دعواهم، والله أعلم.

ومن ذلك حديث ابن عباس t أن النبي r لما اعتزل نساءه شهرًا ظن الناس أنه طلق نساءه، فجاء عمر t فقال: أطلقت نساءك؟ فقال r : «لا، **وَلَكِنْ آلَيْتُ مِنْهُنَّ شَهْرًا**»[3]، وهذا مقام لتصحيح الخبر، ويقتضي التأكيد، والنبي r هنا نفى ما ظنه الناس من أن اعتزاله طلاق وأثبت أنه إيلاء على سبيل القصر، والله أعلم.

رسول الله r وغيرهما، وسيبويه وغيره يمثلون لــ(لكن) العاطفة بنصوص فيها (الواو) والله أعلم، وينظر: الجنى الداني: ٥٣٣، ومغني اللبيب: ٣٨٦، وعلم المعاني، لفيود: ٢/٣٣.

(١) ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٢/٦٤.

(٢) ينظر ص (٥٥) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (٥٢٠٢) ، ومسلم: (٨٩٢).

ويلحظ في الشواهد السابقة وغيرها أن القصر بهذا الطريق يغلب في القصر الإضافي، وبعض البلاغيين يرى أنها لا تأتي إلا له، لأن المنفي معها دائمًا يكون أمرًا خاصًا[1]، وليس كذلك فقد جاء من النصوص ما كان المنفي فيها عامًا كقول الله U: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ١٠٤]، قال أبو حيان في تفسير الآية: ((خطاب لأهل مكة، يقول: إن كنتم لا تعرفون ما أنا عليه فأنا أبينه لكم، فبدأ أولاً بالانتفاء من عبادة ما يعبدون من الأصنام تسفيهًا لآرائهم، وأثبت ثانيًا من الذي يعبده وهو الله الذي يتوفاكم))[2]، والله أعلم.

٢- الاستثناء من النفي.

القصر بالاستثناء من النفي فيه قوة وحدة، ولذا يأتي فيما يحتاج إلى قوة إثبات وتقرير وترسيخ وحسم.

وكثيرًا ما يأتي في مقام الإنكار والتكذيب والجهل والشك، ويذكر البلاغيون أن الأصل فيه أن يكون فيما يجهله المخاطب وينكره أو يشك فيه، أو ما يترل مترلته.

قال عبدالقاهر الجرجاني (٤٧١هـ): ((أما الخبر بالنفي والإثبات، نحو: ما هذا إلا كذا، وإن هو إلا كذا، فيكون للأمر ينكره المخاطب ويشك فيه، فإذا قلت: ما هو إلا مصيب، أو: ما هو إلا مخطىء، قلته لمن يدفع أن يكون الأمر على ما قلته. وإذا رأيت شخصًا من بعيد فقلت: ما هو إلا زيد، لم تقله إلا وصاحبك يتوهم أنه ليس بزيد، وأنه إنسان آخر، ويجد في الإنكار أن يكون زيدًا))[3]، ثم قال: ((وجملة الأمر أنك متى رأيت شيئًا هو من المعلوم الذي لا يشك فيه قد جاء بالنفي، فذلك لتقدير معنى صار به في حكم المشكوك فيه))[4].

---

(١) ينظر: علم المعاني، لفيود: ٣٣/٢.

(٢) البحر المحيط: ٢٥٤/٥، وينظر: إرشاد العقل السليم: ١٧٩/٤.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٣٢.

(٤) المرجع السابق: ٣٣٣-٣٣٤، وينظر: شروح التلخيص: ٢١٣/٢، والبلاغة العالية في علم المعاني: ٥٣، ودلالات التراكيب: ١٠٤، وأساليب القصر في القرآن الكريم: ١٦٦، وعلم المعاني، لفيود: ٣٥/٢ و٦٢.

ومما جاء من الخطاب النبوي على هذا الطريق من القصر ما جاء في مقام دعوة المشركين إلى توحيد الله U وعدم الإشراك به، ومن ذلك قول النبي r لعمه أبي طالب وهو على فراش الموت: «أَيْ عَمِّ، قُلْ: **لا إِلَهَ إِلا اللهُ**، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ».

ومن ذلك قوله لمعاذ t حينما أرسله إلى اليمن: «إِنَّكَ سَتَأْتِي قَوْمًا أَهْلَ كِتَابٍ، فَإِذَا جِئْتَهُمْ فَادْعُهُمْ إِلَى أَنْ يَشْهَدُوا أَنْ **لا إِلَهَ إِلاَّ اللهُ** وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ...» وقد سبق الحديثان بتمامهما[(١)].

وفي الحديث الأول يخاطب النبي r عمه المشرك الذي يصر على شركه حتى الموت، ولذا كانت دعوته إلى توحيد الله U والإقرار بألوهيته وحده بطريق الاستثناء من النفي، لأن المشركين يقرون بألوهية الله لكنهم ينكرون اختصاصها به، فيشركون معه غيره، كما قال الله U: ﴿وَقَالَ اللهُ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ $ وَلَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللهِ تَتَّقُونَ $ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ $ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٥١-٥٤].

والخطاب في الحديث الثاني موجه إلى أهل الكتاب وقد يكون فيهم من غيرهم من الكفار، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وليس فيه أن جميع من يقدم عليهم من أهل الكتاب، بل يجوز أن يكون فيهم من غيرهم، وإنما خصهم بالذكر تفضيلاً لهم على غيرهم))[(٢)]. وأهل الكتاب فيهم مشركون، كما قال الله U: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ $ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ $ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لا إِلَهَ إِلاّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٢٩-٣١]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) عن الشهادتين: ((وقعت البداءة بهما لأنهما أصل الدين الذي لا يصح شيء غيرهما إلا بهما،

---

(١) ينظر ص (٦٠، ٨٩) من هذا البحث.

(٢) فتح الباري: ٣/٣٥٩.

فمن كان منهم غير موحد فالمطالبة متوجهة إليه بكل واحدة من الشهادتين على التعيين، ومن كان موحدًا فالمطالبة له بالجمع بين الإقرار بالوحدانية والإقرار بالرسالة، وإن كانوا يعتقدون ما يقتضي الإشراك أو يستلزمه كمن يقول ببنوة عزير، أو يعتقد التشبيه فتكون مطالبتهم بالتوحيد لنفي ما يلزم من عقائدهم))[١].

وعلى هذا فإن مقام الدعوة إلى الإيمان بالله وحده والإقرار بتوحيده وتقرير ذلك يقتضي القصر بطريق الاستثناء من النفي، والله أعلم.

ومما جاء فيه الاستثناء في مقام الإنكار حديث عائشة رضي الله عنها في شأن إهداء الناس للنبي ﷺ في يومها وشكوى نسائه إليه في ذلك، وقد سبق[٢]، وفيه: أن أم سلمة رضي الله عنها كلمته فأعرض عنها ولم يقل لها شيئًا، ثم كلمته فأعرض عنها ولم يقل لها شيئًا، ثم كلمته فقال لها: «يَا أُمَّ سَلَمَةَ، لا تُؤْذِينِي فِي عَائِشَةَ، فَإِنَّهُ وَاللهِ **مَا نَزَلَ عَلَيَّ الْوَحْيُ وَأَنَا فِي لِحَافِ امْرَأَةٍ مِنْكُنَّ غَيْرِهَا**»، وفي رواية: «**فَإِنَّ الْوَحْيَ لَمْ يَأْتِنِي وَأَنَا فِي ثَوْبِ امْرَأَةٍ إِلاّ عَائِشَةَ**» فقالت: أتوب إلى الله من أذاك، يا رسول الله. فالنبي ﷺ لما رأى شدة الغيرة بنسائه في أمر لا يتعلق بالعدل بين النساء، حتى حصل له أذية من ذلك وتطاول على أحب النساء إليه، أنكر على أم سلمة رضي الله عنها التي تحدثت عنهن، وبين فضل عائشة رضي الله عنها دفاعًا عنها، وجاء بيان هذا الفضل بأسلوب القصر ليؤكد تفردها بما لم يبلغنه من فضل، ولم يذكر كل فضائلها وإنما ذكر الفضيلة التي تلائم ما أنكرنه عليه، فإذا كان الناس يأتونه بالهدايا في يوم عائشة، فإن الوحي وهو أعظم لم يأته وهو في لحاف امرأة غير عائشة، وجاء القصر بأسلوب الاستثناء من النفي لكونه في مقام إنكار، والله أعلم.

ومن الأحاديث التي جاءت بهذا الطريق من القصر في مقام الإنكار حديث ابن اللُّتْبية في تحذير العمال من أخذ الهدايا، وقد سبق[٣]، وفيه أن النبي ﷺ أنكر عليه، ثم خطب فكان مما قاله: «وَاللهِ، **لا يَأْخُذُ أَحَدٌ مِنْكُمْ شَيْئًا بِغَيْرِ حَقِّهِ إِلاّ لَقِيَ اللهَ يَحْمِلُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**».

---

(١) المرجع السابق.

(٢) ينظر ص (٤٢٧) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (١٩٢) من هذا البحث.

وحديث سلمة بن الأكوع t أن رجلاً أكل عند رسول الله r بشماله، فقال: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قال: لا أستطيع. قال: «لا اسْتَطَعْتَ، **مَا مَنَعَهُ إِلاّ الْكِبْرُ**» فما رفعها إلى فيه(١).

ويأتي أسلوب القصر بهذا الطريق في مقام يقتضي تأنيس المخاطب وتطييب قلبه، وهو مقام يحتاج إلى قوة تأكيد وتقرير، ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري t قال: خطب النبي r فقال: «إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ» فبكى أبو بكر الصديق t ، فقلت في نفسي: ما يبكي هذا الشيخ، إن يكن الله خير عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله! فكان رسول الله r هو العبد، وكان أبو بكر أعلمنا، قال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لا تَبْكِ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ، **لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاّ سُدَّ إِلاّ بَابُ أَبِي بَكْرٍ**» وفي رواية: «**لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلاّ خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ**»(٢)، فقصر النبي r فتح الباب على باب أبي بكر t بهذا الأسلوب جاء في مقام يطيب فيه نفس أبي بكر حينما أدرك قرب وفاته r فبكى، وفي الرواية الأولى إن كانت هي المحفوظة مزيد تأكيد في القصر، حيث جاء الاستثناء من استثناء، فيمكن أن يقول النبي r : لا يبقين باب إلا سد إلا باب أبي بكر، لكنه جاء بتلك الصيغة، ليعطي مزيدًا من التأكيد بتفرد باب أبي بكر t ، والله أعلم.

ومن ذلك حديث سعد بن أبي وقاص t قال: استأذن عمر على رسول الله r ، وعنده نساء من قريش، يكلمنه ويستكثرنه عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب، فأذن له رسول الله r ، ورسول الله r يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنك، يا رسول الله. قال: «عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلاءِ اللاّتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الْحِجَابَ» قال عمر: فأنت يا رسول الله، كنت أحق أن يهبن. ثم قال: أي عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله r . قلن: نعم، أنت أفظ وأغلظ من رسول الله r . قال

(١) أخرجه مسلم: (٢٠٢١).

(٢) أخرجه البخاري: (٤٦٦ و٣٦٥٤ و٣٩٠٤) ، ومسلم: (٢٣٨٢).

رسول الله r : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، **مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ قَطُّ سَالِكًا فَجًّا إِلاّ سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ**»[1] ولعل النبي r لما رأى النساء قد هبن عمر t ، وقال لهن ما ينبغي عليهن من تقدير النبي r ، ثم أجبنه بما يسوؤه؛ أراد أن يؤنسه ويطيب نفسه، فوصفه بما يلائم الحال، وكأن النبي r يريد أن يقول لعمر إذا كان هؤلاء النساء يهبنك فإن الشيطان أشد هيبة لك منهن لما أنت عليه من حق وجد وصلابة في الدين، وجاء الخبر بأسلوب القصر على طريقة الاستثناء من النفي لما يقتضيه مقام التطييب من زيادة في التقرير والتأكيد، قال الطيبي (٧٤٣هـ) في قوله r لعمر t : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ...»: ((يدل على استرضاء ليس بعده استرضاء إحمادًا منه r لفعاله كلها، لا سيما هذه الفعلة))[2]، والله أعلم.

وقد سبق في مسألة تأكيد الجملة الخبرية ذكر بعض الأحاديث التي يستشهد بها على القصر بهذا الطريق في مثل هذا المقام، منها حديث الصَّعْب بن جَثَّامة t حينما أهدى لرسول الله r حمارًا وحشيًا وهو محرم، فرد عليه، فلما رأى ما في وجهه قال: «**أَمَا إِنَّا لَمْ نَرُدَّهُ عَلَيْكَ إِلاّ أَنَّا حُرُمٌ**» قال النووي (٦٧٦هـ) في فوائد الحديث: ((فيه أنه يستحب لمن امتنع من قبول هدية ونحوها لعذر أن يعتذر بذلك إلى المهدي تطييبًا لقلبه))[3]، والنبي r أكد الخبر وأتى به بأسلوب القصر ليفيد المخاطب أن لا قصد له في الرد غير المقصور عليه، حتى لا يأتيه من الظنون غير ما أراد النبي r ، خاصة أنه قد تغير وجهه كراهية رده، والله أعلم.

ومثل هذا حديث جابر بن عبد الله t حينما جاء إلى النبي وكان على راحلته يصلي متوجهًا إلى غير القبلة، فسلم عليه مرتين فلم يرد، فوقع في قلبه ما الله أعلم به، ولم يكن يعلم أن النبي r يصلي، ثم سلم عليه فرد، وقال له: «**إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ إِلاّ أَنِّي كُنْتُ أُصَلِّي**»[4]، وهذا اعتذار من النبي r أراد به أن يطيب نفس جابر t بعد أن لم

(١) أخرجه البخاري: (٣٢٩٤ و٣٦٨٣) ، ومسلم: (٢٣٩٦).

(٢) الكاشف عن حقائق السنن: ٢٣١/١١.

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٠٧/٨، وينظر: فتح الباري: ٣٤/٤.

(٤) أخرجه البخاري: (١٢١٧) ، ومسلم: (٥٤٠) وهذا لفظه.

يرد عليه مرتين، وجاء بأسلوب القصر حتى يزيل ما في قلبه من الظنون غير ما قصده النبي r ، وجاء بطريق الاستثناء من النفي لشدة ما وجده جابر t في نفسه.

ومقام الاعتذار فيه تلطف ولين يناسبه طريق القصر بـ(إنما) لكن لما كان الوارد على المخاطبين في هذه المواقف شديدًا اقتضى أن يكون القصر بطريق فيه قوة، لينتزع كل ما يسيطر على النفس من ظنون، فجاء بالاستثناء من النفي، وفي رواية البخاري لحديث جابر t جاء القصر بطريق (إنما): «إِنَّمَا مَنَعَنِي أَنْ أَرُدَّ عَلَيْكَ أَنِّي كُنْتُ أُصَلِّي» فإن كانت هي المحفوظة فإن مقام الاعتذار عمومًا يقتضي القصر بـ(إنما) على ما سبق، وأما مسلم فروى القصر في روايتين للحديث كلاهما بطريق الاستثناء من النفي، وهو الذي يظهر أن المقام يقتضيه كما سبق، والله أعلم.

ومن ذلك قول النبي r : «إِنَّ حَقًّا عَلَى اللهِ أَنْ **لا يَرْفَعَ شَيْئًا مِنْ الدُّنْيَا إِلاّ وَضَعَهُ**» وفي رواية: «حَقٌّ عَلَى اللهِ أَنْ **لا يَرْتَفِعَ شَيْءٌ مِنْ الدُّنْيَا إِلاّ وَضَعَهُ**» وذلك حينما جاء أعرابي على قعود فسبق العضباء ناقة رسول الله r ، وكانت لا تسبق، فشق ذلك على الصحابة y ، حتى عرفه الرسول r فيهم، فقال ذلك القول[1].

ومما جاء فيه القصر بهذا الطريق في غير مقام الإنكار وتطييب النفس قوله r لأصحابه لما رجعوا من غزوة الأحزاب: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**»[2]، فقد قصر r أداء الصلاة على أن تكون في بني قريظة، وإنما جاء القصر بهذا الطريق ليضفي على الكلام مزيدًا من التأكيد والحسم والجزم لتمكين أهمية الأمر في نفوس الصحابة y ودفعهم إلى الالتزام بمضمونه، والاستعجال إلى الخروج لغزو بني قريضة، خاصة أنهم فرغوا الآن من غزوة الأحزاب، فيحتاجون إلى الراحة من عنائها ومشقتها، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قال ابن إسحاق: لما انصرف النبي r من الخندق راجعًا إلى المدينة أتاه جبريل الظهر، فقال: إن الله يأمرك أن تسير إلى بني قريظة، فأمر بلالاً فأذن في الناس: من كان سامعًا مطيعًا فلا يصلين العصر إلا في بني قريظة. وكذلك أخرجه الطبراني والبيهقي في الدلائل بإسناد صحيح إلى الزهري، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن عمه

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٨٧٢ و٦٥٠١).

(٢) أخرجه البخاري: (٩٤٦) ، ومسلم: (١٧٧٠).

عبيد الله بن كعب أن رسول الله r لما رجع من طلب الأحزاب وجمع عليه اللأمة، واغتسل، واستجمر، تبدى له جبريل فقال: عَذِيرك من مُحارب، فوثب فزعًا، فعزم على الناس أن لا يصلوا العصر حتى يأتوا بني قريظة))[١]. وقد حصل ما أراده النبي r فبادر الصحابة إلى الخروج، واتفقوا على أن مقصود النبي r من كلامه المبادرة والاستعجال، واختلفوا في منطوقه، فصلى بعضهم في الطريق لما خافوا فوات الوقت، حملاً للنهي على مقصوده وهو الحث على الإسراع والاستعجال، وحمل بعضهم النهي على حقيقته وقالوا: لا نصلي إلا حيث أمرنا رسول الله r ، و لم يعنف الرسول أحدًا منهم.

وقد يأتي الاستثناء من نفي بصيغة الاستفهام، ومنه قول النبي r لسعد بن أبي وقاص t لما رأى سعد t أن له فضلاً على من دونه: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إلا بِضُعَفَائِكُمْ**».

وقد سبق الحديث[٢]، وبينت أن الاستفهام فيه معاني التقرير والإنكار الإبطالي، والمقام مقام إنكار على المخاطب الذي صدر عنه ما يُظن أنه احتقار للمقصور عليه وغفلة عن أهميته، وأن النصر لا يكون إلا بالشجاعة وكثرة المال، فقوبل ذلك بقصر يؤكد خلاف ما يظنه المخاطب، فيعلي من شأن المقصور عليه، ويبين أن الأسباب الأخرى متوقفة عليه، ولذا جاء القصر في هذا الموقف بطريق الاستثناء من النفي المفهوم من الاستفهام، وجاء هذا القصر على النوع المسمى بقصر القلب؛ لما فيه من قلب وتبديل لحكم المخاطب كله بغيره، مبالغة في التأكيد على أهمية شأن الحكم الذي تضمنته جملة القصر، وحضًا للمخاطب على الاتصاف بالتواضع، يقول الدكتور صَبّاح دراز في القصر بالاستفهام: ((القصر به له مذاق خاص، ومقام معلوم، لأنه يشرك المتلقي في الوصول على الحكم أو المعنى تحقيقًا للغرض بإثارة طاقاته، ويحفزه على التأمل والتذوق وصولاً إلى إقناع مؤثر بحق واضح في نفسه))[٣].

---

(١) فتح الباري: ٧/٤٠٨.

(٢) ينظر ص (١٤١) من هذا البحث.

(٣) أساليب القصر في القرآن الكريم: ١٥٥، وينظر: علم المعاني، لفيود: ٢/٣٦، وبناء الجملة في الحديث النبوي: ٣٩٣.

((وهكذا تمضي مع النفي والاستثناء، ولا تلقاك هذه الأداة إلا حيث تلقاك النـــبرة العالية والنغمة الحاسمة والتعبير الشديد))[١] ((وهذا هو رأس الأمر في هذا الطريق، فلا يـــأتي إلا في المعنى الذي يحتاج إلى فضل تقرير وتوكيد))[٢].

٣- إنما.

القصر بطريق (إنما) يستعمل في الأمور الظاهرة المعلومة التي من شأنها أن لا تنكر ولا تجهل، أو فيما يدعى ظهوره ولا يصح مثله أن ينكر أو يجهل، ويذكر البلاغيون أن الأصـــل فيه أن يكون ما استعمل له مما يعلمه المخاطب ولا ينكره، وإذا جاء في أمر مجهول فلتتريلـــه مترلة المعلوم لادعاء المتكلم ظهوره، قال عبد القاهر الجرجـــاني (٤٧١هـــــ): ((اعلـــم أن موضوع (إنما) على أن تجيء لخبر لا يجهله المخاطب، ولا يدفع صحته، أو لما يـــترل هـــذه المترلة))[٣].

قال الدكتور محمد أبو موسى: ((والذي ذكره البلاغيون في (إنما) يكاد يرجـــع في جوهره إلى محور واحد، هو أن النفي فيها نفي متضمن مخبوء وخافت، فليس له من الجهارة ومن القوة ما للنفي في (ما) و(إلا)... وترتب على ذلك أيضًا أن المعاني التي تدخل عليهـــا (إنما) معان مأنوسة قريبة من النفوس، فلا تدخل على الحقائق الغريبة والأفكار البعيدة، هذا هو الأصل فيها، تقول: إنما هو أخوك، وإنما هو صاحبك، وإنما يأكل الـــذئب مـــن الغـــنم القاصية، وإنما يعجل من يخشى الفوت، وهكذا أفكارًا قريبة لينة، وهذا بخلاف (ما) و(إلا) التي تسمع لها قعقعة، وتجد لها حدة، ولذلك لا تصاغ بها إلا المعاني النافرة والحقائق النادرة، التي من شأن النفوس أن تنكرها، وتقيم دونها الأسوار، ومن هنا رأيناها كأنها حراب يفـــتح بها المتكلم أبواب القلوب. أما (إنما) فهي كما قلنا أداة رقيقة هامسة، لا تترعج النفوس لمـــا دخلت عليه، ولا ترفض ما جاء في وعائها))[٤].

---

(١) دلالات التراكيب: ١٠٥.

(٢) المرجع السابق: ١٠٤.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٣٠، وينظر: ٣٥١، وشروح التلخيص: ٢/٢١٤ و٢١٩-٢٢١، والبلاغـــة العاليـــة في علـــم المعاني: ٥٤، ودلالات التراكيب: ١٣٨، وأساليب القصر في القرآن الكريم: ٢١٨، وعلم المعاني، لفيود: ٢/٤٢ و٦٨.

(٤) دلالات التراكيب: ١٤٧-١٤٨.

ويرى عبد القاهر أن (إنما) تستعمل للرد على من يظن أو يعتقد خلاف ما أُثبت بها، وهو قصر القلب، قال: ((إذا قلت: إنما جاءني زيد. لم يكن غرضك أن تنفي أن يكون قد جاء مع زيد غيره، ولكن أن تنفي أن يكون المجيء الذي قلت إنه كان منه كان من عمرو. وكذلك تكون الشبهة مرتفعة في أن ليس هاهنا جائيان، وأن ليس إلا جاءٍ واحد، وإنما تكون الشبهة في أن ذلك الجائي زيد أم عمرو. فإذا قلت: إنما جاءني زيد، حققت الأمر في أنه زيد. وكذلك لا تقول: إنما جاءني زيد، حتى يكون قد بلغ المخاطب أن قد جاءك جاءٍ، ولكنه ظن أنه عمرو مثلاً، فأعلمته أنه زيد.

فإن قلت: فإنه قد يصح أن تقول: إنما جاءني من بين القوم زيد وحده، وإنما أتاني من جملتهم عمرو فقط. فإن ذلك شيء كالتكلف، والكلام هو الأول. ثم الاعتبار به إذا أطلق فلم يقيد بوحده وما في معناه. ومعلوم أنك إذا قلت: إنما جاءني زيد، ولم تزد على ذلك أنه لا يسبق إلى القلب من المعنى إلا ما قدمنا شرحه، من أنك أردت النص على زيد أنه الجائي، وأن تبطل ظن المخاطب أن المجيء لم يكن منه، ولكن كان من عمرو))[(١)].

والبلاغيون من بعده يقررون أن (إنما) تأتي في صور القصر كلها الحقيقية والإضافية، وعلى ذلك جاءت الشواهد البليغة من كلام الله U وغيره[(٢)]، إلا أن ما ذكره عبد القاهر كثير وغالب، على ما قرره الدكتور صبَّاح دراز في دراسته عن أساليب القصر في القرآن الكريم، قال بعد أن بين أن (إنما) تأتي في صور القصر: ((كثر مجيئها في قصر القلب... واستعمال (إنما) غالبًا وكثيرًا في قصر القلب شيء لاحظناه من خلال ما قدمنا من أساليب قرآنية، وما لم نقدم من شواهد، وهو ما يسبق أيضًا -بادئ الرأي- إلى الخاطر))[(٣)].

وقد جاء القصر بـ(إنما) في الخطاب النبوي على ما ذكر البلاغيون في المعاني الظاهرة الواضحة التي من شأنها أن لا تجهل ولا تنكر أو لا ينبغي أن تجهل وتنكر، ويأتي غالبًا في حوار هادئ، وقول لين، لتصحيح ظن أو خطأ حاصل أو متوقع، ومن ذلك حديث رافع بن خديج t قال: قدم نبي الله r المدينة وهم يَأْبِرون النخل -يقولون: يلقحون

(١) دلائل الإعجاز: ٣٣٦.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٩١، وشروح التلخيص: ٢/١٩٣، ودلالات التراكيب: ١٣٨-١٤١.

(٣) أساليب القصر في القرآن الكريم: ٢١٦.

النخل- فقال: «مَا تَصْنَعُونَ؟!» قالوا: كنا نصنعه، قال: «لَعَلَّكُمْ لَوْ لَمْ تَفْعَلُوا كَانَ خَيْـرًا» فتركوه، فنَفَضَت، أو فنَقَصَت، فذكروا ذلك له، فقال: «**إِنَّمَا** أَنَا بَشَرٌ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَـيْءٍ مِنْ دِينِكُمْ فَخُذُوا بِهِ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ رَأْيٍ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ»(١).

والنبي r في هذا الموقف يخاطب أصحابه t ، وكونه موصوفًا بالبشرية خبر معلوم لهم لا يجهلونه، لكنه جاء بأسلوب القصر تأكيدًا له، لكونهم حصل لهم اعتقاد بأن اقتـراح النبي r بترك تلقيح النخل هو من الوحي، وليس من قبيل الرأي البشري، فصحح النبي r اعتقادهم، وجاء القصر بـ(إنما) لكون الخبر مما يعلم ولا ينكر، ولأن المقام مقـام اعتـذار إليهم فيحتاج إلى خطاب هادئ يلائمه القصر بـ(إنما)، وقد كرر النبي r القصر في ختام الحديث تأكيدًا للاعتذار وبيان حقيقة الأمر، وجاءت جملة القصر اسمية لتشعر بمزيـد مـن التأكيد على ثبوت البشرية له r ، والله أعلم.

وقصر النبي r نفسه على صفة البشرية في مثل هذا المقام جاء في أكثر من موقـف ليعتذر النبي r عما حصل منها، ويبين سبب وقوعه في الأمر الذي قد يظن الصحابة y أنه من الوحي والتشريع، ومن ذلك حديث ابن مسعود t أن النبي r صلى فزاد أو نقـص، فلما سلم قيل له: يا رسول الله، أحدث في الصلاة شيء؟ قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قالوا: صـليت كذا وكذا، فثنى رجليه، واستقبل القبلة، وسجد سجدتين، ثم سلم، فلما أقبل علينا بوجهـه قال: «إِنَّهُ لَوْ حَدَثَ فِي الصَّلاةِ شَيْءٌ لَنَبَّأْتُكُمْ بِهِ، وَلَكِنْ **إِنَّمَا** أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَـى كَمَـا تَنْسَوْنَ، فَإِذَا نَسِيتُ فَذَكِّرُونِي» الحديث(٢)، وفي رواية عند مسلم أن النبي r صلى خمسًا، فلما انفتل توشوش القوم بينهم، فقال: «مَا شَأْنُكُمْ؟» قالوا: يا رسول الله، هـل زيـد في الصلاة؟ قال: «لا» قالوا: فإنك قد صليت خمسًا، فانفتل، ثم سجد سجدتين، ثم سـلم، ثم قال: «**إِنَّمَا** أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ، أَنْسَى كَمَا تَنْسَوْنَ»(٣)، وأول ما ورد على الصحابة y حينمـا زاد النبي r في الصلاة أو نقص أن الصلاة قد حدث فيها تغيير، فلما تبينوا أنه لم يحـدث

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٣٦٢). ومعنى نَفَضَت: أسقطت ثمرها، وينظر: شرح صحيح مسلم: ١١٨/١٥.
(٢) أخرجه البخاري: (٤٠١) ، ومسلم: (٥٧٢).
(٣) أخرج الرواية مسلم: (٥٧٣).

فيها شيء أعلموا النبي r بما حدث منه، ولعلهم حصل منهم تعجب لوقوع السهو منه r ، فقصر النبي r نفسه على صفة البشرية التي من عوارضها النسيان ليبين لهم أن ما فعله خطأ بشري وليس وحيًا إلهيًا كما قد يظنون، ولما كان الخبر من الأمور الظاهر المعلومة التي لا تنكر، وكان المقام فيه اعتذار وتلطف، اقتضى الحال أن يكون القصر بـ(إنما)، والله أعلم.

ومما جاء فيه القصر بـ(إنما) في مقام يكون التنبيه فيه والتعليم للمخاطب هادئًا لطيفًا حديث عدي بن حاتم t قال: لما نزلت ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنْ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] عمدت إلى عقال أسود وإلى عقال أبيض، فجعلتهما تحت وسادتي، فجعلت أنظر في الليل فلا يستبين لي، فغدوت على رسول الله r ، فذكرت له ذلك، فقال: «**إِنَّمَا** ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»(١)، فالمخاطب ظن أن الخيطين في الآية هما حبلان أسود وأبيض، ويتبينهما المرء من الوسادة، فأراد النبي r أن يبين له أن الصواب ليس فيما ظنه، وإنما فيما أثبته له من سواد الليل وبياض النهار، والمقام مقام تعليم هادئ، لا مقام إنكار ومدافعة، ولذا جاء بأسلوب القصر بـ(إنما) التي يغلب مجيئها في قصر القلب فيما هو ظاهر ولا ينكره المخاطب ولا يدافعه ويخاصم فيه، وقد تلطف النبي r مع عدي t ومازحه فقال له في الرواية الأخرى: «إِنَّكَ لَعَرِيضُ الْقَفَا»(٢)، وفي رواية: «إِنَّ وِسَادَكَ إِذًا لَعَرِيضٌ؛ أَنْ كَانَ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ تَحْتَ وِسَادَتِكَ»(٣)، والله أعلم.

ومقام التعليم من المقامات الهادئة التي يسلك فيها المتكلم لين القول وهينه والتلطف مع المتعلم، ومما جاء في ذلك حديث سهل بن سعد t أن النبي r لما صنع له المنبر قام عليه في صلاة، فكبر، وكبر الناس وراءه وهو على المنبر، ثم ركع وهو عليه، ثم رفع، ثم نزل القهقرى حتى سجد في أصل المنبر، ثم عاد، فلما فرغ من آخر صلاته أقبل على الناس فقال: «أَيُّهَا النَّاسُ، **إِنَّمَا** صَنَعْتُ هَذَا لِتَأْتَمُّوا، وَلِتَعَلَّمُوا صَلاتِي»(٤)، والنبي r في هذا الموقف قد فعل ما لم يعتده الصحابة y ، وسيكون فعله مثار تساؤل عندهم، ولذا جاء الخبر مؤكدًا

---

(١) أخرجه البخاري: (١٩١٦) ، ومسلم: (١٠٩٠).

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٤٥١٠).

(٣) أخرج الرواية البخاري: (٤٥٠٩) وهذا لفظه، ومسلم: (١٠٩٠).

(٤) أخرجه البخاري: (٣٧٧ و٩١٧) وهذا لفظه، ومسلم: (٥٤٤).

بالقصر لبيان سبب فعله وإزالة ما قد ينشأ في أذهانهم من تساؤل وظن، قال ابـــن حجـــر (٨٥٢هـــ) في فوائد الحديث: ((يستفاد منه أن من فعل شيئًا يخالف العادة أن يبين حكمته لأصحابه))[١]، ولما كان المقام مقام تعليم مع من لا ينكر القول ولا يخاصم فيه جاء القصـــر بـــ(إنما)، والله أعلم.

ومن المقامات التي جاء فيها القصر بـــ(إنما) مقام الشفاعة كما في حديث ابن عباس t أن زوج بريرة كان عبدًا يقال له: مغيث، كأني أنظر إليه يطوف خلفها يبكي، ودموعه تسيل على لحيته، فقال النبي r لعباس: «أَلا تَعْجَبُ مِنْ حُبِّ مُغِيثٍ بَرِيرَةَ، وَمِنْ بُغْضِ بَرِيرَةَ مُغِيثًا» فقال النبي r : «لَوْ رَاجَعْتِهِ» قالت: يا رسول الله، تأمرني؟. قال: «**إِنَّمَا** أَنَا أَشْـــفَعُ» قالت: لا حاجة لي فيه[٢]، وإنما قصر النبي r نفسه على صفة الشفاعة لأن بريرة فهمت أن قول النبي r يحتمل الأمر والإيجاب، ولذا سألت النبي r عن حقيقة قوله، فأجابها بما ينفي الظن ويثبت الصواب بأسلوب القصر توكيدًا للقول، لما ظهر عليها من التـــردد في حقيقـــة الأمر، ولعل النبي آثر القصر بـــ(إنما) لكون الخطاب مع أنثى وهي مولاة في بيته، ومثلـــها يتلطف معها، وهي ممن لا ينكر الخبر ولا يدافعه، والمقام مقام شفاعة يقتضي قولاً لينًا هينًا، والله أعلم.

وقد تأتي (إنما) في تهوين الأمر على المخاطب وتقليله، كما في حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: جاءت امرأة إلى رسول الله r فقالت: يا رسول الله، إن ابنتي توفي عنـــها زوجها، وقد اشتكت عينها، أفتكحلها؟ فقال رسول الله r : «لا» مرتين أو ثلاثًـــا، كـــل ذلك يقول: «لا» ثم قال رسول الله r : «**إِنَّمَا** هِيَ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْـــرًا، وَقَـــدْ كَانَـــتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ»[٣]، فقصر النبي r المدة على أربعـــة

(١) فتح الباري: ٢/٤٠٠.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٢٨٣).

(٣) أخرجه البخاري: (٥٣٣٧) ، ومسلم: (١٤٨٩). وذكر البخاري عن حميد -أحد رواة الحديث- أنه قال لزينب -راوية الحديث عن أم سلمة-: وما ترمي بالبعرة على رأس الحول؟ فقالت زينب: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجهـــا دخلت حِفْشًا، ولبست شر ثيابها، ولم تمس طيبًا حتى تمر بها سنة، ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طائر، فتفـــتض بـــه، فقلما تفتض بشيء إلا مات، ثم تخرج فتعطى بعرة فترمي، ثم تراجع بعد ما شاءت من طيب أو غيره. وذكر أن مالكًا سئل: ما تفتض به؟ قال: تمسح به جلدها.

أشهر وعشر يراد به تقليل المدة والتهوين على المرأة بعد أن كانت في الجاهلية تمكث حــولاً كاملاً بشر حالة، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قال ابن دقيق العيد: فيه إشارة إلى تقليــل المدة بالنسبة لما كان قبل ذلك، وتهوين الصبر عليها، ولهذا قال بعده : «وَقَدْ كَانَتْ إِحْدَاكُنَّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَرْمِي بِالْبَعْرَةِ عَلَى رَأْسِ الْحَوْلِ»))[(١)]، والله أعلم.

وقد تأتي في مقام الإنكار في الأمر الظاهر كما في حديث عائشة رضي الله عنها أنها أرادت أن تشتري بريرة رضي الله عنها لتعتقها، فأبى مواليها إلا أن يكــون لهــم الــولاء، فأخبرت النبي r ، فقال لها: «خُذِيهَا، وَاشْتَرِطِي لَهُمْ الْوَلاءَ، فَإِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ» ثم قام رسول الله r في الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ. مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ كَــانَ مِائَةَ شَرْطٍ، قَضَاءُ اللهِ أَحَقُّ، وَشَرْطُ اللهِ أَوْثَقُ، **وَإِنَّمَا** الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ»[(٢)]، والقصر في قولــه r : «إِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ» حيث قصر الولاء على من أعتق، والإنكار حصل في الخطبة، ويلحظ أن الإنكار فيه حدة ونبرة عالية، ومع ذلك جاء القصر في ختامها بطريق (إنما) ولعل ذلك لكون الإنكار في أمر معلوم ظاهر بين لا يحتاج إلى قوة توكيد، وهذا فيه مزيد تقريــع للمنكر عليه، إذ كيف يشترط شرطًا معلومًا فساده؟! قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وقــال الخطابي: وجه هذا الحديث أن الولاء لما كان كلحمة النسب، والإنسان إذا ولد له ولد ثبت له نسبه، ولا ينتقل نسبه عنه ولو نسب إلى غيره، فكذلك إذا أعتق عبدًا ثبت له ولاؤه، ولو أراد نقل ولائه عنه أو أذن في نقله عنه لم ينتقل، فلم يعبأ باشتراطهم الولاء، وقيل: اشترطي ودعيهم يشترطون ماشاءوا، أو نحو ذلك، لأن ذلك غير قادح في العقد، بل هو بمنزلة اللغو من الكلام، وأخر إعلامهم بذلك ليكون رده وإبطاله قولاً شهيرًا، يخطب به علــى المنــبر ظاهرًا، إذ هو أبلغ في النكير، وأوكد في التعبير))[(٣)]، والله اعلم.

---

(١) فتح الباري: ٤٨٩/٩.

(٢) أخرجه البخاري: (٢١٦٨) ، ومسلم: (١٥٠٤).

(٣) فتح الباري: ١٩٢/٥.

وجاء القصر بـ(إنما) في مقام الإنكار مع مخاطب يقتضي حاله الرفق معه في الخطاب كالأعراب، ومن ذلك قول النبي r للأعرابي الذي بال في المسجد: «إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ، **إِنَّمَا** هِيَ لِذِكْرِ اللهِ U، وَالصَّلاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ» وقوله r للأعرابي الآخر الذي شمت العاطس وهو يصلي: «إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، **إِنَّمَا** هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ» وقد قال الأعرابي t : فلما صلى رسول الله r فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، وقد سبق ذكر الحديثين[١]، فالنبي r في الحديثين لم ينكر على الأعرابيين صراحة فنهاهما أو أمرهما، وذكرت من قبل أن الطبيعة الأعرابية تقتضي مثل ذلك[٢]، وإنما أخبر المخاطب في الحديث الأول أن المساجد لا تصلح للقذر، وقصرها على صفات الذكر والصلاة وقراءة القرآن، وفي الحديث الثاني أخبره أن الصلاة لا يصلح فيها كلام الناس، وقصرها على التسبيح والتكبير وقراءة القرآن، وجاء الخبر بأسلوب القصر لأن حال المخاطب تدل على أنه لا يرى بأسًا بما فعله من خطأ، فأريد أن ينفى ما اعتقده، ويثبت خلافه بأسلوب مؤكد لا يقع فيه احتمال، وجاء القصر بـ(إنما) لكون الأمر الذي وقع فيه المخاطب مما ينبغي أن لا يكون مجهولاً لديه، فالعبادات وأماكنها لها من الاحترام والتعظيم ما هو بين ظاهر، ثم إن المخاطب كما سبق ممن يترفق معه في الخطاب، والله أعلم.

وهكذا نجد أن (إنما) تأتي في المعاني الظاهرة الواضحة والمواقف الهادئة التي تقتضي لينًا في القول ورقة في العتاب، ولو كان المقام مقام إنكار فإنه يأتي في سياق هادئ ونبرة خفيضة تنبيهًا للمخاطب إلى أن ما وقع فيه مما هو ظاهر بين لا ينبغي جهله ولا الإنكار فيه.

٤ - التقديم.

القصر بـ(التقديم) غرض من أغراضه، وليس مختصًا به، وقد سبق في مبحث التقديم أنه يأتي في عدة أغراض منها القصر، ولذا فإن البلاغيين يذكرون أن دلالة (التقديم) على القصر ليست دلالة وضعية، كطرق القصر السابقة، وإنما هي دلالة ذوقية سياقية، تفهم من

---

(١) ينظر ص (٤٢، ٧٨، ٧٩) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (٧٨) من هذا البحث.

سياق الكلام وقرائن الأحوال، كما أشير إليه في أول المبحث[١]، ويرى الدكتور صبّاح دراز أنه ((أوسع الطرق انتشارًا وشيوعًا في القرآن الكريم؛ لتعدد مناحيه كثرة فنونه وألوانه، فقد كثر في أساليب الإثبات والنفي والاستفهام، كما تعلق بالمسند إليه والمسند والمتعلقات، تلاؤمًا معجزًا مع المقامات وما تصوره من معاني عقلية أو وجدانية))[٢].

وقد سبق في مبحث التقديم ذكر جملة من الأحاديث التي يفيد التقديم فيها الاختصاص، وهو القصر[٣]، ومنها حديث اعتكاف النبي r واعتكاف أزواجه وقوله لهن منكرًا: «**آلْبِرَّ تُرِدْنَ؟**» وفي رواية: «آلْبِرَّ تُرَوْنَ بِهِنَّ؟». وذكرت أن تقديم المفعول به على عامله يفيد غالبًا القصر، والمراد هنا نفي القصر.

ومن ذلك حديث عبد الله بن عمرو t أن رجلاً جاء يستأذن الرسول r في الجهاد، فقال له: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟» قال: نعم. قال: «**فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ**» وذكرت أن تقديم الجار والمجرور (فيهما) على العامل (جاهد) لإفادة القصر، أي: ليكن جهادك مختصًا بهما دون غيرهما.

ومن ذلك حديث أسامة بن زيد t أن ابنًا لزينب رضي الله عنها ابنة الرسول r أرسلت إليه: إن ابنًا لي قبض فأتنا، فأرسل يقرئ السلام، ويقول: «إِنَّ **لِلَّهِ مَا أَخَذَ**، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»، وذكرت أن في الحديث تقديمًا للمسند (لله) على المسند إليه (ما) لإفادة القصر، وفي هذا تسلية للمخاطبة وتخفيف لمصيبتها، والله أعلم.

ومن الشواهد أيضًا حديث أبي موسى الأشعري t قال: إني أتيت النبي r في نفر من الأشعريين نستحمله، فقال: «وَاللهِ لا أَحْمِلُكُمْ، وَمَا عِنْدِي مَا أَحْمِلُكُمْ» وأُتي رسول الله r بنَهْب إبل، فسأل عنا فقال: «أَيْنَ النَّفَرُ الأَشْعَرِيُّونَ؟» فأمر لنا بخمس ذَوْد غُرّ الذُّرَى، فلما انطلقنا قلنا: ما صنعنا! لا يبارك لنا، فرجعنا إليه فقلنا: إنا سألناك أن تحملنا فحلفت أن

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٩٢، وشروح التلخيص: ٢/٢٠٣.

(٢) أساليب القصر في القرآن الكريم: ٢٥٥.

(٣) ينظر ص (٤٥٥) من هذا البحث.

لا تحملنا، أفنسيت؟ قال: «**لَسْتُ أَنَا حَمَلْتُكُمْ**، وَلَكِنَّ اللهَ حَمَلَكُمْ، وَإِنِّي وَاللهِ، إِنْ شَاءَ اللهُ، لا أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا إِلاَّ أَتَيْتُ الَّذِي هُوَ خَيْرٌ وَتَحَلَّلْتُهَا» وفي رواية: «**مَا أَنَا** حَمَلْتُكُمْ، بَلِ اللهُ حَمَلَكُمْ»[(١)].

وفي هذا الحديث اجتمع طريقان للقصر: أولاهما: تقديم المسند إليه المنفي على المسند الفعلي، في قوله r: «لَسْتُ أَنَا حَمَلْتُكُمْ» «مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ». وقد ذكر البلاغيون أن المسند إليه إذا ولي حرف نفي وقُدم على المسند الفعلي يفيد تخصيص نفي الفعل بالمسند إليه، وهذا هو الغالب لا على الإطلاق[(٢)]، واستشهد السبكي (٧٧٣هـ) بهذا الحديث[(٣)]، وقد ورد في القرآن من مثل قول الله U: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ $ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٦-٣٧]، فقوله U: ﴿وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا﴾ فيه قصر عدم الخروج من النار على الكفار دون غيرهم من عصاة المؤمنين، والله أعلم.

وقول النبي r: «لَسْتُ أَنَا حَمَلْتُكُمْ» «مَا أَنَا حَمَلْتُكُمْ» فيه قصر عدم الحمل على نفسه وإثباته لغيره، ولعل النبي r أتى بالقصر هنا لشدة ما ورد على الأشعريين من تساؤل وتعجب؛ إذ كيف يحملهم النبي r وقد أقسم أن لا يحملهم؟! فبين لهم النبي r أن الله U هو الذي يسر ما يحملهم عليه، أو أنه سبحانه أوحى إليه أن يحملهم بعد أن تيسر له ما يحملهم عليه[(٤)].

وإذا كان هذا الأسلوب يفيد إثبات الفعل لفاعل غير المسند إليه المنفي عنه الفعل، فإن الفاعل المثبت له الفعل جاء مصرحًا به في الطريق الآخر من طرق القصر في هذا الحديث، وهو العطف بـ(بل) في الرواية الأخرى: «بَلِ اللهُ حَمَلَكُمْ» وجاء القصر أيضًا

---

(١) أخرجه البخاري: (٣١٣٣ و٦٦٢٣)، ومسلم: (١٦٤٩).

(٢) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٢٤-١٢٦، وشروح التلخيص: ١/٣٩٥، وخصائص التراكيب: ٢٢٨-٢٣٣، وعلم المعاني، لفيود: ١/١٥٧.

(٣) ينظر: عروس الأفراح: ١/٤٠٠.

(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١١/١١٠.

بـــ(إنما) في رواية ثالثة قال فيها النبي r للأشعريين: «انْطَلِقُوا، فَإِنَّمَا حَمَلَكُمْ اللهُ»[1]، وفي رواية رابعة جاء القصر بضمير الفصل: «إِنَّ اللهَ هُوَ حَمَلَكُمْ»[2]، وهذه الروايات تؤكد أن المراد بتقديم المسند إليه هو القصر، والله أعلم.

ومن التقديم الذي يفيد القصر ما جاء في دعاء النبي r للمريض في الحديث الـــذي روته عائشة رضي الله عنها أن النبي r كان يرقي بهذه الرقية: «أَذْهِبْ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، **بِيَدِكَ الشِّفَاءُ**، لا كَاشِفَ لَهُ إِلا أَنْتَ»[3].

والشاهد هنا في قوله r: «بِيَدِكَ الشِّفَاءُ» حيث قدم المسند (بيدك) على المسند إليه (الشفاء) لإرادة قصر الشفاء على الله وحده دون غيره، فلا يملك الشفاء إلا هو، كما قـــال إبراهيم الخليل u: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [الشعراء: ٨٠]، ولذا أكد النبي r هذا القصر بقصر آخر أقوى منه، فقال: «لا كَاشِفَ لَهُ إِلا أَنْتَ». والمريض بحاجة شـــديدة إلى تذكيره بأن الشفاء من الله U وحده، لما يعتريه من الضعف والوهن في حال مرضه، حـــتى إن بعضهم يصل به الحال لأن يتعلق بالأسباب وينسى مسببها وخالقها U. وإفادة قصـــر المسند على المسند إليه من الأغراض التي ذكرها البلاغيون لتقديم المسند[4]، وورد له شواهد كثيرة في القرآن الكريم، منها قول الله U: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، قال ابن عاشور (١٣٩٣هـ): ((قُدم في كلتا الجملتين المسند على المسند إليه ليفيد قصر المسند إليه على المسند، أي دينكم مقصور على الكون بأنه لكم لا يتجاوزكم إلى الكون لي، وديني مقصور على الكون بأنه [لي] لا يتجاوزني إلى كونه لكم، أي لأنهم محقق عدم إســـلامهم، فالقصر قصر إفراد))[5].

ومن القصر بالتقديم حديث بريدة t أن النبي t صلى الصلوات يوم الفتح بوضوء واحد، ومسح على خفيه، فقال له عمر: لقد صنعت اليوم شيئًا لم تكـــن تصـــنعه! قـــال:

---

(١) أخرج الرواية البخاري: (٦٧٢١) ، ومسلم: (١٦٤٩)

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٥٥١٨).

(٣) أخرجه البخاري: (٥٦٧٥ و٥٧٤٣ و٥٧٤٤) ، ومسلم: (٢١٩١).

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٢١٩، وشروح التلخيص: ١٠٩/٢.

(٥) تفسير التحرير والتنوير: ٥٨٤/٣٠، وما بين المعقوفتين استدراك مني، ولعلها سقطت أثناء الطباعة.

«**عَمْدًا** صَنَعْتُهُ يَا عُمَرُ»[1]، فقوله r : «عَمْدًا» حال أو تمييز، وقدم لقصر الصنع عليه دون غيره مما يرد على المخاطب، كالنسيان مثلاً، وقد ذكر الطيبي (٧٤٣هـ) أن تقديم (عمدًا) في الحديث يفيد الاهتمام أو الاختصاص[2]، ولعل النبي r اختار أسلوب القصر لما ورد على المخاطب من شدة التعجب والتساؤل فيما صنعه r ، فأراد r تأكيد الخبر له ليزيل كل ما ورد عليه من تساؤل أو ظن يخالف صواب حاله، وجاء القصر بالتقديم للتعجيل ببيان الحال وزوال العجب، والله أعلم.

وبهذه الشواهد نتبين أن النبي r يختار أسلوب القصر وطرقه مراعاة لمقتضى حال المخاطب. وأسلوب القصر من أبرز الأساليب البلاغية التي يُراعى فيها حال المخاطب، ويظهر ذلك واضحًا في أنواع القصر الإضافي، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٧٧).

(٢) الكاشف عن حقائق السنن: ٢/٢٧.

المبحث السادس: الفصل والوصل.

- الفصل والوصل عند البلاغيين.

يعد أسلوب (الوصل والفصل) من الأساليب التي عني بها البلاغيون عناية فائقة لأهميته وعلو مترلته في البلاغة، حتى جعله عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) ((من أسرار البلاغة، ومما لا يتأتى لتمام الصواب فيه إلا الأعراب الخلص، وإلا قوم طبعوا على البلاغة، وأوتوا فنًا من المعرفة في ذوق الكلام، هم بها أفراد)) وقال: ((وقد بلغ من قوة الأمر في ذلك أنهم جعلوه حدًا للبلاغة، فقد جاء عن بعضهم أنه سئل عنها فقال: معرفة الفصل من الوصل. ذاك لغموضه ودقة مسلكه، وأنه لا يكمل لإحراز الفضيلة فيه أحد إلا كمل لسائر معاني البلاغة))(١).

---

(١) كلا النصين في دلائل الإعجاز: ٢٢٢. ولم أجد هذا القول الذي ذكره الجرجاني عن بعضهم منسوبًا إلى عالم معين من العرب، وقد نقل الجاحظ [البيان والتبيين: ٨٨/١] عمن حدثه من الكتّاب تعريفات الأمم للبلاغة، ومنها: ((قيل للفارسي: ما البلاغة؟ قال: معرفة الفصل من الوصل)). وذكر بعض البلاغيين والعلماء هذا التعريف كما ذكره الجاحظ منسوبًا إلى الفرس، وربما ذكره بعضهم بلا نسبة إليهم [ينظر: العقد الفريد: ٢٣٩/٢، وسر الفصاحة: ٥٦، وزهر الآداب: ١٦٠/١، والعمدة: ٢٤٤/١، والصناعتين: ٤٣٨، ومفتاح العلوم: ٢٥١، والإيضاح: ٤/٣]، ونسبه بعض البلاغيين وهمًا إلى أبي علي الفارسي [ينظر: عروس الأفراح: ٢/٣، وبلاغة العطف في القرآن الكريم: ١٣٤، وقضية الفصل والوصل بين المفردات: ٩]. على أن البلاغيين يستشهدون بهذا القول للدلالة على أهمية مبحث (الفصل والوصل) مع أن الذي يظهر لي أن مفهومه عند السابقين أوسع مما هو عند عبد القاهر ومن نحا نحوه، فلئن كان عبدالقاهر الجرجاني يقصر أهمية هذا المبحث على دراسة العطف بالواو بين الجمل، فإن السابقين يتناولون مصطلح (الفصل والوصل) في سياق التناسب بين المعاني والأفكار، وبين الأغراض من مدح وهجاء وغير ذلك، والوقوف عند المعاني التامة، ووصلها بما يناسبها، بغض النظر عن العطف أو عدمه. وصنيع أبي هلال العسكري يدل على ذلك، فقد عقد فصلاً (في ذكر المقاطع، والقول في الفصل والوصل) نقل فيه عن بعض أهل العلم والبلاغة أقوالاً في شأن الفصل والوصل يتبين منها سعة هذا المصطلح عندهم، ومما نقله قول أهل الفرس الذي ذكره عنهم الجاحظ، وذكر قول المأمون: البليغ من كان كلامه في مقدار حاجته، ولا يجيل الفكرة في اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ، ولا يكره المعاني على إنزالها في غير منازلها، ولا يتعمد الغريب الوحشي، ولا الساقط السوقي، فإن البلاغة إذا اعتزلتها المعرفة بمواضع الفصل والوصل كانت كاللآلئ بلا نظام. وقول أبي العباس السفاح لكاتبه: قف عند مقاطع الكلام وحدوده، وإيّاك أن تخلط المرعيّ بالهمل، ومن حلية البلاغة المعرفة بمواضع الفصل والوصل. وقول الأحنف بن قيس: ما رأيتُ رجلاً تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام، ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص t ، كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام، وأعطى حق المقام، وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً يحول

والوصل هو: العطف، والفصل: ترك العطف.

ونظرًا لأن هذا المبحث من المباحث المهمة الدقيقة التي لقيت عناية وتدقيقًا من كثير من البلاغيين الذين تابعوا القزويني (٧٣٩هـ) في دراسته له، وتوسعوا فيه وتشعبوا بما خولفوا فيه، فسأشير إلى بعض المسائل التي أبني من خلالها منهاجي في دراسة هذين الأسلوبين.

١- قصر كثير من البلاغيين عنايتهم في هذا المبحث على العطف بين الجمل التي لا محل لها من الإعراب، مع أنهم يمثلون أحيانًا بالتي لها محل، وعنوا أيضًا بالعطف بـ(الواو) دون غيره من حروف العطف، متابعين في ذلك صنيع شيخ البلاغيين عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) الذي قدم في دراسته لهذا المبحث بمقدمة للنظر في فائدة العطف بين المفردات والجمل، مبينًا أن العطف في المفردات والجمل التي لها محل من الإعراب أمره سهل، حيث يأتي لمجرد التشريك في الحكم الإعرابي، ووجه الحاجة إلى مجيء (الواو) ظاهر لا إشكال فيه، ولكن الذي يشكل ويحتاج إلى نظر وتدقيق العطف بين الجمل التي لا محل لها من الإعراب،

بينه وبين تبيعته من الألفاظ. وذكر أن أكثم بن صيفي إذا كاتب ملوك الجاهلية يقول لكتّابه: افصلوا بين كل معنىً منقضٍ، وصلوا إذا كان الكلام معجونًا بعضه ببعض. وأن الحرث بن أبي شمر الغسّاني يقول لكاتبه المرقش: إذا نزع بك الكلام إلى الابتداء بمعنىً غير ما أنت فيه فافصل بينه وبين تبيعته من الألفاظ، فإنك إن مذقت ألفاظك بغير ما يحسن أن تمذق به نفّرت القلوب عن وعيها، وملّته الأسماع، واستثقلته الرواة. وأن بزرجمهر قال: إذا مدحت رجلاً، وهجوت آخر، فاجعل بين القولين فصلاً حتى تعرف المدح من الهجاء، كما تفعل في كتبك إذا استأنفت القول، وأكملت ما سلف من اللفظ. وقول الحسن بن سهل لكاتبه الحرّاني: القول إذا استكمل آلته، واستمّ معناه فالفصل عنده. وينظر: كتاب الصناعتين: ٤٣٨.

ويدل على ذلك أيضًا أن ابن أبي الإصبع ذكر أن (الفصل والوصل) عند السابقين هو (براعة التخلص) فقد قال في باب براعة التخلص [تحرير التحبير: ٤٣٣، وينظر: بديع القرآن: ١٦٧]: ((وهو امتزاج آخر ما يقدم الشاعر على المدح من نسيب أو فخر أو وصف أو أدب أو زهد أو مجون أو غير ذلك بأول بيت من المدح. وقد يقع ذلك في بيتين متجاورين، وقد يقع في بيت واحد، وهذه وإن لم تكن طريقة المتقدمين في غالب أشعارهم، فإن المتأخرين قد لهجوا بها وأكثروا منها، وهي لعمري من المحاسن، **وهذا الباب قديم**، وهو من أجل أبواب المحاسن، **ويسمى معرفة الفصل من الوصل**. وقد ذهب أصحاب الإعجاز إلى أنه وجه الإعجاز، وهو دقيق في عين الغبي، خفي يخفى على غير الحذاق من ذوي النقد. وهو مبثوث في الكتاب العزيز من أوله إلى آخره، فإنك تقف من الكتاب العزيز على مواضع تجدها في الظاهر فصولاً متنافرة لا تعرف كيف تجمع بينها، فإذا أنعمت النظر وكنت ممن له دربة بهذه الصناعة، ظهر لك الجمع بينها)). وينظر: بلاغة العطف في القرآن الكريم: ١٣٣.

إذ ((لا سبيل لنا إلى أن ندعي أن (الواو) أشركت الثانية في إعراب قد وجب للأولى بوجه من الوجوه))[١]. وذكر ((أنه إنما يعرض الإشكال في (الواو) دون غيرها من حروف العطف، وذاك لأن تلك تفيد مع الإشراك معان))[٢].

((وهذا الذي ذكروه وإن كان لا يخلو من الصحة، إلا أننا لا نعدم وجوهًا دقيقة وأسرارًا خفية، نجدها كامنة وراء العطف بغير الواو، كما أننا لا نعدم وجوهًا أدق وأسرارًا أخفى تكمن وراء عطف المفردات والجمل التي لها محل من الإعراب))[٣]، ((ولو كان كل واضح متروكًا لكان المطالب بتركه في علوم العربية أمورًا كثيرة لوضوحها))[٤].

وقد رأى بعض البلاغيين أن (الوصل والفصل) يشمل العطف بين المفردات والعطف بين الجمل، ومن هذا صنيع الزملكاني (٦٥١هـ) في (التبيان) والعلوي (٧٤٩هـ) في (الطراز)، فالزملكاني عقد الفن العاشر في (الفصل والوصل) وجعل ((دعامته العظمى باب العطف)) وقسمه إلى ضربين: عطف مفرد على مفرد، وجملة على جملة، وبيّن ما فيهما من بلاغة[٥]، وهكذا صنع العلوي في موضع[٦]، وفي موضع آخر تناول (الفصل) تعريفًا وتطبيقًا من خلال الجملة، و(الوصل) من خلال المفردات والجمل، وقال: ((أما الفصل فهو في لسان علماء البيان عبارة عن ترك الواو العاطفة بين الجملتين... وأما الوصل فهو عطف الجملة على الجملة، والمفرد على مثله، بجامع ما))[٧]، وقال السبكي (٧٧٣هـ): ((لا يخفى أن الفصل والوصل يكونان بين المفردات كما يكونان بين الجمل))[٨]، وذكر في موضع آخر أن البلاغيين لم يتعرضوا لحكم (الفصل والوصل) في المفردات، وذكر تعليلاً لذلك، ثم قال: ((والذي ينبغي التعرض لذلك))[٩]، وتناول العطف بين المفردات، وعطف المفرد على الجملة

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٢٣.

(٢) المرجع السابق: ٢٢٤.

(٣) علم المعاني، لفيود: ٢/١٦٧.

(٤) قضية الفصل والوصل بين المفردات: ٢٧.

(٥) ينظر: التبيان في علم البيان، للزملكاني: ١٢٨.

(٦) ينظر: الطراز: ٢١٩.

(٧) المرجع السابق: ٥٤١ و٥٤٣.

(٨) عروس الأفراح: ٣/١٦.

(٩) المرجع السابق: ٣/١١٣.

وعكسه[1]. وتعقب الدسوقي تعريف القزويني (٧٣٩هـ) للفصل والوصل، فقال: ((ظاهر تعريفه للفصل والوصل أنهما لا يجريان في المفردات؛ وليس كذلك، بل الفصل والوصل كما يجريان في الجمل يجريان في المفردات، ولا يختصان بالجمل كما يوهمه كلام المصنف))[2].

وذهب إلى هذا القول بعض المحققين المعاصرين من علماء البلاغة، منهم الدكتور محمد أبو موسى، والدكتور بسيوني عبد الفتاح فيود، والدكتور محمد الصامل[3].

وعلى هذا القول سأجري في دراسة الخطاب النبوي الذي جاء فيه الفصل والوصل مراعاة لمقتضى حال المخاطب.

٢- يرى بعض البلاغيين أن الأصل في الكلام (الفصل) وأن (الوصل) عارض طارئ؛ لكون (الوصل) يفتقر إلى وجود حرف، وما يفتقر إلى زيادة يكون عرضيًا بالنسبة للذاتي الذي لا يفتقر، والعدم سابق للوجود[4].

وهذا تعليل منطقي يترع إلى الوجود والعدم من حيث هما، لا من حيث طبيعة كل شيء يتعلق بهما، فإن الأصل وجودًا أو عدمًا يختلف من شيء إلى شيء بحسب طبيعته وماهيته وخلقته التي خلقه الله عليها، فالأصل في الإنسان أن يكون ناطقًا لا صامتًا، والأصل في الكتاب أن يكون به علم مكتوب، وإلا لم يكن كتابًا، والأصل في البستان أن يكون مزروعًا، وهكذا ننظر إلى العدم والوجود بحسب طبيعة كل شيء.

وإذا تأملنا في نظم الكلام فإن الأصل فيه أن يكون بعضه مرتبطًا ببعض بأداة أو بعامل من عوامل الربط اللفظية أو المعنوية، ليكون كل معنى آخذًا بعناق أخيه، ويظهر أنه منه بسبب، لا منفك عنه كما يشعره عدم الربط، والعطف أحد هذه الأدوات التي تربط بين المعاني والجمل. قال الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ): ((أسلوب الكلام العربي غلب فيه أن يكون متصلاً بعضه ببعض بمعمولية العوامل والأدوات أو بالإتباع أو بالعطف، فلا تذكر

---

(١) المرجع السابق: ٣/١١٣-١١٦.

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر السعد: ٣/٣.

(٣) ينظر: دلالات التراكيب: ٢٦٩، وعلم المعاني: ٢/١٦٧، وقضية الفصل والوصل بين المفردات: ٢٩-٣١، وينظر: وينظر: بلاغة العطف في القرآن الكريم: ٩٧-١١٧.

(٤) ينظر: مختصر المعاني، ومواهب الفتاح، وحاشية الدسوقي على المختصر: ٣/٢ من شروح التلخيص.

جمل الكلام ولا كلماته تعدادًا إلا في المواقع التي يقصد فيها التعداد))[1]، وقال الدكتور مصطفى حميدة: ((يعد (العطف بالحرف) جانبًا مهمًا من جوانب دراسة التركيب العربي؛ لأن حسن الربط بين المعاني بالأدوات أساس مهم من أسس إحكام النظم))[2]، وقال: ((لقد تنبه النحاة المتقدمون إلى أن اللسان العربي لجأ إلى الأدوات لتلخيص المعاني طلبًا للإيجاز والاختصار، ومن هنا قامت في اللغة أدوات العطف والشرط والنفي والاستفهام والنداء والتأكيد وغيرها؛ لتلخيص معانيها على سبيل الإيجاز والاختصار، ومن هنا أيضًا كان التعليق بالأداة -وهو الربط- أساسًا مهمًا في فهم التركيب؛ لأن التركيب العربي يعتمد في معظم صوره على الأداة في تلخيص العلاقة بين أجزائه))[3]. وعلى هذا فإن (الوصل) هو الأصل في الكلام، و(الفصل) عدول عنه، والله أعلم.

٣- يشترط بعض البلاغيين لبلاغة العطف، سواء كان بالواو أو بغيرها، وسواء كان في الجمل أو في المفردات، أن توجد مناسبة بين المعطوف والمعطوف عليه، وهذه المناسبة تكون بالتماثل أو بالتضاد أو بالقرب من أحدها[4]. ويترتب على هذا الشرط أن المفردات أو الجمل إذا كان بينها مناسبة حسن العطف، وإذا لم يكن بينها مناسبة قبح العطف، وتعين الفصل.

وفي هذا الشرط نظر؛ لأن التناسب بين معاني الألفاظ أو الجمل أو بين الأغراض من سمات الكلام البليغ سواء استحسن العطف أم استحسن تركه، وليست المناسبة لازمة لتصحيح العطف، كما أن الفصل البلاغي ليس بمستحسن إذا فقدت المناسبة، ففقد المناسبة بفصل أو بوصل يخرج الكلام من ساحة البلاغة، قال الدكتور بسيوني فيود: ((المناسبة والتلاؤم والتآلف مطلوب بين المفردات وبين الجمل، سواء أعطفت أم اقترنت بدون عطف، فكما لا يجوز أن تقول: هو يكتب الشعر ويأكل السمك، فإنه يمتنع أيضًا قولك: هو يكتب الشعر يأكل السمك، بدون واو، وكذا يمتنع الجمع بين مرارة الفراق وكرم الممدوح بلا

---

(١) موجز البلاغة: ٢٤.

(٢) أساليب العطف في القرآن الكريم: ٣.

(٣) المرجع السابق: ٤٥.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٥١ و٢٧١، والإيضاح، ومختصر المعاني، ومواهب الفتاح، وحاشية الدسوقي: ٣/٨ من شروح التلخيص، وعروس الأفراح: ٣/٢١، وموجز البلاغة: ٢٥.

عطف. فلا وجه إذًا لما صنعه البلاغيون من قصرهم المناسبة على المفردات والجمل المعطوفة؛ لأن المناسبة بين المفردات أو الجمل مطلوبة عند اقترانها بالعطف أو بدون العطف))(١).

وقد عُدّ (التناسب بين المعاني) من أهم المقاييس البلاغية في نظم الكلام ونقده، يقول الدكتور حامد الربيعي: ((إن العرب قد أدركوا القيمة البلاغية للتناسب بين المعاني في النص الأدبي منذ القدم، فاتخذوه مقياسًا يراعونه على مستوى الإبداع، وعلى مستوى النقد، لـذا فقد أخذ على كثير من الشعراء تفريطهم فيه في بعض أشعارهم))(٢).

٤- غلب على تناول البلاغيين الذين تبعوا القزويني (٧٣٩هـ) في دراسته لأسلوبي (الوصل والفصل) جانب الفصاحة أكثر من النظر في المقامات والاعتبارات البلاغية.

ومن ذلك مثلاً الفصل لكمال الانقطاع حينما تختلف الجملتان خبرًا وإنشاءً لفظًا ومعنًى، قال عبد المتعال الصعيدي: ((هو لا يرجع إلى مقام يقتضيه حتى يصح أن يذكر في هذا العلم، وإنما يرجع إلى منع جمهور النحويين له، وقد أجاز سيبويه (١٨٠هـ) عطف الجملتين المختلفتين بالاستفهام والخبر))(٣)، والعطف بين الإنشاء والخبر وارد في كلام الله U، وقال ابن عاشور (١٣٩٣هـ): ((وهو كثير في الكلام البليغ))(٤).

ومن ذلك الفصل لكمال الانقطاع حينما تكون الجملة الثانية توكيدًا للأولى أو بدلاً أو عطف بيان، قال عبد المتعال الصعيدي: ((ترك العطف في هذا لا يرجع إلى مقام يقتضيه؛ وإنما يرجع إلى امتناع العطف في النحو بين التأكيد والمؤكَّد، والبدل والمبدل منه، والبيان والمبيَّن؛ لأن العطف يقتضي التغاير بين المعطوفين، والتأكيد عين المؤكد، وكذلك عطف البيان والبدل، ولا فرق في هذا بين العطف في الجمل والمفردات))(٥)، على أن العطف قد يأتي بين الشيء ونفسه سواء كان بلفظه أو بغير لفظه، أو بينه وبعضه، أو كله، لأغراض

---

(١) علم المعاني: ٢/١٨٢، وينظر: دلالات التراكيب: ٢٧٤.

(٢) مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء: ٢١٨.

(٣) البلاغة العالية في علم المعاني: ١٠٦.

(٤) موجز البلاغة: ٢٥، وينظر: مغني اللبيب: ٦٢٨، ودراسات لأسلوب القرآن الكريم: ٥٣٨-٥٤٠، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٩٧، ورسالة (مسالك العطف بين الإنشاء والخبر).

(٥) البلاغة العالية في علم المعاني: ١٠٦.

بلاغية، كما في عطف العام على الخاص وعكسه[١]، وسيأتي شواهد على ذلك من الخطاب النبوي.

وقد أشار الطاهر بن عاشور (١٣٩٣هـ) إلى هذه المسألة فقال: ((اعلم أن مسائل (الفصل والوصل) الغرض منها معرفة أساليب العرب في ربط جمل الكلام حتى يجيء المتكلم بكلام لا يوقع فهم السامع في لبس. ولذلك كان حق مسائل هذا الباب أن تكون أعلق بعلم النحو، إذ ليس فيها ما يفيد خصوصيات بلاغية، غير أن الذي دعا علماء البلاغة إلى ذكرها في هذا الفن أمور ثلاثة: أحدها: أن النحاة تكلموا على أحكام العطف، و لم يتكلموا على أحكام ترك العطف. ثانيها: أنهم تركوا كثيرًا من مسائل المناسبات. ثالثها: أنه لما كان العطف وتركه قد يلاحظ فيهما أمور ادعائية في الشعر والخطابة ناسب أن يذكر مع خصوصيات علم المعاني))[٢].

ولهذا فإني في تناولي لأسلوبي (الوصل والفصل) في الخطاب النبوي لا أنظر إلى جانب الفصاحة الذي يبين صحة العطف أو تركه؛ وإنما أنظر إلى ما يتعلق بمقام الكلام وخاصة المخاطب الذي قام البحث على أساس مراعاته.

وسأتناول أولاً مقامات (الوصل) في حروف العطف، ثم مقامات (الفصل).

- الوصل والفصل في أحاديث الصحيحين.

أولاً: الوصل.

المشهور أن حروف العطف عشرة: الواو، والفاء، وثُمّ، وأَوْ، ولا، وبَلْ، ولَكِنْ، وحَتَّى، وإِمّا، وأَمْ. وفي الأربعة الأخيرة خلاف، وكذا في الزيادة عليها[٣].

وسأتناول من هذه الحروف ما اتفق عليه، وهي (الواو، والفاء، وثُمّ، وأَوْ، ولا، وبَلْ) مستثنيًا (لا، وبل) فقد سبق الحديث عنهما في طرق القصر.

---

(١) ينظر: شرح التصريح على التوضيح: ١٣٦/٢ و١٣٨، وحاشية يس على شرح التصريح: ٣٤/٢، والنحو الوافي: ٦٥٩/٣.

(٢) موجز البلاغة: ٢٥.

(٣) ينظر: أوضح المسالك: ٣٥٣/٣-٣٥٤، وشرح التصريح على التوضيح: ١٣٤/٢، والنحو الوافي: ٥٥٧/٣-٦٢٩، وأساليب العطف في القرآن الكريم: ٤٦-٤٨.

ولكل حرف من هذه الحروف معنى يختص به، وتظهر براعة البليغ في وضع كل حرف في مقامه الذي يلائمه، كما قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) حينما تحدث عن ما ينبغي على البليغ أن ينظر فيه ليحسن نظمه: ((وينظر في الجمل التي تسرد، فيعرف موضع الفصل فيها من موضع الوصل، ثم يعرف -فيما حقه الوصل- موضع الواو من موضع الفاء، وموضع الفاء من موضع ثُمّ، وموضع أَوْ، وموضع لَكِنْ من موضع بَلْ))(١).

ولقد جاءت هذه الحروف في كلام النبي ﷺ متلائمة مع سياقها، تؤدي الغرض المراد منها، وسأذكر من الشواهد ما جاء منها مراعاة لمقتضى حال المخاطب على ما يقتضيه البحث، مرتبًا الحروف حسب الترتيب الهجائي (أَوْ، ثُمّ، الفاء، الواو).

أ- الوصل بـ(أَوْ).

يظهر أن الأصل في دلالة (أو) أن تفيد التسوية بين الشيئين أو الأشياء، قال سيبويه (١٨٠هـ) في العطف بـ(أو) في قولك: مررت برجل أو امرأة: ((فـ(أَوْ) أشركت بينهما في الجر، وأثبتت المرور لأحدهما دون الآخر، وسوت بينهما في الدعوى))(٢)، ويرى الزمخشري (٥٣٨هـ) أن الأصل فيها أنها للتسوية في الشك دون غيره، ثم استعيرت للتسوية في غير الشك(٣). وقد تأتي (أو) في معان يقتضيها مقام الكلام، كالتخيير والإباحة والشك والإبهام والتقسيم، لكنها لا تخرج مع هذه المعاني عن دلالتها الأصلية في التسوية(٤).

ومما جاءت فيه (أو) في الخطاب النبوي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ مر على رجل من الأنصار، فأرسل إليه، فخرج ورأسه يقطر، فقال: «لَعَلَّنَا أَعْجَلْنَاكَ» قال: نعم، يا رسول الله. قال: «إِذَا أُعْجِلْتَ **أَوْ أَقْحَطْتَ** فَلا غُسْلَ عَلَيْك، وَعَلَيْكَ الوُضُوء» وقد سبق في مبحث الترجي، والشاهد فيه هنا مجيء (أو) بين جملتي الإعجال والإقحاط، للدلالة على أن الحكم شامل للحالتين على السواء، قال العيني (٨٥٥هـ): ((فإن قلت: كلمة (أو) ما معناها ههنا؟ هل هو شكُّ مَنْ رَوى، أو تنويع الحكم عن رسول الله ﷺ؟

---

(١) دلائل الإعجاز: ٨٢، وينظر: ٩٠.

(٢) كتاب سيبويه: ٤٣٨/١، وينظر: مغني اللبيب: ٩٥، وأساليب العطف في القرآن الكريم: ١٨٩ و٢٣٠.

(٣) الكشاف: ٨٨/١.

(٤) الخصائص: ٣٤٧/١، وينظر: ٤٥٧/٢، وأساليب العطف في القرآن الكريم: ١٩٢ و٢٣٠.

قلت: الظاهر أنه من كلامه عليه الصلاة والسلام، ومراده بيان أن عدم الإنزال سواء كان بأمر خارج عن ذات الشخص أو كان من ذاته، لا فرق بينهما في الحكم في أن الوضوء عليه فيهما))[١]. ومجيء (أو) مبني على مسألة أخرى، وهي: لماذا جاء النبي r بالإقحاط مع أن حال المخاطب الإعجال دون الإقحاط؟ والذي يظهر أن النبي r لما رأى المخاطب قد اغتسل وحكمه الوضوء أراد أن يبين له هذا الحكم، ولما كان الإقحاط مشاركًا للإعجال في عدم الإنزال، وكان مما قد يقع فيه المخاطب فيشكل عليه حكمه، كما أشكل عليه حكم الإعجال، عطفه على الإعجال للدلالة على تساوي الحالين في الحكم، وهذه الدلالة لا يؤديها غير (أو)، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أنس بن مالك t أن النبي r قال: «مَا بَالُ أَقْوَامٍ يَرْفَعُونَ أَبْصَارَهُمْ إِلَى السَّمَاءِ فِي صَلاتِهِمْ» فاشتد قوله في ذلك حتى قال: «لَيَنْتَهُنَّ عَنْ ذَلِكَ **أَوْ لَتُخْطَفَنَّ** أَبْصَارُهُمْ» أخرجه البخاري[٢]، وأخرجه ابن ماجه وفيه ذكر أنس t أن النبي r صلى يومًا بأصحابه، ثم أقبل عليهم فقال هذا القول[٣]، وأخرجه مسلم عن أبي هريرة t ، وفيه أن النهي عن الرفع في الدعاء، قال: قال رسول الله r : «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ رَفْعِهِمْ أَبْصَارَهُمْ عِنْدَ الدُّعَاءِ فِي الصَّلاةِ إِلَى السَّمَاءِ **أَوْ لَتُخْطَفَنَّ** أَبْصَارُهُمْ»[٤]. والمقام في الحديث مقام إنكار على من يرفع رأسه في الدعاء في الصلاة، ولمزيد من التحذير والنهي عن الفعل أراد النبي r أن يخير النبي r المخاطبين بين الحق ومخالفته، ثم حذف المخالفة وأحل محله عقوبته إظهارًا لشدة المخالفة والتعجيل بعقوبتها والوعيد بها، وجاء التخيير بـ(أو) العاطفة، قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((«أَوْ» ههنا للتخيير تهديدًا، مثلها في قوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ [الفتح: ١٦] أحد الأمرين؛ إما المقاتلة أو الإسلام، لا ثالث لهما، وهو خبر في معنى الأمر، كما في قوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف ٨٨]، أي: ليكون أحد الأمرين؛ إما إخراجكم، وإما عودكم

(١) عمدة القاري: ٣/٥٨، وينظر: فتح الباري: ١/٢٨٤.

(٢) أخرجه البخاري: (٧٥٠).

(٣) أخرجه ابن ماجه: كتاب إقامة الصلاة، باب الخشوع في الصلاة، برقم (١٠٤٤).

(٤) أخرجه مسلم: (٤٢٩).

في الكفر. والمعنى: ليكون منكم الانتهاء عن الرفع، أو خطف الأبصار عند الرفـــع مـــن الله سبحانه وتعالى))[1].

ويلحظ في نظم الخطاب النبوي أن (أو) تأتي في الترقي بين المعاني، فيأتي ما بعـــدها أشد مما قبلها، كما في الحديثين السابقين، فالإقحاط أشد من الإنزال، والمخالفة أشـــد مـــن عدمها، وكقول النبي r لكعب بن عجرة t لما آذاه هوام رأسه وهـــو محـــرم: «احْلِـــقْ رَأْسَكَ، وَصُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ، **أَوْ أَطْعِمْ** سِتَّةَ مَسَاكِينَ، **أَوْ انْسُكْ** بِشَاةٍ» وسبق ذكر الحـــديث في مبحث الترجي. فخيره النبي r مترقيًا به من الأسهل إلى الأشق. وكقوله r لأصحاب أبي قتادة t حينما اصطاد حمار وحش، ولم يكن محرمًا، وهو محرمون: «هَلْ أَشَارَ إِلَيْهِ إِنْسَـــانٌ مِنْكُمْ **أَوْ أَمَرَهُ** بِشَيْءٍ؟» وفي رواية: «أَشَرْتُمْ **أَوْ أَعَنْتُمْ أَوْ أَصَدْتُمْ**»[2]، فترقى بهم النبي r في شمول الحكم من الإشارة وهي أخف من الإعانة والأمر وهما أخف من الصيد. وكقول النبي r لابن عمر t وهو يعظه: «كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ **أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[3]، قال الطيبي (٧٤٣هـــ): ((قوله: «أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» (أو) فيه يجوز أن يكون للتخيير والإباحة، والأحسن أن يكون بمعنى (بل)... شبه الناسك السالك أولاً بالغريب الذي ليس له مسكن يأويه، ولا سكن يسليه، ثم ترقى وأضرب عنه بقوله: «أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ» لأن الغريب قد يسكن في بلاد الغربة ويقيم فيها، بخلاف عابر السبيل القاصد للبلد الشاسع، وبينه وبينها أوديـــة مرديـــة ومفاوز مهلكة، وهو بمرصد من قطاع طريقه، فهل له أن يقيم لحظة أو يسكن لمحة؟ لا))[4].

ب- الوصل بـــ(ثُمَّ).

تفيد (ثُمّ) التشريك والترتيب والتراخي، وإفادتها التراخي هو ما يميزها عن غيرها من حروف العطف[5].

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن: ٣٩٩/٢.

(٢) أخرجه البخاري: (١٨٢١-١٨٢٤)، ومسلم: (١١٩٦) وهذا لفظه.

(٣) أخرجه البخاري: (٦٤١٦).

(٤) الكاشف عن حقائق السنن: ٣٢٧/٣.

(٥) ينظر: كتاب سيبويه: ٤٢٩/١ و٤٣٨، وينظر: مغني اللبيب: ١٥٨، وأساليب العطف في القرآن الكريم: ١٥٤.

وجاءت (ثم) في الخطاب النبوي في بعض المواقف مراعاة لحال المخاطب تأكيدًا له على التأني والطمأنينة وعدم الاستعجال، كما في حديث المسيء صلاته الذي كان يستعجل في صلاته ولا يطمئن فيها، وفيه أن النبي r قال له: «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ فَأَسْبِغْ الْوُضُوءَ، **ثُمَّ اسْتَقْبِل** الْقِبْلَةَ، فَكَبِّرْ، وَاقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِن الْقُرْآنِ، **ثُمَّ ارْكَعْ** حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، **ثُمَّ ارْفَعْ** رَأْسَكَ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، **ثُمَّ اسْجُدْ** حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، **ثُمَّ ارْفَعْ** حَتَّى تَسْتَوِيَ وَتَطْمَئِنَّ جَالِسًا، **ثُمَّ اسْجُدْ** حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، **ثُمَّ ارْفَعْ** حَتَّى تَسْتَوِيَ قَائِمًا، **ثُمَّ افْعَلْ** ذَلِكَ فِي صَلاتِكَ كُلِّهَا». وقد سبق ذكر الحديث حينما تناولت خطاب النبي r لمن فيه صفة الاستعجال في الفصل الأول[(١)]، ومما ذكرته أن (ثم) جاءت هنا فيما موضعه (الفاء) لأن أفعال الصلاة متعاقبة، لكن لما كان المخاطب يستعجل في صلاته عجلة تخل بواجباتها خاطبه النبي r بـ(ثم) ليؤكد له أهمية الطمأنينة في صلاته. وقد شاركت (ثم) في تأكيد الطمأنينة أدوات وأساليب أخرى، منها (حتى) التي تفيد الغاية، والتعبير بالأفعال (تطمئن وتعتدل وتستوي) بصيغة المضارع، وغيرها مما سبق بيانه[(٢)]، والله أعلم.

ومن ذلك حديث ابن عمر t أنه طلق امرأته وهي حائض، على عهد رسول الله r ، فسأل عمر بن الخطاب t رسول الله r عن ذلك، فتغيظ عليه، وقال: «مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، **ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا** حَتَّى تَطْهُرَ، **ثُمَّ تَحِيضَ**، **ثُمَّ تَطْهُرَ**، **ثُمَّ** إِنْ شَاءَ أَمْسَكَ بَعْدُ، وَإِنْ شَاءَ طَلَّقَ قَبْلَ أَنْ يَمَسَّ، فَتِلْكَ الْعِدَّةُ الَّتِي أَمَرَ اللهُ أَنْ تُطَلَّقَ لَهَا النِّسَاءُ»[(٣)]، فالمخاطب هنا استعجل الطلاق، فطلق امرأته وهي في حال لا يصح أن تطلق فيه، ولعله قد تقدم النهي عن ذلك، ويدل عليه سؤال عمر t ، وتغيظ النبي r ، كما قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((فيه إشعار بأن الطلاق في الحيض كان تقدم النهي عنه، وإلا لم يقع التغيظ على أمر لم يسبق النهي عنه))[(٤)]، فلما كان المخاطب بهذه الحال من الاستعجال خاطبه النبي r بـ(ثم) التي تفيد التراخي، إشعارًا له بالتأني والصبر، حتى يقع الطلاق إن شاء بعد ذلك في حال جائزة،

---

(١) ينظر ص (١٢٨) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (١٢٩-١٣٢) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (٥٢٥٢) ، ومسلم: (١٤٧١).

(٤) فتح الباري: ٩/٣٤٧.

وقد جاء في رواية عند البخاري: «لِيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ يُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ، ثُمَّ تَحِيضَ، فَتَطْهُرَ»[1] بالعطف بـ(الفاء) في قوله: «ثُمَّ تَحِيضَ، فَتَطْهُرَ» لكن أكثر الروايات في الصحيحين بـ(ثم) وهو الذي يقتضيه المقام، ويؤيده رواية نافع عن ابن عمر t أنه طلق امرأة له وهي حائض تطليقة واحدة، فأمره رسول الله r أن يراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض عنده حيضة أخرى، ثم يمهلها حتى تطهر من حيضتها[2]، فدلت هذه الرواية على تأكيد الإمهال، وهذا تفيده (ثم) دون (الفاء)، والله أعلم.

وقد يكرر النبي r الجملة تأكيدًا لمضمونها، ويصل بين الجمل المتكررة بحرف العطف للإشارة إلى دوام الحكم وطول زمانه، وحينما يكون العطف بـ(ثم) فإنه يعطي مزيدًا من الدلالة على الدوام وطول الزمان، كما في خطبته r لما أراد علي t أن ينكح بنت أبي جهل، وقد سبق الحديث[3]، وفيه: «إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَلا آذَنُ لَهُمْ، **ثُمَّ لا آذَنُ** لَهُمْ، **ثُمَّ لا آذَنُ** لَهُمْ». قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: فَلا آذَنُ، ثُمَّ لا آذَنُ، ثُمَّ لا آذَنُ. كرر ذلك تأكيدًا، وفيه إشارة إلى تأبيد مدة منع الإذن، وكأنه أراد رفع المجاز؛ لاحتمال أن يحمل النفي على مدة بعينها، فقال: «لا آذَنُ» أي ولو مضت المدة المفروضة تقديرًا لا آذن بعدها، ثم كذلك أبدًا))[4]، والإشارة إلى طول الزمان جاءت من تكرار حرف العطف (ثم) والله أعلم.

ومن ذلك قوله r لأم خالد رضي الله عنها، وهي جويرية، فكساها خميصة، وقال: «أَبْلِي وَأَخْلِقِي، **ثُمَّ أَبْلِي** وَأَخْلِقِي، **ثُمَّ أَبْلِي** وَأَخْلِقِي» وقد مضى الحديث بتمامه[5]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في وقوله r : «أَبْلِي وَأَخْلِقِي»: ((هما بمعنى، والعرب تطلق ذلك وتريد الدعاء بطول البقاء للمخاطب بذلك، أي أنها تطول حياتها حتى يبلى الثوب ويخلق. قال الخليل: أبل وأخلق، معناه: عش وخرق ثيابك وارقعها، وأخلقت الثوب: أخرجت باليه

---

(١) أخرج الرواية البخاري: (٤٩٠٨).

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٥٣٣٢) ، ومسلم: (١٤٧١).

(٣) ينظر ص (١٩٣) من هذا البحث.

(٤) فتح الباري: ٩/٣٢٨.

(٥) ينظر ص (١٢١) من هذا البحث.

ولفقته))[(١)]، وإذا كانت جملة «أَبْلِي وَأَخْلِقِي» تدل على طول الزمان فتكرارها يؤكد ذلك، والعطف بــ(ثم) يزيدها تأكيدًا، ولقد بقيت خميصة أم خالد زمنًا طويلاً، كما قال عبد الله ابن المبارك (١٨١هــ) وهو أحد رواة الحديث: ((فبقيت حتى ذَكَر))[(٢)]، قال ابن حجر (٨٥٢هــ): ((أي ذكر الراوي من بقائها أمدًا طويلاً))[(٣)]، وقال إسحاق بن سعيد بن عمرو بن سعيد بن العاص (١٧٠هــ): حدثتني امرأة من أهلي أنها رأته على أم خالد[(٤)].

ت- الوصل بــ(الفاء).

الذي يميز (الفاء) دون غيرها من حروف العطف أنها تفيد التعقيب بلا مهلة، خلافًا لــ(ثم) فإنها تفيد الترتيب مع مهلة[(٥)].

وقد جاءت (الفاء) بهذه الدلالة في الخطاب النبوي في عدة مواقف لأغراض بلاغية، منها ما يراد به الحث على المبادرة والإسراع، كما في حديث المسور بن مخرمة t قال: أقبلت بحجر أحمله ثقيل، وعلي إزار خفيف، فانحل إزاري، ومعي الحجر لم أستطع أن أضعه، حتى بلغت به إلى موضعه، فقال رسول الله r: «ارْجِعْ إِلَى ثَوْبِكَ **فَخُذْهُ**، وَلا تَمْشُوا عُرَاةً»[(٦)]، ولعل إيثار العطف بــ(الفاء) في قوله r: «فَخُذْهُ» مع صحة مجيء غيرها كالواو؛ حثًا للمخاطب على الإسراع إلى ستر العورة، وإشعارًا له بمزيد الاهتمام به، ويدل على هذا المعنى تقديم الأمر بالرجوع والأخذ، وتأخير النهي عن المشي عراة، فإن مما يفيده التقديم الاهتمام بالمقدم، كما سبق في مبحث التقديم والتأخير. بل إن حق الجملتين كما يرى البلاغيون أن يفصل بينهما، لكمال الاتصال حيث اتفقت الجملتان إنشاءً، والثانية من الأولى بمنزلة البدل أو عطف البيان، ومع ذلك فقد آثر النبي r الوصل بحرف (الفاء) مراعاة لما يقتضيه المقام، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري: ١٠/٢٨٠.

(٢) ذكره البخاري: (٣٠٧١).

(٣) فتح الباري: ٦/١٨٤.

(٤) ذكره البخاري: (٥٨٤٥).

(٥) ينظر: كتاب سيبويه: ١/٤٢٩ و٤٣٨، ومغني اللبيب: ٢١٣، وأساليب العطف في القرآن الكريم: ١٢١.

(٦) أخرجه مسلم: (٣٤١).

ومثل هذا مما جاء فيه الوصل بــ(الفاء) وحقه الفصل؛ للحث على المبادرة حــديث ابن عباس t قال: سمعت النبي r يخطب يقول: «لا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِــامْرَأَةٍ إلاّ وَمَعَهَــا ذُو مَحْرَمٍ، وَلا تُسَافِرْ الْمَرْأَةُ إِلاّ مَعَ ذِي مَحْرَمٍ» فقام رجل فقال: يا رســول الله، إن امــرأتي خرجت حاجة، وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا. قال: «انْطَلِقْ، **فَحُجَّ** مَعَ امْرَأَتِــكَ» وفي رواية: «اذْهَبْ فَحُجَّ...» وفي أخرى: «ارْجِعْ فَحُجَّ...»(١)، وأمر المخاطب بــالحج مــع امرأته فيه بيان له بأهمية المحرم، وأولوية الحج في هذه الحال على الجهاد، لكن النبي r نظــم الكلام بما يؤكد الأهمية والأولوية، فأمره أولاً بالذهاب، أو بالانطلاق على الرواية الأخرى، فإن كانت هي المحفوظة فهو أبلغ في الدلالة على الحث والمبادرة من الذهاب، وفي الروايــة الثالثة أمره بالرجوع، وإن كانت هي المحفوظة فهو أبلغ من الذهاب والانطلاق لكون تــرك الشيء المحبوب إلى النفس والرجوع عنه فيه مشقة عليها. ثم أمر المخاطب بالحج مع امرأته، وحق الجملتين الفصل لما ذكر في الحديث السابق، ومع ذلك فقد آثر النبي r الوصل بحرف (الفاء) مراعاة لما يقتضيه المقام؛ ليشعر المخاطب بمزيد الاهتمام بالسفر مع امرأته والمبــادرة إليه، والله أعلم.

ومثل هذا أيضًا حديث عمر بن الخطاب t حينما أخبر الــنبي r أنــه نــذر في الجاهلية أن يعتكف ليلة في المسجد الحرام، فقال له النبي r : «أَوْفِ نَذْرَكَ، **فَاعْتَكِفْ** لَيْلَةً» وقد سبق الحديث آنفًا في مبحث الذكر والحذف(٢)، وكذلك قوله r لسُلَيْك الغَطَفاني t حينما جاء يوم الجمعة ورسول الله r يخطب، فقعد، فقال له النبي r : «أَرَكَعْتَ رَكْعَتَيْنِ» قال: لا. قال: «قُمْ، **فَارْكَعْهُمَا**»(٣)، والله أعلم.

وقد تأتي (الفاء) لإشعار المخاطب بأن النبي r يهتم به ويبادر إلى تلبيــة حاجاتــه، ومن ذلك حديث مالك بن الحويرث t قال: أتينا رسول الله r ونحن شَبَبَة متقــاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله r رحيمًا رقيقًا، فظن أنا قد اشتقنا أهلنا، فسألنا

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٠٦ و٥٢٣٣) ، ومسلم: (١٣٤١).

(٢) ينظر ص (٤٦٦) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (٩٣٠) ، ومسلم: (٨٧٥).

عن من تركنا من أهلنا، فأخبرناه، فقال: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِيكُمْ، **فَأَقِيمُوا** فِيهِمْ...» الحديث، وقد سبق في الفصل الأول، وذكرت أن النبي ﷺ لما رأى اشتياق هؤلاء الشباب إلى أهليهم لم يدعهم يلازمونه في المدينة، مع أن في ملازمتهم له من الصحبة والخير والتزود من العلم ما ينفعهم. والشاب في بداية شبابه من طبعه سرعة التغير والتقلب، لضعف الخبرة والتجربة والنضج العقلي، فلعل إلزامهم بالبقاء مع اشتياقهم إلى أهليهم يكون سببًا في فتورهم ونكوصهم، فحثهم ﷺ على الرجوع إلى أهليهم والإقامة فيهم، وجاء الحث بصيغة الأمر لإشعارهم بالجزم والمبادرة إلى ما حثهم عليه، ووصل بين جملتي الرجوع والإقامة بـ(الفاء) لتأكيد المبادرة، ويشعرهم هذا الخطاب بحرص النبي ﷺ عليهم ومراعاة حاجاتهم النفسية، والله أعلم.

وقد تأتي (الفاء) لبعث الطمأنينة في نفس المخاطب وتطييب قلبه، كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه حينما كان مع أصحاب له محرمين، وهو غير محرم، فصاد حمارًا وحشيًا، فأكل منه بعضهم، وأبى بعضهم، فأدركوا رسول الله ﷺ فسألوه عن ذلك، وقد سبق ذكر الحديث[1]، وفيه أن النبي ﷺ قال لهم: «أَمِنْكُمْ أَحَدٌ أَمَرَهُ أَنْ يَحْمِلَ عَلَيْهَا أَوْ أَشَارَ إِلَيْهَا؟» قالوا: لا. قال: «هُوَ حَلالٌ، **فَكُلُوهُ**» أو قال: «**فَكُلُوا** مَا بَقِيَ مِنْ لَحْمِهَا». ولو اقتصر النبي ﷺ على الخبر «هُوَ حَلالٌ» لكان ذلك كافيًا للحكم بحل الأكل من الصيد لمن كان محرمًا و لم يشارك في صيده، ولكن النبي ﷺ أتبع الخبر بالأمر الذي لا يراد به حقيقة الإيجاب، وإنما هو للإباحة، وجاءت الإباحة بصيغة الأمر لتأكيدها ورفع الحرج عن المخاطبين وتطمينهم وتطييب قلب الصائد، حيث ظنوا أن المحرم لا يأكل من الصيد ولو لم يشارك فيه، ووصل جملة الأمر بـ(الفاء) لمزيد من رفع الحرج والتطمين، وكأنه ﷺ يطلب منهم المبادرة بالأكل، مع أنه لا يراد ذلك حقيقة فيما يظهر، وزاد في رفع الحرج وتطييب القلب حينما طلب منهم شيئًا من لحم الصيد، فأخذه وأكل منه، صلوات ربي وسلامه عليه، والله أعلم.

ومما جاءت فيه (الفاء) لرفع الحرج عن المخاطب حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما كان النبي ﷺ يعطيه العطاء فيقول: أعطه من هو أفقر مني، فقال له النبي ﷺ: «خُذْهُ،

---

(١) ينظر ص (٢٦٢، ٥٠١) من هذا البحث.

فَتَمَوَّلْهُ، وَتَصَدَّقْ بِهِ...» الحديث، وقد سبق[1]، وكان للنبي r أن يقول له: خذه تموله، أو: خذه وتموله، أو يكتفي بالأمر بالأخذ، لكن الاكتفاء بالأمر بالأخذ لا يدل على ما يريده النبي r من حق المخاطب في تملك المال ولو لم يتصدق به، ولذا ذكر له التمول، وجاء به بصيغة الأمر التي تفيد الإباحة لتأكيدها وإزالة الحرج الذي لدى المخاطب في الأخذ والتمول، وجاء العطف بـ(الفاء) التي تفيد التعقيب، لإعطاء المعنى مزيدًا من التأكيد ورفع الحرج، وكأن النبي r يحث المخاطب على المبادرة والإسراع إلى التمول، ولذا قدم على الأمر بالتصدق، والله أعلم.

وقد تأتي (الفاء) لتسهم في تفخيم الأمر وتهويله، كما في قصة الثبات على الدين التي قصها الرسول r على خباب بن الأرت وأصحابه y، وقد سبقت بتمامها، وفيها قال النبي r: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ، يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، **فَيُجْعَلُ** فِيهَا، **فَيُجَاءُ** بِالْمِنْشَارِ، **فَيُوضَعُ** عَلَى رَأْسِهِ، **فَيُشَقُّ** بِاثْنَتَيْنِ» وفي هذه القصة عبر النبي r عن الحدث ومشاهده بالفعل المضارع المبني للمجهول الذي يجعله يركز على الحدث ويستحضر صورته، وكأنها تتراءى له وهو يشاهدها، كما سبق بيان بلاغة ذلك[2]، وجاءت هذه الأفعال موصولة بـ(الفاء) لتعطي شعورًا بسرعة الأحداث وتعاقبها، وهذا ينبئ عن مدى الغيظ والبغض وشدة الاضطهاد والتعذيب، ومع ذلك يصبر المعذبون ويثبتون على الدين، وهذا له أثر قوي في تقوية عزائم الصحابة y وثباتهم[3]، والله أعلم.

وقد تأتي (الفاء) مع مكرر للدلالة على استمرار الحكم ودوامه، كما قيل في تكرار (ثم) مع الجملة المكررة، ومن ذلك حديث أنس t أن النبي r شرب من قدح وكان على يساره أبو بكر وعن يمينه أعرابي، فخاف عمر t أن يعطيه الأعرابي فقال: أعط أبا بكر، يا رسول الله، عندك. فأعطاه الأعرابي الذي على يمينه ثم قال: «الأَيْمَنَ **فَالأَيْمَنَ**» وفي رواية: «الأَيْمَنُونَ الأَيْمَنُونَ الأَيْمَنُونَ» وأكثر الروايات على الأولى، وقد سبق الحديث برواياته في

(١) ينظر ص (١٣٧) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (٣٠٤) من هذا البحث.

(٣) ينظر: بلاغة التراكيب: ٤٤٠.

الفصل الأول[1]، والتكرار يفيد التأكيد كما هو معلوم، وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) أن بعض أهل العلم استنبط من تكرار (الأيمن) أن السنة إعطاء من على اليمين، ثم الذي يليه، وهلم جرا[2]. لكن هذا المعنى المستنبط لم يستفد من مجرد التكرار، ولكن يظهر أنه مفاد من الوصل بين الجملتين المكررتين بـ(الفاء) الدالة على التعقيب، لتفيد استمرار إعطاء الأيمن لكل من شرب من دون أن يقطع التسلسل في اليمين، ولعل النبي r جاء بـ(الفاء) لهذا المعنى، حتى لا يفهم المخاطب أن المقصود من التكرار مجرد التأكيد على إعطاء من هو عن يمينه، ثم بعد ذلك يدور القدح كيف شاءوا، والله أعلم.

ث- الوصل بـ(الواو).

تفيد (الواو) مطلق الجمع والتشريك، وهي بذلك تشارك (ثم) و(الفاء) في الجمع، إلا أنها تفيده بإطلاق؛ من غير تقييده بزمان أو بسبق أحد المعطوفين على الآخر، أما (ثم) فمقيدة بالتراخي، وأما (الفاء) فمقيدة بالتعقيب، وهما بذلك يفيدان الترتيب، وليس ذلك أصلي في (الواو). والمراد بالتشريك أن لا تكون (الواو) للدلالة على أحد الشيئين أو الأشياء كما في (أو)[3].

وقد جاءت (الواو) في الخطاب النبوي لهذا المعنى، إلا أنها جاءت في عدة مواقف لاعتبارات بلاغية روعي فيها حال المخاطب.

ومن ذلك أنها جاءت في مقام الإنكار على قصر النفس على حال دون حال، كما أنكر على عبدالله بن عمرو t سرد الصوم وقيام الليل وترك النوم، وقد سبق الحديث[4]، وفيه أن النبي r قال له: «يَا عَبْدَ اللهِ، أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ: وَاللهِ لأَصُومَنَّ النَّهَارَ، وَلأَقُومَنَّ اللَّيْلَ مَا عِشْتُ» فقلت: بلى، يا رسول الله، قد قلته، ولم أرد بذلك إلا الخير. قال: «إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَلا تَفْعَلْ، فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ الْعَيْنُ وَنَفِهَتْ النَّفْسُ، صُمْ **وَأَفْطِرْ**،

---

(١) ينظر ص (٧١) من هذا البحث.

(٢) فتح الباري: ١٠/٧٦.

(٣) ينظر: كتاب سيبويه: ١/٤٣٨، ومغني اللبيب: ٤٦٣، وأساليب العطف في القرآن الكريم: ٤٩.

(٤) ينظر ص (٣٨) من هذا البحث.

وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، **وَإِنَّ** لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، **وَإِنَّ** لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، **وَإِنَّ** لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّكَ لا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ».

ويمكن أن يؤتى بالجمل «صُمْ وَأَفْطِرْ» «قُمْ وَنَمْ» موصولة بغير الواو، خاصة الفاء؛ لأن النوم والفطر يعقبان القيام والصوم، لكن ليس مقصود النبي r أن يأمره بتعجيل النوم أو الفطر، أو تأخيرهما.

كما يمكن أن يفصل بين «صُمْ وَأَفْطِرْ» و«قُمْ وَنَمْ» وكذلك بين الجمل الأخرى «فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا» بل إن الفصل في مقام الإنكار أظهر، خاصة مع التأكيد بـ(إنّ) فإنه يشعر بقوة الإنكار أكثر من الوصل.

ولكن النبي r ترك ذلك كله؛ لأنه أراد أن يرسخ لدى المخاطب الجمع بين هذه الأفعال، وينكر عليه تخصيص واحد منها بالفعل دون الآخر، ولذا جاءت جميع هذه الجمل موصولة بـ(الواو) والله أعلم.

ومن ذلك حديث الثلاثة الذين سألوا عن عبادة النبي r فتقالُّوها، وقد سبق الحديث[1]، وفيه أراد أحدهم أن يصلي الليل أبدًا، والثاني يصوم الدهر ولا يفطر، والثالث يعتزل النساء فلا يتزوج أبدًا، فقال الرسول r لهم: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ **وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ** النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

فوصل النبي r بـ(الواو) بين أفعال الصيام والفطر والصلاة والرقود والزواج؛ للدلالة على أنه يوازن بين حاجات النفس البشرية، فيجمع بين هذه الأعمال جميعًا، خلافًا لمن أراد أن يخالف الفطرة الإلهية والسنة النبوية، فيختص بحال دون حال مما يكون له الأثر السيء على صحته وعبادته، والله أعلم.

وجاءت (الواو) أيضًا في حديث عبد الله بن عمرو t في تفخيم الأمر وتهويله عند المخاطب، فقد قال النبي r له في الحديث السابق: «فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ ذَلِكَ هَجَمَتْ الْعَيْنُ

(١) ينظر ص (١٢٢) من هذا البحث.

وَنَفِهَتْ النَّفْسُ» والوصل بين هجوم العين ونفه النفس بالواو لتعداد الآثار السيئة على المخاطب إذا هو سلك سبيل التشدد، وقصر نفسه على أمر العبادة دون إشباع حاجات النفس الأخرى، التي لها أثر في صحة المخاطب ونشاط جسمه وقوة عبادته، ولعل النبي ﷺ قصد من الإتيان بهذه المعاني تفخيم الأمر عند المخاطب وتهويله، لعله يرجع عن مراده، والله أعلم.

ومن التفخيم ما جاء في قصة الثبات على الدين في حديث خباب السابق[(١)]، وفيه: «كَانَ الرَّجُلُ فِيمَنْ قَبْلَكُمْ، يُحْفَرُ لَهُ فِي الأَرْضِ، فَيُجْعَلُ فِيهَا، فَيُجَاءُ بِالْمِنْشَارِ، فَيُوضَعُ عَلَى رَأْسِهِ، فَيُشَقُّ بِاثْنَتَيْنِ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، **وَيُمْشَطُ** بِأَمْشَاطِ الْحَدِيدِ مَا دُونَ لَحْمِهِ مِنْ عَظْمٍ أَوْ عَصَبٍ، وَمَا يَصُدُّهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ» وقد ذكرت بلاغة الوصل بـ(الفاء) في موضعه[(٢)]، والشاهد هنا في وصل جملة المشط بالشق بـ(الواو) ولعل ذلك لتصوير الحدثين بأنهما يقعان في وقت واحد، ولا فرصة للراحة والمراجعة، أو العدول عن التعذيب[(٣)]، والله أعلم.

ومما جاءت فيه (الواو) في مقام التفخيم والتهويل حديث أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه في إنكار النبي ﷺ على إمام يطول في صلاته، مما جعل بعض المأمومين يشتكونه إلى النبي ﷺ، وقد سبق الحديث[(٤)]، وفيه قال أبو مسعود: فما رأيت رسول الله ﷺ في موعظة أشد غضبًا منه يومئذ، ثم قال: «إِنَّ مِنْكُمْ مُنَفِّرِينَ، فَأَيُّكُمْ مَا صَلَّى بِالنَّاسِ فَلْيَتَجَوَّزْ؛ فَإِنَّ فِيهِمْ الضَّعِيفَ، **وَالْكَبِيرَ، وَذَا الْحَاجَةِ**». والوصل بغير الواو هنا ممكن بـ(أو) لكنه لا يعطي المخاطب شعورًا بكثرة المتأثرين بطول صلاته، بخلاف (الواو) فإن الوصل بها يشعر المخاطب بأن هؤلاء جميعًا يصلون خلفه، فيتأثرون سلبًا بطول صلاته، والله أعلم.

وقد يأتي الوصل بـ(الواو) في تحسين الشيء للمخاطب وتحفيزه إليه، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، ألا نغزو ونجاهد معكم؟ فقال:

(١) ينظر ص (٢٣٣) من هذا البحث.
(٢) ينظر ص (٥٠٧) من هذا البحث.
(٣) ينظر: بلاغة التراكيب: ٤٤١.
(٤) ينظر ص (١٥٢) من هذا البحث.

«لَكُنَّ أَحْسَنُ الْجِهَادِ وَأَجْمَلُهُ؛ الْحَجُّ، حَجٌّ مَبْرُورٌ» قالت عائشة: فلا أدع الحج بعد إذ سمعت هذا من رسول الله r ، وقد سبق تخريج الحديث والكلام على ضبط (لكن)[١].

إن الحسن والجمال من باب واحد، ولعل النبي r أراد أن يعدد هذه الألفاظ لكون المخاطبة امرأة شابة، من طبعها أن تنزع إلى الحسن والجمال وتسعى في طلبهما، فتكون حافزًا للقيام بالعمل، وتفخيمًا لشأن جهادهن في مقابل جهاد الرجال، وإرضاء لها لما منعت ما طلبته، ولو كان الكلام على الفصل لم يدل على هذه الأغراض، ولكان ذكر الجمال مجرد تأكيد للحسن، ولكن الوصل يعطي المخاطبة شعورًا بالمغايرة التامة، وكأن الجمال باب آخر غير الحسن، وفرق بين أن تحفز بأمر واحد وأن تحفز بأكثر منه، والله أعلم.

وقد يأتي الوصل بـ(الواو) في مقام العتاب لتعداد الفضائل والنعم، كقول النبي r للأنصار لما وجدوا في أنفسهم عليه حين لم يقسم لهم من الغنائم، وهم الذي ناصروه وقاتلوا وصبروا معه، وقد سبق الحديث بتمامه[٢]، وفيه قال رسول الله r : «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلالاً فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟» كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أَمَنّ. فقال: «أَلا تُجِيبُونِي؟» قالوا: الله ورسوله أَمَنّ.

ويأتي الوصل بـ(الواو) في مقام يراد به إزالة الفوارق الطبقية بين الناس، والإنكار على المخاطب ترفعه على من دونه، كما في حديث أبي ذر t مع عبده، وقد مضى بتمامه[٣]، وفيه أن أبا ذر t عيره بأمه، فقال له الرسول r : «إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ. إِخْوانُكُمْ، وَخَوَلُكُم، جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدَيهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تَكْلَفُوهُم مَا يَغْلِبُهُم، فَإِنْ كَلَفْتُمُوهُم فَأَعِينُوهُم عَلَيهِ».

والفصل في مقام الإنكار يعطي قوة فيه، لكن النبي r في قوله: «فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تَكْلَفُوهُم مَا يَغْلِبُهُم» وصل بـ(الواو) لإشعار المخاطب بالعناية بالعبد، وأنه وإياه يشتركان في الإنسانية والأخوة الإسلامية، وأن الفروق التي بينهما لا ينبغي

(١) ينظر ص (٩٩) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٢٧٣) من هذا البحث.

أن تؤثر في هذه الأخوة، والوصل بالواو أقوى في إبراز هذا المعنى من الفصل، وقد تظافر الوصل مع غيره من الأساليب في إبراز هذا المعنى، كالتأكيد، واختيار لفظ الجاهلية ووصف العبيد بالإخوان والخول، وقد سبق بيانها[1]، والله أعلم.

وقد يأتي الوصل بـ(الواو) لإرادة المبادرة إلى حصول الأفعال جميعًا في وقت واحد، كما في حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم، فقال النبي r: «مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، **وَلْيَسْتَظِلَّ، وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ** صَوْمَهُ»[2]، فأمر النبي r الرجل بالمبادرة إلى نقض نذره، ويدل على ذلك مجيء الفاء في قوله: «فَلْيَتَكَلَّمْ» ثم عطفت الجمل على جملة التكلم بـ(الواو) إشعارًا للمخاطب بأهمية المبادرة إلى حصول هذه الأفعال جميعًا في الوقت نفسه، وأن لا يؤخر شيئًا منها، والله أعلم.

وقد تأتي (الواو) مع مكرر للدلالة على دوام الحال، وفي ذلك مزيد تأكيد، كما في حديث المتلاعنين، وقد سبق الحديث[3]، وفيه أن النبي r فرق بينهما، فقال الرجل: يا رسول الله، مالي؟ فقال الرسول r: «لا مَالَ لَكَ، إِنْ كُنْتَ صَدَقْتَ عَلَيْهَا فَهُوَ بِمَا اسْتَحْلَلْتَ مِنْ فَرْجِهَا، وَإِنْ كُنْتَ كَذَبْتَ عَلَيْهَا فَذَاكَ أَبْعَدُ **وَأَبْعَدُ** لَكَ مِنْهَا». فقوله r: «فَذَاكَ أَبْعَدُ» استبعاد لإعطائه المال، حيث ظن أنه يستحقه بعد التفريق بينهما، ولعله بذلك يُشعر بأنه صادق في دعواه، فرد عليه النبي r بأنه لو صدق لما رد عليه المال، فكيف إذا كان كاذبًا! وجاء اسم الإشارة بالكاف للدلالة على البعد، وصيغ البعد بصيغة التفضيل تأكيدًا له، ثم أكد البعد بتكراره، ومع أن التأكيد بمنزلة المؤكد، فحقه الفصل، إلا أن النبي r وصل بـ(الواو) ولعل ذلك لإشعار المخاطب بأن البعد دائم غير منقطع، كما قيل في الوصل بالفاء وثم مع التكرار، وفي هذا مزيد من التأكيد، أو للدلالة على أن البعد ليس بعدًا واحدًا مؤكدًا بل هو أكثر من بعد، لما في الواو من دلالة المغايرة، وقد يراد الغرضان، والله أعلم.

---

(١) ينظر ص (٢٧٣-٢٧٤، ٢٨٨) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (٦٧٠٤).

(٣) ينظر ص (٤٥٠) من هذا البحث.

ثانيًا: الفصل.

الفصل كما ذكر سابقًا: ترك العطف، بحيث يبدو المعطوف مستقلاً عن المعطوف عليه، غير موصول به في اللفظ، وإن كان بينهما ترابط في المعنى والغرض، وهو كثير في الخطاب النبوي، ويأتي مراعاة لمقتضى الحال في عدة أغراض.

أ- ومن ذلك الإنكار على المخاطب، فإن الجملة المفصولة تشعر بمزيد من الإنكار والعتاب أكثر من الموصولة، إلا إذا أريد تعداد الأفعال المنكرة، أو تعداد آثارها السيئة فيحسن الوصل كما سبق ذكره، كما أن المقام إذا كان لتعداد النعم فيحسن الوصل.

وإنما يبدو الفصل في هذا المقام أقوى من الوصل لأن الجملة المفصولة تبدو في النطق أقوى، خاصة أن المتكلم بحال من الغضب وغليان النفس، وكأنه يقف عند كل جملة ليسترد نفسه ويعود مرة أخرى ليلقي بالجملة التي تليها، أو ليستوعب المخاطب مضمون الجملة الأولى ليتلقى بعدها الثانية، وكأن المتكلم يستأنف جملة أخرى تحمل مضامين جديدة في الإنكار والعتاب، وكلما كانت الجمل المفصولة أكثر كان ذلك أقوى وأشد تقريعًا، كما أنها تنبئ أكثر عن مدى الانفعال والغضب الحاصل في المتكلم.

ومما جاء في ذلك حديث كعب بن مالك في تخلفه وصاحبيه y عن غزوة تبوك، وفيه قال كعب: فجئته، فلما سلمت عليه تبسَّم تبسُّم المغضب، ثم قال: «مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تَكُنْ قَدْ ابْتَعْتَ ظَهْرَكَ؟»[(١)]، وهذا الاستفهام التقريري يحمل معاني التعجب والإنكار على المخاطب الذي لا يُشك في إيمانه وصدقه، وليس له عذر في التخلف، حيث تيسر له ما يستطيع به المسير مع النبي r وأصحابه y. ولما كان الكلام للإنكار حسن الفصل بين الجملتين الاستفهاميتين مع كونهما اشتركتا في الإنشائية وبينهما جامع، وحقهما الوصل في هذا الموضع عند البلاغيين، وقد تعاضد الاستفهام مع الفصل في إبراز الإنكار، لما في الاستفهام من استثارة النفس وشدة التنبيه لها لعلها أن تتأمل في سوء صنيعها وترتدع، والله أعلم.

(١) أخرجه البخاري: (٢٧٥٧ و٤٤١٨) ، ومسلم: (٢٧٦٩).

ومن ذلك قوله r لأزواجه لما راجعنه في إمامة أبي بكر للناس: «مَهْ. إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ. مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ»(١)، ففصل النبي r بين هذه الجمل الثلاث، في مقام الإنكار عليهن، والفصل هنا يشعر المخاطبات بشدة غضب النبي r وإنكاره، والله أعلم.

ومن ذلك قول النبي r لذي الخويصرة التميمي لما جاء والنبي r يقسم فقال له: يا محمد، اعدل، وقد سبق الحديث(٢)، وفيه أن الرسول r قال له: «وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ» وفي رواية: «مَنْ يُطِعِ اللهَ إِذَا عَصَيْتُ؟، أَيَأْمَنُنِي اللهُ عَلَى أَهْلِ الأَرْضِ فَلا تَأْمَنُونِي؟».

إن المخاطب لما خاطب النبي r بما لا يليق أن يخاطب به، وهو رسول الله r ، أغلظ عليه النكير، وخاطبه بأساليب تحمل تقريعًا وإنكارًا عليه، وتكشف عن مدى الانفعال الذي يجيش به صدر النبي r تجاه هذا المخاطب وكلامه، فجاء بالاستفهام الإنكاري الإبطالي، وأتبعه بأسلوب شرطي يقلب الأمر على المخاطب إن حصل ما يقوله، فإنه هو الخائب الخاسر بذلك.

وفي الرواية الثانية جاء بعد الاستفهام الإبطالي استفهام تعجبي توبيخي، والإنكار بهذه الأساليب تهز المخاطب وتنبهه وتشده إلى التفكر والرجوع، فإذا جاءت مفصولة كان ذلك أقوى في الإنكار، والله أعلم.

ومن ذلك حديث عمران بن حصين t أن رجلاً عض يد رجل، فنزع يده من فمه، فوقعت ثنيتاه، فاختصموا إلى النبي r فقال: «يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الْفَحْلُ؟ لا دِيَةَ لَكَ» وفي رواية لمسلم: «مَا تَأْمُرُنِي؟ تَأْمُرُنِي أَنْ آمُرَهُ أَنْ يَدَعَ يَدَهُ فِي فِيكَ تَقْضَمُهَا كَمَا يَقْضَمُ الْفَحْلُ؟ ادْفَعْ يَدَكَ حَتَّى يَعَضَّهَا ثُمَّ انْتَزِعْهَا»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٦٤ و٦٧٩ و٦٨٢ و٧١٦ و٧٣٠٣) ، ومسلم: (٤١٨).

(٢) ينظر ص (٢٩٦، ٣٤٣) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (٦٨٩٢) ، ومسلم: (١٦٧٣).

قال النووي (٦٧٦هـ): ((ليس المراد بهذا أمره بدفع يده ليعضها، وإنما معناه الإنكار عليه، أي أنك لا تدع يدك في فيه يعضها، فكيف تنكر عليه أن ينتزع يده من فيك، وتطالبه بما جنى في جذبه))[(١)].

وفي حديث عائشة رضي الله عنها في قصة اشترائها بريرة رضي الله عنها لتعتقها، وقد سبق الحديث في مبحث القصر[(٢)]، وفيه أن النبي r لما رأى القوم أصروا على أن يشترطوا لهم الولاء قام في الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: «أَمَّا بَعْدُ، فَمَا بَالُ أَقْوَامٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ؟ مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ بَاطِلٌ وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ. كِتَابُ اللهِ أَحَقُّ وَشَرْطُ اللهِ أَوْثَقُ. مَا بَالُ رِجَالٍ مِنْكُمْ يَقُولُ أَحَدُهُمْ: أَعْتِقْ فُلاَنًا وَالْوَلاَءُ لِي. إِنَّمَا الْوَلاَءُ لِمَنْ أَعْتَقَ». وقد وردت للحديث روايات أخرى[(٣)]، ويلحظ أن الإنكار في هذه الخطبة له حدة ونبرة عالية، لأنه في مخالفة لشرع الله U، وعدم رضًا بما أراد رسول الله r، والمخالفة حصلت في أمر ظاهر بين، لا ينبغي للمخاطب أن يقع فيه، وقد أسهم في إبراز هذا الإنكار وتأكيد مضمونه عدة أساليب، ولعل منها الفصل بين جمل الخطبة، فقد فصل بين الاستفهام والشرط، وبين الشرط والخبر، وبين الخبر والاستفهام، وبين الاستفهام والخبر، ونلحظ أن الجمل الإنشائية والخبرية تتعاقب، وهذا يكشف عن مدى ما في نفس النبي r من غضب وانفعال، والله أعلم.

وفي حديث أبي ذر t مع عبده -وقد سبق في الوصل- يظهر أثر الفصل في إبراز الإنكار والكشف عن غضب النبي r: «يَا أَبَا ذَرٍّ، أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيْكَ جَاهِلِيَّةٌ. إِخْوانُكُمْ خَوَلُكُم، جَعَلَهُم اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُم».

وفصل النبي r في هذا الموقف بين جملة النداء والاستفهام، وبين الاستفهام والخبر، وبين الجمل الخبرية، وكان هذا في مقام الإنكار ليكون أقوى في النطق، وأبلغ في نفس المخاطب، ولما اقتضى المقام أن يُشعر المخاطب بمشاركة مخدومه له وصل بين جمل الأمر:

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١١/١٦١.

(٢) ينظر ص (٤٨٦) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (٤٥٦ و٢١٥٥ و٢١٦٨ و٢٥٦٣) ، ومسلم: (١٥٠٤).

«فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلُ، وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلا تَكْلَفُوهُم مَا يَغْلِبُهُم». وقد سبق بيان ذلك في الحديث عن الوصل[1]، والله أعلم.

ب- ومثل الإنكار التحذير والترهيب من الوقوع في المنكر، كما في حديث جابر ابن عبد الله t أنه سمع رسول الله r يقول عام الفتح وهو بمكة: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ حَرَّمَ بَيْعَ الْخَمْرِ وَالْمَيْتَةِ وَالْخِنْزِيرِ وَالأَصْنَامِ» فقيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة؛ فإنها يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هُوَ حَرَامٌ» ثم قال رسول الله r عند ذلك: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ لَمَّا حَرَّمَ شُحُومَهَا جَمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ».

وسبق ذكر الحديث[2]، وذكرت أن المقام الذي يخاطب فيه النبي r السائل مقام تحذير وترهيب من الوقوع فيما نُهي عنه، خاصة أن كثيرًا من المخاطبين حديثو عهد بإسلام بعد فتح مكة، ولذا جاءت الجمل مفصولة.

والفصل بين «لا» وجملة «هو حرام» عند البلاغيين هو موضع من مواضع الوصل؛ لأنه قد يوهم خلاف المراد، إذ ربما يتوهم المخاطب أن (لا) نفي لما بعدها، فيفهم غير ما أراد المتكلم، وجعل بعضهم الفصل من كلام الأوساط، لا من كلام البلغاء.

ويستشهدون لذلك بما يروى عن أبي بكر t أنه قال لرجل: أتبيع الثوب؟ فقال: لا، عافاك الله. فقال أبو بكر: لا تقل هكذا، قل: لا، وعافاك الله. وروي الموقف بألفاظ أخرى لا تؤثر في المسألة[3].

وقد ورد الفصل في مثل هذا عند مسلم في موقف مع أبي بكر t لم يظهر فيه إنكاره على المتكلم، فعن عائذ بن عمرو t أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال في نفر، فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم. فأتى النبي r فأخبره، فقال: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لَعَلَّكَ

(١) ينظر ص (٥١١) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (١٧٨) من هذا البحث.

(٣) ينظر: مفتاح تلخيص المفتاح: ٤٠٠، والطراز: ٥٤٣، وشروح التلخيص: ٣/٦٧.

أَغْضَبْتَهُمْ. لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ» فأتاهم أبو بكر، فقال: يا إخوتاه، أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أُخَيّ[1].

وهذان الموقفان مع النبي t وأبي بكر t يدلان على صواب الفصل، وأن الوصل غير متعين مطلقًا، لأن الإيهام لا يدفع بالوصل وحده، بل يحصل بغيره، كما قال الدسوقي: ((اعلم أن دفع الإيهام لا يتوقف على خصوص العطف؛ بل لو سكت بعد قوله: لا، أو تكلم بما يدفع الاتصال، ثم قال: رحمك الله، أو: أيدك الله، من غير عطف، لكان الكلام خاليًا عن الإيهام))[2]، وهذه لمحة حسنة لأثر النطق في بلاغة الكلام، إلا أن الراوي لم يبين إن كان في الخطاب سكت أم لا، وأظن أن لو لم يكن سكت فإنه لا إيهام في الموقفين؛ لأن المخاطب يسأل عن تصديق، والجواب إما بـ(نعم) أو بـ(لا)، فإذا أتى الجواب بـ(لا) فإن المخاطب يدرك أنه جواب لسؤاله، وما بعد (لا) مستأنف، ولا إيهام إذًا، ودلالة السياق وقرائن الحال في مثل هذا معتبرة.

وقد ورد عن النبي r مواقف أخرى فصل فيها بين (لا) وما بعدها، ومن ذلك حديث أنس بن مالك t قال: دخل النبي r فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «مَا هَذَا الْحَبْلُ؟» قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت. فقال النبي r: «لا. حُلُّوهُ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ»[3].

ومن ذلك حديث علي t قال: كنا جلوسًا مع النبي r، ومعه عود ينكت في الأرض، وقال: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلاّ قَدْ كُتِبَ مَقْعَدُهُ مِنْ النَّارِ أَوْ مِنْ الْجَنَّةِ» فقال رجل من القوم: ألا نتكل يا رسول الله؟ قال: «لا. اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ الآية [الليل: ٥-١٠][4].

---

(١) أخرجه مسلم: (٢٥٠٤).

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر السعد: ٦٧/٣، وينظر: إصلاح الإيضاح، بحث في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، ع٤٩/٤٩٨-٥٠٠.

(٣) أخرجه البخاري: (١١٥٠) وهذا لفظه، ومسلم: (٧٨٤).

(٤) أخرجه البخاري: (٤٩٤٧ و٦٦٠٥)، ومسلم: (٢٦٤٧).

وفصل في هذين الحديثين بين (لا) الناهية، وفعل الأمر. والموضع عند البلاغيين موضع وصل، لا للإيهام؛ لأن (لا) الناهية لا تدخل إلا على الفعل المضارع[1]، ولكن لاتفاق الجملتين في الإنشائية بجامع بينهما، ولعل كون المقام مقام تحذير ونهي فصل بين الجمل، والله أعلم.

ت- وقد يأتي الفصل لرفع التساؤل أو التعجب الذي قد يرد على المخاطب، إذا كان في الجملة السابقة ما يقتضيهما، فتنزل الجملة السابقة منزلة السؤال الذي اقتضته، فتفصل الجملة التالية عن السابقة، أو ينزل السؤال المقدر منزلة الواقع وتنزل الجملة التالية منزلة الجواب عن السؤال الواقع، فتفصل كما يفصل الجواب عن السؤال[2].

ومن ذلك حديث ابن عمر t أن النبي r واصل في رمضان، فواصل الناس، فشق عليهم، فنهاهم، قالوا: إنك تواصل. قال: «لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ، إِنِّي أَظَلُّ أُطْعَمُ وَأُسْقَى» وفي رواية: «إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أُطْعَمُ وَأُسْقَى»[3]، ففصل النبي r بين الجملتين الخبريتين، ولعل ذلك لما تحمله الجملة الأولى من تساؤل وتعجب عند الصحابة y، إذ كيف يكون النبي t غيرهم، وهو بشر مثلهم، كما تحصل المشقة عليهم تحصل عليه، فجاء بالجملة الثانية لتنزيل مثل هذا التساؤل والتعجب اللذين يُتوقعان من المخاطب بالجملة الأولى، ولذا جاءت جملة الجواب مؤكدة بـ(إن) استحسانًا كما سبق بيانه في الخبر الطلبي، والله أعلم.

وفي رواية عن أبي هريرة t: «وَأَيُّكُمْ مِثْلِي، إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ»[4]، بفصل الجملة الإنشائية عن الخبرية، لا لاختلافهما إنشاء وخبرًا، فإن الاختلاف لا يمنع من العطف كما سبق، ولكن لكون الجملة السابقة تثير تساؤلاً يقتضي الجواب، والله أعلم.

وفي رواية عن أنس t أن النبي r بلغه أن أناسًا واصلوا، فأنكر عليهم، وقال: «لَوْ مُدَّ بِيَ الشَّهْرُ لَوَاصَلْتُ وِصَالاً يَدَعُ الْمُتَعَمِّقُونَ تَعَمُّقَهُمْ، إِنِّي لَسْتُ مِثْلَكُمْ، إِنِّي أَظَلُّ يُطْعِمُنِي

(١) ينظر: مغني اللبيب: ٣٢٣/١.
(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٥٢، وشروح التلخيص: ٥٣/٣.
(٣) أخرجه البخاري: (١٩٢٢ و١٩٦٢)، ومسلم: (١١٠٢).
(٤) أخرجه البخاري: (١٩٦٥)، ومسلم: (١١٠٣).

رَبِّي وَيَسْقِينِ»[(١)]، والمقام هنا مقام إنكار عليهم حينما واصلوا و لم ينتهوا، فاستحسن الفصل بين الجمل كما قيل سابقًا، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أبي قتادة t السابق في رجال استعجلوا إلى الصلاة، فكان لهم جلبة، فقال لهم النبي r : «فَلا تَفْعَلُوا، إِذَا أَتَيْتُمْ الصَّلاةَ فَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»[(٢)]، فقول النبي r : «فَلا تَفْعَلُوا» يثير تساؤلاً عند المخاطب عما ينبغي فعله إذًا، فجاءت الجملة الثانية مفصولة لتكون في مقام الجواب عن السؤال المقدر، و لم يكن النبي r لينتظر سؤالهم، ولعله بادر إلى الجواب إغناء للمخاطب عن أن يسأل أو إيجازًا أو إشعارًا للمخاطب بأهمية ما يخاطبه به حينما عجل بالجواب، وقد يـراد جميـع هـذا، والنكات البلاغية لا تتزاحم، والله أعلم.

ومثل هذا حديث أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما أن رسـول الله r استعمل رجلاً على خيبر، فجاءه بتمر جنيب، فقال رسول الله r : «أَكُلُّ تَمْرِ خَيْبَرَ هَكَذَا؟» قال: لا، والله، يا رسول الله. إنا لنأخذ الصاع من هذا بالصـاعين، والصـاعين بالثلاثة. فقال رسول الله r : «فَلا تَفْعَلْ. بِعْ الْجَمْعَ بِالدَّرَاهِمِ ثُمَّ ابْتَعْ بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا»[(٣)]، فإن نهي النبي r عن هذا الفعل يثير تساؤلاً عند المخاطب لمعرفة الطريقة الجائزة فجاء بها النبي r من غير انتظار لسؤاله تعجيلاً له بمعرفة الصواب، وجاء الجواب في جملة مفصـولة عن سابقتها، لتنزيلها منزلة الجواب عن السؤال، والله أعلم. وأكثر الروايات على الفصل، مع أن الجملتين اتحدتا في الإنشائية وبينهما جامع، فحقهما الوصل عند البلاغيين، لكن فصـل بينهما لما ذكر، والله أعلم.

ث- وقد يأتي الفصل في مقام الحرب، ومن ذلك حديث البراء بن عازب t أن رجلاً قال له: أكنتم وليتم يوم حنين، يا أبا عمارة؟ فقال: أشهد على نبي الله r ما ولّـى، ولكنه انطلق أَخِفّاء من الناس وحُسَّر إلى هذا الحي من هوازن، وهم قوم رمـاة، فرمـوهم برشق من نبل كأنها رِجل من جراد، فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله r ، وأبو سفيان

---

(١) أخرجه البخاري: (٧٢٤١) ، ومسلم: (١١٠٤).

(٢) ينظر ص (١٣٢) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٢٠١) ، ومسلم: (١٥٩٣).

ابن الحارث t يقود به بغلته، فترل رسول الله r ، ودعا، واستنصر، وهو يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِب، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِب» ثم صفهم(١).

وقد فصل النبي r بين الجملتين الخبريتين، مع أنه موضع وصل عند البلاغيين لاتفاقهما في الخبرية مع وجود جهة جامعة بينهما، ولعل الفصل لما يعطيه من قوة في نبرة الصوت، ليتغلغل هذا الخطاب في قلوب أصحابه y إظهارًا للشجاعة والقوة والاستهانة بالعدو، في مقابل تولي من تولى منهم، وتذكيرًا بصدق نبوته ووعد ربه U، وتقوية لقلوبهم وحثًا لهم على الثبات، وقد سبق قول النووي (٦٧٦هـ): ((أراد النبي r تذكيرهم بذلك وتنبيههم بأنه r لا بد من ظهوره على الأعداء، وأن العاقبة له، لتقوى نفوسهم، وأعلمهم أيضًا بأنه ثابت ملازم للحرب، لم يولّ مع من ولّى، وعرّفهم موضعه ليرجع إليه الراجعون، والله أعلم))(٢).

وبعد، فليس المقصود هو استقصاء المواقف والشواهد والأغراض على استعمال النبي r لأسلوبي الوصل والفصل، وإلا فيكاد كل خطاب أن يحوي أحد هذين الأسلوبين أو كليهما، وإنما أردت أن أذكر شواهد تبين أن النبي r في خطابه يراعي مقتضى حال المخاطب، ولعل فيما ذكر كفاية، والحمد لله على توفيقه.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٨٦٤ و٢٨٧٤) ، ومسلم: (١٧٧٦).

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٢/١١٩-١٢٠، وينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٩/١٣٥، وفتح الباري: ٨/٣١، ومرقاة المفاتيح: ٦/٤٤٠، و٩/١١٨.

المبحث السابع: الإيجاز والإطناب.

- الإيجاز والإطناب عند البلاغيين.

تعددت عبارات البلاغيين في تعريف الإيجاز والإطناب، إلا أن أكثر عباراتهم تجتمع على أن الإيجاز هو: التعبير الوافي عن المعنى المراد بلفظ قليل، والإطناب عكسه، وكل ذلك لفائدة[١].

وقد بحثهما البلاغيون مبينين المراد بهما، وأنواعهما، ومواضع كل منهما، فإن الإيجاز وإن تمدح به البلغاء، وبالغ بعضهم في قصر البلاغة عليه؛ إلا أن من المواضع ما لا يحسن فيه، وقد قال ابن قتيبة: ((لو كان الإيجاز محمودًا في كل الأحوال لجرّده الله تعالى في القرآن، ولم يفعل الله ذلك، ولكنه أطال تارة للتوكيد، وحذف تارة للإيجاز، وكرر تارة للإفهام))[٢].
للإفهام))[٢].

وقال أبو هلال العسكري: ((القول القصد أن الإيجاز والإطناب يحتاج إليهما في جميع الكلام، وكل نوع منه، ولكل واحد منهما موضع، فالحاجة إلى الإيجاز في موضعه كالحاجة إلى الإطناب في مكانه، فمن أزال التدبير في ذلك عن وجهته، واستعمل الإطناب في موضع الإيجاز، واستعمل الإيجاز في موضع الإطناب أخطأ))[٣].

وقال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((كما يجب على البليغ في مظان الإجمال والإيجاز أن يجمل ويوجز؛ فكذلك الواجب عليه في موارد التفصيل والإشباع أن يفصل ويشبع. أنشد الجاحظ[٤]:

يُوحُونَ بالخُطَبِ الطِّوَالِ وتَارَةً وَحْيَ المُلاَحِظِ خِيفَةَ الرُّقَباءِ))[٥].

---

(١) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١/٢٢٤ و٣٤٤، وطرق التعبير الأدبي، دراسة بلاغية: ٥٧-٦٩ و٢١٠.

(٢) أدب الكاتب: ١٩.

(٣) كتاب الصناعتين: ١٩٠.

(٤) ينظر: البيان والتبيين: ١/٤٤، وفيه: يَرْمُون.

(٥) الكشاف: ١/٨٥.

ومع هذا فإن الناظر في تراث العرب البلاغي والأدبي يلحظ الاحتفاء بالإيجاز، وميلهم إليه، حتى كان مقياسًا من المقاييس البلاغية والنقدية[1]، قال ابن جني (٣٩٢هـ): ((قيل لأبي عمرو: أكانت العرب تطيل؟ فقال: نعم لتبلغ. قيل: أفكانت توجز؟ قال: نعم ليحفظ عنها.

واعلم أن العرب -مع ما ذكرنا- إلى الإيجاز أميل، وعن الإكثار أبعد. ألا ترى أنها في حال إطالتها وتكريرها مؤذنة باستكراه تلك الحال وملالها، ودالة على أنها إنما تجشمتها لما عناها هناك وأهمها، فجعلوا ما في ذلك على العلم بقوة الكلفة فيه، دليلاً على إحكام الأمر فيما هم عليه... ثم لنعد فنقول: إنهم إذا كانوا في حال إكثارهم وتوكيدهم مستوحشين منه، مصانعين عنه علم أنهم إلى الإيجاز أميل، وبه أعنى، وفيه أرغب، ألا ترى إلى ما في القرآن وفصيح الكلام من كثرة الحذوف، كحذف المضاف، وحذف الموصوف، والاكتفاء بالقليل من الكثير، كالواحد من الجماعة، وكالتلويح من التصريح. فهذا ونحوه -مما يطول إيراده وشرحه- مما يزيل الشك عنك في رغبتهم فيما خف وأوجز، عما طال وأمل، وأنهم متى اضطروا إلى الإطالة لداعي حاجة، أبانوا عن ثقلها عليهم، واعتدوا بما كلفوه من ذلك أنفسهم، وجعلوه كالمنبهة على فرط عنايتهم، وتمكن الموضع عندهم، وأنه ليس كغيره مما ليست له حرمته، ولا النفس معنية به. نعم، ولو لم يكن في الإطالة في بعض الأحوال إلا الخروج إليها عما قد ألف ومل من الإيجاز لكان مقنعًا))[2].

- الإيجاز والإطناب في الخطاب النبوي.

إذا كان هذا شأن العرب في الاحتفاء بالإيجاز فإنه في كلام النبي ﷺ أبين وأكثر احتفاء، من غير تكلف له ولا عجز عن غيره، حتى عد السمة البارزة التي تميز الحديث النبوي، ((ومن أولى منه بالفصاحة وأحق بالإيجاز وقد قال: «أُعْطِيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ»))[3]، وذكر البخاري بعد روايته لهذا الحديث قول الزهري: ((بلغني أن (جوامع الكلم) أن الله

---

(١) ينظر: مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء: ٢٢٥، وطرق التعبير الأدبي، دراسة بلاغية: ٦٩-٧٣.

(٢) الخصائص: ١/٨٣-٨٧.

(٣) العمدة: ١/٢٥٣، وينظر: الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه: ١٠٩، والحديث أخرجه البخاري: (٢٩٧٧ و٧٠١٣) ، ومسلم: (٥٢٣).

يجمع الأمور الكثيرة التي كانت تكتب في الكتب قبله في الأمر الواحد والأمرين، أو نحو ذلك))[(١)].

وقد وصف الجاحظ (٢٥٥هـ) كلامه ﷺ بأنه ((الكلام الذي قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه، وجلَّ عن الصّنعة، ونُزِّه عن التكلف...

وهو الكلام الذي ألقى الله عليه المحبة، وغشَّاه بالقبول، وجمع له بين المهابة والحلاوة، وبين حسن الإفهام، وقلة عدد الكلام، مع استغنائه عن إعادته، وقلة حاجة السامع إلى معاودته، لم تسقط له كلمة، ولا زلّت به قدم، ولا بارت له حجّة، ولم يقم له خصم، ولا أفحمه خطيب، بل يبذّ الخطب الطِّوال بالكلم القصار))[(٢)].

وقال الرافعي (١٣٥٦هـ) في اجتماع كلمه وقلته: ((ومن كمال النفس العظيمة وغلبة فكره ﷺ على لسانه قلّ كلامه، وخرج قصدًا في ألفاظه، محيطًا بمعانيه، تحسب النفس قد اجتمعت في الجملة القصيرة والكلمات المعدودة بكل معانيها، فلا ترى من الكلام ألفاظًا، ولكن حركات نفسية في ألفاظ، ولهذا كثرت الكلمات التي انفرد بها دون العرب، وكثرت جوامع كلمه...

هذا إلى أن اجتماعَ الكلام وقلة ألفاظه مع اتساع معناه وإحكام أسلوبه في غير تعقيد ولا تكلف، ومع إبانة المعنى واستغراق أجزائه، وأن يكون ذلك عادة وخلقًا يجري عليه الكلام في معنًى معنى، وفي بابٍ باب، شيءٌ لم يعرف في هذه اللغة لغيره ﷺ؛ لأنه في ظاهر العادة يستهلك الكلام ويستولي عليه بالكلف، ولا يكون أكثر ما يكون إلا باستكراه وتعمل، كما يشهد به العيان والأثر، فكان تيسير ذلك للنبي ﷺ واستجابته على ما يريد وعلى النحو الذي خرج به نوعًا من الخصائص التي انفرد بها دون الفصحاء والبلغاء، وذهب بمحاسنها في العرب جميعًا))[(٣)].

---

(١) فسر بعض العلماء (جوامع الكلم) بالقرآن، قال ابن حجر في فتح الباري: ٢٤٧/١٣: ((جزم غير الزهري بأن المراد بجوامع الكلم القرآن، بقرينة قوله: «بعثت» والقرآن هو الغاية في إيجاز اللفظ واتساع المعاني)).

(٢) البيان والتبيين: ١٦/٢-١٧.

(٣) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: ٣٠٠-٣٠١.

وقد رويت أحاديث تدل على أن النبي r كان يعلي شأن الإيجاز ويحث عليه، منها ما روي أنه قال لجرير بن عبد الله البجلي t : «يَا جَرِيرُ، إِذَا قُلْتَ فَأَوْجِزْ، وَإِذَا بَلَغْتَ حَاجَتَكَ فَلا تَتَكَلَّفْ»(١).

وروي أنه قال لأعرابي تكلم فطوّل: «نَظَّرَ اللهُ وَجْهَ امْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلامِهِ، فَاقْتَصَرَ عَلَى حَاجَتِهِ»(٢).

وأخرج مسلم أن عمار بن ياسر t خطب فأوجز وأبلغ، فلما نزل قيل له: يا أبا اليقظان، لقد أبلغت وأوجزت، فلو كنت تَنَفَّسْت. فقال: إني سمعت رسول الله r : يقول: «إِنَّ طُولَ صَلاةِ الرَّجُلِ وَقِصَرَ خُطْبَتِهِ مَئِنَّةٌ مِنْ فِقْهِهِ، فَأَطِيلُوا الصَّلاةَ، وَاقْصُرُوا الْخُطْبَةَ، وَإِنَّ مِنْ الْبَيَانِ سِحْرًا»(٣).

وقد نهى النبي r عن الاعتداء في الدعاء، ومنه الإطناب فيه من غير فائدة، كما روى ابن لسعد بن أبي وقاص t قال: سمعني أبي وأنا أقول: اللهم إني أسألك الجنة، ونعيمها، وبهجتها، وكذا وكذا، وأعوذ بك من النار، وسلاسلها، وأغلالها، وكذا وكذا. فقال: يا بني، إني سمعت رسول الله r يقول: «سَيَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ» فإياك أن تكون منهم، إنك إن أعطيت الجنة أعطيتها وما فيها من الخير، وإن أعذت من النار أعذت منها وما فيها من الشر(٤)، وعن عبد الله بن مغفل t أنه سمع ابنه يقول: اللهم إني أسألك القصر الأبيض عن يمين الجنة إذا دخلتها. فقال: يا بني، سل الله تبارك وتعالى الجنة، وعذ به من النار، فإني سمعت رسول الله r يقول: «يَكُونُ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطُّهُورِ»(٥).

---

(١) ذكره المبرد في الكامل: ١/١٠، ولم أجد له ذكرًا في كتب السنة، وينظر: الحديث النبوي: ١١١.

(٢) ذكره الماوردي في أدب الدنيا والدين: ٢٨٥ بصيغة التضعيف، وابن رشيق في العمدة: ١/٢٤١، ولم أجد له ذكرًا في كتب السنة، وينظر: الحديث النبوي: ١١١.

(٣) أخرجه مسلم: (٨٦٩). ومعنى تَنَفَّسْت: أطلت قليلاً، ومَئِنة: علامة، وينظر: شرح صحيح مسلم: ٦/١٥٨.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده: ١/١٧٢ و١٨٣، وأبو داود في سننه: كتاب الصلاة، باب الدعاء، برقم (١٤٨٠)، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/٢٧٧، برقم (١٣١٣).

(٥) أخرجه أحمد في مسنده: ٤/٨٦ و٨٧ و٥/٥٥، وأبو داود في سننه: كتاب الطهارة، باب الإسراف في الماء، برقم (٩٦) ، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود: ١/٢١، برقم (٨٧).

وهذا هو الهدي النبوي في خطبه وكلامه أنه r يوجز ولا يطيل، وقد روي عن أبي سعيد الخدري t قال: صلى بنا رسول الله r يومًا صلاة العصر بنهار، ثم قام خطيبًا، فلم يدع شيئًا يكون إلى قيام الساعة إلا أخبرنا به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه[1].

وقال الدكتور محمد الصباغ: ((وليس معنى هذا أن كلامه r في هذه الخطب الطويلة قد جانب الإيجاز، فإننا عندما ننظر في هذه الخطب الطوال التي رويت نجد سمة الإيجاز ملازمة لجملها))[2].

على أنه يرد في الخطاب النبوي ألفاظ تعد من صور الإطناب عند البلاغيين، لكنها ترد في خطاب يوصف بالنظر إليه كله دون جزئياته بصفة الإيجاز لا الإطناب، وكلاهما جاء بحسب مقتضى الحال، وسأذكر هنا ما جاء منهما مراعيًا فيه النبي r مقتضى حال المخاطب، مبتدئًا بالإيجاز لأهميته وابتداء البلاغيين به، ثم الإطناب.

أ- الإيجاز.

يقسم جمهور البلاغيين الإيجاز إلى: إيجاز قِصَر وهو ما لم يكن بحذف، وإيجاز حذف وهو ما كان بحذف شيء من الكلام[3].

أما الحذف في الخطاب النبوي فقد سبق ذكر شواهد له في مبحث الحذف والذكر من هذا الفصل كافية في الدلالة على أن النبي r يراعي حال المخاطب في حذف شيء من الكلام، فليرجع إليه.

وأما إيجاز القِصَر فقد شاع في كلامه r، بل إذا أطلق الإيجاز في وصف كلام النبي r فإنما ينصرف أولاً إلى هذا النوع الذي قال فيه r الحديث السابق: «أُعْطِيْتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ». وتمدح العرب بالإيجاز إنما هو في أمر هذا النوع أكثر من غيره، قال العلوي (٧٤٩هـ): ((وهذا القسم من الإيجاز له في البلاغة موقع عظيم، دقيق المجرى، صعب

---

(١) أخرجه أحمد: ١٩/٣، والترمذي: أبواب الفتن، باب ما أخبر النبي r أصحابه بما هو كائن، برقم (٢١٩١) وحسنه الترمذي، وضعفه الألباني في ضعيف سنن الترمذي: ٢٤٨، برقم (٣٨٥).

(٢) الحديث النبوي، مصطلحه، بلاغته، كتبه: ١١٠.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ١٨٣/٣ و١٩٠، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٣٤٧/١ و٣٤٩ و٣٦١، وطرق التعبير الأدبي، دراسة بلاغية: ٧٥.

المرتقى، لا يختص به من أهل الصناعة إلا واحد بعد واحد))[1]، وقال الدكتور محمد أبو موسى: ((حينما نتأمل إيجاز القصر نجد له طبيعة خاصة تجعله متميزًا، فالكلام الذي يصاغ من أول أمره على الإيجاز، أو يدخل في بنية تركيبه، ولم يعرض له حذف، أدق مسلكًا من إيجاز الحذف؛ لأن الحذف يعني أن العبارة جرت على المعنى، وامتدت بامتداده، ثم سقط جزء منها، وأقيم عليه الدليل. أما إيجاز القصر فإنه تطويع للمعنى الكثير، وإلباسه بنية لفظية قليلة، وهذا جهد صعب؛ لأنه يعني ضغط المعنى ضغطًا حاذقًا، لا يضيِّع منه شيئًا، ثم مدّ اللفظ القصير عليه وبسطه حتى يستولي على كل دقيقة في حاشية المعنى. ولهذا احتاج هذا الأسلوب إلى فطنة ووعي، وسليقة ودربة تعرف كيف تصطنع اللمح والإيحاء. واللفظ فيه يدل على معنى، ويومئ بثان وثالث))[2].

ويأتي هذا الإيجاز مراعيًا لحال المخاطب في عدة مواقف، منها:

١- مراعاة حال المريض أو المصاب بمصيبة، وقد سبق الإشارة إلى أن من سمات خطاب المريض الإيجاز في الخطاب، وقصر فقراته. والمريض يحتاج إلى مثل هذا الإيجاز، لأنه يضجر من طول الحديث، كما يضجر من طول الزيارة، مراعاة لحالته النفسية من جهة، وتركًا له ليقوم ببعض الحاجات التي قد يستحي من فعلها عند الزائر، وأوردت في ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله r كان إذا أَتى مريضًا أو أُتِي به قال: «أَذْهِبِ الْبَاسَ، رَبَّ النَّاسِ، اشْفِ وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا»[3].

ومن ذلك حديث أنس t أن النبي r مَرَّ بامرأة تبكي ولدها عند قبره فقال لها: «اتَّقِي اللَّهَ وَاصْبِرِي»[4]، وفي هذا القول الموجز من المعاني الكثيرة ما يطول ذكرها لو خاطب النبي r المرأة بها، إلا أن المقام لا يقتضي الإطالة، فالمخاطب واقع في مصيبة، ونفسه تضيق عن أي كلام فكيف بما طال منه، والله أعلم.

---

(١) الطراز: ٢٥٩.

(٢) الإعجاز البلاغي: ٩٢-٩٣، وينظر: طرق التعبير الأدبي، دراسة بلاغية: ١٨٧.

(٣) ينظر ص (١٤٧، ١٥٠) من هذا البحث.

(٤) أخرجه البخاري: (١٢٨٣)، ومسلم: (٩٢٦).

ومن ذلك أيضًا قوله r لابنته زينب رضي الله عنها لما توفي ابن لها: «إِنَّ لِلَّـــهِ مَـــا أَخَذَ، وَلَهُ مَا أَعْطَى، وَكُلٌّ عِنْدَهُ بِأَجَلٍ مُسَمًّى، فَلْتَصْبِرْ وَلْتَحْتَسِبْ»[1]، وهذه ألفاظ موجزة، لكنها تحمل من المعاني والمضامين ما يطول شرحها والتعبير عنها، ولو أردت أن أعبر عنـــها بلفظ أطول منها مع إيجاز لقلت: إن الله U هو الذي خلق الخلق، فهو مالكهم والمتصرف في أمرهم، وهو الذي يعطي عباده الأولاد، وليسوا هم الذين خلقوهم، فإذا أخذهم فإنـــه يأخذ ما خلق وأعطى، والله U قد جعل لكل عبد أجلاً لا يتعداه، فإذا جاء أجلـــه فـــلا يستأخر عنه ولا يستقدم، وهذا يستوجب عليك الرضا بقضاء الله وقدره، فتصبري على ما قضاه، وتحتسبي الأجر عند الله.

ولو أراد متكلم أن يطنب في التعبير عن هذه المعاني لكان له ذلك، إلا أن المقام لمـــا كان مع مصاب بولده اقتضى ذلك من النبي r أن يوجز، خاصة أنها ابنته، ولم يبد منـــها تسخط وشكاية، حتى تحتاج إلى إطناب في الموعظة، والله أعلم.

٢- وقد يأتي الإيجاز لإرادة العموم، على اختلاف في أحوال المخـــاطبين، ومـــن ذلك أن أبا موسى t بعثه النبي r إلى اليمن، فقال: يا نبي الله، إن أرضنا بها شراب مـــن الشعير المِزْر، وشراب من العسل البِتْع، فقال: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ». وفي رواية: فقلـــت يـــا رسول الله، أفتنا في شرابين كنا نصنعهما باليمن؛ البِتْع وهو من العسل ينبذ حـــتى يشـــتد، والمِزْر وهو من الذرة والشعير ينبذ حتى يشتد، قال: وكان رسول الله r قد أعطي جوامـــع الكلم بخواتمه: فقال: «أَنْهَى عَنْ كُلِّ مُسْكِرٍ أَسْكَرَ عَنْ الصَّلاةِ»[2]، وجواب النبي r هو من جوامع كلمه، وموجز لفظه، كما ذكر أبو موسى t ، فإن النبي r لم يجب أبا موسى عما سأل عنه بعينه، وإنما أفتاه بقاعدة عامة: «كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ». وحاجة أبي موسى إلى القواعد العامة أكثر، لكونه في بلاد بعيدة عن النبي r ، فربما استجدت بين وقت وآخر أشربة عنـــد رعيته غير ما سأل عنه، فيشق عليه أن يسأل عن كل شراب بعينه، فأفتاه النبي r بحكم عام يتزله أبو موسى على كل ما ينطبق عليه مما هو حاصل أو سيحصل، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (١٢٨٤) ، ومسلم: (٩٢٣).

(٢) أخرجه البخاري: (٤٣٤٢ و٤٣٤٥ و٦١٢٤ و٧١٧٢) ، ومسلم: (١٧٣٣).

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله t قال: مرت جنازة فقام لها رسول الله r ، وقمنا معه، فقلنا: يا رسول الله، إنها يهودية. فقال: «إِنَّ الْمَوتَ فَزَعٌ، فَإِذَا رَأَيْتُمُ الْجَنَازَةَ فَقُومُوا» وقد سبق الحديث[1]، وذكرت أن الصحابة y ظنوا أن جنازة غير المسلم لا يؤبه لها كالمسلم، فنبههم النبي r إلى أن الحالة الجامعة بينهما هي الموت، والموت مما ينبغي أن لا يتساهل في أمره ويغفل عنه، بل يفزع له، فإذا رأى المرء أيَّ جنازة فعليه أن يقلق ويضطرب ولا يظهر عدم الاحتفال وعدم المبالاة، ولهذا جاء لفظ (الجنازة) معرفًا بأل الاستغراقية، التي تفيد استغراق كل من يطلق عليهم لفظ مدخولها[2]، تنبيهًا للصحابة y إلى أن القيام لكل جنازة، لا لجنازة المسلم فقط كما ظنوه، والله أعلم.

ومن ذلك حديث حكيم بن حزام t أنه قال: قلت: يا رسول الله، أرأيت أشياء كنت أتحنث بها في الجاهلية من صدقة أو عتاقة وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبي r : «أَسْلَمْتَ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْ خَيْرٍ»[3]، وسؤال حكيم t يقتضي بظاهره التصديق، فيكون الجواب بـ(نعم) أو (لا) ، ولو أجابه النبي r بـ(نعم) لكان هذا جوابًا عما سأله من أعمال مذكورة، وقد يكون له غيرها و لم يذكرها، فأجابه بلفظ موجز يعم كل خير صنعه حكيم في الجاهلية، فيثاب عليه بعد إسلامه، والله أعلم.

وقد كان لهذا القول أثره على حكيم t فقال في رواية مسلم: فوالله لا أدع شيئًا صنعته في الجاهلية إلا فعلت في الإسلام مثله.

٣- وقد يأتي الإيجاز لإرادة الحصر، ومن ذلك حديث أبي موسى t أن أعرابيًا أتى النبي r فقال: يا رسول الله، الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليُذكر، والرجل يقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله r : «مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ»[4]، وهذا الجواب الموجز يراد به -والله أعلم- قصر القتال لإعلاء كلمة الله على كونه في سبيل الله، ونفي كل صورة سأل عنها السائل وغيرها مما لم يرد في سؤاله،

---

(١) ينظر ص (٣٣١) من هذا البحث.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٢١٦، وشروح التلخيص: ١/٣٢٨، والتبيان في البيان، للطيبي: ١/١٦٠.

(٣) أخرجه البخاري: (١٤٣٦ و٢٢٢٠) ، ومسلم: (١٢٣).

(٤) أخرجه البخاري: (١٢٣ و٢٨١٠ و٣١٢٦) ، ومسلم: (١٩٠٤).

إذا كانت غير واردة على الصورة المذكورة في الجواب، ولو اقتصر على نفي ما سأل عنه لاحتمل أن بعض ما لم يسأل عنه يصح أن يكون في سبيل الله، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وفي إجابة النبي r بما ذكر غاية البلاغة والإيجاز، وهو من جوامع كلمه r ؛ لأنه لو أجابه بأن جميع ما ذكره ليس في سبيل الله احتمل أن يكون ما عدا ذلك كله في سبيل الله، وليس كذلك))(١)، والله أعلم.

ومن ذلك حديث ابن عباس t قال: وجد النبي r شاة ميتة أُعطيتها مولاة لميمونة من الصدقة، فقال النبي r : «هَلاَّ انْتَفَعْتُمْ بِجِلْدِهَا» قالوا: إنها ميتة. قال: «إِنَّمَا حَرُمَ أَكْلُهَا»(٢)، فالمخاطبون ظنوا أن تحريم الميتة شامل لجميع أجزائها في كل حال، فأجابهم النبي r بلفظ موجز يدل على حصر التحريم في الأكل منها، دون سواه، والله أعلم(٣).

ويدخل في هذا الغرض الشواهد المذكورة في طرق القصر بالاستثناء من النفي وإنما والتقديم، فليرجع إليها من استزاد، فكل صورة منها تفيد الإيجاز.

٤- وقد يوجز النبي r حياءً، خاصة إذا كان الموضوع يتصل بشأن النساء، والنبي r أشد حياء من العذراء في خدرها، وقد سبق ذكر شواهد على ذلك في خطاب النبي r للمرأة في الفصل الأول(٤).

ومن ذلك حديث عائشة أن امرأة سألت النبي r عن غسلها من المحيض، فأمرها كيف تغتسل، قال: «خُذِي فِرْصَةً مِنْ مَسْكٍ فَتَطَهَّرِي بِهَا» قالت: كيف أتطهر؟ قال: «تَطَهَّرِي بِهَا» قالت: كيف؟ قال: «سُبْحَانَ اللهِ، تَطَهَّرِي» فاجتبذتها إلي فقلت: تتبعي بها أثر الدم. وفي رواية قالت عائشة: ثم إن النبي صلى الله عليه وسلم استحيا فأعرض بوجهه، أو قال: «تَوَضَّئِيْ بِهَا» فأخذتها فجذبتها فأخبرتها بما يريد النبي r . فالنبي r هنا أوجز مع المرأة وعَرَّض مراعاة للحياء معها في أمر يستحيا منه، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري: ٦/٢٩.
(٢) أخرجه البخاري: (١٤٩٢ و٢٢٢١) ، ومسلم: (٣٦٣).
(٣) ينظر: فتح الباري: ٩/٦٥٨.
(٤) ينظر ص (١١١) من هذا البحث.

٥- وقد يوجز النبي r في خطاب الطفل، مع وضوحه له، لأن الطفل في مثل هذا السن لا يستوعب كل ما يقال له، وثروته اللفظية محدودة، كما في حديث أنس t في موقف النبي r مع أخيه أبي عمير t وقوله له: «أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟».

وقد سبق الحديث في الفصل الأول[(١)]، وخطاب النبي r مع هذا الطفل مكون من جملتين؛ ندائية «أَبَا عُمَيْرٍ» واستفهامية «مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»، وكلتاهما موجزتان واضحتان، لم يتعد النبي r فيهما الألفاظ التي يفهمها الطفل، والله أعلم.

ومن ذلك قوله لعمر بن سلمة t وكان غلامًا في حَجْر رسول الله r، وكانت يده تطيش في الصحفة، فقال له رسول الله r: «يَا غُلامُ، سَمِّ اللهَ، وَكُلْ بِيَمِينِكَ، وَكُلْ مِمَّا يَلِيكَ» قال عمر t: فما زالت تلك طِعمتي بعد[(٢)].

٦- وقد يوجز النبي r مع المعاند المستكبر؛ لإشعاره بضعته واحتقاره، وترفع النبي r عن معاندته ومجادلته، كما في موقفه r مع مسيلمة الكذاب لما قدم مع قومه وقال: إن جعل لي محمد الأمر من بعده تبعته. فأقبل إليه الرسول r ومعه خطيبه ثابت بن قيس، وفي يده قطعة جريد، فقال: «لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ، وَإِنِّي لأَرَاكَ الَّذِي أُرِيتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ. وَهَذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي» ثم انصرف عنه.

وسبق ذكر الحديث في الفصل الأول[(٣)]، وذكرت أن من سمات خطاب النبي r مع مسيلمة: الإيجاز؛ لأن المخاطب بعرضه المعاند لا يستحق أن يطيل النبي r معه الكلام، ولذا اكتفى بكلمات يسيرات تهز الجبال الرواسي، تفيض بالتحقير والتهديد، وأسند أمر الإطالة إن رغب المخاطب إلى خطيبه ثابت بن قيس، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((كان النبي r قد أعطي جوامع الكلم، فاكتفى بما قاله لمسيلمة، وأعلمه أنه إن كان يريد الإسهاب في

---

(١) ينظر ص (١١٤) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٣٧٦)، ومسلم: (٢٠٢٢).

(٣) ينظر ص (٦٤) من هذا البحث.

الخطاب فهذا الخطيب يقوم عني في ذلك. ويؤخذ منه استعانة الإمام بأهل البلاغة في جواب أهل العناد ونحو ذلك))[١].

(١) فتح الباري: ٨/٩٠.

ب- الإطناب.

الإطناب كما سبق يكون بزيادة في اللفظ على المعنى لفائدة، وإذا لم تحقق الزيادة فائدة كانت تطويلاً وحشوًا ((والحكم بزيادة كلمة وعدم فائدتها تابع للمقام والحال التي قيلت في جوها الكلمة، ولا تستطيع أن تقطع بعدم الفائدة إلا إذا أحطت بالسياق وعرفت قرائن أحواله))[١].

وذكر البلاغيون عدة صور للإطناب، منها: الإيضاح بعد الإبهام، وذكر الخاص بعد العام، وعكسه، والتكرير، والإيغال، والتذييل، والتكميل والاحتراس، والتتميم، والاعتراض، وغيرها[٢].

و لم يخل كلام النبي r من الإطناب، لكنه إطناب بالنسبة إلى سائر كلامه r ، ففي بعض خطبه التي بلغتنا كخطبة حجة الوداع أو خطبته في الأنصار لما وجدوا في أنفسهم عليه، نجد النبي r يطيل على غير المعتاد في أحاديثه، وهي مقامات تقتضي الإطالة، ففي حجة الوداع اجتمع عنده خلق كثير ليسوا ممن يصحبه ويلازمه في المدينة فأراد r أن يقرر عندهم أصول الإسلام وقواعده العظام، ويرجعوا بها إلى أقوامهم، فأطال في خطبته، وفي خطبته في الأنصار أراد النبي r أن يذهب ما في قلوبهم، ويطيب نفوسهم، والنبي r يخاطب فيهم العواطف والمشاعر، وهذا مقام يحتاج إلى إطالة حتى يطمئن المتكلم إلى أنه قد سل كل ما في نفوسهم، وقد سبق ذكر الخطبتين بتمامهما[٣]، على أن الخطبتين في الحقيقة بنيتا على الإيجاز، لكن الإطناب الذي ندعيه فيهما إطناب نسبي، كما ذكرت آنفًا، والله أعلم.

وقد وردت صور من الإطناب في خطابه r ، لكنها كما ذكرت آنفًا ترد في خطاب يوصف بالنظر إليه كله دون جزئياته، بصفة الإيجاز لا الإطناب، وسأذكر بعضًا من صور الإطناب التي وردت في الخطاب النبوي مستشهدًا لها ببعض الشواهد التي تبين أن النبي r يراعي في اختيار صورة الإطناب مقتضى حال المخاطب، وسأرتب هذه الصور كما ذكرها جمهور البلاغيين.

---

(١) علم المعاني، لفيود: ٢/٢٥٥.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٣/٢٠٩-٢٥١، وطرق التعبير الأدبي، دراسة بلاغية: ٢٢٧.

(٣) ينظر ص (٧٤، ١٥١) من هذا البحث.

أ- الإيضاح بعد الإبهام.

ذكر البلاغيون أغراضًا للإيضاح بعد الإبهام، ومن ذلك ما قاله القزويني (٧٣٩هـ) في أغراض هذا النوع من الإطناب: ((ليُرى المعنى في صورتين مختلفتين. أو ليتمكن في النفس فضل تمكن، فإن المعنى إذا ألقي على سبيل الإجمال والإبهام تشوقت نفس السامع إلى معرفته على سبيل التفصيل والإيضاح، فتتوجه إلى ما يرد بعد ذلك، فإذا ألقي كذلك تمكن فيها فضل تمكن وكان شعورها به أتم. أو لتكمل اللذة بالعلم به، فإن الشيء إذا حصل كمال العلم به دفعة لم يتقدم حصول اللذة به ألم، وإذا حصل الشعور به من وجه دون وجه تشوقت النفس إلى العلم بالمجهول، فيحصل لها بسبب المعلوم لذة، وبسبب حرمانها عن الباقي ألم، ثم إذا حصل لها العلم به حصلت لها لذة أخرى، واللذة عقيب الألم أقوى من اللذة التي لم يتقدمها ألم. أو لتفخيم الأمر وتعظيمه))[(١)].

ومن شواهد الخطاب النبوي في هذا النوع حديث جابر t قال: اشتكى رسول الله r فصلينا وراءه، وهو قاعد، وأبو بكر يُسمِع الناسَ تكبيرَه، فالتفت إلينا، فرآنا قيامًا، فأشار إلينا، فقعدنا، فصلينا بصلاته قعودًا، فلما سلم قال: «إِنْ كِدْتُمْ آنِفًا لَتَفْعَلُونَ فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ؛ يَقُومُونَ عَلَى مُلُوكِهِمْ، وَهُمْ قُعُودٌ، فَلا تَفْعَلُوا، ائْتَمُّوا بِأَئِمَّتِكُمْ، إِنْ صَلَّى قَائِمًا فَصَلُّوا قِيَامًا، وَإِنْ صَلَّى قَاعِدًا فَصَلُّوا قُعُودًا»[(٢)].

وقد جاء الخطاب النبوي هنا في مقام التعليم وتصحيح الخطأ وتبشيعه، وجاء فيه الإيضاح بعد الإبهام في موضعين: الأول في قوله: «فِعْلَ فَارِسَ وَالرُّومِ» ثم بين فعلهم، ولعل في الإبهام هنا تعجيلاً بإظهار بشاعة فعلهم، حيث شابهوا الكفار من الفرس والروم. والثاني في قوله: «ائْتَمُّوا بِأَئِمَّتِكُمْ» ثم بين كيف يأتمون بالأئمة، ولعل في الإبهام هنا تشويقًا لهم لمعرفة كيفية الائتمام التي أخطأوا فيها، وهذا مقام تعليم وتصحيح للخطأ يحسن فيه الإطناب، والله أعلم.

---

(١) الإيضاح: ٣/٢١٠-٢١١.

(٢) أخرجه مسلم: (٤١٣).

ومن ذلك حديث عبد الله بن عمرو t لما أراد أن يصوم فلا يفطر ويقوم فلا ينام، وقد سبق الحديث[1]، وكان فيه قوله r له: «صُمْ أَفْضَلَ الصَّوْمِ صَوْمَ دَاوُدَ؛ صِيَامَ يَوْمٍ، وَإِفْطَارَ يَوْمٍ».

وفي هذا الحديث إبهامان وإيضاحان، أما الأول فقوله: «أَفْضَلَ الصَّوْمِ» ثم أوضحه بقوله: «صَوْمَ دَاوُدَ» لكنه إيضاح مبهم، فأوضح هذا الإبهام بقوله: «صِيَامَ يَوْمٍ، وَإِفْطَارَ يَوْمٍ». وفي رواية: «أَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ صَلاةُ دَاوُدَ u ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ؛ وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا» وفي هذه الرواية إبهامان جاء بيانهما بعد ذلك على طريقة اللف والنشر، وهو كما قال القزويني (٧٣٩هـ): ((ذكر متعدد على جهة التفصيل أو الإجمال، ثم ذكر ما لكل واحد من غير تعيين، ثقة بأن السامع يرده إليه))[2]. ولعل النبي r أراد ترغيبه في ترك التشديد على نفسه وهو الشاب الذي عليه حقوق أخرى غير التعبد الخاص، وينتظره عمر مديد، فيشق عليه المداومة على صيام كل يوم وقيام كل الليل، كما قال له النبي r : «فَإِنَّ لِجَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِزَوْرِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّكَ لا تَدْرِي لَعَلَّكَ يَطُولُ بِكَ عُمْرٌ». ولما كان المقام مقام ترغيب حسن الإبهام لتشويق المخاطب إلى الإيضاح، ولعل مما أسهم في التشويق صياغة الخطاب على أفعل التفضيل «أَفْضَلَ-أَحَبُّ» وإسناد الصوم والصلاة إلى داود الذي يقرأ عبد الله t وصف الله U له في كتابه بحسن العبودية كما قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الأيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ $ إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ $ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ [ص: ١٧-١٩]، قال السعدي (١٣٧٦هـ): ((لما أمر الله رسوله بالصبر على قومه، أمره أن يستعين على الصبر بالعبادة للّه وحده، ويتذكر حال العابدين، كما قال في الآية الأخرى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾ [طه: ١٣٠]. ومن أعظم العابدين، نبي الله داود عليه الصلاة والسلام ﴿ذَا الأيْدِ﴾ أي: القوة العظيمة على عبادة الله

---

(١) ينظر ص (٣٨) من هذا البحث.

(٢) الإيضاح: ٤/٣٢٩.

تعالى، في بدنه وقلبه. ﴿إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ أي: رجَّاع إلى الله في جميع الأمور بالإنابة إليه، بالحب والتأله، والخوف والرجاء، وكثرة التضرع والدعاء، رجَّاع إليه عندما يقع منه بعض الخلل، بالإقلاع والتوبة النصوح، ومن شدة إنابته لربه وعبادته، أن سخر الله الجبال معه، تسبح معه بحمد ربها ﴿بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ أول النهار وآخره، وسخر ﴿الطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ معه مجموعة ﴿كُلٌّ﴾ من الجبال والطير لله تعالى﴿أَوَّابٌ﴾ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ [سبأ: ١٠]، فهذه مِنَّةُ الله عليه بالعبادة))[(١)].

وقد جاء في رواية أخرى أن الإيضاح جاء بعد سؤال عبد الله t ، حيث قال له النبي r : «فَصُمْ صِيَامَ دَاوُدَ u » قال: وكيف كان داود يصوم، يا نبي الله؟ قال: «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلا يَفِرُّ إِذَا لاقَى» وهذا يدل على أن النبي r أبهم ترغيبًا وتشويقًا لعبد الله t أن يعرف ما أبهم، والله أعلم.

ويتبين من الشواهد السابقة أن الإيضاح قد يأتي متصلاً بالإبهام، بحيث يأتي الإيضاح من غير طلب من المخاطب، وقد يريد النبي r الإيضاح لكنه يأتي بعد طلب من المخاطب، ويبهم النبي r تشويقًا للمخاطب إلى معرفة ما أبهم، ليتمكن في النفس فضل تمكن، كما في حديث المسيء صلاته، حيث قال له النبي r : «ارْجِعْ، فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فرجع فصلى كما صلى، ثم جاء فسلم، فرد عليه السلام، وقال: «ارْجِعْ، فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ» فقال: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غيره، فعلمني. فعلمه النبي r الطمأنينة في الصلاة، وقد سبق الحديث بتمامه[(٢)]، والله أعلم.

ب- التكرير.

ويراد به تكرار اللفظ والمعنى، وذكر البلاغيون من أبرز أغراضه التأكيد، وزيادة التنبيه، وقد يأتي لطول الفصل بين أجزاء الجملة[(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان: ٧١١.

(٢) ينظر ص (١٢٨) من هذا البحث.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٣/٢١٨، وطرق التعبير الأدبي: ٢٦٦.

والتكرار في الخطاب النبوي ظاهرة ذكرها بعض أصحابه y، كما روى أنس t أنه r كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثًا حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثًا(١)، وعن ابن مسعود t أن النبي r كان إذا دعا دعا ثلاثًا(٢).

ولذا جاءت شواهد هذا النوع في الحديث النبوي كثيرة، وجاءت في عدة مقامات، غالبًا ما يراد بالتكرار فيها التأكيد، أذكر بعضًا منها مما راعى فيه النبي r مقتضى حال المخاطب.

من ذلك أن التكرار يأتي في الإنكار، تأكيدًا للزجر والنهي عن الشيء وإشعارًا للمخاطب بعظم بشاعة المنكر وشناعته، ومن ذلك حديث أبي سعيد الخدري t السابق في شراء بلال t التمر البرني الصاع منه بصاعين، فقال له النبي r عند ذلك: «أَوَّهْ، أَوَّهْ، عَيْنُ الرِّبَا، عَيْنُ الرِّبَا، لا تَفْعَلْ...». وفي الحديث تكراران جاءا في مقام الإنكار على وقوع المخاطب في الربا.

ومن ذلك قوله r لمن صلى النافلة حينما أقيمت صلاة الفجر: «آلصُّبْحَ أَرْبَعًا؟ آلصُّبْحَ أَرْبَعًا؟»(٣)، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «آلصُّبْحَ أَرْبَعًا؟» بهمزة ممدودة في أوله، ويجوز قصرها، وهو استفهام إنكار، وأعاده تأكيدًا للإنكار))(٤).

وقد سبق ذكر عدة شواهد للتكرار في هذا المقام، فيرجع إليها(٥).

وقد يأتي التكرار لمزيد من التفخيم والتعظيم، إظهارًا للثناء على حسن العمل والإعجاب به، كما في حديث أبي طلحة t السابق ذكره(٦)، وفيه أنه t تصدق ببستانه (بيرحاء) وكانت أحب أمواله إليه، فقال له الرسول r: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ».

(١) أخرجه البخاري: (٩٤ و٩٥ و٦٢٤٤).
(٢) أخرجه مسلم: (١٧٩٤) عن ابن مسعود t.
(٣) أخرجه البخاري: (٦٦٣)، ومسلم: (٧١١).
(٤) فتح الباري: ٢/١٥٠.
(٥) ينظر مثلاً ص (٥١، ٥٢) من هذا البحث.
(٦) ينظر ص (٣١٤) من هذا البحث.

وقد يأتي لمزيد من الترهيب، كما في دعاء النبي r على قريش في الحرم، حينما ألقوا عليه سلا الجزور وهو يصلي عند البيت، فجعلوا يضحكون ويحيل بعضهم على بعض، ورسول الله r ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءته فاطمة، فطرحت عن ظهره، فلما قضى رسول الله r صلاته، رفع صوته ودعا عليهم، ثم قال: «اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِقُرَيْشٍ» ثلاث مرات، فلما سمعوا صوته ذهب عنهم الضحك، وخافوا دعوته، فشق عليهم إذ دعا عليهم، قال ابن مسعود t : وكانوا يرون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة.

وقد سبق الحديث بتمامه[١]، وذكرت أن صيغة الدعاء فيها من القوة ما ينبئ عن شدة أذاهم، وعظم أثره في نفس النبي r ، وما يبعث الرهبة والخوف في نفوسهم، وفي تكرار الدعاء مزيد تأثير عليهم وتعميق لتهويلهم وترهيبهم، والله أعلم.

وقد يأتي التكرار لتسلية المخاطب وتطييب قلبه، كما في دعاء النبي r لسعد بالشفاء لما مرض بمكة في حجة الوداع مرضًا أشفى منه على الموت، وخشي أن يموت في الأرض التي هاجر منها، فعاده النبي r وهو يبكي، فدعا له وقال: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا» ثلاث مرار.

وقد سبق الحديث بتمامه[٢]، وذكرت أن النبي r دعا لسعد t بالشفاء ثلاث مرات ليجد سعد t في نفسه الطمأنينة والتفاؤل ورجاء الشفاء، لكن التكرار فيه تعميق وتأكيد لذلك، ومع أن من عادة النبي r أنه إذا دعا دعا ثلاثًا، إلا أن تكرار الدعاء هنا قد يكون لشدة ما وجده سعد t في نفسه من خشية الموت في مكة، فأراد النبي r أن يقابل ذلك بتكرار الدعاء، والله أعلم.

ومن تطييب نفس المخاطب حديث المسور بن مخرمة t أن النبي r قسم أقبية بين ناس من أصحابه، ولم يعط أباه منها شيئًا، فقال له أبوه: انطلق بنا إلى رسول الله r عسى أن يعطينا منها شيئًا، فقام أبوه على الباب، فتكلم، فعرف النبي r صوته، فخرج ومعه قَبَاء، وهو يريه محاسنه، ويقول: «خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، خَبَأْتُ هَذَا لَكَ» وفي رواية: «يَا أَبَا الْمِسْوَرِ، قَدْ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ، يَا أَبَا الْمِسْوَرِ، قَدْ خَبَأْتُ هَذَا لَكَ» فنظر إليه فقال: رضي مخرمة.

---

(١) ينظر ص (٦٧) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (١٦٢) من هذا البحث.

وسبق الحديث في تأكيد الجملة الخبرية[١]، وذكرت أن التكرار جاء ليسهم في تأنيس مخرمة t ، وسل ما قد ينشأ في نفسه من الظن بأن الرسول r قد نسيه أو أنه لم يرد إعطاءه، والله أعلم.

وقد يأتي التكرار زيادة في تنبيه المخاطب وتشويقه إلى ما يخاطب به، وإشعارًا له بأهمية ما سيخاطب به، خاصة إذا كان ممن يحرص على العلم، كما في نداء النبي r لمعاذ t وكان رديف النبي r فقال له: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قال: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قال: لبيك رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة، ثم قال: «يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ» قال: لبيك رسول الله وسعديك. وقد سبق الحديث بتمامه، وذكرت أن معاذًا t من أحرص الصحابة على العلم والتعلم، وكان أعرفهم بالحلال والحرام، وقد شهد له بذلك رسول الله r ، ولذا فإن النبي r يخصه ببعض العلم دون غيره، ولما كان العلم الذي يريد النبي r أن يخبر به معاذًا t يحتاج إلى تنبه واهتمام نادى معاذًا t ثلاث مرات ((لتأكيد الاهتمام بما يخبره به، ويبالغ في تفهمه وضبطه))[٢]، والله أعلم.

وقد يأتي التكرار للدلالة على الاستمرار والمداومة، وغالبًا ما يأتي معه الوصل بأحد حروف العطف، وسبق في مبحث الوصل ذكر شواهد على ذلك، منها حديث «فَلا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لا آذَنُ لَهُمْ» حينما أراد علي t أن يخطب بنت أبي جهل على فاطمة رضي الله عنها[٣]، ومنها قوله r لأم خالد رضي الله عنها، وهي جويرية، فكساها خميصة، وقال: «أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي، ثُمَّ أَبْلِي وَأَخْلِقِي»[٤]، ومنها حديث «الأَيْمَنَ فَالأَيْمَنَ» وفي رواية: «الأَيْمَنُونَ الأَيْمَنُونَ الأَيْمَنُونَ» لما أراد النبي r أن يعطي الشراب الأعرابي الذي عن يمينه، وأراد عمر t أن يعطيه أبا بكر t وكان عن يساره[٥].

---

(١) ينظر ص (٣٦٨) من هذا البحث.

(٢) ينظر: الحديث النبوي وعلم النفس: ١٥٢.

(٣) ينظر ص (٥٠٣) من هذا البحث.

(٤) ينظر ص (٥٠٣) من هذا البحث.

(٥) ينظر ص (٥٠٧) من هذا البحث.

ويظهر من الشواهد السابقة وغيرها أن التكرار قد يأتي مع أحد حروف العطف، وقد يأتي دونها، وهو الأكثر، وقد يأتي التكرار غير مفصول بفاصل زمني أو كلامي، وهو الأكثر، وقد يأتي بعد فاصل كما في حديث معاذ t ، وكما في حديث أبي هريرة t أن رجلاً قال للنبي r : أوصني. قال: «لا تَغْضَبْ» فردد مرارًا، قال: «لا تَغْضَبْ» وقد سبق تناول الحديث[1]، وحديث أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما أن النبي r رأى رجلاً يسوق بدنة، فقال له: «ارْكَبْهَا» فقال: إنها بدنة، فقال: «ارْكَبْهَا» قال: إنها بدنة، قال: «ارْكَبْهَا، وَيْلَكَ» في الثالثة أو في الثانية، وقد سبق الحديث[2]، وله رواية عند مسلم من غير فاصل: «وَيْلَكَ ارْكَبْهَا، وَيْلَكَ ارْكَبْهَا» والله أعلم.

وقد يكرر النبي r قول المخاطب تعجبًا أو إنكارًا أو كراهية، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن الحَولاء بنت تُوَيْت بن حبيب بن أسد بن عبد العزى مرت بها، وعندها رسول الله r ، فقالت: هذه الحولاء بنت تويت، وزعموا أنها لا تنام الليل. فقال رسول الله r : «لا تَنَامُ اللَّيْلَ! خُذُوا مِن الْعَمَلِ مَا تُطِيقُونَ. فَوَاللهِ، لا يَسْأَمُ اللهُ حَتَّى تَسْأَمُوا»[3]، ولعل النبي r كرر لفظ عائشة رضي الله عنها على سبيل التعجب والإنكار، قال النووي (٦٧٦هـ): ((أراد r بقوله: «لا تَنَامُ اللَّيْلَ!» الإنكار عليها، وكراهة فعلها وتشديدها على نفسها، ويوضحه أن في موطأ مالك قال في هذا الحديث: وكره ذلك حتى عرفت الكراهة في وجهه))[4].

ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله t قال: أتيت النبي r في دين كان على أبي، فدققت الباب، فقال: «مَنْ ذَا؟» فقلت: أنا. فقال: «أَنَا أَنَا» كأنه كرهها[5]، ولعل النبي r

(١) ينظر ص (٣٧، ١٤٦) من هذا البحث.
(٢) ينظر ص (٢٩٨، ٣٩٨) من هذا البحث.
(٣) أخرجه البخاري: (٤٣ و١١٥١) ، ومسلم: (٧٨٥) وهذا لفظه.
(٤) شرح صحيح مسلم: ٦/٧٣.
(٥) أخرجه البخاري: (٦٢٥٠) ، ومسلم: (٢١٥٥).

r كره قول: أنا، لأنه لا يتضمن الجواب، ولم يحصل بجوابه فائدة تزيل الإبهام[١]، والله أعلم.

ت- الاحتراس.

عرفه ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) فقال: ((هو أن يأتي المتكلم بمعنى يتوجه عليه دَخَل، فيفطن له، فيأتي بما يخلصه من ذلك))[٢]، وعده القزويني (٧٣٩هـ) ومن تبعه من شراح التلخيص إطنابًا بالتكميل، قال وهو يعدد صور الإطناب: ((وإما بالتكميل، ويسمى (الاحتراس) أيضًا، وهو أن يؤتى في كلام يوهم خلاف المقصود بما يدفعه))[٣]، قال ابن يعقوب: ((أما تسميته بـ(التكميل) فلتكميله المعنى، بدفع خلاف المقصود عنه، وأما تسميته بـ(الاحتراس) فهو من باب حرس الشيء: حفظه، وهذا فيه حفظ المعنى ووقايته من توهم خلاف المقصود؛ لأن ما أتي به فيه يحترز به عن خلاف المقصود))[٤]، ولم يرتض بعض البلاغيين جعله من التكميل، ولا من التتميم كما فعل ابن رشيق (٤٥٦هـ)[٥]، وإنما رأوا أن يعد فنًا مستقلاً بذاته، كما قال ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ): ((الفرق بين الاحتراس، والتكميل، والتتميم؛ أن المعنى قبل التكميل صحيح تام، ثم يأتي التكميل بزيادة يكمل بها حسنه؛ إما بفن زائد، أو بمعنى، والتتميم يأتي ليتمم نقص المعنى ونقص الوزن معًا، والاحتراس لاحتمال دَخَل على المعنى، وإن كان تامًا كاملاً، ووزن الكلام صحيحاً. وقد جعل ابن رشيق الاحتراس نوعًا من التتميم، وسوى بينهما، وقد ظهر الفرق بينهما، فجعلهما في باب واحد غير سائغ))[٦].

وذكر القزويني أنه ضربان: ضرب يتوسط الكلام، وضرب يقع في آخره[٧].

---

(١) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٣٥/١٣، والكاشف عن حقائق السنن: ٣١/٩، وفتح الباري: ٣٥/١١.
(٢) تحرير التحبير: ٢٤٥، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٦٢/١-٦٦.
(٣) ينظر: الإيضاح مع شروح التلخيص: ٢٣١/٣.
(٤) مواهب الفتاح: ٢٣١/٣.
(٥) العمدة: ٥٠/١.
(٦) تحرير التحبير: ٢٤٥، وينظر: القول البديع: ١٥١، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٦٤/١-٦٥.
(٧) ينظر: الإيضاح مع شروح التلخيص: ٢٣١/٣-٢٣٣.

ولقد سبق ذكر بعض الشواهد في الخطاب النبوي على هذا النوع من الإطناب، ومن ذلك حديث أبي إسرائيل الذي نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل، ولا يتكلم، ويصوم. فقال النبي r: «مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَظِلَّ، وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ». والنبي r أراد من أبي إسرائيل أن يتم صومه، ولو سكت عن الصيام لفهم من السكوت إتمامه، إلا أن النبي r أمره بالإتمام، ولعل في ذلك احتراسًا من أن يفهم أنه يبطل نذر الصيام كما أبطل ما سواه، والله أعلم(١).

ومن ذلك الدعاء لسعد بن أبي وقاص t لما خشي الموت بمكة، فدعا النبي r له: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا، وَأَتْمِمْ لَهُ هِجْرَتَهُ» ومع أن في هذا الجزء من الدعاء «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْدًا» رجاء الحياة ومفارقة الأرض التي هاجر منها، إلا أنه لا يزيل حصول ما خشي منه بغير المرض، فكمل ذلك بأن دعا له أن يتمم الله هجرته، وهو ما يريده المخاطَب حين خشي الموت من هذا المرض في مكة، والله أعلم(٢).

ومن ذلك حديث ابن مسعود t قال: كنا نعد الآيات بركة، وأنتم تعدونها تخويفًا، كنا مع رسول الله r في سفر فقلّ الماء، فقال: «اطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ» فجاءوا بإناء فيه ماء قليل، فأدخل يده في الإناء، ثم قال: «حَيَّ عَلَى الطَّهُورِ الْمُبَارَكِ، وَالْبَرَكَةُ مِنْ اللهِ» فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابع رسول الله r(٣).

والشاهد هنا في قوله r: «وَالْبَرَكَةُ مِنْ اللهِ» ولعل النبي r قالها احتراسًا من أن يفهم أنه الموجد للماء، فأراد أن يبين أن الإيجاد من الله تبارك وتعالى، ولعله لهذا السبب طلب فضلة من ماء، والله أعلم(٤).

ومن الاحتراس حديث ابن عمر t قال: كان رسول الله r لما ظهر على خيبر أراد إخراج اليهود منها، وكانت الأرض حين ظهر عليها لله ولرسوله r وللمسلمين، وأراد إخراج اليهود منها، فسألت اليهود رسول الله r ليقرهم بها، أن يَكْفُوا عملها، ولهم نصف

---

(١) ينظر ص (٣٩١) من هذا البحث.
(٢) ينظر ص (١٦٢) من هذا البحث.
(٣) أخرجه البخاري: (٣٥٧٩).
(٤) ينظر: فتح الباري: ٦/٥٩٢.

الثمر، فقال لهم رسول الله r : «نُقِرُّكُمْ بِهَا عَلَى ذَلِكَ، مَا شِئْنَا» فقروا بها، حتى أجلاهم عمر إلى تيماء وأريحاء(١).

والاحتراس هنا في قوله r : «مَا شِئْنَا» فإنه احتراس مهم مع اليهود؛ لأنهم قوم خداع وكذب وحيلة، فلو لم يأت هذا الاحتراس لفهم قول الرسول r على إطلاقه، ولاتخذوه حجة لبقائهم ما شاؤوا، والله أعلم.

ولعل فيما ذكر من أمثلة لأنواع الإطناب وشواهدها في الخطاب النبوي دلالة على أن النبي r يراعي في اختيار أسلوب الإطناب ما يقتضيه حال المخاطب، والله أعلم.

وبما سبق من مباحث ندرك أن النبي r ينظم خطابه ويؤلف بين ألفاظه وجمله، فيخبر وينشئ، ويقدم ويؤخر، ويذكر ويحذف، ويقصر ولا يقصر، ويصل ويفصل، ويوجز ويطنب، كل ذلك قد يكون بأثر من حال المخاطب، ورعاية لمقتضاه، ولعل فيما ذكر من شواهد كافية في الدلالة على ذلك، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٣٣٨) ، ومسلم: (١٥٥١). و(تيماء) من مدن المملكة العربية السعودية، وتقع شمال المدينة النبوية بـ(٣٥٠ كم)، قال عنها ياقوت الحموي في معجم البلدان: ٦٧/٢: ((تَيْماء: بالفتح، والمد، بُليد من أطراف الشام، بين الشام ووادي القرى، على طريق حاج الشام ودمشق، والأبلق الفرد حصن السموأل بن عادياء اليهودي مشرف عليها، فلذلك كان يقال لها: تيماء اليهودي)). و(أريحا) من مدن فلسطين، تقع في الطرف الغربي لغور الأردن، قال عنها ياقوت في معجم البلدان: ١٦٥/١: ((أَرِيْحا: بالفتح، ثم الكسر، وياء ساكنة، والحاء مهملة، والقصر، وقد رواه بعضهم بالخاء المعجمة، لغة عبرانية، وهي مدينة الجبارين في الغور من أرض الأردن بالشام... سميت -فيما قيل- بأريحا بن مالك بن أرفخشد بن سام بن نوح u)).

الفصل الخامس

مخالفة مقتضى الظاهر

رعايةً لحال المخاطب

- المبحث الأول: المخالفة في أضرب الخبر.
- المبحث الثاني: المخالفة بين الخبر والإنشاء.
- المبحث الثالث: المخالفة بين الإضمار والإظهار.
- المبحث الرابع: الالتفات.
- المبحث الخامس: الأسلوب الحكيم.
- المبحث السادس: المخالفة في صيغ الأفعال.
- المبحث السابع: التغليب.

مدخل

الأصل في الكلام أن يكون موافقًا لمقتضى الظاهر، لكنه قد يأتي على خلاف الأصل لمقاصد واعتبارات يرمي إليها البليغ، والخروج عن الأصل إنما هو لمراعاة مقتضى الحال، فيكون الكلام على وفق البلاغة، لأن البلاغة مراعاة الكلام لمقتضى الحال، ولو خالف مقتضى الظاهر.

والبحث البلاغي لا يكاد ينفك في جميع مباحثه عن النظر في خروج الكلام على خلاف الأصل، خاصة في مباحث علم المعاني الذي يعنى بنظم التراكيب نظمًا بلاغيًا مطابقًا لمقتضى الحال، وإن لم يطابق الأصل الذي يجوز الخروج عنه لمقتضى بلاغي، ولذا فإن البلاغيين يعنون ببيان الأصل وما فيه من بلاغة في موضعه، ويعنون أكثر بما خرج عن هذا الأصل وما فيه من معان وأغراض بلاغية، كما نجده في حديثهم عن صور الإنشاء الطلبي.

وقد ذكر البلاغيون عدة صور للخروج على خلاف مقتضى الظاهر مراعاة لمقتضى الحال، منها: تنزيل خالي الذهن منزلة السائل والمتردد أو المنكر، وعكسه، ووضع المضمر موضع المظهر، وعكسه، والالتفات، والأسلوب الحكيم، والتعبير عن المستقبل بلفظ الماضي، وعن الماضي بلفظ المضارع، والتغليب، وغيرها من صور المخالفة والخروج على خلاف مقتضى الظاهر(١).

ومن الأحوال التي تؤثر في خروج البليغ عن مقتضى الظاهر (حال المخاطَب) ولعله أبرز الأحوال المؤثرة في المخالفة والعدول عن الأصل، بل إن من صور الخروج ما يكون مرتبطًا بحال المخاطب دون غيره من الأحوال، كمخالفة الأصل في أضرب الخبر.

وفي الخطاب النبوي في أحاديث الصحيحين وردت جملة من صور الخروج على خلاف مقتضى الظاهر، مراعاة لمقتضى حال المخاطب، وسأتناول الصور الآتية في مباحث سبعة، وهي:

المبحث الأول: المخالفة في أضرب الخبر.

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ١٩٧-٢٠٥، وشروح التلخيص: ١/٤٤٨-٤٩٣، ومفتاح تلخيص المفتاح: ٢٠٥-٢٢٤، وعلم المعاني، لفيود: ١/٢٥٩-٢٩٧.

المبحث الثاني: المخالفة بين الخبر والإنشاء.

المبحث الثالث: المخالفة بين الإضمار والإظهار.

المبحث الرابع: الالتفات.

المبحث الخامس: الأسلوب الحكيم.

المبحث السادس: المخالفة في صيغ الأفعال.

المبحث السابع: التغليب.

والمبحث الأول تناوله السكاكي (٦٢٦هـ) والقزويني (٧٣٩هـ) ومن تبع منهجه في ترتيب مباحث العلم في الحديث عن أضرب الخبر في (أحوال الإسناد الخبري). والمبحث الثاني تناولوه في نهاية الحديث عن (الإنشاء). ومن المبحث الثالث إلى السادس تناولوها في خاتمة الحديث عن (أحوال المسند إليه). والمبحث السابع تناولوه استطرادًا في (تقييد المسند بالشرط).

وجاء ترتيب هذه المباحث بناء على ترتيب ذكرها في كتب البلاغة، إلا أن المبحث الثاني قدم لعلاقته بالخبر وتناسبه مع المبحث الأول، والله الموفق للصواب.

المبحث الأول: المخالفة في أضرب الخبر.

سبق أن ذكرت في الفصل الرابع أن البلاغيين نظروا إلى المخاطَب حين يلقى إليه الخبر لإفادته، فوجدوا أنه لا يخلو من ثلاث حالات؛ إما أن يكون خالي الذهن من الحكم الذي تضمنه الخبر، وإما أن يكون متصورًا له؛ فيتردد فيه ويتساءل عنه، أو يكون منكرًا له. و لذلك قسموا الخبر إلى أضرب ثلاثة:

الأول: يسمى ابتدائيًا، ويلقى إلى خالي الذهن، فيكون خاليًا من المؤكدات.

الثاني: يسمى طلبيًا، ويلقى إلى المتردد المتسائل، فيستحسن توكيد الخبر بما يزيل تساؤله وتردده وظنه.

الثالث: يسمى إنكاريًا، ويلقى إلى المنكر، فيؤكد بمؤكد أو أكثر، وجوبًا، على حسب قوة إنكاره(١).

وأشير إلى ما ذكرته سابقًا في مبحث الجملة الخبرية من الفصل الثالث من أن الخبرين الطلبي والإنكاري يشتركان في التأكيد بمؤكد أو أكثر، لكن على جهة الاستحسان في الطلبي، وعلى جهة الوجوب في الإنكاري.

وقد يخالف بين أضرب الخبر، وهذا كثير كما ذكر البلاغيون(٢)، فيترل خالي الذهن مترلة المتسائل، أو مترلة المنكر، فيؤكد له الخبر، وكذا العكس، فلا يؤكد الخبر للمتسائل أو المنكر.

وقد ورد مثل ذلك في الخطاب النبوي في أحاديث الصحيحين، وله صور، أرتبها كما ذكرها البلاغيون.

أ- تتريل خالي الذهن مترلة السائل والمتردد(٣).

وذلك إذا جاء الخبر بعد قول أو فعل يثير التساؤل، ويلوح بحكم الخبر فيستشرف له المخاطب استشراف المتسائل المتردد، فيؤكد له الخبر استحسانًا.

---

(١) ينظر ص (٣٥٤) من هذا البحث.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٧١، وشروح التلخيص: ١/٢٠٩، والتبيان، للطيبي: ١/١٤٣.

(٣) ينظر: المراجع السابقة.

ومن ذلك حديث أبي هريرة t أن النبي r نهى عن الوصال في الصوم، فقالوا: فإنك تواصل، يا رسول الله. قال: «إِنَّكُمْ لَسْتُمْ فِي ذَلِكَ مِثْلِي، **إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي**. فَاكْلَفُوا مِنْ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ»(1)، والصحابة y في هذا الموقف رغبوا في الاقتداء بالنبي r في مواصلته الصيام، إلا أن النبي r نهاهم رحمة بهم، لما يلحقهم من المشقة في الوصال، ولكنهم تساءلوا عن نهيه لهم مع وصاله هو، وكأنهم ظنوا أن لا فرق بينهم وبين رسول الله r في القدرة على الوصال، فكان هذا التساؤل والظن مقتضيًا لتأكيد الخبر الأول «إِنَّكُمْ لَسْتُمْ فِي ذَلِكَ مِثْلِي» وجاء هذا التأكيد على مقتضى الظاهر، لكن لما كان في هذا الخبر ما يثير التساؤل لدى المخاطب عن سبب اختلاف النبي r عنهم في أمر الوصال، جاء الخبر الثاني مؤكدًا على خلاف مقتضى الظاهر «إِنِّي أَبِيتُ يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِي» وجاء التأكيد بـ(إنّ)، وبتقديم الفاعل المعنوي على المسند الفعلي، وهو يفيد تقوية الحكم وتأكيده كما ذكر البلاغيون، والله أعلم.

ومن ذلك حديث ابن مسعود t عن النبي r قال: «لا يَمْنَعَنَّ أَحَدَكُمْ -أو: أَحَدًا مِنْكُمْ- أَذَانُ بِلالٍ مِنْ سَحُورِهِ؛ **فَإِنَّهُ يُؤَذِّنُ** -أو: يُنَادِي- بِلَيْلٍ، لِيَرْجِعَ قَائِمَكُمْ، وَلِيُنَبِّهَ نَائِمَكُمْ، وَلَيْسَ أَنْ يَقُولَ الْفَجْرُ، أو: الصُّبْحُ»(2)، فجاء الخبر «يُؤَذِّنُ بِلَيْلٍ» مؤكدًا بـ(إنّ) وتقديم الفاعل المعنوي، مع أن المخاطب لا يتردد في قبول خبر النبي r، ولعل ذلك لكون الكلام المتقدم للخبر يثير التساؤل، لأن الأذان يكون للإعلام بدخول الوقت، فكيف لا يمسك من أراد الصيام حينما يؤذن بلال t! فأخبر النبي r أن بلالاً يؤذن بليل تنبيهًا للقائمين والنائمين باقتراب وقت الفجر، وأكد الخبر ليزيل ما يعلق بالمخاطب من تساؤل، والله أعلم.

ومن ذلك حديث ابن عباس t أن النبي r شرب لبنًا، ثم دعا بماء، فتمضمض، وقال: «**إِنَّ لَهُ دَسَمًا**»(3)، ولعل النبي r أكد الخبر لكونه فعل ما يثير التساؤل عند

---

(1) أخرجه البخاري: (١٩٦٥ و١٩٦٦) ، ومسلم: (١١٠٣).

(2) أخرجه البخاري: (٦٢١ و٥٢٩٩ و٧٢٤٧) ، ومسلم: (١٠٩٣).

(3) أخرجه البخاري: (٢١١ و٥٦١٠) ، ومسلم: (٣٥٨).

المخاطب، فإن طلبه الماء ومضمضته بعد شرب اللبن مما يستغربه المخاطب ويتساءل عن سببه، وقد أدرك النبي r ذلك فأكد الخبر بـ(إنّ) وتقديم الجار والمجرور (له) وحقه التأخير، والله أعلم.

ب- تنزيل غير المنكر منزلة المنكر[1].

ويكون ذلك إذا حصل من غير المنكر ما يدل على الإنكار، ولم يكن ممن ينكر خبر النبي r، فيؤكد له الخبر، ومن ذلك حديث أبي هريرة t أن النبي r لقيه في بعض طريق المدينة وهو جنب، فانخنس منه، فذهب، فاغتسل، ثم جاء، فقال: «أَيْنَ كُنْتَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ؟» قال: كنت جنبًا، فكرهت أن أجالسك وأنا على غير طهارة. فقال: «سُبْحَانَ اللهِ! **إِنَّ الْمُسْلِمَ لا يَنْجُسُ**»[2]، وعن حذيفة t أن رسول الله r لقيه وهو جنب، فحاد عنه، فاغتسل، ثم جاء، فقال: كنت جنبًا، قال: «**إِنَّ الْمُسْلِمَ لا يَنْجُسُ**»[3]. فأبو هريرة وحذيفة رضي الله عنهما اعتقدا أن المسلم ينجس بالحدث، فخشيا أن يمسهما النبي r وهما كذلك فذهبا يغتسلان، وقد كان النبي r إذا لقي أحدًا من أصحابه ماسحه ودعا له، كما سبق ذكره[4]. وهذا اعتقاد منهما يخالف الحكم الذي يتضمنه الخبر، ولو جاء الخبر بلا تأكيد لسلما به وقبلاه، لأنهما ممن لا ينكر خبر الرسول r ولا يتردد فيه، لكن لما حصل منهما اعتقاد بخلاف الحكم أكد لهما النبي r الخبر بـ(إنّ) وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي، وذكر البلاغيون أن تقديم المسند إليه الفاعل المعنوي على المسند وهو خبر فعلي يفيد تقوية الحكم وتأكيده[5]، وفي هذا التأكيد مزيد تقرير للحكم وترسيخ له في نفس المخاطب ليزيل كل ما اعتقده من خلافه، والله أعلم.

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ١٧٤، وشروح التلخيص: ١/٢١٢، والتبيان، للطيبي: ١/١٤٤.

(٢) أخرجه البخاري: (٢٨٣ و٢٨٥)، ومسلم: (٣٧١).

(٣) أخرجه مسلم: (٣٧٢).

(٤) ينظر ص (٤٤١) من هذا البحث.

(٥) ينظر: دلائل الإعجاز: ١٢٨-١٣٨، وشروح التلخيص: ١/٤٠٠، وخصائص التراكيب: ٢٢٠، وعلم المعاني، لفيود: ١/١٥٨.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها حينما أمرها النبي r أن تناولــه الخُمْــرة، وهي سجادة، فقالت: إني حائض. فقال النبي r : «**إِنَّ حَيْضَتَكِ لَيْسَتْ فِي يَدِكِ**»[1]، فإن عائشة رضي الله عنها لا تنكر خبر الرسول r ، لكن لما ظهر منها ما يدل علــى اعتقــاد خلاف الحكم الذي يتضمنه الخبر أكد لها النبي r الخبر بـــ(إنّ) وتقديم المسند إليــه علــى المسند وهو جملة، والمسند إذا كان جملة يفيد تقوية الحكم كما ذكــر البلاغيــون[2]، والله أعلم.

ومن ذلك حديث عبد الله بن عمر t قال: مَرَّ النبي r على رجل وهــو يعاتــب أخاه في الحياء؛ يقول: إنك لتستحيي، حتى كأنه يقول: قد أَضَرَّ بك. فقال رســول الله r : «دَعْهُ، **فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنْ الإِيمَانِ**»[3]، قال العيني (٨٥٥هـ): ((فإن قلت: ما وجه التأكيد بإنَّ في قوله: «فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنْ الإِيمَانِ» وإنما يؤكد بـــ(إنّ) ونحوها إذا كان المخاطب منكــرًا أو شاكًا؟ قلت: الظاهر أن المخاطب كان شاكًا، بل كان منكرًا له؛ لأنه منعه من ذلك، فلــو كان معترفًا بأنه من الإيمان لما منعه من ذلك))[4]، والذي يظهر أن المخاطب خالي الذهن من الحكم، ولو خاطبه النبي r بلا تأكيد لم يتردد فيه و لم ينكر، لكن لما حصل منه مــا يــدل على اعتقاده خلاف الخبر اقتضى ذلك أن يؤكد له، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((الظاهر أن الناهي ما كان يعرف أن الحياء من مكملات الإيمان، فلهذا وقع التأكيد، وقد يكون التأكيد من جهة أن القضية في نفسها مما يهتم به، وإن لم يكن هناك منكر))[5]. وقد يكون التأكيد من باب تتريل خالي الذهن مترلة المتسائل، لأن أمر المخاطب بترك المنصوح على حيائه، وهو يرى أن الحياء نقص، قد يثير لديه التساؤل عن سبب الأمر، فجاء الجــواب مؤكــدًا، والله أعلم.

(١) أخرجه مسلم: (٢٩٨).
(٢) ينظر: المفتاح: ٢١٧، والمصباح: ٤٤، وشروح التلخيص: ١٠٣/٢.
(٣) أخرجه البخاري: (٧٤٤)، ومسلم: (٥٩٨).
(٤) عمدة القاري: ١٧٧/١.
(٥) فتح الباري: ٧٤/١.

وقد يؤكد الخبر للمخاطب خالي الذهن وإن لم يحصل ما يدل على إنكار أو اعتقاد بخلاف الحكم، إلا أن الخبر فيه ما قد يستغربه المخاطب أو يتعجب منه أو يتردد فيه أو ينكره، فيؤكد النبي r الخبر لترسيخه في نفس المخاطب من أول الأمر حتى لا يرد عليه شيء من ذلك، حرصًا منه r على قلوب أصحابه y أن يرد عليها شيء من نزغات الشيطان ووساوسه، وهذا الحرص ثابت عنه r كما في حديث أم المؤمنين صفية بنت حيي رضي الله عنها قالت: كان رسول الله r معتكفًا، فأتيته أزوره ليلاً، فحدثته، ثم قمت فانقلبت، فقام معي ليقلبني، فمر رجلان من الأنصار، فلما رأيا النبي r أسرعا، فقال النبي r : «عَلَى رِسْلِكُمَا. **إِنَّهَا صَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيٍّ**» فقالا: سبحان الله، يا رسول الله! قال: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنْ الإِنْسَانِ مَجْرَى الدَّمِ، وَإِنِّي خَشِيتُ أَنْ يَقْذِفَ فِي قُلُوبِكُمَا سُوءًا» أو قال: «شَيْئًا»[(١)]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((إن النبي r لم ينسبهما إلى أنهما يظنان به سوءًا لما تقرر عنده من صدق إيمانهما، ولكن خشي عليهما أن يوسوس لهما الشيطان ذلك، لأنهما غير معصومين، فقد يفضي بهما ذلك إلى الهلاك، فبادر إلى إعلامهما حسمًا للمادة وتعليمًا لمن بعدهما إذا وقع له مثل ذلك، كما قاله الشافعي رحمه الله تعالى، فقد روى الحاكم أن الشافعي كان في مجلس ابن عيينة فسأله عن هذا الحديث، فقال الشافعي: إنما قال لهما ذلك لأنه خاف عليهما الكفر إن ظنا به التهمة، فبادر إلى إعلامهما نصيحة لهما قبل أن يقذف الشيطان في نفوسهما شيئًا يهلكان به))[(٢)].

ومما جاء الخبر مؤكدًا والمخاطب غير منكر في مثل هذه الحال حديث أبي هريرة t أن رسول الله r قال: «هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي هَا هُنَا؟ **فَوَاللهِ، مَا يَخْفَى عَلَيَّ خُشُوعُكُمْ وَلا رُكُوعُكُمْ، إِنِّي لأَرَاكُمْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِي**»[(٣)]، وفي رواية عند مسلم تبين سبب الحديث، قال أبو هريرة t : صلى بنا رسول الله يومًا، ثم انصرف، فقال: «يَا فُلانُ، أَلا تُحْسِنُ صَلاتَكَ؟ أَلا يَنْظُرُ الْمُصَلِّي إِذَا صَلَّى كَيْفَ يُصَلِّي؟ فَإِنَّمَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ. **إِنِّي، وَاللهِ، لأُبْصِرُ مِنْ وَرَائِي**

(١) أخرجه البخاري: (٢٠٣٥ و٢٠٣٨ و٣٢٨١)، ومسلم: (٢١٧٥).

(٢) فتح الباري: ٤/٢٨٠.

(٣) أخرجه البخاري: (٤١٨ و٧٤١) ، ومسلم: (٤٢٤).

كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ»[١]، والنبي r هنا أكد الخبرين بالقسم و(إنّ) واللام، والمخاطب هم الصحابة الذين يصلون معه ويؤمنون بخبره، لكن الخبر لما كان في أمر عجيب لم تجر به العادة أكد الخبر بتلك المؤكدات، وقدم له باستفهام يراد به تنبيه المخاطب إلى عظم ما سيقول.

ويرى ابن حجر (٨٥٢هـ) أن الاستفهام للإنكار، قال: ((قوله: «هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي؟» هو استفهام إنكار لما يلزم منه، أي أنتم تظنون أني لا أرى فعلكم، لكون قبلتي في هذه الجهة، لأن من استقبل شيئًا استدبر ما وراءه، لكن بيّن النبي r أن رؤيته لا تختص بجهة واحدة. وقد اختلف في معنى ذلك... والصواب المختار أنه محمول على ظاهره، وأن هذا الإبصار إدراك حقيقي خاص به r انخرقت له فيه العادة))[٢]، والله أعلم.

ومن ذلك حديث جرير بن عبد الله t قال: كنا جلوسًا عند رسول الله r إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «**أَمَا إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ**، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»[٣]، وفي رواية للبخاري: «**إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ عِيَانًا**»[٤]، وقد أكد النبي r خبر الرؤية بـ(أما) التنبيهية، وهي تفيد تحقق الكلام الذي بعدها وتوكيده[٥]، وأكد بـ(إنّ) والسين، والتشبيه، وبالمصدر المؤكد أو الحال المؤكدة: «عِيَانًا»[٦].

ولعل النبي r أكد الخبر هذا التأكيد لكونه من أخبار الآخرة الغيبية التي لا يدركها المخاطب في الدنيا إلا بالخبر، لا بالحس والمشاهدة، والله أعلم.

(١) أخرج الرواية مسلم: (٤٢٣).
(٢) فتح الباري: ١/٥١٤.
(٣) أخرجه البخاري: (٥٥٤ و٥٧٣) ، ومسلم: (٦٣٣).
(٤) أخرج الرواية البخاري: (٧٤٣٥).
(٥) ينظر: الجنى الداني:٣٧٧، ومغني اللبيب: ٧٨، والأدوات المفيدة للتنبيه: ١٢٧.
(٦) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ١٠/٢٦٢.

ت- تنزيل المنكر منزلة غير المنكر[1].

الأصل أن المنكر يؤكد له الخبر وجوبًا، لكن قد يخاطب المنكر بلا تأكيد، وذلك إذا كان إنكاره على غير دليل، وما ينكره واضح الدلائل، بحيث لو فكر وتأمل لرجع عن إنكاره، ولعل من ذلك حديث جابر بن عبد الله t أنهم غزوا مع رسول الله r ، فأدركتهم القائلة، فنزلوا يستظلون تحت الشجر، ونزل رسول الله r تحت سَمُرة وعلق بها سيفه، وناموا، فإذا رسول الله r يدعوهم، وعنده أعرابي، فقال: «إِنَّ رَجُلاً أَتَانِي وَأَنَا نَائِمٌ، فَأَخَذَ السَّيْفَ، فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ قَائِمٌ عَلَى رَأْسِي، فَلَمْ أَشْعُرْ إِلاّ وَالسَّيْفُ صَلْتًا فِي يَدِهِ، فَقَالَ لِي: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ. ثُمَّ قَالَ فِي الثَّانِيَةِ: مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي؟ قُلْتُ: اللهُ. فَشَامَ السَّيْفَ، فَهَا هُوَ ذَا جَالِسٌ» وقد سبق ذكر الحديث في مبحث الذكر والحذف من الفصل الرابع[2].

والمخاطب في هذا الحديث رجل كافر ينكر أن يكون للنبي r من يمنعه منه، وقد جاء الإنكار بصيغة الاستفهام الذي يفيد الإنكار الإبطالي، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((هو استفهام إنكار، أي: لا يمنعك مني أحد، لأن الأعرابي كان قائمًا والسيف في يده، والنبي r جالس لا سيف معه))[3]، ومع كون المخاطب كافرًا منكرًا إلا أن جواب النبي r جاء بلا تأكيد، بل بني الكلام على المسند إليه لفظ الجلالة (الله) دون غيره، فحذف المسند وما يتعلق به، وقد ذكرت في مبحث الحذف أن بعض البلاغيين يرى أنه من أحسن مواقع الحذف[4]، ولعل النبي r لم يؤكد القول للمخاطب المنكر لأن الدلائل على رسالته واضحة بينة للمخاطب، والله U يعصم رسوله r من الناس، ثم إن المقام كما ذكرت سابقًا مقام ثبات وشجاعة، وترك التأكيد يشعر المخاطب بقوة من يخاطبه وثبات قلبه، قال العيني (٨٥٥هـ): ((لم يبال r بقوله، ولا عرج عليه ثقة بالله وتوكلاً عليه، فلما شاهد هذا الرجل تلك القوة التي فارق بها عادة الناس في مثل تلك الحالة، تحقق صدقه، وعلم أنه لا يصل إليه بضرر، وهذا من أعظم الخوارق للعادة، فإنه عدو متمكن، بيده سيف مشهور

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ١٧٤، وشروح التلخيص: ١/٢١٥، وخصائص التراكيب: ٨٧.
(٢) ينظر ص (٤٦١) من هذا البحث.
(٣) فتح الباري: ٤/٤٢٧، وينظر: عمدة القاري: ١٤/١٩٠.
(٤) ينظر ص (٤٦٢) من هذا البحث.

وموت حاضر، ولا تغير له r بحال، ولا حصل له روع ولا جزع، وهذا من أعظم الكرامات، ومع اقتران التحدي يكون من أوضح المعجزات))(١)، والله أعلم.

ث- تنزيل المتسائل أو المتردد منزلة خالي الذهن.

إذا كان المخاطب متسائلاً مترددًا فالأصل أن يؤكد له الخبر استحسانًا، كما سبق، إلا أنه قد يخاطب بلا تأكيد تنزيلاً له منزلة خالي الذهن، وقد وجدت لذلك بعض الشواهد في الصحيحين.

فمن ذلك أن يكون الخبر واضح البرهان، فيساق الخبر مع دليله، ويكتفى به عن التأكيد، ومما جاء على هذا حديث نقصان العقل والدين في النساء، وقد سبق(٢)، فحينما قال النبي r لهن: «مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ» استشكلن وصفهن بذلك وتساءلن، فقلن: وما نقصان ديننا وعقلنا، يا رسول الله؟ فأراد النبي r أن يزيل ما علق بهن من إشكال فقال: «أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟» قلن: بلى، قال: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا**. أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ؟» قلن: بلى، قال: «**فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا**» ونلحظ أن النبي r لم يؤكد الخبرين في هذا الحديث مع أن المخاطب متسائل مستشكل، ولعل ذلك لكون النبي r ساق الخبر مع دليله الظاهر، فاكتفى بالدليل الظاهر عن تأكيد الخبر، وقد سبق أن النبي r استعمل مع المخاطب أسلوب الحوار بالاستفهام التقريري الذي يصل به مع المخاطب إلى زوال الإشكال عن إقرار واقتناع ويقين(٣)، والله أعلم.

وقد لا يؤكد النبي r الخبر للمخاطب المتسائل المتردد لتهوين الأمر عليه، وإشعاره بعدم الحرج، كما في حديث عمران بن حصين t قال: كنا في سفر مع النبي r، وإنا أسرينا حتى كنا في آخر الليل وقعنا وقعة ولا وقعة أحلى عند المسافر منها، فما أيقظنا إلا حر الشمس، وكان أول من استيقظ فلان ثم فلان ثم فلان ثم عمر بن الخطاب الرابع، وكان

---

(١) عمدة القاري: ١٤/١٩٠، وينظر: فتح الباري: ٧/٤٢٧.

(٢) ينظر ص (٩٧) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٢١٣، ٣٨٧) من هذا البحث.

النبي r إذا نام لم يوقظ حتى يكون هو يستيقظ؛ لأنا لا ندري ما يحدث له في نومه، فلما استيقظ عمر ورأى ما أصاب الناس وكان رجلاً جليدًا فكبر ورفع صوته بالتكبير، فما زال يكبر ويرفع صوته بالتكبير حتى استيقظ بصوته النبي r ، فلما استيقظ شكوا إليه الذي أصابهم، قال: «**لا ضَيْرَ**» أو: «**لا يَضِيرُ**، ارْتَحِلُوا»[(١)]، فالصحابة y جاءوا يشكون النبي r من فوات وقت الصلاة وهم يخشون الحرج في ذلك، إلا أن النبي r مع ذلك يخبرهم أنه لا ضير عليهم ولا حرج، ويأتي هذا الخبر بلا تأكيد، ولعل ذلك لتطمين نفوسهم، وتأكيد نفي الحرج عنهم ما داموا لم يتعمدوا، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «لا ضَيْرَ» أي: لا ضرر... وفيه تأنيس لقلوب الصحابة لما عرض لهم من الأسف على فوات الصلاة في وقتها بأنهم لا حرج عليهم إذ لم يتعمدوا ذلك))[(٢)]، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٤٤) ، ومسلم: (٦٨٢).

(٢) فتح الباري: ١/٤٤٩-٤٥٠.

المبحث الثاني: المخالفة بين الخبر والإنشاء.

ذكر البلاغيون أن الخبر قد يقع موقع الإنشاء، وأن الإنشاء قد يقع موقع الخبر، قال السكاكي (٦٢٦هـ): ((ولا يصار إلى ذلك إلا لتوخي نكت قلما يتفطن لها من لا يرجع إلى دربة في نوعنا هذا، ولا يعض فيه بضرس قاطع))(١).

وقد جاءت المخالفة بين الخبر والإنشاء بنوعيها في الخطاب النبوي في الصحيحين، لأغراض بلاغية مراعى فيها حال المخاطب، ومن ذلك ما يلي:

أ- التعبير عن الإنشاء بصيغة الخبر.

يقول الدكتور محمد أبو موسى: ((أشرنا إلى أن الإنشاء قد يرد في لفظ الخبر، وأن له موقعًا مستجادًا.. والقول بمجيئه في لفظ الخبر لا يعني أن المسألة مسألة لفظ، وأن الإنشاء بقي كما لو كان في لفظ الإنشاء.. الأمر أدق من هذا؛ لأن الذي يحدث تغيير في الحس بالمعنى والشعور به، ولو تأملت لوجدت الحقيقة المعنوية والنفسية المعبر عنها بلفظ الإنشاء غير الحقيقة المعنوية والنفسية المعبر عنها بلفظ الخبر.. فقولك: ارحم اللهم زيدًا، دعاء منك لزيد بالرحمة، وقولك: رحم الله زيدًا، دعاء منك له بالرحمة أيضًا، ولكن الرغبة هنا أكثر إلحاحًا وأشد تعلقًا بالنفس، وكأنها لقوة إحاطتها بالقلب أوهمت أنها وقعت وأن الله قد ناله برحمته، وأنت تخبر عن هذه الحالة، قال البلاغيون في هذا(٢): إن النفس إذا عظمت رغبتها في شيء تخيلت غير الواقع واقعًا وبنت الكلام على هذا التخيل، وأجرته على نسجه))(٣).

وذكر البلاغيون للتعبير عن الإنشاء بصيغة الخبر أغراضًا بلاغية، منها: التفاؤل، وإظهار الحرص في وقوع الخبر، والاحتراز عن صورة الأمر، وحمل المخاطب على المطلوب أبلغ حمل بألطف وجه(٤).

---

(١) مفتاح العلوم: ٣٢٣.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٢٥، والمصباح: ٩٢، ومختصر المعاني، ومواهب الفتاح، وحاشية الدسوقي: ٣٣٨/٢ من شروح التلخيص.

(٣) دلالات التراكيب: ٢٦٦.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٢٤-٣٢٥، والمصباح: ٩٢-٩٣، وشروح التلخيص: ٣٣٨/٢-٣٤٠، والتبيان، للطيبي: ٢٥٦/١، ومفتاح تلخيص المفتاح: ٣٧٠.

وقد جاء التعبير بالخبر عن الإنشاء في الخطاب النبوي لهذه الأغراض، ومن ذلك:

١- التفاؤل بتحقق الشيء.

ويكون ذلك في الدعاء إدخالاً للسرور على المخاطب وبعثًا للتفاؤل لديه بالشفاء، كما في حديث الأعرابي أن النبي r دخل عليه يعوده فقال له: «لا بَأْسَ عَلَيْكَ، **طَهُورٌ إِنْ شَاءَ اللهُ**» وقد سبق الحديث بتمامه[(١)]، وبينت أن قوله r للأعرابي من الدعاء، والدعاء إنشاء يأتي عادة بصيغة الأمر، ولعل مجيء الدعاء هنا بصيغة الخبر لإطماع المريض، وبعث التفاؤل لديه بحصول المدعو به. وغالبًا ما يأتي الدعاء بصيغة الخبر بالفعل الماضي الذي يفيد تحقق الوقوع؛ ليضفي مزيدًا من التفاؤل والمسرة[(٢)]، إلا أن الدعاء هنا جاء بالصيغة الاسمية وهي تفيد الثبوت والدوام كما سبق[(٣)]، ولعل في ذلك أيضًا مزيدًا من التفاؤل بتحقق الشفاء ودوامه، والله أعلم.

ومن ذلك ما ورد في قصة إسلام أبي ذر t ، وقد سبقت[(٤)]، وفيها أنه دعا قومه غِفارًا إلى الإسلام، فأسلم نصفهم، وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله r المدينة أسلمنا، فقدم رسول الله r المدينة فأسلم نصفهم الباقي، وجاءت أَسْلَم فقالوا: يا رسول الله، إخوتنا نسلم على الذي أسلموا عليه، فأسلموا، فقال رسول الله r : «غِفَارٌ **غَفَرَ اللهُ لَهَا**، وَأَسْلَمُ **سَالَمَهَا اللهُ**» فالنبي r هنا دعا لغفار وأسلم، ولعل اختصاصهما بالدعاء لمبادرة غفار إلى الإسلام، وحسن بلائهم فيه، ولأن إسلام أسلم كان سلمًا من غير حرب، كما قال الخطابي (٣٨٨هـ)[(٥)].

وجاء الدعاء في الجملتين بصيغة الخبر، إدخالاً للسرور على المدعو له وتفاؤلاً بتحقق المدعو به، ولإضفاء مزيد من التفاؤل وإشعار المخاطب بالتحقق جاءت الصيغة بالفعل الماضي، والله أعلم.

---

(١) ينظر ص (١٦٠) من هذا البحث.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٢٤، وشروح التلخيص: ٢/٣٣٨، والتبيان، للطيبي: ١/٢٥٦.

(٣) ينظر ص (٣١٣) من هذا البحث.

(٤) ينظر ص (١٧٠) من هذا البحث.

(٥) ينظر: شرح صحيح البخاري: ٣/٧، وفتح الباري: ٢/٤٩٣.

ومن ذلك حديث أنس t أن النبي r رأى على عبد الرحمن بن عوف أثر صفرة، قال: «مَا هَذَا؟» قال: إني تزوجت امرأة على وزن نواة من ذهب. قال: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ**. أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ»[(١)].

والدعاء بالبركة للمتزوج من هدي النبي r وأمر به كما في حديث أبي هريرة t أن النبي r كان إذا رفّأ الإنسان إذا تزوج قال: «بَارَكَ اللهُ لَكَ، وَبَارَكَ عَلَيْكَ، وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي خَيْرٍ»[(٢)].

وجاء الدعاء بالصيغة الخبرية بلفظ الماضي تفاؤلاً بتحقق حصول البركة وإدخالاً للسرور على المخاطب، والله أعلم.

ومن الدعاء بالبركة للمتزوج حديث جابر t قال: هلك أبي وترك سبع بنات، أو تسع بنات، فتزوجت امرأة ثيبًا، فقال لي رسول الله r : «تَزَوَّجْتَ يَا جَابِرُ؟» فقلت: نعم. فقال: «بِكْرًا أَمْ ثَيِّبًا؟» قلت: بل ثيبًا. قال: «فَهَلاَّ جَارِيَةً تُلاعِبُهَا وَتُلاعِبُكَ، وَتُضَاحِكُهَا وَتُضَاحِكُكَ» فقلت له: إن عبد الله هلك، وترك بنات، وإني كرهت أن أجيئهن بمثلهن، فتزوجت امرأة تقوم عليهن وتصلحهن. فقال: «**بَارَكَ اللهُ لَكَ**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري: (٥١٥٥ و٦٣٨٦) ، ومسلم: (١٤٢٧).

(٢) أخرجه أحمد: ٢/٣٨١، وأبو دواد: كتاب النكاح، باب ما يقال للمتزوج، برقم (٢١٣٠) ، والترمذي: كتاب النكاح، باب ما جاء فيما يقال للمتزوج، برقم (١٠٩١) ، وابن ماجه: كتاب النكاح، باب تهنئة النكاح، برقم (١٩٠٥) ، وصححه الترمذي، والطبري كما في شرح صحيح البخاري لابن بطال: ٧/٢٧٥، والحاكم في مستدركه: ٢/١٨٣، ووافقه الذهبي في تلخيصه: ٢/١٨٣، والألباني في صحيح سنن أبي داود: ٢/٤٠٠، برقم (١٨٦٦)، وقال ابن حجر في فتح الباري: ٩/٢٢٢: ((وقوله: رَفَّأ، بفتح الراء، وتشديد الفاء، مهموز، معناه دعا له، في موضع قولهم: بالرفاء والبنين، وكانت كلمة تقولها أهل الجاهلية، فورد النهي عنها، كما روى بقي بن مخلد من طريق غالب عن الحسن عن رجل من بني تميم قال: كنا نقول في الجاهلية بالرفاء والبنين، فلما جاء الإسلام علمنا نبينا: قال: «قولوا بارك الله لكم وبارك فيكم وبارك عليكم». وأخرج النسائي والطبراني من طريق أخرى عن الحسن عن عقيل بن أبي طالب أنه قدم البصرة فتزوج امرأة، فقالوا له: بالرفاء والبنين، فقال: لا تقولوا هكذا، وقولوا كما قال رسول الله r : «اللهم بارك لهم وبارك عليهم» ورجاله ثقات إلا أن الحسن لم يسمع من عقيل فيما يقال)).

(٣) أخرجه بهذا اللفظ البخاري: (٥٣٦٧).

ومن الدعاء بالبركة بصيغة الماضي حديث أنس بن مالك t في وفاة ابن أبي طلحة، وقد سبق بتمامه[1]، وفيه أن أم سليم أخفت خبر وفاته عن أبي طلحة حتى تعشى وأصاب منها، فغضب، وقال: تركتني حتى تلطخت ثم أخبرتني بابني، فانطلق حتى أتى رسول الله r فأخبره بما كان، فقال رسول الله r: «**بَارَكَ اللهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا**»[2]، وهذه رواية مسلم للدعاء، وورد الدعاء بروايات أخرى: «اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمَا» «لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُبَارِكَ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا» وذكرت سابقًا أن الدعاء لهما بالولد يخفف ما في النفس من ألم، ويسليها عما فيها من مصاب، خاصة أنه دعاء بالبركة، وليس بمجرد رزق الولد.

وإن كانت رواية مسلم هي المحفوظة فإن الدعاء جاء خبرًا بلفظ الماضي، وهو أقوى في التفاؤل بالبركة وحصول الرزق بالولد المبارك، والله أعلم.

٢- إظهار الحرص على وقوع الشيء المعبر عنه بالخبر.

جاء هذا الغرض في مقام الحث والترغيب على القيام بالفعل، كما في حديث حذيفة t في ليلة الأحزاب، وفيه أنهم أخذتهم ريح شديدة وقُرّ، فقال رسول الله: «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، **جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، **جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، ثم قال: «أَلا رَجُلٌ يَأْتِينِي بِخَبَرِ الْقَوْمِ، **جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**» فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: «قُمْ يَا حُذَيْفَةُ، فَأْتِنَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ» وقد سبق ذكر الحديث بتمامه[3]، وذكرت أن المهمة التي أرادها النبي r خطيرة، وفي وقت عصيب، اجتمع فيه شدة الريح والبرد وحصار الأعداء، ولذا كان الحث إلى القيام بهذه المهمة عظيمًا، مستعملاً فيه النبي r أساليب بلاغية تتلاءم مع مقام التحفيز والتشويق إلى القيام بالعمل، ومن ذلك الدعاء، وهو دعاء يتضمن جزاءً عظيمًا يتلاءم مع خطورة المهمة وحال القائم بها: «جَعَلَهُ اللهُ مَعِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وأتى الدعاء بصيغة الخبر إظهارًا للحرص على وقوع المدعو به، وكونه بفعل ماض فيه مزيد ترغيب

(١) ينظر ص (١٦٤) من هذا البحث.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم: (٢١٤٤).

(٣) ينظر ص (١٧٣) من هذا البحث.

للمخاطب، لدلالة الماضي على تحقق الوقوع، لعل المخاطب أن يتشوف إلى الجزاء ويشتاق إليه فيبادر إلى العمل، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أبي هريرة t في الرجل الذي أصابه الجهد، فجاء إلى رسول الله r ، فأرسل r إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله r : «أَلا رَجُلٌ يُضَيِّفُهُ هَذِهِ اللَّيْلَةَ، **يَرْحَمُهُ اللهُ**» وفي رواية: «**رَحِمَهُ اللهُ**» وقد سبق الحديث في مبحث الدعاء من الفصل الثاني[1]، وذكرت أن صيغة الخبر على أي الروايتين تظهر الحرص على حصول المدعو بـه، تشويقًا إلى القيام بالفعل، وإن كانت الرواية الأولى هي المحفوظة فإن المضارع يفيد استحضار المدعو به في نفس المخاطَب، وكأنه يعايشه، كما يفيد استمرار حصول المدعو به بتجدده، وإن كانت الثانية هي المحفوظة فإن الماضي يشعر بمزيد من التفاؤل في تحقق المدعو به، والله أعلم.

ومن ذلك قول النبي r لما جاءه قوم من مضر حفاة عراة، فتَمَعَّر وجه رسول الله r لما رأى بهم من الفاقة، فدخل، ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى، ثم خطب مرغبًا الصحابة y على التصدق، وكان مما قال: «**تَصَدَّقَ رَجُلٌ** مِنْ دِينَارِهِ، مِنْ دِرْهَمِهِ، مِنْ ثَوْبِهِ، مِنْ صَاعِ بُرِّهِ، مِنْ صَاعِ تَمْرِهِ»[2]، فجاء الأمر بالتصدق بصيغة الخبر، إظهارًا للحرص على تحقق المطلوب وحثًا للصحابة على فعل المعروف، وجاء الخبر بلفظ الماضي تأكيدًا للرغبة والحث على الفعل، ولعل في ذلك إظهارًا لثقته بحصول ذلك، والله أعلم.

كما جاء هذا الغرض في مقام الترهيب من الفعل، ومن ذلك حديث جابر t في تحريم بيع شحوم الميتة، وقد سبق الحديث، وفيه أنه قيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هُوَ حَرَامٌ» ثم قال رسول الله r عند ذلك: «**قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ**، إِنَّ اللهَ U لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ» والدعاء على اليهود فيه ترهيب للمخاطب أن يقع في مثل ما وقع فيه اليهود، فيستوجب العقوبة التي حلت فيهم بسبب فعلهم، وجاء الدعاء بصيغة الخبر

---

(١) ينظر ص (١٧٥) من هذا البحث.

(٢) أخرجه مسلم (١٠١٧).

بالفعل الماضي دلالة على حصول المدعو به، ليضفي مزيدًا من الترهيب والتحذير للمخاطَب، والله أعلم.

وفي مقام الترهيب والتحذير من حصول الفعل جاء الإنشاء بصيغة الخبر في خُطبته في شأن خِطبة علي t لابنة أبي جهل على فاطمة رضي الله عنها، وقد سبق ذكرها[(١)]، وفيها قال النبي r: «أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَنْكَحْتُ أَبَا الْعَاصِ بْنَ الرَّبِيعِ، فَحَدَّثَنِي فَصَدَقَنِي، وَإِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ مُضْغَةٌ مِنِّي، وَإِنَّمَا أَكْرَهُ أَنْ يَفْتِنُوهَا، وَإِنَّهَا -وَاللهِ- **لا تَجْتَمِعُ** بِنْتُ رَسُولِ اللهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا» فنهى النبي r عن اجتماع ابنته مع بنت أبي جهل بصيغة الخبر، للدلالة على تحقق هذا الأمر وتقرره عند النبي r وعند غيره واستمراره في حياته وبعد مماته، ولذا جاء بصيغة الفعل المضارع، والله أعلم.

٣- الاحتراز عن صورة الأمر والنهي.

قد يعدل النبي r عن الأمر والنهي إلى الخبر لما في الأمر والنهي من الإلزام و الإشعار بالاستعلاء، والمخاطب قد يكون ممن يأنف مثل ذلك، وقد ذكرت في الفصل الأول في الحديث عن بيئة الأعراب أنهم يغلب عليهم طبيعة الغلظة والجفاء والجرأة والجهل، ولذا كان النبي r يتألفهم ويلين القول والمعاملة معهم في غالب أحواله معهم، ومن صور إلانة الكلام معهم العدول من الطلب أمرًا أو نهيًا إلى الخبر تعليمًا للجاهل وتعريضًا بالخطأ، وذكرت من الشواهد على ذلك حديث أنس بن مالك t في الأعرابي الذي بال في المسجد، فلما فرغ دعاه رسول الله r فقال له: «**إِنَّ هَذِهِ الْمَسَاجِدَ لا تَصْلُحُ لِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْبَوْلِ وَلا الْقَذَرِ، إِنَّمَا هِيَ لِذِكْرِ اللهِ U، وَالصَّلاةِ، وَقِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**» ومن ذلك حديث معاوية بن الحكم السلمي الذي شمت رجلاً عطس في الصلاة، قال: فلما صلى رسول الله r فبأبي هو وأمي ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**».

---

(١) ينظر ص (١٩٣) من هذا البحث.

فالنبي r في هذين الموقفين لم يأمر و لم ينه صراحة، وإنما ساق الأمر والنهي مساق الخبر، لكون المخاطب ممن لا يناسبه الخطاب بصورة الطلب، ولعل النبي r أراد بهذه الأخبار أن تكون قواعد عامة للمخاطبين يستصحبونها معهم، فلو نهى الأول عن البول في المسجد فربما عمل غيره مما لا يليق بالمساجد، ولو نهى الثاني عن تشميت العاطس في الصلاة فربما تكلم بغيره، فكانت هذه الأخبار تحمل النهي عن ذلك الفعل وغيره مما يظن أن المخاطب قد يقع فيه، والله أعلم.

ومن ذلك أيضًا حديث أبي أيوب t أن أعرابيًا عرض لرسول الله r وهو في سفر، فأخذ بخطام ناقته أو بزمامها، ثم قال: يا رسول الله، أو يا محمد، أخبرني بما يقربني من الجنة، وما يباعدني من النار، ثم قال له النبي r: «**تَعْبُدُ اللهَ، لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ**».

وحديث أبي هريرة t أن أعرابيًا جاء إلى رسول الله r فقال: يا رسول الله، دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة. قال: «**تَعْبُدُ اللهَ لا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتُقِيمُ الصَّلاةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّي الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ**».

وسبق تخريجهما[1]، وذكرت أن النبي r بين لهما ما افترضه الله U من الأعمال التي لا يقوم الإسلام إلا بها، وترك ما سواها لما يعلمه من طبيعة الأعراب التي يثقل عليها العمل فتمله، خاصة إذا كانوا حديثي عهد بإسلام.

والنبي r في خطابه للأعرابيين عدل عن صيغتي الأمر والنهي إلى الخبر بدليل قوله في الحديث الأول حينما أدبر الرجل: «إِنْ تَمَسَّكَ بِمَا أُمِرَ بِهِ دَخَلَ الْجَنَّةَ». ولعل في العدول عن صيغتي الأمر والنهي احترازًا عنهما مراعاة للطبيعة الأعرابية التي تستثقل التكاليف، ومجيء الأخبار بلفظ المضارع (تعبد- تقيم- تؤتي- تصل- تؤدي- تصوم) فيه إشارة إلى أن تحقق الجزاء يكون بالاستمرار على هذه الأعمال، فتضمن الخبر أمر بالفعل وأمر بالاستمرار عليه، والله أعلم.

---

(١) ينظر ص (٧٩) من هذا البحث.

٤- حمل المخاطب على المطلوب أبلغ حمل على ألطف وجه.

ولعل من ذلك حديث ابن عمر t أن النبي r اصطنع خاتمًا من ذهب، وجعل فصه في بطن كفه إذا لبسه، فاصطنع الناس خواتيم من ذهب، فرقي المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، فقال: «إِنِّي كُنْتُ أَلْبَسُ هَذَا الْخَاتِمَ وَأَجْعَلُ فَصَّهُ مِنْ دَاخِلٍ» فرمى به، ثم قال: «وَاللهِ، **لا أَلْبَسُهُ أَبَدًا**» فنبذ الناس خواتيمهم، قال ابن عمر: ثم اتخذ خاتمًا من فضة، فاتخذ الناس خواتيم الفضة(١).

والظاهر أن النبي r نزع خاتمه لكونه من ذهب، ولعله صادف ذلك تحريم لبس الذهب على الرجال(٢)، إلا أن النبي r لم ينه أصحابه y عن لبسه بصيغة النهي الصريح، أو لم يأمرهم بتركه بصيغة الأمر الصريح، وإنما أخبرهم أنه لا يلبسه أبدًا، وهذا خبر أريد به الأمر بالترك والنهي عن الفعل، ولعل الطلب جاء بصيغة الخبر لكونهم y ممن يبادر إلى الامتثال والاقتداء به r(٣)، وقد اقتدوا به في الفعل فسيقتدون به في الترك، ولذا قرن بين الخبر والفعل، فرمى النبي r الخاتم، ولو اكتفى بالفعل لبادروا إلى الترك اقتداء به، لكن النبي r أراد أن يبين لهم أن الترك غير مؤقت، وإنما هو دائم أبدي، وأكد الخبر بالقسم لتمكينه في نفوسهم، فقال لهم: «وَاللهِ، لا أَلْبَسُهُ أَبَدًا» فجاء الطلب بصيغة الخبر حملاً للمخاطب على الامتثال بأبلغ وجه وألطفه، والله أعلم.

ومن الطلب بصيغة الخبر قوله r لأصحابه لما رجعوا من غزوة الأحزاب: «**لا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلاّ فِي بَنِي قُرَيْظَةَ**» وقد سبق ذكره(٤)، ولعل العدول إلى الخبر لحمل المخاطب على سرعة الامتثال، وإشعاره بتأكيد الأمر وتحقيقه، ولذا جاء الخبر بأسلوب القصر كما سبق بيانه في مبحث القصر، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٨٦٥ و٥٨٦٦ و٥٨٧٦ و٦٦٥١ و٧٢٩٨) ، ومسلم: (٢٠٩١).

(٢) ينظر: فتح الباري: ٣١٩/١٠.

(٣) ينظر: شرح صحيح مسلم: ٦٦/١٤.

(٤) ينظر ص (٤٧٩) من هذا البحث.

ب- التعبير عن الخبر بصيغة الإنشاء.

قد يعبر عن الخبر بصيغة الإنشاء، وذكر البلاغيون أغراضًا بلاغية يرمي إليها البليغ، ومن ذلك: إظهار الاهتمام بالشيء، وتأكيد العناية به، وإظهار الرضا بالواقع حتى كأنه مطلوب، والاحتراز عن مساواة اللاحق بالسابق(١).

ومن الشواهد التي يستشهدون بها على هذه الأغراض قول الله U: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٢٩] قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((لم يقل: وإقامة وجوهكم، تأكيدًا لمكان العناية بالصلاة))(٢)، وقول الله U عن هود u : ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود: ٥٤]، قال الدكتور بسيوني فيود: ((المعنى: إني أشهد الله وأشهدكم، فعدل عن ذلك إلى ما عليه النظم الكريم من التعبير بصيغة الأمر: ﴿وَاشْهَدُوا﴾ احترازًا عن مساواة شهادتهم بشهادة الله U. وفيه أيضًا تعظيم لهود u وإعلاء لشأنه وتحقير لهؤلاء الكفرة المشركين، حيث أبرزه الأمر في صورة الآمر الذي يوجه إليهم الأمر، وعليهم أن يخضعوا ويذعنوا، وأن يستجيبوا لما يأمر به)) الطيبي (٧٤٣هـ): ((لم يقل: وأشهدكم؛ ليوازي شهادة الله تهاونًا بهم))(٣).

وقد ورد التعبير عن الخبر بالإنشاء كثيرًا في الخطاب النبوي في أحاديث الصحيحين، وجاء على عدة صور في مقامات متنوعة، تناولتها في الحديث عن الاستفهام والأمر والنهي وخروجها عن معانيها الأصلية إلى معان أخرى.

وسأذكر مثالاً لكل نوع، وأحيل القارئ إلى ما سبق تفصيله في مبحث الجملة الإنشائية من الفصل الرابع.

١- أما الاستفهام فيعبر به عن الخبر، بمعنى النفي، ومن ذلك قول النبي r لسعد ابن أبي وقاص t لما رأى سعد t أن له فضلاً على من دونه: «**هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ**» فـ(هل) هنا للإنكار والنفي، أي: لا تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم، والمقام

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٢٦، والتبيان، للطيبي: ١/٢٥٦-٢٥٧، ومفتاح تلخيص المفتاح: ٣٧١، وعلم المعاني، لفيود: ٢/١٦٤.

(٢) التبيان، للطيبي: ١/٢٥٦، وينظر: علم المعاني، لفيود: ٢/١٦٤.

(٣) علم المعاني: ٢/١٦٤، وينظر: التبيان، للطيبي: ١/٢٥٧.

مقام إنكار على المخاطب الذي صدر عنه ما يُظن أنه احتقار للمقصور عليه وغفلة عن أهميته، وأن النصر لا يكون إلا بالشجاعة وكثرة المال، ولعل التعبير بالاستفهام لما فيه من قوة التنبيه للمخاطب على خطأ ما قاله، وقد سبق أن المقصود في الاستفهام إنما هو محض التنبيه، كما قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) بعد أن تحدث عن بعض الشواهد في معنى الإنكار: ((اعلم أنا وإن كنا نفسر الاستفهام في مثل هذا بالإنكار، فإن الذي هو محض المعنى أنه ليتنبه السامع حتى يرجع إلى نفسه، فيخجل ويرتدع، ويعيى بالجواب))[(١)]، ولو جاء التعبير بالنفي لما أدى مثل هذا المعنى، والله أعلم.

٢- وأما الأمر فإن من المعاني التي يأتي عليها: الإباحة، ويعبر عنها بالخبر، لكن كثيرًا ما يعدل عن الخبر إلى الأمر لإزالة الحرج الذي قد يقع لدى المخاطب في فعل المباح المأمور به، ومن ذلك حديث ابن عباس t أن رسول الله r بينما هو عند ميمونة، وعنده الفضل بن عباس وخالد بن الوليد وامرأة أخرى، إذ قرب إليهم خِوان عليه لحم، فلما أراد النبي r أن يأكل قالت له ميمونة: إنه لحم ضَب، فكف يده، وقال: «هَذَا لَحْمٌ لَمْ آكُلْهُ قَطُّ» وقال لهم: «**كُلُوا**» فأكل منه الفضل وخالد بن الوليد والمرأة، وقالت ميمونة: لا آكل من شيء إلا شيء يأكل منه رسول الله r[(٢)]، فالنبي r أمر بأكله، مع أنه حلال، لتأكيد الإباحة ورفع الحرج، حتى كأنه صار مطلوبًا، والله أعلم.

٣- وأما النهي فمن المعاني التي يخرج إليها: الإرشاد والنصح، والتعبير عنه بالخبر، لكنه يأتي بصيغة النهي إظهارًا للرغبة في ترك المنهي عنه، والتأكيد عليه، ومن ذلك نهي النبي r للنساء عن احتقار الهدية أو الصدقة ولو كان المُهْدَى أو المُتَصَدَّق به قليلاً، كما في الحديث السابق ذكره: «يَا نِسَاءَ الْمُسْلِمَاتِ، **لا تَحْقِرَنَّ جَارَةٌ لِجَارَتِهَا وَلَوْ فِرْسِنَ شَاةٍ**»[(٣)]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وخص النهي بالنساء لأنهن موارد المودة والبغضاء، ولأنهن أسرع انفعالاً في كل منهما))[(٤)]، والله أعلم.

---

(١) دلائل الإعجاز: ١١٨.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ مسلم: (١٩٤٨).

(٣) ينظر ص (١٠٠) من هذا البحث.

(٤) فتح الباري: ١٠/٤٤٥.

المبحث الثالث: المخالفة بين الإضمار والإظهار.

قد يخرج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر فيوضع المضمر موضع المظهر، وقد يعكس فيوضع المظهر موضع المضمر، ويكون ذلك لأغراض بلاغية يقصدها البليغ، وقد وردت المخالفة بين الإظهار والإضمار بنوعيها في الخطاب النبوي في الصحيحين مراعى فيهما حال المخاطب، وسأتناولهما كما رتبهما البلاغيون.

أ- وضع المضمر موضع المظهر.

((الأصل ألا يذكر الضمير إلا وقد سبقه ما يعود عليه ليكون المقصود بالكلام واضحًا، تقول: لقيت زيدًا وأكرمته، فتذكر الضمير في (أكرمته) لأنه سبقه ما يعود عليه، ولا تقول: لقيته، هكذا ابتداء؛ لأن ذلك ضرب من التعمية والإلباس يناقض القصد من اللغة والبيان.

ومع وضوح هذا الأصل تجد صورًا من الأساليب بنيت على خلافه، فيذكر الضمير ليفسر بمتأخر عنه في بعض هذه الصور، أو يذكر من غير مفسر اعتمادًا على فهم السامع أو وضوح المعنى أو غير ذلك))[١].

والغرض البلاغي الذي يرمي إليه البليغ في وضع المضمر موضع المظهر الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال، قال السكاكي (٦٢٦هـ): ((ليتمكن في ذهن السامع ما يعقبه، وذلك أن السامع متى لم يفهم من الضمير معنى بقي منتظرًا لعقبى الكلام كيف تكون، فيتمكن المسموع بعده فضل تمكن في ذهنه))[٢]، وقال ابن يعقوب المغربي (١١٢٨هـ): ((حصول العلم بعد التشويق فيه لذة العلم ودفع ألم الشوق، واللذة المشتملة على دفع الألم أحلى من مجرد اللذة الحاصلة بدونه))[٣]، وقيل: ((الحاصل بعد الطلب أعز من المنساق بلا تعب))[٤].

---

(١) خصائص التراكيب: ٢٤١.

(٢) مفتاح العلوم: ١٩٨، وينظر: شروح التلخيص: ٤٥١/١، والتبيان، للطيبي: ١٥٠/١.

(٣) مواهب الفتاح: ٤٥١/١.

(٤) عروس الأفراح: ٤٥١/١.

- الإضمار في ضمير الشأن والقصة.

وأبرز ما يحسن فيه الإضمار عند البلاغيين: ضمير الشأن، ويسمى ضمير القصة، إذا كان مؤنثًا، وقد قال القزويني (٧٣٩هـ) بعد أن ذكر الغرض البلاغي من الإضمار الذي ذكره السكاكي (٦٢٦هـ) آنفًا: ((وهو السر في التزام تقديم ضمير الشأن أو القصة، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] وقال: ﴿إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧] وقال: ﴿فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ﴾ [الحج: ٤٦]))[١].

وضمير الشأن أو القصة لا يأتي إلا في الأخبار المهمة التي لها شأن، لأن الغرض البلاغي منه ((هو تفخيم الشأن أو القصة، وتثبيتها في الأنفس؛ لأن مجيء الضمير مبهمًا بدون عائد متقدم يجعل المخاطب ينشغل به، ويبحث عما يفسره فيصغي إلى الكلام، وعندما يعثر على المفسِّر يقع في النفس موقعًا حسنًا، فيقر بها ويثبت، لأن للبيان بعد الإبهام والتفصيل بعد الإجمال أثرًا حسنًا في النفس ووقعًا جميلاً، ويتضح لك هذا لو وضعت الاسم الظاهر موضع الضمير في الآيات الكريمة، فقلت: إن الأبصار تعمى.. قل الله أحد.. إن الكافرين لا يفلحون. فإنك تجد الفخامة قد ولت والروعة قد زالت، لأنه لم يتقدم عندئذ ما ينبه ويثير النفس إلى التفتيش والتنقيب عن مفسر لما أبهم. ولذا نجد ضمير الشأن أو القصة لا يستعمل إلا في الأمور المهمة والأخبار ذات البال، والمعاني الجليلة، على نحو ما رأيت في الآيات الكريمة))[٢].

وقد ورد ضمير الشأن في الخطاب النبوي كثيرًا، وجاء في عدة مقامات مراعاة لمقتضى حال المخاطب، ومن ذلك ما يلي:

١- الترغيب.

وجاء في هذا المقام حديث أنس t في بناء مسجد النبي r، وفيه قال: كان فيه ما أقول لكم: قبور المشركين، وفيه خِرَب، وفيه نخل، فأمر النبي r بقبور المشركين فنبشت، ثم بالخرب فسويت، وبالنخل فقطع، فصفوا النخل قبلة المسجد، وجعلوا عضادتيه الحجارة، وجعلوا ينقلون الصخر وهم يرتجزون، والنبي r معهم، وهو يقول:

---

(١) الإيضاح: ١/٤٥١، وينظر: مفتاح العلوم: ١٩٨.

(٢) علم المعاني، لفيود: ١/٢٦١، وينظر: الطراز: ٢٧٠، وخصائص التراكيب: ٢٤١-٢٤٢.

«اللَّهُمَّ **إِنَّهُ** لا خَيْرَ إِلاّ خَيْرُ الآخِــرَهْ   فَانْصُرِ الأَنْصَــارَ وَالْمُهَــاجِرَهْ»[(١)]

وفي حفر الخندق يوم الأجزاب قال أنس t : جعل المهاجرون والأنصار يحفـــرون الخندق حول المدينة، وينقلون التراب على متونهم، ويقولون:

نَحْـــنُ الَّـــذِينَ بَـــايَعُوا مُحَمَّـــدَا   عَلَى الإِسْلامِ مَـــا بَقِينَـــا أَبَـــدَا

والنبي r يجيبهم ويقول:

«اللَّهُمَّ **إِنَّه** لا خَيْرَ إِلاّ خَيْرُ الآخِــرَهْ   فَبَارِكْ فِي الأَنْصَــارِ وَالْمُهَــاجِرَهْ»[(٢)]

وقد سبق أن المقام في هذين الموقفين مقام ترغيب وتنشيط للعمل، ولذا جاء الخطاب بالدعاء وبالرجز لتأثيرهما العظيم في ترغيب المخاطبين وتنشيطهم، وممـــا أســـهم أيضًـــا في الترغيب تفخيم الخبر بمجيء ضمير الشأن في قوله r : «إِنَّه» حيث يبشرهم بعيش الآخـــرة وخيرها، ويدعو لهم بالنصرة والبركة، وقد يكون في إخبارهم بأنه لا عيش ولا خـــير إلا في الآخرة تعريض بعدم الخوف من مواجهة الأعداء رهبة من الموت؛ لأن العيش الحقيقي هو ما في الآخرة، وأن فعلهم الأسباب التي يواجهون بها عدوهم لأجل أن يحافظوا على الدين الذي به يحيون حياة الآخرة الباقية، لا لأجل أن يحيوا حياة الدنيا الفانية، ولذا جاء الخبر بأسلوب القصر ليتأكد ويترسخ في نفوسهم، وفي هذا مزيد ترغيب لهم وتنشيط للعمل؛ لأنهم بذلك يسعون في خير الآخرة، ويرجون ثوابها وحسن عيشها[(٣)]، والله أعلم.

٢-   الترهيب.

قد يأتي ضمير الشأن في مقام الترهيب لتمكينه في نفس المخاطب، وإشعاره بمزيد من الرهبة والحذر، ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها أن امرأة من الأنصار زوجت ابنتها، فتَمعَّط شعر رأسها، فجاءت إلى النبي r فذكرت ذلك له، فقالت: إن زوجها أمـــرني أن أصل في شعرها، فقال: «لا. **إِنَّهُ** قَدْ لُعِنَ الْمُوصِّلاتُ»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٩٣٢)، ومسلم: (٥٢٤).

(٢) أخرجه البخاري: (٢٨٣٥) وهذا لفظه، ومسلم: (١٨٠٥). ويلحظ أن نطق النبي r لهذا البيت والذي قبله غير قبله غير متقيد بالوزن العروضي، كما قال ابن كثير في تفسيره: ٦/٥٨٨: ((ورد أنه عليه الصلاة والســـلام كـــان لا يحفظ بيتًا على وزن منتظم، بل إن أنشده زَحَّفه أو لم يتمه)).

(٣) ينظر ص (١٧٢) من هذا البحث.

(٤) أخرجه البخاري: (٥٢٠٥) وهذا لفظه، ومسلم: (٢١٣٣).

والنبي r لم يكتف بنفي الوصل دلالة على التحريم، بل رهب من ذلك وأخبر أن من فعلته فهي ملعونة، وجاء اللعن بصيغة الماضي المبني لما لم يسم فاعله، ولعل ذلك لتأكيد اللعن وتحققه وتفخيمه في نفس المخاطب، وجاء في الرواية الأخرى: «لَعَنَ اللهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ» وإظهار لفظ الجلالة (الله) في هذه الرواية لما فيه من معاني العظمة والإحاطة، وتقديم المسند تعجيلاً بالترهيب. وجاء الخبر في الرواية الأولى مؤكدًا بـ(إنّ) و(قد) لمزيد من تمكين الأمر في نفس المخاطب، ولمزيد من التمكين والتفخيم جاء ضمير الشأن في قوله r : «إِنَّهُ». ولعل كل هذه الأساليب التي جاءت لتعطي مزيدًا من الترهيب، لكون المخاطبة امرأة، وهي تحرص على جمالها وزينتها، ولعل النبي r خشي أن تضعف نفسها أمام رغبتها فترتكب ما نهي عنه، فلم يكتف r بمجرد التحريم، بل زاد على ذلك الترهيب باللعن بتلك الأساليب، والله أعلم.

ومن الترهيب حديث أبي هريرة t أنه عام فتح مكة قتلت خزاعة رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فأخبر رسول الله r ، فركب راحلته، وقام في الناس وخطب، وكان مما قاله عن مكة: «أَلا وَ**إِنَّهَا** لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَنْ تَحِلَّ لأَحَدٍ بَعْدِي، أَلا وَ**إِنَّهَا** أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ النَهَارٍ. أَلا وَ**إِنَّهَا** سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ»(1)، فالنبي r يحذر من سفك الدم في مكة، وإحلال حرمتها، بعد أن أحلها الله له ساعة من نهار، ثم رفع حلها وبقيت حرمتها، ولما حصل من خزاعة أن قتلوا رجلاً ثأرًا خشي النبي r أن يبيح الناس حرمة مكة في هذا اليوم فيأخذوا بثاراتهم، فخطبهم مبينًا لهم أن حرمتها باقية بعد أن أحلها الله له، ولذا جاءت الخطبة مؤكدة بأداة التنبيه (ألا) التي كررها النبي r مع أكثر من خبر، وكذلك (إنّ)، وجاء الخبر في قوله r : «أَلا وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ» احتراسًا من أن يفهم الناس أن الساعة التي أحلت للنبي r لم تنته بعد، ولذا أكد أمره وفخم، فأكد بـ(ألا) التنبيهية، وبـ(إنّ)، وباسم الاشارة، كما جاء أيضًا ضمير القصة «إِنَّهَا» لمزيد تفخيم وترهيب للمخاطبين من انتهاك حرمة مكة، والله أعلم.

---

(1) أخرجه البخاري: (١١٢ و٢٤٣٤ و٦٨٨٠) ، ومسلم: (١٣٥٥).

٣- تأنيس المخاطب وتطييب نفسه.

وقد يأتي ضمير الشأن أو القصة في مقام يريد فيه النبي r تأنيس المخاطب وتسليته عما وقع فيه من مصاب، ومن ذلك حديث الرُّبيِّع بنت النَّضْر في استشهاد ابنها حارثة بن سراقة y في غزوة بدر، وفيه أنها قالت: يا رسول الله، قد عرفت مترلة حارثة مني، فإن يك في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن الأخرى ترى ما أصنع. فقال النبي r: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ، **إِنَّهَا** جِنَانٌ فِي الْجَنَّةِ، وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى» وفي رواية: «وَيْحَكِ، أَوَهَبِلْتِ، أَوَجَنَّةٌ وَاحِدَةٌ هِيَ، **إِنَّهَا** جِنَانٌ كَثِيرَةٌ، وَإِنَّهُ لَفِي جَنَّةِ الْفِرْدَوْسِ» وقد سبق الحديث في الفصل الأول[١]، وذكرت أن النبي r لما رأى ما بها من عظم المصاب بولدها لعظم مترلته عندها، لم يكتف بجواب سؤالها عن مآله في الآخرة أن يخبرها بأنه في الجنة، بل أكد لها ذلك وعَظَّم، والتأكيد والتعظيم ظاهران في استعمال (إنَّ) في الخبرين، وجمع الجنة على جمع التكسير (جنان) دون جمع الإناث (جنات) وتقديم المسند إليه (ابن) على خبره الفعلي في قوله: «وَإِنَّ ابْنَكِ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ الأَعْلَى» وجاء أيضًا ضمير القصة في قوله r: «إِنَّهَا» ليضفي مزيدًا من التعظيم والتأكيد حتى تطمئن الأم المكلومة وتأنس بعظم جزاء ولدها، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((والضمير في قوله: «إِنَّهَا جِنَانٌ» يفسره ما بعده، وهو كقولهم: هي العرب تقول ما شاءت، والقصد بذلك التفخيم والتعظيم))[٢]، والله أعلم.

ومن التأنيس حديث عائشة رضي الله عنها قالت: أعتم رسول الله r في العشاء، حتى ناداه عمر: قد نام النساء والصبيان، فخرج رسول الله r فقال: «**إِنَّهُ** لَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ يُصَلِّي هَذِهِ الصَّلاةَ غَيْرُكُمْ» و لم يكن أحد يومئذ يصلي غير أهل المدينة[٣]، وفي حديث لأبي موسى t قال: أعتم بالصلاة حتى ابْهَارّ الليل[٤]، ثم خرج النبي r فصلى بهم، فلما قضى صلاته قال لمن حضره: «عَلَى رِسْلِكُمْ، أَبْشِرُوا، إِنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكُمْ **أَنَّهُ** لَيْسَ

---

(١) ينظر ص (١٠٤) من هذا البحث.

(٢) فتح الباري: ٦:٢٧.

(٣) أخرجه البخاري: (٨٦٢) وهذا لفظه، ومسلم: (٦٣٨).

(٤) ابْهارّ، بمعنى: انتصف، وينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر: ١/١٦٥.

أَحَدٌ مِنْ النَّاسِ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ» قال أبو موسى: فرجعنا، ففرحنا بما سمعنا من رسول الله r [(١)].

والهاء في قوله r في حديث عائشة: «إِنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ» وقوله في حديث أبي موسى: «أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ» هي ضمير الشأن، وجاءت في مقام أراد النبي r أن يعتذر فيه لأصحابه ويؤنسهم ويطيب قلوبهم بعد أن تأخر عليهم، ويحصل لهم في التأخر مشقة، كما قال عمر t : قد نام النساء والصبيان، وقد قال الرسول r في رواية مسلم لحديث عائشة: «إِنَّهُ لَوَقْتُهَا، لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي» فدل ذلك على أن التأخر قد شق عليهم، فجاء خطاب النبي r تأنيسًا لهم مع تفخيم له بضمير الشأن، ولقد كان لهذا الأسلوب موقعه في نفوس الصحابة y فقال أبو موسى: فرجعنا، ففرحنا بما سمعنا من رسول الله r ، والله أعلم.

- الإضمار في غير ضمير الشأن.

وقد يأتي الإضمار في غير ضمير الشأن في مقام التفخيم والتعظيم، ويشهد لذلك حديث أبي سعيد الخدري t أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١] يرددها، فلما أصبح جاء إلى رسول الله r فذكر ذلك له، وكأن الرجل يتقالُّها، فقال رسول الله r : «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، **إِنَّهَا** لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ»[(٢)]، فالرجل الذي جاء إلى النبي r يتقال قراءة سورة الإخلاص في قيام الليل، فأخبره النبي r بخلاف ما يظن، وأن قدرها أعظم مما يتصور وفضلها كثير، وجاء الخبر مؤكدًا بعدة مؤكدات، أعظمها القسم، و(إنّ) و(لام الابتداء) وتقديم المسند إليه على خبره الفعلي، والتعبير عن المسند إليه بالضمير، وحقه أن يعبر عنه بالظاهر فيقال مثلاً: إن سورة الإخلاص، أو نحوًا من ذلك، لكن لما كان حال المخاطب بما ذكر اقتضى من النبي r أن يفخم أمر السورة فجاء بضمير الغائب، وهو قد يأتي لتفخيم الأمر، كما في قول الله U عن المنافقين: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤]، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((أي الكاملون في العداوة؛ لأن أعدى الأعداء العدو المداجي، الذي يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدويّ))[(٣)].

(١) أخرجه البخاري: (٥٧٦) ، ومسلم: (٦٤١).
(٢) أخرجه البخاري: (٥٠١٣).
(٣) الكشاف: ٤/٥٢٩.

وكقول القائل[1]:

مِن البِيضِ الوُجـوهِ بَـني سِـنانٍ ... لَو اَنَّكَ تَستضـيءُ بِهـم أَضـاءوا
هُمُ حَلُّوا مِـن الشَّـرَفِ الْمُعلَّـى ... وَمِن حَسَبِ العَشيرةِ حيثُ شـاءوا

فضمير الغائب (هم) للإشارة إلى علو مكانتهم وبعد مترلتهم[2]، والله أعلم.

ومن الإضمار ما جاء في حديث أنس **t** أنه كان فزع بالمدينة فاستعار النبي **r** فرسًا لأبي طلحة، يقال له المندوب، فلما رجع قال: «مَا رَأَيْنَا مِنْ فَزَعٍ، وَإِنْ وَجَدْنَاهُ لَبَحْرًا»[3] وقوله **r**: «وَإِنْ **وَجَدْنَاهُ** لَبَحْرًا» يقصد فرس أبي طلحة، أي واسع الجري، وإنما قال النبي **r** ذلك لأن فرسه كان بطيئًا كما قال أنس في الرواية الأخرى: كان يقطف، أو: كان فيه قطاف... ثم كان بعد ذلك لا يجارى[4]، وفي رواية مسلم قال: وكان فرسًا يُبَطَّأُ[5].

وفي هذا الخبر جاء ضمير المفعول به في قوله: «وَجَدْنَاهُ» في موضع الظاهر؛ لتفخيم شأن الفرس بعد أن كان عند أهله معروفًا بالعيب والنقص، وقد جاء في رواية البخاري الأخرى تفخيم شأن الفرس بلا إضمار، قال **r**: «وَجَدْنَا فَرَسَكُمْ هَذَا بَحْرًا» وهذا من عظيم بركة النبي **r** وحسن خلقه مع أصحابه **y**، والله أعلم.

ب- وضع المظهر موضع المضمر.

كما يوضع المضمر موضع المظهر فإن المظهر يوضع موضع المضمر، وذلك لاعتبارات بلاغية ذكرها البلاغيون، من ذلك أنه إن كان المظهر اسم إشارة فذلك إما لكمال العناية بتمييزه لاختصاصه بحكم بديع، وإما للتهكم بالسامع كما إذا كان فاقد البصر أو لم يكن ثم

---

(١) البيتان من أبيات منسوبة إلى أبي البرج القاسم بن حنبل المري، في: حماسة أبي تمام: ٢/٣١٠، والحماسة البصرية: ٢/٤٧٨، وزهر الآداب: ٢/٥٥٣، وذكر في الحماسة البصرية أنه يروى لمرة بن جعدة.

(٢) ينظر: علم المعاني، لفيود: ١/١١٥.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٦٢٧ و٢٨٥٧) ، ومسلم: (٢٣٠٧).

(٤) أخرج الرواية البخاري: (٢٨٦٧).

(٥) أخرج الرواية مسلم: (٢٣٠٧).

مشار إليه أصلاً، وإما للنداء على كمال بلادته بأنه لا يدرك غير المحسوس بالبصر، أو على كمال فطانته بأن غير المحسوس بالبصر عنده كالمحسوس عند غيره، وإما لادعاء أنه كمل ظهوره حتى كأنه محسوس بالبصر، وإما لنحو ذلك. وإن كان المظهر غير اسم إشارة فالعدول إليه عن المضمر إما لزيادة التمكين، وإما لإدخال الروع في ضمير السامع وتربية المهابة، وإما لتقوية داعي المأمور، وإما للاستعطاف، وإما لنحو ذلك[(١)].

ويرى عبد المتعال الصعيدي أن اسم الإشارة لا يأتي موضع الضمير، وإنما هو من تنزيل غير المحسوس منزلة المحسوس، قال: ((واسم الإشارة في هذا مثل ضمير الخطاب إذا استعمل في غير المشاهد لتنزيله منزلة المشاهد))[(٢)]، ولهذا القول وجاهته، وصنيع الطيبي (٧٤٣هـ) في التبيان يدل على أنه يراه، فإنه لم يذكره في وضع المظهر موضع المضمر[(٣)]، وإنما ذكر الشواهد التي ذكرها السكاكي (٦٢٦هـ) في مبحث التعريف باسم الإشارة[(٤)].

وقد جاء في الخطاب النبوي في الصحيحين مقامات وضع فيها المظهر موضع المضمر لأغراض بلاغية، ومنها ما روعي فيه حال المخاطب، ومن ذلك ما يلي:

١- الترغيب.

ومن ذلك الترغيب في الإخلاص والحث عليه كما في حديث بريدة t قال: كان رسول الله r إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ **اللهِ**. قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ **بِاللهِ**» وقد سبقت الوصية بتمامها[(٥)]، والإظهار هنا في لفظ الجلالة (الله) والظاهر أن يكون الكلام على الإضمار في (سبيله... كفر به)، لكن عدل عن الظاهر وهو الإضمار إلى الإظهار، ولعل الجهاد في سبيل الله لما كان يحتاج إلى نية خالصة لله U، والمرء فيه قد تعتريه حظوظ النفس من إظهار الشجاعة وإرادة الشهرة أو المال أو القتال حمية، أراد النبي r أن يؤكد التوصية

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ١٩٨، وشروح التلخيص: ١/٤٥٢-٤٥٩، والتبيان، للطيبي: ١/١٥٠-١٥١، والطراز: ٣٧٣.

(٢) ينظر: البلاغة العالية في علم المعاني: ٧٤.

(٣) ينظر: التبيان، للطيبي: ١/١٥٠-١٥١.

(٤) ينظر: المرجع السابق: ١/١٥٦-١٥٩.

(٥) ينظر ص (٩٣) من هذا البحث.

بالإخلاص ويقررها ويمكنها في نفوسهم فأظهر لفظ الجلالة في قوله: «فِي سَبِيلِ اللهِ» تأكيدًا لحق العبودية الخالصة لله U، وإظهار لفظ الجلالة أيضًا في قوله: «مَنْ كَفَرَ بِاللهِ» تأكيد لذلك المعنى، وأن القتال إنما هو في سبيل الله U ومن أجل دينه لا غير ذلك، ولذا فلا يقاتل إلا من كفر بالله U لا لأجل ثأر أو مال أو غير ذلك من أمور الدنيا، والله أعلم.

ومما جاء الإظهار فيه في مقام الترغيب حديث عبد الله بن عمرو t حينما أراد أن يشدد على نفسه، فيصوم النهار ولا يفطر، ويقوم الليل ولا ينام، فأراد النبي r أن يثني عزمه، ويرغبه فيما هو خير له، فكان مما قاله النبي r ترغيبًا له: «أَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَى اللهِ صَلاةُ دَاوُدَ u ، وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى **اللهِ** صِيَامُ **دَاوُدَ**؛ وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَيَقُومُ ثُلُثَهُ، وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا».

وقد سبق الحديث[1]، وذكرت أن كلام النبي r بني على الترغيب والتشويق للمخاطب، فجاء على أسلوب اللف والنشر إيضاحًا بعد إبهام.

وصيغت المحبة على أفعل التفضيل، وأضيفت العبادات إلى داود u تذكيرًا بحسن عبوديته التي امتدحها الله U في كتابه، وترغيبًا للمخاطب بالاقتداء به.

ولمزيد من الترغيب أيضًا يأتي المظهر في موضع المضمر في موضعين، في قوله: «وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللهِ صِيَامُ دَاوُدَ» فأظهر لفظ الجلالة (الله) و(داود u) والأصل فيهما الإضمار لدلالة الجملة السابقة عليهما.

وإظهار لفظ الجلالة فيه مزيد تمكين وتقرير لمحبة الله U لصيام داود في نفس المخاطب، حيث إن الذي يحب ذلك النوع من الصيام هو الله U، وفي ذلك تعريض للمخاطب بأن ما أراده على خلاف ما هو أحب لله U.

وإظهار لفظ (داود) فيه مزيد تذكير بعبودية داود u التي امتدحها وأحبها الله U، لعل المخاطب أن يرغب في الاقتداء به، وقد جاء في رواية لمسلم: « فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللهِ r ، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ»، والله أعلم.

---

(١) ينظر ص (٣٨) من هذا البحث.

٢- الترهيب.

ومما جاء في هذا المقام حديث جابر t في تحريم بيع شحوم الميتة، وقد سبق الحديث آنفًا في مبحث المخالفة بين الإنشاء والخبر، وفيه قال الرسول r: «قَاتَلَ اللهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللهَ U لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ» والنبي r في هذا المقام لما رأى رغبة المخاطبين في تحليل شحوم الميتة لحاجتهم إليها في طلاء السفن ودهن الجلود والاستصباح بها، خشي أن يقعوا في مثل ما وقع فيه اليهود من التحايل، فرهب من فعلهم والاقتداء بهم، وجاء الترهيب بأساليب متنوعة، منها الدعاء على اليهود، وجاء الدعاء بصيغة الماضي لتأكيد التحقق، كما سبق بيانه، ثم بين سبب الدعاء بخبر مؤكد بـ(إنّ) وتقديم المسند إليه لفظ الجلالة (الله) على الخبر الفعلي.

ولمزيد من الترهيب عدل عن إضمار اسم إنّ في قوله: «إِنَّ اللهَ» إلى الإظهار، ولو جاء الكلام على الظاهر لأضمر لدلالة الجملة السابقة عليه، لكنه r أظهر فجاء بلفظ الجلالة (الله) بما فيه من معاني العظمة والإحاطة، لتمكين المعنى وتقريره في النفس، ولإدخال الروع في ضمير السامع، وتربية المهابة في قلبه، والله أعلم.

ومما جاء في هذا المقام حديث عائشة رضي الله عنها في شأن المرأة المخزومية التي سرقت في غزوة الفتح، وقد سبق الحديث بتمامه[(١)]، وفيه أن أسامة بن زيد t شفع فيها فأنكر عليه النبي r، ثم قام خطيبًا منكرًا الشفاعة في الحدود وترك إقامة شرع الله فيها، وكان مما قال: «وَالَّذِي نَفْسُ **مُحَمَّدٍ** بِيَدِهِ، لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ **مُحَمَّدٍ** سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا».

وفي هذه الخطبة إظهاران لاسمه r (محمد) في موضعي الإضمار، ولو جاء الكلام على الظاهر لقال: (نفسي... بنتي) بضمير المتكلم، وقد وردت رواية أخرى بالإضمار في القسم: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ»[(٢)]، ووردت رواية جاء القسم فيها بـ(وايم الله)[(٣)]، والرواية الأولى تتلاءم مع الإظهار في المقسم عليه «لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ» فإن كانت هي المحفوظة فإن احتياج النبي r إلى أن يظهر اسمه في القسم والمقسم عليه يشعر المخاطبين بمزيد

---

(١) ينظر ص (١٩١) من هذا البحث.

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٦٧٨٧) ، ومسلم: (١٦٨٨).

(٣) أخرج الرواية البخاري: (٣٤٧٥ و٦٧٨٨) ، ومسلم: (١٦٨٨).

من الترهيب والتحذير، ويدخل في ضمائرهم الروع، ويربي في نفوسهم المهابة، وفي ذلك تمكين للترهيب في نفوسهم، والله أعلم.

ومثل هذا خطبته r في شأن زواج علي t من ابنة أبي جهل، وقد سبقت ذكرها في مبحث الخطابة من الفصل الثاني[(١)]، وفيها قال النبي r: «وَإِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ **مُحَمَّدٍ** مُضْغَةٌ مِنِّي، وَإِنَّمَا أَكْرَهُ أَنْ يَفْتِنُوهَا، وَإِنَّهَا -وَاللهِ- لا تَجْتَمِعُ بِنْتُ **رَسُولِ اللهِ** وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا».

وفي هذا القول إظهاران: «فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ» و«بِنْتُ رَسُولِ اللهِ» ولو جاء الكلام على الظاهر لقيل: (بنتي... بنتي) بضمير المتكلم.

والغرض من الإظهار في الحديث السابق مقصود هنا، إلا أن مما يلحظ أن النبي r أضاف بنته في الموضع الأول إلى اسمه (محمد) وفي الموضع الثاني إلى وصفه (رسول الله).

ولعل الموضع الأول قصد بإظهار اسمه فيه إظهار بشريته r وأن منعه للزواج محبة لابنته وكرهًا لأذيتها كما قال في إحدى الروايات: «وَإِنِّي لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلالاً، وَلا أُحِلُّ حَرَامًا»[(٢)]، وقال في رواية أخرى: «فَإِنَّمَا ابْنَتِي بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي مَا رَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا»[(٣)].

وفي الموضع الثاني لما أراد النبي r أن يصرف عليًا عن الزواج بابنة أبي جهل ما دامت فاطمة تحته وصفها بأنها بنت عدو الله، فناسب أن يقابل هذا الوصف البغيض بوصف ابنته بأنها بنت رسول الله r، وفي هذه المقابلة ترغيب وترهيب، والله أعلم.

٣- تأنيس المخاطب والتلطف معه وتطييب نفسه.

ومما جاء في هذا المقام خطبة النبي r في الأنصار لما وجدوا في أنفسهم على رسول الله r حين لم يقسم لهم من الغنائم، وقد سبقت الخطبة بتمامها في المبحث الثاني من الفصل الأول[(٤)]، ومما قاله النبي r فيها: «لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِنَ الأَنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ

---

(١) ينظر ص (١٩٣) من هذا البحث.

(٢) أخرج الرواية البخاري: (٣١١٠)، ومسلم: (٢٤٩٩).

(٣) أخرج الرواية البخاري: (٥٢٣٠)، ومسلم: (٢٤٩٩).

(٤) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ **الأَنْصَارِ** وَشِعْبَهَا. **الأَنْصَارُ** شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ» والــنبي r في هذه الخطبة يريد أن يؤنس الأنصار ويطيب نفوسهم ويذهب ما في قلوبهم، وحق الكلام أن يأتي بضمير المخاطب، فيقال: (لكنت امرءًا منكم... واديكم... أنتم شعار) أو يأتي بضمير الغائب إن كان النبي r يريد أن يجري الخطاب للغائب عدولاً عن المخاطب كما هو واضح من قوله: «وَشِعْبَهَا». وعلى كلا الحالين فإن النبي r أظهر اســم (الأنصــار) في موضــع الإضمار، ولعل في ذلك مزيد إيناس لهم وتلطف بهم وتطييب لقلوبهم حينما يتردد وصفهم الذي يحبونه، والذي يشعرهم مرة بعد مرة بدوام اعتراف النبي r بنصرتهم وفضلهم علــى الدعوة الإسلامية، والله أعلم.

المبحث الرابع: الالتفات.

من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر: الالتفات، وهو عند الجمهور: التعبير عن المعنى بطريق من الطرق الثلاثة (التكلم والخطاب والغيبة) بعد التعبير عنه بطريق آخر منها[١].

وذهب السكاكي (٦٢٦هـ) إلى أن التعبير بضمير موضع ضمير آخر ابتداء يعد من الالتفات، فالالتفات عنده أعم[٢]، قال القزويني (٧٣٩هـ): ((المشهور عند الجمهور أن الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، وهذا أخص من تفسير السكاكي؛ لأنه أراد بالنقل أن يعبر بطريق من هذه الطرق عما عبر عنه بغيره، أو كان مقتضى الظاهر أن يعبر عنه بغيره منها، فكل التفات عندهم التفات عنده من غير عكس))[٣].

وذهب بعض العلماء كضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ) والعلوي (٧٤٩هـ) إلى أعم من هذا، فرأوا أن الالتفات انتقال في الكلام من أسلوب إلى أسلوب آخر، ويدخل فيه الانتقال بين الأفعال، وبين الخبر والإنشاء، وغيرها من صور الالتفات عندهم[٤].

وسأجري في هذا البحث على ما رآه الجمهور.

والالتفات على رأي الجمهور له ست صور (التفات من التكلم إلى الخطاب، ومن التكلم إلى الغيبة، ومن الخطاب إلى التكلم، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى الخطاب، ومن الغيبة إلى التكلم)[٥].

وعُد الالتفات من شجاعة العربية، قال ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ): ((لأن الشجاعة هي الإقدام، وذاك أن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، ويتورد ما لا

---

(١) ينظر: المصباح: ٣٠، وشروح التلخيص: ٤٦٥/١، والتبيان، للطيبي: ٣٤٧/٢.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ١٩٩.

(٣) الإيضاح: ٤٦٥/١-٤٦٧.

(٤) ينظر: المثل السائر: ١٨١/٢، والطراز: ٢٦٥، وعروس الأفراح: ٤٦٤/١.

(٥) ينظر: شروح التلخيص: ٤٦٧/١-٤٧١، والتبيان، للطيبي: ٣٤٧/٢-٣٥٠.

يتورده سواه، وكذلك هذا الالتفات في الكلام))[1]، وقال الدكتور محمد أبو موسى: ((الشجاعة هنا إقدام على أنماط من التعبير مخالفة لما يقتضيه الأصل؛ لأنها تعبير بأسلوب الخطاب في سياق الغيبة، وذكر الغيبة في سياق الخطاب، وهكذا، والمعتمد عليه في ذلك سياق الكلام وشفافية الدلالة، وهذا إن تأملته ضرب من الشجاعة واقتحام سبيل غير السبيل المألوف))[2]. وهذه الشجاعة لا تختص بالالتفات بل يدخل فيها كل خروج عن الأصل، وقد وضع ابن جني في كتابه (الخصائص) بابًا بعنوان: (باب في شجاعة العربية) قال فيه: ((اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف، والزيادة، والتقديم والتأخير، والحمل على المعنى، والتحريف))[3].

وقد تناول الزمخشري (٥٣٨هـ) الالتفات مبينًا حسنه في قول الله U: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤] فقال: ((فإن قلتَ: لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلتُ: هذا يسمى (الالتفات) في علم البيان، قد يكون من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة، ومن الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ﴾ [يونس: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ﴾ [فاطر: ٩]... وذلك على عادة افتنانهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأن الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع، وإيقاظًا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب واحد، وقد تختص مواقعه بفوائد. ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام، تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات، فخوطب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات، فقيل: إياك يا من هذه صفاته نخص بالعبادة والاستعانة، لا نعبد غيرك ولا نستعينه، ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به))[4].

وفي أحاديث الصحيحين ورد الالتفات في كلام النبي r ، وقد تبين لي مما جاء منه مراعاة لمقتضى حال المخاطب الصور الآتية مرتبة حسب ترتيب البلاغيين:

---

(١) المثل السائر: ١٨١/٢، وينظر: الطراز: ٢٦٥، وخصائص التراكيب: ٢٥١.

(٢) خصائص التراكيب: ٢٥١.

(٣) ينظر: الخصائص: ٣٦٠/٢، وخصائص التراكيب: ٢٥١.

(٤) الكشاف: ٢٣/١-٢٤، وينظر: شروح التلخيص: ٤٧٢/١.

أ- من التكلم إلى الغيبة.

وظهر لي في هذه الصورة خطبة النبي ﷺ في الأنصار لما وجدوا في أنفسهم على رسول الله ﷺ حين لم يقسم لهم من الغنائم، وقد سبقت، وفيها كان النبي ﷺ يشير على نفسه بضمير المتكلم فيقول: «فَإِنِّي أُعْطِي رِجَالاً حَدِيثِي عَهْدٍ بِكُفْرٍ أَتَأَلَّفُهُمْ» ثم قال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلالاً فَهَدَاكُمْ اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ اللهُ بِي، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللهُ بِي؟» ثم يقول لهم: «أَلا تُجِيبُونِي؟» ثم ينتقل من صيغة التكلم إلى الغيبة فيقول: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بِالدُّنْيَا وَتَذْهَبُونَ **بِرَسُولِ اللهِ** ﷺ **تَحُوزُونَهُ** إِلَى بُيُوتِكُمْ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» ولو جاء الكلام على الظاهر لقيل: (وتذهبون بي، تحوزوني).

والمقام كما سبق مقام تلطف بالمخاطبين وتطييب لقلوبهم وإرضاء لهم، مع عتاب لهم وتزهيد بالدنيا التي من أجلها وجدوا على رسول الله ﷺ، وترغيب لهم بما هو خير منها، فلعل الحديث بصيغة التكلم كان في مقام إظهار الفضل عليهم عتابًا لهم على ما حصل منهم، ثم التفت إلى صيغة الغيبة لبيان عظم ما حازوا ورجعوا به في مقابل ما حاز الناس من الدنيا، والله أعلم.

ولعل منه حديث أبي بكر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله، لو أن بعضهم طأطأ بصره رآنا. قال: «اسْكُتْ. يَا أَبَا بَكْرٍ، اثْنَانِ اللهُ **ثَالِثُهُمَا**»[(١)]، وفي رواية: «يَا أَبَا بَكْرٍ، مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[(٢)].

وإن كانت الرواية الأولى هي المحفوظة فإن قوله ﷺ: «اثْنَانِ» خبر لمبتدأ محذوف، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((تقديره: نحن اثنان))[(٣)]، وعلى تقدير المبتدأ ضمير المتكلم فإن قوله ﷺ: «اللهُ ثَالِثُهُمَا» التفات من التكلم إلى الغيبة، ولعل النبي ﷺ لما رأى الوجل والإشفاق في أبي بكر رضي الله عنه أراد أن يطمئنه ويؤنسه، فبنى الخبر على التعظيم، حيث جاء بلفظ

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ: (٣٩٢٢).

(٢) أخرجه البخاري: (٣٦٥٣)، ومسلم: (٢٣٨١).

(٣) فتح الباري: ١١/٧، وينظر: عمدة القاري: ١٧٤/١٦ و٥٨/١٧.

الجلالة (الله) بما فيه من الإشعار بالعظمة والإحاطة والقدرة، وضمير الغيبة بما فيه من تعظيم، وقد ذكرت من قبل أن في ذكر لفظ الجلالة علمًا بالاسم المختص به U تذكيرًا لأبي بكر t بعظم الرب وإحاطته بخلقه ونصرته لعباده وأوليائه، واستغناء العباد به، وهذا مقام أحوج ما يكون العبد فيه إلى التذكير بذلك ليأنس بالله U، ويستغني به، ويتوكل عليه، فتطمئن نفسه، ويثبت جنانه(١)، والله أعلم.

ب- من الخطاب إلى الغيبة.

ومما جاء في هذه الصورة حديث: «إِنَّ اللهَ خَيَّرَ عَبْدًا بَيْنَ الدُّنْيَا وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَ اللهِ» وقد سبق في الفصل الرابع(٢)، وفيه أن أبا بكر لما سمع النبي r بكى فقال الرسول r: «يَا أَبَا بَكْرٍ، لا تَبْكِ، إِنَّ أَمَنَّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ **أَبُو بَكْرٍ**، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لاتَّخَذْتُ **أَبَا بَكْرٍ**، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلامِ وَمَوَدَّتُهُ، لا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ بَابٌ إِلاَّ سُدَّ إِلاَّ بَابُ **أَبِي بَكْرٍ**».

جاء خطاب النبي r في مقام يريد فيه أن يطيب نفس أبي بكر t ويؤنسه حينما بكى لمعرفته بقرب فراق النبي r، فناداه نداء الصاحب تأنيسًا، ونهاه نهي الملتمس تطييبًا، وجاء الكلام بصيغة الخطاب «يَا أَبَا بَكْرٍ، لا تَبْكِ» لكن النبي r لم يستمر على هذه الصيغة فالتفت إلى الغيبة وكان الظاهر أن يقال مثلاً: (إن أمن الناس...أنت... لاتخذتك... بابك) ولعل النبي r أراد أن لا يكون الخطاب فرديًا خاصًا بأبي بكر، وكأن الفضل مقصورًا عليهما، بل أراد أن يكون خبرًا عامًا تعلمه الأمة لتدرك فضل أبي بكر على رسولها وعليها كلها، وهذا فيه مزيد تطييب وتأنيس لأبي بكر t، والله أعلم.

ومن الالتفات إلى الغيبة بعد الخطاب حديث ابن عمر t قال: مكثنا ذات ليلة ننتظر رسول الله r لصلاة العشاء الآخرة، فخرج إلينا حين ذهب ثلث الليل أو بعده، فلا ندري أشيء شغله في أهله أو غير ذلك؟، فقال حين خرج: «إِنَّكُمْ لَتَنْتَظِرُونَ صَلاةً مَا

---

(١) ينظر ص (١٣٩) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (٤٧٧) من هذا البحث.

يَنْتَظِرُهَا أَهْلُ دِينٍ غَيْرُكُمْ، وَلَوْلا أَنْ يَثْقُلَ **عَلَى أُمَّتِي** لَصَلَّيْتُ **بِهِمْ** هَذِهِ السَّاعَةَ» ثم أمر المؤذن فأقام الصلاة وصلى[1].

والمقام الذي يخاطب النبي r فيه أصحابه مقام اعتذار كما سبق مثله في حديث عائشة في مبحث المخالفة بين الإضمار والإظهار، حيث أراد النبي r أن يعتذر فيه لأصحابه ويؤنسهم ويطيب قلوبهم بعد أن تأخر عليهم، وحصل لهم في التأخر مشقة، ولذا جاء الكلام أولاً على الظاهر بصيغة الخطاب «إِنَّكُمْ لَتَنْتَظِرُونَ صَلاةً مَا يَنْتَظِرُهَا أَهْلُ دِينٍ غَيْرُكُمْ» وفي هذا القول اعتذار وتأنيس لهم، ثم التفت النبي r إلى الغيبة فقال: «وَلَوْلا أَنْ يَثْقُلَ عَلَى أُمَّتِي لَصَلَّيْتُ بِهِمْ هَذِهِ السَّاعَةَ» ولو جاء الكلام على الظاهر لقيل: (يثقل عليكم... بكم) بصيغة الخطاب، وفي هذا إسناد للثقل على الصحابة y، ولعل النبي r أراد أن يدع هذا الإسناد الذي يشعر أصحابه بثقل الأعمال الفاضلة عليهم، وهم الذين يحرصون على اتباع دينه والاقتداء بهديه، وانتظروه إلى هذا الوقت حتى شق عليهم، ثم إن توجيه الخطاب لهم يوهم أن الثقل عليهم دون غيرهم، لكن حينما يأتي الثقل مسندًا إلى عموم الأمة وهم داخلون فيها فإن الوهم منتف، والله أعلم.

ولعل التعبير بمثل هذا في نصوص أخرى جاء لهذا الغرض، منها قوله r: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي -أو: عَلَى النَّاسِ، أو: على المؤمنين- لأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ مَعَ كُلِّ صَلاةٍ»[2]، وقوله: «لَوْلا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي مَا تَخَلَّفْتُ عَنْ سَرِيَّةٍ»[3].

كما أن كثيرًا من النصوص التي جاء فيها الالتفات من الخطاب إلى الغيبة الغرض منها إرادة العموم للأمة دون خصوص المخاطب، كما في قول النبي r لعمر بن الخطاب t، وقد أدركه في ركب وهو يحلف بأبيه: «أَلا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ **كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ وَإِلاّ فَلْيَصْمُتْ**»[4]، فبعد أن نهاهم النبي r بصيغة الخطاب عن

(١) أخرجه بهذا اللفظ مسلم: (٦٣٩).

(٢) أخرجه البخاري: (٨٨٧ و٧٢٤٠) ، ومسلم: (٢٥٢).

(٣) أخرجه البخاري: (٣٦ و٢٧٩٧ و٢٩٧٢) ، ومسلم: (١٨٧٦).

(٤) أخرجه البخاري: (٦١٠٨ و٦٦٤٦) ، ومسلم: (١٦٤٦).

الحلف بغير الله U، التفت إلى خطاب الغيبة، ليكون الكلام قاعدة عامة لعموم الأمة، ولو جاء بصيغة الخطاب لأوهم أن النهي خاص بالمخاطبين، والله أعلم.

ومن ذلك قول النبي r لأصحابه لما صفقوا في صلاتهم: «مَا لِي رَأَيْتُكُمْ أَكْثَرْتُمْ التَّصْفِيقَ؟» ثم قال لهم بصيغة الغيبة لإرادة العموم: «**مَنْ رَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلاتِهِ فَلْيُسَبِّحْ فَإِنَّهُ إِذَا سَبَّحَ الْتُفِتَ إِلَيْهِ**، وَإِنَّمَا التَّصْفِيقُ لِلنِّسَاءِ»(١)، ومن ذلك قوله r لناس من الأنصار سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده، فقال بصيغة الخطاب: «مَا يَكُونُ عِنْدِي مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ أَدَّخِرَهُ عَنْكُمْ» ثم قال ملتفتًا إلى الغيبة بصيغة العموم: «**وَمَنْ يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، وَمَنْ يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، وَمَنْ يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وَمَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنْ الصَّبْرِ**»(٢)، والله أعلم.

ت- من الغيبة إلى الخطاب.

ومما يدخل في هذه الصورة من الالتفات حديث عائشة رضي الله عنها لما حاضت وهي في طريقها إلى الحج، وقد سبق الحديث في الفصل الأول(٣)، وفيه أنها بكت، وقال لها الرسول r تسلية لها وتخفيفًا لمصابها: «إِنَّ هَذَا أَمْرٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ» وقد جرى هذا الكلام على الغيبة شاملاً كل النساء في كل حال، فليست عائشة مختصة به، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قوله r في الحيض: «هَذَا شَيْءٌ كَتَبَهُ اللهُ عَلَى بَنَاتِ آدَمَ» هذا تسلية لها وتخفيف لها، ومعناه أنك لست مختصة به بل كل بنات آدم يكون منهن))(٤)، ولو قال النبي r لها: (كتبه الله عليك) لكان فيه مزيد مشقة عليها فوق ما هي فيه. ثم التفت إليها مخاطبًا لها بصيغة الخطاب، فقال: «**فَاقْضِي مَا يَقْضِي الْحَاجُّ، غَيْرَ أَنْ لا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهُرِي**» وكان الظاهر أن يأتي الكلام على الغيبة كما أتى السابق، وإنما التفت إلى الخطاب ليبين لها الحكم الذي يخصها في حجها، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٨٤)، ومسلم: (٤٢١).

(٢) أخرجه البخاري: (١٤٦٩ و٦٤٧٠)، ومسلم: (١٠٥٣).

(٣) ينظر ص (٩٦) من هذا البحث.

(٤) شرح صحيح مسلم: ١٤٦/٨.

ومن ذلك قول النبي r لمن عض صاحبه فسقطت ثنيتاه: «يَعَضُّ أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الْفَحْلُ. لا دِيَةَ **لَكَ**»[1] هذه رواية البخاري، وفي رواية لمسلم: «أَيَعَضُّ أَحَدُكُمْ كَمَا يَعَضُّ الْفَحْلُ. لا دِيَةَ لَهُ»[2]، فإن كانت رواية البخاري هي المحفوظة فإن النبي r تكلم بصيغة الغيبة أولاً، ولعل المقصود من ذلك مع التشبيه أن يتخيل المخاطب شناعة فعله، ولذلك جاء التعبير بصيغة المضارع الذي يسهم في استدعاء الصورة وتخيلها، ثم التفت إلى الخطاب لبيان الحكم المختص به المخاطب فقال: «لا دِيَةَ لَكَ» والله أعلم.

ث- من الغيبة إلى التكلم.

ومما يستشهد به لهذه الصورة من الالتفات خطبته r في شأن زواج علي t من ابنة أبي جهل، وقد سبقت آنفًا في مبحث المخالفة بين الخبر والإنشاء، وفيها قال النبي r: «وَإِنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ مُضْغَةٌ **مِنِّي**، وَإِنَّمَا **أَكْرَهُ** أَنْ يَفْتِنُوهَا، وَإِنَّهَا -وَاللهِ- لا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ عِنْدَ رَجُلٍ وَاحِدٍ أَبَدًا».

والنبي r هنا تكلم عن نفسه أولاً بصيغة الغيبة «فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ» وكان الظاهر أن يستمر في الغيبة، لكنه التفت من الغيبة إلى التكلم «مُضْغَةٌ مِنِّي، وَإِنَّمَا أَكْرَهُ أَنْ يَفْتِنُوهَا» واختيار الغيبة أولاً بإظهار اسمه r سبق بيانه في الإظهار في موضع الإضمار، أما الالتفات إلى التكلم فلعله لإبراز استيائه وكرهه وعدم رغبته، وفي ذلك مزيد تحذير وتنفير للمخاطب من الزواج على فاطمة رضي الله عنها، والله أعلم.

هذه صور الالتفات التي ظهر لي فيها بعض الشواهد التي تبين رعاية النبي r لمقتضى حال المخاطب في اختيار أسلوب الالتفات، وتخلفت صورتان لم يظهر لي فيهما شواهد، وهما: الالتفات من التكلم إلى الخطاب، والالتفات من الخطاب إلى التكلم، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري بهذا اللفظ: (٦٨٩٢).

(٢) أخرجه البخاري: (٦٨٩٢) ، ومسلم: (١٦٧٣).

المبحث الخامس: الأسلوب الحكيم.

مما عده البلاغيون من صور خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر (الأسلوب الحكيم) وهو عندهم: تلقي المخاطب بغير ما يترقب، أو السائل بغير ما يتطلب[١]. وسماه بعض البلاغيين (المغالطة)[٢].

وقد تضمن التعريف قسمين لهذا الأسلوب:

أ- تلقي المخاطب بغير ما يترقب ((بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهًا على أنه الأولى بالقصد))[٣].

ب- تلقي السائل بغير ما يطلب ((بتتريل سؤاله مترلة غيره، تنبيهًا على أنه الأولى بحاله أو المهم له))[٤].

وفرق الدسوقي (١٢٣٠هـ) بينهما فقال: ((الفرق بين تلقي السائل وتلقي المخاطب أن تلقي السائل مبني على السؤال، بخلاف تلقي المخاطب))[٥]، ولعل الذي دعا الدسوقي إلى التفريق أن القسم الثاني داخل في عموم الأول، لأن المخاطب إما أن يكون سائلاً وإما أن يكون غير سائل، ففيه تخصيص من عموم، كما قال السبكي (٧٧٣هـ) عن القسم الثاني: ((وعندي أن هذا من القسم الأول، إلا أن فيه سؤالاً فهو أخص من هذا الوجه))[٦]، ولهذا يكفي في التعريف أن يقال: تلقي المخاطَب بغير ما يترقب. ثم بعد ذلك يُقسم المخاطب إلى سائل وإلى غيره، والأمر في هذا يسير.

وفي شأن (الأسلوب الحكيم) قال السكاكي (٦٢٦هـ): ((وإن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور وأبرزه في معرض

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٣٢٧، وشروح التلخيص: ٤٧٩/١، والتبيان، للطيبي: ٣٥٧/٢، ومعجم المصطلحات البلاغية: ١٩٩/١، والأسلوب الحكيم: ٢٨.

(٢) ينظر: الإيضاح: ٤٨١/١، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢٠١/١، والأسلوب الحكيم: ١٩.

(٣) شروح التلخيص: ٤٧٩/١.

(٤) المراجع السابقة، وينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ٢٠٠/١، والأسلوب الحكيم: ٣٣ و٤٥.

(٥) حاشية الدسوقي على مختصر التفتازاني: ٤٨١/١.

(٦) عروس الأفراح: ٤٨١/١.

المسحور))[1]، وقال ابن كمال باشا (٩٤٠هـ): ((الأسلوب الحكيم مرجعه إلى العدول في الجواب عن موجب الخطاب، لحكمة شريفة يقتضيها المقام، أو نكتة لطيفة يرتضيها ذوو الأفهام))[2]، وذكر الدكتور محمد الصامل أن هذا الأسلوب ((يحقق أغراضًا بلاغية كثيرة، منها:

١- الإجابة بما فيه فائدة المخاطب.

٢- التأدب.

٣- الاستعطاف.

٤- التخلص.

٥- إظهار القدرة على المحاورة والجدل.

٦- الطرافة والهزل))[3].

وقد ورد هذا الأسلوب في الخطاب النبوي في أحاديث الصحيحين، وسأذكر له شواهد موزعة على قسمي هذا الأسلوب، مرتبًا لهما كترتيب البلاغيين.

أ- تلقي المخاطَب بغير ما يترقب.

وهذا القسم لا مدخل للسائل فيه، فالخطاب لا يعتمد على السؤال والجواب.

ومما جاء على هذا القسم حديث أنس t أن النبي r مَرَّ بامرأة تبكي على صبي لها عند قبره فقال لها: «اتَّقِي اللَّهَ، وَاصْبِرِي» قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي. ولم تعرفه. فقيل لها: إنه النبي r ، فأتت باب النبي r ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «إِنَّمَا الصَّبْر عِنْد الصَّدْمَة الأُولى»[4]، فالمرأة جاءت إلى النبي r معتذرة عن ردها عليه، بسبب عدم معرفتها به، فقالت: لم أعرفك. ولعلها تنتظر من النبي r إعذارها، لكن النبي r لم يعذرها صراحة، وإنما قال لها ما لم تكن تترقبه: «**إِنَّمَا الصَّبْر عِنْد الصَّدْمَة الأُولى**» وهذا كلام على طريقة الأسلوب الحكيم يتضمن إعذارها، ولفتها إلى ما هم أولى

(١) مفتاح العلوم: ٣٢٧.

(٢) رسالة في بيان الأسلوب الحكيم: ١١٧.

(٣) الأسلوب الحكيم: ٨٠-٨١.

(٤) أخرجه البخاري: (١٢٨٣) ، ومسلم: (٩٢٦).

لها، قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((حين قيل لها: إنه النبي r ، استشعرت خوفًا وهيبة في نفسها، فتصورت أن نبي الله r كمثل الملوك والعظماء، له حاجب يمنع الناس من الوصول إليه، فقالت معتذرة: اعذرني من تلك الردة وخشونتها. فكان ظاهر الجواب غير ما ذكر من قوله: «الصَّبْر عِنْد الصَّدْمَة الأُولى» ولكن أخرجه مخرج (الأسلوب الحكيم) أي: دعي الاعتذار مني، فإن من شيمتي أن لا أغضب إلا لله، وانظري إلى تفويتك من نفسك الثواب الجزيل والكرامة والفضل من الله تعالى، بالجزع وعدم الصبر عند فجاءة الفجيعة))(١).

ومن الشواهد حديث علي t أن فاطمة رضي الله عنها أتت النبي r تشكو إليه ما تلقى في يدها من الرحى، وبلغها أنه جاءه رقيق فلم تصادفه، فذكرت ذلك لعائشة، فلما جاء أخبرته عائشة. قال: فجاءنا وقد أخذنا مضاجعنا، فذهبنا نقوم، فقال: «عَلَى مَكَانِكُما» فجاء فقعد بيني وبينها حتى وجدت برد قدميه على بطني.

ولعل فاطمة وعلي رضي الله عنهما ظنا حينما طلبا من النبي r خادمًا أنه سيعطيهما، ولن يرد طلبهما، ولكن النبي r تلقاهما بغير ما يترقبان، فقال لهما: «**أَلا أَدُلُّكُمَا عَلَى خَيْرٍ مِمَّا سَأَلْتُمَاهُ. إِذَا أَخَذْتُمَا مَضَاجِعَكُمَا -أو: أَوَيْتُما إِلى فِرَاشِكُما- فَسَبِّحَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَاحْمَدَا ثَلاثًا وَثَلاثِينَ، وَكَبِّرَا أَرْبَعًا وَثَلاثِينَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمَا مِنْ خَادِمٍ**»(٢)، قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((علمها ما هو الأهم بحالها من التسبيح والتحميد والتكبير من طلبها الرقيق، فهو من باب تلقي المخاطب بغير ما يتطلب، إيذانًا بأن الأهم من المطلوب هو التزود للمعاد والتجافي من دار الغرور والصبر على مشاقها ومتاعبها))(٣).

ومن ذلك حديث البراء بن عازب t في صلح الحديبية، وفيه أنهم لما كتبوا الكتاب كتب علي t : هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله. فقال المشركون: لا نقر بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله. فقال الرسول r : «أَنَا رَسُولُ اللهِ،

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن: ٣٩٧/٣، وينظر: فتح الباري: ١٥٠/٣.

(٢) أخرجه البخاري: (٣١١٣ و٣٧٠٥ و٥٣٦١ و٦٣١٨) ، ومسلم: (٢٧٢٧).

(٣) الكاشف عن حقائق السنن: ١٤٢/٥، وينظر: فتح الباري: ١٢٤/١١.

وَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» وفي رواية: «**أَنَا -وَاللهِ- مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ**، وَأَنَا -وَاللهِ- رَسُولُ اللهِ» الحديث(١).

قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((قوله: «وأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ» هو من الأسلوب الحكيم، يعني استدراككم بقولكم: أنت محمد بن عبد الله، بدل قولي: محمد رسول الله، يؤذن بأن الجمع بينهما غير مستقيم، وليس كذلك، لأن الرسالة تثبت بدعواها وإثبات المعجزة، وقد حصل ذلك، وهو كقول الرسل: ﴿قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ [يس: ١٦] جوابًا عن قولهم: ﴿مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾ [يس: ١٥]))(٢).

ومن ذلك قصة خباب t في الثبات على الدين، وفيها أنهم لقوا شدة من المشركين، فجاء إلى النبي r فقال: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا. ولعل خبابًا ينتظر من رسول الله r مع هذه الشدة أن يجيب طلبه، إلا أن النبي r تلقاه بغير ما يترقب، فقعد وهو محمر وجهه، دلالة على غضبه، وهذه إشارة جسمية لم يكن المخاطب يترقب دلالتها، ثم قص النبي r عليهم قصة الرجل الذي يثبت على الدين مع شدة التعذيب. وقد سبق ذكر القصة(٣)، وذكرت أن النبي r عدل عن إجابة طلب الدعاء والاستنصار، إلى سرد القصة عليهم، تثبيتًا لهم وغرسًا للصبر في نفوسهم، وتعريضًا بعتابهم على ضعف صبرهم وقلة تحملهم، ولو أنه أجاب طلبهم فاكتفى بالدعاء لهم لكان في ذلك إضعاف لنفوسهم عن تحمل المواجهة، لأنهم كلما وقع عليهم البلاء واشتدت بهم المحن أقبلوا على رسول الله r يطلبون الدعاء والاستنصار، فلعل النبي r أراد أن يربيهم على أن الدعاء ليس كل شيء، بل هو وسيلة واحدة من وسائل المواجهة، والأهم مع ذلك ثبات النفس وصبرها، فإن ذلك أدعى إلى قوتها وتراجع أعدائها، والله أعلم.

ومن ذلك حديث الطفيل بن عمرو الدوسي t حينما قدم وأصحابه على النبي r فقالوا: يا رسول الله، إن دوسًا قد كفرت وأبت، فادع الله عليها، فظن الناس أنه يدعو

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ البخاري: (٢٧٠٠ و٣١٨٤ و٤٢٥١).

(٢) الكاشف عن حقائق السنن: ٧٦/٨.

(٣) ينظر ص (٢٣٣) من هذا البحث.

عليهم، فقيل: هلكت دوس، فقال «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا، وَأْتِ بِهِمْ**»[١]، ولعل النبي r أراد بعدوله عن الدعاء عليهم أن يبين للمخاطب أن الأولى الدعاء لهم رغبة في هدايتهم، ما داموا لم ينتهكوا حرمة الدين وأهله، والله أعلم.

وقد يأتي الخطاب بغير ما يترقب المخاطب ولو لم يسبق منه خطاب للنبي r، كما في حديث الأعرابي الذي شمت العاطس في الصلاة، وقد سبق[٢]، وفيه قال: فلما صلى رسول الله r فبأبي هو وأمي، ما رأيت معلمًا قبله ولا بعده أحسن تعليمًا منه، فوالله ما كهرني، ولا ضربني، ولا شتمني، قال: «**إِنَّ هَذِهِ الصَّلاةَ لا يَصْلُحُ فِيهَا شَيْءٌ مِنْ كَلامِ النَّاسِ، إِنَّمَا هُوَ التَّسْبِيحُ، وَالتَّكْبِيرُ، وَقِرَاءَةُ الْقُرْآنِ**» فالصحابي ظن أن النبي r سينكر عليه ويغلظ، إلا أن النبي r لما رأى من جهله وأعرابيته رفق به وتلطف معه، كما سبق بيانه[٣]، والله أعلم.

ب- تلقي السائل بغير ما يطلب.

وهذا القسم يختص بالمخاطب السائل، والخطاب يعتمد على السؤال والجواب.

قال الدكتور محمد الصامل: ((ولكي يمكن معرفة ما يدخل في دائرة الأسلوب الحكيم في هذا القسم إضافة إلى ما تضمنه التعريف من تحديد ذلك بما كان الجواب فيه بغير ما يتطلب السائل، فإنه يحسن تحديد العلاقة بين الجواب والسؤال، وهذه العلاقة تتمثل في الحالات الأربع الآتية:

١- التطابق بين السؤال والجواب.

٢- أن يتضمن الجواب زيادة على ما في السؤال، مع اشتماله على الجواب المطلوب.

٣- أن يكون الجواب ناقصًا عن السؤال.

٤- أن يكون الجواب خارجًا عن موضوع السؤال إلى غيره.

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٩٣٧ و٦٣٩٧) ، ومسلم: (٢٥٢٤).

(٢) ينظر ص (٧٩) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٧٨، ٤٨٧) من هذا البحث.

وإذا تأملنا هذه الحالات الأربع فإننا نجد الحالة الأولى لا تدخل في باب الأسلوب الحكيم قطعًا؛ لأنها جاءت على ما يقتضيه الظاهر.

ونجد الحالة الرابعة هي أحد قسمي الأسلوب الحكيم المتعارف عليه عند البلاغيين باتفاق.

وأما الحالة الثانية والثالثة ففيهما تفصيل.

فالحالة الثانية يتنازعها أمران:

أولهما: ما تضمنه الجواب وفق مراد السائل، فيكون في هذه الحالة متمشيًا مع مقتضى الظاهر، فهذا الشق من الجواب لا يدخل في باب الأسلوب الحكيم.

وثانيهما: ما اشتمل عليه الجواب من زيادات لم يطلبها السؤال، فإن كانت تفصيلاً لما أجمل في الجواب، فهي تابعة له، وليس فيها -فيما أرى- خروج على مقتضى الظاهر، فيظل الأمر حينئذ كما هو، أي لا يدخل في باب الأسلوب الحكيم.

وإن كانت الزيادات ترمي إلى تنبيه السائل أنه كان من الأولى أن يسأل عنها، أو أن حالته تتطلب تنبيهه إليها، فهذه هي الأسلوب الحكيم نفسه. وأجمل ما تكون عليه هذه الزيادات إذا كانت متكئة على لفظة وردت في السؤال.

وإذا كان الأمر كذلك فما الموقف من الجواب المشتمل في جزء منه على ما يلائم السؤال -وفي هذه الحالة لا يكون من باب الأسلوب الحكيم- وفي الجزء الآخر يشتمل على زيادات يمكن إدراجها في باب الأسلوب الحكيم؟

والذي أراه في هذه الحالة تغليب ما يندرج في باب الأسلوب الحكيم؛ لأن الجواب بمجمله فيه خروج على مقتضى الظاهر بما فيه من زيادات، وهذا كفيل بإدخاله في باب الأسلوب الحكيم.

وقد وضع البخاري رحمه الله بابًا في صحيحه بعنوان (باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله). وهذا يمثل الحالة الثانية خير تمثيل، ولعله يكون أظهر في جانب الفتوى.

وأما الحالة الثالثة فإذا كان النقص مما يمكن للسامع إتمامه اعتمادًا على ما ذكر، فهذا يدخل في باب الإيجاز، ولا يصنف في باب الأسلوب الحكيم.

وأما إذا كان النقص في الجواب متعمدًا، كأن يكون مما لا يحسن ذكره، أو ليس من المصلحة بيانه، أو غير ذلك مما يقدره المجيب، وتمليه عليه الحكمة، فأرى أن هذا مما يمكن

إدراجه في باب الأسلوب الحكيم؛ لأن مقتضى الظاهر أن يكون الجواب مطابقًا للسؤال، فإذا نقص فقد خالف الظاهر))[1].

وقد جاءت عدة شواهد لهذا القسم من أسلوب النبي الحكيم r في الصحيحين، وسبق أن البخاري ترجم لأحد أبواب صحيحه فقال: ((باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله))[2]، وذكر فيه حديث ابن عمر t أن رجلاً سأل الرسول r : ما يلبس المحرم. وكان الظاهر في الجواب أن يعدد النبي r ما يجوز للمحرم لبسه، إلا أن النبي r عدل عن ذلك إلى ما لا يجوز له، فقال: «**لا يَلْبَسُ** الْقَمِيصَ، وَلا الْعِمَامَةَ، وَلا السَّرَاوِيلَ، وَلا الْبُرْنُسَ، وَلا ثَوْبًا مَسَّهُ الْوَرْسُ أَوْ الزَّعْفَرَانُ، فَإِنْ لَمْ يَجِدْ النَّعْلَيْنِ فَلْيَلْبَسْ الْخُفَّيْنِ، وَلْيَقْطَعْهُمَا حَتَّى يَكُونَا تَحْتَ الْكَعْبَيْنِ»[3]، وفي هذا العدول أكثر من نكتة ذكرها الطيبي (٧٤٣هـ) عن البيضاوي (٦٨٥هـ) قال: ((إنما عدل عن الجواب المطابق إلى هذا الجواب لأنه أخصر وأحصر، فإن ما يحرم أقل وأضبط مما يحل.

أو لأنه لو قال: يلبس كذا وكذا، فربما أوهم أن لبس شيء مما عدده من المناسك، وليس كذلك، فعدل إلى ما لا يوهم ذلك.

أو لأن السؤال كان من حقه أن يكون عما لا يلبس؛ لأن الحكم العارض المحتاج إلى البيان هو الحرمة، وأما جواز ما يلبس فثابت بالأصل، معلوم بالاستصحاب، فلذلك أتى بالجواب على وفقه تنبيهًا على ذلك))[4].

ولا مانع من إرادة هذه النكات جميعًا، فإنها لا تتزاحم، والله أعلم.

وجواب النبي r في هذا الحديث جاء جوابًا لعكس السؤال.

وقد يأتي الجواب باستفهام يصرف السائل إلى ما هو الأهم من السؤال، ومن ذلك حديث أنسٌ t أن رجلاً من الأعراب أتى النبي r ، فقال: يا رسول الله، متى الساعة

(١) الأسلوب الحكيم: ٣١-٣٣.

(٢) صحيح البخاري: كتاب العلم، باب من أجاب السائل بأكثر مما سأله، وينظر: فتح الباري: ٢٣١/١.

(٣) أخرجه البخاري: (١٣٤) ، ومسلم: (١١٧٧).

(٤) الكاشف عن حقائق السنن: ٣٢٩/٥، وينظر: شرح صحيح مسلم: ٧٣/٨، وفتح الباري: ٢٣١/١ و٤٠٢/٣.

قائمة؟ قال: «وَيْلَكَ، **وَمَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟**» قال: ما أعددت لها كبير صيام ولا صلاة ولا صدقة، إلا أني أحب الله ورسوله. قال: «إِنَّكَ مَعَ مَنْ أَحْبَبْتَ» الحديث.

وسبق ذكر الحديث في الفصل الأول[(١)]، وذكرت أن النبي r يستعمل الأسلوب الحكيم مع الأعراب الذين يسألون بكثرة عن الساعة، ظنًّا منهم أن عند النبي r علمًا بها، لمقام نبوته، والوحي إليه من ربه U، إلا أن النبي r لا يجيبهم بعدم العلم، ولكن يصرفهم عن التفكير بهذا الأمر المعرفي إلى التفكير بالأمر العملي الذي هو أولى وأهم، على طريقة الأسلوب الحكيم، قال الكرماني (٧٨٦هـ): ((فإن قلت: كيف طابق «مَا أَعْدَدْتَ لَهَا؟» للسؤال؟ قلت: سلك مع السائل طريق الأسلوب الحكيم، وهو تلقي السائل بغير ما يهمه))[(٢)]، وقال ابن كثير (٧٧٤هـ): ((فيه أنه u كان إذا سئل عن هذا الذي لا يحتاجون إلى علمه، أرشدهم إلى ما هو الأهم في حقهم، وهو الاستعداد لوقوع ذلك، والتهيؤ له قبل نزوله، وإن لم يعرفوا تعيين وقته))[(٣)].

وقد يأتي الجواب بكلام لا علاقة له بالمطلوب، لكنه مبني على صيغة الخطاب، كما في حديث ابن عباس t في رجل رأى رؤيا فأخبر بها النبي r، فقال أبو بكر: يا رسول الله، بأبي أنت، والله، لتدعني فأَعْبُرها. فقال النبي r: «اعْبُرْهَا» فلما عبرها قال: فأخبرني يا رسول الله، بأبي أنت، أصبت أم أخطأت؟ قال النبي r: «أَصَبْتَ بَعْضًا، وَأَخْطَأْتَ بَعْضًا» قال: فوالله، يا رسول الله، لتحدثني بالذي أخطأت. أي: ما الذي أخطأت فيه؟ على الاستفهام كما بينته رواية مسلم: فوالله يا رسول الله لتحدثني ما الذي أخطأت؟ وأبو بكر يطلب من النبي r أن يبين له ما أخطأ فيه، ويطلب ذلك طلبًا مؤكدًا، فهو يتطلب الجواب المطابق لسؤاله، ويتوقع أن يجيبه النبي r إلى ما سأله، إلا أن النبي r خاطبه بغير ما يتطلب ويترقب، وأرشده إلى ترك القسم، فقال r: «**لا تُقْسِمْ**»[(٤)].

---

(١) ينظر ص (٨٣) من هذا البحث.

(٢) شرح الكرماني: ٣٥/٢٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم: ٥٢١/٣، عند تفسير آية الأعراف: ١٨٧. وينظر: الأسلوب الحكيم: ٥٧.

(٤) أخرجه البخاري: (٧٠٦٤)، ومسلم: (٢٢٦٩).

وفي قوله r : «لا تُقْسِمْ» إشارة إلى أنه لن يخبره[١]، وترك جوابه لحكمة اختلاف العلماء في تحديدها، والله أعلم بها[٢].

وقد يأتي في الجواب زيادة على المطلوب مما يهم السائل، ومن ذلك حديث المسيء صلاته الذي لم يطمئن فيها، وقد سبق بتمامه، وفيه أن الرجل قال: والذي بعثك بالحق، ما أحسن غيره، فعلمني. فقال الرسول r : «إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلاةِ **فَأَسْبِغْ الْوُضُوءَ، ثُمَّ اسْتَقْبِل الْقِبْلَةَ**، فَكَبِّرْ، وَاقْرَأْ بِمَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِن الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا» الحديث[٣].

والرجل يطلب من النبي r أن يعلمه الصلاة الصحيحة، إلا أن النبي r يزيد في تعليمه الصلاة أمورًا ليست من الصلاة، فذكر له إسباغ الوضوء واستقبال القبلة.

وذكرت قبل أن هذا من الأسلوب الحكيم، وقد أشار إليه النووي (٦٧٦هـ)، حيث قال في فوائد الحديث: ((فيه أن المفتي إذا سئل عن شيء، وكان هناك شيء آخر يحتاج إليه السائل ولم يسأله عنه، يستحب له أن يذكره له، ويكون هذا من النصيحة لا من الكلام فيما لا يعني، وموضع الدلالة أنه قال: علمني يا رسول الله، أي علمني الصلاة، فعلمه الصلاة، واستقبال القبلة والوضوء، وليسا من الصلاة، لكنهما شرطان لها))[٤]. ولعل النبي r لما رأى استعجاله في الصلاة، ظن أنه يستعجل في غيرها مما هو شرط لها، فلا يأتي به على ما ينبغي، ولذا جاء الأمر بـ(إسباغ الوضوء) لا مجرد الوضوء، كما سبق بيانه، والله أعلم.

وقد يأتي الجواب أعم من المطلوب في السؤال، ومن ذلك حديث رافع بن خديج t أنه سأل النبي r فقال: إنا نرجو، أو نخاف العدو غدًا، وليست معنا مُدًى، أفنذبح بالقصب؟

---

(١) ينظر: فتح الباري: ١٢/٤٣٥، وعمدة القاري: ٢٤/١٧١.

(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٥/٢٩، وفتح الباري: ١٢/٤٣٥، وعمدة القاري: ٢٤/١٧٠.

(٣) ينظر ص (١٢٨) من هذا البحث.

(٤) شرح صحيح مسلم: ٤/١٠٨.

والظاهر الذي يترقبه السائل أن يجاب بـ(نعم) أو (لا) إلا أن النبي r أجاب بقاعدة عامة يترل عليها السائل واقعته وغيرها مما يحتاج إليه ويقع له مستقبلاً، قال: «**مَا أَنْهَرَ الدَّمَ، وَذُكِرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ، فَكُلُوهُ، لَيْسَ السِّنَّ وَالظُّفُرَ**»[(١)].

ومثل هذا الجواب العام عن السؤال الخاص جوابه السابق لأبي موسى t حينما بعثه إلى اليمن، فقال أبو موسى: يا نبي الله، إن أرضنا بها شراب من الشعير المِزْر، وشراب من العسل البِتْع، فقال: «**كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ**»[(٢)].

(١) أخرجه البخاري: (٢٤٨٨ و٢٥٠٧ و٣٠٧٥ و٥٤٩٨) ، ومسلم: (١٩٦٨).

(٢) ينظر ص (٥٢٧) من هذا البحث.

المبحث السادس: المخالفة في صيغ الأفعال.

الأصل في الفعل كما سبق أن يأتي لتقييد الحدث بأحد الأزمنة الثلاثة (الماضي والحاضر والمستقبل) عند اقتضاء الغرض بذلك، على أخصر وجه، فيعبر عن الماضي بصيغة الفعل الماضي، وعن الحاضر بالمضارع، وعن المستقبل بالمضارع والأمر(١).

إلا أنه قد يخرج الكلام على خلاف الأصل عند البلاغيين فيعبر عن المستقبل بلفظ الماضي، ويعبر عن الماضي بلفظ المضارع لغرض بلاغي(٢)، وهاتان الصورتان هما مجال الحديث في هذا المبحث، وأما التعبير بالمضارع أو الماضي عن الأمر، أو عكسه، فقد سبق تناوله في مبحث المخالفة بين الخبر والإنشاء، لكون الأمر طلبًا إنشائيًا، كما سبق الحديث عن خروجه عن معناه الأصلي في مبحث الجملة الإنشائية من الفصل الرابع لكونه واحدًا من أنواعها.

وقد وردت هاتان الصورتان من المخالفة في صيغ الأفعال في الخطاب النبوي في أحاديث الصحيحين مراعاة لمقتضى حال المخاطب، وسأذكر بعض الشواهد التي جاءت عليهما كما يلي:

أ- التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي.

سبق القول في الفصل الثالث في الحديث عن صيغ الأفعال(٣) أنه إذا قصد تحقق وقوع الحدث في المستقبل صيغ له الفعل ماضيًا؛ تنبيهًا على تحقق وقوعه وأن ما هو للوقوع كالواقع، لدلالة الماضي على ذلك، ومن ذلك تعبير القرآن الكريم عن أحداث يوم القيامة بصيغة المضي، ولعل التعبير بالمضي تأكيدًا عليها وترسيخًا لها في النفوس لتوقن وتصدق، لكونها أمرًا غيبيًا تستوجب يقينًا من المؤمنين وتصديقًا من المشركين المنكرين، قال الدكتور محمد أبو موسى: ((والقرآن الكريم يعرض كثيرًا من مشاهد القيامة في صورة الماضي، وكأنها

---

(١) ينظر ص (٣٠٢) من هذا البحث.

(٢) ينظر: المثل السائر: ٢/١٩٤، وشروح التلخيص: ١/٤٨٤-٤٨٥، والتبيان، للطيبي: ١/١٧٦-١٧٨، والطراز: ٢٦٧-٢٦٨، وعلم المعاني، لفيود: ١/٢٩٢.

(٣) ينظر ص (٣٠٣) من هذا البحث.

أحداث قد وقعت، وذلك ليؤكد كينونتها، وأن زمن الدنيا في حساب الحق كأنه زمن قد انتهى، ليواجه بهذا الأسلوب الحاسم دواعي الانصراف عن أمر القيامة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَشْرَقَتِ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ $ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ $ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ $ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر: ٦٩-٧٢]))[١].

ولما كان الفعل الماضي يشعر بتحقق الوقوع غلب استعماله بعد (إذا) الشرطية مع أنها تفيد الجزم بحصول الشرط في المستقبل، كما أنه قد يأتي مع (إنْ) التي تستعمل في مقام عدم الجزم بوقوع الشرط في المستقبل، أو ندرة وقوعه[٢]، كما أنه يأتي مع غيرهما للتعبير عن المستقبل.

ومما جاء من الخطاب النبوي بصيغة الماضي مع (إذا) قول النبي r لعبد الله بن عمرو t لما أراد أن يصرفه عن المداومة على صيام النهار وقيام كل الليل: «إِنَّكَ لا تَسْتَطِيعُ ذَلِكَ، فَلا تَفْعَلْ، فَإِنَّكَ **إِذَا فَعَلْتَ** ذَلِكَ **هَجَمَتْ** الْعَيْنُ، **وَنَفِهَتْ** النَّفْسُ» وسبق ذكر الحديث[٣]، والنبي r في هذا السياق يرهبه من الاستمرار على تشدده على نفسه، فيذكر له الآثار السيئة التي ستحصل له إذا داوم على ما أراد، كضعف العين وكلل النفس ومللها، والحديث هنا عن أمر مستقبلي لم يحصل بعد، ومع ذلك يصوغ النبي r المستقبل بصيغة الماضي إشعارًا للمخاطب بأن هذا متحقق لا محالة، وهذا فيه مزيد ترهيب للمخاطب عن فعل ما أراد، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أم سلمة رضي الله عنها أنها اشتكت ضعفها في الحج و لم تكن قد طافت، فقال لها الرسول r: «**إِذَا أُقِيمَتْ** صَلاةُ الصُّبْحِ فَطُوفِي عَلَى بَعِيرِكِ وَالنَّاسُ يُصَلُّونَ»

---

(١) خصائص التراكيب: ٢٦٦.

(٢) ينظر ص (٣٠٣) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٣٨) من هذا البحث.

وفي رواية: «طُوفِي مِنْ وَرَاءِ النَّاسِ وَأَنْتِ رَاكِبَةٌ»[1]، ولما كان المخاطب امرأة ومن أمهات المؤمنين، الأولى بها أن تستتر عن الرجال، أمرها النبي ﷺ أن تطوف في وقت الصلاة حيث ينشغل الرجال، ويكون طوافها من ورائهم مستترة عنهم، ولذا جاء تعبير النبي ﷺ جازمًا، بأداة الشرط (إذا) وبالفعل الماضي، تأكيدًا لأم سلمة أن تتحقق من إقامة الصلاة حتى تطوف، مراعاة للستر، قال النووي (٦٧٦هـ): ((إنما أمرها ﷺ بالطواف من وراء الناس لشيئين: أحدهما: أن سنة النساء التباعد عن الرجال في الطواف. والثاني: أن قربها يخاف منه تأذى الناس بدابتها، وكذا إذا طاف الرجل راكبًا. وإنما طافت في حال صلاة النبي ﷺ ليكون أستر لها))[2]، والله أعلم.

وقد يأتي الماضي مع (إِنْ) لأن الأصل أن يستعمل معها الفعل المضارع؛ لكن قد يستعمل الماضي إذا جاءت في مقام الجزم بوقوع الشرط، ومن ذلك قول النبي ﷺ لمسيلمة الكذاب: «**وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ** لَيَعْقِرَنَّكَ اللهُ» وقد مضى الحديث بتمامه[3]، والظاهر أن يقال: ولئن تدبر، بصيغة المضارع، إلا أن النبي ﷺ جاء بصيغة الماضي لعلمه أو توقعه بتحقق حصوله، فإن قيل: لم جاء بـ(إِنْ) في مقام التحقق؟ ولعل ذلك كما ذكر البلاغيون في مجيء (إِنْ) في الجزم، لإرادة التوبيخ والتقريع وتصوير أن الإدبار لا ينبغي أن يكون منه -ما دامت الدلائل قائمة على صحة نبوته ﷺ - إلا على سبيل الفرض، والله أعلم[4].

ومثل هذا قول النبي ﷺ لهرقل: «**فَإِنْ تَوَلَّيْتَ** فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ» وقد مضى الحديث بتمامه[5]، والظاهر أن يقال: فإن تتولى، بصيغة المضارع، لكن عدل إلى الماضي لما قيل في الحديث السابق، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٤٦٤ و١٦٢٦) ، ومسلم: (١٢٧٦).

(٢) شرح صحيح مسلم: ٩/٢٠، وينظر: فتح الباري: ٣/٤٨١، وعمدة القاري: ٩/٢٦٢.

(٣) ينظر ص (٦٤) من هذا البحث. وقال النووي في شرح صحيح مسلم: ١٥/٣٣: ((أي: إن أدبرت عن طاعتي ليقتلنك الله. والعقر: القتل، وعقروا الناقة: قتلوها. وقتله الله تعالى يوم اليمامة، وهذا من معجزات النبوة)).

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٤١، وشروح التلخيص: ٢/٤٦، ومفتاح تلخيص المفتاح: ٢٥٥، والتبيان، للطيبي: ١/١٨٥.

(٥) ينظر ص (٥٩) من هذا البحث.

وقد يعبر عن المضارع بالماضي في غير الشرط، كما في حديث عبد الله بن عمرو المشار إليه آنفًا، وفيه قال النبي r ترهيبًا له من فعله: «لا **صَامَ** مَنْ صَامَ الدَّهْرَ» قالها مرتين أو ثلاثًا، ويحتمل أن يراد بالجملة الدعاء، ويحتمل الخبر[(١)]، قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((والأولى أن يجرى «لا صَامَ» على الإخبار أنه ما امتثل أمر الشارع))[(٢)]، والمعنى: من يصم الدهر لم يصم حقيقة، والمقصود بالكلام التعريض بالمخاطب، أي: إن تصم الدهر لم تصم.

وعلى أي الاحتمالين فإن التعبير بصيغة الفعل الماضي فيها إشعار للمخاطب بتحقق النفي، وفي هذا مزيد ترهيب للمخاطب، والله أعلم.

ومما جاء فيه التعبير بالماضي في موضع المضارع ترهيبًا حديث الأشعث بن قيس قال: كان بيني وبين رجل أرض باليمن، فخاصمته إلى النبي r، فقال: «هَلْ لَكَ بَيِّنَةٌ؟» فقلت: لا. قال: «فَيَمِينُهُ» قلت: إذن يحلف. فقال رسول الله r عند ذلك: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينِ صَبْرٍ يَقْتَطِعُ بِهَا مَالَ امْرِئٍ مُسْلِمٍ هُوَ فِيهَا فَاجِرٌ **لَقِيَ** اللهَ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضْبَانُ»[(٣)]، فقوله r: «لَقِيَ اللهَ» الظاهر أن يأتي بصيغة المضارع، لأنه جزاء مستقبلي، فيقال مثلاً: يلقى، أو سيلقى، إلا أن النبي r عدل إلى صيغة الماضي إشعارًا للمخاطب الذي أراد أن يحلف بتحقق العقوبة لمن حلف على باطل، وفي ذلك موعظة له وترهيب عن الوقوع في المنكر، والله أعلم.

ومما جاء فيه التعبير عن المستقبل بالماضي تفاؤلاً وترغيبًا حديث أنس t أن النبي r خرج إلى خيبر، فجاءها ليلاً، وكان إذا جاء قومًا بليل لا يغير عليهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت يهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمد، والله، محمد والخميس، فلجئوا إلى الحصن. فرفع النبي r يديه وقال: «اللهُ أَكْبَرُ. **خَرِبَتْ** خَيْبَرُ. إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْمٍ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ»[(٤)]، والنبي r هنا يعبر عن خراب خيبر المستقبلي بالفعل الماضي

---

(١) ينظر: شرح صحيح مسلم: ٨/٤٠، والكاشف عن حقائق السنن: ٤/١٨٦، وفتح الباري: ٤/٢٢٢، وعمدة القاري: ١١/٩٢.

(٢) الكاشف عن حقائق السنن: ٤/١٨٦.

(٣) أخرجه البخاري: (٢٣٥٧ و٢٤١٦ و٢٥١٥) ، ومسلم: (١٣٨).

(٤) أخرجه البخاري: (٣٧١ و٦١٠ و٩٤٧ و٢٩٤٥ و٢٩٩١) ، ومسلم: (١٣٦٥).

((ومن المعلوم هنا أن المعركة لم تبدأ بعد، وأن الخراب لم يظهر منه شيء، والسر البلاغي هنا في خروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر هو في الفأل الذي كان مما يحبه الرسول r، ثم في الثقة التامة في نصر الله تعالى، وكان مقتضى الظاهر أن يقول: تخرب خيبر، أو ما شابه هذا الفعل في المعنى، كما أن في التعبير بالماضي عن المستقبل ما يحفز السامع ويقوي عزيمته، ولا سيما أن المعركة هنا ليست في ميدان يتقابل فيه جيشان، وإنما جيش مكشوف أمام جيش متحصن، فناسب أن يكون في هذا التعبير ما يشحذ العزيمة، ويقوي القلوب، والله أعلم))[١]. وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) عن بعض العلماء أن النبي r لما رأى مع اليهود مساحيهم ومكاتلهم -وهي من آلات الهدم- قال: «خَرِبَتْ خَيْبَرُ» تفاؤلاً بخرابها[٢]، والله أعلم.

ب- التعبير بالمضارع عن الماضي.

سبق القول في الحديث عن صيغ الأفعال في الفصل الثالث أن البلاغيين يقررون أن الفعل المضارع يفيد تجدد حصول الفعل واستمرار تجدده، إلا إذا أريد به الحال، كما يفيد أيضًا استحضار الصورة الماضية أو المستقبلة في مشاهدة السامع، كأنه ينظر إلى فاعلها حال وجود الفعل، فيتعجب لها، أو يرغب فيها أو عنها[٣].

والأصل في صيغة المضارع أن يعبر بها فيما يدل على الحال أو الاستقبال، إلا أنها قد يعبر بها عن الماضي، لإرادة دوام التجدد أو استحضار الصورة أو هما معًا، ومثل ذلك قول الله U: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ [الحج: ٦٣] قال ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ): ((ألا ترى كيف عدل عن لفظ الماضي ههنا إلى المستقبل، فقال: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ ولم يقل: فأصبحت، عطفًا على ﴿أَنْزَلَ﴾، وذلك لإفادة بقاء أثر المطر زمانًا بعد زمان، فإنزال الماء مضى وجوده، واخضرار الأرض باق لم يمض، وهذا كما تقول: أنعم عليّ فلان فأروح وأغدوا شاكرًا له، ولو

(١) ينظر: البلاغة النبوية في أحاديث العبادات: ٢١٨.

(٢) ينظر: فتح الباري: ١/٤٨١ و٧/٤٦٨.

(٣) ينظر ص (٣٠٤) من هذا البحث.

قلت:فرحت وغدوت شاكرًا له، لم يقع الموقع لأنه يدل على ماض قد كان وانقضى. وهذا موضع حسن ينبغي أن يتأمل))[1]، ومن ذلك قول الله U: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ﴾ [ص: ١٨] فقال: ﴿يُسَبِّحْنَ﴾ بصيغة المضارع، والتسبيح قد مضى، ويرى الزمخشري (٥٣٨هـ) أن السر في اختيار صيغة المضارع ((هو الدلالة على حدوث التسبيح من الجبال شيئًا بعد شيء، وحالاً بعد حال، وكأن السامع محاضر تلك الحال يسمعها تسبح))[2].

ومما جاء في الخطاب النبوي للدلالة على التجدد ودوامه حديث عبد الله بن عمر t أن رسول الله r أدرك عمر بن الخطاب t وهو يسير في ركب يحلف بأبيه، فقال: «أَلا إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ. مَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»[3]، فنهي الله U عن الحلف بالآباء قد حصل ومضى، إلا أن النبي r يصوغه بصيغة المضارع لإشعار المخاطب الذي اعتاد الحلف بالآباء بتجدد هذا النهي واستمراره، وفيه إشارة إلى أن المخاطب غير مؤاخذ بما سبق قبل علمه بالنهي، والله أعلم.

ومن ذلك حديث أبي هريرة t أن الرسول r صلى بهم يومًا ثم انصرف، فقال: «يَا فُلانُ، أَلا **تُحْسِنُ** صَلاتَكَ؟ أَلا **يَنْظُرُ** الْمُصَلِّي إِذَا صَلَّى كَيْفَ يُصَلِّي؟ فَإِنَّمَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ. إِنِّي وَاللهِ لأُبْصِرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ» وسبق ذكر الحديث[4]، والشاهد هنا أن النبي r ينكر على المخاطب إساءته في صلاته، فيخاطبه بصيغة المضارع في أمر قد مضى «أَلا تُحْسِنُ... أَلا يَنْظُرُ» وكان الظاهر أن يقال: ألا أحسنت... ألا نظرت، ولعل النكتة في ذلك أن الخطاب لو جاء بصيغة الماضي لأوهم أن ذلك تنبيهًا وإنكارًا على هذه الصلاة دون غيرها، ولكن النبي r أراد أن يحضه على الإحسان في كل صلاة يصليها، ويتجدد منه هذا الإحسان صلاة بعد صلاة، والله أعلم.

---

(١) المثل السائر: ٢/١٩٨.

(٢) الكشاف: ٤/٧٥-٧٦.

(٣) أخرجه البخاري: (٦٦٤٦) ، ومسلم: (١٦٤٦).

(٤) ينظر ص (٣٧٩) من هذا البحث.

ومن ذلك حديث عبد الله بن عمرو t لما أراد أن يشدد على نفسه، وقد سبق ذكرها وأشير إليها آنفًا، وفيها قال النبي r: «أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ **تَصُومُ** النَّهَارَ **وَتَقُومُ** اللَّيْلَ» وفي رواية: «أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ: وَاللهِ **لأَصُومَنَّ** النَّهَارَ، **وَلأَقُومَنَّ** اللَّيْلَ مَا عِشْتُ» وفي رواية: «كَيْفَ **تَصُومُ**؟... وَكَيْفَ **تَخْتِمُ**؟» والنبي r في هذا السياق يحاور عبد الله في أمر مضى منه، لكن لما كان المخاطب يتجدد منه الصيام في كل يوم والقيام في كل ليلة ناسب أن يعبر النبي r عن حاله بصيغة المضارع (تصوم، تقوم، تقول، أصوم، أقوم، تصوم، تختم)، والله أعلم.

ومثل هذا حديث أنس بن مالك t قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى. فإما تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى. فقال: ما أنا بتاركها. إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتكم. وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره. فلما أتاهم النبي r أخبروه الخبر، فقال: «يَا فُلانُ، مَا **يَمْنَعُكَ** أَنْ تَفْعَلَ مَا **يَأْمُرُكَ** بِهِ أَصْحَابُكَ؟ وَمَا **يَحْمِلُكَ** عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟» فقال: إني أحبها. فقال: «حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الْجَنَّةَ»(١).

والأفعال (يمنعك، يأمرك، يحملك) جاءت بصيغة المضارع، مع أن الحوار عن حصول هذه الأفعال في وقت مضى، ولعل ذلك لأن الرجل كان يتجدد منه قراءة السورة في كل صلاة، فناسب أن يعبر النبي r بالفعل المضارع الذي يصور حال المخاطب مع قراءة السورة، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري تعليقًا مجزومًا به، في كتاب الأذان، باب الجمع بين السورتين في الركعة، وينظر: فتح الباري: ٢/٢٥٥.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها في قصتها مع بريرة ومواليها، حينما أرادت أن تشتريها فاشترطوا الولاء، وسبقت القصة بتمامها[1]، وفيها قال النبي r : «مَا بَالُ رِجَالٍ **يَشْتَرِطُونَ** شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ؟» وهم قد اشترطوا، فالحديث عن أمر مضى، لكن النبي r يعبر عنه بالمضارع، ولعل ذلك لكونهم قد أصروا على رأيهم في اشتراط الولاء، أو لأن المقام مقام إنكار فأراد النبي r أن يهول من فعلهم، فصورهم وكأن الاشتراط منهم يتجدد مرة بعد مرة، والله أعلم.

ومما جاء لإرادة استحضار صورة الحدث في ذهن المخاطب حديث خباب t في قصة الثبات على الدين، وقد سبقت بتمامها، وذكرت أن النبي r عبر عن الحدث ومشاهده بالفعل المضارع (يحفر، يجعل، يجاء، يوضع، يشق، يمشط، يصد) لما في المضارع من دلالة التجدد والحدوث مع ما يفيده من دلالة حيوية تجعل المخاطَب يستحضر صورة التعذيب من خلال تلك الأفعال، وكأنها تتراءى له، وهو يشاهدها، فيكون لها أثر قوي في تقوية العزائم وثباتها[2]، قال الدكتور محمد أبو موسى: ((والفعل المضارع يدل على الحال، أي على وقوع الحدث الآن، وهذه دلالته الأصلية، ومن هنا كانت صيغته أقدر الصيغ على تصوير الأحداث؛ لأنها تحضر مشهد حدوثها وكأن العين تراها وهي تقع، ولهذا الفعل مواقع جاذبة في كثير من الأساليب حين يقصد به إلى ذلك، وترى المتكلمين من ذوي الخبرة بأسرار الكلمات يعبرون به عن الأحداث الهامة التي يريدون إبرازها وتقريرها في خيال السامع))[3].

ومن ذلك حديث أنس بن مالك t قال: كان قرام لعائشة سترت به جانب بيتها، فقال النبي r : «أَمِيطِي عَنَّا قِرَامَكِ هَذَا، فَإِنَّهُ لا **تَزَالُ** تَصَاوِيرُهُ **تَعْرِضُ** فِي صَلاتِي»[4]، ولعل النبي r عبر عن الماضي بصيغة المضارع (تزال، تعرض) لاستحضار صورة الحدث إشعارًا للمخاطبة بالتنفير منه، وحملاً لها على المبادرة إلى إزالته. وقد يقصد النبي r بالتعبير

---

(١) ينظر ص (٤٨٦) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (٣٠٤) من هذا البحث.

(٣) خصائص التراكيب: ٢٦٤.

(٤) أخرجه البخاري: (٣٧٤ و٥٩٥٩).

بالمضارع أن يبين أن تأثير القرام عليه سوف يتكرر مع كل صلاة، وفي هذا إفادة للتجدد(١)، وقد تكون الدلالتان مقصودتان، والله أعلم.

ومن ذلك قول النبي r لمن عض صاحبه فسقطت ثنيتاه: «**يَعَضُّ** أَحَدُكُمْ أَخَاهُ كَمَا يَعَضُّ الْفَحْلُ. لا دِيَةَ لَكَ» وسبق ذكره في مبحث الالتفات وبيان نكتة التعبير بالفعل المضارع، فيرجع إليه(٢).

(١) ينظر: البلاغة النبوية في أحاديث العبادات: ٢١٨.

(٢) ينظر ص (٥٨٢) من هذا البحث.

المبحث السابع: التغليب.

ويراد به إطلاق لفظ أحد المتصاحبين أو المتشابهين على الآخر[١]، قال الزركشي (٧٩٤هـ): ((وحقيقته إعطاء الشيء حكم غيره، وقيل: ترجيح أحد المغلوبين على الآخر، أو إطلاق لفظه عليهما إجراء للمختلفين مجرى المتفقين))[٢].

وقال ابن هشام (٧٦١هـ): ((إنهم يغلِّبون على الشيء ما لغيره، لتناسب بينهما، أو اختلاط، فلهذا قالوا: الأبوين في الأب والأم، ومنه ﴿وَلأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ﴾ [النساء: ١١]... والمشرقين والمغربين ومثله الخافقان في المشرق والمغرب، وإنما الخافق المغرب، ثم إنما سمي خافقًا مجازًا، وإنما هو مخفوق فيه، والقمرين في الشمس والقمر... وقالوا: العمرين في أبي بكر وعمر))[٣]، ومنه تغليب العقلاء على غير العقلاء، وتغليب الذكور على الإناث، وعكسه، وتغليب المخاطب على الغائب، وعكسه، وتغليب الجمع أو المثنى على الواحد، وغيرها[٤]، قال القزويني (٧٣٩هـ): ((التغليب باب واسع يجري في فنون كثيرة، كقوله تعالى: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ [الأعراف: ٨٨] أدخل شعيب u في ﴿لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾ بحكم التغليب، إذ لم يكن شعيب في ملتهم أصلاً، ومثله قوله تعالى: ﴿عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ﴾ [الأعراف: ٨٩]، وكقوله تعالى: ﴿وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢] عدت الأنثى من الذكور بحكم التغليب))[٥].

وقد ورد التغليب في الخطاب النبوي في الصحيحين، ومن الشواهد التي ظهر لي فيها مراعاة حال المخاطب حديث النعمان بن بشير t قال: أعطاني أبي عطية، فقالت عَمْرة

---

(١) ينظر: مواهب الفتاح: ٥١/٢، وعلم المعاني، لفيود: ٢٩٠/١، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٣٠٥/٢.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٣٦٩/٣.

(٣) مغني اللبيب: ٩٠٠، وينظر: المزهر: ١٨٥/٢.

(٤) ينظر: مفتاح العلوم: ٢٤٢، ومفتاح تلخيص المفتاح: ٢٥٧-٢٥٨، ومغني اللبيب: ٩٠١، والبرهان في علوم القرآن: ٣٦٩/٣-٣٨٠، وعلم المعاني، لفيود: ٢٩٠/١.

(٥) الإيضاح: ٢/ ٥١، وينظر: مفتاح العلوم: ٢٤٢.

بنت رَواحة: لا أرضى حتى تشهد رسول الله r ، فأتى رسول الله r فقال: إني أعطيت ابني من عمرة بنت رواحة عطية، فأمرتني أن أشهدك، يا رسول الله. قال: «أَعْطَيْتَ سَائِرَ وَلَدِكَ مِثْلَ هَذَا؟» قال: لا. قال: «فَاتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ»(١). وفي رواية لمسلم أن الرسول r قال: «أَكُلَّ **بَنِيكَ** نَحَلْتَ؟» قال: لا(٢).

والشاهد في قوله: «بَنِيكَ» في الرواية الثانية، أما الرواية الأولى: «وَلَدِكَ» فقد جاءت على الظاهر؛ لأن الولد يطلق على الذكر والأنثى، أما الابن فيطلق على الذكر دون الأنثى(٣)، فغلب جانب الذكور، ولعل ذلك لكون القصة وقعت في الابن، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((لفظ (الولد) يشمل ما لو كانوا ذكورًا، أو إناثًا وذكورًا، وأما لفظ (البنين) فإن كانوا ذكورًا فظاهر، وإن كانوا إناثًا وذكورًا فعلى سبيل التغليب، ولم يذكر ابن سعد لبشير والد النعمان ولدًا غير النعمان، وذكر له بنتًا اسمها أُبَيَّة بالموحدة تصغير أَبي))(٤).

وإن صح أنه ليس له إلا ولدان فقوله: «وَلَدِكَ» أو «بَنِيكَ» بالجمع من باب تغليب الجمع على المثنى، ولعل ذلك لتعميم الحكم في هذه الواقعة وفي غيرها، والله أعلم.

وفيه أيضًا تغليب آخر للجمع على المفرد، في قوله r : «فَاتَّقُوا اللهَ، وَاعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلادِكُمْ» حيث خاطب النبي r بشيرًا بصيغة الجمع، ليكون حكمًا عامًا للأمة، وليس مختصًا ببشير وولده(٥)، أو لتعظيم الأمر في نفس المخاطب، أو لهما، والله أعلم.

ومن الشواهد على التغليب في الخطاب النبوي حديث عائشة رضي الله عنها في شأن الحَولاء بنت تُوَيْت، وسبق ذكره(٦)، وفيه أن عائشة ذكرت من صلاتها وأنها لا تنام الليل. فقال الرسول r : «لا تَنَامُ اللَّيْلَ! **خُذُوا** مِن الْعَمَلِ مَا **تُطِيقُونَ**» وفي رواية: «مَهْ، **عَلَيْكُمْ** بِمَا **تُطِيقُونَ**».

---

(١) أخرجه البخاري: (٢٥٨٦ و٢٥٨٧ و٢٦٥٠) ، ومسلم: (١٦٢٣).

(٢) أخرج الرواية مسلم: (١٦٢٣).

(٣) ينظر: لسان العرب: ٤٦٧/٣، والفروق: ٢٣٣.

(٤) فتح الباري: ٢١٣/٥.

(٥) ينظر: مرقاة المفاتيح: ١٨٨/٦.

(٦) ينظر ص (٥٣٨) من هذا البحث.

والمخاطب في الحديث عائشة رضي الله عنها، وهي أنثى، إلا أن النبي r خاطبها بخطاب الذكور جمعًا، قال العيني (٨٥٥هـ): ((فيه عدول عن خطاب النساء إلى خطاب الرجال، وكان الخطاب للنساء فيقتضي أن يقال: عليكن، ولكن لما طلب تعميم الحكم لجميع الأمة غلب الذكور على الإناث في الذكر))[١].

ويحتمل أن يكون الجمع لإرادة تعميم الحكم، وقد يراد بخطاب الذكور مع إرادة التعميم التعريض للنساء بأنهن إذا كن لسن كالذكور في القوة والتحمل، وهم يعتريهم الضعف والفتور، فكيف بهن؟ والله أعلم.

هذه جملة من الصور التي خرج فيها خطاب النبي r على خلاف مقتضى الظاهر مراعاة لحال المخاطب، وبذلك ندرك أن حال المخاطب له تأثير بالغ في بلاغة الخطاب النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والتسليم، والله أعلم.

(١) عمدة القاري: ١/٢٥٧، وينظر: فتح الباري: ١/١٠٢.

الفصل السادس

اختيار الصور البيانية والفنون البديعية الملائمة لحال المخاطب

- المبحث الأول: ملاءمة الصور البيانية لحال المخاطب.
- المبحث الثاني: ملاءمة الفنون البديعية لحال المخاطب.

مدخل

يحسن التنبيه هنا إلى أن رعاية مقتضى الحال لا تختص بأحوال التراكيب التي ينظمها علم المعاني، بل تشملها وصور البيان وفنون البديع، فإذا كان من البلاغة اختيار النظم الملائم للحال، فإنه من غير البلاغة عدم الملاءمة في اختيار الصور البيانية، والفنون البديعية. والبلاغيون قد عرفوا بلاغة الكلام بأنها مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، أي أن أساليب البلاغة كلها داخلة في هذا التعريف. ولما عرف القزويني (٧٣٩هـ) علم المعاني بأنه ((علم يعرف به أحوال اللفظ العربي، التي بها يطابق مقتضى الحال))[(١)] تعقبه بعض البلاغيين بأن هذا التعريف يقصر المطابقة على المعاني دون فنون البيان والبديع، والقزويني (٧٣٩هـ) فسر مقتضى الحال بالاعتبار المناسب، ولا شك أن فنون البيان والبديع إذا اقتضاها الحال بالاعتبار المناسب فهي داخلة فيه، كما ذكر الخطيبي (٧٤٥هـ)[(٢)].

وفنون البيان والبديع تدخلها المطابقة من جهتين: من جهة اختيارها أصلاً، ثم من جهة نظمها، أما الثانية فقد قال عنها عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): ((فإن قيل: قولك: إلا النظم، يقتضي إخراج ما في القرآن من الاستعارة وضروب المجاز من جملة ما هو به معجز، وذلك ما لا مساغ له.

قيل: ليس الأمر كما ظننت، بل ذلك يقتضي دخول الاستعارة ونظائرها فيما هو به معجز؛ وذلك لأن هذه المعاني -التي هي الاستعارة والكناية والتمثيل وسائر ضروب المجاز من بعدها- من مقتضيات النظم، وعنه يحدث، وبه يكون، لأنه لا يتصور أن يدخل شيء منها في الكلم وهي أفراد لم يتوخ فيما بينها حكم من أحكام النحو، فلا يتصور أن يكون ههنا فعل أو اسم قد دخلته الاستعارة من دون أن يكون قد أُلِّف مع غيره))[(٣)].

قال المراغي (١٣٧١هـ): ((إن الثمرة المستفادة من علم المعاني -وهو معرفة أحوال اللفظ التي بها يطابق مقتضى الحال- تستفاد أيضًا من علم البيان والبديع؛ لأنا لا نعبر

---

(١) تلخيص المفتاح: ١٠.

(٢) ينظر: مفتاح تلخيص المفتاح: ٧٠، وعروس الأفراح: ١/١٥٩.

(٣) دلائل الإعجاز: ٣٩٣.

باستعارة ولا كناية إلا إذا اقتضاها المقام، فنوازن بين عدة تعبيرات، ونرى أنسبها للحال بمراعاة حال السامع أو السامعين، فنعبر به كما قال عبد القاهر في (الدلائل) أنه إذا أريد إثبات الشيء على جهة الترجيح بين أن يكون ولا يكون عبرت عنها بالتشبيه، فقلت: رأيت رجلاً كالأسد، ولم يكن ذلك من حديث الوجوب في شيء، وإذا أردت إثباته على سبيل الوجوب وجعلته كالأمر الذي نصب له دليل يقطع بوجوبه عبرت بالاستعارة، وقلت: رأيت أسدًا، وذلك أنه إذا كان أسدًا فواجب أن تكون له تلك الشجاعة العظيمة، وكالمستحيل أو كالممتنع أن يعرى عنها، وحكم التمثيل حكم الاستعارة، فإنك إذا قلت: أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، فأوجبت له الصورة التي يقطع فيها بالتحير والتردد كان أبلغ لا محالة من أن تجرى على الظاهر، فتقول: قد جعلت تتردد في أمرك، فأنت كمن يقول: أخرج أو لا أخرج، فيقدم رجلاً ويؤخر...))[1].

وسنجد في الخطاب النبوي ما يؤكد أن أساليب البيان والبديع تأتي مراعاة لمقتضى الحال، لا لمجرد الرغبة في هذه الأساليب وتزيين الكلام بفنون البديع.

وسأتناول هذا الفصل في مبحثين يتناولان صور البيان وفنون البديع في أحاديث الصحيحين:

المبحث الأول: ملاءمة الصور البيانية لحال المخاطب.

والمبحث الثاني: ملاءمة الفنون البديعية لحال المخاطب.

---

(١) تاريخ علوم البلاغة: ١١٥-١١٧، وكلام عبد القاهر تصرف فيه، وهو في دلائل الإعجاز: ٧٢-٧٣. وينظر: مقتضى الحال في الأسلوب القرآني: ٦٥-٦٨.

المبحث الأول: ملاءمة الصور البيانية لحال المخاطب.

يبحث المتكلم في مفردات اللغة وتراكيبها عن ما يعبر به عن المعاني والأغراض الـتي تكنها نفسه، فيجد ألفاظًا موضوعة للتعبير عن ما يريد بدقة. إلا أنه قد يجد في نفسه من المعاني والمشاعر ما يرى أن الألفاظ الموضوعة لا تنهض بالتعبير عنها كما يريد، فيلجأ إلى أساليب أخرى لا تعبر في ظاهرها عن مقصوده، ولكنها ترسم في خيال المخاطب صورة المعنى الملفوظ، ليتوصل من خلالها إلى المعنى المقصود في أجلى صورة وأوضحها.

وقد ذكر ذلك عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) حينما قسم الكلام من حيث دلالته على الغرض المقصود إلى ضربين فقال: ((الكلام على ضربين:

ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، وذلك إذا قصدت أن تخبر عن زيد مثلاً بالخروج على الحقيقة، فقلت: خرج زيد، وبالانطلاق عن عمرو، فقلت: عمرو منطلق، وعلى هذا القياس.

وضرب آخر أنت لا تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض. ومدار هذا الأمر على الكناية والاستعارة والتمثيل... أولا ترى أنك إذا قلت: هو كثير رماد القدر، أو قلت: طويل النجاد، أو قلت في المرأة: نؤوم الضحى، فإنك في جميع ذلك لا تفيد غرضك الذي تعني من مجرد اللفظ، ولكن يدل اللفظ على معناه الذي يوجبه ظاهره، ثم يعقل السامع من ذلك المعنى على سبيل الاستدلال معنى ثانيًا هو غرضك، كمعرفتك من (كثير رماد القدر) أنه مضياف، ومن (طويل النجاد) أنه طويل القامة، ومن (نؤوم الضحى) في المرأة أنها مترفة مخدومة لها من يكفيها أمرها. وكذا إذا قال: رأيت أسدًا، ودلك الحال على أنه لم يرد السبُع، علمت أنه أراد التشبيه، إلا أنه بالغ فجعل الذي رآه بحيث لا يتميز عن الأسد في شجاعته. وكذلك تعلم من قوله: بلغني أنك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى، أنه أراد التردد في أمر البيعة، واختلاف العزم في الفعل وتركه))(١).

(١) دلائل الإعجاز: ٢٦٢، وينظر: التصوير البياني: ٥.

وأطلق على المعنى الملفوظ: المعنى، أو: المعنى الأول، وعلى المعنى المقصــود: معــنى المعنى، أو: المعنى الثاني، قال: ((تعني بــ(المعنى) المفهوم من ظاهر اللفظ، والذي تصل إليــه بغير واسطة، وبــ(معنى المعنى) أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضي بك ذلك المعنى إلى معنى آخر))[١]، وقال: ((المعاني الأول المفهومة من أنفس الألفاظ هي المعارض، والوشي، والحلي، وأشباه ذلك. والمعاني الثواني التي يومأ إليها بتلك المعاني هي التي تُكسى تلــك المعــارض، وتُزين بذلك الوشي والحلي))[٢].

وأساليب (التشبيه، والمجاز، والكناية) التي ذكرها عبد القاهر لتصوير المعــاني الأول التي يتوصل بها إلى المعاني الثواني هي الأساليب التي يبحثها البلاغيون في علم البيان، وذكروا أنه العلم الذي يعرف به إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة في وضوح الدلالة عليه[٣].

ومع أن تصوير المعاني ليس مقتصرًا على الأساليب البيانية، إلا أنها أبرز الأساليب التي يرتكز عليها المتكلم في بناء الصورة الفنية ورسم أبعادها ومشاهدها[٤].

وفي هذا المبحث سأتناول هذه الأساليب البيانية بالترتيب الذي ذكــره البلاغيــون المتأخرون من لدن القزويني (٧٣٩هـــ): التشبيه، فالمجاز، فالكنايــة، علــى أن القــزويني (٧٣٩هـــ) ذكر المجاز العقلي في علم المعاني، ولم يذكره في علم البيان، بخلاف الســكاكي (٦٢٦هـــ)، وقد ذكرته هنا كما فعل السكاكي (٦٢٦هـــ).

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٦٣.

(٢) المرجع السابق: ٢٦٤.

(٣) ينظر: مفتاح العلوم: ١٦٢، وشروح التلخيص: ٢٥٧/٣.

(٤) ينظر: التصوير البياني: ١٨، والصورة البيانية في الحديث النبوي: ٤٣.

أولاً: التشبيه.

- تعريف التشبيه، وأركانه.

اختلفت عبارات العلماء في تعريف التشبيه، وتجتمع في أنه: الدلالة على مشاركة أمر لآخر في صفة أو أكثر، بأداة من أدوات التشبيه[١].

وللتشبيه طرفان هما (المشبه، والمشبه به)، ولا بد من وجودهما جميعًا ليكون الأسلوب تشبيهًا، وإذا حذف أحدهما بحيث لا يضمر صار استعارة، كما سيأتي بيانه في الحديث عن الاستعارة.

والوصف الجامع بين الطرفين يسمى (وجه الشبه) ويكون في المشبه به أظهر وأقوى، وقد يكون مذكورًا، وقد يكون محذوفًا.

والأدوات التي تدل على التشبيه عديدة، منها ما هو حرف ومنها ما هو اسم وفعل، ومن أبرزها (الكاف) (وكأن) و(مثل)، وغيرها، وقد تكون الأداة مذكورة، وقد تكون مضمرة[٢].

- بلاغة التشبيه.

ذكر العلماء بلاغة التشبيه وأثره في النفوس، ومن ذلك ما قاله الزمخشري (٥٣٨هـ): ((ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمع لسورة الجامح الأبي، ولأمر ما أكثر الله في كتابه المبين وفي سائر كتبه أمثاله، وفشت في كلام رسول الله r وكلام الأنبياء والحكماء، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]))[٣]، وقال ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ):

---

(١) ينظر: كتاب الصناعتين: ٢٣٩، وأسرار البلاغة: ٩٠ و٩٨، وشروح التلخيص: ٢٩٢/٣، والتبيان، للطيبي: ٢٥٩/١، والكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه: ١١٥-١١٨، ومعجم المصطلحات البلاغية١٧٠/٢.

(٢) ينظر: المثل السائر: ١٢٣/٢، وشروح التلخيص: ٣٨٥/٣ و٤٦٤، والتبيان، للطيبي: ٢٨٤/١، والطراز: ١٤٩، والكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه: ١١٨، وأدوات التشبيه: ١٥.

(٣) الكشاف٧٩/١، وينظر: أسرار البلاغة /١١٥-١١٦.

((وأما فائدة التشبيه من الكلام فهي أنك إذا مثلت الشيء بالشيء فإنما تقصد بـــه إثبـــات الخيال في النفس بصورة المشبه به أو بمعناه، وذلك أوكد في طرفي الترغيب فيه، أو التـــنفير عنه. ألا ترى أنك إذا شبهت صورة بصورة هي أحسن منها كان ذلك مثبتًا في النفس خيالاً حسنًا يدعو إلى الترغيب فيها. وكذلك إذا شبهتها بصورة شيء أقبح منها كان ذلك مثبتًـــا في النفس خيالاً قبيحًا يدعو إلى التنفير عنها))[1]، وقال: ((التشبيه يأتي تـــارة في معـــرض المدح، وتارة في معرض الذم، وتارة في غير معرض مدح ولا ذم، وإنما يأتي قصـــدًا للإبانـــة والإيضاح))[2].

وقال الدكتور محمد أبو موسى: ((عني الباحثون بدراسة التشبيه عنايـــة واضـــحة، تتمثل في الدراسات الضخمة التي يراها المطلع على كتب الأدب والشعر واللغة والتفســـير، وهذا الاهتمام راجع إلى شيوع هذه الخاصية وجريانها في كثير من فنون الكلام، فضلاً عـــن كثرتها في القرآن الكريم، وحديث رسول الله ﷺ، وكأنها جـــزء أصـــيل في بلاغـــة اللغـــة وآدابها))[3].

- التشبيه في الحديث النبوي.

والتشبيه في الحديث النبوي كثير[4]، ويرى العلوي (٧٤٩هـ) وبعض البـــاحثين أن التشبيهات التمثيلية المركبة التي يكون وجه الشبه فيها مركبًا من أكثر من صفة أكثـــر مـــن التشبيهات المفردة، قال الدكتور مصطفى الشكعة: ((من الأمور التي لاحظناها في موضوعنا هذا أن التمثيل في كلام الرسول ﷺ من الوفرة بمكان، وليس الأمر كذلك في التشـــبيهات؛ ذلك لأن طبيعة التمثيل أقرب إلى نهج التربية والتوجيه ومضمار الخير وطريق الشـــر. وأمـــا التشبيهات فوظيفتها بلاغية أكثر منها تعليمية تبشيرية))[5]. والكثرة والقلة مبنية على دراسة إحصائية، ولم يبين الدكتور الشكعة إن كانت نتيجته مبنية على ذلك، أو أنهـــا ملاحظـــة انطباعية.

---

(١) المثل السائر: ٢/١٣٠-١٣١.

(٢) المرجع السابق: ٢/١٣٤.

(٣) التصوير البياني: ٢٥.

(٤) ينظر: الطراز: ١٥٧، والكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه: ١٠٢، والتصوير الفني في الحديث النبوي: ٥٥٢.

(٥) البيان المحمدي: ٧٤١.

- اختيار التشبيه رعاية لحال المخاطب في أحاديث الصحيحين.

اختيار النبي r لأسلوب التشبيه وصياغته يأتي مراعاة لمقتضى الحال عمومًا كما هو شأن النبي البليغ r ، لكنني سأتناول هنا جملة من المقامات جاءت فيها التشبيهات النبوية مراعاة لمقتضى حال المخاطب، ومن ذلك:

١- الترغيب.

يأتي التشبيه في مقام الترغيب في القيام بما يحمد فعله للمخاطب، فيزيد المخاطب ترغيبًا وتشويقًا إليه، ويبعث في النفس الهمة إلى تحصيله، ومما جاء في ذلك حديث عبدالله بن عمرو t حينما أراد أن يشدد على نفسه في العبادة، وقد سبق ذكر الحديث[١]، وفيه أن النبي r أراد أن يرغبه في ترك التشدد في العبادة، فقال: «**صُمْ صَوْمَ نَبِيِّ اللهِ دَاوُدَ u** ».

فقوله r : «صَوْمَ نَبِيِّ اللهِ» أي: كصومه في عدد الأيام، وقد بين النبي r هذا الوجه من التشبيه، قال عبد الله t : قلت: وما صوم نبي الله داود؟ قال: «نِصْفُ الدَّهْرِ» وفي رواية: «كَانَ يَصُومُ يَوْمًا، وَيُفْطِرُ يَوْمًا، وَلا يَفِرُّ إِذَا لاقَى».

وإنما شبه النبي r الصوم الذي أراده بصوم داود u ترغيبًا لعبد الله t بالتخفيف من تشديده على نفسه، وجاء الترغيب بصيام داود u لكونه أعبد الناس، كما سبق بيان ذلك من القرآن الكريم[٢]، وقد قال النبي r في رواية لمسلم: «فَصُمْ صَوْمَ دَاوُدَ نَبِيِّ اللهِ r ، فَإِنَّهُ كَانَ أَعْبَدَ النَّاسِ» وبيان سبب التشبيه بصوم داود u دون غيره من الناس فيه مزيد ترغيب لعبد الله t .

ومما أسهم مع ذلك في الترغيب حذف أداة التشبيه، وحذفها يشعر المخاطب بتحقق وصف المشبه به في المشبه، قال العلوي (٧٤٩هـ): ((اعلم أن التشبيه المضمر الأداة أبلغ وأوجز من التشبيه الذي ظهرت أداته، أما كونه أبلغ فلأنك إذا قلت: زيد الأسد، فقد جعلته نفس هذه الحقيقة من غير واسطة، بخلاف قولك: زيد كالأسد، فليس يفيد إلا مطلق

(١) ينظر ص (٣٨) من هذا البحث.

(٢) ينظر ص (٥٣٣) من هذا البحث.

المشابهة لا غير. وأما كونه أوجز فلأن أداة التشبيه محذوفة منه، فلهذا كان أخصر من جهة لفظه))[١].

ومما أسهم في الترغيب مجيء المشبه به اسمًا (صوم) لما في الاسم من إفادة الثبوت والدوام، وكأن النبي r يشير إلى المخاطب أن الاقتداء بمنهج نبي الله داود u في الصيام يضمن له دوام العبادة وعدم الانقطاع عنها، والله أعلم.

ومما أسهم أيضًا وصف داود u بالنبوة، وهذا أيضًا يشير إلى أن هذا المنهج إذا كان ارتضاه الأنبياء وهم أعبد الناس فغيرهم من باب أولى، والله أعلم.

ومن التشبيه في مقام الترغيب حديث عبد الله بن مسعود t في حث النبي r الشباب على الزواج، وفيه قال النبي r: «وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ **فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ**» وقد مضى الحديث بتمامه في الفصل الأول[٢]، وذكرت قول ابن حجر (٨٥٢هـ): ((خص الشباب بالخطاب لأن الغالب وجود قوة الداعي فيهم إلى النكاح، بخلاف الشيوخ)).

وقد رغب النبي r الشباب أولاً بالزواج لمن استطاعه، ورغبهم بعدة أساليب سبق بيانها في موضع ذكر الحديث، ثم أغراهم بـ(الصوم) إذا لم يجدوا سبيلاً إلى الزواج، ومن وسائل الإغراء تشبيهه بـ(الوِجاء).

والمقصود بـ(الوِجاء) رضّ الأنثيين أو عروقهما رضًّا شديدًا من غير إخراج لهما، حتى تذهب شهوة الجماع[٣]، قال مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هـ): ((أراد أن الصوم يقطع النكاح كما يقطعه الوجاء))[٤]، ولعل ذلك لما في ملازمة الصوم من تضعيف الشهوة وتضييق مجاريها، وسد مسالكها، فإن مما تقوى به كثرة الأكل والشرب، وهي مدخل من مداخل الشيطان على العباد، وفي الصوم قمع له وتضييق لسبيله، قال الغزالي (٥٠٥هـ): ((إن وسيلة الشيطان لعنه الله الشهوات؛ وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب))[٥]، وقال:

---

(١) الطراز: ١٥٠-١٥١، وينظر: المثل السائر: ١٢٩/٢، وشروح التلخيص: ٤٦٤/٣.

(٢) ينظر ص (١٢٤) من هذا البحث.

(٣) ينظر: غريب الحديث، لأبي عبيد: ٧٣/٢-٧٤، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ١٥١/٥، ولسان العرب: ١٩١/١، وتاج العروس: ٤٨٢/١.

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٥١/٥.

(٥) إحياء علوم الدين: ٣٦١/١.

((معلوم أن مقصود الصوم الخواء وكسر الهوى؛ لتقوى النفس على التقوى))[١]، وقال: ((روح الصوم وسره تضعيف القوى التي هي وسائل الشيطان في العود إلى الشرور، ولن يحصل ذلك إلا بالتقليل))[٢]، وقال ابن القيم (٧٥١هـ): ((قلّ من أدمن الصوم إلا وماتت شهوته أو ضعفت جدًا، والصوم المشروع يُعدّلها))[٣].

ومما يقوي الترغيب والإغراء حذف أداة التشبيه ووجه الشبه، بما يسمى عند البلاغيين (التشبيه البليغ).

وهذا النوع من التشبيه له أثر عميق في وصف المشبه بوصف المشبه به، إذ هو قائم على تناسي التشبيه، وعلى ادعاء اتحاد المشبه بالمشبه به، وكأن المشبه هو عين المشبه به في جميع صفاته لا في الوصف الذي صيغ التشبيه له، ولذا رأى بعض البلاغيين أن (التشبيه البليغ) معدود في الاستعارة[٤].

وجاء (الصوم) اسمًا، إشارة إلى أن الصوم النافع هو ما داوم عليه صاحبه، قال ابن حجر (٨٥٢هـ) في شرح الحديث: ((مقتضاه أن الصوم قامع لشهوة النكاح، واستشكل بأن الصوم يزيد في تهييج الحرارة، وذلك مما يثير الشهوة، لكن ذلك إنما يقع في مبدأ الأمر، فإذا تمادى عليه واعتاده سكن ذلك، والله أعلم))[٥].

وكذلك جاء المشبه به (وجاء) اسمًا، لإفادة دوام أثر الصيام، وانقطاع داء الشهوة، ولو جاء فعلاً لم يفد ذلك، والله أعلم.

ولحظ الطيبي (٧٤٣هـ) اختيار لفظ (الصوم) دون غيره كالجوع، فقال: ((كان من الظاهر أن يقول: ومن لم يستطع فعليه الجوع وقلة ما يزيد في الشهوة وطغيان الماء من

(١) المرجع السابق: ١/٣٦٧.
(٢) المرجع السابق.
(٣) روضة المحبين: ٢٣٠.
(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٣/٢٩٦-٢٩٧، وكتاب: التشبيه البليغ هل يرقى إلى درجة المجاز؟: ٨ و٤٧.
(٥) فتح الباري: ٤/١١٩.

الطعام، فعدل إلى (الصوم) إدماجًا لمعنى عبادة هي برأسها مطلوبة، وليؤذن أن المطلوب من نفس الصوم الجوع وكسر الشهوة))[1].

وهذا من الإغراء بالبعد عن ما يثير الشهوة، فقد أرشدهم النبي r إلى عبادة فيها علاج لهم، والمخاطبون من شباب الصحابة y الذين هم من أحرص الناس على العبادة.

ولتقوية شأن الصوم في نفوس المخاطبين وتقريره عندهم جاء التشبيه في الحديث عقب المعنى، وذكر عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) أن مما اتفق العقلاء عليه أن التشبيه إذا جاء في أعقاب المعاني ((كساها أُبَّهة، وكَسَبها منقبةً، ورفع من أقدارها، وشبَّ من نارها، وضاعف قُواها في تحريك النفوس لها، ودعا القلوب إليها، واستثار لها من أقاصي الأفئدة صبابة وكَلَفًا، وقسر الطِّباع على أن تعطيها محبة وشَغَفًا))[2]، قال عبد القاهر: ((وإذا بحثنا عن ذلك، وجدنا له أسبابًا وعللاً، كلٌّ منها يقتضي أن يفخم المعنى بالتمثيل، وينبل ويشرف ويكمل، فأول ذلك وأظهره، أن أنس النفوس موقوف على أن تخرجها من خفي إلى جلي، وتأتيها بصريح بعد مكني، وأن تردها في الشيء تُعلِّمها إياه إلى شيء آخر هي بشأنه أعلم، وثقتها به في المعرفة أحكم، نحو أن تنقلها عن العقل إلى الإحساس وعما يعلم بالفكر إلى ما يعلم بالاضطرار والطبع، لأن العلم المستفاد من طرق الحواس أو المركوز فيها من جهة الطبع وعلى حد الضرورة، يفضل المستفاد من جهة النظر والفكر في القوة والاستحكام، وبلوغ الثقة فيه غاية التمام، كما قالوا: ليس الخبر كالمعاينة، ولا الظن كاليقين...))[3].

٢- الثناء والمدح.

ومما جاء في ذلك حديث أنس t في الفزع الذي حصل بالمدينة فاستعار النبي r فرسًا لأبي طلحة كان بطيء الجري، فلما رجع قال: «مَا رَأَيْنَا مِنْ فَزَعٍ، وَإِنْ **وَجَدْنَاهُ لَبَحْرًا**».

---

(١) الكاشف عن حقائق السنن: ٢١٧/٦، وينظر: فتح الباري: ١١٠/٩، وتصحفت فيه (إدماجًا) إلى (إذ ما جاء)، و(الإدماج) يذكره البلاغيون في المحسنات البديعية، وهو: أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر، وينظر: شروح التلخيص: ٣٩٨/٤.

(٢) أسرار البلاغة: ١١٥، وينظر: البرهان في علوم القرآن: ٤٦٧/٣.

(٣) أسرار البلاغة: ١٢١.

وقد سبق الحديث في الفصل الماضي، وذكرت أن النبي r فخم من شأن الفرس في هذه الرواية بإضمار الفرس في موضع الإظهار في موضعين، أما الأول فضمير الشأن المحذوف في قوله: «وَإِنْ» وهي إنْ المخففة من الثقيلة، أي: إنّ الشأن، والثاني ضمير المفعول بــه في قوله: «وَجَدْنَاهُ»[(١)].

وفي هذا الموضع أشير إلى أسلوب آخر في تفخيم شأن الفرس، وهو أسلوب التشبيه، حيث شبه النبي r الفرس بالبحر في سعة الجري، قال أبو حيان التوحيدي (كان حيًا عــام ٤٠٠هـ): ((والبحر معروف، وكأنه من السعة، ومن أجله قيل: فلان بحــر، إذا وصــف بغزارة الندى أو العلم، وأجرى النبي r فرسًا، وقال: «إِنَّا وَجَدْنَاهُ بَحْرًا» أي: واسع الجري جوادًا))[(٢)]، ونقل الأزهري (٣٧٠هـ) عن الأصمعي (٢١٦هـ) أنه قال: ((يقال: فَــرَس بَحْر وفَيض وسَكْب وحَثّ؛ إذا كان جوادًا كثير العدو))[(٣)]، وقال ابن جني (٣٩٢هــ): ((إنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعان ثلاثة، وهي: الاتساع، والتوكيد، والتشبيه. فإن عدم هذه الأوصاف كانت الحقيقة ألبتة.

فمن ذلك قول النبي r في الفرس: «هُو بَحْرٌ» فالمعاني الثلاثة موجودة فيه.

أما الاتساع فلأنه زاد في أسماء الفرس التي هي فرس وطرف وجواد ونحوها: البحر، حتى إنه إن احتيج إليه في شعر أو سجع أو اتساع استعمل استعمال بقية تلك الأسماء، لكن لا يفضى إلى ذلك إلا بقرينة تسقط الشبهة،

وذلك كأن يقول الشاعر[(٤)]:

عَلَوْتَ مَطَا جَــوادِكَ يَــوْمَ يــومٍ ... وقد ثُمِدَ الجِيَــادُ فكــان بَحْــرا

وكأن يقول الساجع: فرسك هذا إذا سما بغرته كان فجرًا، وإذا جرى إلى غايته كان بحرًا.

---

(١) ينظر ص (٥٧٠) من هذا البحث.

(٢) البصائر والذخائر: ٢٢٥/٤، وينظر: تهذيب اللغة: ٣٧/٥، وغريب الحديث، للخطــابي: ٥٠٥/١، والنهايــة في غريب الحديث والأثر: ٩٩/١، والكاشف عن حقائق السنن: ١٣١/٦، ولسان العــرب: ٤٢/٤، وتــاج العــروس: ١١٢/١٠.

(٣) تهذيب اللغة: ٤٢/٥.

(٤) لم أهتد لقائله، واستظهر محقق الخصائص (محمد علي النجار) أن البيت من نظم ابن جني، ذكره مثالاً لما أراد.

فإن عري عن دليل فلا لئلا يكون إلباسًا وإلغازًا. وأما التشبيه فلأن جريه يجـــري في الكثرة مثل مائه...))[(١)].

وقيل: شبه الفرس بالبحر في أن جريه لا ينفد كما لا ينفد البحر، ونقلـــه الخطـــابي (٣٨٨هـــ) عن نفطويه (٣٢٣هـــ)[(٢)]، قال ابن حجر (٨٥٢هـــ): ((ويؤيده ما في روايـــة سعيد عن قتادة: وكان بعد ذلك لا يجارى))[(٣)].

وإنما مدح النبي r الفرس بهذا التشبيه لأنه كان عند أهله معروفًا بالبطء والعجـــز وسوء السير، كما ورد في روايات الحديث المذكورة سابقًا، فكان له مع النبي r ومن بعده شأن آخر، وهذا من عظيم بركة النبي r وحسن خلقه مع أصحابه y، والله أعلم.

ولئن كان مجرد التشبيه فيه مدح للفرس وتفخيم لشأنه وثناء على أهله، فإن بنـــاءه يتضمن ما يزيد في هذا المدح والثناء، ومن ذلك ما ذكر سابقًا مـــن الإضـــمار في موضـــع الإظهار، وتأكيد الخبر بـــ(إن) واللام.

ومن ذلك مجيئه على (التشبيه البليغ) حيث حذفت الأداة ووجه الشبه، لإظهـــار أن المشبه كأنه هو عين المشبه به، مبالغة في تحقق وصف المشبه به في المشبه.

وجاء المشبه ضمير الجمع مع أن المتكلم فرد، لمزيد تقرير لهذا الثناء وتأكيـــد لـــه في نفس صاحب الفرس، فكأن الجميع قد ركبوا هذا الفرس وشاهدوا سعة جريـــه وســـهولته وأقروا بذلك، ولا يحتاج كلام رسول الله r إلى من يصدقه، لكنه البليغ الذي يدرك كيف يخاطب النفوس ويؤثر فيها، صلوات الله وسلامه عليه، والله أعلم.

٣- الذم والتنفير.

يأتي التشبيه ذمًا للفعل وتنفيرًا عنه، ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب t قـــال: حملت على فرس في سبيل الله، فأضاعه الذي كان عنده، فأردت أن أشتريه منه، وظننت أنه بائعه برخص، فسألت عن ذلك النبي r فقال: «لا تَشْتَرِه، -وفي روايـــة: وَلا تَعُـــدْ فِـــي

---

(١) الخصائص: ٢/٤٤٢.

(٢) غريب الحديث، للخطابي: ١/٥٠٥.

(٣) فتح الباري: ٥/٢٤١، وينظر: عمدة القاري: ١٣/١٨٢، ورواية قتادة أخرجها البخاري: (٢٨٦٧).

صَدَقَتِكَ- وَإِنْ أَعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ، فَإِنَّ **الْعَائِدَ فِي صَدَقَتهِ كَالكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**» وفي رواية للبخاري: «كَالْعَائِدِ فِي قَيْئِهِ» وفي رواية لمسلم: «فَإِنَّ مَثَلَ الْعَائِدِ فِي صَدَقَتِهِ كَمَثَلِ الْكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ»[(١)].

والنبي r في هذا الموقف يريد أن يصرف عمر t عن الرجوع عن صدقته بعد أن أخرجها، فينهاه عن شراء فرسه الذي تصدق به، حتى لا يكون كمن عاد في صدقته، وقد كان الحامل لعمر على الشراء رخص ثمنه، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((سمي شراءه برخص عودًا في الصدقة من حيث أن الغرض منها ثواب الآخرة، فإذا اشتراها برخص فكأنه اختار عرض الدنيا على الآخرة، مع أن العادة تقتضي بيع مثل ذلك برخص لغير المتصدق، فكيف بالمتصدق، فيصير راجعًا في ذلك المقدار الذي سومح فيه))[(٢)].

ثم مثل النبي r صورة المتصدق الذي يعود في صدقته، بصورة الكلب الذي يقيء ثم يعود فيه، وهذه صورة بشعة قبيحة، وقد جاء تفصيل في هذه الصورة في حديث في غير الصحيحين عن ابن عمر t أن رسول الله r قال: «مَثَلُ الَّذِي يُعْطِي الْعَطِيَّةَ، ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا، كَالْكَلْبِ أَكَلَ، حَتَّى إِذَا شَبِعَ قَاءَ، ثُمَّ عَادَ فَرَجَعَ فِي قَيْئِهِ»[(٣)].

وفي رواية البخاري الثانية قال: «كَالْعَائِدِ فِي قَيْئِهِ» فإن كانت هذه الرواية هي المحفوظة فلعل (أل) في (العائد) لتعريف العهد الذهني، حيث كان معروفًا أن الذي يقيء ويعود في قيئه هو الكلب، والرواية الأولى هي الأكثر في الصحيحين وغيرهما.

وذكر الكلب يزيد الصورة قبحًا وبشاعة، حيث جاء التشبيه بالكلب في مقام الذم والتنفير، في القرآن والسنة، كما في قول الله U: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ $ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا

---

(١) أخرجه البخاري: (١٤٩٠ و٢٦٢٣ و٣٠٠٣) ، ومسلم: (١٦٢٠).

(٢) فتح الباري: ٣/٣٥٣.

(٣) أخرجه أحمد: ١/٢٣٧ و٢/٢٧، والنسائي: كتاب الهبة، برقم: (٣٦٩٠ و٣٧٠٣)، والترمذي: كتاب الولاء والهبة، برقم (٢١٣١).

بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦]، وقول الرسول r: «اعْتَدِلُوا فِي السُّجُودِ وَلا يَبْسُطْ ذِرَاعَيْهِ كَالْكَلْبِ»[١].

قال الطيبي (٧٤٣هـ): ((ضرب له مثلاً وشبهه بأخس الحيوان في أخس أحواله، تصويرًا للتهجين، وتنفيرًا منه))[٢].

وجاء التشبيه من النوع الذي يعرف عند بعض البلاغيين بـ(التشبيه التمثيلي) أو (المركب) الوجه، حيث يكون وجه الشبه وصفًا منتزعًا من متعدد[٣]، والمشبه والمشبه به هنا مركبان، حيث عبر النبي r عنهما بهيئة مركبة من صفتين مجتمعتين، فينظر إلى المشبه أو المشبه به باعتبار تلك الهيئة التي صورا عليها لا باعتبار كل صفة لوحدها[٤]، وفي عرض المشبه به خاصة بمثل هذه الصورة يحرك في ذهن المخاطب تخيلها حتى كأنها تتراءى له أمام ناظريه، ولذا جاء في الرواية الأولى تصوير فعل المشبه به بصيغة المضارع، لما يفيده من تجدد حصول الفعل وتكرره، واستحضار صورته[٥]، وهذا مما يزيد في نفس المخاطب قبح المشبه وسوء فعله، والله أعلم.

ويلحظ في موقف عمر t الإيجاز في عرض التشبيه، بخلاف ما جاء في حديث ابن عمر t، فقد فصل النبي r في صورة المشبه، والمشبه به، ولعل كون الخطاب عامًا في حديث ابن عمر t اقتضى أن يكون المثل أكثر تفصيلاً خاصة في صورة المشبه به، زيادة في استبشاع الفعل وتقبيحه، لأن الخطاب العام يتلقاه البليغ وغيره، والذكي والغبي، والذي يكتفي باللمح والذي لا يكتفي به، فحسن التفصيل فيه، بخلاف الموقف مع عمر t فإنه خطاب خاص له، وهو من أهل البلاغة الذين يكتفى لمثلهم بالإيجاز والإجمال، والله أعلم.

ويلحظ مجيء التشبيه عقب المعنى، وهذا فيه مزيد تنفير، وسبق قول عبد القاهر في بلاغة التشبيه بعد المعاني.

---

(١) أخرجه البخاري: (٥٣٢)، ومسلم: (٤٩٣).

(٢) الكاشف عن حقائق السنن: ٤/١٣٤، وينظر: فتح الباري: ٣/٣٠٣.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٣/٤٣٢، والبلاغة العالية في علم البيان: ٤٨ و٥١، وعلم البيان: ٩١.

(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٣/٤٢٠.

(٥) ينظر ص (٣٠٤) من هذا البحث.

ومن التشبيه الذي يراد به التنفير حديث أسماء رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرة، فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال رسول الله r : «**الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[١].

وقول المرأة: (تَشَبَّعت) أي: أظهرت أكثر مما يعطيني. والمقام هنا مقام تنفير للمرأة من التزوير وتصنع الحق بالباطل، فأراد النبي r أن يصرفها عن هذا الفعل السيء، فلم يزد على أن أورد لها تشبيهًا يصور شناعة الفعل وبشاعته، فشبه لها حال (المتشبع بما لم يعط) وهو المتكثر بأكثر مما عنده، بحال (لابس ثوبي زور) وهو الذي يزور على الناس فيلبس لباس أهل الصلاح مثلاً وهو ليس منهم، وسيأتي مزيد بيان لهذا الحديث في مبحث الكناية[٢].

٤- التعليم.

قد يأتي التشبيه في مقام التعليم لغرض الإبانة والإيضاح دون غيره، وهذا غرض تعليمي، جاءت فيه عدة تشبيهات نبوية، منها حديث عائشة رضي الله عنها أن الحارث ابن هشام t سأل النبي r فقال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله r : «أَحْيَانًا يَأْتِينِي **مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ**، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ. وَأَحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِي الْمَلَكُ رَجُلاً، فَيُكَلِّمُنِي، فَأَعِي مَا يَقُولُ» وفي رواية قال r : «يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ»[٣].

ولعل سؤال الحارث t جاء عن رغبة في معرفة كيفية مجيء الوحي لرسول الله r ، وقد جاءت بعض الأحاديث التي تدل على حرص الصحابة y على معرفة حال النبي r مع الوحي، ومن ذلك مثلاً حديث صفوان بن يعلى عن أبيه يعلى بن أمية t أن رجلاً أتى النبي r وهو بالجعرانة، وعليه جبة وعليه أثر الخلوق أو قال: صفرة، فقال: كيف تأمرني أن أصنع في عمرتي؟ فأنزل الله على النبي r ، فسُتر بثوب. قال يعلى: ووددت أني قد رأيت

(١) أخرجه البخاري: (٥٢١٩) ، ومسلم: (٢١٣٠).
(٢) ينظر ص (٦٦١) من هذا البحث.
(٣) أخرجه البخاري: (٢ و٣٢١٥) ، ومسلم: (٢٣٣٣).

النبي r وقد أنزل عليه الوحي، فقال عمر: تعال، أيسرك أن تنظر إلى النبي r وقد أنزل الله عليه الوحي. قلت: نعم. فرفع طرف الثوب فنظرت إليه، له غطيط... الحديث[1].

فلعل الحارث t جاء متسائلاً حريصًا على معرفة إتيان الوحي لرسول الله r ، والنبي r أدرك هذا الحرص من المخاطب، فجاء الجواب مبينًا فيه تفصيل لما يخفى على المخاطب ويحرص على معرفته، ولذا قال النووي (٦٧٦هـ): ((قال العلماء: ذكر في هذا الحديث حالين من أحوال الوحي، وهما: مثل صلصلة الجرس، وتمثل الملك رجلاً، ولم يذكر الرؤيا في النوم، وهي من الوحي، لأن مقصود السائل بيان ما يختص به النبي r ويخفى فلا يعرف إلا من جهته، وأما الرؤيا فمشتركة معروفة))[2].

ومن وسائل البيان والإيضاح التي سلكها النبي r في جوابه: التشبيه، وفي الحديث تشبيه إتيان الملك بالوحي بصلصلة الجرس.

قال العيني (٨٥٥هـ): ((قيل ما الحكمة في ضربه r في الجواب بالمثل المذكور. أجيب بأنه r كان معتنيًا بالبلاغة مكاشفًا بالعلوم الغيبية، وكان يوفر على الأمة حصتهم بقدر الاستعداد، فإذا أريد أن ينبئهم بما لا عهد لهم به من تلك العلوم صاغ لها أمثلة من عالم الشهادة، ليعرفوا بما شاهدوه ما لم يشاهدوه. فلما سأله الصحابي عن كيفية الوحي وكان ذلك من المسائل العويصة ضرب لها في الشاهد مثلاً بالصوت المتدارك، الذي يسمع ولا يفهم منه شيء))[3].

و(الصلصلة) الصوت إذا كان فيه قوة وحدة وترجيع وتتابع[4]، وصلصلة الجرس صوته إذا كثر وتردد وتتابع، فيكون له جلجلة.

واختلف في المشبه بالصلصلة، أهو صوت الملك أم غيره؟

قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قيل: والصلصلة المذكورة صوت الملك بالوحي، قال الخطابي: يريد أنه صوت متدارك يسمعه ولا يتبينه أول ما يسمعه حتى يفهمه بعد. وقيل: بل

---

(١) أخرجه البخاري: (١٧٨٩ و١٨٤٨ و٤٣٢٩ و٤٩٨٥) ، ومسلم: (١١٨٠) وهذا لفظه.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٨٩/١٥، وينظر: عمدة القاري: ٤٤/١.

(٣) عمدة القاري: ٤٤/١.

(٤) ينظر: مقاييس اللغة: ٢٧٦/٣-٢٧٧، والنهاية في غريب الحديث: ٤٦/٣، ولسان العرب: ٣٨١/١١.

هو صوت حفيف أجنحة الملك))[1]. ولا أرى ثمت فائدة من البحث عن مصدر الصوت، فقد أبهمه النبي r ، ولا أثر له في التشبيه، فالمشبه صوت يأتي فيه الملك ويصاحب إلقاء الوحي، ولذا عبر الرسول r بالظرفية فقال: «فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ» أي أن الملك يأتي بالوحي في حالة من الصوت تشبه صلصلة الجرس، والله أعلم.

والمشبه به هو (صلصلة الجرس) وهنا تساؤل عن سر اختيار صيغة (الصَّلْصلة) دون صيغة (الصَّلّ) وهو الصوت أيضًا، ولعل ذلك لكون النبي r يريد أن يبين للمخاطب شدة الوحي عليه في هذه الحالة، فجاء بالصيغة التي هي أشد، قال ابن فارس (٣٩٥هـ): ((يقال: صلّ اللجام وغيره إذا صوت، فإذا كثر ذلك منه قيل: صَلْصَل))[2]، وقال مجد الدين ابن الأثير: ((يقال: صلّ الحديد وصَلْصَل، والصَّلْصَلة أشد من الصَّليل))[3]، ثم إن الصلصلة فيها معنى التتابع والتدارك كما يفيده نطق اللفظة بتكرار الصاد واللام، فهي تحكي صورة الفعل كما يقع، والله أعلم.

وتناول بعض الشراح السر في التشبيه بصلصلة (الجرس) دون غيره، فقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((لما كان الجرس لا تحصل صلصلته إلا متداركة وقع التشبيه به دون غيره))[4]، والمقصود بالتدارك تردد الصوت وتتابعه وتلاحقه وترجيعه حينما يدق الجرس.

وتناول بعض الشراح السر في تشبيه حالة الوحي وهي حالة محمودة، بصوت الجرس، وهو مذموم، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((المشبه الوحي وهو محمود، والمشبه به صوت الجرس وهو مذموم؛ لصحة النهي عنه، والتنفير من مرافقة ما هو معلق فيه، والإعلام بأنه لا تصحبهم الملائكة، كما أخرجه مسلم وأبو داود وغيرهما، فكيف يشبه ما فعله الملك بأمر تنفر منه الملائكة؟ والجواب أنه لا يلزم في التشبيه تساوي المشبه بالمشبه به في الصفات كلها، بل ولا في أخص وصف له، بل يكفي اشتراكهما في صفة ما، فالمقصود هنا بيان الجنس، فذكر ما ألف السامعون سماعه تقريبًا لأفهامهم، والحاصل أن الصوت له جهتان:

---

(١) فتح الباري: ١/٢٠.

(٢) مقاييس اللغة: ٣/٢٧٧.

(٣) النهاية في غريب الحديث: ٣/٤٦.

(٤) فتح الباري: ١/٢٠.

جهة قوة، وجهة طنين، فمن حيث القوة وقع التشبيه به، ومن حيث الطرب وقع التنفير عنه، وعلل بكونه مزمار الشيطان))[1].

وقد يأتي الإيضاح بالتشبيه لتصحيح خطأ وإزالة شبهة، كما في حديث الأعرابي الذي خالجه الظن والريبة حينما ولدت زوجته غلامًا أسود، فجاء إلى النبي r وقال: إن امرأتي ولدت غلامًا أسود، وإني أنكرته. فقال النبي r : «هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟» قال: نعم. قال: «فَمَا أَلْوَانُهَا؟» قال: حمر. قال: «هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ؟» قال: إن فيها لوُرقًا. قال: «فَأَنَّى أَتَاهَا ذَلِكَ؟» قال: عسى أن يكون نزعه عرق. قال: «وَهَذَا عَسَى أَنْ يَكُونَ نَزَعَهُ عِرْقٌ»[2].

والنبي r في هذا الموقف يشبه حال الأسرة التي يكون فيها ولد مخالف لها في اللون بحال الإبل الحمر التي يكون فيها مخالف لها في لونها، والسبب الذي أدى إلى ذلك في الإبل هو السبب الذي يؤدي إلى ذلك في البشر.

ويمكن أن يصنف هذا التشبيه من (التشبيه الضمني) وهو نوع من التشبيه المؤكد الذي تحذف منه الأداة، ولا يساق فيه التشبيه مساقًا صريحًا، لكن يعرض المشبه به في صورة الدليل والبرهان على إمكان تحقق المشبه[3].

والمخاطب هنا لديه شبهة خطيرة، وينكر حصول المشبه، ولذا اقتضى الحال أن يسلك النبي r سبيلاً إقناعيًا للمخاطب، يهدف من خلاله إلى بيان إمكان حال المشبه، ولذلك قرر أولاً عند المخاطب حال المشبه به، ولم يأت التقرير من النبي r مباشرة وألقاه دفعة واحدة، بل جاء التقرير في حوار استفهامي، يهدف إلى مشاركة المخاطب نفسه في تجلية الحقيقة والاستدلال على إمكان حصول المشبه، ثم جاء الرسول r بالمشبه بعد أن تقرر المشبه به في نفس المخاطب بالصيغة التي تكلم بها المخاطب نفسه، ليؤكد له أن ما قاله في المشبه به حاصل في المشبه، والله أعلم.

---

(١) فتح الباري: ١/٢٠.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٣٠٥ و٧٣١٤) ، ومسلم: (١٥٠٠).

(٣) ينظر: البلاغة العالية في علم البيان: ٦٤، والتصوير البياني: ٧٤.

٥- تسلية المخاطب وتطييب نفسه.

قد يأتي التشبيه لتسلية المخاطب وتطييب نفسه، ومن ذلك حديث جابر بن عبد الله t أن رسول الله r دخل على أم السّائب، أو أم المسيَّب، فقال: «مَا لَكِ يَا أُمَّ السَّائِبِ! -أو: يَا أُمَّ الْمُسَيَّبِ- تُزَفْزِفِينَ» قالت: الحمى، لا بارك الله فيها، فقال: «لا تَسُبِّي الْحُمَّى، **فَإِنَّهَا تُذْهِبُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ كَمَا يُذْهِبُ الْكِيرُ خَبَثَ الْحَدِيدِ**» وقد سبق الحديث[1].

والمخاطب في هذا الموقف مريضة تعاني من الحمى، حتى بلغ بها الأمر أن تسبها، فلعل النبي r لما رأى ما بها من المشقة أراد أن يخفف عنها، ويهون عليها، والمريض أحوج ما يكون إلى مثل ذلك، فأبرز لها جانبًا حسنًا في مرضها، لعلها تتسلى به عن المشقة الحاصلة لها من الحمى، والمحن تلوح منها المنح، وقد قال الله U: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩]، فأخبرها أن الحمى من أسباب تكفير الذنوب والخطايا، وأينا الذي لا يخطئ ولا يقع منه الذنب ولا يرغب في العفو والمغفرة وتكفير الذنوب، وزيادة في تأكيد هذا المعنى في نفس المخاطبة لمزيد من تسليتها وتطييب نفسها شبه الحمى في إذهابها للخطايا بالكير في إذهابه لخبث الحديد. والكِير: منفاخ الحداد[2]، وخَبَث الحديد: ما تنفيه النار من رديء الحديد ووسخه إذا أذيب، ولا خير فيه[3].

وجاء بناء التشبيه وتركيبه ليحقق مزيدًا من التسلية والتخفيف للمريضة، ومن ذلك التأكيد بـ(إنّ)، ومجيء المشبه (الحمى) ضمير غائب، ولعل في ذلك تعظيمًا لشأن أثرها الحسن، والضمير قد يؤتى به للتعظيم كما سبق[4].

وقدم المسند إليه (الحمى ضميرًا اسمًا لإن) في جملة المشبه اهتمامًا بشأنه، وإبرازًا له في معرض المدح، حتى كأنه صار ممدوحًا مرغوبًا، بخلاف المسند إليه (الكير) في جملة المشبه به،

---

(١) ينظر ص (٢٩٤) من هذا البحث.

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث: ٥/٢، ولسان العرب: ١٤٤/٢.

(٣) ينظر: النهاية في غريب الحديث: ٢١٧/٤، ولسان العرب: ١٥٧/٥.

(٤) ينظر ص (٥٦٩) من هذا البحث.

فأخر وقدم المسند (يذهب) لأن العناية في سياق التشبيه إنما هو بالإذهاب، الذي هو وجه الشبه.

وجاء المسند الفعلي في جملتي التشبيه فعلاً مضارعًا (تذهب... يذهب) للدلالة على تجدد حصول الفعل.

و(خطيئة) يجمع على (خطايا) جمع تكسير، و(خطيئات) جمع مؤنث سالم، وقد ورد في القرآن كلا الجمعين، في قول الله U: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي قول الله U: ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١]، ويعد هذا الموضع من المتشابه اللفظي في القرآن الكريم، قال الفخر الرازي (٦٠٦هـ) في آية الأعراف: ((قال في سورة البقرة: ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ وقال ههنا: ﴿خَطِيئَاتِكُمْ﴾ فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة فهي مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع))[(١)]، ويشير بالقلة إلى دلالة جمع المؤنث السالم (خطيئات) على القلة، وبالكثرة إلى دلالة جمع التكسير (خطايا) الذي جاء على أحد أوزان الكثرة، وقد سبق في الفصل الثالث تناول دلالة صيغ الجمع على القلة والكثرة[(٢)].

ولما كان المقام في الحديث مقام هوين على المخاطب، وتعظيم لشأن أثر الحمى في تكفير الذنوب اقتضى أن يكون الجمع المختار لـ(خطيئة) جمع التكسير (خطايا)، لكونه دالاً على الكثرة بالوضع، بخلاف جمع المؤنث فإنه يدل على مطلق الجمع، وقد يشعر بالقلة، والله أعلم.

- خصائص التشبيهات النبوية المتعلقة برعاية حال المخاطب.

تلك مقامات وأغراض جاء اختيار التشبيه فيها مراعى لمقتضى حال المخاطب، وثمة خصائص للتشبيهات النبوية متعلقة برعاية حال المخاطب، ومن ذلك:

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ١٥/٣٨.

(٢) ينظر ص (٣٢٠) من هذا البحث.

١- اختيار الصورة التشبيهية من البيئة التي يعيش فيها المخاطبون.

وفي هذا قال الدكتور محمد عثمان يوسف: ((التصوير النبوي إنما يستمد صوره من واقع البيئة التي يعايشها المخاطب، والعربي يعايش البيئات الثلاث: الصحراوية، والبحرية، والحضرية، فانتزعت صور التشبيهات النبوية من واقع تلك البيئات لتكون أكثر واقعية وتأثيرًا على نفسه وعقله وقلبه))(١)، وسبق أن ذكرت أمثلة على ذلك في الحديث عن تأثير البيئة في الخطاب النبوي في الفصل الأول(٢)، وفي الأحاديث التي ذكرت في المقامات السابقة ما يشهد لذلك(٣)، والله أعلم.

٢- اختيار الصورة التشبيهية الملائمة لجنس المخاطب.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سُحر النبي ﷺ، حتى إنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله، حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه، ثم قال: «أَشَعَرْتِ، يَا عَائِشَةُ، أَنَّ اللهَ قَدْ أَفْتَانِي فِيمَا اسْتَفْتَيْتُهُ فِيهِ؟» قلت: وما ذاك، يا رسول الله؟ قال: «جَاءَنِي رَجُلانِ، فَجَلَسَ أَحَدُهُمَا عِنْدَ رَأْسِي، وَالآخَرُ عِنْدَ رِجْلَيَّ، ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: مَا وَجَعُ الرَّجُلِ؟ قَالَ: مَطْبُوبٌ. قَالَ: وَمَنْ طَبَّهُ؟ قَالَ: لَبِيدُ بْنُ الأَعْصَمِ الْيَهُودِيُّ مِنْ بَنِي زُرَيْقٍ. قَالَ: فِيمَا ذَا؟ قَالَ: فِي مُشْطٍ وَمُشَاطَةٍ وَجُفِّ طَلْعَةٍ ذَكَرٍ. قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: فِي بِئْرِ ذِي أَرْوَانَ» فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر، فنظر إليها وعليها نخل، ثم رجع إلى عائشة فقال: «وَاللَّهِ، **لَكَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ**، وَلَكَأَنَّ نَخْلَهَا رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ» قلت: يا رسول الله، أفأخرجته؟ قال: «لا، أَمَّا أَنَا فَقَدْ عَافَانِيَ اللهُ وَشَفَانِي، وَخَشِيتُ أَنْ أُثَوِّرَ عَلَى النَّاسِ مِنْهُ شَرًّا» وأمر بها فدفنت(٤).

---

(١) معجم التشبيهات النبوية في صحيح البخاري: ٧٧.

(٢) ينظر ص (٦٩) من هذا البحث.

(٣) ينظر للاستزادة: معجم التشبيهات النبوية في صحيح البخاري: ٥٧-٦٥، والتصوير الفني في الحديث النبوي: ٥٧٦-٥٧٩، والصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف: ٢٨٨.

(٤) أخرجه البخاري: (٥٧٦٣ و٥٧٦٥ و٥٧٦٦ و٦٠٦٣ و٦٣٩١)، ومسلم: (٢١٨٩). والمطبوب: المسحور، قال النووي في شرح صحيح مسلم: ١٤/١٧٧: ((كنوا بالطب عن السحر كما كنوا بالسليم عن اللديغ)). والمشط: الآلة التي يمشط بها الشعر، والمشاطة: ما يسقط من شعر الرأس أو اللحية عند مشطه، وينظر: لسان العرب: ٧/٤٠٢

والشاهد هنا في قوله r لعائشة: «كَأَنَّ مَاءَهَا نُقَاعَةُ الْحِنَّاءِ» قال النووي (٦٧٦هـ): ((النقاعة بضم النون: الماء الذي ينقع فيه الحناء))[١]، فشبه النبي r لعائشة ماء البئر في تغيره بنقاعة الحناء، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((ووقع في حديث زيد بن أرقم عند ابن سعد، وصححه الحاكم: فوجد الماء وقد اخضر))[٢]، ولعل المشبه به (نقاعة الحناء) لما كان من استعمالات النساء غالبًا والمخاطبة منهن حسن الإتيان به في التشبيه إيضاحًا للمشبه وبيانًا لمقداره بشيء تدركه المخاطبة، والله أعلم.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: لما دخل رسول الله r بيتي قال: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» فقلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق، إذا قرأ القرآن لا يملك دمعه، فلو أمرت غير أبي بكر. قالت: والله ما بي إلا كراهية أن يتشاءم الناس بأول من يقوم في مقام رسول الله r ، قالت: فراجعته مرتين أو ثلاثًا، فقال: «لِيُصَلِّ بِالنَّاسِ أَبُو بَكْرٍ، **فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ**» وفي رواية قالت عائشة: فقلت لحفصة: قولي له: إن أبا بكر إذا قام في مقامك لم يسمع الناس من البكاء، فمر عمر فليصل للناس، ففعلت حفصة، فقال رسول الله r : «مَهْ، **إِنَّكُنَّ لأَنْتُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ**، مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ لِلنَّاسِ»[٣].

وواضح في هذا الموقف تلاؤم التشبيه مع جنس المخاطب، فالمشبه به نسوة، والمخاطب كذلك، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((والمراد أنهن مثل صواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن، ثم إن هذا الخطاب وإن كان بلفظ الجمع فالمراد به واحد، وهي عائشة فقط[٤]، كما أن (صواحب) صيغة جمع والمراد زليخا فقط، ووجه المشابهة بينهما في ذلك أن زليخا استدعت النسوة، وأظهرت لهن الإكرام بالضيافة، ومرادها زيادة على ذلك، وهو أن ينظرن إلى حسن يوسف ويعذرنها في محبته، وأن عائشة أظهرت أن سبب إرادتها

و٤٠٣. والجف -وفي بعض الروايات: جب- قال مجد الدين ابن الأثير في النهاية في غريب الحديث: ٢٣٤/١، وينظر: ٢٧٨/١: ((في جب طلعة: أي في داخلها، ويروى بالفاء، وهما معا: وعاء طلع النخيل)).

(١) شرح صحيح مسلم: ١٧٧/١٤.

(٢) فتح الباري: ٢٣٠/١٠.

(٣) أخرجه البخاري: (٦٦٤ و٦٧٩ و٦٨٢ و٧١٢ و٧١٣ و٧١٦ و٣٣٨٤ و٧٣٠٣) ، ومسلم: (٤١٨).

(٤) وفي قول النبي r لحفصة يراد به حفصة أو هي وعائشة.

صرف الإمامة عن أبيها كونه لا يسمع المأمومين القراءة لبكائه، ومرادها زيادة على ذلــك، وهو أن لا يتشاءم الناس به))[١]، والله أعلم.

٣- التشبيه بالموقف الذي يشاهده المخاطب.

وهو ((من أنجح الوسائل لتوضيح المعاني وتأثيرها في النفوس، حيث يعتمد التشـبيه على أحدث الصور المختزنة في العقل والأشياء التي لا يزال أثرها في النفس ماثلاً))[٢].

ومن ذلك حديث جرير بن عبد الله t قال: كنا جلوسًا عند رسول الله r إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أَمَا إِنَّكُمْ **سَتَرَوْنَ رَبَّكُمْ، كَمَا تَرَوْنَ هَذَا الْقَمَرَ**، لا تُضَامُونَ فِي رُؤْيَتِهِ، فَإِنْ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ لا تُغْلَبُوا عَلَى صَلاةٍ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا»[٣].

وتشبيه النبي r رؤية الرب U برؤية البدر إنما هو في تحقق الرؤية بلا مشـقة ولا مزاحمة ولا خفاء، وهذا الوجه في التشبيه يحصل في غير رؤية البدر، كالشمس مثلاً، وقـد ورد التشبيه برؤيتها في مقام آخر جاء فيه الخطاب النبوي جوابًا عن اسـتفهام، كمـا في حديث أبي هريرة t أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسـول الله r: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟» قالوا: لا، يا رسول الله. قـال: «هَلْ تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟» قالوا: لا، يا رسـول الله. قـال: «**فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ**»[٤].

وإنما جاء التشبيه برؤية البدر لمناسبة جلوس النبي r مع أصحابه في ليلة مقمرة بـدا فيها القمر بدرًا جليًا واضحًا، والله أعلم.

ومن ذلك حديث عبد الله بن عمر t أن النبي r أُتي بجُمّار نخلة، وهـم جلـوس عنده، فقال: «إِنَّ مِنْ الشَّجَرِ لَمَا **بَرَكَتُهُ كَبَرَكَةِ الْمُسْلِمِ**» وفي رواية: «إِنَّ مِـنْ الشَّـجَرِ

---

(١) فتح الباري: ٢/١٥٣.

(٢) التشبيه في الحديث الشريف: ١٧٩.

(٣) أخرجه البخاري: (٥٥٤ و٥٧٣) ، ومسلم: (٦٣٣). وقوله: لا تُضامُون، بضم التاء وتخفيف الميم، وروي بفتح التاء، أي: لا يلحقكم ضيم ومشقة. وروي بتشديد الميم (لا تضامُّون) وضم التاء وفتحها، من الضـمّ والازدحـام. وينظر: شرح صحيح مسلم: ٣/١٨ و٥/١٣٤، وفتح الباري: ١١/٤٤٦، وعمدة القاري: ٥/٤١.

(٤) أخرجه البخاري: (٦٥٧٤) ، ومسلم: (١٨٢).

شَجَرَةً لا يَسْقُطُ وَرَقُهَا، **وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ**، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟» وفي رواية: «أَخْبِرُونِي بِشَجَرَةٍ **تُشْبِهُ**، **أو: كَالرَّجُلِ الْمُسْلِمِ** لا يَتَحَاتُّ وَرَقُهَا، وَلا، وَلا، وَلا، تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ» قال ابن عمر: فوقع الناس في شجر البوادي، ووقع في نفسي أنها النخلة، فاستحييت، ثم قالوا: حدثنا ما هي يا رسول الله؟ قال: «هِيَ النَّخْلَةُ»(1).

فالنبي r في هذا الموقف شبه النخلة بالمؤمن بمناسبة الجمار الذي أُتي به إليه وأصحابه عنده، ولذا وقع في نفس ابن عمر أنها النخلة لمناسبة الجمار كما جاء في رواية في غير الصحيحين، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: ووقع في نفسي، بيّن أبو عوانة في صحيحه من طريق مجاهد عن ابن عمر وجه ذلك، قال: فظننت أنها النخلة من أجل الجُمَّار الذي أُتى به)) قال: ((وفيه إشارة إلى أن الملغَز له ينبغي أن يتفطن لقرائن الأحوال الواقعة عند السؤال، وأن الملغِز ينبغي له أن لا يبالغ في التعمية بحيث لا يجعل للملغَز بابًا يدخل منه، بل كلما قربه كان أوقع في نفس سامعه))(2).

ووجه التشبيه هو البركة كما بينته الروايات، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قال العلماء: وشبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها، ودوام ظلها، وطيب ثمرها، ووجوده على الدوام، فإنه من حين يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس، وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة، ومن خشبها وورقها وأغصانها فيستعمل جذوعًا وحطبًا وعصيًا ومخاصر وحصرًا وحبالاً وأواني وغير ذلك، ثم آخر شيء منها نواها وينتفع به علفًا للإبل، ثم جمال نباتها، وحسن هيئة ثمرها، فهي منافع كلها وخير وجمال، كما أن المؤمن خير كله، من كثرة طاعاته، ومكارم أخلاقه، ويواظب على صلاته وصيامه وقراءته وذكره والصدقة والصلة وسائر الطاعات وغير ذلك، فهذا هو الصحيح في وجه التشبيه))(3)، قال العيني (٨٥٥هـ): ((وقال بعضهم: وجه التشبيه أن النخلة إذا قطعت رأسها ماتت بخلاف باقي الشجر، وقال بعضهم: لأنها لا تحمل حتى تلقح، وقال بعضهم: لأنها تموت إذا مزقت أو فسد ما هو

---

(1) أخرجه البخاري: (٦١ و٦٢ و٧٢ و١٣١ و٤٦٩٨ و٥٤٤٤) ، ومسلم: (٢٨١١). قال مجد الدين بن الأثير في النهاية في غريب الحديث: ٢٩٤/١: ((الجمارة: قلب النخلة و شحمتها)).

(2) كلا النصين في فتح الباري: ١٤٦/١.

(3) شرح صحيح مسلم: ١٥٤/١٧، وينظر: فتح الباري: ١٤٥/١-١٤٦، وعمدة القاري: ١٤/٢.

كالقلب لها. وقال بعضهم: لأن لطلعها رائحة المني، وقال بعضهم: لأنها تعشق كالإنسان. وهذه الأقوال كلها ضعيفة من حيث إن التشبيه إنما وقع بالمسلم، وهذه المعاني تشمل المسلم والكافر))[1].

وبما سبق من مواقف فيها تشبيهات نبوية ندرك أن النبي ﷺ في اختيار أسلوب التشبيه وصياغته يراعي مقتضى حال المخاطب، والله أعلم.

(١) عمدة القاري: ٢/١٤، وينظر: شرح صحيح مسلم: ١٧/١٥٤.

ثانيًا: المجاز المرسل.

- تعريف المجاز، والمجاز المرسل.

يقسم البلاغيون المجاز إلى لغوي، وعقلي.

أما العقلي فيكون في الإسناد ونسبة الشيء إلى غير ما هو لـــه، وســـيأتي الحـــديث عنه[1].

وأما اللغوي فهو: اللفظ المستعمل في غير ما وضع له في اصطلاح التخاطب، لعلاقة بين المعنيين، مع قرينة مانعة من إرادة المعنى الوضعي[2].

والعلاقة بين المعنى المستعمل في اللفظ والمعنى الموضوع له إما أن تكون المشابهة، وإما غير المشابهة.

فالأول استعارة، وسيأتي الحديث عنه.

والثاني مجاز مرسل.

وسمي مجازًا مرسلاً؛ لأنه أطلق عن التقييد بعلاقة محددة، أو لأنه أرسل عن دعـــوى الاتحاد المطلوبة في الاستعارة، إذ ليست العلاقة فيه بين المعنيين المشابهة حتى يدعى اتحادهما، والإرسال في اللغة: الإطلاق[3].

- علاقات المجاز المرسل.

((للمجاز المرسل علاقات كثيرة يتميز بعضها عن بعض بأسماء تؤخذ مـــن وصـــف الكلمة التي تذكر في الجملة، فإن كانت الكلمة جزء ما أريد بها جعلت العلاقة الجزئية، وإن كانت كُلاًّ له جعلت العلاقة الكلية، وهكذا))[4].

ويذكر البلاغيون من العلاقات: الجزئية، والكلية، والسببية، والمســـببية، والمحليـــة، والحالية، وغيرها، وهي لا تحصر، ولا تحد بما جاء عن العرب، قال عبد المتعال الصـــعيدي: ((اختلف العلماء في القياس على العلاقات الواردة في مجازات العرب؛ فبعضهم يرى أنه يجب

(١) ينظر ص (٦٥٠) من هذا البحث.

(٢) ينظر: شروح التلخيص ٤/٢٠-٢٦.

(٣) ينظر: علم البيان: ١٤٥، والبيان في ضوء أساليب القرآن: ١٥٧، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٣/٢٠٦.

(٤) البلاغة العالية في علم البيان: ٧٧.

الوقوف عند حدها، ولا يجيز لمن بعدهم أن يقيس عليها، وبعضهم يرى أنه لا يجب الوقوف عند حد هذه العلاقات، بل يجيز لنا القياس عليها، وبهذا لا يجب عنده إلا مراعاة نوع العلاقة؛ لأن هذا هو مقتضى القياس عليها، والفريق الأول يوجب مراعاة شخصها، ولا يكتفي بمراعاة نوعها.

وجمهور العلماء على أنه يجوز القياس في المجاز، وأنه لا يجب إلا مراعاة نوع العلاقة فيه، فإذا عرفنا أن العرب استعملوا لفظًا في سبب معناه أو في مشابهه أو في نحوهما من العلاقات جاز لنا أن نستعمل لفظًا آخر في غير معناه لمثل تلك العلاقة. وهذا هو المذهب الراجح عندي، بل يجوز عندي ابتكار علاقات أخرى غير العلاقات التي اعتمد عليها العرب، ولو لم تكن من نوع علاقاتهم، إذا استساغها الذوق السليم، ولم تنفر منها الطباع السليمة))[(١)].

- علاقات المجاز المرسل في أحاديث الصحيحين.

سأتناول اختيار المجاز المرسل مراعاة لمقتضى حال المخاطب في أحاديث الصحيحين من خلال العلاقات التي تظهر بين المعنى المستعمل والمعنى المراد، ومن هذه العلاقات ما يلي:

١- الجزئية.

ومن ذلك حديث حديث حكيم بن حزام t قال: سألت رسول الله r فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلا يَشْبَعُ، **والْيَدُ الْعُلْيَا** خَيْرٌ مِن **الْيَدِ السُّفْلَى**» قال حكيم: فقلت: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق، لا أرزأ أحدًا بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا.

وقد سبق الحديث في الفصل الأول[(٢)]، والشاهد هنا في قوله r: «والْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِن الْيَدِ السُّفْلَى» واليد العليا هي يد المعطي والمتعفف، والسفلى يد السائل، كما جاء ذلك في حديث ابن عمر t أن رسول الله r قال وهو على المنبر وذكر الصدقة والتعفف

---

(١) البلاغة العالية في علم البيان: ٧٣.

(٢) ينظر ص (١٣٢) من هذا البحث.

والمسألة: «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنْ الْيَدِ السُّفْلَى، فَالْيَدُ الْعُلْيَا هِيَ الْمُنْفِقَةُ، وَالسُّفْلَى هِيَ السَّائِلَةُ»(١)، وروي في غير الصحيحين: «الْعُلْيا الْمُتَعَفِّفَة»(٢)، ورجح ابن حجر (٨٥٢هـ) أن (المتعففة) تصحيف (المنفقة)(٣)، وقال النووي (٦٧٦هـ): ((رجح الخطابي هذه الرواية(٤) قال: لأن السياق في ذكر المسألة والتعفف عنها. والصحيح الرواية الأولى(٥)، ويحتمل صحة الروايتين؛ فالمنفقة أعلى من السائلة، والمتعففة أعلى من السائلة))(٦)، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((وأما يد الآدمي فهي أربعة: يد المعطي، وقد تضافرت الأخبار بأنها عليا. ثانيها: يد السائل، وقد تضافرت بأنها سفلى سواء أخذت أم لا، وهذا موافق لكيفية الإعطاء والأخذ غالبًا، وللمقابلة بين العلو والسفل المشتق منهما. ثالثها: يد المتعفف عن الأخذ ولو بعد أن تمد إليه يد المعطي مثلاً، وهذه توصف بكونها عليا علوًا معنويًا. رابعها: يد الآخذ بغير سؤال، وهذه قد اختلف فيها، فذهب جمع إلى أنها سفلى، وهذا بالنظر إلى الأمر المحسوس، وأما المعنوي فلا يطرد فقد تكون عليا في بعض الصور، وعليه يحمل كلام من أطلق كونها عليا))(٧).

وهذا الخطاب «الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِن الْيَدِ السُّفْلَى» جاء في مقام التنفير من السؤال واستشراف المال، لما ظهر على المخاطب من المبالغة في الحرص على المال والرغبة فيه واستشرافه، وفي هذا الخطاب تصوير ليد المعطي أو المتعفف وهي عزيزة تمتد إلى العلو لتعطي، أو تأخذ من غير استشراف ولا سؤال، وتصوير ليد المستشرف وهي ذليلة ضارعة تمتد إلى السفل تنتظر العطاء.

وظاهر الخطاب مدح ليد المنفق أو المتعفف، وذم ليد السائل المستشرف، ولكن المقصود -والله أعلم- مدح المنفق أو المتعفف، وذم السائل المستشرف، فعبر باليد وهي

(١) أخرجه البخاري: (١٤٢٩) ، ومسلم: (١٠٣٣).
(٢) ينظر: سنن أبي داود: كتاب الزكاة، باب في الاستعفاف، حديث رقم (١٦٤٨).
(٣) فتح الباري: ٣/٢٩٧.
(٤) أي: رواية (المتعففة).
(٥) أي: رواية (المنفقة).
(٦) شرح صحيح مسلم: ٧/١٢٥.
(٧) فتح الباري: ٣/٢٩٧-٢٩٨.

الجزء، وأريد صاحبها، وهو الكل، فهو مجاز مرسل علاقته الجزئية[١]، قال الدكتور عز الدين السيد: ((إن عبارة الحديث تصور الحقيقة في الجانب القريب منها: حقيقة الصورة المحسة بين يد السائل ويد المعطي، وتصور الحقيقة في الجانب البعيد منها: نقل المدح إلى المعطي، ونقل الذم إلى السائل؛ لأن كليهما صاحب القصد، وعمله مناط الجزاء. وإنما اختير التعبير باليد لأن الإعطاء والأخذ آلتهما اليد، فهي أخص الأعضاء من الكل بالفعلين.

وأنت ترى إيجاز العبارة مع إيحائها وتصويرها المعنى صورة تنفر السائل من أن يسأل فيكون الأسفل، والجمع بين الإيجاز والصورة لا يتأتى وهو الفضيلة في مثل: المتصدق خير من السائل، ولا في مثل: صاحب اليد العليا خير من صاحب اليد السفلى؛ لأن في الأولى إيجازًا دون تصوير، وفي الثانية تصويرًا دون إيجاز، فسبحان من اصطفى محمدًا u واصطفى معه بيانه))[٢].

٢- الكلية.

ومن ذلك الحديث الذي ينكر فيه النبي r على الثلاثة الذين تقالُّوا عبادة النبي r، وأراد أحدهم أن يقوم الليل فلا ينام، والآخر يصوم فلا يفطر، والثالث يعتزل النساء فلا يتزوج، وسبق ذكر الحديث[٣]، وفيه أن رسول الله r جاء إليهم فقال: «أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا، أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ **النِّسَاءَ**، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

والشاهد هنا في قوله r: «وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ» والمقصود بعض النساء وليس كلهن، فهو مجاز مرسل علاقته الكلية، ويمكن أن يعبر النبي r بلفظ (النساء) نكرة فيقول: وأتزوج نساء، ويمكن أن يطلق فلا يذكر المفعول به، ويمكن أن يقيد بمضاف فيقول: بعض النساء، أو مِن النساء، أو غير ذلك مما لا يفيد العموم.

---

(١) ينظر: الحديث النبوي من الوجه البلاغية: ١٨٨.

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ١٨٩، وينظر: المجازات النبوية: ٣٥-٣٦، والبيان المحمدي: ٧٥١، والبلاغة النبوية في أحاديث الترغيب والترهيب: ٢٥٤.

(٣) ينظر ص (١٢٢) من هذا البحث.

ولعل النبي r عبر بالكل في مقام الإنكار على من يريد أن يعتزل كل النساء مبالغة في اللفظ في مقابل مبالغة المخاطب في الاعتزال، ليبين له أن الزواج أمر فطري شرعي، يفعله نبي الله r الذي هو أعبد الناس لرب العالمين، فكيف بغيره؟! ((ولم يكن الله U ليرضى لأشرف أنبيائه إلا بأشرف الأحوال))(١).

وجاء لفظ (النساء) جنسًا عامًا غير مخصص بوصف كالمسلمات مثلاً؛ لأن اعتزال المخاطب ليس لصنف من النساء دون صنف، وإنما هو لجنس النساء عامة، فجاء اللفظ ملائمًا للحال، والله أعلم.

٣- السببية.

ومن ذلك حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله r: «أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا» قالت: فكن يتطاولن أيتهن أطول يدًا، فكانت أطولنا يدًا زينب؛ لأنها كانت تعمل بيدها وتصدق(٢). هذه لفظ مسلم، ولفظ البخاري عن عائشة أن بعض أزواج النبي r قلن للنبي r: أينا أسرع بك لحوقًا. قال: «أَطْوَلُكُنَّ يَدًا» فأخذوا قصبة يذرعونها، فكانت سودة أطولهن يدًا، فعلمنا بعد أنما كانت طول يدها الصدقة، وكانت أسرعنا لحوقًا به، وكانت تحب الصدقة.

ورواية البخاري توهم أن الأطول يدًا بالصدقة والأسرع لحوقًا بالنبي r هي سودة رضي الله عنها، مع أن المعروف عند أهل السير أن زينب رضي الله عنها هي الأسرع لحوقًا(٣)، وجمع النووي (٦٧٦هـ) بين الروايتين ونبه على ما في رواية البخاري فقال: ((كانت سودة أطولهن جارحة، وكانت زينب أطولهن يدًا في الصدقة وفعل الخير، فماتت زينب أولهن... ووقع هذا الحديث في كتاب الزكاة من البخاري بلفظ متعقد يوهم أن أسرعهن لحاقًا سودة، وهذا الوهم باطل بالإجماع))(٤).

---

(١) مرقاة المفاتيح: ٦/٢٣٩.

(٢) أخرجه البخاري: (١٤٢٠) ، ومسلم: (٢٤٥٢) واللفظ له.

(٣) ينظر: فتح الباري: ٣/٢٨٦.

(٤) شرح صحيح مسلم: ١٦/٨-٩.

وأخرج الحاكم الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله r لأزواجه: «أَسْرَعُكُنَّ لُحُوقًا بِي أَطْوَلُكُنَّ يَدًا» قالت عائشة: فكنا إذا اجتمعنا في بيت إحدانا بعد وفاة رسول الله r نمد أيدينا في الجدار نتطاول، فلم نزل نفعل ذلك حتى توفيت زينب بنت جحش زوج النبي r ، وكانت امرأة قصيرة، ولم تكن أطولنا، فعرفنا حينئذ أن النبي r إنما أراد بطول اليد الصدقة. وكانت زينب امرأة صناعة اليد، فكانت تدبغ وتخرز وتصدق في سبيل الله U[١]. وهذه رواية مفسرة مبينة مؤكدة لرواية مسلم[٢]، كما تبين هذه الرواية أن السؤال عن اللحاق في الموت وليس غيره كما رأى بعض الباحثين[٣].

والشاهد في الحديث قوله r : «أَطْوَلُكُنَّ يَدًا» و(أَطْوَل) إما من (الطَّول) بفتح الطاء، ومعناه الفضل والخير، وإما من (الطُّول) بضم الطاء، ضد القِصَر، ومعناه الامتداد والعلو والارتفاع[٤]، وعلى أي المعنيين فالتعبير بطول (اليد) مجاز عن العطاء وكثرة الصدقة، كما بينته عائشة رضي الله عنها في الروايات المتقدمة[٥]، وإذا كان قوله r : «أَطْوَلُكُنَّ» من (الطُّول) بالضم، فهو ترشيح للمجاز كما ذكر القزويني (٧٣٩هـ)[٦]. قال النووي (٦٧٦هـ): ((قال أهل اللغة: يقال: فلان طويل اليد وطويل الباع إذا كان سمحًا جوادًا، وضده: قصير اليد والباع))[٧]، وقال الشريف الرضي (٤٠٦هـ): ((كنايته عليه الصلاة والسلام عن هذا المعنى بطول اليد مجاز واتساع؛ لأن الأغلب أن يكون ما يعطيه الإنسان غيره من الرِّفد والبِر أن يعطيه ذلك بيده، فسُمي النَّيل باسم اليد، إذ كان في الأكثر إنما يكون مدفوعًا بها ومجتازًا عليها))[٨].

---

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه: ٢٥/٤، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

(٢) ينظر: فتح الباري: ٢٨٧/٣.

(٣) ينظر: من بلاغة النبي r في بيانه عن المرأة: ٢٥٨.

(٤) ينظر: لسان العرب: ٤١٠/١١-٤١٤، وينظر: الإيضاح: ٣٢/٤.

(٥) ينظر: أسرار البلاغة: ٣٥٧، والمثل السائر: ٩٦/١، والإيضاح: ٣٢/٤، والبيان المحمدي: ٧٥٢، والصورة الفنية في الحديث النبوي: ٢٥٦.

(٦) ينظر: الإيضاح: ٣٢/٤.

(٧) شرح صحيح مسلم: ٨/١٦-٩.

(٨) المجازات النبوية: ٦٧.

والتعبير بــ(اليد) عن العطاء والنعمة وبذل المعروف يعده جملة من البلاغــيين مــن إطلاق السبب على المسبب، فتكون العلاقة هي السببية[١]، ويرى البهاء السبكي (٧٧٣هــ) أنه يصح أن يكون من إطلاق المحل على الحال؛ لأن اليد محل للنعمة[٢]، وذكــره العلــوي (٧٤٩هــ) في إطلاق اليد على القدرة[٣]، ويصح أن يكون من إطلاق الآلة، لأن اليد آلــة للإعطاء، كما قيل في التعبير عن الذكر الحسن باللسان في قول الله U: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤][٤]، ويرى البهاء السبكي (٧٧٣هــ) أنــه يصــح أن يكون من إطلاق المحل على الحال؛ لأن الــذكر حــال في اللســان[٥]، وذكــره العلــوي (٧٤٩هــ) أيضًا في إطلاق اليد على القدرة، قال: ((ووجه المجاز أن اليد محل للقــدرة، أو من جهة أن اليد آلة في الفعل، والفعل لا يمكن حصوله إلا بواسطة القدرة، فلأجــل هــذا تجوزوا في تسمية اليد بالقدرة))[٦].

ولا مانع من رعاية هذه الملابسات جميعًا ما دام لها وجه يصح بها، والعبرة أن يكون بين المعنيين ضرب من الملابسة الظاهرة تصحح استعمال أحدهما مكان الآخر[٧].

والملاحظ أن النبي r آثر المجاز مع عدم ذكر القرينة التي تدل على المعنى المراد قصدًا لإخفائه، قال ابن حجر (٨٥٢هــ) في فوائد الحديث: ((فيه جواز إطلاق اللفظ المشــترك بين الحقيقة والمجاز بغير قرينة، وهو لفظ «أَطْوَلُكُنَّ» إذا لم يكن محذور، قال الزين بن المنير: لما كان السؤال عن آجال مقدرة لا تعلم إلا بالوحي أجابهن بلفظ غير صريح، وأحالهن على ما لا يتبين إلا بآخر، وساغ ذلك لكونه ليس من الأحكام التكليفية))[٨].

---

(١) ينظر: عروس الأفراح ومختصر المعاني ومواهب الفتاح وحاشية الدسوقي: ٣٢/٤ من شروح التلخيص، والبلاغــة العالية في علم البيان: ٧٨.

(٢) ينظر: عروس الأفراح: ٣٢/٤.

(٣) ينظر: الطراز: ٣٥.

(٤) ينظر: شروح التلخيص: ٤٢/٤.

(٥) ينظر: عروس الأفراح: ٤٢/٤.

(٦) الطراز: ٣٥.

(٧) ينظر: التصوير البياني: ٣٥٨-٣٥٩.

(٨) فتح الباري: ٢٨٨/٣.

ولعل إيثار المجاز مع حذف قرينته لكون سرعة اللحوق به أمرًا مرغوبًا فيه لدى أزواجه، والأزواج يحصل عادة بينهن الغيرة والتنافس، فذكر ما يدل على الأسرع يثير ذلك بينهن. وفي إيثار المجاز أيضًا ترغيب بالصدقة وبذل المعروف إذا تبين لهن حقيقة المراد، والترغيب في الصدقة مما يحرص النبي r على تقريره للنساء كما سبق بيانه[١]، والله أعلم.

٤- المسببية.

وظهر لي في هذه العلاقة حديث جابر t أنه حج مع النبي r يوم ساق البدن معه، وقد أهلوا بالحج مفردًا، فقال لهم: «أَحِلُّوا مِنْ إِحْرَامِكُمْ بِطَوَافِ الْبَيْتِ وَبَيْنَ الصَّفَا وَالْمَرْوَةِ، وَقَصِّرُوا، ثُمَّ أَقِيمُوا حَلالاً، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ التَّرْوِيَةِ فَأَهِلُّوا بِالْحَجِّ. وَاجْعَلُوا الَّتِي قَدِمْتُمْ بِهَا مُتْعَةً» فقالوا: كيف نجعلها متعة وقد سمينا الحج؟! فقال: «افْعَلُوا مَا أَمَرْتُكُمْ، فَلَوْلا أَنِّي سُقْتُ الْهَدْيَ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الَّذِي أَمَرْتُكُمْ، وَلَكِنْ لا يَحِلُّ مِنِّي حَرَامٌ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ» ففعلوا[٢].

والشاهد فيه قوله r: «وَاجْعَلُوا الَّتِي قَدِمْتُمْ بِهَا مُتْعَةً» أي: عمرة، فعبر عن (العمرة) بـ(المتعة)، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قوله: «وَاجْعَلُوا الَّتِي قَدِمْتُمْ بِهَا مُتْعَةً» أي: اجعلوا الحجة المفردة التي أهللتم بها عمرة، تتحللوا منها، فتصيروا متمتعين، فأطلق على العمرة متعة مجازًا، والعلاقة بينهما ظاهرة))[٣].

والعلاقة هي المسببية؛ لأن الحاج يحصل له بالعمرة والتحلل منها تمتع بما حظر عليه حتى يهل بالحج، والله أعلم.

٥- المحلية.

ومما جاء في هذه العلاقة حديث أبي هريرة t أنه عام فتح مكة قتلت خزاعة رجلاً من بني ليث بقتيل لهم في الجاهلية، فأخبر رسول الله r، فركب راحلته، وقام في الناس

---

(١) ينظر ص (١٠٠) من هذا البحث، وينظر: من بلاغة النبي r في بيانه عن المرأة: ٢٦٠-٢٦١.

(٢) أخرجه البخاري: (١٥٦٨)، ومسلم: (١٢١٦).

(٣) فتح الباري: ٣/٤٣١، وينظر: عمدة القاري: ٩/٢٠٣.

وخطب، فحمد الله وأثنى عليه، ومما قاله: «إِنَّ اللهَ U حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الْفِيلَ، وَسَلَّطَ عَلَيْهَا رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ، أَلا وَإِنَّهَا لَمْ تَحِلَّ لأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَنْ تَحِلَّ لأَحَدٍ بَعْدِي، أَلا وَإِنَّهَا أُحِلَّتْ لِي سَاعَةً مِنْ النَهَارِ، أَلا وَإِنَّهَا سَاعَتِي هَذِهِ حَرَامٌ، لا يُخْبَطُ شَوْكُهَا، وَلا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلا يَلْتَقِطُ سَاقِطَتَهَا إِلاّ مُنْشِدٌ»(١)، وفي حديث أبي شريح الخزاعي أن النبي r قال: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلا يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلا يَعْضِدَ بِهَا شَجَرَةً»(٢).

وهذا مقام ترهيب وتحذير من انتهاك ما حرمه الله U في مكة لعظم شأنها ومكانتها عند الله U، ولما كان المقام كذلك عبر النبي r عن تحريم ما في مكة بتحريمها هي ذاتها، من إطلاق المحل وإرادة ما فيه، مبالغة في تعظيمها والتحذير من انتهاك ما حرمه الله فيها، وقد بين النبي r في خطبته ما يحرم منها، قال الدكتور عز الدين السيد: ((يبين الرسول عليه الصلاة والسلام منزلة مكة وكرامتها عند الله؛ لأنها محلة بيته الحرام الذي هو أول بيت وضع للناس مباركًا وهدى للعالمين، فعبر عن ذلك بتحريم الله إياها، والتحريم لا يتعلق بالذات، وإنما يكون لأمور أخرى تتلبس بها، وقد بين بعض هذه الأمور المقصودة بالتحريم، كسفك الدم فيها، أو قطع أشجارها بفأس أو سواه، وهذه أمور تحل (من الحلول) بالمكان، فمكة محلها، فالمجاز من إطلاق لفظ المحل وإرادة الحال فيه.

ولكن فضل التعبير المجازي على التعبير بالحقيقة يدرك بأدنى مقارنة بين الحديث وبين قولنا: إن مكة حرم الله سفك الدم فيها، وقطع شجرها...؛ لأن التحريم الواقع على البلد يصورها بكل أجزائها وجميع ما فيها صورة المحرم، فيعم ما ذكر بالبيان وغيره، ويزيد من تصور الحرمة والقداسة))(٣)، والله أعلم.

---

(١) ينظر ص (٥٦٧) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (١٠٤) ، ومسلم: (١٣٥٤).

(٣) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ١٨٩-١٩٠.

ثالثًا: الاستعارة.

- تعريف الاستعارة، وأركانها.

الاستعارة -كما سبق- مجاز علاقته المشابهة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): (الاستعارة: أن تريد تشبيه الشيء بالشيء، فتدع أن تفصح بالتشبيه وتظهره، وتجيء إلى اسم المشبه به فتعيره المشبه وتجريه عليه)[١].

وللاستعارة على هذا ثلاثة أركان: المستعار منه وهو لفظ المشبه به، والمستعار له وهو المشبه، والمستعار وهو اللفظ المنقول. ويزيد على هذه الثلاثة العلاقة والقرينة.

- تقسيمات الاستعارة.

قسمت الاستعارة تقسيمات عديدة باعتبارات مختلفة، ومن ذلك تقسيمها إلى تصريحية ومكنية، فإذا كان المذكور هو لفظ المشبه به فالاستعارة تصريحية، وإن كان المذكور لفظ المشبه مع ذكر شيء من لوازم المشبه به فالاستعارة مكنية[٢]، وتقسم باعتبار اللفظ المستعار إلى أصلية وتبعية، إذا كان اللفظ اسم جنس فهي أصلية، وإلا كانت تبعية[٣]، وتقسم باعتبار ما يلائم أحد طرفيها إلى مطلقة إذا لم تقرن بشيء يلائم أحد الطرفين، أو إذا قرنت بما يلائمهما جميعًا، ومجردة إذا قرنت بما يلائم المستعار له، ومرشحة إذا قرنت بما يلائم المستعار منه[٤]، وتقسم إلى تقسيمات أخرى[٥].

- بلاغة الاستعارة.

الاستعارة كما قال ابن يعقوب المغربي (١١٢٨هـ): ((مبنية على تناسي التشبيه، حتى كأن الموجود في نفس الأمر هو المشبه به دون المشبه، وأن اسمه هو الذي يطلق على معنى الطرفين لكونهما من حقيقة واحدة))[٦]، ومن قبل قال عبد القاهر الجرجاني

(١) دلائل الإعجاز: ٦٧.
(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٤/١٨٥.
(٣) ينظر: المراجع السابقة: ٤/١٠٨.
(٤) ينظر: المراجع السابقة: ٤/١٢٧.
(٥) ينظر: المراجع السابقة: ٤/٧٥، والبلاغة العالية في علم البيان: ١١٠-١١٨، وعلم البيان: ١٨٣-٢٠١.
(٦) مواهب الفتاح: ٤/١٣٠.

(٤٧١هـ): ((إن الاستعارة من شأنها أن تُسقِط ذكر المشبه من البَيْن وتطرحه، وتدَّعي له الاسم الموضوع للمشبه به، كما مضى من قولك: رأيت أسدًا، تريد رجلاً شجاعًا، ووردت بحرًا زاخرًا، تريد رجلاً كثير الجود فائض الكفّ، وأبديتُ نورًا، تريد علمًا وما شاكل ذلك. فاسم الَّذِي هو المشبه غير مذكور بوجه من الوجوه كما ترى، وقد نقلت الحديث إلى اسم المشبه به، لقصدك أن تبالغ، فتضع اللفظ بحيث يخيل أن معك نفس الأسد والبحر والنور، كي تُقوِّي أمر المشابهة وتشدده))[١].

وذكر البلاغيون من محاسن الاستعارة وبلاغتها أن فيها فضل إبانة عن المعنى، وتأكيد له، ومبالغة فيه، وفيها إيجاز في التعبير، وإبراز للمعنى في حلة جميلة، وفيها خيال وتصوير جميل ((فإنك ترى بها الجماد حيًّا ناطقًا، والأعجم فصيحًا، والمعاني الخفية بادية جلية، وترى المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها جسمت حتى رأتها العيون، والأوصاف الجسمانية عادت روحانية لا تدرك إلا بالأفكار والظنون، وهذا ابتكار يحدث في نفوس السامعين أجمل الأثر))[٢].

- الاستعارة في أحاديث الصحيحين.

التصوير بالاستعارة في الحديث النبوي كثير[٣]، وجاء منها ما فيه مراعاة لمقتضى حال المخاطب، وسأذكر شواهد لذلك مصنفة على القسمين البارزين للاستعارة (التصريحية والمكنية) وأذكر في تحليلها ما يظهر من أقسام أخرى لذكرها فائدة في إبراز المعنى وتصويره.

أ- الاستعارة التصريحية.

ومن شواهدها ما يلي:

١- حديث عبد الله بن عباس t أن رسول الله r بعث بكتابه إلى كسرى، مع عبد الله بن حذافة السهمي، فأمره أن يدفعه إلى عظيم البحرين، فدفعه عظيم البحرين إلى كسرى، فلما قرأه مزقه، فدعا عليهم رسول الله r أن **يمزقوا** كل ممزق[٤]، هذه رواية

---

(١) أسرار البلاغة: ٢٤٢.

(٢) علم البيان: ٢٠٦، وينظر في محاسن الاستعارة: أسرار البلاغة: ٤٢-٤٣، والبلاغة العالية في علم البيان: ٨٩-٩١، وعلم البيان: ٢٠٢-٢٠٦.

(٣) ينظر: التصوير الفني في الحديث النبوي: ٥٥٨-٥٦٤.

(٤) أخرجه البخاري: (٦٤ و٤٤٢٤).

البخاري، وورد عند ابن سعد من حديث عبد الله بن حذافة t أن النبي r لما بلغه أن كسرى مزق كتابه قال: «اللَّهُمَّ مَزِّقْ مُلْكَه»(١).

والتمزيق: التقطيع والتخريق، واستعير هنا لتفريق الجمع وزوال الملك، تصويرًا لزوال وحدة ملكهم ورابطة اجتماعهم، كما يتمزق الثوب ونحوه فتتفرق الأجزاء وتتقطع الأوصال ولا يبقى للكل اسمه ولا للجمع وصفه، قال مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هـ): ((التمزيق: التخريق والتقطيع، وأراد بتمزيقهم تفرقهم وزوال ملكهم وقطع دابرهم))(٢)، وقال الزبيدي (١٢٠٥هـ): ((أراد زوال ملكهم، وقطع دابرهم، وهو مجاز))(٣)، وعد الزمخشري (٥٣٨هـ) هذا التعبير من المجاز، قال: ((من المجاز: مَزَّق فروته و﴿مَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ وتَمَزَّق جمعهم))(٤)، وقال الزبيدي (١٢٠٥هـ): ((تَمَزَّق القوم: تفرَّقوا، وهو مجاز))(٥)، وقال ابن عاشور (١٣٩٣هـ) في قول الله U عن سبأ: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]: ((التمزيق: تقطيع الثوب قطعًا، استعير هنا للتفريق، تشبيهًا لتفريق جامعة القوم شَذَرَ مَذَرَ بتمزيق الثوب قطعًا))(٦).

وجاء اختيار (التمزيق) متلائمًا مع حال المدعو عليه، حيث مزق الكتاب الذي أرسل إليه، فكان الجزاء من جنس العمل، فضلاً عما في لفظ التمزيق وجرسه الصوتي من قوة الدلالة على تفرق الملك وزواله، قال أبو السعود (٩٨٢هـ) في تفسير آية سبأ: ((في عبارة التمزيق الخاص بتفريق المتصل وخرقه من تهويل الأمر والدلالة على شدة التأثير والإيلام ما لا يخفى، أي: مزقناهم تمزيقًا لا غاية وراءه، بحيث يضرب به الأمثال في كل فرقة ليس بعدها وصال))(٧).

---

(١) أخرجه ابن سعد في طبقاته: ١/٢٥٩-٢٦٠، وينظر: فتح الباري: ٨/١٢٧، وسلسلة الأحاديث الصحيحة: ٣/٤١٤ برقم (١٤٢٩).
(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ٤/٣٢٥.
(٣) تاج العروس: ٢٦/٣٩٠.
(٤) أساس البلاغة: ٤٢٨.
(٥) تاج العروس: ٢٦/٣٩١.
(٦) تفسير التحرير والتنوير: ٢٢/١٧٨.
(٧) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: ٧/١٢٩، وينظر: روح المعاني: ٢٢/١٣١.

وهذه الاستعارة تصريحية ذكر فيها لفظ المشبه به، وجاء اللفظ المستعار فعلاً على سبيل الاستعارة التبعية، والمقام هنا مقام دعاء، وسبق أن الدعاء يأتي بصيغة الأمر إظهارًا للرغبة الجازمة في الاستجابة للدعاء، وفي ذلك إشعار للمخاطب المدعو عليه بحرص النبي r على حصول المدعو به وتحققه، مما يكون له الأثر العظيم في نفس المدعو عليه[1].

٢- حديث أبي بكرة t قال: أثنى رجل على رجل عند النبي r، فقال: «وَيْلَكَ، **قَطَعْتَ** عُنُقَ صَاحِبِكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» مرارًا، وفي رواية: «وَيْلَكَ، قَطَعْتَ عُنُقَ أَخِيكَ» ثلاثًا، ثم قال: «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَادِحًا أَخَاهُ لا مَحَالَةَ فَلْيَقُلْ: أَحْسِبُ فُلانًا، وَاللَّهُ حَسِيبُهُ، وَلا أُزَكِّي عَلَى اللهِ أَحَدًا، أَحْسِبُهُ كَذَا وَكَذَا، إِنْ كَانَ يَعْلَمُ ذَلِكَ مِنْهُ»[2].

ومثله حديث أبي موسى t قال: سمع النبي r رجلاً يثني على رجل، ويطريه في المِدحة، فقال: «لَقَدْ **أَهْلَكْتُمْ** -أو: **قَطَعْتُمْ** ظَهْرَ- الرَّجُلِ»[3]، و(أو) للشك في الرواية، وحديث أبي بكرة قد يرجح اللفظ الثاني، والله أعلم[4].

وقد عبر النبي r عما يحدثه المدح في نفس الممدوح من العجب والكبر ونحوهما بقطع العنق أو الظهر، لما فيهما من تحقق الهلاك والموت، وكذلك المدح يؤدي إلى إهلاك الممدوح في دينه ودنياه، فقد يؤدي به المدح إلى الإعجاب بالنفس والتكبر على الخلق والركون إلى ثناء الناس والقعود عن العمل الصالح، وذكر الغزالي (٥٠٥هـ) أن المدح مضر بالمادح والممدوح، قال: ((أما الممدوح فيضره من وجهين:

أحدهما: أنه يحدث فيه كبرًا وإعجابًا، وهما مهلكان. قال الحسن t: كان عمر t جالسًا ومعه الدرة، والناس حوله، إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجل: هذا سيد ربيعة، فسمعها عمر ومن حوله، وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة، فقال: ما لي ولك، يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لي ولك! أما سمعتها؟ قال: سمعتها، فمه؟ قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء، فأحببت أن أطأطئ منك.

(١) ينظر ص (١٥٩) من هذا البحث.
(٢) أخرجه البخاري: (٢٦٦٢ و٦٠٦١ و٦١٦٢) ، ومسلم: (٣٠٠٠).
(٣) أخرجه البخاري: (٢٦٦٣ و٦٠٦٠) ، ومسلم: (٣٠٠١).
(٤) ينظر: فتح الباري: ١٠/٤٧٧.

الثاني: هو أنه إذا أثني عليه بالخير فرح به، وفتر، ورضي عن نفسه. ومن أعجب بنفسه قل تشمره، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصرًا، فأما إذا انطلقت الألسن بالثناء عليه ظن أنه قد أدرك، ولهذا قال u : «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ، لَوْ سَمِعَهَا مَا أَفْلَحَ»... وقال مطرف: ما سمعت قط ثناء ولا مدحة إلا تصاغرت إليّ نفسي. وقال زياد بن أبي مسلم: ليس أحد يسمع ثناء عليه أو مدحة إلا تراءى له الشيطان، ولكن المؤمن يراجع، فقال ابن المبارك: لقد صدق كلاهما، أما ما ذكره زياد فذلك قلب العوام، وأما ما ذكره مطرف فذلك قلب الخواص... وقال عمر t : المدح هو الذبح. وذلك لأن المذبوح هو الذي يفتر عن العمل، والمدح يوجب الفتور، أو لأن المدح يورث العجب والكبر وهما مهلكان كالذبح؛ لذلك شبهه به))(١).

قال النووي (٦٧٦هـ): ((قوله r : «قَطَعْتَ عُنُقَ صَاحِبِكَ» وفي رواية: «قَطَعْتُمْ ظَهْرَ الرَّجُلِ» معناه: أهلكتموه، وهذه استعارة، من قطع العنق الذي هو القتل، لاشتراكهما في الهلاك، لكن هلاك هذا الممدوح في دينه، وقد يكون من جهة الدنيا لما يشتبه عليه من حاله بالإعجاب))(٢).

والاستعارة تصريحية لذكر لفظ المشبه به، وهي استعارة تبعية لكون التعبير عن القطع جاء بالفعل.

ومقام الخطاب مقام تحذير وترهيب من المدح المؤدي إلى هلاك الممدوح، فحسن إيثار الاستعارة على الحقيقة، مبالغة في الترهيب من الفعل وتصويره بصورة منفرة، ومما يزيد من التنفير مجيء الفعل ماضيًا للدلالة على تحقق الهلاك بالمدح، والله أعلم.

ومما يزيد من التنفير إضافة وصف الصحبة أو الأخوة إلى المخاطب، وفي ذلك إشعار له بأن ما يفعله إهلاك يقع على الصاحب أو الأخ، ومن الذي يسعى إلى إهلاك صاحبه أو أخيه؟!

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/٢٥٠-٢٥١.

(٢) شرح صحيح مسلم: ١٨/١٢٧، وينظر: شرح صحيح البخاري: ٨/٤٨ و٩/٢٥٣-٢٥٤، وفتح الباري: ١٠/٤٧٧، وعمدة القاري: ١٣/٢٣٨.

ومما يزيد من التنفير والترهيب تكرار جملة الاستعارة تقريرًا وترسيخًا لما تحمله من ترهيب وتوبيخ وتصوير للمادح بصورة الذي يسعى إلى قتل أخيه وصاحبه[1]، والله أعلم.

٣- حديث أنس t أن النبي r مَرَّ بامرأة تبكي على صبي لها عند قبره فقال لها: «اتَّقِي اللّهَ، وَاصْبِرِي» قالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمصيبتي. و لم تعرفه. فقيل لها: إنه النبي r ، فأتت باب النبي r ، فلم تجد عنده بوابين، فقالت: لم أعرفك. فقال: «إِنَّمَا الصَّبْر عِنْد **الصَّدْمَة** الأُولى».

وسبق ذكر الحديث[2]، والشاهد هنا في قوله r : «إِنَّمَا الصَّبْر عِنْد الصَّدْمَة الأُولى» والمراد بالصدمة الأولى ((فورة المصيبة وفجأها))[3]، وحقيقة (الصّدم): ضرب الشيء الصلب بمثله[4]، واستعير في الحديث لفجأة المصيبة، حيث تكون أشد شيء على النفس، وقد جعل الزمخشري (٥٣٨هـ) جملة الحديث من المجاز، قال: ((ومن المجاز: صدمت الشر بالشر، وصدمهم أمر شديد، والصبر عند الصدمة الأولى))[5]، قال النووي (٦٧٦هـ): ((أصل الصدم الضرب في شيء صلب، ثم استعمل مجازًا في كل مكروه حصل بغتة))[6]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((أصل الصدم ضرب الشيء الصلب بمثله، فاستعير للمصيبة الواردة على القلب))[7].

قال الدكتور سعيد جمعة: ((أعرب عن المصيبة بلفظ (الصدمة) لغرض بلاغي، وهو الإشارة إلى قوها وشدها، وأها جاءت على غِرّة ودون موعد، وهذا مقام قد لا يملك الإنسان فيه نفسه، ولا يستطيع أن يلجم فيه مشاعره، لذا كان الصبر فيه أعلى درجات الصبر، بل هو الجدير بلفظ الصبر دون غيره من المقامات التي تترل فيها مصائب، وزاد من

---

(١) ينظر: بلاغة الرسول r في تقويم الأخطاء: ٢٢٣.
(٢) ينظر ص (٥٨٤) من هذا البحث.
(٣) تفسير غريب ما في الصحيحين: ٢٥٣، وينظر: لسان العرب: ١٢/٣٣٤.
(٤) ينظر: مقاييس اللغة: ٣/٣٤٠، ولسان العرب: ١٢/٣٣٤.
(٥) أساس البلاغة: ٢٥١.
(٦) شرح صحيح مسلم: ٦/٢٢٧.
(٧) فتح الباري: ٣/١٤٩، وينظر: عمدة القاري: ٨/٦٨.

هذا المعنى وصف اللفظ بكلمة (الأولى) أي: وقت وقوعها، وهذه مبالغة في إبراز الشدة، بل هي وصف لساعة المصيبة، والتي إذا ملك الإنسان فيها نفسه وصبر كان بحق صابرًا))[١].

والاستعارة تصريحية لذكر لفظ المشبه به (الصدمة)، وجاء اسمًا متلائمًا مع حث المخاطبة على الصبر والثبات عند ورود المصيبة، حيث يدل الاسم على الثبوت والاستقرار كما سبق بيانه[٢].

ولعل النبي r آثر الاستعارة لقوة تعبيرها عن حال المخاطبة التي اشتدت عليها المصيبة حتى إنها لم تعرف النبي r و لم تبال بموعظته لها وتذكيره إياها بتقوى الله والصبر، والله أعلم.

ب- الاستعارة المكنية.

ومن شواهدها ما يلي:

١- حديث جابر بن عبد الله t في دعوى الجاهلية التي حصلت بين المهاجرين والأنصار، وسبق الحديث بتمامه[٣]، وفيه قال النبي r مستنكرًا: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟» الْجَاهِلِيَّةِ؟» قالوا: يا رسول الله، كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار. فقال منفرًا من هذه الدعوى: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا **مُنْتِنَةٌ**».

و(دعوى الجاهلية) كما سبق بيانها هي الاستنصار بالآل والعشيرة ولو كان في ظلم، وقد أبطلها الإسلام ونهى عنها، لما تثيره من الغضب على غير الحق، والتقاتل على الباطل، وتؤدي إلى النار[٤].

ووصفها النبي r في مقام التنفير منها بالنَّتن، وهو الرائحة الكريهة، و(دعوى الجاهلية) لا رائحة لها، لكن شبهها بما له رائحة كريهة كالجيفة مثلاً، تصويرًا لكراهتها وبشاعتها وشدة قبحها، تنفيرًا للمخاطبين منها، و لم يُذكر المشبه به، وذُكر شيء من لوازمه

(١) من بلاغة النبي r في بيانه عن المرأة: ٤٥٦.
(٢) ينظر ص (٣١٣) من هذا البحث.
(٣) ينظر ص (٢٨٠) من هذا البحث.
(٤) ينظر ص (٢٨٠) من هذا البحث.

وهو النتن، على سبيل الاستعارة المكنية. واستعارة (النتن) لـ(دعوى الجاهلية) تخييل، لأنها غير متحققة في المستعار له لا حسًّا ولا عقلاً؛ لكن فيها مزيد تقرير للمعنى في النفس، ومبالغة في تناسي التشبيه ودخول المشبه في جنس المشبه به[(١)].

وإيثار الاستعارة في هذا المقام أشد تنفيرًا من التعبير مثلاً بقول: إنها مكروهة، وهي توحي بعدة دلالات تزيد المخاطب تنفيرًا من (دعوى الجاهلية) وشعورًا بقبحها، ومن ذلك أن دعوى الجاهلية لا يقتصر ضررها على أصحابها بل تعم المجتمع بصورة سريعة، كما تنتشر الرائحة الكريهة بسرعة وتعم من حولها. ومن ذلك أن المرء يكره القرب مما له رائحة كريهة فكيف بنبشه أو تحريكه الذين يبعثان الرائحة من جديد؟! ثم كيف بتناوله والوقوع فيه، الذي يحدث الضرر وكراهية الرائحة فيمن قام به، فيستقبح ويكره كما كره النتن؟! ومن ذلك أن النتِن لا خير فيه ولا نفع بل منه الضرر، وهكذا دعوى الجاهلية[(٢)].

٢- حديث جابر t في تحريم بيع شحوم الميتة، وقد سبق الحديث[(٣)]، وفيه أنه قيل: يا رسول الله، أرأيت شحوم الميتة، فإنه يطلى بها السفن، ويدهن بها الجلود، ويستصبح بها الناس؟ فقال: «لا، هُوَ حَرَامٌ» ثم قال رسول الله r عند ذلك: «قَاتَلَ اللَّهُ الْيَهُودَ، إِنَّ اللَّهَ U لَمَّا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ شُحُومَهَا أَجْمَلُوهُ، ثُمَّ بَاعُوهُ، فَأَكَلُوا ثَمَنَهُ».

والشاهد في قوله r: «أَكَلُوا ثَمَنَهُ» فإن (الثمن) هو عوض ما يباع، كالدراهم والدنانير ونحوها[(٤)]، قال الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ): ((الثَّمَن: اسم لما يأخذه البائع في مقابلة المبيع، عينًا كان أو سلعة، وكل ما يحصل عوضًا عن شيء فهو ثمنه))[(٥)].

والثمن عادة ما يكون من الذهب أو الفضة أو المعدن أو الورَق المتعارف عليه، ومثله لا يؤكل، وإنما يؤكل الطعام، وهذه استعارة مكنية شبه فيها الثمن بالطعام، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه، وهو الأكل، واستعارة الأكل للثمن فيه مزيد تصوير لشدة

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٤/١٥٢-١٥٥، والتصوير البياني: ٢٥٤.
(٢) ينظر: بلاغة الرسول r في تقويم الأخطاء: ٤٩.
(٣) ينظر ص (١٧٨) من هذا البحث.
(٤) مقاييس اللغة: ١/٣٨٦.
(٥) مفردات القرآن: ١٧٧، وينظر: لسان العرب: ١٣/٨٢، وتاج العروس: ٣٤/٣٣٧.

رغبة اليهود في المال وحرصهم عليه حتى إنهم ليأكلونه وكأنهم جوعى له لا للطعام، وجاء التعبير بالفعل الماضي إشعارًا بتحقق الفعل منهم، وهذه صفة مشينة يستقبحها العقلاء.

وهذه الاستعارة يقتضيها مقام الخطاب، فإن النبي r ينفر المخاطب ويرهبه من الوقوع في مثل ما وقع فيه اليهود، فاقتضى أن يصور هؤلاء اليهود الذي يتحايلون على أحكام الله U بمثل هذه الصورة المنفرة، بعد أن دعا عليهم وبين سوء فعلهم، وسبق ذكر بعض الأساليب التي استخدمها النبي r في هذا الخطاب لتسهم في تنفير المخاطب وترهيبه من الوقوع في الفعل[(١)]، والله أعلم.

٣- حديث ابن عمر t في خطبة النبي r لَمَّا طعن الناس في إمارة أسامة بن زيد t حينما ولاه قيادة الجيش إلى الروم، وسبق الحديث وفيه: «قَدْ بَلَغَنِي أَنَّكُمْ قُلْتُمْ فِي أُسَامَةَ.. إِنْ **تَطْعَنُوا** فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ **طَعَنْتُمْ** فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِهِ»[(٢)]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قيل: إنما طعنوا فيه لكونه مولى))[(٣)].

والشاهد هنا استعارة الطَّعْن للإمارة، والطعن: الوخز أو الضرب أو القتل بالرمح والحربة ونحوهما[(٤)]، واستعماله في الأعراض مجاز كما ذكره الزمخشري (٥٣٨هـ) وغيره، قال الزمخشري (٥٣٨هـ) في مادة (ط ع ن): ((طَعَنه بالرمح... ومن المجاز: طَعَن فيه وعليه، وطعن عليه في أمره... وهو طَعَّان في أعراض الناس))[(٥)].

وإطلاق (الطعن) على (الإمارة) فيه تشبيه لها بما يطعن حقيقة كالإنسان، وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو (الطعن)، وذكر هذا اللازم تخييل يصور بدقة عظم المنكر وشناعة الجرم الذي وقع فيه المخاطب، وكأن الإمارة التي عقدها الرسول r لأسامة t صارت عدوًا في ميدان القتال يستهدفه بعض الصحابة y فيسددون إليه رماحهم ليطعنوه رغبة في قتله.

---

(١) ينظر ص (١٧٨، ٣٠٥، ٥١٦) من هذا البحث.

(٢) أخرجه البخاري: (٣٧٣٠ و٤٢٥٠ و٤٤٦٨) ، ومسلم: (١٤٢٦).

(٣) فتح الباري: ١٣/١٨٠.

(٤) ينظر: لسان العرب: ١٣/٢٦٥، وتاج العروس: ٣٥/٣٥٣.

(٥) أساس البلاغة: ٢٨٠، وينظر: المحكم: ١/٣٤٤، ولسان العرب: ١٣/٢٦٦، وتاج العروس: ٣٥/٣٥٢.

ولو جاء الخطاب على الحقيقة كما لو قيل: إن تسبوا أسامة، ونحو ذلك، لم يؤد مثل ذلك التصوير الذي يشعر بشناعة الفعل وقوة الإنكار، ولعل النبي r آثر الاستعارة لذلك، والله أعلم.

وعبر عن الطعن بالفعل المضارع الذي يصور تجدد الطعن من المخاطب مرة بعد مرة، مما يدل على الرغبة الملحة عند الطاعنين عن إمارة أسامة t ، وهذا الطعن المتجدد يـــؤثر في معنويات قائد الجيش كما يؤثر في المجتمع المسلم كله تأثيرًا سلبيًا مما اقتضى من النبي r أن يقوم خطيبًا منكرًا على هذا الطعن، والله أعلم.

رابعًا: المجاز العقلي.

- تعريف المجاز العقلي، وعلاقاته.

يعد عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) من أوائل من بسط القول في المجاز العقلي، في كتابيه (أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز)[١]، حيث وضع له حدًّا يعرف به، وفرّق بينه وبين المجاز اللغوي، وبيّن بلاغته.

وقد حدّه بأنه كل جملة أخرجت الحكم المفاد بها عن موضعه من العقل لضرب من التأول. وما كان مجازًا إلا لأن إثبات الفعل لغير القادر لا يصح في قضايا العقول؛ إلا أن ذلك على سبيل التأول، وعلى العرف الجاري بين الناس أن يجعلوا الشيء إذا كان سببًا أو كالسبب في وجود الفعل من فاعله كأنه فاعل[٢].

وعرفه الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) بأنه: (إسناد الفعل أو معناه إلى ملابس له غير ما هو له بتأول)[٣].

ويطلق البلاغيون على المجاز العقلي أسماء كثيرة، منها: المجاز في الإسناد؛ لكثرة وروده في النسب الإسنادية. ومنها: مجاز الملابسة؛ ليشمل النسب الإسنادية وغيرها. ومنها: المجاز الحكمي؛ نسبة إلى حكم العقل، أو إلى الحكم الذي هو النسبة بين المسند والمسند إليه. ومنها: المجاز النسبي؛ لوقوعه في النسبة. ومنها: المجاز في الإثبات، وغيرها. وأشهر أسمائه: المجاز العقلي؛ لأن التجوز والتصرف فيه في أمر معقول يدرك بالعقل الذي يقيم الروابط والصلات[٤].

ووصف عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) المجاز العقلي بأنه ((كنز من كنوز البلاغة، ومادة الشاعر المفلق، والكاتب البليغ في الإبداع والإحسان، والاتساع في طرق البيان، وأن يجيء بالكلام مطبوعًا مصنوعًا، وأن يضعه بعيد المرام، قريبًا من الأفهام...))[٥].

---

(١) ينظر: أسرار البلاغة: ٣٨٥ و٤٠٨، ودلائل الإعجاز: ٢٩٣.

(٢) ينظر: أسرار البلاغة: ٣٨٥.

(٣) الإيضاح: ١/٢٣١.

(٤) ينظر: المطول: ٥٧، ومواهب الفتاح: ١/٢٣١، وحاشية الدسوقي: ١/٢٣١، وخصائص التراكيب: ١١٥، وعلم المعاني، لفيود: ١/٦٠، وعلم البيان: ١٤٥، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٣/٢٠٠.

(٥) دلائل الإعجاز: ٢٩٥.

وللمجاز العقلي عدة علاقات بين المسند والمسند إليه ذكر منها البلاغيون الفاعلية، والمفعولية، والمصدرية، والزمانية، والمكانية، والسببية، وغيرها[1]، يقول الدكتور بسيوني فيود: ((والبلاغيون ينظرون في تحديد هذه العلاقات أو تلك الملابسات إلى ما بين الفعل والفاعل المجازي من تعلق وارتباط، أو إلى ما بين الفاعل الحقيقي والفاعل المجازي، فقولك: سار الطريق، وقوله عز من قائل: ﴿فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ [البقرة: ١٦]، هنالك ارتباط وتعلق بين بين (سار) و(الطريق) باعتبار الطريق مكان السير، كما أن هناك تعلق بين (ربح) و(التجارة) باعتبار التجارة مفعولاً يقع عليه الربح، وهنالك تعلق وارتباط بين (الطريق) و(الناس)، وبين (التجارة) و(المشترين) باعتبار تلبس الفعل وتعلقه بكل منهما، ولك أن تنظر في تحديد الملابسة إلى أيهما شئت؛ لأنه إذا كانت هناك ملابسة بين الفعل والفاعل المجازي لزم أن يكون هناك ملابسة بين الفاعلين الحقيقي والمجازي كما هو واضح))[2].

- المجاز العقلي في أحاديث الصحيحين.

ولم يخل الخطاب النبوي من إسناد الفعل إلى غير ما هو له حقيقة، وإن لم يكن بالكثرة التي تلحظ في الاستعارة والمجاز المرسل، وقد ورد منه ما كان ملائمًا لمقتضى حال المخاطب، وسأذكر شواهد على ذلك بحسب العلاقات بين طرفي الإسناد، ومن ذلك:

١- السببية.

وأكثر ما وجدته من أحاديث يندرج تحت هذه العلاقة، ومما ورد حديث عائشة رضي الله عنها في شأن المرأة المخزومية التي سرقت، وسبق الحديث[3]، وفيه أن قومها أتوا أسامة ليشفع لها عند الرسول ﷺ، فلما كلمه تلون وجهه ﷺ، وأنكر عليه، ثم قام خطيبًا، فقال: «أَمَّا بَعْدُ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ النَّاسَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمْ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ...».

والمقام في هذا الحديث مقام إنكار على الشفاعة في الحدود والتفريق بين الناس في إقامتها عليهم بحسب منزلتهم الاجتماعية.

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ١/٢٣٥، وعلم البيان: ١٤٩.

(٢) علم المعاني: ١/٦٣-٦٤.

(٣) ينظر ص (١٩١) من هذا البحث.

واقتضى هذا المقام أن يبالغ النبي r في الإنكار والزجر، مستعملاً عـدة أسـاليب بلاغية، منها إسناد فعل الإهلاك إلى ترك إقامة الحدود على الناس جميعًا بغض النظـر عـن مترلتهم ومكانتهم، وإنما الإهلاك من الله U، لكن لما كان ترك إقامـة الحـدود سـببًا في الإهلاك أسند إليه، لإشعار المخاطبين بخطورة الفعل الذي يبتغونه، وتصوير سرعة عاقبتـه، لأن المسبب يحصل بحصول السبب، فإذا حصل الترك حصل الإهلاك، ولذا قدم المسبب على السبب، وجاء فعل الإهلاك ماضيًا لتأكيد تحقق العاقبة، والله أعلم.

ومن الشواهد حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله r كان عندها، وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، قالت عائشة: يا رسول الله، هذا رجل يستأذن في بيتك. فقال رسول الله r: «أُرَاهُ فُلانًا» لعم حفصة من الرضاعة، فقالت عائشـة: لـو كان فلان حيًا، لعمها من الرضاعة دخل عليّ. فقال رسول الله r: «نَعَـمْ، إِنَّ الرَّضَـاعَةَ تُحَرِّمُ مَا يَحْرُمُ مِنْ الْوِلادَةِ»(١).

وفي هذا الحديث إسناد التحريم إلى الرضاعة، على سبيل المجـاز العقلـي، لكـون الرضاعة سببًا في التحريم، ولعل إيثار المجاز العقلي لأن المخاطبة وقع في نفسـها شـيء في دخول الرجل الأجنبي بحكم الولادة وإن كان له بها صلة بحكم الرضاعة، كما أنها تساءلت عن مدى تساوي الناس في الحكم، فبين النبي r لها أن الرضـاعة كـالولادة في التحـريم والتحليل، ولما كانت بتلك الحال أكد لها الخبر بإنّ وبتقديم المسند إليه (الرضـاعة)، ومـن التأكيد إسناد فعل التحريم إلى الرضاعة، قال الدكتور سعيد جمعة: ((بلاغـة هـذا المجـاز شاخصة في تصوير الرضاع بصورة صاحب القرار، فهو الذي يحلل ويحرم، فله من السـلطة والنفوذ ما يجعله صاحب سلطان يجب احترامه والخضوع له، وهذا أدعى إلى الالتزام بهـذا الحكم، لما فيه من مبالغة في هذا المجاز))(٢)، ثم قال: ((وهذه لطيفة مـن لطـائف تأكيـد المعاني))(٣)، ولعل الإسناد أيضًا للدلالة على أن السبب متى ما وجد حصل المسبب، لكونها

(١) أخرجه البخاري: (٢٦٤٦ و٣٠١٥ و٥٠٩٩) ، ومسلم: (١٤٤٤).

(٢) من بلاغة النبي r في بيانه عن المرأة: ٣٦٧.

(٣) المرجع السابق: ٣٦٨.

تساءلت عن تنزيل الحكم عليها كما هو لحفصة، ولهذا جاء فعل التحريم مضارعًا للدلالة على تجدد الحكم لكل الناس وفي كل زمان، وعدم اختصاصه بأحد دون أحد[1]، والله أعلم.

ومن الشواهد حديث أبي هريرة t قال: خرج رسول الله r ذات يوم أو ليلة، فإذا هو بأبي بكر وعمر، فقال «مَا أَخْرَجَكُمَا مِنْ بُيُوتِكُمَا هَذِهِ السَّاعَةَ؟» قالا: الجوع، يا رسول الله؟ قال: «وَأَنَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لأَخْرَجَنِي الَّذِي أَخْرَجَكُمَا» الحديث[2].

وفي هذا الحديث أسند النبي r الإخراج إلى الذي أخرج صاحبيه رضي الله عنهما، وهو الجوع، وإلا فإن الإخراج حقيقة من الله U، والخروج من فعل النبي r، لكن لما كان السبب في الخروج هو الجوع أسند إليه الإخراج، على سبيل المجاز العقلي، ولذا سألهما النبي r أولاً بـ(ما) التي يسأل بها غير العاقل، دلالة على أن السؤال وقع عن السبب.

ولعل إيثار النبي r المجاز ليسلي صاحبيه ويخفف عنهما ما هما فيه من مشقة الجوع، فإن شعور المرء بمشاركة غيره له في المصيبة والمشقة يهون عليه ما يجد في نفسه من الهم والضيق والحزن، فكيف إذا كان المشارك رسول الله r، ولذا جاء المسند إليه موصولاً (الذي أخرجكما) للدلالة على أنه الشيء المعروف عند المخاطبين، والله أعلم.

٢- المفعولية.

وفي هذه العلاقة ورد حديث أنس بن مالك t في تصدق أبي طلحة t ببستانه (بيرحاء) وكانت أحب أمواله إليه، وقد سبق الحديث بتمامه[3]، وفيه أن الرسول r قال له: «بَخٍ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِحٌ».

وما فعله أبو طلحة t يقتضي الإعجاب والشكر والثناء، وقد حصل ذلك من النبي r بأساليب متنوعة، منها المجاز العقلي، حيث أسند الربح إلى المال، وإنما المال يُربح، قال العيني (٨٥٥هـ): ((قوله: «مَالٌ رَابِحٌ» بالباء الموحدة أي: يربح فيه صاحبه في

(١) ينظر: المرجع السابق.

(٢) أخرجه مسلم: (٢٠٣٨).

(٣) ينظر ص (٣١٤) من هذا البحث.

الآخرة))[١]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قيل: هو (فاعل) بمعنى (مفعول) أي: هو مال مربوح فيه))[٢].

وإسناد الربح إلى المال فيه تصوير لعظم جزاء أبي طلحة t ، حيث ينمو هذا المال بنفسه ويكثر ويتعاظم، ولا يتحقق مثل هذا التصوير لو جاء الإسناد على الحقيقة فقيل مثلاً: مال مربوح فيه، أو ربح فيه صاحبه، وجاء الإسناد في جملة اسمية للدلالة على ثبوت ذلك الفضل والجزاء ودوامه، كما ذكر سابقًا[٣]، والله أعلم.

ومن شواهد هذه العلاقة حديث ابن اللُّتْبِية t حينما استعمله النبي r على صدقات بني سليم، وقد سبق الحديث بتمامه[٤]، وفيه أنه t جاء بالصدقات وقال: هذا مالكم، وهذا هدية، وفي رواية: وهذا أهدي لي. فأنكر عليه رسول الله r وقال له: «فَهَلاَّ جَلَسْتَ فِي بَيْتِ أَبِيكَ وَأُمِّكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ إِنْ كُنْتَ صَادِقًا».

والشاهد في قوله r : «تَأْتِيَكَ هَدِيَّتُكَ» حيث أسند الإتيان إلى الهدية، وإنما يُؤتى بها إليه، أو أنه هو الذي يأتيها.

وجاء هذا الإسناد في مقام الإنكار على المخاطب وبيان أن الإهداء لم يحصل له لذاته، وإنما بسبب عمله، لإثبات أن الهدية ليست حقًّا له كما ظن في قوله: وهذا أهدي لي؛ وإنما هي حق للعمل الذي كان سببًا في إهدائه[٥]، والله أعلم.

---

(١) عمدة القاري: ٩/٣٠.
(٢) فتح الباري: ٣/٣٢٦.
(٣) ينظر ص (٣١٥) من هذا البحث.
(٤) ينظر ص (١٩٢) من هذا البحث.
(٥) ينظر: شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٢٦٦.

خامسًا: الكناية.

- تعريف الكناية.

الكناية هي تعبير عن المعنى بغير لفظه الموضوع له، وإنما بلفظ يلزم منه ويدل عليه، وقد يراد مع الكناية حقيقة اللفظ.

وعقد عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ) فصلاً تناول فيه إطلاق اللفظ وإرادة غير ظاهره، وذكر منه الكناية، قال: ((والمراد بالكناية هاهنا: أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني، فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود، فيومىء به إليه، ويجعله دليلاً عليه. مثال ذلك قولهم: هو طويل النجاد، يريدون: طويل القامة. وكثير رماد القدر، يعنون: كثير القِرى. وفي المرأة: نؤوم الضحى، والمراد أنها مترفة مخدومة، لها من يكفيها أمرها. فقد أرادوا في هذا كله -كما ترى- معنى، ثم لم يذكروه بلفظه الخاص به، ولكنهم توصلوا إليه بذكر معنى آخر، من شأنه أن يردفه في الوجود، وأن يكون إذا كان. أفلا ترى أن القامة إذا طالت طال النجاد، وإذا كثر القرى كثر رماد القدر، وإذا كانت المرأة مترفة لها من يكفيها أمرها ردف ذلك أن تنام إلى الضحى؟))(١).

وعرف الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) الكناية بقوله: ((لفظ أريد به لازم معناه)) وجَوّز إرادة المعنى الحقيقي للفظ(٢)، لكن ذلك غير مؤثر في مفهوم الكناية؛ لأن المتكلم لو أراد حقيقة اللفظ دون ما يلزم منه لم يكن أسلوب كناية، وحينما يعبر باللفظ كنايةً فإنما أراد ما يلزم منه من غير التفات إلى تحقق معناه.

والكناية بلفظها ومعناها معروفة عند العرب، وفي معجم العين: ((كَنَى فلان يَكْني عن كذا وعن اسم كذا: إذا تكلم بغيره مما يستدل به عليه))(٣).

---

(١) دلائل الإعجاز: ٦٦.

(٢) الإيضاح: ٤/٢٣٧.

(٣) العين: ٥/٤١١، وينظر: لسان العرب: ١٥/٢٣٣، والكناية: ٧ و١١، والأسلوب الكنائي: ٣، والصورة الفنية في الحديث النبوي: ٢٤٢.

- تقسيمات الكناية.

يقسم البلاغيون الكناية إلى ثلاثة أقسام: كناية عن موصوف؛ أو عن صفة، أو عن نسبة الصفة إلى الموصوف، حيث يذكرا جميعًا في اللفظ لكن لا يصرح بالنسبة. كما يقسمونها إلى قريبة وبعيدة، وظاهرة وخفية، وغير ذلك[1].

- بلاغة الكناية.

ذكر بدر الدين بن مالك (٦٨٦هـ) أنه لا يترك التصريح بالشيء إلى الكناية عنه في بليغ الكلام إلا لتوخي نكتة كالإيضاح، أو بيان حال الموصوف، أو مقدار حاله، أو القصد إلى المدح، أو الذم، أو الاختصار، أو الستر، أو الصيانة، أو التعمية والإلغاز، أو التعبير عن الصعب بالسهل، أو عن الفاحش بالظاهر، أو عن المعنى القبيح باللفظ الحسن[2].

وذكر الزركشي (٧٩٤هـ) من ذلك: التنبيه على عظم القدرة، وفطنة المخاطب، وقصد البلاغة، والتنبيه على المصير[3].

ومن محاسن الكناية أنها تبين لك المعاني بأدلتها المحسوسة، وتثبت لك الأحكام ببراهينها الظاهرة، قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): ((أما الكناية فإن السبب في أن كان للإثبات بها مزية لا تكون للتصريح أن كل عاقل يعلم إذا رجع إلى نفسه أن إثبات الصفة بإثبات دليلها، وإيجابها بما هو شاهد في جودها، آكد وأبلغ في الدعوى من أن تجيء إليها فتثبتها هكذا ساذجًا غفلاً، وذلك أنك لا تدعي شاهد الصفة ودليلها إلا والأمر ظاهر معروف، وبحيث لا يشك فيه، ولا يظن بالمخبر التجوز والغلط))[4].

وإذا كان العرب قد حفلوا بهذا الأسلوب البلاغي؛ فإن القرآن الكريم قد اشتمل على كثير منه؛ فقد كنى عن الكرم ببسط اليد، وعن البخل بقبضها أو غلها، وعن الندم والتحسر

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٤/٢٤٧-٢٦٤، والطراز: ١٩٩-٢٠٣، والأسلوب الكنائي: ٧٠-٧٧، ومعجم المصطلحات البلاغية ٣/١٦٢.

(٢) المصباح: ١٤٧.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ٢/٤١٢.

(٤) دلائل الإعجاز: ٧٢، وينظر: شروح التلخيص: ٤/٢٧٥، والأسلوب الكنائي: ٨٧-٨٨، والتصوير البياني: ٤٣٨، وعلم البيان: ٢٦٧.

بعض اليد، وتقليب الكفين، وعن الاستكبار والإعراض بليّ الرؤوس، وتصعير الخد، وعن السفينة بذات ألواح ودسر... وغيرها من الكنايات(١).

- الكناية في أحاديث الصحيحين.

في الحديث النبوي كنايات كثيرة، قال الدكتور محمد الصباغ: ((إن حرص النبي r على التعبير عن المعاني بالصور الحسية جعل نصيب الكناية كبيرًا جدًا))(٢)، وقال الدكتور أحمد ياسوف: ((لقد كانت الصورة الكنائية في الحديث النبوي ضرورة فنية؛ لأنها مادة تصويرية، وضرورة اجتماعية دينية؛ لطابعها التهذيبي، إذ أغنى التلميح عن التصريح وفاقه تأثيرًا وتثبيتًا للمعنى، فالصورة الكنائية في الحديث ذات وظيفتين))(٣).

وورد منها في أحاديث الصحيحين ما راعى فيه النبي r مقتضى حال المخاطب، وسأذكر شواهد على ذلك مصنفة على أقسام الكناية باعتبار المكنّى عنه.

أ- الكناية عن صفة.

وهي أكثر الأقسام ورودًا، ومن شواهدها خطابه r للأنصار y في فتح مكة وبعد غزوة حنين، لما وجدوا عليه وظنوا به غير ما يريد، وخشوا أن يتركهم النبي r ويبقى في مكة مع قومه.

أما حديث فتح مكة فإن النبي r لما قال: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَلْقَى السِّلاحَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَغْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ» قالت الأنصار: أما الرجل فقد أخذته رأفة بعشيرته، ورغبة في قريته، فقال الرسول r لهم: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ» قالوا: لبيك، يا رسول الله. قال: «قُلْتُمْ: أَمَّا الرَّجُلُ فَقَدْ أَخَذَتْهُ رَأْفَةٌ بِعَشِيرَتِهِ، وَرَغْبَةٌ فِي قَرْيَتِهِ؟» قالوا: قد كان ذاك. قال: «أَلا فَمَا اسْمِي إِذًا» ثلاث مرات «أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولِهِ، هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ، **فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ**» فأقبلوا إليه يبكون، ويقولون: والله ما قلنا

(١) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢/٤١٢، ومن بلاغة النظم القرآني/٣٩٣.

(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي: ٥٦٤، وينظر: الطراز: ١٩١، والبيان المحمدي: ٧٦٧، والصورة البيانية في الحديث النبوي: ٢٥٤.

(٣) الصورة الفنية في الحديث النبوي: ٢٥١.

الذي قلنا إلا الضِّنّ بالله وبرسوله، فقال الرسول r: «إِنَّ اللهَ وَرَسُولَهُ يُصَدِّقَانِكُمْ وَيَعْذِرَانِكُمْ»(١).

وأما حديث غزوة حنين فقد سبق بتمامه(٢)، وفيه قال النبي r للأنصار: «لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِن الأنْصَارِ، **وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأنْصَارِ وَشِعْبَهَا**. الأنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ».

إن الأنصار y ذوو قلوب لينة ونفوس مرهفة، ولشدة حبهم لرسول الله r ورغبتهم في ملازمته خشوا في هذين الموقفين أن يميل النبي r إلى قومه ويبقى في مكة ويدعهم وهم الذين أيدوه وناصروه وآووه حين آذاه قومه وطردوه، فقال الأنصار ما قالوا، فاقتضى ذلك من النبي r أن يعاتبهم على ظنهم، ويطيب قلوبهم، ويطمئنهم بما يحبون، وسلك في ذلك عدة أساليب بلاغية، ومنها الكناية في قوله: «هَاجَرْتُ إِلَى اللهِ وَإِلَيْكُمْ، فَالْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ» أي: أحيا معكم أينما كنتم، ووفاتي فيكم، وهذا كناية عن ملازمتهم وعدم مفارقتهم، قال النووي (٦٧٦هـ): ((معناه أني هاجرت إلى الله وإلى دياركم لاستيطانها، فلا أتركها، ولا أرجع عن هجرتي الواقعة لله تعالى، بل أنا ملازم لكم، «الْمَحْيَا مَحْيَاكُمْ، وَالْمَمَاتُ مَمَاتُكُمْ» أي: لا أحيا إلا عندكم، ولا أموت إلا عندكم))(٣). والتعبير بالحياة معهم والموت فيهم يؤكد لهم أن النبي r لن يفارقهم أبدًا حتى بعد وفاته، و لم يقل النبي r: المحيا في دياركم والممات فيها، وإنما قال: محياكم ومماتكم، وفي هذا ما يشعرهم بأن النبي r معهم أينما كانوا، وليس في المدينة فحسب.

وفي الموقف الثاني يكني النبي r عن رغبته فيهم وملازمته لهم بقوله: «لَوْلا الْهِجْرَةُ لَكُنْتُ امْرَءًا مِن الأنْصَارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا وَشِعْبًا لَسَلَكْتُ وَادِيَ الأنْصَارِ وَشِعْبَهَا، الأَنْصَار شِعَار، وَالنَّاس دِثَار» فسلوك وادي الأنصار وشعبها دون أودية غيرهم ولو كانوا قومه يدل على رغبته فيهم وملازمته لهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

(٢) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

(٣) شرح صحيح مسلم: ١٢/١٢٩، وينظر: مشكاة المصابيح: ١١/٣٣٣.

وقد أسهم في تحقيق معنى الكناية المقابلة بين الناس والأنصار، وسيأتي بيانها في المبحث القادم، وكذلك التشبيه البليغ في قوله: «الأَنْصَار شِعَار، وَالنَّاس دِثَار» حيث شبه الأنصار بالشعار، وهو الثوب الذي يلي الجسد، في مقابل تشبيه الناس بالدثار، وهو الثوب الذي فوق الشعار[1]، قال العيني (٨٥٥هـ): ((وهو كناية عن فرط قربهم منه، وأراد أنهم بطانته وخاصته، وأنهم ألصق به وأقرب إليه من غيرهم))[2].

ويمكن للنبي r أن يعبر عن الملازمة فيقول مثلاً: أنا ملازم لكم أينما كنتم، لكن النبي r سلك سبيل الكناية لما فيها من تصوير رغبته فيهم وملازمته لهم بدليل محسوس ينتقش في ذاكرتهم ويتردد في وجدانهم، مبالغة في تطمينهم في مقابل ظنهم وشدة ما وجدوا في أنفسهم، وفي هذا مزيد تقرير وتأكيد للمعنى، والله أعلم.

ب- الكناية عن موصوف.

مما وجدته شاهدًا لمراعاة حال المخاطب في هذا القسم خطبته r قبل لقاء العدو في غزوة الأحزاب، لتثبيت الناس وتصبيرهم وبث التفاؤل بالنصر في نفوسهم، وقد سبقت بتمامها، وفيها قال: «أَيُّهَا النَّاسُ، لا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَسَلُوا اللهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ **الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ**».

وذكرت من قبل أن النبي r في هذه الغزوة يدرك حاجة المؤمنين إلى التثبيت والتنشيط إلى الجهاد في ذلك اليوم العصيب، الذي وجد فيه المؤمنون شدة وابتلاء، اجتمع فيه شدة الريح والبرد، وحصار المشركين، ونقض اليهود للعهود، وخذلان المنافقين، وتخذيلهم، وحينما تقترب لحظة المواجهة، فإن المؤمنين أحوج ما يكونون فيها إلى التثبيت والتصبير والترغيب في الجهاد، حتى لا تفتر الهمم وتضعف النفوس أمام قوة الأعداء المحاصرين، خاصة أن المؤمنين في موقف المدافع وهو موقف عادة ما يكون أقل قوة من موقف المهاجم، ولذلك اختار النبي r في هذه اللحظة الخطابة التي تعد أقوى الوسائل

(١) ينظر في معنى (الشعار والدثار): لسان العرب: ٤/٢٧٦ و٤١٣.

(٢) عمدة القاري: ١٧/٣٠٩، وينظر: فتح الباري: ٨/٥٢.

التعبيرية تأثيرًا وإلهابًا للنفوس، وضمنها من المعاني ما يؤدي الغرض، ومن ذلك الكناية في قوله: «وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ».

و(ظلال السيوف) كناية عن الجهاد ومقارعة الأعداء، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((قال ابن الجوزي: المراد أن الجنة تحصل بالجهاد، والظلال جمع ظل، وإذا تدانى الخصمان صار كل منهما تحت ظل سيف صاحبه، لحرصه على رفعه عليه، ولا يكون ذلك إلا عند التحام القتال))(١)، والكناية عن الجهاد كناية عن موصوف.

وفي قوله ﷺ: «الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ» كناية عن نسبة، أي أن الجهاد سبب موصل إلى الجنة، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قال العلماء: معناه: إن الجهاد وحضور معركة القتال طريق إلى الجنة وسبب لدخولها))(٢).

ولو قال النبي ﷺ: اعلموا أن الجهاد سبب لدخول الجنة، لأفاد الحض على الجهاد، لأن المخاطبين ممن يشتاق إلى الجنة ويسعى في طلبها، لكن هذا الحض عام يدخل فيه كل من شارك في الغزو، فهو حض لا يريده النبي ﷺ في هذا الموقف الذي يحتاج إلى صد للأعداء ومقارعة لهم وقوة في مواجهتهم، ولذا سلك النبي ﷺ سبيل الكناية لما فيها من مبالغة في أداء المعنى الذي يريده النبي ﷺ، فهي تصور المجاهد الذي يستحق الجنة منغمسًا في العدو مقبلاً غير مدبر، شجاعًا غير هياب ولا وجل، وتشعره بأنه حال قتاله ومقارعته للعدو يعيش في الجنة، ولا شك أن في هذا التصوير ما يدفع المخاطبين إلى القتال ومجاهدة الأعداء، والله أعلم.

قال القرطبي (٦٥٦هـ): ((هذا من الكلام النفيس البديع، الذي جمع ضروبًا من البلاغة، مع جزالة اللفظ وعذوبته وحسن استعارته، وشمول المعاني الكثيرة، مع الألفاظ المعسولة الوجيزة، بحيث تعجز الفصحاء اللُّسْن البلغاء عن إيراد مثله، أو أن يأتوا بنظيره وشكله، فإنه استفيد منه مع وجازته الحض على الجهاد، والإخبار بالثواب عليه، والحض على مقاربة العدو، واستعمال السيوف والاعتماد عليها، واجتماع المقاتلين حين الزحف

---

(١) فتح الباري: ٣٣/٦، وينظر: شرح صحيح مسلم: ٤٦/١٢، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ١٥٩/٣، وعمدة القاري: ١١٥/١٤، والكناية في الحديث الشريف: ١٤٤.

(٢) شرح صحيح مسلم: ٤٦/١٣.

بعضهم لبعض حتى تكون سيوفهم بعضها يقع على العدو، وبعضها يرتفع عنهم، حتى كأن السيوف أظلت الضاربين بها))[1].

ت- الكناية عن نسبة.

وفي الحديث السابق شاهد لها كما ذُكر.

ومن الشواهد أيضًا حديث أسماء رضي الله عنها أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن لي ضرة، فهل علي جناح إن تشبعت من زوجي غير الذي يعطيني؟ فقال رسول الله r: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ **كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ**»[2].

وقول المرأة: (تشبعت) أي: أظهرت أكثر مما يعطيني، وقوله r: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ» أي: المتكثر بأكثر مما عنده، وفي هذا استعارة حال الذي يظهر الشبع وليس كذلك لحال من يظهر أكثر مما عنده، قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((استعير للمتحلي بفضيلة لم ترزق، وليس من أهلها))[3].

وشبه المتشبع بما لم يعط بلابس ثوبي زور، والثوبان: الإزار والرداء، وقيل غير ذلك[4]، وأضاف الزور إليهما، وإنما الزور صفة لابسهما، فهو كناية عن نسبة الزور إليه، إليه، فشبه المتشبع بالمزور الكاذب المتلبس بالباطل[5].

قال الزمخشري (٥٣٨هـ): ((شبه بلابس ثوبي زور، أي: ذي زور، وهو الذي يزور على الناس، بأن يتزيا بزي أهل الزهد، ويلبس لباس ذوي التقشف رياء، وأضاف الثوبين إلى الزور؛ لأنهما لما كانا ملبوسين لأجله فقد [اختصاصًا][6] سوغ إضافتهما إليه.

---

(١) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم: ٥٢٥/٣-٥٢٦.

(٢) أخرجه البخاري: (٥٢١٩) ، ومسلم: (٢١٣٠).

(٣) الفائق: ٢١٧/٢، وينظر: فتح الباري: ٣١٨/٩.

(٤) ينظر: غريب الحديث، لأبي عبيد: ٢٥٣/٢-٢٥٤، وشرح صحيح مسلم: ١١٠/١٤-١١١، وفتح الباري: ٣١٨/٩، وعمدة القاري: ٢٠٤/٢٠، ولسان العرب: ٢٤٦/١.

(٥) ينظر: شرح الكرماني: ١٥٩/١٩-١٦٠، وعمدة القاري: ٢٠٤/٢٠.

(٦) هكذا اللفظة في النسخة التي رجعت إليها، ولعلها زائدة طباعة.

أو أراد أن المتحلي كمن لبس ثوبين من الزور، قد ارتدى بأحدهما، وائتزر بالآخر، كقوله[1]:

إِذا هُوَ بِالْمَجدِ ارْتَـــدَى وتَـــأَزَّرا

وقوله[2]:

يَجُرُّ رِباطَ الْحَمْدِ في دارِ قَومِـــهِ

وقول ذي الرمة[3]:

على كُلِّ كَهْلٍ أَزْعَكِـــيٍّ ويـــافعٍ مِن اللُّؤمِ سِربالٌ جَديـــدُ البَنَـــائِقِ))[4].

وذكر بعض أهل العلم أن في تثنية الثوب إشارة إلى أن المزور منغمس في الزور مـــن رأسه إلى قدمه، أو أنه حصل له بالتشبع حالتان مذمومتان: فقدان ما يتشبع بـــه، وإظهـــار الباطل[5]، وقال ابن حجر (٨٥٢هــ): ((وأما حكم التثنية في قوله: «ثَوْبَيْ زُورٍ» فللإشارة فللإشارة إلى أن كذب المتحلي مثنى؛ لأنه كذب على نفسه بما لم يأخذ، وعلى غيره بمـــا لم يعط، وكذلك شاهد الزور يظلم نفسه، ويظلم المشهود عليه. وقال الـــداودي: في التثنيـــة إشارة إلى أنه كالذي قال الزور مرتين، مبالغة في التحذير من ذلك))[6].

وهذه المعاني التي أظهرت في صورة لابس ثوبي الزور توحي بشناعة التزوير وتصـــنع الحق بالباطل، ولعل ذلك كان السبب في إيثار النبي r لأسلوب الكناية دون التصريح، لأن

---

(١) هذا عجز بيت، وصدره: فَلا أَبَ وابنًا مثلُ مَروانَ وابنِه، وينظر البيت بلا نسبة في كتـــاب ســـيبويه: ٢/٢٨٥، والمقتضب: ٤/٣٧٢، وشرح الرضي على الكافية: ٢/٢٢٨، وفي خزانة الأدب، للبغدادي: ٤/٦٧: ((هذا البيت مـــن أبيات سيبويه الخمسين التي لا يعرف لها قائل. وقال ابن هشام في (شواهده): إنه لرجل من عبد مناة بن كنانـــة، والله أعلم)).

(٢) لم أتمكن من معرفة قائله.

(٣) البيت في ديوانه: ١/٢٦٢. والأزعكي: القصير اللئيم، وينظر: لسان العرب: ١٠/٤٣٦.

(٤) الفائق: ٢/٢١٧، وينظر: غريب الحديث، لأبي عبيد: ٢/٢٥٣-٢٥٤، وشرح صحيح مسلم: ١٤/١١٠-١١١، ١١١، وفتح الباري: ٩/٣١٨، وعمدة القاري: ٢٠/٢٠٤.

(٥) ينظر: شرح الكرماني: ١٩/١٦٠، وفتح الباري: ٩/٣١٨، وعمدة القاري: ٢٠/٢٠٤.

(٦) فتح الباري: ٩/٣١٨.

المقام مقام تنفير للمرأة عن فعل ما ذكرت، لكونه سببًا للبغضاء وفساد الحياة الزوجية[١]، ولقد تعاضد التشبيه والاستعارة والكناية في أداء الغرض من التعبير، والله أعلم.

(١) ينظر: فتح الباري: ٩/٣١٨.

المبحث الثاني: ملاءمة الفنون البديعية لحال المخاطب.

ترد المادة (ب د ع) في اللغة دالة على معاني الجدة والحداثة والاختـــراع والعَجَـــب وبلوغ الغاية في الشيء[١].

أما مصطلح (البديع) في التأليف البلاغي فقد بدأ مبكرًا، إلا أنه لم يكن منفكًا عـــن الدلالة اللغوية، ثم كان إطلاقه على فنون البلاغة ومسائلها المختلفة مرادفًـــا لمصـــطلحات: البلاغة والفصاحة والبيان، إلى أن جاء السكاكي (٦٢٦هـــ) في القرن الســـابع الهجـــري وقسم مسائل البلاغة ومباحثها إلى مباحث ينظمها علم المعاني، وأخرى ينظمها علم البيان، وبقيت بعد ذلك مباحث أو وجوه مخصوصة -كما سماها- كثيرًا ما يصار إليهـــا لقصـــد تحسين الكلام، وقسمها قسمين: قسم يرجع إلى المعنى، وقسم يرجع إلى اللفظ[٢].

ثم جاء بعده ابن الناظم (٦٨٦هـــ) فعد البديع علمًا من علوم البلاغة يعـــرف منـــه توابع البلاغة من طرق الفصاحة[٣]، ثم جاء الخطيب القزويني (٧٣٩هـــ) وحدد له مفهومًا يميزه عن علمي المعاني والبيان، فقال: ((هو علم يعرف به وجوه تحسين الكلام، بعد رعايـــة تطبيقه على مقتضى الحال ووضوح الدلالة))[٤]، وتبع السكاكي (٦٢٦هـــــ) في تقســـيم وجوه البديع وفنونه إلى لفظية ومعنوية[٥].

وتعريف القزويني (٧٣٩هـــ) يفهم منه أن تحسين الكلام لا يكون إلا لهذه الوجوه، وأن تحسينها تحسين عرضي، لا تحسين ذاتي، لأن وصف البلاغة حصل للكلام بمراعاة أحوال اللفظ على ما يقتضيه الحال كما في علم المعاني، ومراعاة وضوح الدلالة على ما هو في علم البيان، وأما هذه المحسنات البديعية فتأتي بعد الحسن الذاتي لتزيد الكلام حسنًا وقبولاً، وقـــد قال القزويني (٧٣٩هـــ) بعد أن عرف بلاغة الكلام: ((وإذ قد عرفت معـــنى البلاغـــة في

(١) ينظر: لسان العرب: ٦/٨.

(٢) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٢٣، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٣٧٩/١ و٣٨٢، وعلم البديع، لفيود: ٧/١، والبديع، لعبد الواحد علام: ١٣، والبديع، لجميل عبد المجيد: ١٣ و٢٢، ومقاييس البلاغة: ٦٦٦.

(٣) المصباح: ٥.

(٤) التلخيص: ٨٦، والإيضاح: ٢٨٢/٤.

(٥) ينظر: التلخيص: ٨٦، والإيضاح: ٢٨٥/٤.

الكلام وأقسامها ومراتبها، فاعلم أنه يتبعها وجوه كثيرة غير راجعة إلى مطابقة مقتضى الحال ولا إلى الفصاحة، تورث الكلام حسنًا وقبولاً))[1]، قال التفتازاني (٧٩٢هـ) في شرح التلخيص: ((وفي قوله: يتبعها، إشارة إلى أن تحسين هذه الوجوه للكلام عرضي خارج عن حد البلاغة))[2]، وخروج المحسنات البديعية عن حد البلاغة هو صنيع القزويني (٧٣٩هـ) صراحة حينما عقد مقدمة عنون لها بـ(الكشف عن معنى الفصاحة والبلاغة، وانحصار علم البلاغة في علم المعاني والبيان)[3]، وصرح التفتازاني (٧٩٢هـ) بأن المحسنات البديعية خارج البلاغة[4].

وقد جرى أكثر المؤلفين بعد القزويني (٧٣٩هـ) على ما جرى عليه في تمييز البديع وتعريفه؛ إلا أن من العلماء والباحثين من لم يرتض النظر إلى الفنون البديعية على أنها تحسين عرضي لا علاقة لها بمراعاة مقتضى الحال، كما قال الدكتور فيود: (ونظرة المتأخرين -الخطيب وأتباعه- إلى فنون البديع على أنها مجرد محسنات، حسنها حسن عرضي، يأتي بعد تمام المطابقة ووضوح الدلالة نظرة غير سديدة، ولا تتمشى مع نظرة المتقدمين الذين جعلوا الحسن في تلك الفنون حسنًا ذاتيًا، يقتضيه المقام ويدعو إليه الحال)[5].

وهذا قول سديد؛ لأن المحسنات البديعية كغيرها من أساليب البلاغة، إما أن يقتضيها المقام فيكون استعمالها حسنًا بليغًا، أو لا يقتضيها المقام فيكون استعمالها معيبًا، وتدخل في قول الخطيب القزويني (٧٣٩هـ) بعد أن قرر أهمية مراعاة مقتضى الحال في بلاغة الكلام: ((وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته... وارتفاع شأن الكلام في الحسن والقبول بمطابقته للاعتبار المناسب، وانحطاطه بعدم مطابقته له، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب))[6].

---

(١) الإيضاح: ١/١٤٠.

(٢) مختصر المعاني: ١/١٤١.

(٣) الإيضاح: ١/٦٥.

(٤) مختصر المعاني: ١/١٣٢.

(٥) علم البديع: ١/١٢١، وينظر: الصبغ البديعي: ٣٠٤ و٤٧٠ و٤٩٨، والبديع، لعلام: ٦٩، والبديع، لجميل عبدالمجيد: ٣١.

(٦) الإيضاح: ١/١٢٢ و١٣٠.

ولا ينبغي أن يكون الولع بالمحسنات البديعية في مدة من الزمن مسوغًا لأن تكون مقصودة بذاتها ولو لم يقتضها المقام، حتى صار عدد المحسنات معيارًا للتفضيل بين النصوص، وصار البلاغيون يتنافسون في اكتشاف المحسنات البديعية وتشقيقها، حتى إن الشوكاني ألف رسالة سماها (الروض الوسيع في الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع)[١]، وقال السيوطي (٩١١هـ): ((رأيت بديعية فيها أكثر من مائتي نوع))[٢]، وقال مرعي الحنبلي (١٠٣٣هـ): ((أنواع البديع كثيرة جدًّا تزيد على المائتين))[٣]، وذكرت محققة (طراز الحلة) أن الأنواع بلغت أكثر من أربعمائة نوع[٤]، وذكر الشوكاني أن بعض علماء الديار القاصية أخبره أن الأنواع قد انتهت عندهم إلى سبعمائة نوع[٥]، ((وقد عدّ صفي الدين الحلي وأتباعه من أنواع البديع: الإبداع، بالباء الموحدة، وفسروه بأن تكثر أنواع البديع في البيت))[٦]، قال الدكتور حامد الربيعي في حديثه عن علم البديع: ((ازداد بمرور الأيام الشغف بالبديع، والجري وراء فنونه، حتى صار غاية في حد ذاته، فغلب التصنع على فن الأدب واستحكم، حتى شاع وذاع أن لا غنى عن الأصباغ البديعية.

وهنا لم يجد البلاغيون بدًا من مسايرة ما يجري في الحياة الأدبية، والبيئة العملية، فاتجهوا إلى إقامة الأصول النظرية لذلك تحت علم واحد يجمع قضاياها وفروعها على نسق المعاني والبيان.

ففنون البديع لم تدخل ميدان التقعيد العلمي إلا عندما أصبحت أداة للتصنع، وغاية من الغايات التي يسعى الأدب من أجلها))[٧].

---

(١) طبعت بتحقيق: محمد صبحي حلاق، ضمن كتاب (الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني: ١٢/٦٠٧٧-٦١٠٠) ، وبتحقيق: بن عيسى بطاهر وطاهر قحطان، في العدد الأول من المجلد الحادي عشر من مجلة (عالم المخطوطات والنوادر).

(٢) شرح عقود الجمان: ١٠٥.

(٣) القول البديع: ٥٣.

(٤) طراز الحلة وشفاء الغلة: ١٩ من مقدمة المحققة.

(٥) كلام في فن المعاني والبيان، ضمن (الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني): ١٢/٦٠٧٦.

(٦) شرح عقود الجمان: ١٠٥، وينظر: تحرير التحبير: ٦١١، وشرح الكافية البديعية: ٢٩٢، وخزانة الأدب، لابن حجة: ٢/٢٩١.

(٧) مقاييس البلاغة: ٦٨٥، وينظر: دراسات في علم البديع: ٥.

وبمثل هذه النظرة إلى علم البديع فإنه لا قيمة معنوية لفنون البديع، ولا أسرار ونكات تنطوي عليها، وهذا ما جعل كثيرًا من المعلمين والمتعلمين ينظرون إلى علم البديع نظرة انتقاص، قال الدكتور أحمد محمد علي: ((إنني ما زلت أذكر موقف مدرس البلاغة في المرحلة الثانوية من علم البديع، فقد كان ينتقص من قدره، ويترل بمكانته، ولا يرى فيه قيمة بلاغية أكثر من تحسين الكلام وتزيينه، وقد تبين لي فيما بعد أن هذه النظرة لها ذيوع وانتشار في التراث البلاغي عند المتأخرين))[١].

ويعمق هذا الانتقاص لعلم البديع ما ذكره بعض البلاغيين من أن الفن البديعي إذا كانت له نكتة بلاغية اقتضاها المقام فهو من علم المعاني، وإذا خلا منها فهو في علم البديع، كما قال الدسوقي (١٢٣٠هـ): ((اعلم أن المحسنات البديعية إنما يكون تحسينها عرضيًا إذا اعتبرت من حيث إنها محسنة، وهي من هذه الجهة يبحث عنها في علم البديع، وأما إذا اعتبرت من حيث إنها مطابقة لمقتضى الحال لكون الحال اقتضاها كانت موجبة للحسن الذاتي، ومن هذه الجهة يبحث عنها في علم المعاني))[٢].

وجرى أكثر البلاغيين الذين نهجوا نهج السكاكي (٦٢٦هـ) والقزويني (٧٣٩هـ) على تقسيم المحسنات البديعية إلى: محسنات معنوية، ومحسنات لفظية. وزاد بعضهم قسمًا ثالثًا يتعلق بالمعنى واللفظ معًا[٣].

وأظن أن السكاكي (٦٢٦هـ) والخطيب القزويني (٧٣٩هـ) قصدا من هذا التقسيم مجرد التصنيف العقلي للمحسنات البديعية، ولم يقصدا إلى أن المحسنات اللفظية مطلوبة لذات اللفظ من غير اعتداد بالمعنى ابتداء، وإن فسره بذلك من جاء بعدهما من الشراح، والدليل على ذلك أن السكاكي (٦٢٦هـ) في خاتمة الوجوه البديعية قال: ((وأصل الحسن في جميع ذلك أن تكون الألفاظ توابع للمعاني لا أن تكون المعاني لها توابع))[٤]، وكذا قال القزويني (٧٣٩هـ) في شأن المحسنات اللفظية: ((وأصل الحسن في

---

(١) دراسات في علم البديع: ٤، وينظر: الصبغ البديعي: ٤٧٠.

(٢) حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: ١/١٣١، وينظر: مواهب الفتاح: ١/٤٦٤ و٢/١٦٥، ودراسات في علم علم البديع: ٤، والبديع، لعلام: ٧٤.

(٣) ينظر: التبيان، للطيبي: ٢/٣٤٥، وعروس الأفراح: ٤/٢٨٥، وطراز الحلة: ٩١.

(٤) مفتاح العلوم: ٤٣٢.

جميع ذلك -أعني القسم اللفظي- كما قال الشيخ عبد القاهر، هو أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني، فإن المعاني إذا أرسلت على سجيتها وتركت وما تريد طلبت لأنفسها الألفاظ، و لم تكتس إلا ما يليق بها، فإن كان خلاف ذلك كان كما قال أبو الطيب:

إذا لَمْ تُشاهِدْ غيرَ حُسنِ شِياتِها وأَعضائِها فالحُسنُ عَنكَ مُغَيَّبُ[1]

وقد يقع في كلام بعض المتأخرين ما حمل صاحبَه فرطُ شغفه بأمور ترجع إلى ما له اسم في البديع، على أن ينسى أنه يتكلم ليفهم، ويقول ليبين، ويخيل إليه أنه إذا جمع عدة من أقسام البديع في بيت فلا ضير أن يقع ما عناه في عمياء، وأن يوقع السامع طلبه في خبط عشواء))[2].

ومع أن هذه اللفتة تعد جوهرية مهمة في النظر إلى المحسنات البديعية وتناولها، إلا أن تعريف علم البديع والطريقة العقلية في تناول المحسنات يؤديان إلى غير ما ذكراه هنا في هذين التنبيهين المهمين[3].

وأظن أيضًا أن تقسيم البديع إلى لفظي ومعنوي قد يكون نابعًا من كلام عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، فهو يذكر أن ((الكلام الفصيح ينقسم قسمين: قسم تعزى المزية والحسن فيه إلى اللفظ، وقسم يعزى ذلك فيه إلى النظم))[4]، ويشير إلى أن من الفنون ما يكون النظر فيه إلى المعنى أجلى وأظهر، وأن من الفنون ما يبرز فيه جانب اللفظ إلا أن المعنى هو الذي اجتلبه وقاد المتكلم إليه، ومن ذلك قوله: ((وها هنا أقسام قد يُتوهم في بدء الفكرة، وقبل إتمام العبرة، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس، إلى ما يناجي فيه العقلُ النفسَ، ولها إذا حُقق النظر مرجع إلى ذلك، ومنصَرف فيما هنالك، منها: التجنيس والحشو))[5]، وقال في التجنيس: ((واعلم أن النكتة التي ذكرتها في التجنيس، وجعلتُها العلة

(١) ديوان المتنبي بشرحه (العرف الطيب): ٣٣٧/٢، وقال الشارح اليازجي: ((الشيات: الألوان... يقول: إذا لم تر من الخيل إلا ما يظهر لك من حسن ألوانها وأعضائها فقد غابت معرفة حسنها عنك، يعني أن حسنها فيما وراء ذلك من جريها وطباعها)).

(٢) الإيضاح: ٤٦٧/٤، وكلام عبد القاهر في أسرار البلاغة: ٩ و١٤.

(٣) ينظر: مقاييس البلاغة: ٦٨٤.

(٤) دلائل الإعجاز: ٤٢٩.

(٥) أسرار البلاغة: ٦.

في استيجابه الفضيلة، وهي حُسن الإفادة، مع أن الصورة صورة التكرير والإعـادة...))[1]، وقال في الطباق: ((وأما التطبيق، فأمره أبين، وكونه معنويًا أجلى وأظهر، فهو مقابلة الشيء بضده))[2].

ومع هذا فإن الجرجاني لم ينظر إلى الفنون البديعية والبلاغية عامة من زاوية اللفظ وحده، بل إنه يرى أن مدار الحسن والقبح إنما هو على المعاني، قال: ((وأما التطبيق والاستعارة وسائر أقسام البديع، فلا شبهة أن الحسن والقبح لا يعترض الكلام بهما إلا من جهة المعاني خاصة، من غير أن يكون للألفاظ في ذلك نصيب، أو يكون لها في التحسين أو خلاف التحسين تصعيد وتصويب))[3]، وقد قال من قبل بعد أن ذكر أمثلة للجناس المعيب الخالي من الفائدة والحسن المشتمل عليها: ((تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة، أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن))[4].

وقد أنكر جمع من المتأخرين هذا التقسيم للآثار السلبية التي يؤول بالبلاغة إليها، منها العودة إلى ثنائية اللفظ والمعنى، والشكل والمضمون، والفصل بينهما، والنظر إلى المحسنات اللفظية على أنها لا قيمة معنوية لها. وبالغ بعضهم في الإنكار وتوهم الآثار السلبية، حتى إنك لتظن أن البلاغيين قصدوا إلى حصولها. والنقد الموضوعي يأبى مثل ذلك[5].

وبعد، فإن فنون البديع التي لها قيمة معنوية ونكتة بلاغية، يقودها المقام إلى النص، لتضيف إليه حسنًا وتأثيرًا، كما قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): ((ولن تجد أيمن طائرًا، وأحسن أولاً وآخرًا، وأهدى إلى الإحسان، وأجلب للاستحسان، من أن ترسل المعاني على سجيتها، وتدعها تطلب لأنفسها الألفاظ، فإنها إذا تركت وما تريد لم تكتس إلا ما يليق بها، ولم تلبس من المعارض إلا ما يَزينها. فأما أن تضع في نفسك أنه لا بد من أن

---

(١) المرجع السابق: ١٧.

(٢) المرجع السابق: ٢٠.

(٣) المرجع السابق.

(٤) المرجع السابق: ٨.

(٥) ينظر: الصبغ البديعي: ٥٠٨، وعلم البديع، لفيود: ١/١٢١، والبديع، لعلام: ٧٠، ومقاييس البلاغة: ٦٨٥، والبديع في القرآن: ١٠٥، ومنهج عبد القاهر الجرجاني في تعامله مع البديع: ٧٥٧.

تجنس أو تسجع بلفظين مخصوصين، فهو الذي أنت منه بعَرَض الاستكراه، وعلى خطر من الخطأ والوقوع في الذم))[١].

وهذا شأن البلاغة النبوية، فإنها حوت أكثر الفنون البديعية التي ذكرها المحققون من علماء البلاغة[٢]، لكنها جاءت مراعاة لمقتضى الحال، ولما كان البحث يتناول مقتضى حال المخاطب فإني ذاكر شواهد على ذلك مصنفة على جملة من الفنون البديعية التي ذكرتها تمثيلاً لا حصرًا.

وسأذكر من هذه الفنون: حسن الابتداء، والطباق والمقابلة، والمشاكلة، والجناس، والسجع، وحسن الختام.

ورتبتها حسب ذكرها عند القزويني (٧٣٩هـ)، كما هو المنهج العام في هذا البحث، إلا أني بدأت بحسن الابتداء، لمناسبة الابتداء به.

(١) أسرار البلاغة: ١٤.

(٢) ينظر: المحسنات البديعية في الصحيحين: ٣٥٢، والبديع في صحيح مسلم: ٥٧٣.

أولاً: حسن الابتداء.

بحثه البلاغيون بأسماء عديدة، منها: حسن الابتداءات، وحسن المطلــع أو المطــالع، وحسن الافتتاح، ومبادئ الكلام، والإبداع في الاســتهلال، وبراعــة المطلــع، وبراعــة الاستهلال[1].

وفرع بعض البلاغيين (براعة الاستهلال) من (حسن الابتداء) إذا كــان الابتــداء مضمنًا فيه ما يشير إلى المقصود[2].

وقد عني البلاغيون بحسن الابتداء، وجعلوه دليلاً على جودة البيان، وعــدوه مــن المواضع التي ينبغي على المتكلم أن يتأنق فيها غاية التأنق، لأنه أول ما يطرق السمع ويصــل إلى القلب، فإن كان الابتداء حسنًا أقبل السامع على الكلام فوعــاه، وإلا أعــرض عنــه وجفاه[3].

ولقد جاءت الابتداءات النبوية في غاية من الحسن والبلاغة، ومما روعي فيه مقتضى حال المخاطب رسالته **r** إلى قيصر، وسبق ذكرها بتمامها[4]، وقد افتتحها النبي **r** بتحيــة السلام بقوله: «**سَلامٌ عَلَى مَن اتَّبَعَ الْهُدَى...**».

وحسن ابتداء الرسائل بالسلام هو هدي النبي **r** في رســائله المرويــة إلى الملــوك والرؤساء الذين يدعوهم إلى دين الله **U**[5].

وقد جُعِل الابتداء بالتحية بالسلام من حسن الابتداء وبراعة الاستهلال[6].

---

(١) ينظر: العمدة: ١/٢١٧، والمثل السائر: ٣/١١٩، وشروح التلخــيص: ٤/٥٣١، والتبيــان، للطــيبي: ٢/٤٨٣، وشرح الكافية البديعية: ٥٧، وخزانة الأدب، لابن حجة: ١/١٩، ومعجــم المصــطلحات البلاغيــة: ١/٣٠ و٢٦٣ و٣٨٨ و٤٠٠، و٢/٤٤١، والبديع في القرآن: ٣١٩-٣٢٠.

(٢) ينظر: شروح التلخيص: ٤/٥٣٣، والتبيان، للطيبي: ٢/٤٨٣، ومعجم المصطلحات البلاغية: ١/٣٨٩.

(٣) ينظر: كتاب الصناعتين: ٤٣١، والعمدة: ١/٢١٨، والمثل السائر: ٣/١٢٠، وتحرير التحــبير: ١٦٨، وشــروح التلخيص: ٤/٥٣١، ومقدمة ابن النقيب: ٢٨٦، والقول البديع: ١١٦.

(٤) ينظر ص (٥٩) من هذا البحث.

(٥) ينظر ص (٨٧) من هذا البحث.

(٦) ينظر: بلاغة النظم في آيات التحية: ٨٥، وبلاغة أساليب التحية في الشعر العربي: ٦٥.

والابتداء بالسلام، وبناء جملته في الخطاب النبوي يراعي مقتضى حال المخاطب؛ لأن المخاطب ملك عظيم، وقد يظن أن دعوته إلى الإسلام ودخوله فيه يقتضي منازعته في ملكه وزواله عنه، فأراد النبي r أن يشعره من أول وهلة بالطمأنينة على ملكه إذا أسلم، لأن المقصود من الدعوة الدخول في الإسلام، لا منازعة الملك والاستيلاء عليه.

وذكر الفخر الرازي (٦٠٦هـ) السبب في ابتداء الإنسان لغيره بالسلام، فقال: ((دفع الشر أهم من جلب الخير، ويدل عليه وجوه: الأول: أن دفع الشر يقتضي إبقاء الأصل [وإبقاء الأصل] أهم من تحصيل الزائد. والثاني: أن إيصال الخير إلى [كل] أحد ليس في الوسع، أما كف الشر عن كل أحد داخل في الوسع؛ لأن الأول فعل، والثاني ترك، وفعل ما لا نهاية له غير ممكن، أما ترك ما لا نهاية له ممكن. والثالث: أنه إذا لم يحصل دفع الشر فقد حصل الشر، وذلك يوجب حصول الألم والحزن، وهو في غاية المشقة، وأما إذا لم يحصل أيضًا إيصال الخير بقي الإنسان لا في الخير ولا في الشر، بل على السلامة الأصلية، وتحمل هذه الحالة سهل. فثبت أن دفع الشر أهم من إيصال الخير، وثبت أن الدنيا دار الشرور والآفات والمحن والبليات، وثبت أن الحيوان في أصل الخلقة وموجب الفطرة منشأ للشرور. وإذا وصل إنسان إلى إنسان كان أهم المهمات أن يعرفه أنه منه في السلامة والأمن والأمان، فلهذا السبب وقع الاصطلاح على أن يقع ابتداء الكلام بذكر السلام))(١).

وشعور هرقل بالطمأنينة على الملك يدفعه إلى طاعة النبي r واتباع دينه، ولقد كاد هرقل أن يسلم، لكنه خاف على نفسه وضن بملكه، ولم يكن الخوف من النبي r ، ولكن من قومه.

وفي بناء جملة الابتداء ما يحقق المقصود من الابتداء بالسلام، ومن ذلك تنكير (سلام) على ما ورد في أكثر الروايات، وهو مبتدأ، والأصل أن لا يبتدأ بنكرة إلا بمسوغ، قال ابن عاشور (١٣٩٣هـ): ((وساغ الابتداء به؛ لأن المقصود النوعية لا فرد معين))(٢)، ويرى الفخر الرازي (٦٠٦هـ) أن التنكير يدل على الكمال، قال: ((من لطائف قوله: (سلام

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ١٨٧/١٦، وما بين معقوفتين زيادة يقتضيها السياق، ولعلها سقطت أثناء الطباعة، وينظر: ١٦٨/١٠، وبلاغة النظم في آيات التحية: ٨٥.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢٥٧/٧.

عليكم) أنها أكمل من قوله: (السلام عليك) وذلك لأن قوله: (سلام عليكم) معناه: سلام كامل تام شريف رفيع عليك. وأما قوله: (السلام عليك) فالسلام لفظ مفرد محلى بالألف واللام، وأنه لا يفيد إلا أصل الماهية، واللفظ الدال على أصل الماهية لا إشعار فيه بالأحوال العارضة للماهية وبكمالات الماهية، فكان قوله: (سلام عليك) أكمل من قوله: (السلام عليك). ومما يؤكد هذا المعنى أنه أينما جاء لفظ (السلام) من الله تعالى ورد على سبيل التنكير، كقوله: ﴿وَإِذَا جَاءكَ الذين يُؤْمِنُونَ بِآياتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ٥٤] وقوله: ﴿قُلِ الحمد لِلَّهِ وسَلامٌ على عِبَادِهِ الذين اصْطَفَى﴾ [النمل: ٥٩] وفي القرآن من هذا الجنس كثير. أما لفظ (السلام) بالألف واللام، فإنما جاء من الأنبياء عليهم السلام، كقول موسى u قال: ﴿قَدْ جئناك بِآيَةٍ مّن رَّبّكَ والسلام على مَنِ اتبع الهدى﴾ [طه: ٤٧]، وأما في سورة مريم فلما ذكر الله يحيى u قال: ﴿وَسَلامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ [مريم: ١٥]، وهذا السلام من الله تعالى، وفي قصة عيسى u قال: ﴿وَالسَّلامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ [مريم: ٣٣]، وهذا كلام عيسى u . فثبت بهذه الوجوه أن قوله: سلام عليك، أكمل من قوله: السلام عليك))(١).

وتتبع الدكتور محمد الصامل شواهد التحية بـ(السلام) في الشعر العربي، ووجد أن الشواهد التي جاء فيها لفظ (السلام) نكرة يصح أن يكون الغرض من التنكير هو التعظيم والتكثير، ولم يقف على شاهد يكون الغرض من التنكير التحقير والتقليل، قال: ((والسبب -والله أعلم- أن غرضَي (التقليل والتحقير) لا يتلاءمان مع التحية، فمن كانا له غرضًا فإنه سيكون أبعد من أن يورد التحية في شعره!!))(٢).

وجاء المسند إليه -المبتدأ- مقدمًا ليحقق المقصود من تقديم جملة السلام في الخطاب، قال ابن عاشور (١٣٩٣هـ): ((وإنما لم يقدم الخبر لاهتمام القادم بإدخال الطمأنينة في نفس المقدوم عليه، أنه طارق خير لا طارق شر، فهو من التقديم لضرب من التفاؤل))(٣).

وسبق تناول بعض الأساليب البلاغية في بناء جملة التحية(٤)، والله أعلم.

---

(١) التفسير الكبير (مفاتيح الغيب): ١٦/١٨٦، وينظر: ١٠/٢١٨-٢١٩.

(٢) بلاغة أساليب التحية في الشعر العربي: ٥٤.

(٣) تفسير التحرير والتنوير: ٧/٢٥٧.

(٤) ينظر ص (٥٩، ٢٨٥) من هذا البحث.

ومن حسن الابتداء خطاب النبي r للشباب بالزواج في الحديث الذي سبق ذكره، وفيه قال النبي r مبتدئًا: «**يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ**، مَن اسْتَطَاعَ الْبَاءَةَ فَلْيَتَـزَوَّجْ...» وفي هـذا الابتداء بنداء الشباب بوصفهم الذي يختصون به إشعار لهم أنه r سيخاطبهم في أمر يهمهم ويخصهم به دون غيرهم، وفي هذا تشويق لهم وتلطف بهم، مما يجعلهم أرغب بالحديث وأسرع إقبالاً عليه واستجابة له، والله أعلم.

ثانيًا: الطباق والمقابلة.

(الطباق والمقابلة) من فنون البديع التي يذكرها البلاغيون، والجامع بينهما أنهما يجمعان بين المعنيين المتضادين حقيقة أو تقديرًا، ويفترقان في أن (الطباق) يجمع بين معنى واحد وما يضاده[1]، و(المقابلة) يجمع بين معنيين أو معان وما يضادها[2].

ولما كان الجامع بينهما كبيرًا، والفارق بينهما في عدد المتضادات، بحثهما كثير من البلاغيين متجاورين، وربما بحث بعضهم المقابلة في الطباق، لكون الطباق عنده أعم من المقابلة، وربما رأى بعضهم أن المقابلة أعم من الطباق[3]، ورأى ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ) والعلوي (٧٤٩هـ) أن الأجود والأخلق والأليق تلقيب (الطباق) بـ(المقابلة)، قال ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ) في (الطباق): ((الأليق من حيث المعنى أن يسمى هذا النوع: المقابلة))[4]، وقال العلوي (٧٤٩هـ): ((الأجود تلقيبه بالمقابلة؛ لأن الضدين يتقابلان، كالسواد والبياض، والحركة والسكون، وغير ذلك من الأضداد، من غير حاجة إلى تلقيبه بالطباق والمطابقة... فإذن الأخلق تلقيب هذا النوع بما ذكرناه من المقابلة، ولا يلقبا بالطباق))[5].

وسأجري هنا على ما جرى عليه بعض البلاغيين كالقزويني (٧٣٩هـ) والرعيني (٧٧٩هـ) من عد المقابلة من الطباق، وبحثهما في مبحث واحد[6]، لأن المقصود هو النكتة

(١) ينظر في الطباق: كتاب الصناعتين: ٣٠٧، والعمدة: ٢/٥، والمثل السائر: ٣/١٧١، وتحرير التحبير: ١١١، وشروح التلخيص: ٤/٢٨٦، والتبيان، للطيبي: ٢/٣٩٣، وطراز الحلة: ٣٥٦، وخزانة الأدب، لابن حجة: ١/١٥٦، والقول البديع: ١٢٠.

(٢) ينظر في المقابلة: كتاب الصناعتين: ٣٣٧، والعمدة: ٢/١٥، والمثل السائر: ٣/١٧٢، وتحرير التحبير: ١٧٩، وشروح التلخيص: ٤/٢٩٦، والتبيان، للطيبي: ٢/٣٩٧، وطراز الحلة: ٣٥٨ و٣٦٤، وخزانة الأدب، لابن حجة: ١/١٢٩، والقول البديع: ١٢٣.

(٣) ينظر: كتاب الصناعتين: ٣٠٧ و٣٠٩، وشروح التلخيص: ٤/٢٩٦-٢٩٧، وطراز الحلة: ٣٥٨-٣٥٩، ودراسات في علم البديع:٨٦.

(٤) المثل السائر: ٣/١٧٢.

(٥) الطراز: ٣٨٣.

(٦) ينظر: الإيضاح مع شروح التلخيص: ٤/٢٩٦، وطراز الحلة: ٣٥٩.

النكتة البلاغية من الجمع بين المعاني المتضادة، وذلك متحقق في المعنيين أو في المعاني المتعددة[١]، وليس المقصود من الطباق والمقابلة هو مجرد الجمع بين المتضادات.

وإن مما يؤسف له أن يكون مجرد عدد المتقابلات معيارًا للحسن، بغض النظر عن استدعاء المقام لها، ولذا رأينا بعض البلاغيين يدورون في فلك العدد دون النظر في سر التقابل، ومن ذلك اختلاف بعض البلاغيين في بيت المتنبي:

أَزُورُهمْ وسَوادُ الليلِ يَشفعُ لي ... وأَنثَني وبَياضُ الصُّبحِ يُغْري بي[٢]

هل هو من مقابلة الأربعة بالأربعة، أو من مقابلة الخمسة بالخمسة؟ وهل قيل أكثر من الخمسة؟[٣]، وقال ابن أبي الإصبع (٦٥٤هـ) في بيت المتنبي: ((ولا أعلم في باب التقابل أفضل من هذا البيت؛ لجمعه من المقابلات ما لم يجمعه بيت لشاعر قبله ولا بعده إلى يومنا هذا))[٤]، وفَضَّل هذا البيت بكثرة المقابلات على البيت المنسوب إلى أبي دلامة[٥]:

ما أَحسنَ الدِّينَ والدُّنيا إِذا اجتمعا ... وأَقبَحَ الكفرَ والإِفلاسَ بالرَّجُلِ

وتبعه على ذلك القزويني (٧٣٩هـ)[٦]، وقال ابن حجة (٨٣٧هـ): ((قال علماء البديع: كلما كثر عددها كانت أبلغ))[٧].

وهذا التناول يتسق مع النظرة إلى البديع على أنه مجرد تحسين عرضي بغض النظر عن مراعاة مقتضى الحال، يقول الدكتور أحمد محمد علي: ((ولا يمكن أن يكون هذا مقياسًا صحيحًا، فليس من المعقول أن يكون ما فيه خمس مقابلات أبلغ مما فيه مقابلتان لمجرد العدد فقط... إن القضية في المقابلات قضية معنى، وليست قضية عدد))[٨]، ويقول الدكتور

(١) ينظر: دراسات في علم البديع:٨٥، وبلاغة الطباق والمقابلة في الحديث النبوي: ١٧.

(٢) ديوان المتنبي، بشرحه (العرف الطيب): ٣٠٧/٢.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٣٠٠/٤، وخزانة الأدب، لابن حجة: ١٣١/١.

(٤) تحرير التحبير: ١٨٢.

(٥) ينظر: معاهد التنصيص: ٢٠٧/٢.

(٦) الإيضاح: ٢٨٩/٤.

(٧) خزانة الأدب، لابن حجة: ١٣١/١، وينظر: معاهد التنصيص: ٢٠٧/٢.

(٨) دراسات في علم البديع:٩٤.

بسيوني فيود: ((ليست العبرة بكثرة المقابلة، بل المقابلة الجيدة ما جرت مجرى الطبـــع، ولم تأت متكلفة، وإلا كانت سببًا من أسباب اضطراب الأسلوب وتعقيده))(١).

وذكر المعاني المتضادة يأتي لأغراض بلاغية بحسب المقام، ومن ذلك تأكيـــد المعـــنى وتقريره، وتمييزه أكمل تمييز بذكر ضده ((فإيراد الضدين في الجملة يبعث إلى تأمل الضـــد، ليكشف عن خفايا الضد الآخر، ويعمق معناه في النفس، ويزيد من الإحساس به))(٢)، ومن ومن ذلك تصوير القدرة الباهرة على المتضادات، كما في قول الله U: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِـــكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَـــدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ $ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْـــلِ وَتُخْـــرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَـــابٍ﴾ [آل عمـــران: ٢٦-٢٧]، قال السعدي (١٣٧٦هـ): ((وهذا أعظم دليل على قـــدرة الله، وأن جميـــع الأشياء مسخرة مدبرة لا تملك من التدبير شيئًا، فخلقه تعالى الأضداد والضد من ضده بيان أنها مقهورة))(٣)، ويقول ابن قتيبة (٢٧٦هـ): ((لن تكمل الحكمة والقدرة إلا بخلق الشيء الشيء وضده، ليُعرف كل واحد منهما بصاحبه، فالنور يعرف بالظلمة، والعلـــم يعـــرف بالجهل، والخير يعرف بالشر، والنفع يعرف بالضر، والحلو يعرف بالمر، لقـــول الله تبـــارك وتعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأَرْضُ وَمِـــنْ أَنْفُسِـــهِمْ وَمِمَّـــا لا يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٣٦]، والأزواج الأضداد والأصـــناف، كالـــذكر والأنثـــى، واليـــابس والرطب))(٤).

وقد ورد التقابل بين الأضداد طباقًا أو مقابلة في الســـنة كـــثيرًا، وذكـــر الـــرعيني (٧٧٩هـ) أن الكلام النبوي كثير المطابقة(٥)، وذكر بعض الباحثين أن الطباق والمقابلة أكثر أكثر الفنون البديعية ورودًا في الخطاب النبوي(١).

---

(١) علم البديع: ٢/٢٧.

(٢) البلاغة النبوية في أحاديث الترغيب والترهيب: ٣٢٥، وينظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ٢٣٢، وبلاغة وبلاغة الطباق والمقابلة في الحديث النبوي: ٢٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن: ١٢٧.

(٤) تأويل مختلف الحديث: ١٤، وينظر: دراسات في علم البديع: ١٩.

(٥) طراز الحلة: ٣٦٢.

ولن أفرد كل نوع بشواهد لأن بعض ما سأذكره يحوي النوعين، ومن ذلك مما جاء مراعاة لمقتضى حال المخاطب حديث خطبة الأنصار لما وجدوا في أنفسهم على رسول الله r حينما قسم الغنائم و لم يعطهم منها، وقد سبق ذكرها[٢]، وفيها يعتذر النبي r إليهم ويعتب عليهم، وقد تضافرت الأساليب البلاغية لتعطي الخطبة قوة في أداء الغرض منها وتأثيرها على المخاطبين، وكان مما استعمله لذلك التقابل بين المعاني، بل إن الخطبة كلها قائمة على التقابل؛ لأن المخاطب مبني غضبه واحتجاجه على التقابل بين الإعطاء والترك؛ إعطاء غيرهم وتركهم هم، فهم قد قالوا: إذا كانت شديدة فنحن ندعى، ويعطى الغنيمة غيرنا، وقالوا: يغفر الله لرسول الله يعطي قريشًا، ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

وجاء التقابل في الخطبة موظفًا بعناية تذكيرًا لهم بعظيم نعمة الله عليهم برسوله r ، وفوزهم به، وتزهيدًا لهم بالدنيا، وسلاً لما في نفوسهم من غضب، ومما قاله r : «يَا مَعْشَرَ الأنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ **ضُلاَلاً فَهَدَاكُمْ** اللهُ بِي، وَكُنْتُمْ **مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمْ** اللهُ بِي، **وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمْ** اللهُ بِي؟».

وجاء التقابل هنا طباقًا بين الضلال والهدى، والتفرق والائتلاف، والفقر والغنى، لتقرير نعم الله U عليهم بسبب رسوله r ، ولو قال: ألم يهدكم الله بي؟ ألم يؤلفكم الله بي؟ ألم يغنكم الله بي؟ من دون أن يذكر أضدادها مما كانوا عليه قبل حصول هذه النعم لهم، لما برز عظم هذه النعم وتميز حصولها لهم، لأن شعورهم بالضلال الحاصل لهم قبل الهداية والتفرق الحاصل لهم قبل الائتلاف والفقر الحاصل لهم قبل الغنى، شعورهم بتلك الأضداد يقرر لديهم أضدادها من النعم أكمل تقرير ويميزها أكمل تمييز[٣].

وجاءت صياغة الأضداد صياغة بلاغية عالية، تسهم في تأكيد المعاني وتقريرها، فالتضاد حصل بين الاسم (ضُلاَلاً... مُتَفَرِّقِينَ... وَعَالَةً) والفعل (**هَدَاكُمْ... أَلَّفَكُمْ... أَغْنَاكُمْ**). ولما كان الاسم يفيد الثبوت، والفعل يفيد التجدد والحدوث، فإن التعبير عن المعاني الأول بالاسمية وأضدادها بالفعلية للدلالة على أن النعم حصلت لهم بعد أن كانت

---

(١) ينظر: المحسنات البديعية في الصحيحين: ٢٧ و٣٥٣.

(٢) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

(٣) ينظر: المحسنات البديعية في الصحيحين: ٤٠.

أضدادها قد ثبتت فيهم، والتعبير عن النعم بالفعل الماضي للدلالة على تحقق هذه النعم فيهم بعد أن تحقق أضدادها، وهذا يزيد المعنى تقريرًا والنعم تمييزًا، والله أعلم.

ولهذا الغرض (كمال التقرير والتمييز للنعم) جاء التقابل في قوله r: «يَـا مَعْشَـرَ الأَنْصَارِ، أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ **بِالدُّنْيَا**، وَتَذْهَبُونَ **بِرَسُولِ اللهِ** r، تَحُوزُونَـهُ إِلَـى بُيُوتِكُمْ؟ فَوَاللهِ لَمَا تَنْقَلِبُونَ بِهِ خَيْرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ» فقابل بين (ذهاب الناس بالدنيا، وذهابهم برسول الله r)، ومع أن الأنصار من الناس، إلا أن الرسول r هنا يجعلهم كالضد للناس، إشعارًا لهم بفضلهم.

والمقابل للدنيا: الآخرة، لكن لما كان رسول الله r هو الهادي إلى الآخـرة، وهـو الذي حصلت له نصرهم، وحصلت به نعمتهم، حسن ذكره في مقابل الدنيا، التي عتبوا عليه لأجلها، تزهيدًا لهم عنها، وهذا من النوع الذي يسمى بالطباق الخفي أو المعنـوي، وهـو الجمع بين أمر وما يتعلق بمقابله(١).

ولعل إظهار (رسول الله) والأصل إضماره، ليسهم في إبراز الضد وأهميته وكمـال نعمته عليهم، والله أعلم.

وفي الخطبة مقابلات أخرى جاءت لتحقيق الغرض منها، كما في قوله r: «الأَنْصَارُ شِعَارٌ، وَالنَّاسُ دِثَارٌ».

ومن التقابل ما جاء في حديث الثلاثة الذين أرادوا أن ينقطعوا للعبادة، وينصرفوا عن غيرها من حاجات النفس البشرية، وقد سبق بتمامه(٢)، وفيه قال النبي r لهم: «أَمَـا وَاللهِ، إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي **أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ**». ومثله حديث عبدالله ابن عمرو t لما أراد أن ينقطع للعبادة، وسبق ذكره(٣)، فقال له النبي r: «**صُمْ وَأَفْطِـرْ، وَقُمْ وَنَمْ**».

---

(١) ينظر: شروح التلخيص: ٤/٢٩٤، وعلم البديع: ٢/١٤.

(٢) ينظر ص (١٢٢) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٣٨) من هذا البحث.

وفي الحديثين طباق بين (الصيام والفطر)، وبين (الصلاة والرقود)، وبين (القيام والنوم).

وجاء الطباق لغرض يقتضيه حال المخاطب، فإن المخاطب لما أراد أن يقتصر على حالة واحدة لا يتجاوزها، أرشده النبي r إلى التوازن في حياته وعبادته بين حاجات النفس البشرية، وليس المقصود حصول هذه الأضداد في وقت واحد فإن هذا معلوم أنه مستحيل، لكن المقصود حصولهما في حياة الإنسان بين وقت وآخر، بحيث لا يلزم حالة دون أخرى، فجاء التضاد هنا لإحداث التوازن في حياة المخاطبين.

والتضاد بين (الفطر والصيام) في الحديثين ظاهر في اللفظ.

أما التضاد بين (الصلاة والرقود) في الحديث الأول، وكذلك بين (القيام والنوم) في الحديث الثاني فهو من الطباق الخفي أو المعنوي؛ لأن المضاد للرقود والنوم: الصحو أو اليقظة، لكن لما كان قيام الليل أو الصلاة متعلقين باليقظة، ولا يكونان مع نوم ورقود، وهما المقصود من ترك النوم، حسن جعل الصلاة أو القيام في مقابل النوم والرقود، والله أعلم.

وجاء الطباق في الحديثين بالصيغة الفعلية للدلالة على تجدد حصول الضدين واستمرارهما والتوازن بينهما.

وفي الحديث الأول جاء الفعل مضارعًا مسندًا إلى المتكلم رسول الله r ، وفي الحديث الثاني جاء الفعل أمرًا مسندًا إلى المخاطب.

أما في الحديث الأول فأسند النبي r الأفعال إليه لكون المخاطبين نالوا من منهجه في حياته وتقالوا عبوديته، قال أنس بن مالك t : جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي r يسألون عن عبادة النبي t ، فلما أخبروا كأنهم تقالُّوها، فقالوا: وأين نحن من النبي r ؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. فأراد النبي r أن يقرر سلامة منهجه ويؤكده، ولذا جاء الخطاب بصيغة المتكلم: «أَمَا وَاللهِ، إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ، وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

وأما الحديث الثاني فأسند النبي r الأفعال إلى المخاطب لكونه لم يحصل له تعرض لمنهج النبي r ، وإنما أراد أن يرشده إلى ما ينفعه في دينه ودنياه، وجاء الإرشاد بصيغة الأمر

إشعارًا له بأهمية ما يرشده إليه في مقابل ما يفعله هو، ودفعًا له إلى قبول ما يؤمر به حيث يتضمن الأمر عزمًا وجزمًا في الطلب لا يكون لو جاء بصيغة الخبر مثلاً، كما سبق بيانه(١).

ومن التقابل خطاب النبي r للشباب بالزواج: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ، مَنِ **اسْتَطَاعَ** الْبَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ؛ فَإِنَّهُ أَغَضُّ لِلْبَصَرِ، وَأَحْصَنُ لِلْفَرْجِ، وَمَنْ **لَمْ يَسْتَطِعْ** فَعَلَيْهِ بِالصَّوْمِ؛ فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ».

وسبق ذكر الحديث، وبيان ما فيه من أساليب تراعي حال المخاطبين من الشباب(٢)، ومن الأساليب التقابل بين الاستطاعة وعدمها (اسْتَطَاعَ... لَمْ يَسْتَطِعْ) فأثبت الاستطاعة وقابلها بنفيها، على طريقة ما يسمى بطباق السلب، وهو الجمع بين فعلي مصدر واحد، أحدهما مثبت والآخر منفي، أو أحدهما أمر والآخر نهي(٣).

ولما كان الخطاب حثًّا للشباب على الزواج بدأ بالاستطاعة تعريضًا لهم بالسعي إليها حتى يتزوجوا، ومنبهًا لهم إلى أن الأصل في الشاب أن يشبع رغبته، لا أن يحسم مادتها، وأن الزواج هو الذي يشبع هذه الرغبة، فإذا استطاع الزواج فعليه أن يعجل به ويبادر إليه.

ولما كان كثير من الشباب قد لا يتيسر له مؤنة النكاح فلا يستطيع الزواج، ويحتاج مع ذلك إلى ما يخفف الشهوة ويكسر حدتها، وقد يتساءل عن ذلك، فذكر النبي r ما يضاد الاستطاعة ويقابلها، وهو عدمها، فأغراهم بالصوم وحثهم على ملازمته.

ومن التقابل حديث حكيم بن حزام t لما سأل النبي r فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم سأله فأعطاه، ثم قال له: «يَا حَكِيمُ، إِنَّ هَذَا الْمَالَ خَضِرَةٌ حُلْوَةٌ، **فَمَنْ أَخَذَهُ بِسَخَاوَةِ نَفْسٍ بُورِكَ لَهُ فِيهِ، وَمَنْ أَخَذَهُ بِإِشْرَافِ نَفْسٍ لَمْ يُبَارَكْ لَهُ فِيهِ**، وَكَانَ كَالَّذِي يَأْكُلُ وَلَا يَشْبَعُ، **وَالْيَدُ الْعُلْيَا** خَيْرٌ مِنَ **الْيَدِ السُّفْلَى**» وسبق ذكر الحديث(٤).

وجاء التقابل بين (من يأخذ المال بسخاوة نفس فيبارك له فيه، ومن يأخذه بإشراف نفس فلا يبارك له فيه) وهذا مقابلة.

---

(١) ينظر ص (٣٩٨) من هذا البحث.
(٢) ينظر ص (١٢٤) من هذا البحث.
(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٤/٢٩٠.
(٤) ينظر ص (١٣٣) من هذا البحث.

وتقابل آخر بين (اليد العليا واليد السفلى) وهذا طباق.

وقد سبق في الفصل الأول بيان أثر هذا التقابل في تخفيف حدة الحرص على المـــال والرغبة فيه[1].

(١) ينظر ص (١٣٥) من هذا البحث.

ثالثًا: المشاكلة.

المشاكلة هي: ذكر الشيء بلفظ لغيره، لوقوعه في صحبته، تحقيقًا أو تقديرًا(١).

واختلف البلاغيون في كون المشاكلة من قبيل الحقيقة أو من المجاز، على ثلاثة أقوال:

فقائل بأنها من قبيل الحقيقة؛ لعدم وجود علاقة مصححة من العلاقات المعتبرة في المجاز.

وقائل بأنها من قبيل المجاز؛ لأن ذكر الشيء بلفظ غيره لا يكون حقيقة بحال.

وقائل بأنها ليست من الحقيقة ولا المجاز، وإنما هي واسطة بينهما؛ لأن اللفظ المستعمل في المشاكلة لم يوضع لما استعمل فيه فليس حقيقة، ولا علاقة معتبرة فليس مجازًا.

والأظهر أنها من المجاز؛ لأن اللفظ المستعمل في المشاكلة لا يراد به حقيقته، وإذا كان كذلك فهو داخل في المجاز، وتكون علاقة المجاز هي المصاحبة، وهي علاقة خاصة بهذا الأسلوب(٢).

وقد وردت المشاكلة في كتاب الله U، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ $ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣-١٩٤]، وفي هاتين الآيتين موضعان للمشاكلة؛ في قوله: ﴿فَلا عُدْوَانَ﴾ حيث عبر عن الجزاء بالعدوان، وفي قوله: ﴿فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ﴾ حيث عبر عن الجزاء بالاعتداء(٣).

وفي الخطاب النبوي في الصحيحين وردت المشاكلة في مواقف روعي فيها حال المخاطب.

---

(١) ينظر: مفتاح العلوم: ٤٢٤، وشروح التلخيص: ٣٠٩/٤، والتبيان، للطيبي: ٣٩٩/٢، وطراز الحلة: ٤١٣، وخزانة الأدب، لابن حجة: ٢٥٢/٢، والقول البديع: ١٢٧، وعلم البديع: ٦٤، ومعجم المصطلحات البلاغية: ٢٥٧/٣.

(٢) ينظر: عروس الأفراح: ٣١٣/٤ و٣١٥، ومواهب الفتاح: ٣١٠/٤، وحاشية الدسوقي: ٣٠٩/٤، ودراسات في علم البديع: ١٣٧، وعلم البديع: ٦٩، ودراسة عقدية لبعض الصفات التي يدعى أنها من باب المشاكلة: ٢٢.

(٣) ينظر: الكشاف: ٢٣٤/١، وتفسير القرآن العظيم: ٥٢٦/١ و٥٢٧، وإرشاد العقل السليم: ٢٠٤/١.

ومن ذلك حديث عبد الله بن عمرو t قال: جاء رجل إلى النبي r ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: «أَحَيٌّ وَالِدَاكَ؟» قال: نعم. قال: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ». وفي رواية: قال رجل للنبي r : أجاهد. قال: «لَكَ أَبَوَانِ» قال: نعم. قال: «فَفِيهِمَا **فَجَاهِدْ**»[1].

والمشاكلة في قوله r : «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ» كما نص على ذلك الطيبي (٧٤٣هـ) والسندي والمباركفوري[2]، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((صيغة الأمر في قوله: «فَجَاهِدْ» ظاهرها إيصال الضرر الذي كان يحصل لغيرهما لهما، وليس ذلك مرادًا قطعًا))[3]، وإنما المقصود الإحسان إليهما وبرهما وخدمتهما، كما في الرواية الأخرى عند مسلم أن النبي r قال له: «فَتَبْتَغِي الأَجْرَ مِنْ اللهِ؟» قال: نعم. قال: «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ، فَأَحْسِنْ صُحْبَتَهُمَا».

وسمى الإحسان إليهما جهادًا مشاكلة للفظ الجهاد الذي عبر به المخاطب، ولعل المخاطب لما كان حريصًا على المشاركة في الجهاد، ووجود والديه سبب في عدم الإذن له لحاجتهما إليه، أراد النبي r أن يسلي نفسه في ترك الجهاد، وأن يبين له أن إحسانه إلى والديه في مثل هذه الحالة كأجر الجهاد في سبيل الله بل أعظم أجرًا، فسمى إحسانه جهادًا، وفي ذلك تعريض بالصبر على الإحسان إلى الوالدين، خاصة في كبرهما، لما يلحق الولد في ذلك من المشقة والكلفة، والجهاد فيه مشقة ونصب، والله أعلم.

وفي بناء الخطاب ما يؤكد الغرض من المشاكلة، حيث قدم الجار والمجرور (فيهما)، وهو متعلق فعل الأمر (جاهد) للدلالة على أولوية العمل الصالح في هذه الحالة لبر الوالدين والإحسان إليهما، وكأن الجهاد المعروف قد اختص بهما دون غيرهما، ولذا ذكر الطيبي (٧٤٣هـ) أن التقديم في الحديث للاختصاص، قال: ((أي: إذا كان الأمر كما قلت فاختص المجاهدة في خدمة الوالدين))[4]، والله أعلم.

---

(١) أخرجه البخاري: (٣٠٠٤ و٥٩٧٢) ، ومسلم: (٢٥٤٩).

(٢) ينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٢٨٦/٧، وحاشية السندي على سنن النسائي: ١٠/٦، وتحفة الأحوذي: ٢٥٧/٥.

(٣) فتح الباري: ١٤٠/٦.

(٤) الكاشف عن حقائق السنن: ٢٨٦/٧، وينظر: عمدة القاري: ٢٥١/١٤.

ولعل من المشاكلة أيضًا في لفظ الجهاد حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قلـــت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: «لا، لَكُنَّ أَفْضَلُ **الْجِهَادِ** حَـــجٌّ مَبْرُورٌ» وفي رواية قال: «**جِهَادُكُنَّ** الْحَجُّ» وسبق تخريج الحديث وضبط لفظة (لكـــن)[١]، والشاهد هنا أن النبي **r** سمى الحج جهادًا مشاكلة للفظ المخاطبة، ولعل النبي **r** لما منعهـــا من الجهاد، لكون النساء ((لسن من أهل القتال للعدو، ولا قدرة لهن عليه ولا قيـــام بـــه، وليس للمرأة أفضل من الاستتار وترك مباشرة الرجال بغير قتال، فكيف في حال القتال التي هي أصعب؟))[٢]، لما منعها أراد تعويضها عما منعت منه بعمل يلائم حالها، ويكون بالنسبة لها أفضل من الجهاد، وهو الحج، وسماه جهادًا لرغبة المخاطبة به، فمنعت من حقيقتـــه، و لم تمنع من لفظه، والله أعلم.

ومن المشاكلة حديث أبي سعيد الخدري **t** قال: جاء رجل إلى النبي **r** فقال: إن أخي استطلق بطنه. فقال رسول الله **r**: «اسْقِهِ عَسَلاً» فسقاه، ثم جاءه فقال: إني ســـقيته عسلاً، فلم يزده إلا استطلاقًا. فقال له ثلاث مرات، ثم جاء الرابعة فقال: «اسْقِهِ عَسَـــلاً» فقال: لقد سقيته، فلم يزده إلا استطلاقًا. فقال رسول الله **r**: «صَدَقَ اللهُ، **وَكَذَبَ** بَطْـــنُ أَخِيكَ» فسقاه، فبرأ[٣].

وقول النبي **r**: «صَدَقَ اللهُ» أي: في قوله **U** عن النحل وعسلها: ﴿يَخْرُجُ مِـــنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [النحل: ٦٩][٤]، أو أنه أوحي إليه أن هذا المريض يشفى بالعسل[٥].

وقوله: «كَذَبَ بَطْنُ أَخِيكَ» قال ابن حجر (٨٥٢هـــ): ((أي: لم يصلح لقبـــول الشفاء، بل زَلّ عنه))[٦].

---

(١) ينظر ص (٩٩) من هذا البحث.

(٢) عمدة القاري: ١٤/١٦٤.

(٣) أخرجه البخاري: (٥٦٨٤ و٥٧١٦) ، ومسلم: (٢٢١٧).

(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٤/٢٠٣، والكاشف عن حقائق السنن: ٨/٢٨٨.

(٥) ينظر: شرح صحيح مسلم: ١٤/٢٠٣، ومرقاة المفاتيح: ٨/٣٤٩.

(٦) فتح الباري: ١٠/١٦٩، وينظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٨/٢٨٨.

والتعبير عن ذلك بالكذب مشاكلة للصدق في قوله r : «صَدَقَ اللهُ» لأن الكـــذب يكون في الكلام، لكن لما وقع في صحبة الصدق، والكذب مضاد له، ساغت المشاكلة، لأن ذكر المضاد مسوغ للمشاكلة بالضد[1]، قال مجد الدين ابن الأثير (٦٠٦هــ): ((اســتعمل الكذب هاهنا مجازًا، حيث هو ضد الصدق، والكذب مختص بالأقوال، فجعل بطن أخيــه حيث لم ينجع فيه العسل كذبًا، لأن الله قال: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾))[2].

ولعل النبي r أطلق الكذب على عدم قبول الشفاء لكون المخاطب قد اعتراه ظن في نفع العسل لداء أخيه، ويظهر هذا من قوله: إني سقيته عسلاً، فلم يزده إلا استطلاقًا، وقوله في المرة الرابعة: لقد سقيته، فلم يزده إلا استطلاقًا. حيث يؤكد المخاطب إســقاءه لأخيــه العسل بإنّ، وقد، واللام، ويؤكد عدم شفائه من هذا العلاج بأســلوب القصــر، بطريــق الاستثناء من النفي الذي يعد أقوى طرق القصر.

فلعل النبي r لما رأى هذا من المخاطب أراد أن يبالغ في نفي الظن الحاصــل فعــبر بالكذب. وفي هذه المشاكلة مزيد تقرير وتأكيد لصدق ما أوحى الله إليه؛ لأن الكذب يقابل الصدق، فهو من الطباق الذي يفيد تمييز الضد وتعميق معناه، كما سبق بيانه في الحديث عن فن الطباق، إلا أن هذا الطباق من النوع الملحق به المسمى (إيهام التضاد) وهو الذي يكون التقابل فيه بين المعنيين الأصليين للفظين دون المعنيين المرادين[3]، والله أعلم.

وقد يكون المراد بالكذب: الخطأ، على لغة أهل الحجاز، كما ذكر بعض الشراح[4]، الشراح[4]، وعلى هذا المعنى قد يكون النبي r أراد أن يخطئ ظن المخاطب فلم يسند الخطأ إليه صراحة، وعدل عن ذلك إلى إسناد الخطأ إلى بطن أخيه، تعريضًا له بفساد ظنه، خاصة أنه لم يصرح بالظن، وفي هذا سلوك لسبيل الخلق العظيم الذي عليه النبي r ، وإنما أســند الكذب إلى البطن لكونه سببًا في حصول الظن الكاذب، وهذا من المجاز العقلي الذي علاقته السببية، فلا يكون الأسلوب من المشاكلة، ويكون طباقًا حقيقيًا لا متوهمًا، والله أعلم.

---

(١) ينظر: دراسات في علم البديع: ١٢٠، والبلاغة النبوية في أحاديث الترغيب والترهيب: ٣٤٦.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر: ١٥٩/٤، وينظر: عمدة القاري: ٢٣٤/٢١.

(٣) ينظر: شروح التلخيص: ٢٩٥/٤.

(٤) ينظر: فتح الباري: ١٦٩/١٠، وعمدة القاري: ٢٣٤/٢١.

رابعًا: الجناس.

ويسمى التجنيس والتجانس والمجانسة، ويكون بتشابه الكلمتين في اللفظ مع اختلافهما في المعنى(١).

والتشابه بين اللفظتين إما أن يكون تامًّا، بحيث لا تختلف اللفظتان في نوع الحروف وعددها وترتيبها وحركاتها، كلفظتي (الأبصار) في قول الله U: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ $ يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لأُولِي الأَبْصَارِ﴾ [النور: ٤٣-٤٤]، فـ(الأبصار) في الموضعين جمع بصر، ويراد به في الأول: بصر الأعين، وفي الثاني: بصر العقول.

وإما أن يكون غير تام، إذا لم يكن بين اللفظتين تشابه تام، بحيث اختلفت اللفظتان في حركة الحروف نحو (الجَنْب- الجُنُب) أو في نوع الحروف (يحسبون- يحسنون) و(تفرحون- تمرحون) أو في عددها (الساق- المساق) أو في ترتيبها (ربك- كبر) و(الصفائح- الصحائف).

وقد كلف بهذا الفن كثير من البلاغيين والأدباء في العصور المتأخرة، حتى إن الرعيني (٧٧٩هـ) قال في شرحه لبديعية ابن جابر (٧٨٠هـ) وقد بدأها بفن التجنيس: ((وبدأ المؤلف بالتجنيس؛ لأنه أشرف تلك الأنواع، وأكثرها استمالة للطباع. قد كلفت به النفوس، ومتزل من الكلام متزلة الحلي من العروس))(٢).

ومن كلفهم به صار الشعراء والكتاب يتفننون فيه ويخترعون له، حتى فرع بعض البلاغيين من القسمين (التام والناقص) أنواعًا كثيرة، بلغت عند بعضهم ستين نوعًا(٣)، وأكثر هذه الأنواع متكلفة، و لم يجد لها البلاغيون شواهد من كلام الله U ولا كلام رسوله r ولا كلام البلغاء السابقين، وإنما يستشهدون بأمثلة مصنوعة أو أشعار من ولع بهذا الفن

---

(١) ينظر: كتاب الصناعتين: ٣٢١، والعمدة: ٣٢١/١، ومفتاح العلوم: ٤٢٩، والمثل السائر: ٣٧٩/١، وتحرير التحبير: ١٠٢، وشروح التلخيص: ٤١٢/٤، وجنان الجناس: ٢٣ و٣٣، وطراز الحلة: ٩٥، وخزانة الأدب، لابن حجة: ٥٤/١، والقول البديع في علم البديع: ٦٠.

(٢) طراز الحلة: ٩٤، وينظر: جنان الجناس: ١٥.

(٣) ينظر: طراز الحلة: ٩٤، والقول البديع في علم البديع: ٦٠.

حتى جاؤوا بما لا يستحسن، كما في شواهد الجناس المركب. وهذا الصنيع مـــن التفريـــع والتشقيق يتلاءم مع النظرة إلى التجنيس على أنه تحسين لفظي عرضي مقصود لذاتـــه، وإن كان بعض البلاغيين ينكر التكلف في الفنون البديعية ومن بينها الجناس، إلا أن هذا الإنكار عند بعضهم لا يتجاوز التنظير، فإذا جاء التطبيق ومعالجة الفن رأيت عجبًا من التكلـــف[1]، التكلف[1]، وقد قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هــ): ((وها هنا أقسام قد يُتوهم في بـــدء بدء الفكرة، وقبل إتمام العبرة، أن الحسن والقبح فيها لا يتعدى اللفظ والجرس، إلى ما يناجي فيه العقلُ النفسَ، ولها إذا حُقق النظر مرجع إلى ذلك، ومنصَرف فيمـــا هنالـــك، منـــها: التجنيس والحشو.

أما التجنيس فإنك لا تستحسن تجانُس اللفظتين إلا إذا كان وقع معنييهما من العقل موقعًا حميدًا، و لم يكن مَرْمى الجامع بينهما مرمًى بعيدًا. أتراك استضعفتَ تجنيس أبي تمام في قوله:

ذَهَبَت بِمُذْهَبِهِ السَّمَاحَةُ فَـــالْتَوت ... فِيهِ الظُّنُونُ أَمَـــذْهَبٌ أم مُـــذْهَبُ[2]

واستحسنتَ تجنيس القائل:

حتى نَجَا من خَوفِهِ وَمَا نَجا[3]

وقول المحدَث:

نـــاظِراه فيمـــا جَنَـــى نـــاظِراه ... أوْ دَعانِي أمُتْ بمـــا أَودعَـــانِي[4]

لأمر يرجع إلى اللفظ؟ أم لأنك رأيت الفائدة ضَعُفت عن الأول وقويت في الثاني؟ ورأيْتَـــك لم يزدك بمَذْهب ومُذهب على أن أسمعك حروفًا مكررةً، تروم لها فائدة فلا تجدها إلا مجهولة منكرة، ورأيتَ الآخر قد أعاد عليك اللفظة كأنه يخدعك عن الفائدة وقد أعطاها، ويوهمك كأنه لم يزدك وقد أحسن الزيادة ووفَّاها، فبهذه السريرة صـــار التجنـــيس - وخصوصًـــا المستوفَى منه المتفق في الصورة - من حُلَى الشعر، ومذكورًا في أقسام البديع.

---

(١) ينظر: علم البديع: ١٤٧/٢، والبديع، لعلام: ١١٥-١٢٢.

(٢) البيت في ديوانه بشرح التبريزي: ١٢٩/١، وذكر التبريزي أن قوله: بمذهبه، يحتمل فتح الميم وضمها.

(٣) ينظر البيت بلا نسبة في: البيان والتبيين: ١٥٠/١، والحيوان: ٧٥/٣، وكتاب الصناعتين: ٤٠٦.

(٤) البيت ينسب لشمسويه المصري في: يتيمة الدهر: ٤٨٣/٣، ومعاهد التنصيص: ٢١٠/٣. وينســـب لأبي الفـــتح البستي في: زهر الآداب: ٤٢٧/٢، وينظر: تعليق محمود شاكر على أسرار البلاغة: ٧.

فقد تبين لك أن ما يعطي التجنيس من الفضيلة أمر لم يتم إلا بنصرة المعنى، إذ لو كان باللفظ وحده لما كان فيه إلا مستحسن، ولما وجد فيه معيب مستهجن، ولذلك ذُمّ الاستكثار منه والولوع به))[1]، ثم قال: ((إنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً، ولا سجعًا حسنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً، ومن ههنا كان أحلى تجنيس تسمعه وأعلاه، وأحقه بالحسن وأولاه، ما وقع من غير قصد من المتكلم إلى اجتلابه، وتأهب لطلبه، أو ما هو -لحسن مُلاءمته، وإن كان مطلوبًا- بهذه المترلة وفي هذه الصورة))[2].

ويرى عبد القاهر أن بلاغة الجناس في حُسن الإفادة مع أن الصورة صورة التكرير والإعادة، ويظهر ذلك في الجناس التام، وقد يحصل في غيره ((وذلك أنك تتوهم قبل أن يرد عليك آخر الكلمة... أنها هي التي مضت، وقد أرادت أن تجيئك ثانيةً، وتعود إليك مؤكِّدةً، حتى إذا تمكن في نفسك تمامها، ووعى سمعك آخرها، انصرفت عن ظنك الأول، وزلت عن الذي سبق من التخيل، وفي ذلك ما ذكرت لك من طلوع الفائدة بعد أن يخالطك اليأس منها، وحصول الربح بعد أن تغالَط فيه حتى ترى أنه رأس المال))[3].

وللجناس جرس صوتي نابع من تشابه الألفاظ تشابهًا تامًّا أو ناقصًا، تطرب له الأذن ويميل إليه القلب وتتجاوب معه النفس، فيسهم ذلك في حسن الإفادة وسرعة الاستجابة، وأشار إلى ذلك نجم الدين ابن الأثير (٧٣٧هـ) فقال: ((إن تشابه ألفاظ التجنيس تحدث بالسمع ميلاً إليه، فإن النفس تتشوف إلى سماع اللفظة الواحدة إذا كانت بمعنيين، وتتوق إلى استخراج المعنيين المشتمل عليهما ذلك اللفظ، فصار للتجنيس وقع في النفوس وفائدة))[4].

وقد ورد الجناس في حديث رسول الله ﷺ من غير تكلف ولا استكراه، بل جاء مراعاة لمقتضى الحال، وسأتناول هنا ما راعى فيه مقتضى حال المخاطب.

---

(١) أسرار البلاغة: ٦-٨.

(٢) المرجع السابق: ١١.

(٣) المرجع السابق: ١٧-١٨.

(٤) جوهر الكتر: ٩١، وينظر: الإيضاح: ٤١٩/٤، وعروس الأفراح: ٤١٢/٤، وعلم البديع: ١٦٤/٢، والبديع في القرآن: ١٣٠.

ومما جاء من الجناس التام وكان الغرض من الكلام تأنيس المخاطب وتطييب نفسه حديث أنس بن مالك t قال: انتظرنا النبي r ذات ليلة حتى كان شطر الليل يبلغه، فجاء فصلى لنا، ثم خطبنا فقال: «أَلا إِنَّ النَّاسَ قَدْ صَلَّوْا ثُمَّ رَقَدُوا، وَإِنَّكُمْ لَمْ تَزَالُوا فِي **صَلاةٍ** مَا انْتَظَرْتُمْ **الصَّلاةَ**»(١).

والجناس بين (صلاة) و(الصلاة) فإن المقصود بالصلاة الثانية العبادة المعروفة، وأما الأولى فالمقصود ثوابها إذا انتظرها المرء(٢)، وعبر عن ثواب انتظار الصلاة بالصلاة لأنها سبب ذلك، فهو مجاز مرسل علاقته السببية.

ولعل عدول النبي r عن الحقيقة إلى المجاز الذي حقق الجناس ليسهم في مزيد من التأنيس للصحابة y وتطييب نفوسهم بعد أن تأخر عليهم وطال انتظارهم له، ولو عبر بالثواب لم يكن له وقع في نفوس الصحابة كما في لفظة (الصلاة) التي ينتظرونها وجاؤوا من أجلها ورغبوا في ثوابها، مع ما توحي به لفظة الصلاة من معاني الخشوع والخضوع لله ومناجاته والتضرع إليه، وهذا مما يسعى إليه أصحاب رسول الله r ، والله أعلم(٣).

ومما جاء من الجناس غير التام حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي r كان يعوذ بعض أهله يمسح بيده اليمنى ويقول: «اللَّهُمَّ رَبَّ **النَّاسِ**، أَذْهِب **الْبَاسَ**، اشْفِهِ، وَأَنْتَ الشَّافِي، لا شِفَاءَ إِلا شِفَاؤُكَ، شِفَاءً لا يُغَادِرُ سَقَمًا» وفي رواية أن رسول الله r كان إذا أَتى مريضًا أو أُتي به قال: «أَذْهِب الْبَاسَ، رَبَّ النَّاس...» وسبق الحديث برواياته(٤)، والجناس بين (الناس) (والباس) وهو جناس غير تام، لاختلاف اللفظتين في حرف النون والباء.

ويلحظ في هذا الحديث تخفيف الهمز في (البأس) ولعل فيه طلبًا للسجع والجناس، وهذان الأسلوبان ظاهران في رقى النبي r وتعويذاته، ولعله لما يؤديانه من وظيفة صوتية تسهم في بعث الأنس في نفس المريض.

---

(١) أخرجه البخاري: (٦٠٠ و٨٤٨) ، ومسلم: (٦٤٠).

(٢) ينظر: فتح الباري: ٢/٧٤.

(٣) ينظر: فتح الباري: ٢/٧٤، والمحسنات البديعية في الصحيحين: ١٦٨.

(٤) ينظر ص (١٤٧) من هذا البحث.

كما أن في الجناس فائدة معنوية، تظهر في اختيار لفظ (الباس) دون لفظ (المـــرض)، لكونه أعم منه، لما في لفظ (الباس) من معاني المشقة والشدة والخوف والحـــزن والكـــره[1]، وهي معان تصاحب المريض عادة، فالدعاء بزوالها أعم من الدعاء بزوال المـــرض، وآنـــس للمريض، وهو أحوج ما يكون إلى ما يؤنسه حال المرض، والله أعلم.

ومن الجناس غير التام حديث ابن عباس t قال: كان الـــنبي r يعـــوذ الحســـن والحسين، ويقول: «إِنَّ أَبَاكُمَا كَانَ يُعَوِّذُ بِهَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ **التَّامَّة**، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ **وَهَامَّة**، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ **لامَّة**»[2].

والجناس بين (تامّة) و(هامّة) و(لامّة)، وهو جناس غير تام، لاختلاف الألفـــاظ في نوع الحرف الأول منها.

والملاحظ أن صياغة بعض هذه الألفاظ روعي فيها الجناس، فلفظة (تامـــة) مفـــرد وصف به الجمع (الكلمات) والظاهر أن يؤتى بالجمع فيقال: التامات، لكن عدل عن الجمع إلى الإفراد.

ولفظة (لامّة) قيل إن فعلها: ألمّ، وهو رباعي، فيصاغ اسم الفاعل منـــه علـــى وزن مضارعه مع إبدال حرف المضارعة ميمًا مضمومة (مُلِمة)، لكن عدل إلى صياغة اسم الفاعل على وزن (فاعل) كما يصاغ الثلاثي، مراعاة للتجانس والسجع والتوازن، قال أبو عبيـــد (٢٢٤ هـــ): ((قوله: لامّة، و لم يقل: مُلِمّة، وأصلها من: أَلْمَمْت إلمامًا، فأنا مُلِمّ))[3].

وعقد قدامة بن جعفر (٣٣٧هـــ) فصلاً عن (الترصيع) وهو عنده: ((أن يُتوخى فيه تصيير مقاطع الأجزاء في البيت على سجع أو شبيه به أو من جنس واحد في التصريف))[4]، وذكر أمثلة على ذلك من الشعر ثم قال: ((وإنما يذهبون في هذا الباب إلى المقاربة بين الكلام بما يشبه بعضه بعضًا، فإنه لا كلام أحسن من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وســـلم، وقد كان يتوخى فيه مثل ذلك، فمنه ما روي عنه u من أنه عوذ الحسن والحسين عليهما

---

(١) ينظر: لسان العرب: ٢٠/٦، والمحسنات البديعية في أحاديث الصحيحين: ١٩٢.

(٢) أخرجه البخاري: (٣٣٧١).

(٣) غريب الحديث، لأبي عبيد: ١٣٠/٣، وينظر: غريب الحديث، لابن قتيبة: ٦٧٣/٣، وتهذيب اللغـــة: ٣٤٩/١٥، والمثل السائر: ٣٢٣/١، والنهاية في غريب الحديث والأثر: ٢٧٢/٤.

(٤) نقد الشعر: ٨٠.

السلام فقال: «أُعِيذُهُما مِن السَّامَّة والْهَامَّة وكُلِّ عَينٍ لامَّة» وإنما أراد: مُلِمّة، فلإتباع الكلمة أخواتها في الوزن قال: لامّة))[1].

ولعل في هذا العدول بالألفاظ إلى ما يحقق الجناس والسجع والتوازن، وهي فنون لها وقع صوتي مؤثر، لعل في ذلك مراعاة لمقتضى حال المخاطب، وهو طفل صغير، وقد سبق في الحديث عن الخطاب النبوي للأطفال في الفصل الأول أن الأطفال يعجبهم الجرس الصوتي في الكلام، ويطربون له، ويستجيبون له استجابة نفسية يعبرون عنها بابتسامة وضحكة، ونجد ذلك في المقامات العاطفية ظاهرًا[2]، والله أعلم.

ومن شواهد الجناس غير التام حديث سلمة بن الأكوع t أن سيف عامر بن الأكوع t كان قصيرًا في غزوة خيبر، فتناول به ساق يهودي ليضربه، فرجع ذباب سيفه فأصاب ركبته، فمات منه، فلما قفلوا قال سلمة: رآني رسول الله r شاحبًا، وهو آخذ بيدي فقال: «مَا لَكَ؟» قلت له: فداك أبي وأمي، زعموا أن عامرًا حبط عمله. قال: «كَذَبَ مَنْ قَالَهُ. إِنَّ لَهُ لأَجْرَيْنِ اثْنَيْنِ -وجمع بين إصبعيه- إِنَّهُ **لَجَاهِدٌ مُجَاهِدٌ**، قَلَّ عَرَبِيٌّ مَشَى بِهَا مِثْلَهُ»[3].

والمخاطب هنا سلمة t أصابه هم شديد حين ظن أن عمه قد حبط عمله كما يزعم القالة، فأراد النبي r أن يزيل ما أصابه من هم وغم في أمر لم يصح، فخطأ النبي r أولاً من قال الخبر، وعبر عن الخطأ بالكذب على لغة أهل الحجاز[4]، ولعلها في هذا المقام أقوى من التعبير بالخطأ، ليشعر المخاطب بانتفاء القول من أصله وعدم تطرق الصدق إليه ولو بوجه من الوجوه. ثم إن النبي r بين خطأ هذا الزعم من وجه آخر، حيث ذكر جزاء عم سلمة t ، وساقه بأساليب تفيد التأكيد والتعظيم، ليأنس سلمة ويطمئن، ومن ذلك التأكيد بإنّ واللام في الجملتين، وبتقديم المسند الخبري (له) على المسند إليه (أجرين)، وبوصف المسند إليه المثنى (أجرين) بما يدل على التثنية لفظًا (اثنين) وإشارة (جمع بين

---

(١) المرجع السابق: ٨٥، وينظر: تحرير التحبير: ٣٦٧، وكتاب الصناعتين: ٢٦١، وسر الفصاحة: ١٦٩.

(٢) ينظر ص (١١٦) من هذا البحث.

(٣) أخرجه البخاري: (٤١٩٦ و٦١٤٨ و٦٨٩١) ، ومسلم: (١٨٠٢).

(٤) ينظر: فتح الباري: ٤٦٧/٧.

أصبعيه). ومن ذلك الجناس في (جاهد مجاهد) ووقع الجناس غير تام بزيادة حرف الميم في اللفظة الثانية.

وفي معنى (جاهد مجاهد) قال النووي (٦٧٦هـ): ((وفسروا (الجاهد) بالجاد في علمه وعمله، أي: إنه لجاد في طاعة الله، و(المجاهد) في سبيل الله، وهو الغازي))(١).

وهذا التعبير يوافق طريقة العرب إذا أرادوا المبالغة في تعظيم الشيء والإشادة به وتأكيده اشتقوا له من لفظه لفظًا آخر على غير بنائه، وأعربوه بإعرابه، كما يقولون: جاد مجد، وليل لائل، وشعر شاعر، وأعوام عُوَّم، ونوال نائل، وشغل شاغل، ونحو ذلك(٢).

فجاء هذا الجناس ليسهم في تأكيد المعنى وتقريره وتعظيم شأن الموصوف لإزالة ما علق بالمخاطب من هم وغم، والله أعلم.

ومن الجناس حديث وائل الحضرمي أن طارق بن سويد الجعفي t سأل النبي r عن الخمر، فنهاه، أو كره أن يصنعها، فقال: إنما أصنعها للدواء. فقال: «إِنَّهُ لَيْسَ **بِدَوَاءٍ**، وَلَكِنَّهُ **دَاءٌ**»(٣).

والجناس بين (دواء) و(داء)، وهو جناس غير تام، لزيادة حرف الواو، وبين اللفظتين تضاد، فحصل بهذا الجناس الطباق(٤).

ولعل النبي r آثر الجناس الذي تحقق به الطباق لكون المخاطب كان حريصًا على صنع الخمر، وكان متحققًا عنده أنها دواء، ولذا عبر بأسلوب القصر بـ(إنما) الذي يستعمل عادة في الأمور الظاهرة المعلومة التي من شأنها أن لا تنكر ولا تجهل، كما سبق بيانه في مبحث القصر من الفصل الرابع(٥).

فلما كان المخاطب بهذه الحال أراد النبي r أن يقرر عنده بطلان ما اعتقده، فنفى كون الخمر دواء، مؤكدًا النفي بإنّ، وبمجيء المسند إليه ضمير الشأن، وبزيادة حرف الباء

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١٢/١٦٨-١٦٩، وينظر: فتح الباري: ٤/٤٦٧، وعمدة القاري: ٢٤/٥١.

(٢) ينظر: كتاب سيبويه: ٣/٣٨٥، والمحيط في اللغة: ٢/١٨٢، والصحاح: ٥/١٨١٥، والمخصص: ١/٣٧٩ و٤/٤٠٠، ولسان العرب: ٣/١٣٣ و١٠/١٩٣، وشرح صحيح مسلم: ١٢/١٦٩، وفتح الباري: ٤/٤٦٧.

(٣) أخرجه مسلم: (١٩٨٤).

(٤) ينظر: المحسنات البديعية في أحاديث الصحيحين: ١٨٧.

(٥) ينظر ص (٤٨١) من هذا البحث.

مع المسند الخبري، وهو يفيد الإلصاق والمصاحبة، فشعار المخاطب أن نفي الدواء مصاحب للخمر أبدًا، ويعمق هذا التأكيد والتقرير للنفي تقرير الضد بأسلوب الطباق، وهو له أثر في تقرير المعنى وتمييزه، كما سبق في الحديث عن بلاغته، فكان الجناس له أثر في التقابل الـــذي حقق هذه المعاني، والله أعلم.

وهكذا نجد أن الجناس في الخطاب النبوي يحقق فوائد معنوية تطلبها المقام واقتضاها حال المخاطب، والله أعلم.

خامسًا: السجع.

السجع هو: توافق الفواصل في الحرف الأخير[(١)].

وهو ((مصطلح بلاغي عرف منذ العصر الجاهلي قبل أن توضع مصطلحات العلوم، ومنذ معرفته في ذلك العصر وحتى الآن ودلالته لم تتغير و لم تتبدل))[(٢)].

والسجع له حظوة في كلام العرب، غير أنه كان يصدر منهم عن طبع سليم، ويقع ((سهلاً متيسرًا بلا كلفة ولا مشقة، حيث يظهر أنه لم يقصد في نفسه، ولا أحضره إلا صدق معناه دون موافقة لفظه))[(٣)].

وقد وجد فيهم من يتصنع السجع ويتكلفه تكلفًا ويقصد إليه قصدًا لا يقتضيه مقام الكلام، كالكهان وغيرهم، وفيهم وفي اتباع طريقتهم ورد ذم رسول الله r في الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة t أن رسول الله r قضى في امرأتين من هذيل اقتتلتا، فرمت إحداهما الأخرى بحجر، فأصاب بطنها وهي حامل، فقتلت ولدها الذي في بطنها، فاختصموا إلى النبي r ، فقضى أن دية ما في بطنها غُرَّةٌ عبد أو أمة، فقال ولي المرأة التي غَرِمت: كيف أَغْرَم -يا رسول الله- من لا شرب ولا أكل، ولا نطق ولا استَهَلّ، فمثل ذلك يُطَل، فقال النبي r : «إِنَّمَا هَذَا مِنْ إِخْوَانِ الْكُهَّانِ» من أجل سجعه الذي سجع[(٤)]، ولمسلم عن المغيرة بن شعبة t : «أَسْجَعٌ كَسَجْعِ الأَعْرَابِ؟»[(٥)].

والنبي r في هذا الحديث ينكر السجع الذي يشبه سجع الكهان، الذي يأتي باردًا متكلفًا مستكرهًا، وقد يراد به التأثير على المخاطب لإبطال حق أو إحقاق باطل، وليس الذم لكل سجع، وإلا اكتفى النبي r بإنكار السجع دون تقييده بوصف الكهان أو

---

(١) ينظر: كتاب الصناعتين: ٢٦٠، والمثل السائر: ١/٣٠٨، وتحرير التحبير: ٣٠٠، وشروح التلخيص: ٤/ ٤٤٥، والتبيان، للطيبي: ٢/٥٢١، وطراز الحلة: ٢٣٠، وخزانة الأدب، لابن حجة: ٢/٤١١، والقول البديع: ٨٥، والبديع في القرآن: ١٥٩.

(٢) علم البديع: ١٧٧.

(٣) سر الفصاحة: ١٦٣، وينظر: علم البديع: ١٧٧.

(٤) أخرجه البخاري: (٥٧٥٨) ، ومسلم: (١٦٨١).

(٥) أخرجه مسلم: (١٦٨٢).

الأعراب، ولَمَا ورد منه شيء في كلام الله U وكلام رسوله r، قال النووي (٦٧٦هـ): ((قال العلماء: إنما ذم سجعه لوجهين: أحدهما: أنه عارض به حكم الشرع، ورام إبطاله. والثاني: أنه تكلفه في مخاطبته. وهذان الوجهان من السجع مذمومان.

وأما السجع الذي كان النبي r يقوله في بعض الأوقات، وهو مشهور في الحديث فليس من هذا؛ لأنه لا يعارض به حكم الشرع، ولا يتكلفه، فلا نهي فيه، بل هو حسن. ويؤيد ما ذكرنا من التأويل قوله r: «كَسَجْعِ الأَعْرَاب»، فأشار إلى أن بعض السجع هو المذموم))[1]، وقال ابن حجر (٨٥٢هـ) في شرح الحديث: ((وقد تمسك به من كره السجع في الكلام، وليس على إطلاقه، بل المكروه منه ما يقع مع التكلف في معرض مدافعة الحق، وأما ما يقع عفوًا بلا تكلف في الأمور المباحة فجائز، وعلى ذلك يحمل ما ورد عنه r))[2].

وورد عن النبي r أنه كان يجتنب السجع في الدعاء، وعقد البخاري بابًا في (ما يكره من السجع في الدعاء) وأورد فيه حديث عكرمة عن ابن عباس t قال: انظر السجع من الدعاء فاجتنبه، فإني عهدت رسول الله r وأصحابه لا يفعلون إلا ذلك. يعني لا يفعلون إلا ذلك الاجتناب[3]، وورد مثل ذلك عن عائشة رضي الله عنها تخاطب قاصًّا يقال له ابن أبي السائب، كما سبق في التمهيد[4].

وقد ورد السجع في بعض أدعية النبي r كقوله: «اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلاهَا. اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا»[5].

ولما ورد السجع في دعاء النبي r ذكر العلماء أن المكروه منه ما كان متكلفًا بحيث ينشغل الداعي به عن الخشوع المطلوب في الدعاء، قال الغزالي (٥٠٥هـ) في آداب الدعاء:

---

(١) شرح صحيح مسلم: ١١/١٧٨.

(٢) فتح الباري: ١٠/٢١٨، وينظر: كتاب الصناعتين: ٢٦١، والمثل السائر: ١/٣١٠-٣١٢، وصبح الأعشى: ٢/٢٨١-٢٨٢.

(٣) أخرجه البخاري: (٦٣٣٧).

(٤) ينظر ص (٢٠) من هذا البحث.

(٥) أخرجه مسلم: (٢٧٢٢).

((أن لا يتكلف السجع في الدعاء، فإن حال الداعي ينبغي أن يكون حال متضرع، والتكلف لا يناسبه))[١].

وذكر ابن حجر (٨٥٢هـ) أن السجع قد يستحب، قال: ((ربما كان في بعضه ما يستحب، مثل أن يكون فيه إذعان مخالف للطاعة، كما وقع لمثل القاضي الفاضل في بعض رسائله، أو إقلاع عن معصية، كما وقع لمثل أبي الفرج ابن الجوزي في بعض مواعظه. وعلى هذا يحمل ما جاء عن النبي r، وكذا عن غيره من السلف الصالح. والذي يظهر لي أن الذي جاء من ذلك عن النبي r لم يكن عن قصد إلى التسجيع، وإنما جاء اتفاقًا لعظم بلاغته، وأما من بعده فقد يكون كذلك، وقد يكون عن قصد، وهو الغالب، ومراتبهم في ذلك متفاوتة جدًا، والله أعلم))[٢].

وقد ذكر بعض العلماء أن النبي r قد يقصد إلى السجع، لكن ذلك يأتي مراعاة لما يقتضيه المقام، ومن ذلك ما ذكره قدامة بن جعفر (٣٣٧هـ) في الترصيع، وسبق قوله في فن الجناس، وفيه: ((إنه لا كلام أحسن من كلام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وقد كان يتوخى فيه مثل ذلك))[٣]، وقال أبو هلال العسكري: ((وكان r ربما غير الكلمة عن وجهها؛ للموازنة بين الألفاظ وإتباع الكلمة أخواتها))[٤]، ثم قال: ((وقد اعتمد في موضع تجنب السجع وهو معرّض له، وكلامه كان يطالبه، فقال: «وما يدريك أنه شهيد، لعله كان يتكلم بما لا يعنيه، ويبخل بما لا ينفعه» ولو قال: بما لا يغنيه، لكان سجعًا. والحكيم العليم بالكلام يتكلم على قدر المقامات، ولعل قوله: «ينفعه» كان أليق بالمقام، فعدل إليه))[٥]، وقال ضياء الدين ابن الأثير (٦٣٧هـ): ((وهو r قد نطق به في كثير من كلامه، حتى إنه غير الكلمة عن وجهها إتباعًا لها بأخواتها، من أجل السجع))[٦].

---

(١) إحياء علوم الدين: ١/٤٧٣-٤٧٤، وينظر: فتح الباري: ١١/١٣٩ و٧/٤٠٧.

(٢) فتح الباري: ١٢/٢٥٢.

(٣) ينظر ص (٦٩١) من هذا البحث.

(٤) كتاب الصناعتين: ٢٦١.

(٥) المرجع السابق: ٢٦٢.

(٦) المثل السائر: ١/٣١٠.

على أن النبي r قد يقصد إلى السجع لا لذاته، ومن غير تكلف فيه، ولا استكراه له، وإنما يقصده لكون المعنى قد استدعاه والحال قد اقتضاه، فيأتي في غاية الاعتدال والسهولة والحسن، فيميل إليه القلب وتستجيب له النفس، كما قال عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ): ((إنك لا تجد تجنيسًا مقبولاً، ولا سجعًا حسنًا، حتى يكون المعنى هو الذي طلبه واستدعاه، وساق نحوه، وحتى تجده لا تبتغي به بدلاً، ولا تجد عنه حولاً))[١].

ولقد جاء منه في أحاديث الصحيحين ما راعى فيه النبي r مقتضى حال المخاطب، ومن ذلك ما سبق إيراده في فن الجناس من دعائه للمريض: «اللَّهُمَّ رَبَّ **النَّاسِ**، أَذْهِبِ **الْبَاسَ**» وتعويذه للحسن والحسين: «أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ **التَّامَّة**، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ **وَهَامَّة**، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ **لامَّة**». وذكرت أن النبي r غيّر في بناء الألفاظ طلبًا للسجع والتجنيس، فـ(البأس) مهموز، وسهل همزه، و(لامة) أصلها: ملمة، فعدل عنها، ولعل العدول إلى ما فيه سجع للفوائد التي ذكرتها من قبل في تحليل الحديثين، والله أعلم.

ومن السجع الذي اقتضاه حال المخاطب حديث أنس في شأن أخيه الصغير أبي عمير، وسبق الحديث[٢]، وفيه أن أخاه كان له نُغَر؛ طائر يلعب به، فلما مات حزن، فلما رآه النبي r حزينًا وعلم بموت طائره قال له: «أَبَا **عُمَيْر**، مَا فَعَلَ **النُّغَيْر**؟».

ونلحظ أن السجع هنا مقصود، حيث عدل النبي r إلى تصغير (النُّغَر) ليتحقق السجع، وقد ذكرت من قبل أن المقام عاطفي، والمخاطب طفل، والسجع يحدث تأثيرًا في النفس، إذ هو يخاطب الوجدان والمشاعر، أكثر مما يخاطب العقول، ولذا هو أحسن ما يكون في المقامات العاطفية، وهذا المقام واحد منها، ولما كان المخاطب طفلاً، والأطفال يعجبهم الجرس الصوتي في الكلام، ويطربون له، ويستجيبون له استجابة نفسية، حسن السجع، والله أعلم[٣].

ويمكن للنبي r لتحقيق السجع أن لا يصغر (النغر) ويرجع الاسم المصغر (عمير) إلى أصله (عمر) فيكون الكلام: أبا عمر ما فعل النغر، لكن هذا الخطاب يعتريه أمران، أولهما:

---

(١) أسرار البلاغة: ١١.

(٢) ينظر ص (١١٤) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (١١٦) من هذا البحث.

أن المخاطب طفل، والتصغير يتلاءم مع الطفل، كما سبق بيانه. وثانيهما: أن حرف (الراء) حرف مجهور، فيه شدة، ويصحبه تكرار، أو ما يسمى بالرفرفة والارتعـــاد[١]، والمخاطـــب طفل حزين يحتاج إلى أن يخاطب بلفظ سهل، فلعل في التصغير بحيث تسبق الياء الراء تخفيف لوقع النطق على سمع الطفل، والله أعلم.

ومن المقامات العاطفية التي يتأثر فيها المخاطب بحديث الوجدان والمشـــاعر خطبـــة الأنصار التي سبق ذكرها مرارًا، ويستخدم النبي ﷺ فيها السجع الذي يحدث في النفس تأثيرًا يعمق فيها المعنى، ويشدها إلى المراد، ومما جاء فيها: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ، أَلَمْ أَجِدْكُمْ ضُلاَلاً فَهَدَاكُمُ اللهُ **بِي**، وَكُنْتُمْ مُتَفَرِّقِينَ فَأَلَّفَكُمُ اللهُ **بِي**، وَعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللهُ **بِي؟**» «أَمَا وَاللهِ لَوْ شِئْتُمْ لَقُلْتُمْ فَلَصَدَقْتُمْ وَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا **فَصَدَّقْنَاكَ**، وَمَخْذُولاً **فَنَصَرْنَاكَ**، وَطَرِيدًا **فَآوَيْنَـــاكَ**، وَعَائِلاً **فَأَغْنَيْنَاكَ**» «الأَنْصَارُ **شِعَارٌ**، وَالنَّاسُ **دِثَارٌ**» «اللَّهُمَّ ارْحَمْ **الأَنْصَارَ**، وَأَبْنَاءَ **الأَنْصَـــارِ**، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ **الأَنْصَارِ**»[٢].

ونلحظ في الدعاء الأخير أن النبي ﷺ أظهر لفظ (الأنصار) الثاني والثالـــث، وحـــق الكلام الإضمار، ولعل في ذلك مزيد إيناس لهم وتلطف بهم وتطييب لقلوبهم حينما يتـــردد وصفهم الذي يحبونه، والذي يشعرهم مرة بعد مرة بدوام اعتراف النبي ﷺ بنصرهم وفضلهم على الدعوة الإسلامية، ومع هذا فإن الإظهار أيضًا حقق السجع الذي تآزر معـــه ليكـــون الكلام أكثر تأثيرًا في نفوس الأنصار، والله أعلم.

ومن السجع قول النبي ﷺ في غزوة حنين: «أَنَـــا النَّبِـــيُّ لا **كَـــذِب**، أَنَـــا ابْـــنُ **عَبْدِالْمُطَّلِب**» وقد قال النبي ﷺ هذا القول في مقام الحرب لما ولّى الناس عنـــه منـــهزمين، إظهارًا للشجاعة والقوة والاستهانة بالعدو، وتذكيرًا للناس بصدق نبوته ووعـــد ربـــه ﷻ، وتقوية لقلوبهم وحثًا لهم على الثبات، كما سبق بيانه[٣]. ويلحظ أن النبي ﷺ عـــدل عـــن الانتساب إلى أبيه عبدالله إلى الانتساب إلى جده عبد المطلب، وفي ذلك تحقيق للسجع مع ما

(١) ينظر: المختصر في أصوات اللغة العربية: ١٠٨.

(٢) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٢٣٧، ٣٢٦) من هذا البحث.

قيل من كون النبي ﷺ اشتهر في الجاهلية بجده أكثر من أبيه، كما سبق ذكره[١]، ولعل النبي ﷺ استحسن السجع في هذا المقام لمزيد من التأثير النفسي على المخاطبين، حتى إن خطابه جاء على وزن الشعر، وليس هو من النبي ﷺ بشعر، والله أعلم.

وجاء السجع بحرف (الباء)، وهو حرف مجهور شديد فيه قلقلة[٢]، ولعل في صوته تقوية للمعنى المراد وقوة وقع في نفوس المخاطبين، والله أعلم.

ومن السجع خطبته ﷺ في شأن بريرة رضي الله عنها لما أرادت عائشة رضي الله عنها أن تشتريها لتعتقها، فأبى مواليها إلا أن يكون لهم الولاء، وقد سبق الحديث[٣]، وفيه أن عائشة أخبرت النبي ﷺ فأنكر عليهم، وقام خطيبًا فقال: «أَمَّا بَعْدُ، مَا بَالُ رِجَالٍ يَشْتَرِطُونَ شُرُوطًا لَيْسَتْ فِي كِتَابِ اللهِ. مَا كَانَ مِنْ شَرْطٍ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللهِ فَهُوَ بَاطِلٌ، وَإِنْ كَانَ مِائَةَ شَرْطٍ، قَضَاءُ اللهِ **أَحَقُّ**، وَشَرْطُ اللهِ **أَوْثَقُ**، وَإِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ **أَعْتَقَ**».

وجاء السجع في هذه الفواصل (أَحَق... أَوْثَق... أَعْتَق).

وفي هذا السجع تقوية للمعنى وتعميق للإنكار، خاصة أنه جاء بحرف (القاف) الذي يتلاءم مع مقام الإنكار، فهو حرف مجهور شديد مقلقل مستعل، والاستعلاء هو ارتفاع أقصى اللسان إلى الحنك الأعلى عند النطق بالحرف ((وواضح أن ارتفاع أعلى اللسان يكلف جهدًا أكثر من ارتفاع طرفه، ولذا فهو أثقل، ويناسب المعاني القوية، ويرتبط بالتفخيم))[٤]، والله أعلم.

---

(١) ينظر ص (٣٢٦) من هذا البحث.

(٢) ينظر: المختصر في أصوات اللغة العربية: ١٣٤.

(٣) ينظر ص (٤٨٦) من هذا البحث.

(٤) المختصر في أصوات اللغة العربية: ٦٣، وينظر: ٩٣-٩٤.

سادسًا: حسن الختام.

وبحثه البلاغيون تحت أسماء عديدة منها: الانتهاء، وحسن الانتهاء، وحسن الخاتمة، وحسن المقطع، وبراعة القطع أو المقطع أو المقاطع، وجودة القطع[1].

وقد عني البلاغيون بحسن الختام، وعدوه من المواضع التي ينبغي على المتكلم أن يتأنق فيها غاية التأنق ((لأنه آخر ما يقرع السمع، ويرتسم في النفس، وربما حفظ لقرب العهد به، فإن كان مختارًا حسنًا تلقاه السمع واستلذه، حتى جبر ما وقع فيما سبق من التقصير، كالطعام اللذيذ الذي يتناول بعد الأطعمة التفهة، وإن كان بخلاف ذلك كان على العكس، حتى ربما أنسى المحاسن الموردة فيما سبق))[2].

ويتحقق حسن الختام بجودة النظم، وتخير اللفظ، وسلامة المعنى، وأن يكون مؤذنًا بانتهاء الكلام، مع مطابقة ذلك لمقتضى الحال[3].

((وجميع خواتم السور الفرقانية في غاية الحسن ونهاية الكمال، لأنها بين أدعية ووصايا وفرائض وتحميد وتهليل ومواعظ ومواعد، إلى غير ذلك من الخواتيم التي لا يبقى للنفوس بعدها تشوف إلى ما يقال))[4].

وأما حديث رسول الله r فقد جاء الختام فيه على أبلغ ما يقوله البشر، مراعيًا فيه مقتضى الحال، وخاصة حال المخاطب، وجاء الختام بعدة صور.

فقد يختم النبي r بالدعاء، وحصل ذلك في مقام التثبيت والتحفيز للصبر، ومن شواهد ذلك خطبته قبل لقاء العدو في غزوة الأحزاب، لتثبيت الناس وتصبيرهم وبث التفاؤل بالنصر في نفوسهم، وسبق ذكرها[5]، وفيها أنه r دعا في آخرها بهزيمة المشركين

---

(١) ينظر: معجم المصطلحات البلاغية: ١/٣٢٦-٣٢٩ و٤٠٠ و٤٠١، و٢/٤٤٢، والبديع في القرآن: ٣٦٣.

(٢) أنوار الربيع: ٦/٣٢٤، وينظر: كتاب الصناعتين: ٤٣٨، والعمدة: ١/٢٣٩، وتحرير التحبير: ٦١٦، وشروح التلخيص: ٤/٥٤٣، والتبيان، للطيبي: ٢/٤٩٠، وشرح الكافية البديعية: ٣٣٣، وخزانة الأدب، لابن حجة: ٢/٤٩٣، والقول البديع: ١١٨، وعلم البديع: ٢/١٤٣-١٤٤.

(٣) ينظر: المراجع السابقة.

(٤) بديع القرآن: ٣٤٦، وينظر: تحرير التحبير: ٦٢٠.

(٥) ينظر ص (١٨٧) من هذا البحث.

ونصر المؤمنين فقال: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ**» وفي رواية: «**اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، سَرِيعَ الْحِسَابِ، اللَّهُمَّ اهْزِمْ الأَحْزَابَ، اللَّهُمَّ اهْزِمْهُمْ وَزَلْزِلْهُمْ**» وفي رواية: «**وَزَلْزِلْ بِهِمْ**».

ومع أن الدعاء في هذا الموطن مطلوبٌ استعانةً بالله U وإظهارًا للافتقار إليه واستنزالاً للنصر منه، إلا أن إعلانه في الخطبة وإسماع الناس إياه يراد به تقوية قلوب المؤمنين y وتثبيتهم وبعث التفاؤل لديهم بالنصر، خاصة أنهم كانوا في شدة وكرب عظيم. كما أن في الدعاء تعريضًا بالتوكل على الله U وعدم الإعجاب بالنفس والاتكال على حولها وقوتها، وهذه المعاني تضمنتها ألفاظ الدعاء، قال ابن حجر (٨٥٢هـ): ((أشار بهذا الدعاء إلى وجوه النصر عليهم، فبـ(الكتاب) إلى قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤]. وبـ(مجري السحاب) إلى القدرة الظاهرة في تسخير السحاب، حيث يحرك الريح بمشيئة الله تعالى، وحيث يستمر في مكانه مع هبوب الريح، وحيث تمطر تارة وأخرى لا تمطر، فأشار بحركته إلى إعانة المجاهدين في حركتهم في القتال، وبوقوفه إلى إمساك أيدي الكفار عنهم، وبإنزال المطر إلى غنيمة ما معهم، حيث يتفق قتلهم، وبعدمه إلى هزيمتهم حيث لا يحصل الظفر بشيء منهم، وكلها أحوال صالحة للمسلمين. وأشار بـ(هازم الأحزاب) إلى التوسل بالنعمة السابقة، وإلى تجريد التوكل، واعتقاد أن الله هو المنفرد بالفعل، وفيه التنبيه على عظم هذه النعم الثلاث، فإن بإنزال الكتاب حصلت النعمة الأخروية وهي الإسلام، وبإجراء السحاب حصلت النعمة الدنيوية وهي الرزق، وبهزيمة الأحزاب حصل حفظ النعمتين، وكأنه قال: اللهم كما أنعمت بعظيم النعمتين الأخروية والدنيوية وحفظتهما فأبقهما))[(١)]، والله أعلم.

ومن الختم بالدعاء ما ختم به النبي r خطبته في الأنصار حينما وجدوا على رسول الله r لما قسم غنائم غزوة حنين في المهاجرين والطلقاء، ولم يعطهم شيئًا، وقد سبقت الخطبة[(٢)]، وقال في آخرها: «اللَّهُمَّ ارْحَمْ الأَنْصَارَ، وَأَبْنَاءَ الأَنْصَارِ، وَأَبْنَاءَ أَبْنَاءِ الأَنْصَارِ» وذكرت من قبل أن هذا الدعاء بما يحمله من معاني الرحمة، وبما يتضمنه من المؤثرات البلاغية

---

(١) فتح الباري: ٦/١٥٧.

(٢) ينظر ص (٧٤) من هذا البحث.

(السجع والإظهار...) لكفيل بأن يطيب نفوس الأنصار، ويزيل ما بقي فيها من غضب، ولذا كان هو آخر ما ختم به النبي r الخطبة، فكان له الأثر العظيم في تأثر الأنصار واستجابتهم ورضاهم، وهو القوم أهل لين ورقة وعاطفة، فبكوا، وأخضلوا لحاهم، وقالوا: رضينا برسول الله قسمًا وحظًا.

وقد يختم النبي r بما يؤكد التنفير من الفعل الذي أراد المخاطب الوقوع فيه، كما في حديث عمر بن الخطاب t حينما أراد أن يشتري برخص فرسه الذي تصدق به، وسبق الحديث، وفيه أنه سأل عن ذلك النبي r فقال: «لا تَشْتَرِه، -وفي رواية: وَلا تَعُدْ فِي صَدَقَتِكَ- وَإِنْ أَعْطَاكَهُ بِدِرْهَمٍ وَاحِدٍ، **فَإِنَّ الْعَائِدَ فِي صَدَقَتِهِ كَالكَلْبِ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ**» فختم النبي r النهي عن الفعل بتشبيه يتضمن صورة بشعة قبيحة، مما تعافه النفوس وتستقذره الطبائع، لتكون هذه الصورة هي آخر ما يرتسم في النفس ويستقر خياله في الذهن، وفي ذلك تنفير عن المنهي عنه ومزيد تأكيد للنهي(١)، وسبق الحديث عن هذه الصورة ونظمها في مبحث التشبيه من هذا الفصل(٢)، والله أعلم.

وقد يختم النبي r بقاعدة عامة وقع المخاطب في مخالفتها، فيحصل بتذييلها والختام بها مزيد تقرير وتأكيد، ومن ذلك ما جاء في خطبته r في شأن بريرة رضي الله عنها لما أرادت عائشة رضي الله عنها أن تشتريها لتعتقها، فأبى مواليها إلا أن يكون لهم الولاء، وقد سبق الحديث(٣)، وكان آخر ما ختم به خطبته قوله r: «قَضَاءُ اللهِ أَحَقُّ، وَشَرْطُ اللهِ أَوْثَقُ، **وَإِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ**» فقوله: «وَإِنَّمَا الْوَلاءُ لِمَنْ أَعْتَقَ» قاعدة عامة جاءت في خاتمة الكلام لتقريرها في نفوس المخاطبين حيث وقعوا في مخالفتها، والله أعلم.

ومن ذلك خطبته في شأن الثلاثة الذين تقالوا عبادة النبي r فأرادوا أن يرغبوا عن منهجه ويشددوا على أنفسهم، كما سبق ذكره(٤)، فخاطبهم النبي r وخطب في الناس،

---

(١) ينظر: المحسنات البديعية في الصحيحين: ٢٧٣.

(٢) ينظر ص (٦١٧) من هذا البحث.

(٣) ينظر ص (٤٨٦) من هذا البحث.

(٤) ينظر ص (١٢٢) من هذا البحث.

فكان آخر ما قال في الموضعين: «**فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**» وهذه القاعدة العامة هي التي وقع المخاطبون في مخالفتها، فختم بها الكلام لتقرر المعنى وتؤكده، والله أعلم.

وقد لا يكون المخاطب واقعًا في مخالفة القاعدة، ولكن وقع له فيها شبهة وإشكال، فيختم النبي r بهذه القاعدة تقريرًا وتأكيدًا، كما في حديث سهل بن سعد الساعدي t أن رجلاً في إحدى غزوات النبي r كان لا يدع لهم شاذة ولا فاذة من المشركين إلا اتبعها يضربها بسيفه، فقيل: ما أجزأ منا اليوم أحد كما أجزأ فلان. فقال رسول الله r : «أَمَا إِنَّهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ» فقال رجل من القوم: أنا صاحبه. فخرج معه، كلما وقف وقف معه، وإذا أسرع أسرع معه، فجرح الرجل جرحًا شديدًا، فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه بالأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فخرج الرجل إلى رسول الله r ، فقال: أشهد أنك رسول الله. قال: «وَمَا ذَاكَ؟» قال: الذي ذكرت آنفًا أنه من أهل النار، فأعظم الناس ذلك، فقلت: أنا لكم به، فخرجت في طلبه، ثم جرح جرحًا شديدًا فاستعجل الموت، فوضع نصل سيفه في الأرض وذبابه بين ثدييه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه. فقال رسول الله r عند ذلك: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ» وفي رواية: «إِنَّ الْعَبْدَ لَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَإِنَّهُ لَمِنْ أَهْلِ النَّارِ، وَيَعْمَلُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، **وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِخَوَاتِيمِهَا**» وفي رواية: «**وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ**»(1). فختم النبي r خطابه بقوله: «وَإِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالْخَوَاتِيمِ» ليؤكد تقرير هذه القاعدة العظيمة في نفوس المخاطبين، حيث تعجبوا وعظم في نفوسهم أن يكون الرجل فيما يبدو لهم يقاتل المشركين قتالاً شديدًا ويبلي فيه بلاء حسنًا، ثم يكون من أهل النار، فبين النبي r أن الأمر فيما يبدو لهم، ولكن العبرة بالخواتيم التي لا يستطيع المرء أن يكتمها، ختم الله لي ولوالدَي وزوجي وإخواني وأخواتي ومشرفي ومشايخي وأحبابي والقراء، ختم الله لنا جميعًا أعمالنا وأعمارنا بالخيرات والصالحات وبلغنا من الجنان أعلى الدرجات.

---

(1) أخرجه البخاري: (٢٨٩٨ و٤٢٩٣ و٦٦٠٧) ، ومسلم: (١١٢).

الخاتمة

وبعد، فالحمد لله U على أن يسر لي إتمام البحث، وإني لأرجو أن يكون قد حقق ما يصبو إليه من الكشف عن (رعاية مقتضى الحال) في الخطاب النبوي البليغ، وأن يكون له أثر في ثراء البحث البلاغي عامة والبلاغة النبوية خاصة.

ولقد تناولت في هذا البحث جملة من المسائل والقضايا.

ففي التمهيد تناولت (رعاية حال المخاطب) في البلاغة والنقد، وبينت أهمية مراعاة مقتضى الحال في إنشاء الخطاب البليغ. وأشرت إلى أن (الحال) في تراثنا ليس هو حال المخاطب وحده، كما ادّعاه بعض المعاصرين، بل هو أحوال للمخاطَب والمتكلم، وغيرهما، وإن كان حال المخاطب حظي باهتمام خاص. ثم تناولت عناية البلاغيين بأحوال المخاطَب، وأبرز الأحوال التي عني البلاغيون برعايتها، كالحالة النفسية للمخاطَب، ومترلته الاجتماعية والسياسية والوظيفية، ومستواه اللغوي والثقافي والفكري، وجنسه، وخِلقته، وغير ذلك من الأحوال. ثم تناولت عناية النبي r بمعرفة أحوال المخاطَبين معددًا دوافعها ومظاهرها وآثارها.

وفي الفصل الأول تناولت (العوامل المؤثرة في رعاية حال المخاطب)، وكانت أبرز العوامل التي تناولها البحث: الديانة، والبيئة، والمترلة، والجنس والعمر، والصفات السلوكية، وعدد المخاطبين.

وبين البحث أن النبي r عني برعاية هذه العوامل في خطابه عناية دقيقة، فكان لها أثر في اختيار مفرداته وتراكيبه ووسائل تعبيره.

وفي الفصل الثاني تناولت (اختيار الوسائل التعبيرية الملائمة لحال المخاطب)، وكانت أبرز الوسائل التي تناولها البحث: الدعاء، والخطابة، والحوار، والوصية، والرسالة، والقصة، وإنشاد الشعر، والتعبير بغير الكلام.

وبين البحث أن اختيار النبي r لهذه الوسائل في كثير من المواقف جاء مراعاة لحال المخاطب.

وأرشد البحث إلى أن بلاغة البليغ لا ينبغي أن تتوقف في مراعاة مقتضى الحال عند اختيار الألفاظ والعبارات والمعاني والأساليب البلاغية؛ بل يتعدى ذلك إلى اختيار الوسائل والقوالب التي تحمل تلك الألفاظ والمعاني والأساليب، حيث يقتضي الحال وسيلة دون أخرى، أو أكثر من وسيلة، بحسب ما يقتضيه الحال ويستدعيه المقام.

كما أبرز البحث أثر التعبير بغير الكلام في الكشف عن الدلالات والمعاني التي يرمي إليها المخاطِب، ومن صور التعبير بغير الكلام: السكوت، ونبرة الصوت، والإشارات الجسمية، ونحو ذلك مما يريد به المتكلم الإبانة عن مقصوده، ويشمل هذه الوسائل مصطلح (اللغة غير اللفظية).

وفي الفصل الثالث تناولت (رعاية حال المخاطب في اختيار المفردات)، وأشرت إلى ما ذكره البلاغيون من أن المفردة الفصيحة لا توصف بالبلاغة مجردة عن سياقها، وإنما سياقها هو الذي ينبئ عن بلاغتها، وأن اختيار اللفظة التي تدل على المعنى المراد يتناول جانبين فيها: مادة الكلمة، وصيغتها، واختيار الألفاظ في كلا الجانبين لا يتم إلا من خلال النظر في موضعها من النص على ما يقتضيه الحال، وبذلك يتفاوت البلغاء في حسن اختيار الألفاظ التي تنبئ عن مكنونات النفس ومراداتها، وتصور الحال التي نُظم الكلام على مقتضاها. وبينت أن النبي ﷺ عني عناية فائقة باختيار الألفاظ التي تعبر عن المقصود، وتلائم مقتضى حال المخاطب، سواء من حيث مادتها أو صيغتها، كما أبرزت سمة مهمة من سمات بلاغة النبي ﷺ يظهر فيها بجلاء مراعاة النبي ﷺ لمقتضى حال المخاطب، وهي قدرته على مخاطبة كل قوم بلغتهم.

وفي الفصل الرابع تناولت (رعاية حال المخاطب في بناء التراكيب) وذكرت من أحوال التراكيب الجملة الخبرية، وتناولت فيها أضرب الخبر التي يتبين فيها بوضوح رعاية النبي ﷺ لحال المخاطب.

ومن أحوال التراكيب: الجملة الإنشائية، وتناولت فيها أساليب الإنشاء الطلبي المشهورة من استفهام وأمر وهي ونداء، وأما التمني فلم يتبين لي فيه حديث يظهر فيه مراعاة مقتضى حال المخاطب. كما تناولت بعض أساليب الإنشاء غير الطلبي؛ لما في هذه الأساليب من دقائق ومزايا بلاغية، ولأن اختيارها في الكلام البليغ لا يكون إلا مراعاة لمقتضى الحال،

وتناولت منها: الترجي، والقسم، والتعجب، وبينت كيف جاءت هذه الأساليب في الخطاب النبوي مراعية لمقتضى حال المخاطب.

كما تناولت من أحوال التراكيب التقديم والتأخير، والحذف والذكر، والقصر، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب. وبينت أن النبي ﷺ ينظم خطابه ويؤلف بين ألفاظه وجمله، فيخبر وينشئ، ويقدم ويؤخر، ويحذف ويذكر، ويقصر ولا يقصر، ويصل ويفصل، ويوجز ويطنب، كل ذلك قد يكون بأثر من حال المخاطب، ورعاية لمقتضاه.

وفي الفصل الخامس تناولت (مخالفة مقتضى الظاهر رعايةً لحال المخاطب) وذكرت من صور المخالفة: المخالفة في أضرب الخبر، والمخالفة بين الخبر والإنشاء، والمخالفة بين الإضمار والإظهار، والالتفات، والأسلوب الحكيم، والتغليب، والمخالفة في صيغ الأفعال. وفي هذا الفصل يتضح أكثر رعاية النبي ﷺ لمقتضى حال المخاطب؛ لأن العدول عن الأصل والخروج على خلاف مقتضى الظاهر لا ينبغي أن يكون إلا مراعاة لمقتضى الحال، و(حال المخاطب) أبرز الأحوال المؤثرة في المخالفة والعدول عن الأصل، بل إن من صور الخروج ما يكون مرتبطًا بحال المخاطب دون غيره من الأحوال، كمخالفة الأصل في أضرب الخبر.

وفي الفصل السادس تناولت (اختيار الصور البيانية والفنون البديعية الملائمة لحال المخاطب)، ونبهت إلى أن رعاية مقتضى الحال لا تختص بأحوال التراكيب التي ينظمها علم المعاني، بل تشملها وصور البيان وفنون البديع، فإذا كان من البلاغة اختيار النظم الملائم للحال، فإنه من غير البلاغة عدم الملاءمة في اختيار الصور البيانية، والفنون البديعية.

وتناولت في هذا الفصل اختيار النبي ﷺ للصور البيانية الملائمة لحال المخاطب، وذكرت الأساليب التي يبحثها البلاغيون في علم البيان (التشبيه، والمجاز، والكناية). ومع أن تصوير المعاني ليس مقتصرًا على الأساليب البيانية، إلا أنها أبرز الأساليب التي يرتكز عليها المتكلم في بناء الصورة الفنية ورسم أبعادها ومشاهدها.

وكذلك تناولت في هذا الفصل اختيار النبي ﷺ للفنون البديعية الملائمة لحال المخاطب، وتناولت منها: حسن الابتداء، والطباق والمقابلة، والمشاكلة، والجناس، والسجع، وحسن الختام.

وتبين من خلال الشواهد التي ذكرتها لفنون البديع أن هذه الفنون لم تأت لمجرد الزينة اللفظية، بل تطلبها المقام، ومقتضى الحال، وخاصة حال المخاطب. ولعل الشواهد التي

ذكرت مثلاً للجناس والسجع، كالدعاء للمريض وتعويذ الأطفال، تبين بجلاء أثر حال المخاطب في اختيار النبي r للفنون البديعية.

وبعد هذا العرض الموجز لما تناوله البحث، فإني أوصي بما يلي:

١- العناية بالبحث البلاغي في الحديث النبوي، وتشجيع طلاب الدراسات العليا على القيام بذلك، حيث تفتقر المكتبة البلاغية إلى كثير من الدراسات في هذا الحقل المهم، بعد أن أكثر الدارسون من تناول القرآن الكريم والشعر العربي، مع حاجتهما إلى مزيد من الدراسات.

٢- إجراء مزيد من الدراسات في (رعاية أحوال المخاطبين) في القرآن الكريم والسنة النبوية، على أن يستقل كل بحث بنوع من المخاطبين، فيبحث مثلاً خطاب المرأة في القرآن والسنة، وخطاب الطفل، وخطاب الكفار، أو اليهود، أو النصارى، أو أهل الكتاب عمومًا، وخطاب الأعراب، وخطاب الرؤساء، أو الملأ، أو أي نوع من المخاطبين يمكن أن يستقل ببحث علمي.

٣- الكشف في دراسات علمية عن أثر الأحوال الأخرى غير حال المخاطب، في بناء الحديث النبوي، كحال المتكلم وموضوع الحديث وسياقه اللغوي، وغير ذلك من الأحوال المؤثرة.

وبعد، فهذا جهد المقل، أسأل الله أن يبارك فيه، ويحقق به خيرًا رجوته لنفسي ولأمتي، وهو الموفق لكل خير، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين.

فهرس الآيات القرآنية

مرتبة بترتيب السور والآيات في المصحف

فهرس الأحاديث النبوية

مرتبة أطرافها بترتيب حروف الهجاء

طرف الحديث	الصفحة
الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ	٦٢١، ٦٦٢
مَثَلُ الَّذِي يُعْطِي الْعَطِيَّةَ، ثُمَّ يَرْجِعُ فِيهَا، كَالْكَلْبِ	٦١٩
مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا	٦٩
مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِن الْهُدَى وَالْعِلْمِ	٦٩
مَرْحَبًا بِابْنَتِي	١٠٣، ١٠٩، ٤١٧، ٤٥٨
مُرْهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَسْتَظِلَّ، وَلْيَقْعُدْ، وَلْيُتِمَّ صَوْمَهُ	٣٩٢، ٥١٣، ٥٤٠
مُرْهُ فَلْيُرَاجِعْهَا، ثُمَّ لِيُمْسِكْهَا حَتَّى تَطْهُرَ	٥٠٣
مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ	٣٩٣، ٥١٥، ٦٢٨
مِمَنْ أَنْتُم ؟ أَمِنْ مَوَالِي يَهُوْدَ ؟	٣٣
مَن اتَّبَعَ جَنَازَةَ مُسْلِمٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا	٧٠
مَنْ ادَّعَى دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَإِنَّهُ مِنْ جُثَا جَهَنَّمَ	٢٨١
مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَكُونَ مِثْلَ صَاحِبِ فَرَقِ الأَرُزِّ	٢٣٣
مَن الْقَوْمُ؟ قالوا: المسلمون	٣٣
مَن الْقَوْمُ؟أو مَن الْوَفْدُ؟ قالوا: ربيعة...	٣٣
مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟	٤٠٠
مِنْ أَيْنَ هَذَا؟	٤٠٨
مَنْ بَدَا جَفَا	٢٧
مَنْ تَرَوْنَ أَنْ نَكْسُوَ هَذِهِ؟... أَبْلِي وَأَخْلِقِي	١٢١، ٣٤٥، ٤٢٢، ٥٠٤، ٥٣٨
مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ	٢٨٦، ٦٥٨
مَنْ ذَا؟... أَنَا أَنَا	٥٣٩
مَنْ رَابَهُ شَيْءٌ فِي صَلاتِهِ فَلْيُسَبِّحْ	٥٨٢
مَنْ رَجُلٌ يَتَقَدَّمُنَا، فَيَمْدُرُ الْحَوْضَ	٢٧٩
مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ	٤١
مَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ	١٦٧
مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللهِ	٥٢٩
مَنْ لَمْ يَكُنْ مِنْكُمْ مَعَهُ هَدْيٌ	٤٢٧
مَنْ مَاتَ لَهُ ثَلاثَةٌ مِن الْوَلَدِ فَاحْتَسَبَهُمْ دَخَلَ الْجَنَّةَ	١٠٧
مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ إِلَى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الْحَبَشَةِ	٣٦، ٨٦
مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إِلى أَكْثَمِ بنِ صَيفِيّ	٢٢٨
مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللهِ، إِلَى الْمُنْذِرِ بْنِ سَاوَى	٨٧، ٢٢٧
مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الْمُقَوقِسِ عَظِيمِ القِبْطِ	٣٦، ٨٦، ٢٢٧
مَنْ وَضَعَ هَذَا؟	٢٥٦

طرف الحديث	الصفحة
مَنْ يَأْتِ بَنِي قُرَيْظَةَ، فَيَأْتِينِي بِخَبَرِهِمْ	١٧١
مَنْ يَأْتِينَا بِخَبَرِ الْقَوْمِ؟	١٧٥
مَهْ. عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ	٣٩٢، ٦٠٤
مَهْلاً يا عَائِشَةُ، عَلَيْكِ بِالرِّفْقِ	٥٧
نَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ غُزَاةً فِي سَبِيلِ اللهِ	٤٦١
نَامَ الْغُلَيِّمُ	٣٤٠
نَظَّرَ اللهُ وَجْهَ امْرِئٍ أَوْجَزَ فِي كَلامِهِ	٥٢٥
نِعْمَ الرَّجُلُ عَبْدُ اللهِ، لَوْ كَانَ يُصَلِّي مِنْ اللَّيْلِ	٤٧، ٣٢٨
نعم، إِذَا رَأَت الْمَاءَ	١٨١
نعم، إِذَا رَأَت الْمَاءَ... نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ	١١٢، ٣٨٧، ٤٤٥
نعم، إذا كان مُفرَحًا	٢٦، ٣٤٢
نَعَمْ، تَصَدَّقْ عَنْهَا	٤٠٤، ٤٦٦
نَعَمْ، حُجِّي عَنْهَا	٤٠٤، ٤٦٧
نَعَمْ، صِلِي أُمَّكِ	٤٠٣، ٤٦٦
نَعَمْ، لَكِ أَجْرُ مَا أَنْفَقْتِ عَلَيْهِمْ	٤٥٥
نُقِرُّكُمْ بِهَا عَلَى ذَلِكَ، مَا شِئْنَا	٥٤١
هَذَا الْحِمَالُ لا حِمَالَ خَيْبَرْ	٢٣٩
هَذَا فُلانٌ وَهُوَ مِنْ قَوْمٍ يُعَظِّمُونَ الْبُدْنَ فَابْعَثُوهَا لَهُ	٣٦
هَذَا لَحْمٌ لَمْ آكُلْهُ قَطُّ	٥٦٤
هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟	٥٤، ٢٠٩
هَلْ أَشَارَ إِلَيْهِ إِنْسَانٌ مِنْكُمْ أَوْ أَمَرَهُ بِشَيْءٍ؟	٥٠٢
هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ، وَفِي سَبِيلِ اللهِ مَا لَقِيتِ	٢٣٨
هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟	٣٧٧
هَلْ تَدْرُونَ مِمَّ أَضْحَكُ؟	٢٠٦، ٣٧٧
هَلْ تَرَوْنَ قِبْلَتِي هَا هُنَا؟	٥٥٠
هَلْ تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟	٦٢٩
هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلا بِضُعَفَائِكُمْ	١٤٢، ٣٨٢، ٤٨١، ٥٦٣
هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَهَا؟	٣٣٠
هَلْ عِنْدَكَ مِنْ شَيْءٍ؟	٢٤٧
هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟	٤٤٣
هَلْ لَكَ بَيِّنَةٌ؟	٥٩٧
هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟	٧٠، ٢١٤، ٦٢٤

فهرس الأبيات الشعرية

مرتبة قوافيها بترتيب حروف الهجاء

ثبت لمصادر البحث ومراجعه

١- إتحاف ذوي البصائر بشرح روضة الناظر، للدكتور عبد الكريم النملة- دار العاصمة بالرياض- الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٢- الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- المكتبة العصرية- بيروت- ١٤٠٨هـ.

٣- الآحاد والمثاني، لابن أبي عاصم- تحقيق: د. باسم الجوابرة- دار الراية بالرياض- الطبعة الأولى ١٤١١هـ.

٤- أحكام القرآن، لأبي بكر ابن العربي- تحقيق: محمد عبد القادر عطا- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.

٥- إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، وبذيله تخريج الإحياء لزين الدين العراقي- تحقيق: سيد إبراهيم- دار الحديث بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٦- أخبار الحمقى والمغفلين، لابن الجوزي.

٧- الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح المقدسي- تحقيق: شعيب الأرنؤوط وعمر القيام- مؤسسة الرسالة ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٨- أدب الحوار في الإسلام، للدكتور محمد سيد طنطاوي- دار نهضة مصر- ٢٠٠٢م.

٩- أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي- تعليق: محمد كريم راجح- دار اقرأ ببيروت- الطبعة الخامسة ١٤٠٦هـ.

١٠- أدب الكاتب، لابن قتيبة- تحقيق: محمد الدالي- مؤسسة الرسالة ببيروت.

١١- أدوات التشبيه، للدكتور محمود موسى حمدان- مطبعة الأمانة بمصر- الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

١٢- الأدوات المفيدة للتنبيه في كلام العرب، لفتح الله صالح المصري- دار الوفاء بمصر- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٣- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، للقسطلاني- المطبعة الأميرية ببولاق مصر- الطبعة السادسة ١٣٠٥هـ.

١٤- إرشاد العقل السليم، لأبي السعود العمادي- دار إحياء التراث العربي- بيروت.

١٥- إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول، للشوكاني- تحقيق: شعبان إسماعيل- دار الكتبي- مصر- الطبعة الأولى/١٤١٣هـ.

١٦- إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السبيل، للألباني- المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثانية/١٤٠٥هـ.

١٧- أساس البلاغة، للزمخشري- تحقيق: عبد الرحمن محمود- دار المعرفة ببيروت- ١٣٩٩هـ.

١٨- الأساليب الإنشائية وأسرارها البلاغية في الحديث النبوي في الجزء الأول من (الترغيب والترهيب) للمنذري، لأحمد ماضي عناني- رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر- كلية اللغة العربية بالزقازيق، عام ١٩٩٦م.

١٩- أساليب الدعوة الإسلامية المعاصرة، للدكتور حمد العمار- دار إشبيليا بالرياض- الطبعة الثالثة ١٤١٨هـ.

٢٠- أساليب الطلب عند النحويين والبلاغيين، للدكتور قيس إسماعيل القيسي – نشر بيت الحكمة بجامعة بغداد.

٢١- أساليب العطف في القرآن الكريم، للدكتور مصطفى حميدة- مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر- الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

٢٢- أساليب القصر في القرآن الكريم، للدكتور صباح عبيد دراز- مطبعة الأمانة بمصر- الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٢٣- استراتيجيات الخطاب، لعبد الهادي بن ظافر الشهري- دار الكتاب الجديد ببيروت- الطبعة الأولى ٢٠٠٤م.

٢٤- الاستفهام في الصحيحين، للدكتور عبد العزيز العمار- رسالة دكتوراه لم تنشر، مقدمة لقسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عام ١٤٢٤هـ.

٢٥- الاستيعاب في معرفة الأصحاب، لابن عبد البر القرطبي- تحقيق: علي محمد البجاوي- دار الجيل ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٢٦- أسد الغابة في معرفة الصحابة، لعز الدين ابن الأثير- تحقيق: محمد البنا وآخرين- دار الشعب بمصر.

٢٧- أسرار البلاغة، لعبد القاهر الجرجاني- تحقيق: محمود شاكر- دار المدني- جدة- الطبعة الأولى/١٤١٢هـ.

٢٨- أسرار العربية، لبي البركات الأنباري- تحقيق: د. فخر صالح قدارة- دار الجيل ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٢٩- الأسلوب الحكيم، للدكتور محمد بن علي الصامل- دار كنوز إشبيليا بالرياض- الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٣٠- أسلوب الحوار في صحيح البخاري، لبدر عبد العال أبو صغير- رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر- كلية اللغة العربية بأسيوط، عام ١٤٢٠هـ.

٣١- أسلوب الحوار في صحيح مسلم، لمحمود السيد أبو شلبي- رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر- كلية اللغة العربية بالمنصورة، عام ١٤١٨هـ.

٣٢- الأسلوب الكنائي، للدكتور محمد السيد شيخون- مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٣٩٨هـ.

٣٣- الأسلوب في الإعجاز البلاغي، لمحمد الكواز- جمعية الدعوة الإسلامية العالمية- ليبيا.

٣٤- الإشارات الجسمية، للدكتور كريم زكي حسام الدين- دار غريب بالقاهرة- الطبعة الثانية ٢٠٠١م.

٣٥- الإصابة في تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلاني- تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٥هـ.

٣٦- إصلاح الإيضاح، للدكتور عبد المحسن العسكر- بحث في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- العدد التاسع والأربعون، محرم ١٤٢٦هـ.

٣٧- إصلاح المنطق، لابن السكيت- تحقيق: أحمد شاكر وعبد السلام هارون- دار المعارف بالقاهرة.

٣٨- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، للشنقيطي- عالم الكتب- بيروت.

٣٩- الإعجاز البلاغي، للدكتور محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.

٤٠- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، لمصطفى صادق الرافعي- دار الكتاب العربي ببيروت- ١٤١٠هـ.

٤١- إعراب القراءات الشواذ، لأبي البقاء العكبري- تحقيق: محمد السيد أحمد عزوز- عالم الكتب ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٤٢- إعراب القرآن، لأبي جعفر النحاس- تحقيق: د. زهير غازي زاهد- عالم الكتب ببيروت- الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.

٤٣- إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن قيم الجوزية- مراجعة طه عبد الرؤوف- دار الجيل- بيروت- ١٩٧٣م.

٤٤- الأعلام، للزركلي- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الثامنة ١٩٨٩م.

٤٥- الأغاني، لأبي الفرج الأصفهاني- تحقيق: الأستاذ مهنا وسمير جابر- دار الفكر ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.

٤٦- الأفعال في القرآن الكريم، لعبد الحميد السيد- دار البيان العربي- جدة- الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.

٤٧- اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية-تحقيق: ناصر العقل- مكتبة الرشد- الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.

٤٨- الاقتضاب في شرح أدب الكتاب، لابن السيد البطليوسي- تحقيق: مصطفى السقا ود. حامد عبد المجيد – الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٩٨١م.

٤٩- الأقصى القريب، لزين الدين التنوخي- مطبعة السعادة– مصر– الطبعة الأولى/١٣٢٧هـ.

٥٠- الالتزام الإسلامي في الشعر، للدكتور ناصر بن عبد الرحمن الخنين- دار الأصالة بالرياض- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٥١- الأمر والنهي عند علماء العربية والأصوليين، للدكتور ياسين جاسم المحيمد- دار إحياء التراث العربي ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٥٢- أنوار الربيع في أنواع البديع، لابن معصوم المدني- تحقيق: شاكر هادي شكر- مطبعة النعمان بالنجف- الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ.

٥٣- أوزان الفعل ومعانيها، لهاشم طه شلاش – مطبعة الآداب بالنجف – ١٩٧١م.

٥٤- أوضح المسالك لألفية ابن مالك، لابن هشام- ومعه عدة السالك إلى تحقيق أوضح المسالك لمحمد محيي الدين عبد الحميد- المكتبة العصرية- بيروت.

٥٥- إيضاح الإيضاح، لجمال الدين الآقسرائي- تحقيق: ميلاد القذافي- دار الشعب بليبيا- الطبعة الأولى ٢٠٠٣م.

٥٦- الإيضاح، للخطيب القزويني- شرح محمد عبد المنعم خفاجي– الشركة العالمية للكتاب– بيروت ١٩٨٩م.

٥٧- البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي- دار الفكر- بيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٥٨- البداية والنهاية، لابن كثير- تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرين- دار الكتب العلمية بيروت- الطبعة الأولى١٤٠٥هـ.

٥٩- بديع القرآن، لابن أبي الإصبع- تحقيق: د.حفني محمد شرف– نهضة مصر للطباعة والنشر– مصر.

٦٠- البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، لجميل عبد المجيد- الهيئة المصرية العامة للكتاب/١٩٩٨م.

٦١- البديع في القرآن، للدكتور إبراهيم محمود علان- منشورات دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة- الطبعة الأولى ٢٠٠٢م.

٦٢- البديع: المصطلح والقيمة، لعبد الواحد علام- مكتبة الشباب- مصر/١٩٩٢م.

٦٣- البرهان الكاشف عن إعجاز القرآن، لكمال الدين لزملكاني-تحقيق: أحمد مطلوب وخديجة الحديثي- مطبعة العاني- بغداد- الطبعة الأولى/١٤٢٠هـ.

٦٤- البرهان في علوم القرآن، لبدر الدين الزركشي- تحقيق: يوسف المرعشلي وآخرين– دار المعرفة– بيروت– الطبعة الأولى/١٤١٠هـ.

٦٥- البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب- تحقيق: د. أحمد مطلوب، دة. خديجة الحديثي- مطبعة العاني ببغداد- الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ.

٦٦- البرهان في وجوه البيان، لابن وهب الكاتب، في الطبعة التي سمي الكتاب فيها: مقدمة النثر، ونسب لقدامة بن جعفر- تحقيق: عبد الحميد العبادي- دار الكتب العلمية ببيروت- ١٤٠٢هـ.

٦٧- البصائر والذخائر، لأبي حيان التوحيدي- تحقيق: د. وداد القاضي- دار صادر ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٦٨- بلاغة أساليب التحية في الشعر العربي، للدكتور محمد بن علي الصامل- دار كنوز إشبيليا بالرياض- الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٦٩- بلاغة الأمر والنهي في النسق القرآني، للسيد عبد الرحيم عطية- دار السلام العالمية بمصر.

٧٠- بلاغة التراكيب في القصص النبوي في الصحيحين، لمحمد السيد محمد الطباخ- رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر، عام ١٤٢٠هـ.

٧١- بلاغة الرسول ﷺ في تقويم الأخطاء، لناصر راضي الزهري إبراهيم- رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر- كلية اللغة العربية بأسيوط، عام ١٤٢٦هـ.

٧٢- بلاغة الرسول، للدكتور علي محمد حسن العماري – دار الأنصار بالقاهرة.

٧٣- بلاغة الطباق والمقابلة في الحديث النبوي، لصبحي إبراهيم المليجي- رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر- كلية اللغة العربية بالقاهرة، عام ١٩٩٨هـ.

٧٤- البلاغة العالية في علم البيان، لعبد المتعال الصعيدي- مكتبة الآداب بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.

٧٥- البلاغة العالية في علم المعاني، لعبد المتعال الصعيدي- مكتبة الآداب بالقاهرة- الطبعة الثانية ١٤١١هـ.

٧٦- بلاغة العطف في القرآن الكريم، للدكتور عفت الشرقاوي- دار النهضة العربية ببيروت- ١٩٨١م.

٧٧- بلاغة الكلمة والجملة والجمل، لمنير سلطان- منشأة المعارف- الإسكندرية- الطبعة الثالثة/١٩٩٦م.

٧٨- البلاغة النبوية في أحاديث الترغيب والترهيب في الصحيحين، لعبد الله بن صالح المسعود- رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، عام ١٤٢٠هـ.

٧٩- البلاغة النبوية في أحاديث العبادات في الصحيحين، لعبد الله بن أحمد العمري- رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، عام ١٤٢٣هـ.

٨٠- البلاغة النبوية في أحاديث كتابي الفتن والاعتصام من صحيح البخاري، لنوف بنت سالم الشمري- رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، عام ١٤٢٦/١٤٢٧هـ.

٨١- بلاغة النظم في آيات التحية، للدكتور محمد بن علي الصامل- دار كنوز إشبيليا بالرياض- الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.

٨٢- البلاغة فنونها وأفنانها: علم المعاني، للدكتور فضل حسن عباس- دار الفرقان بالأردن- الطبعة الخامسة ١٤١٨هـ.

٨٣- البلاغة والاتصال، للدكتور جميل عبد المجيد- دار غريب بالقاهرة- ٢٠٠٠م.

٨٤- البلاغة والأسلوبية، للدكتور محمد عبد المطلب- مكتبة لبنان ناشرون والشركة المصرية العالمية للنشر- الطبعة الأولى ١٩٩٤م.

٨٥- بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني، مطبوع مع كتاب: الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد، لأحمد بن عبد الرحمن البنا- دار الشهاب بالقاهرة.
٨٦- بناء الجملة في الحديث النبوي الشريف في الصحيحين، للدكتور عودة خليل أبو عودة- دار البشير بعمّان- الطبعة الثانية ١٤١٤هـ.
٨٧- بهجة قلوب الأبرار وقرة عيون الأخيار في شرح جوامع الأخبار، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي- نشر الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء بالمملكة العربية السعودية- ١٤٠٥هـ.
٨٨- بهجة النفوس وتحليها بما لها وما عليها: شرح مختصر صحيح البخاري، لابن أبي جمرة- مطبعة الصدق الخيرية بمصر- الطبعة الأولى ١٣٤٨هـ.
٨٩- البيان المحمدي، للدكتور مصطفى الشكعة- الدار المصرية اللبنانية- الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
٩٠- البيان النبوي، للدكتور محمد رجب البيومي- دار الوفاء بالمنصورة- الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
٩١- البيان بلا لسان، للدكتور مهدي عرار- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
٩٢- البيان في ضوء أساليب القرآن، لعبد الفتاح لاشين- دار المعارف- القاهرة.
٩٣- البيان والتبيين، للجاحظ- تحقيق: عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي- القاهرة- الطبعة الخامسة ١٤٠٥هـ.
٩٤- تاج العروس من جواهر القاموس، لمحمد مرتضى الزبيدي- تحقيق: عبد الستار فراج وآخرين- إصدار وزارة الإعلام والمجلس الوطني للثقافة والفنون بالكويت، من ١٣٨٥-١٤٢٢هـ.
٩٥- تاريخ الأدب العربي، لعمر فروخ- دار العلم للملايين ببيروت- الطبعة الرابعة ١٩٨١م.
٩٦- تاريخ الأمم والملوك، لابن جرير الطبري- تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم- دار سويدان ببيروت.
٩٧- تاريخ علوم البلاغة والتعريف برجالها، للمراغي- شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- الطبعة الأولى/١٣٦٩هـ.
٩٨- تاريخ مدينة دمشق، لابن عساكر- تحقيق: عمر بن غرامة العمري- دار الفكر ببيروت- ١٤١٥هـ.
٩٩- تأويل مختلف الحديث، لابن قتيبة- دار الكتاب العربي- بيروت.
١٠٠- التبيان في البيان، لشرف الدين الطيبي- تحقيق: عبد الحميد هنداوي- المكتبة التجارية- مكة المكرمة.
١٠١- التبيان في علم البيان المطلع على إعجاز القرآن، لكمال الدين الزملكاني- تحقيق: أحمد مطلوب و خديجة الحديثي- مطبعة العاني- بغداد- الطبعة الأولى/١٣٨٣هـ.
١٠٢- تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع المصري- تحقيق: د.حفني محمد شرف- طبعة لجنة إحياء التراث الإسلامي- الجمهورية العربية المتحدة.
- التحرير والتنوير = تفسير التحرير والتنوير.
١٠٣- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي، للمباركفوري- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
١٠٤- التدمرية، لابن تيمية- تحقيق: محمد السعوي- مكتبة العبيكان- الرياض- الطبعة الثانية/١٤١٤هـ.
١٠٥- التذكرة الحمدونية، لابن حمدون- تحقيق: إحسان وبكر عباس- دار صادر ببيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٦م.
١٠٦- التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، للدكتور عبد الفتاح لاشين – نشر دار المريخ بالرياض.
١٠٧- التشبيه البليغ هل يرقى إلى درجة المجاز؟، للدكتور عبد العظيم المطعني- دار الأنصار ودار الرائد بالقاهرة- ١٤٠٠هـ.

١٠٨- التشبيه في الحديث الشريف، لعبد العزيز حسن خضر- رسالة ماجستير بجامعة الأزهر- كلية اللغة العربية، عام ١٤٠٠هـ.

١٠٩- التشويق في الحديث النبوي، للدكتور بسيوني فيود- مطبعة الحسين الإسلامية- الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١١٠- تصريف الأسماء، لمحمد الطنطاوي – نشر الجامعة الأزهرية – الطبعة الخامسة ١٣٧٥هـ.

١١١- تصريف الأفعال والأسماء في ضوء أساليب القرآن، لمحمد سالم محيسن- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الأولى/١٤٠٧هـ.

١١٢- التصوير البياني، للدكتور محمد أبو موسى- مكتبة وهبة بالقاهرة- الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ.

١١٣- التصوير الفني في الحديث النبوي، للدكتور محمد بن لطفي الصباغ- المكتب الإسلامي ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

١١٤- تصوير المعنى بجرس اللفظ في الحديث النبوي الشريف، للدكتور غالب محمد الشاويش- بحث بمجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض- العدد الثالث عشر، ذو القعدة ١٤١٥هـ.

١١٥- التعبير القرآني، للدكتور فاضل صالح السامرائي- دار عمار بالأردن- الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١١٦- التعريض في القرآن الكريم، للدكتور إبراهيم الخولي- دار البصائر بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

- تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم.

- تفسير البغوي = معالم التنزيل.

١١٧- تفسير التحرير والتنوير، للطاهر بن عاشور.

- تفسير الطبري = جامع البيان.

١١٨- تفسير القرآن العظيم، لابن كثير- تحقيق: سامي السلامة- دار طيبة- الرياض- الطبعة الأولى/١٤١٨هـ.

١١٩- التفسير الكبير، للفخر الرازي- دار الفكر ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠١هـ.

١٢٠- تفسير غريب ما في الصحيحين، للحميدي- تحقيق: زبيدة عبد العزيز- مكتبة السنة بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

١٢١- تقريب التدمرية، لابن عثيمين- دار الوطن- الرياض- الطبعة لأولى/١٤١٢هـ.

١٢٢- التلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرافعي الكبير، لابن حجر العسقلاني- تصحيح وتعليق: عبدالله هاشم المدني- ١٣٨٤هـ.

١٢٣- تلخيص المستدرك للذهبي- بهامش المستدرك= المستدرك للحاكم.

١٢٤- تلخيص المفتاح، للخطيب القزويني- تحقيق: عبد الحميد هنداوي– دار الكتب العلمية– بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٨هـ.

١٢٥- تهذيب اللغة، للأزهري- تحقيق: عبد السلام هارون وآخرين.

١٢٦- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للسعدي- تحقيق: عبد الرحمن اللويحق- مؤسسة الرسالة- الطبعة الأولى/١٤٢١هـ.

١٢٧- جامع البيان في تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٢هـ. ونسخة أخرى جامع البيان، لابن جرير الطبري- تحقيق: محمود شاكر وأحمد شاكر- دار المعارف- مصر.

١٢٨- الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.
١٢٩- الجانب الإعلامي في خطب الرسول ﷺ، لمحمد إبراهيم محمد إبراهيم- المكتب الإسلامي ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
١٣٠- جمع الجواهر في الملح والنوادر، تحقيق: علي محمد البجاوي- دار الجيل ببيروت- الطبعة لثانية.
١٣١- جمهرة أشعار العرب، لابن أبي الخطاب القرشي- شرح وضبط: علي فاعور- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
١٣٢- جنان الجناس، لخليل بن أيبك الصفدي- تحقيق: سمير حلبي- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٣٣- الجنى الداني في حروف المعاني، للمرادي- تحقيق: طه محسن- مطابع جامعة الموصل- ١٣٩٦هـ.
١٣٤- جوهر الكنز، لنجم الدين ابن الأثير- تحقيق: محمد زغلول سلام– منشأة المعارف– الاسكندرية.
١٣٥- حاشية الدسوقي على مختصر السعد- ضمن شروح التلخيص = شروح التلخيص.
١٣٦- حاشية السندي على سنن النسائي= سنن النسائي.
١٣٧- حاشية محمد علي الصبان على شرح الأشموني لألفية ابن مالك- دار الفكر للطباعة والنشر.
١٣٨- حاشية يس العليمي على شرح التصريح- دار الفكر- بيروت.
١٣٩- الحجة في القراءات السبع، لابن خالويه- تحقيق: د. عبد العال سالم مكرم- دار الشروق ببيروت- الطبعة الرابعة ١٤٠١هـ.
١٤٠- حدائق السحر في دقائق الشعر، لرشيد الدين الوطواط- ترجمة: د. إبراهيم الشواربي- مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ.
١٤١- الحديث النبوي (مصطلحه، بلاغته، كتبه)، للدكتور محمد بن لطفي الصباغ- المكتب الإسلامي ببيروت- الطبعة الثامنة ١٤٢٤هـ.
١٤٢- الحديث النبوي من الوجهة البلاغية، للدكتور عز الدين علي السيد – دار الطباعة المحمدية بالقاهرة.
١٤٣- الحديث النبوي وعلم النفس، للدكتور محمد عثمان نجاتي- دار الشروق بالقاهرة- الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ.
١٤٤- الحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، لسعيد بن علي القحطاني- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
١٤٥- الحماسة البصرية، لصدر الدين بن الحسن البصري- تحقيق: د.عادل سليمان جمال- مكتبة الخانجي بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ.
١٤٦- الحماسة، لأبي تمام- تحقيق: د. عبد الله عسيلان- نشر المجلس العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض- ١٤٠١هـ.
١٤٧- الحوار النبوي مع المسلمين وغير المسلمين، للدكتور سعيد إسماعيل صيني- مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
١٤٨- الحوار: آدابه وتطبيقاته في التربية الإسلامية، لخالد بن محمد المغامسي- مركز الملك عبد العزيز للحوار الوطني – الرياض – الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.
١٤٩- الحيوان، للجاحظ- تحقيق: عبد السلام محمد هارون- دار الجيل ببيروت.

١٥٠- خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي- شرح عصام شعيتو- دار مكتبة الهلال- بيروت- الطبعة الأولى/١٩٨٧م.

١٥١- خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، لعبد القادر البغدادي- تحقيق: عبد السلام هارون- مكتبة الخانجي بالقاهرة- الطبعة الرابعة ١٤١٨هـ.

١٥٢- خصائص التراكيب، لمحمد أبو موسى- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الرابعة/١٤١٦هـ.

١٥٣- خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية، لعبد العظيم المطعني- مكتبة وهبة- القاهرة- الطبعة الأولى/١٤١٣هـ.

١٥٤- الخصائص الفنية في الأدب النبوي، للدكتور محمد بن سعد الدبل- نشر عمادة البحث العلمي بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

١٥٥- خصائص القصة الإسلامية، للدكتور مأمون فريز جرار- دار المنارة بجدة- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

١٥٦- الخصائص، لابن جني- تحقيق: محمد النجار- دار الكتاب العربي ببيروت، مصورة عن نشرة دار الكتب المصرية.

١٥٧- الخطابة وإعداد الخطيب، للدكتور توفيق الواعي- دار اليقين بالمنصورة- الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

١٥٨- الخلاف التصريفي وأثره الدلالي في القرآن الكريم، لفريد بن عبد العزيز السليم- دار ابن الجوزي بالدمام- الطبعة الأولى ١٤٢٧هـ.

١٥٩- دراسات في القصة العربية الحديثة، للدكتور محمد زغلول سلام – منشأة المعارف – الإسكندرية.

١٦٠- دراسات في علم البديع، لأحمد محمد علي- مطبعة الأمانة- مصر- الطبعة الأولى/١٤٠٦هـ.

١٦١- دراسات في علم اللغة، للدكتورة فاطمة محجوب- دار النهضة العربية بالقاهرة.

١٦٢- دراسات في فقه اللغة، لصبحي الصالح- دار العلم للملايين- بيروت- الطبعة الثانية عشرة/١٩٨٩م.

١٦٣- دراسات لأسلوب القرآن الكريم، لمحمد عبد الخالق عظيمة- دار الحديث- القاهرة.

١٦٤- دراسات لسانية في الحديث النبوي، للدكتور أحمد عارف حجازي- دار فرحة بالقاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

١٦٥- دراسة الصوت اللغوي، للدكتور أحمد مختار عمر- دار عالم الكتب بالقاهرة- الطبعة الرابعة ١٤٢٧هـ.

١٦٦- دراسة عقدية لبعض الصفات التي يدعى أنها من باب المشاكلة، ليوسف السعيد- بحث في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- العدد الثاني والثلاثون- شوال ١٤٢١هـ.

١٦٧- درة الغواص في أوهام الخواص، للحريري- تحقيق: عرفات مطرجي- مؤسسة الكتب الثقافية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

١٦٨- الدرر المنتثرة في الأحاديث المشتهرة، لجلال الدين السيوطي- تحقيق: محمود الأرناؤوط ومحمد قهوجي- مكتبة دار العروبة بالكويت- الطبعة الثانية ١٤١٠هـ.

١٦٩- دعوة النبي ﷺ للأعراب، لحمود بن جابر الحارثي- دار المسلم بالرياض- الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

١٧٠- دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني- تحقيق: محمود شاكر- مكتبة الخانجي- القاهرة- الطبعة الثانية/١٤١٠هـ.

١٧١- دلائل النبوة، لأبي بكر البيهقي- تحقيق: د.عبد المعطي قلعجي- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
١٧٢- دلالات التراكيب، للدكتور محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة بالقاهرة- الطبعة الثانية ١٤٠٨هـ.
١٧٣- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان الصديقي- دار الريان للتراث بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ.
١٧٤- ديوان أبي تمام بشرح الخطيب التبريزي- تحقيق: محمد عبده عزام- دار المعارف بالقاهرة.
١٧٥- ديوان أبي نواس- دار صادر ببيروت- الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
١٧٦- ديوان الأحوص الأنصاري- تحقيق: د. سعدي ضناوي- دار صادر ببيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٨م.
١٧٧- ديوان الأخطل- شرح: كارين صادر- دار صادر ببيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٩م.
١٧٨- ديوان الأعشى- دار صادر ببيروت- ١٤١٤هـ.
١٧٩- ديوان البحتري- دار صادر ببيروت.
١٨٠- ديوان الخنساء – دار صادر ببيروت.
١٨١- ديوان المتنبي بشرحه (العرف الطيب)- شرح: ناصيف اليازجي- دار صادر ببيروت.
١٨٢- ديوان أوس بن حجر- تحقيق وشرح: د. محمد يوسف نجم- دار صادر ودار بيروت- ١٣٨٠هـ.
١٨٣- ديوان جرير- دار صادر ببيروت.
١٨٤- ديوان حسان بن ثابت الأنصاري t - دار صادر ببيروت.
١٨٥- ديوان ذي الرمة بشرح الباهلي ورواية ثعلب- تحقيق: عبد القدوس أبو صالح- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الثالثة/١٤١٤هـ.
١٨٦- ديوان لبيد بن ربيعة العامري t - دار صادر ببيروت.
١٨٧- ربيع الأبرار ونصوص الأخبار، للزمخشري- تحقيق: د.سليم النعيمي- نشر وزارة الأوقاف والشؤون الدينية بالعراق- ١٤٠٢هـ.
١٨٨- الرسالة العذراء، المنسوبة لإبراهيم بن المدبر- تحقيق: الدكتور زكي مبارك- دار سعد الدين بدمشق- الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.
١٨٩- رسالة في بيان الأسلوب الحكيم، لابن كمال باشا، تحقيق: د. محمد بن علي الصامل- طبعت مع كتاب (الأسلوب الحكيم) للمحقق= الأسلوب الحكيم.
١٩٠- الرسول العربي المربي، للدكتور عبد الحميد الهاشمي- دار الهدى بالرياض- الطبعة الثانية ١٤٠٥هـ.
١٩١- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، لشهاب الدين الآلوسي- دار الفكر ببيروت- ١٣٩٨هـ.
١٩٢- الروض الوسيع في الدليل المنيع على عدم انحصار علم البديع، للشوكاني، ضمن مجموع (الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني)- تحقيق: محمد صبحي حلاق- مكتبة الجيل الجديد بصنعاء- الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ. ونسخة أخرى بتحقيق: بن عيسى بطاهر وطاهر قحطان، في العدد الأول من المجلد الحادي عشر من مجلة (عالم المخطوطات والنوادر).
١٩٣- روضة الناظر وجنة المناظر، لموفق الدين ابن قدامة- تحقيق: عبد الكريم النملة- مكتبة الرشد- الرياض- الطبعة الثالثة/١٤١٥هـ.

١٩٤- زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن قيم الجوزية- تحقيق: شعيب وعبد القادر الأرناؤوط- مؤسسة الرسالة ببيروت- الطبعة الخامسة والعشرون ١٤١٢هـ.

١٩٥- الزاهر في معاني كلمات الناس، لأبي بكر الأنباري- تحقيق: حاتم الضامن- مؤسسة الرسالة ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

١٩٦- زهر الآداب وثمر الألباب، لأبي إسحاق الحصري القيرواني- ضبط وتحقيق: د. زكي مبارك ومحمد محيي الدين عبد الحميد- دار الجيل ببيروت- الطبعة الرابعة ١٩٧٢م.

١٩٧- زيادة الحروف وأسرارها البلاغية في القرآن الكريم، للدكتورة هيفاء عثمان فدا- دار القاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

١٩٨- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد بن يوسف الصالحي- تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

١٩٩- سر الفصاحة، لابن سنان الخفاجي- تحقيق: علي فودة- مكتبة الخانجي- القاهرة- الطبعة الثانية/١٤١٤هـ.

٢٠٠- سلسلة الأحاديث الصحيحة، لمحمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف بالرياض- ١٤١٥هـ.

٢٠١- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، لمحمد ناصر الدين الألباني- مكتبة المعارف بالرياض- الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.

٢٠٢- سنن ابن ماجة- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي- المكتبة العلمية- بيروت.

٢٠٣- سنن أبي داود- تحقيق: عزت الدعاس وعادل السيد- دار الحديث- بيروت- الطبعة الأولى/١٣٨٨هـ.

٢٠٤- سنن الترمذي- تحقيق: أحمد شاكر- مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر- الطبعة الثانية/١٣٩٨هـ.

٢٠٥- السنن الكبرى، للبيهقي- تحقيق: محمد عبد القادر عطا- دار الباز بمكة المكرمة- ١٤١٤هـ.

٢٠٦- سنن النسائي، بشرح السيوطي، وحاشية السندي- عناية: عبد الفتاح أبو غدة- مكتبة المطبوعات الإسلامية- سوريا: حلب- ١٤٠٦هـ.

٢٠٧- سيرة ابن هشام- تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد- مكتبة محمد علي صبيح وأولاده بمصر- ١٣٩١هـ.

٢٠٨- السيرة النبوية الصحيحة، للدكتور أكرم ضياء العمري- مكتبة العلوم والحكم بالمدينة النبوية- الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ.

٢٠٩- الشخصية، لريتشارد لازاروس- ترجمة: د.سيد محمد غنيم- دار الشروق بالقاهرة- الطبعة الرابعة ١٤١٤هـ.

٢١٠- شرح أحاديث من صحيح البخاري، للدكتور محمد محمد أبو موسى- مكتبة وهبة بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٢١١- شرح التصريح على التوضيح، لخالد بن عبد الله الأزهري- دار غحياء الكتب العربية بمصر.

٢١٢- شرح التلخيص، للبابرتي- تحقيق: محمد مصطفى رمضان صوفية- المنشأة العامة للنشر بليبيا- الطبعة الأولى/١٩٨٣م.

٢١٣- شرح الرضي على كافية ابن الحاجب- تحقيق: عبد العال سالم مكرم- عالم الكتب بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.

٢١٤- شرح العلامة الكفراوي على متن الآجرومية- دار الفكر للطباعة والنشر.

٢١٥- شرح الكافية البديعية، لصفي الدين الحلي- تحقيق: نسيب نشاوي– دار صادر– بيروت– الطبعة الثانية/١٤١٢هـ.

٢١٦- شرح الكرماني على صحيح البخاري (الكواكب الدراري)- دار إحياء التراث العربي ببيروت- الطبعة الثانية ١٤٠١هـ.

٢١٧- شرح الكوكب المنير، لابن النجار- تحقيق: محمد الزحيلي ونزيه حماد- مكتبة العبيكان- الرياض- ١٤١٨هـ.

٢١٨- شرح المعلقات السبع، للحسين بن أحمد الزوزني- مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر- الطبعة الثالثة ١٣٩٧هـ.

٢١٩- شرح صحيح البخاري، لابن بطال، لأبي الحسن ابن بطال- تحقيق: ياسر إبراهيم- مكتبة الرشد بالرياض- الطبعة الثانية ١٤٢١هـ.

٢٢٠- شرح صحيح مسلم، للنووي- دار الفكر ببيروت- الطبعة الثانية ١٣٩٢هـ.

٢٢١- شرح عقود الجمان، للسيوطي- دار الفكر للطباعة والنشر.

٢٢٢- شرح عقود الجمان، للمرشدي- الطبعة الثانية ١٣٧٤هـ.

- شروح التلخيص- دار السرور- بيروت.

٢٢٣- الشريعة، لأبي بكر الآجري- تحقيق: عبد الله الدميجي- دار الوطن- الرياض- الطبعة الثانية/١٤٢٠هـ.

٢٢٤- الشعر والشعراء، لابن قتيبة- تحقيق: أحمد شاكر- دار المعارف بمصر.

٢٢٥- الشفا بتعريف حقوق المصطفى r ، للقاضي عياض- عناية: هيثم الطعيمي ونجيب ماجدي- المكتبة العصرية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٢٢٦- الصاحبي، لابن فارس- تحقيق: أحمد صقر- مطبعة عيسى البابي الحلبي- القاهرة.

٢٢٧- صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، لأبي العباس القلقشندي- الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٤٠٥هـ.

٢٢٨- الصبغ البديعي، لأحمد موسى- دار الكتاب العربي- القاهرة- ١٣٨٨هـ.

٢٢٩- الصحاح، للجوهري- تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار- دار العلم للملايين ببيروت – الطبعة الرابعة ١٩٩٩م.

٢٣٠- صحيح البخاري مع فتح الباري = فتح الباري.

٢٣١- صحيح الجامع الصغير وزيادته، للألباني- المكتب الإسلامي- بيروت- الطبعة الثالثة/١٤٠٨هـ.

٢٣٢- صحيح سنن ابن ماجة، للألباني- مكتب التربية العربي لدول الخليج- الرياض- الطبعة الثالثة/١٤٠٨هـ.

٢٣٣- صحيح سنن أبي داود، للألباني- مكتب التربية العربي لدول الخليج- الرياض- الطبعة الأولى/١٤٠٩هـ.

٢٣٤- صحيح سنن الترمذي، للألباني- مكتب التربية العربي لدول الخليج- الرياض- الطبعة الأولى/١٤٠٨هـ.

٢٣٥- صحيح سنن النسائي، للألباني- نشر مكتب التربية العربي لدول الخليج- الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٢٣٦- صحيح مسلم- تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي- المكتبة الإسلامية- تركيا- الطبعة الأولى/١٣٧٤هـ.

٢٣٧- صفات الله U الواردة في الكتاب والسنة، لعلوي بن عبد القادر السقاف- دار الهجرة- الثقبة- الطبعة الأولى/١٤١٤هـ.

٢٣٨- الصورة البيانية في الحديث النبوي الشريف، للدكتور فالح حمد أحمد الحمداني – مؤسسة الوراق بعمّان – الطبعة الأولى ٢٠٠١.

٢٣٩- الصورة الفنية في الحديث النبوي، للدكتور أحمد ياسوف- دار المكتبي بدمشق- الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.
٢٤٠- ضعيف سنن أبي داود، للألباني- المكتب الإسلامي ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١١هـ.
٢٤١- ضعيف سنن الترمذي، للألباني- المكتب الإسلامي ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٢٤٢- الطبقات الكبرى، ابن سعد- دار صادر ببيروت- ١٤٠٥هـ.
٢٤٣- طراز الحلة وشفاء الغلة، لشهاب الدين الرعيني- تحقيق: رجاء السيد الجوهري- مؤسسة الثقافة الجامعية- الإسكندرية.
٢٤٤- الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، ليحيى بن حمزة العلوي- مراجعة وضبط محمد عبد السلام شاهين- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٥هـ.
٢٤٥- طرق التعبير الأدبي: دراسة بلاغية ورؤية نقدية، للدكتور محمود شاكر القطان- دار غحياء التراث الإسلامي بالمدينة النبوية- الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.
٢٤٦- عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، لبهاء الدين السبكي- ضمن شروح التلخيص- دار السرور- بيروت.
٢٤٧- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، لابن الجوزي- ضبط: خليل الميس- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
٢٤٨- علم البديع، لبسيوني فيود- مطبعة السعادة- مصر- الطبعة الأولى/١٤٠٨هـ.
٢٤٩- علم البيان، للدكتور بدوي طبانة- مكتبة الأنجلو المصرية- الطبعة الرابعة
٢٥٠- علم المعاني، لبسيوني فيود- مكتبة وهبة- القاهرة.
٢٥١- علم المعاني، لدرويش الجندي- دار نهضة مصر.
٢٥٢- علم نفس المراحل العمرية، للدكتور عمر المفدى- دار الزهراء بالرياض- الطبعة الأولى ١٤٢١هـ.
٢٥٣- علم نفس النمو، للدكتور حامد زهران- دار عالم الكتب بالقاهرة- الطبعة الرابعة.
٢٥٤- عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني- دار إحياء التراث العربي ببيروت.
٢٥٥- العمدة في محاسن اشعر وآدابه، لابن رشيق القيرواني- تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد- دار الجيل ببيروت- الطبعة الخامسة ١٤٠١هـ.
٢٥٦- عون المعبود شرح سنن أبي داود، للعظيم أبادي- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الثانية ١٤١٥هـ.
٢٥٧- عيار الشعر، لابن طباطبا- تحقيق: الدكتور عبد العزيز المانع- مكتبة الخانجي بالقاهرة.
٢٥٨- العين، للخليل بن أحمد- تحقيق: المخزومي والسامرائي- منشورات وزارة الثقافة والإعلام- العراق- ١٩٨٠م.
٢٥٩- غذاء الألباب لشرح منظومة الآداب، لمحمد السفاريني الحنبلي- نشر مؤسسة قرطبة مصورة عن نشرة مطبعة الحكومة بمكة المكرمة ١٣٩٣هـ.
٢٦٠- غريب الحديث، لابن قتيبة- تحقيق: د. عبد الله الجبوري- وزارة الأوقاف بالجمهورية العراقية- مطبعة العاني ببغداد- الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ.
٢٦١- غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام- دار الكتاب العربي ببيروت- ١٣٩٦هـ، مصورة عن الطبعة الأولى لدائرة المعارف العثمانية بالهند.

٢٦٢- غريب الحديث، للخطابي- تحقيق: عبد الكريم العزباوي- مركز البحث العلمي وإحياء التـراث الإسـلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة- ١٤٠٢هـ.

٢٦٣- غصن البان المورق بمحسنات البيان، لأبي الطيب صديق حسن القنوجي- دار الكتب العلمية- الطبعـة الأولى ١٤٠٧هـ.

٢٦٤- الفائق في غريب الحديث، للزمخشري- تحقيق: علي البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم- دار المعرفة ببيروت- طبعة مصورة عن الطبعة الثانية لدار عيسى البابي الحلبي وشركاه.

٢٦٥- فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن رجب الحنبلي- تحقيق: طارق بن عـوض الله محمـد- دار ابـن الجوزي بالدمام- الطبعة الثانية ١٤٢٢هـ.

٢٦٦- فتح الباري، لابن حجر العسقلاني- تحقيق: ابن باز، وترقيم عبد الباقي- دار المعرفة- بيروت.

٢٦٧- الفروق الفردية والقياس النفسي، للدكتور خيري المغازي عجاج- زهراء الشـرق بالقـاهرة- الطبعـة الأولى ١٩٩٨م.

٢٦٨- فقه السيرة، لمحمد الغزالي- تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني- دار إحياء التراث العـربي- بـيروت- الطبعـة السابعة/١٩٧٦م.

٢٦٩- فن الخطابة، للدكتور احمد الحوفي- دار نهضة مصر.

٢٧٠- فن القصة، للدكتور محمد يوسف نجم- دار صادر ببيروت- الطبعةالأولى ١٩٩٦م.

٢٧١- الفوائد الغياثية، لعضد الدين الإيجي- تحقيق: عاشق حسين– دار الكتـاب المصـري– القـاهرة– الطبعـة الأولى/١٤١٢هـ.

٢٧٢- في تاريخ الأدب الجاهلي، للدكتور علي الجندي- دار غريب بالقاهرة- ١٩٩٨م.

٢٧٣- في ظلال القرآن، لسيد قطب- دار الشروق ببيروت- الطبعة التاسعة ١٤٠٠هـ.

٢٧٤- فيض القدير شرح الجامع الصغير، للمناوي- دار الحديث بالقاهرة.

٢٧٥- القاموس المحيط، للفيروزأبادي- دار إحياء التراث العربي- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٢هـ.

٢٧٦- القسم النبوي في صحيح البخاري، لمعوض محمد الخولي- رسالة ماجستير بجامعة الأزهر- كلية اللغة العربيـة بالقاهرة، عام ١٤٢٠هـ.

٢٧٧- قصة الفيلسوف الكندي وأبي العباس حول أضرب الخبر، للدكتور هارون المهدي ميغا- بحث بمجلة العـرب- ج ١و٢، س٤٣، رجب وشعبان ١٤٢٨هـ.

٢٧٨- القصص في الحديث النبوي، للدكتور محمد بن حسن الزير- دار المدني بجدة- الطبعة الثالثة ١٤٠٥هـ.

٢٧٩- قضية الفصل والوصل بين المفردات، للدكتور محمد بن علي الصامل- دار كنوز إشبيليا بالريـاض- الطبعـة الأولى ١٤٢٨هـ.

٢٨٠- قواعد الشعر، لأبي العباس ثعلب- تحقيق: رمضان عبد التواب- مكتبة الخانجي بالقـاهرة- الطبعـة الثانيـة ١٩٩٥م.

٢٨١- القول البديع في علم البديع، لمرعي بن يوسف الحنبلي- تحقيق: د. محمد بن علي الصامل- دار كنوز إشـبيليا بالرياض- الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ.

٢٨٢- الكاشف عن حقائق السنن، للطيبي- تحقيق: المفتي عبد الغفار وآخرين- إدارة القرآن والعلوم الإسلامية- باكستان- الطبعة الثانية/١٤١٧هـ.

٢٨٣- الكامل، للمبرد- تحقيق: محمد الدالي- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى/١٤٠٦هـ.

٢٨٤- كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب U، لابن خزيمة- تحقيق: عبد العزيز الشهوان- مكتبة الرشد- الرياض- الطبعة السادسة/١٤١٨هـ.

٢٨٥- كتاب الصناعتين، لأبي هلال العسكري- تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم- دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٣٧١هـ.

٢٨٦- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار، لابن أبي شيبة- تحقيق: كمال الحوت- مكتبة الرشد بالرياض- الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٨٧- كتاب سيبويه- تحقيق: عبد السلام هارون- عالم الكتب- بيروت- الطبعة الثالثة/١٤٠٣هـ.

٢٨٨- الكشاف، للزمخشري- وبحاشيته: الانتصاف لابن المنير- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٥هـ.

٢٨٩- كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل العجلوني- تصحيح وتعليق: أحمد القلاش- مكتبة التراث الإسلامي بحلب.

٢٩٠- الكشف والتنبيه على الوصف والتشبيه، لصلاح الدين الصفدي- تحقيق: هلال ناجي والحسين- من إصدارات مجلة الحكمة- بريطانيا- الطبعة الأولى/١٤٢٠هـ.

٢٩١- كلام في فن المعاني والبيان، للشوكاني، ضمن مجموع (الفتح الرباني من فتاوى الإمام الشوكاني)- تحقيق: محمد صبحي حلاق- مكتبة الجيل الجديد بصنعاء- الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ.

٢٩٢- الكناية في الحديث الشريف، لمحمد محمد حجازي- رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة، عام ١٤٠٧هـ.

٢٩٣- الكناية، للدكتور محمد جابر فياض- دار المنارة بجدة- الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ.

٢٩٤- لباب الآداب، لأبي منصور الثعالبي- تحقيق: د.قحطان رشيد صالح- دار الشؤون الثقافية العامة ببغداد- ١٩٨٨م.

٢٩٥- لسان العرب، لابن منظور- دار صادر- بيروت.

٢٩٦- اللغة واختلاف الجنسين، للدكتور أحمد مختار عمر- دار عالم الكتب بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.

٢٩٧- ما تحت الأقنعة، للدكتور محمد بن عبد الله الصغير – عقان الإعلامية بالرياض- الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٢٩٨- المثل السائر، لضياء الدين ابن الأثير- تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة– دار الرفاعي– الرياض– الطبعة الثانية/١٤٠٣هـ.

٢٩٩- المجازات النبوية، للشريف الرضي- تحقيق: د. طه الزيني- مؤسسة الحلبي وشركاه بالقاهرة- ١٣٨٧هـ.

٣٠٠- مجالس ثعلب، لأبي العباس ثعلب- تحقيق: عبد السلام هارون- دار المعارف بالقاهرة- الطبعة الرابعة ١٤٠٠هـ.

٣٠١- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، للهيثمي- دار الكتاب العربي- بيروت- الطبعة الثالثة/١٤٠٢هـ.

٣٠٢- مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية- جمع عبد الرحمن بن قاسم- طبعة مجمع الملك فهد للمصحف الشريف- المدينة النبوية- ١٤١٦هـ.

٣٠٣- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية- تحقيق: المجلس العلمي بفاس- المغرب- ١٣٩٥هـ.

٣٠٤- المحسنات البديعية في الصحيحين، لهكزيمان ناصر- رسالة ماجستير بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- كلية اللغة العربية، عام ١٤٢٤/١٤٢٥هـ.

٣٠٥- المحكم والمحيط الأعظم، لابن سيده- تحقيق: مصطفى السقا وآخرين- نشر معهد المخطوطات العربية بالقاهرة- الطبعة الثانية ١٤٢٤هـ.

٣٠٦- المحلى، لابن حزم الظاهري- دار الآفاق الجديدة ببيروت.

٣٠٧- المحيط في اللغة، للصاحب بن عباد- تحقيق: محمد حسن آل ياسين- دار عالم الكتب ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٤هـ.

٣٠٨- المختصر على تلخيص المفتاح، لسعد الدين التفتازاني- المطبعة الخيرية بمصر- الطبعة الأولى ١٣٤٠هـ.

٣٠٩- المختصر في أصوات اللغة العربية، للدكتور محمد حسن جبل- مكتبة الآداب بالقاهرة- الطبعة الرابعة ١٤٢٧هـ.

٣١٠- المخصص، لابن سيده — دار إحياء التراث العربي ببيروت — الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٣١١- المدخل إلى دراسة البلاغة، للدكتور فتحي فريد- مكتبة النهضة المصرية بالقاهرة- ١٩٨٧م.

٣١٢- المرأة المسلمة (وليس الذكر كالأنثى)، لوهبي سليمان غاوجي- مؤسسة الرسالة ببيروت ودار القلم بدمشق- ١٤٠٨هـ.

٣١٣- مراعاة أحوال المخاطبين في ضوء الكتاب والسنة وسير الصالحين، للدكتور فضل إلهي- إدارة ترجمان الإسلام بباكستان- الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ.

٣١٤- مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لعلي القاري- تحقيق: جمال عيتاني- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ.

٣١٥- المزهر في علوم اللغة، للسيوطي- تحقيق: محمد جاد المولى وآخرين- دار إحياء الكتب العربية- مصر.

٣١٦- مسالك العطف بين الإنشاء والخبر، للدكتور محمود توفيق محمد سعد- مطبعة الأمانة بمصر- الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣١٧- المستدرك على الصحيحين، للحافظ أبي عبدالله الحاكم- دار المعرفة- بيروت.

٣١٨- المستصفى في علم الأصول، لأبي حامد الغزالي- تحقيق: محمد عبد الشافي- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٣هـ.

٣١٩- المستطرف في كل فن مستظرف، لشهاب الدين الأبشيهي- مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر- الطبعة الأخيرة ١٣٧١هـ.

٣٢٠- مسند أبي داود الطيالسي- دار المعرفة ببيروت.

٣٢١- مسند أبي يعلى الموصلي- تحقيق: حسين سليم أسد- دار الثقافة العربية بدمشق- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.

٣٢٢- مسند الإمام أحمد بن حنبل- دار صادر-بيروت. وطبعة أخرى بتحقيق: أحمد شاكر- دار المعارف- مصر. وطبعة ثالثة بتحقيق: شعيب الأرناؤوط وآخرين، وإشراف الدكتور عبد الله التركي- مؤسسة الرسالة ببيروت.

٣٢٣- مشارق الأنوار على صحاح الآثار، للقاضي عياض- المكتبة العتيقة بتونس ودار التراث بالقاهرة.

٣٢٤- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، لأبي العباس الفيومي- عناية: عادل مرشد.

٣٢٥- المصباح في تلخيص المفتاح، لبدر الدين بن مالك- تحقيق: حسني عبد الجليل يوسف- مكتبة الآداب- مصر- الطبعة الأولى/١٤٠٩هـ.

٣٢٦- المصنف، لعبد الرزاق الصنعاني- تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي- المكتب الإسلامي ببيروت- الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ.

٣٢٧- المطول في شرح التلخيص، لسعد الدين التفتازاني- نشر المكتبة الأزهرية للتراث مصورة عن طبعة مطبعة أحمد كامل/١٣٣٠هـ.

٣٢٨- معالم التنزيل، للبغوي- تحقيق: محمد النمر وآخرين- دار طيبة- الرياض- ١٤٠٩هـ.

٣٢٩- معاني الأبنية في العربية، للدكتور فاضل بن صالح السامرائي – دار عمار بعمّان – الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.

٣٣٠- معاني القرآن، لأبي زكريا الفراء- تحقيق: محمد النجار وأحمد نجاتي- دار الفكر ببيروت- الطبعة الثالثة ١٤٠٣هـ.

٣٣١- معاني القرآن، لأبي إسحق الزجاج- تحقيق: د.عبدالجليل عبده شلبي- عالم الكتب ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ.

٣٣٢- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، للعباسي- تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد- مصورة عن طبعة المكتبة التجارية الكبرى- مصر- ١٣٦٧هـ.

٣٣٣- معجم البلاغة العربية، لبدوي طبانة- دار المنارة- جدة- الطبعة الرابعة/١٤١٨هـ.

٣٣٤- معجم البلدان، لياقوت الحموي- دار الفكر ببيروت، مصورة عن طبعة دار صادر.

٣٣٥- معجم التشبيهات النبوية في صحيح البخاري، للدكتور محمد محمد يوسف- دار البيان بالقاهرة- ١٩٩٥م.

٣٣٦- معجم القراءات القرآنية، للدكتور عبد العال سالم مكرم والدكتور أحمد مختار عمر- دار عالم الكتب بالقاهرة- الطبعة الثالثة ١٩٩٧م.

٣٣٧- معجم المؤلفين، لعمر كحالة- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٤هـ.

٣٣٨- معجم المصطلحات البلاغية، للدكتور أحمد مطلوب- مطبوعات المجمع العلمي العراقي- ١٤٠٣هـ.

٣٣٩- معجم المصطلحات النحوية والصرفية، لمحمد اللبدي- مؤسسة الرسالة- بيروت- الطبعة الثالثة/١٤٠٩هـ.

٣٤٠- المعجم الوسيط- مجمع اللغة العربية- مصر.

٣٤١- معرفة الصحابة، لأبي نعيم الأصبهاني- تحقيق: عادل العزازي- دار الوطن بالرياض- الطبعة الأولى ١٤١٩هـ.

٣٤٢- معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري- شرح ومراجعة: سعيد اللحام- دار ومكتبة الهلال ببيروت- ٢٠٠٣م.

٣٤٣- المعنى في البلاغة العربية، للدكتور حسن طبل- دار الفكر العربي بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤١٨هـ.

٣٤٤- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، لابن هشام- تحقيق: مازن المبارك وحمد الله- دار الفكر- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٢هـ.

٣٤٥- المغني عن الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، لزين الدين العراقي- بحاشية: إحياء علوم الدين للغزالي- تحقيق: سيد عمران- دار الحديث- القاهرة-الطبعة الأولى/١٤١٢هـ.
٣٤٦- المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، لزين الدين العراقي- طبع بذيل إحياء علوم الدين= إحياء علوم الدين.
- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير للفخر الرازي
٣٤٧- مفتاح العلوم– لسراج الدين السكاكي- تحقيق: نعيم زرزور– دار الكتب العلمية– بيروت– الطبعة الثانية/١٤٠٧هـ.
٣٤٨- مفتاح تلخيص المفتاح، لشمس الدين الخطيبي الخلخالي- تحقيق: د. هاشم محمد محمود- المكتبة الأزهرية للتراث بالقاهرة- الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
٣٤٩- مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني- تحقيق: صفوان داوودي- دار القلم- دمشق- الطبعة الأولى/١٤١٢هـ.
٣٥٠- المفصل في صنعة الإعراب، للزمخشري- تحقيق: محمد صالح قدارة- دار عمار بالأردن- الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
٣٥١- المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس القرطبي- تحقيق: محيي الدين مستو وآخرين- دار ابن كثير بدمشق- الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ.
٣٥٢- المقاصد الحسنة في بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، لشمس الدين السخاوي- تحقيق: محمد عثمان الخشت- دار الكتاب العربي ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٣٥٣- مقاييس البلاغة بين الأدباء والعلماء، للدكتور حامد صالح الربيعي- نشر معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة- ١٤١٦هـ.
٣٥٤- مقاييس اللغة، لابن فارس- تحقيق: عبد السلام هارون- دار الجيل- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١١هـ.
٣٥٥- المقتضب، للمبرد- تحقيق: محمد عبد الخالق عظيمة- عالم الكتب ببيروت- مصورة عن طبعة لجنة التراث الإسلامي بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر.
٣٥٦- مقتضى الحال بين البلاغة القديمة والنقد الحديث، للدكتور إبراهيم محمد الخولي- دار البصائر بالقاهرة- الطبعة الأولى ١٤٢٨هـ.
٣٥٧- مقتضى الحال في الأسلوب القرآني، للطلحاوي محمد عمر- رسالة ماجستير بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- قسم البلاغة والنقد ومنهج الأدب الإسلامي، عام ١٤٠٧هـ.
٣٥٨- مقدمة ابن خلدون- تصحيح السيد المندوه- مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٤هـ.
٣٥٩- مقدمة التفسير، لجمال الدين ابن النقيب- تحقيق: زكريا سعيد علي– مكتبة الخانجي– القاهرة– الطبعة الأولى/١٤١٥هـ.
٣٦٠- ملامح بلاغية لجواب الاستفهام في الحديث النبوي، للدكتور عبد الرحيم ثاني- بحث في مجلة العرب- ج١١ و١٢ س٤١، الجماديان ١٤٢٧هـ.
٣٦١- من أساليب التعبير القرآني، للدكتور طالب محمد الزوبعي- دار النهضة العربية ببيروت- الطبعة الأولى ١٩٩٦م.

٣٦٢- من أساليب الرسول r في التربية، لنجيب العامر- مكتبة البشرى الإسلامية بالكويت- الطبعة الأولى ١٤١٠هـ.
٣٦٣- من أسرار اللغة، لإبراهيم أنيس- مكتبة الأنجلو المصرية- الطبعة السابعة/١٩٨٥م.
٣٦٤- من بلاغة الإنشاء غير الطلبي في البيان النبوي، لوفاء عبد الموجود عطية- رسالة ماجستير بجامعة الأزهر- كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات، عام ١٤٢١هـ.
٣٦٥- من بلاغة الحديث الشريف، للدكتور عبد الفتاح لاشين- شركة مكتبات عكاظ بالسعودية- الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.
٣٦٦- من بلاغة القرآن، لأحمد بدوي- دار نهضة مصر- القاهرة.
٣٦٧- من بلاغة النبي r في بيانه عن المرأة، لسعيد أحمد جمعة- رسالة دكتوراه بجامعة الأزهر- كلية اللغة العربية بالقاهرة، عام ١٤١٦هـ.
٣٦٨- من بلاغة النظم القرآني، لبسيوني فيود- مطبعة الحسين الإسلامية- مصر- الطبعة الأولى/١٤١٣هـ.
٣٦٩- المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لأبي الفرج ابن الجوزي- تحقيق: محمد ومصطفى عطا- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
٣٧٠- منهاج البلغاء وسراج الأدباء، لحازم القرطاجني- تحقيق: محمد الحبيب ابن خوجة- دار الكتب الشرقية.
٣٧١- المنهاج النبوي في دعوة الشباب، لسليمان بن قاسم العيد- دار العاصمة بالرياض- الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.
٣٧٢- منهج التربية الإسلامية، لمحمد قطب- دار الشروق ببيروت- الطبعة السابعة ١٤٠٣هـ.
٣٧٣- منهج عبد القاهر الجرجاني في تعامله مع البديع، للدكتور عبد العزيز العمار- بحث بحولية كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بالقاهرة- العدد: ٢٤- ١٤٢٧هـ.
٣٧٤- مواهب الفتاح، لابن يعقوب المغربي- ضمن شروح التلخيص = شروح التلخيص.
٣٧٥- موجز البلاغة، لمحمد الطاهر ابن عاشور- دار أضواء السلف بالرياض- الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ.
٣٧٦- النحو الوافي، لعباس حسن- دار المعارف- مصر- الطبعة الثالثة عشرة.
٣٧٧- نحو مذهب إسلامي في الأدب والنقد، للدكتور عبد الرحمن رأفت الباشا- دار البردي للنشر بالرياض.
٣٧٨- نزهة الخاطر العاطر شرح روضة الناظر، لابن بدران الدمشقي- مكتبة المعارف بالرياض.
٣٧٩- نسيم الرياض في شرح شفا القاضي عياض، لشهاب الدين الخفاجي- دار الكتاب العربي ببيروت.
٣٨٠- نصب الراية لأحاديث الهداية، لجمال الدين الزيلعي- دار الحديث بالقاهرة، مصورة عن طبعة المجلس العلمي بالهند.
٣٨١- نضرة الإغريض في نصرة القريض، للمظفر العلوي- تحقيق: دة. نهى الحسن- مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق- الطبعة الثانية ١٤١٦هـ.
٣٨٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، للبقاعي- تخريج عبد الرزاق المهدي- دار الكتب العلمية- بيروت- الطبعة الأولى/١٤١٥هـ.
٣٨٣- النظم القرآني في آيات الجهاد، لناصر الخنين- مكتبة التوبة- الرياض- الطبعة الأولى/١٤١٦هـ.
٣٨٤- نقد الشعر، لقدامة بن جعفر- تحقيق: محمد خفاجي- مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة- الطبعة الأولى/١٣٩٨هـ.

٣٨٥- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز– للفخر الرازي- تحقيق: بكري شيخ أمين- دار العلم للملايين– بيروت– الطبعة الأولى/١٩٨٥م.

٣٨٦- النهاية في غريب الحديث والأثر، لمجد الدين ابن الأثير- تحقيق: محمود الطناحي والزواوي- أنصار السنة المحمدية- باكستان.

٣٨٧- همع الهوامع شرح جمع الجوامع، للسيوطي- عناية محمد بدر الدين النعساني- دار المعرفة- بيروت.

٣٨٨- وصايا الآباء للأولاد في النثر العربي حتى نهاية القرن الرابع، رسالة دكتوراه لم تنشر، للدكتور عبد العزيز بن عبد الله المقبل- قسم الأدب بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية- ١٤٢٥هـ.

٣٨٩- الوصف المشتق في القرآن، لعبد الله الدايل- مكتبة التوبة- الرياض- الطبعة الأولى/١٤١٧هـ.

٣٩٠- وليس الذكر كالأنثى، لمحمد عثمان الخشت- مكتبة القرآن- ١٤٠٥هـ.

٣٩١- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، لأبي منصور الثعالبي- تحقيق: مفيد قميحة- دار الكتب العلمية ببيروت- الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.

فهرس الموضوعات

والحمد لله رب العالمين